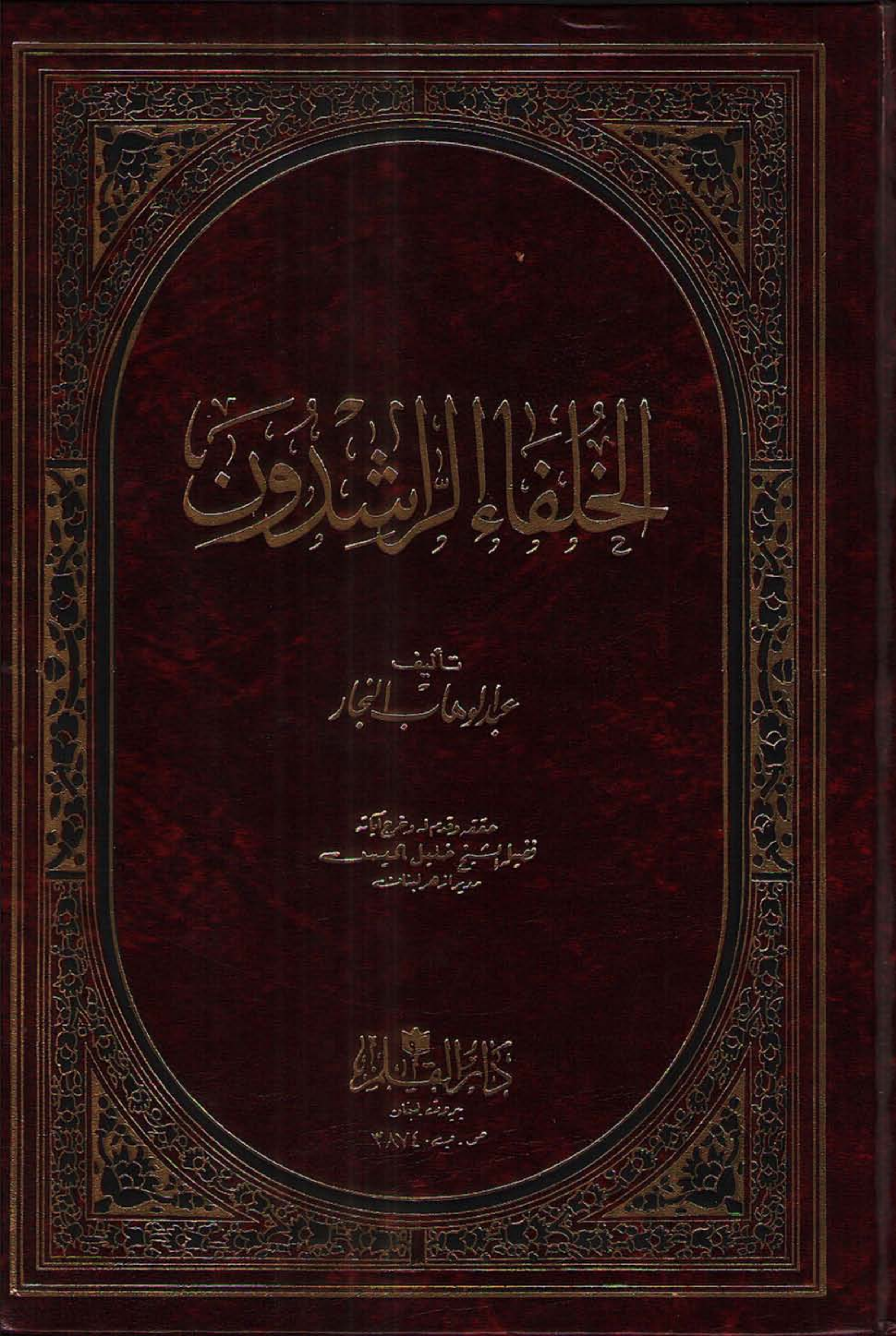
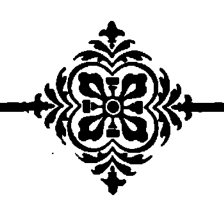


الخلفاء الراشدون
تأليف
عبد الوهاب النجار
حققه وقدم له وخرج آياته
فضيلة الشيخ خليل الميس
مدير أزهر لبنان
دار القلم
بيروت - لبنان
ص. ب. ٣٨٧٤٠

الخلفاء الراشدون



تأليف

عبد الوهاب النجار

حققه وقدم له وخرج آياته

فضيلة الشيخ خليل الميس

مدير أزهر لبنان





دار القلم

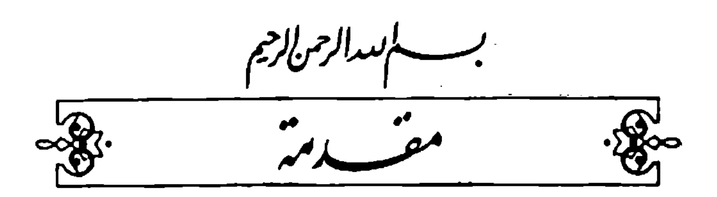
ص.ب: ٣٨٧٤

بيروت - لبنان



الطبعة الرابعة

١٤١٤ هـ — ١٩٩٣ م



الحمد لله والصلاة والسلام على محمد رسول الله وعلى آله وصحبه الذين خلفوه بإحسان وبعد.

فإن الخلفاء الراشدين الأربعة. أبابكر وعمر وعثمان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم تعاقبوا على الخلافة وكان لكل منهم دوره المميز في فترة خلافته..

فأبو بكر حسم الأمر في حرب الردّة...

وعمر كانت له الفتوحات على الأرض في كل اتجاه...

وعثمان جامع القرآن على حرف واحد.

وعلي واجه الإنقسامات الداخلية بالسيف والحجة...

والقارىء لتاريخ هؤلاء الصحابة الكرام بدهشة هذا المد المستمر على الأرض من خلال الفتوحات ولم يكن إرثهم لخلافة رسول الله ﷺ مجرد تسليم وتسلم لزمام المسؤلية ولكنهم كانوا القاعلين مع رسول الله في المواقف كلها فأبو بكر صاحب هجرته.. وعمر بن الخطاب مستجاب دعوته، وعثمان المنجد بما له للرسول عند شدته.. وعلي السابق إلى الإسلام في صباه والناشيء في كنف الرسول وزوج ابنته..

كلهم خلف الرسول في قيادة الأمة والفتح الإسلامي وليست قيادة العرب بالأمر السهل فليسوا جميعاً صحابة ليكون شأنهم السمع والطاعة.. وبالعرب

هؤلاء كان الفتح الإسلامي العظيم. . فإذا قرأت تاريخ الفتح وقع في خاطرك أنهم قادة جيوش لا تعرف الراحة. .

وإذا أطلعت على علمهم تبادر لك أنهم العلماء لم يغادروا حلق العلم في الفتوى والتدريس والقضاء.

وإذا وقفت على محنة كل منهم وقع في خاطرك أن بلية واحدة تكفي لأن تقعد المرء عن الحراك، ومن حيث أطللت على شخصية كل منهم تراءى لك أنه أمة في رجل.

وعرف المسلمون الخلافة في غيرهم ولكنها كانت أقرب إلى الملك منها إلى الخلافة ولذلك إذا أطلقت كلمة الخلافة إنما تنصرف إليهم وإذا تجاوزتهم إنما تعبر إلى الخليفة الأموي العربي الخامس عمر بن عبد العزيز، الذي أعاد الحق إلى نصابه واستقام الأمر في أيامه وإن كان ذلك قد غاظ حساده وأعداءه فسقوه السمّ ومضى شهيداً رضي اللّه عنه.

وإذا تأملنا نهاية هؤلاء الخلفاء وجدناها عجيبة . . فالثلاثة بعد أبي بكر شهداء. . عمر قتله المجوس. . وعثمان وعلي اغتالتهما يد الفتنة من الداخل فكانوا رضي اللّه عنهم شهداء الإسلام بصرف النظر عن اليد التي امتدت حقداً أو تأويلاً للإصلاح ولكنها في النهاية كانت يد القتل والفساد حيث اغتالت في كل منهم منهجاً في الإسلام ونهجاً في الدعوة وأسلوباً في الجهاد ونمطاً في الحكم ومذهباً في الفقه وأمة في رجل. . واستمر القتل والقتال في المجتمع الإسلامي. . من خلال معارك الخوارج والجمل وغيرها ولكن متانة هذه الأمة لم تنل منها الجراح إلّا نزف دم واستعصت على الاغتيال بالجملة واستمرت حتى أيامنا وقد ورثت رسالة مع الجراح ودينا مع الخلاف والاختلاف، ولا يزال أعداء الإسلام يتمادون في غيهم للنيل من وحدة هذه الأمة وتشويه تاريخها والسعي الدؤوب في تفتيت وحدتها وكان لا بد من العودة إلى مصدر القوة في وحدة الأمة أنه بعثة الرسول الكريم، ثم نهج الخلفاء الراشدين حيث واصلوا المسيرة على

الأرض في الفتوحات.. وفي الفكر من خلال الاجتهاد.. فكان اجتهادهم لا يقل أهمية عن جهادهم وكلاهما خير وبركة لهذه الأمة..

واليوم حيث تجتاز أمتنا محنة ولا أشد بعد أن غابت شمس الخلافة.. ونزل بساحتنا ما نزل من شؤم ما صنع المسهمون في إسقاط الخلافة حيث تمكن العدو من اغتصاب فلسطين ولا يزال يمضي سعياً في الخديعة والدس لينال من وحدتنا على الرغم من تعدد دولنا.. فكان لا بد من العودة إلى تاريخنا في ذلك تاريخ الخلفاء الراشدين لتعمل أقلام الباحثين فيه لتقيح العقول ولتلج الكلمة إلى القلوب ونعود بالأمة إلى سابق مجدها وعزها وليس ذلك على الله بعزيز..

ومن الوفاء لتاريخنا أن نقرأه وحتى نقرأه لا بد من كتابته بأسلوب يفهمه قارىء اليوم ومن خلال الكتابة نوجه القارىء الكريم إلى الهدف المنشود حيث يدخل التاريخ في فكر وقلب المسلم وعندها يتوثب هذا القارىء لإعادة صياغة واقعة بما ينسجم مع تاريخه حيث يتخلق بأخلاق هؤلاء السلف الكرام وينهج نهجهم ليبلغ ما بلغوه بعون الله تعالى.

ودار القلم لصاحبها السيد أحمد أكرم محمد أنيس الطباع حفظه الله، إذ تعيد نشر هذا الكتاب سعياً منها لتوفيره بين أيدي القراء تكون مشكورة ومأجورة إن شاء الله تعالى والله من وراء القصد.

المدير أزهر لبنان

الشيخ خليل الميس

بسم الله الرحمن الرحيم

الخلافة في الإسلام

يقول علماء الاجتماع العمراني إنه ما اجتمع عدد من الأحياء، سواء كان هذا العدد من الحيوان أو من بني الإنسان، إلّا اتخذ له من بين أفراده رئيساً يذعن الجمع لإرادته ويهتدي بهديه، ويبذل كل فرد نفسه في الدفاع عنه والمكافحة دونه. واتخاذ الكائنات الحية رئيساً منها أمر طبيعي تنساق إليه بمقتضى الفطرة.

قائد الجماعة من بني الإنسان إذا كان قد تمكن له الأمر وتوطدت سلطته على الجماعة، وأوتي من النفوذ ما يحقق له السيادة عليهم، فنفذ أمره فيهم بمقتضى القهر والغلبة اللذين هما من آثار القوة الغضبية كان ملكاً مستبداً وغلب على أحكامه الجور والإجحاف بمن تحت يده في أحوال دنياهم، لما يستتبعه شأن القهر والغلبة من حمل القبيل على ما ليس في طوقهم من أغراضه ومشتهياته. ومن البين أن نشوة الملك وسورة التسلط تحملان صاحبهما على الأشر في أغلب الأحوال.

فإذا كان الملك يرجع في أحكامه إلى قواعد يضعها العقلاء ويلزمون الكافة انتهاجها والسير على مقتضاها كان ذلك أرجى لاستقامة الأمر واجتماع الألفة في الجملة، وإن كان الجور ليس بمأمون واستقامة الأحوال ليست بمستيقنة.

أما إذا قام قائد الجماعة على أثر نبوَّة وفي عقيب رسالة وعلى نهج شريعة فقد خص في عرف أهل الإسلام باسم الخليفة، والمنصب باسم الخلافة أو الإمامة تمييزاً لها عن الملك الذي تجر إليه طبيعة القهر وتغلب عليه سمة الجور.

كان للرسول ﷺ مهمتان يؤديها إلى الأمة؛ إحداهما: أن يبلغ عن اللّه ما أمره بتبليغه إلى الناس من الأحكام المتعلقة بدينهم ودنياهم وما قصه عليهم من الأخبار والعظات ويبين للناس ما نزل إليهم، فهو بذلك مشرع عن اللّه تعالى.
الثانية: كونه إماماً للمسلمين يضم قاصية الأمة ويجمع كلمتها ويوجهها إلى الخير ويبعدها عن مزالّ الأقدام ومواطن الشرور، ويرجعون إليه في أقضيتهم وحل مشكلاتهم طبق ما أوحى إليه من ربه جلّ ذكره وما يؤديه إليه اجتهاده فيما ليس عنده فيه وحي، ثم إنه يقوم بتنفيذ تلك الأحكام.

ولما كان اللّه تعالى لم يجعل الخلد لبشر، وكان الموت خاتمة مطاف كل إنسان في هذه الحياة الدنيا، وقد قبض اللّه تعالى رسوله محمداً ﷺ إلى جواره، كان من الحكمة أن لا يترك الناس فوضى لاسراة لهم (كأغنام ذئب نام عنها رعاؤها) - بل لا بدللشرع من حارس يخلف المبلغ له في إقامته بين الأمة وتنفيذ أحكامه فيهم وهو الخليفة.

والخلافة هي النيابة عن صاحب الشريعة في حفظ الدين وتنفيذ أحكامه وسياسة الدنيا به. والسر في ذلك استحالة حياة أفراد النوع الإنساني منفردين ولأن من طبيعة الاجتماع التنافس المفضي إلى التنازع لازدحام الأغراض المتباينة فيحتاج إلى الوازع وهو الشرع. فقد جعل اللّه تعالى كمال النظام البشري بالشرائع الإلهية يذعن لها الخاصة والعامة ويراها نافذو البصائر في شؤون الاجتماع العمراني حاجة من حاجات العقول البشرية بها يكون تقويم الملكات وتعديل مزاجها وحملها على القصد من الأمور بلا تفريط في شيء ولا إفراط يدعى إلى تجاوز الحدود وتخطي المعالم.

هذه الشرائع يصطفي اللّه تعالى من خيرة خلقه رسلاً يتلقونها بالوحي عن الملك أو عن اللّه تعالى ثم يبلغونها للناس ﴿**اللّه يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس**﴾[1] ويضعون للدائنين بشرائعهم (بأمره) حدوداً عامة لا ترهق الناس

---
(١) سورة الحج: الآية ٧٥.

مشقة في رد أعمالهم إليها ـ كتقويم الملكات والأخلاق والعقائد، وتحريم الدماء والأموال والأغراض إلّا بحقها ـ على وجه يحمل كل واحد من الناس أن يبتغي فيما آتاه اللَّه الدار الآخرة وأن لا ينسى نصيبه من الدنيا، وأن يرغب فيما عند اللَّه مستشعراً الرهبة من عقابه (إذا حاد عن النهج القويم) في يوم تشخص فيه القلوب والأبصار.

إنساق المسلمون بمقتضى الفطرة التي لكل جماعة من الأحياء إلى إقامة من يخلف رسول اللَّه في سياسة أمرهم. فأقاموا عليهم خليفة، ولم يوجد عند الأمة الإسلامية أمر من أمورها اختلفت فيه الكلمة وتشعبت بشأنه الآراء بمقدار ما كان منها في شأن الخلافة. وأظهر مظاهر الاختلاف أمران:

أولهما: البيت الذي يكون منه الخليفة.

ثانيهما: شكل الانتخاب أو الطريقة التي يكون بها انتخاب الخليفة.

(**بيت الخلافة**) إن الكتاب الكريم لم يعين بيتاً للخلافة ينتخب الخلفاء من أهله، ولا شعباً من شعوبهم ولا قبيلة من قبائلهم، وإنما كان يوجه الكلام إلى عموم المسلمين فيما يقرره من الأحكام، ويطالبهم بتنفيذها في مثل قوله تعالى: **﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا﴾**[٢] وقوله: **﴿وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾**[٣] وقوله: **﴿وأطيعوا اللَّه وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾**[٤] ومن غير المعقول أن كل واحد من المسلمين يقطع يد السارق أو يقتصّ من القاتل، بل المعقول أن ينوب عن جميعهم واحد منهم يتولى ذلك.

أما رسول اللَّه ﷺ فقد روى البخاري حديثاً يسنده إلى معاوية رضي اللَّه

---

(٢) سورة المائدة: الآية ٣٨.

(٣) سورة النساء: الآية ٥٨.

٤ ـ سورة النساء: الآية ٥٩.

تعالى عنه يقول فيه: إني سمعت رسول اللّٰه ﷺ يقول: «إن هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحد إلّا كبه اللّٰه على وجهه ما أقاموا الدين». وعن ابن عمر قال: قال رسول اللّٰه ﷺ: «لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان». وفي مقابلة ذلك روى عنه أنس بن مالك قوله ﷺ: «اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة» وهي أدلة متعادلة.

لم ينته الناس من تجهيز النبي ﷺ ودفنه حتى كان في الناس فريقان لكل منهما رأي في شأن الخلافة؛ فريق يرى عدم تخصيص الخلافة ببيت من البيوت، والفريق الثاني يرى تخصيصها.

أما رأي أهل التخصيص فقد انشعب إلى شعبتين:

أولاهما: تخصيص الخلافة بقريش بلا فرق بين بطونها.

ثانيهما: تخصيصها بالقرابة القريبة لرسول اللّٰه ﷺ.

وأهل القرابة القريبة في ذلك الحين، هم العباس بن عبد المطلب من أعمامه وعلي وعقيل ابنا عمه أبي طالب.

أما العباس فلم تتطلع نفسه إلى الخلافة ولم يطلبها، وأما علي عليه السلام فقد امتاز على أخيه عقيل بأنه كان من السابقين الأوّلين، وليس لعقيل ماله من الهجرة والبلاء في إعزاز الدين والذود عن حوزته والمقامات المحمودة في جهاد عدوّه، والصهر إلى رسول اللّٰه في البضعة الطاهرة، وهي زوجته فاطمة، وكانت وجهة من يخصون أمر الخلافة بالقرابة القريبة الإلقاء بمقاليد الأمر إلى عليّ رضي اللّٰه عنه دون غيره من بقية قرابة رسول اللّٰه الأقربين. أما الذين يرون أنها حق قريش فحسب فكانوا جمهور أصحاب رسول اللّٰه من المهاجرين وبعض الأنصار.

وكان رأى عدم التخصيص في الخلافة لجمهور الأنصار. فكانوا متطلعين إلى أن يكون الخليفة منهم لأنهم أصحاب دار الهجرة، وقد آووا ونصروا وآثروا

المهاجرين بأموالهم وواسوهم في الضر، وقاموا يرمون وراء رسول الله ويوالون من والاه ويعادون من عاداه لا يرغبون بأنفسهم عن نفسه، وكانوا عيبته التي آوى إليها إذ أخرجه قومه ثاني اثنين، ولرسول الله المقامات المحمودة في الثناء عليهم. وقد تلقف هذا الرأي من بعد الأنصار جميع الخوارج الذين كانوا يشقون عصا الطاعة على الخلفاء في آونة مختلفة، ويفارقون الجماعات لأسباب يستمسكون بها ويتخذونها ذريعة لخلع ربقة الأئمة. وفي بعض الأحيان يقيمون عليهم خليفة وينادون به أميراً للمؤمنين كقطرى بن الفجاء، وهو رجل من بني تميم. وقد كانت تكأة أولئك القوم فيما أتوه أن القصد من إمامة المسلمين إنما هو توجيه الأمة إلى الخير والسير بهم في سبيل الصلاح والعدول بهم عن الشر وإقامة الدين فيهم واستقرار العدل في الأحكام، وهذا أمر يحصل بتولية من فيه المقدرة على ذلك والاضطلاع به بقطع النظر عن قومه وقبيلته، وحجتهم في ذلك قوله تعالى: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[1]

والذي أراه أن أصحاب هذا الرأي قد يكونون على صواب إذا كان من يختار لهذا المنصب منفرداً بعصبية تؤيده وتقوم بنصره بحيث تكون غالبة لكل قوّة سواها، لأن الإنسان في أموره لا بد أن يلاحظ الفواعل الطبيعية وما جبل عليه الناس من الانقياد للغالب ذي النفوذ القوي والكلمة المسموعة والعصبية القاهرة فإن هذه هي الأمور للتي تبهر عقول الجماعات وتقسر بقية الطوائف على الإذعان. وأما التقي الذي لا حول له ولا قوّة. فإن الناس تنفض من حوله ولا يمكن أن يظاهر على أمره.

أما رأي تخصيص هذا الأمر بقريش فإنه الرأي الطبيعي المناسب لذلك الحين لما وقر في طبيعة العرب من الإقرار لقريش بالفضل والإذعان لها بالسؤدد لا ينازعها في ذلك منازع بخلاف غيرها من العرب فإن قبيلة منها لا ترضى أن تطأ عقب قبيلة أخرى وتنقاد لها بأزمتها، حاشا قريشاً. وقد أبان ذلك أبو بكر يوم

(١) سورة الحجرات: الآية ١٣

السقيفة بقوله: «إن هذا الأمر إن تولته الأوس نفسته عليهم الخزرج، وإن تولته الخزرج نفسته عليهم الأوس. ولا تدين العرب لغير هذا الحي من قريش».

ومن هنا استنتج العلامة ابن خلدون السر في تخصيص قريش بالخلافة وهو ما كان لهم من العصبية والنفوذ الساري في جميع قبائل العرب وبطونها يعترفون لهم بالتقدم، ولا ينكرون عليهم الرياسة فيهم ويستثنونهم إذا افتخروا:

فأما الناس ما حاشا قريشاً　　فإنا نحن أفضلهم فعالا

فإذا كان الخليفة منهم ألقت إليه العرب المقاليد وتقطعت أسباب المعاذير في الخلاف عليه والنصب له. وقد بني على هذا الأصل أنه ليس يمتنع أن تكون الخلافة في غير قريش إذا ذهبت ريحها وعجزت عن حماية بيضة الإسلام وكانت المنعة والقوة لسواها. لأن الشريعة مبنية أحكامها على العلل والحكم في كل زمن بحسبه.

أما رأي التخصيص بالقرابة القريبة لرسول الله ﷺ فكان رأي عليّ بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ وفاطمة بنت رسول الله ﷺ، ومن تابع عليًّا على ذلك فيما بعد لمكانه من قرابة رسول الله ﷺ، غير أنه لتفت يمنة ويسرة فلم يجد من يظاهره على أمره ممن يقول ويفعل فحدا به ذلك إلى الإنضواء إلى رأي الجمهور والدخول فيما دخل فيه الناس، وذلك بعد وفاة فاطمة رضي الله عنها لستة اشهر [illegible] فاة رسول الله ﷺ في بعض الروايات.

[illegible] أعتقده هو ما روى من أنه بايعه بعد أيام، بدليل أنه جعله قائدا على بعض المسلمين حين بيت الكفار أهل المدينة وذلك لشهرين من بيعة أبي بكر.

تولى الخلافة بعد رسول الله ﷺ أبو بكر وهو تيميّ قرشيّ، ثم تلاه عمر وهو عدويّ قرشيّ، ثم جاء بعدهما عثمان بن عفان وهو أمويّ من بني عبد مناف

وأذعنت الكافة للرأي القائل بأن الخلافة لا تكون إلّا في قريش وأجمع على ذلك أصحاب رسول اللّه والمسلمون كافة وبقي الرأي الأخير (وهو القائل بتخصيص الخلافة بأهل القرابة القريبة) مهملاً إلى آخر أيام عثمان بن عفان. فطاف على الحواضر الإسلامية طائف من التفريق وأنساب إليها دعاة الفتنة ينبهون الناس إلى هذا الرأي ويقبحون من خالفه صارخين صاخبين: «كيف يحرم خلافة الرسول قرابته!».

يقول غوستاف لوبون: «لبعض الألفاظ والجمل سلطان لا يضعفه العقل ولا يؤثر فيه الدليل، ألفاظ وجمل ينطقها المتكلم خاشعاً أمام الجماعات فلا تكاد تخرج من فيه حتى تعلو الهيبة وجوه السامعين، وتعنو الوجوه لها احتراماً. وكثير يعتقدون أن فيها قوة إلهية. ألفاظ وجمل تثير في النفوس صوراً لا كيف لها ولا انحصار، محفوفة بالإكبار والإعظام إيهامها يزيد في قوتها الخفية فهي آلهة لا تدركها الأبصار قد احتجبت خلف (المظلة) التي ترتعد لهيبتها فرائض العابد إذا تقدم نحوها». وعلى هذا النمط كانت كلمات المفرقين وعلى هذا النحو سار دعاة الرأي الأخير، فهاجموا مكان الإحساس من الأمة وملكوا على الناس مشاعرهم وأسمعوا الناس صوتاً ملذوذاً في المسامع فأطربوهم بما كانوا يرددون من الجمل ويصوغون من العبارات. وربما تخطى بعضهم حدود الدين ونحل علياً ما لا يتحلى به بشر لينال بذلك فتنة الأمة وينجح في الكيد للإسلام.

كأني بالناس في أطراف بلاد الإسلام وقد تلجلج هذا الأمر في خواطرهم وإن لم تلكه ألسنتهم وقد اختمر في نفوسهم وأشعرهم التشوق إليه ما أرهقهم به عمال الخلافة في تلك الأطراف المنتبذة في زعمهم فما هي إلّا أن وجدت مسّ الدعوة إلى هذا الرأي حتى هبت لتحقيقه وانتدب له أفواج من الأطراف المختلفة غير حاسبين لعقبي عملهم حساباً. وهذا شأن الجماعات في كل زمان ومكان تندفع بسهولة إلى الشر، وتنكمش في أفرادها الذات الشاعرة وتتسلط الذات اللاشاعرة. وتتجه المشاعر والأفكار بعامل التأثر والعدوى نحو غرض واحد

وتنقـاد إلى فعل مـا يخالف منـافعها الحقيقيـة. هذا هـو شأن الجمـاعات في كـل زمان.

كان تنبه الناس لهذا الرأي وهبوبهم إلى تحقيقه بالفعل سبباً لخطوب جسام ومصائب عظام، فقد سال سيل الجماعات على المدينة فاجترف في سبيله الخليفـة الثالث عثمان بن عفان. وبذلك انبثق على المسلمين سيل من الخطوب لم يمكنهم سده.

ذلك أن دعاة الرأي الأخير والنافخين في هـذا البوق رأوا جـانباً من أرض الإسلام لا يثمر فيه هذا الغرس الذي غـرسوه. بـل تيقنوا أن تخـطيهم إلى تلك البلاد إنما هو تخط إلى الآخرة فبقي أهلها غير متأثرين بهذا الرأي ولا راضين عن أهله فهبوا لإخماد أنفاسه والإيقاع بالقائمين به بلا شفقة ولا رحمة.

كان عصارة ذلـك أن تصادم أهـل الرأيـين وفزع كـل فريق إلى سيفـه وما احتقب من رأي ومكيدة وحسن سياسة فظفـر معاويـة بن أبي سفيان بـالخلافـة، وهـو من بني أمية، وليس من ذوي القـرابة القـريبة. وبهـذا عاد الأمـر كـما بـدأ واستقر الأمر على الرأي الأوسط بعد خطوب وأهوال يشيب لها فود الزمان.

اختنق هذا الرأي قبل أن يبلغ أشده وكمنت حياته كمـون النار في الحجـر كلما وجـدت قادحـاً ورت وإذا سكنت توارت، وأهـل هذا الـرأي قد استكـانوا لحكم السيف ولكن على أمل أن ينتهزوا الفرصـة إذا رأوها سـانحة وأن يشيمـوا بروق الأمل إذا رأوها لائحة.

ظـل أبناء عـلي رضي اللّه عنه يـرون الخلافـة إرثاً لهم عن رسـول اللّه لا ينـازعهم فيه إلاّ ظـالم جائـر وشيعتهم من ورائهم تحفـزهم عليهم وتـدفعهم إلى المطالبة. فيخـرج الواحـد منهم بعد الآخـر يتهافتـون عليه تهـافت الفراش عـلى السـراج لا يبالـون بـرؤسهـم تـطاح، ودمـائهم تستبـاح، وأجسـامهم تـذروهـا الرياح. وكأن ما كان يحل بهم من القتل الوَحِيّ، والتمثيـل الذريـع، والتحريق

بالنيران والتصليب على الأعواد لا يزيد النار إلاّ استعاراً، ويغري اللاحق بـإتباع آثار السابق وكان شيعتهم يجدون بتلك الحوادث مكان القـول ذا سعة فيطلقون العنان لألسنتهم وقرائحهم في تمثيل أهل البيت بين مضرج بدمائه وهارب بذمائه وحريب وسليب ومأسور ومقهور وعقائل بيت الرسول تساق الواحدة منهن سوق السبيـة الأخيذة. فمن شـاء فلينظر إلى شعـر الكميت بـن زيد ومن حـذا حذوة ففيه بلاغ ومقنع.

والذي أعتقده أن أهل البيت لو خفضـوا من عنانهم في سبيـل المطالبـة ولم ينصبوا أنفسهم هدفاً للولاة والخلفاء لأتتهم الخلافة منقادة بخطامها لأن في طبيعة الـرعية حب الجـديد والاستشـراف إلى تغيير الحكـام متى طـال العهـد بهم فـلا يجدون بعد بني أمية سوى أندادهم من بني هاشم، وهم على حال سلامة ووفـرة عدد وفي حرز أمنة، ولكنهم كانوا يخاطرون بأنفسهم ومن معهم ويلقون بأنفسهم إلى التهلكة، وكان ذلك يزيد خصومهم قـوة إلى قوتهم، ويحـدث ترات وذحـولاً عندهم للقبائـل المختلفة ويـزيدهم ضعفـاً، ويرهقهم وهنـا بقلة عديـدهم وفناء الفريق الأكبر منهم.

لم يكن للعباس مطمع في الخلافـة كما قـدمنا، ولم يكن لشيعـة أهل البيت نـظر يتوجـه إلى أبنائـه، وكان قصـاري بني العبـاس أن يكـونـوا مؤازرين لعـليّ مـظاهرين لأبنـائه في طيّ الخفـاء عـلى خـوف من بني أميـة وملئهم أن يعتـروهم بسوء. غير أنه لما توفي هاشم بن محمد بن علي عن غـير عقب، وكان قبلة أنـظار الشيعـة أكثر من بقيـة العلويين، زعم العبـاسيون حينئـذ أنه ألقى بمقـاليـد أمـر الدعوة إلى محمد بن علي بـن عبد اللّه بن عباس فهبـوا للعمل عـلى إنماء الـدعوة لآل البيت في ظاهر أمرهم ويبطنـون أن تكون الـدعوة إلى خـلافتهم ويحتجزونها دون أهل البيت إذا حق العمل فكانوا يدعون الناس إلى مبايعـة الرضـا من أهل بيت رسول اللّه ولا يبوحون لأحد بـاسمه زاعمـين أن ذلك يـوجه نـظر بني أمية إليه ويعرضه للقتل والتشريد لمن تـابعه. وقـد واتتهم المقاديـر على حـين فترة من

الهمم في بني أمية، وانحلال العزائم في خلفائهم وانشغالهم بالعيش الناعم وملذات الحياة، واستهانتهم بالأطراف القاصية من مملكتهم واستصغارهم لمايحدث فيها، وكانت الدعوة التي أخذت صبغة هاشمية بعد أن كانت علوية قد فشت في نواحي فارس وخراسان فشواً زائداً واشتغل بنو العباس فيها بمهارة زائدة وأوردوا ذكر العباس عمّ رسول اللّه ﷺ وإشاعة فضله وفضل ابنه عبد اللّه وما له من الذكر النابة عند أولى العلم والتقوى وما للعباس من الحق في إرث رسول اللّه بالعَصَبة دون سائر ذوي قرباه، إلى غير ذلك من الأمور التي لقّحت بها الدعوة العلوية.

وقد وفق العباسيون إلى دعاة مهرة ذوي مقدرة فائقة وجرأة وإقدام وعمدتهم أبو مسلم الخراساني، فأدار الأمر بحكمة وباشروا انتقاص الأطراف على عمال بني أمية الذين كانوا قد وهن أمرهم فأدالهم اللّه منهم حتى إذا حق الأمر أعلن أبو مسلم اسم عبد اللّه السفاح بن محمد بن علي بن عبد اللّه بن عباس خليفة للمسلمين.

إن وجهة الناس كانت إلى العلويين. ولكن لما كان العلويون قد ضعف أمرهم كما قدمنا وكفوا أيديهم في الجملة عن مباشرة الدعوى، وكان الذي يدير أمر الدعاة إنما هم بنو العباس، وهم من قرابة رسول اللّه القريبة لم يجد الناس غضاصة في المضيّ على أمرهم بالجد في نقض بناء دولة بني أمية حتى هوى شامخه وانهار باذخه.

غفل الزمان برهة عن العلويين فجم ذلك الدم الذي كان مطلولاً وقوى الضعيف وكبر الصغير وفي أنفسهم من أمر الخلافة ما فيها، واشتد وجدهم على تراث لم يخرج من يد ناهب إلا ليحصل في يد غاصب أشد قوة وأعضل ناباً. فلماآنسوا من أنفسهم بعض القوة وأحسوا بشيء من القدرة على المطالبة لم يلبثوا أن نصبوا أنفسهم حرباً لبني العباس يشادُّونهم حبل الخلافة. فعادت الحرب العوان إلى حالها الأولى، وشبت بين الفريقين نار العداوة والبغضاء واستحر

القتل في العلويين ومزقوا كل ممزق لا تعطف بني العباس عليهم أواصر القربى ولا تثنيهم عن الفتك بهم لحمة النسب. وكان للمنصور والرشيد والمتوكل أيدٍ قاسية في أخذ العلويين بالعنف وتناولهم بالعسف حتى كان مجرد إتهام أيّ رجل من الناس بالميل إلى العلويين كافياً لاستباحة دمه واستلال روحه من بين جنبيه لا يشفع له في ذلك نباهة قدر ولا ارتفاع ذكر. وقد كان استواء أحد العلويين في بلد قصي على عرش الخلافة مغرياً لبني العباس باستلال نفسه وإخماد أنفاسه.

فر بعض العلويين إلى إفريقية لما رأوا أن السيف يجتاحهم، وشيعتهم تضعف عن حمياتهم وحقن دمائهم، وبعض آخر إلى المغرب الأقصى قبل ذلك. لانتباذ هذين القطرين عن مركز صولة العباسيين وسهولة العمل فيهما لبعدهما عن النجدة والإغاثة وظاهرهم على ذلك في الخفاء أتباعهم وشيعتهم بتلك الأقطار. فاطمأنت بهم الحال وأخذوا الأمر على هينته وما زالوا دائبينَ على العمل حتى أسسوا الدولة الفاطمية في إفريقية والدولة الإدريسية بالمغرب الأقصى قبلها. ثم كان لهم دولة أخرى من ملوك الطوائف بالأندلس ببطليوس.

وقد امتدت الدولة الفاطمية من إفريقية إلى مصر والشام وقد قويت شوكتها واشتدّ بأسها، أيام ضعف الدولة العباسية وانقسامها إلى ممالك بأيدي الترك والديلم وغيرهم. إلى أن انهى أمر الدولة الفاطمية على يد صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ٥٥٦ هـ.

بقي أمر الدولة العباسية يضؤل إلى أن أزيلت من بغداد في خلافة المستعصم العباسي سنة ٦٤٥ هـ على يد هلاكو خان حين اجتاح في طريقه ممالك الإسلام بنواحي تركستان وفارس وبغداد.

كانت مصر من الممالك التابعة للدولة العباسية التي لم يمسها المغول في إغارتهم فلما دالت دولة بني العباس ببغداد وصل إلى مصر أحد العباسيين فارّاً من وجه التتار، واسمه أحمد بن الخليفة الناصر لدين الله بن المستنصر العباسي في سنة ٦٥٩ هـ أيام سلطنة ركن الدين بيبرس. فأثبت نسبه وبايعه السلطان

وأهل الحل والعقد بالخلافة، ثم خرج الخليفة لمقاتلة التتار والعودة إلى بغداد فقتل ولم ينل ما أراد.

وفي سنة ستين وصل إلى مصر الإمام أحمد بن علي بن أبي بكر بن الخليفة المسترشد العباسي وأثبت نسبه فبايعه السلطان والقضاة وأهل الحل والعقد بالخلافة، وهو جد الخلفاء بمصر إلى أن جاءت سنة ٩٢٣ هجرية دخل السلطان سليم شاه العثماني مصر وأزال دولة المماليك. وكان الخليفة العباسي بمصر هو الإمام المتوكل على الله محمد بن المستمسك بالله يعقوب فأخذه معه إلى الأستانة هو ووالدى ابن عمه خليل وهما أبو بكر وأحمد، وبذلك انتهى أمر الخلافة العباسية بمصر.

جاء البيت العثماني التركي واستولى على ممالك كثيرة من ممالك الإسلام ودان للقائم من العثمانيين بالطاعة أهل تلك الممالك وخفت صوت الخلافة. وادعى ملوكهم على طول الزمان أنهم خلفاء المسلمين ويدعي لهم الناس أن آخر الخلفاء العباسيين نزل للسلطان سليم عن الخلافة وبايعه بها، وهو كلام لم يثبت. ولكن القوم نفذت كلمتهم فيما تحت أيديهم من الأقطار الإسلامية وشهروا بأنهم الخلفاء، وعرف أكثر أهل بلاد الإسلام هذه السمة وأذعنوا لها فهي خلافة بالفعل عقدت البيعة بها الشوكة والقوة إذ كانوا أقدر أهل الإسلام على حماية البيضة وتنفيذ الأحكام. وهذا هو العلة التي استحقت بها قريش الخلافة في أول الأمر.

بقي أن أقول أن ما يدعيه أهل البيت من استحقاقهم الخلافة بالإرث دعوى غير صحيحة لا مؤيد لها من عقل ولا شرع. أما العقل فإن هذا الأمر مناطه رعاية أمر المسلمين على شؤونهم العامة على نحو ما بينا فيما سبق يتولاه من يصلح له ويضطلع بأمره. والله لم يجعل أمر المسلمين ومصالحهم إرثاً لأحد. وهذا الكتاب بين أيدينا خالٍ من دعواهم، وهذا علي لم يدّع الوصاية من رسول الله على المسلمين طول حياته ولم يحتج بعهد رسول الله إليه بالأمر. وأما الشرع

فقد ورد عن رسول اللّه ﷺ أنه لم يقبل من هوذة بن علي أن يكـون له الأمـر من بعده بل قال: «الأمر للّه يضعه حيث يشاء». ولو كان الأمر لذوي قرابته لجاء به قرآن، أو لنصّ عليه رسول اللّه، أو احتج به علي رضي اللّه عنه.

وما كان أبو بكر ليتمادى على اغتصاب الأمر من أهله ويطرح قول رسـول اللّه ﷺ ظهريًّا بعد ثبوته لديه وتحققه عنده.



شكل الإنتخاب

لم يرد في الكتاب أمر صريح يستبين به الشكل الذي يجب على المسلمين عمله إذا انتخبوا خليفة لرسول الله ﷺ سوى الأوامر العامة التي تتناول أمر الخلافة وسواه مثل وصف المسلمين بقوله: ﴿**وأمرهم شورى بينهم**﴾[1] ولم يرد عن رسول الله ﷺ بيان نظام خاص يتبعه المسلمون في انتخاب من يلي أمورهم.

والذي يلوح لي أن رسول الله ﷺ أراد أنّ لا يضع للمسلمين شيئاً إن وافقهم اليوم ولاءم حالهم فقد لا يوافقهم إذا تبدلت الأحوال وتغير مزاج الأمة. فلم يشأ أن يرهقهم بأمر يشرعه لهم تكون فيه مظنة المشقة عليهم في يوم من الأيام فوكل ذلك إلى فطنتهم وما لهم من عقل يحلونه في كل آن بالحل الذي يناسبه زمانهم ومكانهم.

أما طرقهم التي سازوا عليها فهي:

١ ـ **الطريقة الأولى**: طريقة الانتخاب الإستشارية، وهي التي اتخذت في انتخاب الخليفة الأول أبي بكر الصديق رضي الله عنه. ذلك أن الأنصار اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة يجيلون الرأي في تولية خليفة بعد رسول الله في اليوم الثاني من وفاته. وعلم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح من المهاجرين بأمر أصحاب السقيفة وخافوا أن يبت القوم أمراً

(١) سورة الشورى: الآية ٣٨.

فيما بينهم يكون فيه تفريق الجماعة أو ما لا يحب المهاجرون، فأسرعوا إليهم وبعد حوار بينهم والمراجعة على مشهد من الملأ تم انتخاب أبي بكر. ولم يحضر هذا الأمر من المهاجرين سوى الثلاثة الذين ذكرنا لأن القوم كانوا بين واجم لوفاة رسول اللّٰه ﷺ غير مفكر في شيء آخر، وبين مشتغل بتجهيزه ودفنه كعلي وبني هاشم. وإنما تمّ الأمر على هذا الوجه خشية اتساع الخرق بين المهاجرين والأنصار وتنازعم في استحقاقه، فأراد أبوبكر وعمر عدم انتشار الأمر والعمل بالحزم قبل خروجه من أيديهم.

وقد نظر المجتمعون في السقيفة فلم يجدوا من السابقين الأولين من المهاجرين الحاضرين بالسقيفة من هو أحق بها وأهل لها سوى أبي بكر لأنه رفيق رسول اللّٰه ﷺ في الغار وصديقه، وقد قدمه رسول اللّٰه للصلاة بأصحابه وهي من أهم المناصب وأغلاها قيمة، وكان عمر حريصاً على الإسراع في جمع الكلمة فمد يده لمبايعة أبي بكر ثم تبعه الناس بعد ذلك ولم يخالف عليه سوى علي وفاطمة كما قلنا فيما تقدم وسعد بن عبادة الأنصاري.

يرى المطلع على الشكل الذي حصلت به بيعة أبي بكر أن الاستشارة في أمرها كانت ناقصة نقصاً ظاهراً لأن المعقول في مثل هذه الحال أن يتخذ المسلمون مكاناً يجتمعون فيه وأن يؤذن الناس به من قبل؛ غير أن حرص عمر بن الخطاب على الإسراع في الأمر والمبادرة إلى لمّ شعث المسلمين جعله يتم على هذا الوجه، وقد أثر عنه أنه قال: إن بيعة أبي بكر كانت فلتة ولكن وقي اللّٰه شرها.

٢ ـ الطريقة الثانية: طريقة العهد من الخليفة إلى آخر في الأمر من بعده؛ وهذه هي الطريقة التي سار عليها أبوبكر رضي اللّٰه تعالى عنه في انتخاب عمر بن الخطاب للخلافة من بعده بعد أن آمر الناس فوافقوه على الرضا بمن عهد إليه واختاره لولاية أمرهم وقد أعلمهم من هو الذي اختاره.

هذه الطريقة صادفت أن وقع الاختيار من أبي بكر على خير من يكون

خليفة المسلمين وأشدهم صرامة في الدين وأكثرهم تحرياً للعدل، غير أنها طريقة خطرة إذ لا ثقة لأحد بأن يكون كل خليفة محسناً لـلاختيار كـأبي بكر رضي الله تعالى عنه فلا يمكن أن يأمن الناس مغبتها لما فيها من احتمال الخطأ في الاختيار.

٣ ـ **الطريقة الثالثة**: طريقة الاختيار الشورى، بأن يعين الخليفة في حياتـه أفـراداً لينتخبـوا من بينهم خليفـة؛ وهـذه الـطريقـة التي جـرى عليهـا انتخـاب عثمـان بن عفان للخـلافة. وذلـك أن عمر رأى بعـين بصيرتـه أن سادة النـاس وقـادتهم الذين يتـطلعـون إلى الخـلافـة ولا يؤمن إنتقـاض بـاقيهم إذا عهـد إلى أحـدهم على طـريقة أبي بكـر معه هم القـوم الذين عينهم ليختـاروا واحداً منهم ويخشى على المسلمين أن تفترق كلمتهم إذا افترقت بهؤلاء القوم لأن المسلمين لهم تبـع. فأراد أن يعفي الأمـة من تشتيت الآراء ورد الأمـر إلى هؤلاء النفـر الـذين يخاف على المسلمين منهم ولا يخاف عليهم من المسلمين. وكانوا ستة ووضـع لهم نظاماً يسيرون عليه في اختيار الخليفة من بينهم. وذلك أن يجتمعوا بعد وفاتـه في حجرة عائشة رضي اللّٰه تعالى عنها ويختاروا الخليفـة في مدة لا تـزيد عـلى ثلاثـة أيام وحتم عليهم الأخذ برأي الأغلبية وأن على الأقل الانصيـاع إلى ما رأوه ومَن أبي وخالف استحق القتل، وإذا تساوت الأصوات أخذوا رأي عبد اللّٰه بن عمـر على أن لا يكون له من الأمر شيء فـلا يصح أن يكـون مُنْتَخَباً. فـإذا لم يرضـوا برأي عبد اللّٰه بن عمر كان الراجح رأي الجمـاعة الـذين فيهم عبد الـرحمن بـن عوف.

وهذه الطريقة مبدأ نـظام صالـح لو تنـاولها المسلمـون بالتحسـين، وإن لم تكن وافية بكل غرض. وما سنّه من بقاء القوم ثلاثـة أيام لانتخـاب واحد منهم يشبه بعض الشبه ما يفعل اليوم في اختيار خليفة للبابا إذا مات. فـإنهم يجمعون الكـرادلة في مكـان واحد يمنعـونهم الأكل والشـرب إلى أن ينتخبـوا منهم البـاب الجديد.

ومن نظر إلى هذه الطرق الثلاث التي جرى عليها انتخـاب الخلفاء لم يجـد

مـا يمكن أن يكون نـظاماً مستـوفي ولم تلزم الأمة بشيء من ذلـك إذ لم يعـرف في القـاعـدة الأولى من لهم حق انتخـاب الخليفـة: أهم الأمـة بـأســرهـا، أم هم أشخـاص مخصوصـون. وإذا كانـوا أشخـاصـاً مخصـوصـين فمن هم، ومـا هي الصفات التي يلزم توفرها فيهم؟

يقـول شراح قـاعدة الانتخـاب الأولى: إن الذين لهم حق الانتخـاب هم أهل الحل والعقد. وهو أمر غير مدرك الحدود، لأن سامع هذه الكلمة لا يدري من أهـل الحل والعقـد؟ هـل هم قـواد الجيـوش، أم ولاة الأمصـار، أو أعيـان الأمـة، أو غير هؤلاء من العلماء والقضـاة وغيرهم، وذلـك لم يبين. وعـلى ذلك فمن في نفسه بقية من التطلع إلى الخلافة يجد مجالاً للطعن على خـلافة من يعـين بها كما حصل من معاوية عندما ولي عليّ الخلافة.

أما الطريقة الثانية فقد بينا ما فيها من الخطر، ومـا قد يعتـري العامـل بها من الخطأ.

وأما الطريقة الثالثة فهي عبارة عن أن يعهد الخليفة إلى واحد لا يعينه من أناس محصورين يختارهم الإمام. وهي مسـاوية للطريقـة الثانيـة وليس كل عصر عصر عمر، ولا كل خليفة ينظر للأمة نظر عمر.

بويع بعد ذلك لعـلي بن أبي طالب بـالمدينـة حين قـدم عليها الثـوّار وأهل الشغب من أطـراف بلاد الإسـلام فقتلوا عثمان وبـايعوا علـيًا وبايعـه حاضـروا المـدينة من أصحـاب رسول اللّه والتـابعين. فـوجد بعض أهـل البلاد الأخـرى مطعنـا على خلافة علي ولم يرضوا بما رضي به الناس، ورأوا أنفسهم في حـل من منابذته إذ لا بيعة له في أعناقهم، وأن البيعة لم تلزمهم بفعل أهل المدينة. والأمة لم يسبق لها أن سمعت احتجاجاً كهذا، بل كان الخليفة يولي بالمدينة فيطيعه أهل الأمصار فكان هذا حجته عليهم، وقد يقال إن في هذا المذهب إهـداراً لأصوات أهل الأمصار وغيرهـم النائين عن المدينة، وهم بلا شبهة من أهل الحل والعقد،

وقد يكونون عدد الناس والأمر لم يوضع له نظام. وهذه الجمل تجد لها مساغاً إلى الأسماع ومنفذاً إلى النفوس.

نبت هذا الرأي في الشام ووجد تربة صالحة فنما وأثمر، وقام علي رضي الله عنه لتأييد رأيه وتثبيت بيعته والتقى الجمعان بصفين وعليّ يحمل على يده قرابته من رسول الله ﷺ وما يستمسك به من بيعة وفود الأمصار وحاضري المدينة، فلما لفحتهم الحرب بسمومها لجأوا إلى التحكيم فيما شجر بينهم من الأمر، فانتخب كل فريق رجلاً لينظر الرجلان فيما شجر بين المسلمين.

والذي أراه أن القوم كانوا حديثي عهد بالتوثيقات ووضع الأنظمة فلم يحدد موضع النزاع تحديداً كافياً شافياً، ولم يبين مرجع الحكم بياناً يرفع النزاع. بل وضعوا عقد التحكيم بألفاظ عامة يجد من يريد المخالفة ألف سبيل وسبيل لتأويلها، فكان هذا التحكيم أشبه باللهو واللعب.

تجاوز الحكمان ما عينا لأجله من الحكم في الأمر الذي دهم فريقي المسلمين وتكلما في خلع كل واحد من الحكمين صاحبه، وكان للخداع والدهاء أكبر حظ من النجاح إذ انفرط عقد جند عليّ ونشز عليه أصحابه ولم يزل معاوية جميع الأمر.

أما أصحاب معاوية فقد رضوا بهذه النتيجة التي آلت إلى تثبيت صاحبهم في مركزه وخلع علي من الخلافة.

وأما أصحاب علي ففريق تثاقل عن نصرته، وفريق خالف عليه وعلى معاوية ورأوا أن التحكيم الذي كانوا يرونه واجباً من قبل إنما هو ضلالة ومروق من الدين، أولئك القوم هم الخوارج. فقد نصبوا أنفسهم لعداوة علي ومعاوية معاً واتخذوا لهم شعاراً هو قولهم: لا حكم إلاّ للّه. وصاروا يبنون عذرهم في مفاوقةعلي ومجاهرته بالعداوة على مقدمات يزينونها ويخلصون منها إلى تكفيره وتضليله، ووجوب التوبة عليهم حتى يعودوا إلى متابعته على أمره.

فيقولون: إن الخليفة المختار معين من الله تعالى، فلا ينبغي له أن يشك في أمره.

ولما كان علي هو الخليفة الحق وقد حكّم الناس في أمره فقد شك ومن شك فقد ضل ومن ضل لا يصلح للخلافة. وبعضهم يوجب إستتابته وتجديد إسلامه. وأما معاوية فلما تعرض لما ليس له بحق فقد ضل فلا يصلح للخلافة.

انتبذ هؤلاء القوم ناحية وروّجوا مقالتهم بين الناس فنما عددهم وكوّنوا لهم جماعة أعطوها الحق في انتخاب الخليفة. وأذاعوا فيمن ضوى إلى رأيهم أن مخالفيهم في الرأي كفار، واستباحوا دماء الناس وأموالهم، واندفعوا يقتلون بلا رحمة ولا شفقة. ولم يكن لدعوتهم حدود معينة، ولا معالم ينتهون إليها، ولا غاية يبغون الوصول إليها. فانتشر أمرهم واختلفت كلمتهم وجدَّ الخلفاء في استئصالهم وتتبعوهم بين سمع الأرض وبصرها، وانهالوا عليهم بما عندهم من حول وطول حتى قطعوا دابرهم وأبادوهم بعد حروب حاصدة ووقائع تشيب لهولها الولدان. ولم يعد على الإسلام من عملهم منفعة، ولم تجن الأمة سوى الويلات والحرب. ولم تزل لهم بقية إلى اليوم بالمغرب وجزيرة العرب وسواحل المحيط الهندي.

وعلى كل حال فقد انتهى الأمر باستقرار معاوية في الخلافة ومضى عليّ إلى ربه وكان الفوز للسياسة والدهاء. وهنا نقول: لو كان للخلافة قانون متبع أو قاعدة يجب السير عليها في انتخاب الخلفاء لوقي المسملون التهوّر في هذه المزالّ الخطرة ولساروا على الجادة.

وليس للمؤرخ من حيث هو مؤرخ أن يرجح إحدى البيعتين على الأخرى لأن كلا من الرجلين قد بايعه جمع من المسلمين ولم يتخطَّ في عمله حدوداً مرسومة يعدّ متجاوزها ظالماً. أما كون أحد الرجلين أولى من الآخر لميزات خاصة، أو صفات جليلة لا توجد في الآخر فهذا أمر آخر مناطه التقدير. وينبغي لمن يبت فيه أن يرجع إلى الأوصاف التي تشترط في الخليفة ليرى أيّ

الـرجلين أكثر جمعاً لتلك الصفات. ولمـا لم يكن في الشرع بيـان لشيء من هـذا رجع الأمر إلى تكافؤهما في القوة وكثرة الأعوان والأنصار، وهي الأمـور الطبيعيـة التي لا ينبغي غضّ النظر عنها كما قدمنا.

استتبّ الأمر لمعاوية وهو أول خلفاء بني أمية. وكان حريصاً على أن يكون الأمر في بيته فـأخذ لـلأمر عـدته وأوفـد ولاة الأمصار في حيـاته واستشـارهم في انتخاب خليفة يلي أمر الناس بعده، معللاً احتياطه هذا بخوفه على المسلمـين أن تفشـو فيهم الفتن. وقد كـان بعض الولاة يعلم مـا يرمي إليـه فبادر إلـى قصده وحسن له أمر تولية ابنه يزيد ولاية العهد واصفق بقية الولاة ومن معهم على هذا الأمر وكتب له بذلك العهد.

وقد اتخذ هذا السبيل غيره من بني أمية يعهدون بالأمر من بعدهم لأبنائهم أو أخوتهم أو أبناء عمومتهم وقد كان معاوية يحاذي في فعله مـا كان من أبي بكـر في تولية عمر من بعده، غير أنه لا مناسبة بين الفعلين فإن معـاوية إنمـا آثر ولـده وحاباه لمكانه من الاتصـال به. وأمـا أبو بكـر فإنـه لم ينظر في عمله إلاّ لمصلحـة المسلمين ولم يؤثر بالأمر نسيباً أو قريباً لنسبه أو قرابته. ناهيك أن معاوية ـ بإيثاره ولده يزيـد وتخطيـه في عمله رقاب جلة الصحـابة والتـابعين وأصحـاب السابقـة والفضـل من الأمـة ـ أوجـد في عمله مغمـزاً للطاعنـين وأفسـح الكـلام لأهـل الأقاويل، فنبه بعمله هذا المطامع النائمة فهبت ريـح الثورات بعـد موتـه، وقام الطامعون في الخلافة ينازعون يزيد حبلها إلى أن مات والأمر على حاله، وقد عهد إلى ابنه معاوية الثاني بالأمر بعده، وكان رجـلاً ضعيف النحيزة مشتغـلاً بالعبـادة فألقي الأمر إلى المسلمين يختارون من شاءوا إلى أن استقرت في مروان وبنيه وقـد ساروا في أمر الخلافة سيرة معاوية؛ ربما عهد الواحد منهم بأمر الخلافة إلى واحد من أولاده أو اثنين منهم أو واحد منهم وآخـر مـن بني عمومته، وقد جـرت سنة اللّه تعالى أن لايلي ولاية العهد اثنان إلاّ جرّ ذلك نزاعاً وشقاقـاً. فإن أولهـما كان يميل إلى نزع الأمر من ثانيهما لاعتقاده أنه يحدث نفسه في تعجل الأمر لنفسه، أو

لأن الأول يؤثر ابنه على أخيه فهو يريد إزالته وتنحيته عن ولاية العهد بكل سبيل، أو بغير ذلك من الاعتبارات. فقد جهد عبد الملك في تأخير أخيه عبد العزيز والإفضاء بالأمر من بعده إلى ابنه الوليد وولي سليمان بن عبد الملك عمر بن عبد العزيز ثم أخاه يزيد ولاية عهد، فكان عمر يتألم من أن يلي يزيد أمر المسلمين من بعده. ولولا أن عاجلته المنيّة لأخرجه من ولاية العهد وعهد بها إلى رجل من غير بني أمية. والأمثلة سوى هذه كثيرة.

ذهبت بعد ذلك الدولة الأموية لطيّتها وجاءت الدولة العباسية، فترسم العباسيون في ولاية العهد خطوات بني أمية حقبة من الدهر، إلى أن ذهب شبابها ووافها دور الضعف والهرم وصار الخليفة ليس له من الخلافة سوى الاسم والأمر في كل شيء في أيدي المتغلبين من الوزراء والقواد والملوك الذين انتقصوا الدولة من أطرافها وأقاموا لهم منها ممالك قبضوا بأيديهم على أعنتها، فكان أمر الخلافة في أيدي هؤلاء المتغلبين وليس للخليفة معهم صرف ولا عدل.

لم يحفظ الخلافة الاسمية في ذلك الزمان في البيت العباسي إلاّ ما وقر في نفوس الناس أن حكم الحاكم لا يكون إلاّ بعهد من الخليفة ليكون عمله وحكمه جارياً على مقتضى الشرع الشريف. فكان الخليفة يولى في مكانه ليعطي الحكام والملوك العهود التي تكسب عملهم الصفة الشرعية. ولم يكن بين المسلمين في ناحية بغداد بيت يسامي البيت العباسي في نباهة الشأن لما كان له من قديم الملك، ونفوذ الكلمة والسطوة؛ فهذا النفوذ يمتد سلطانه لكل شيء قديم، والروعة التي لهذا البيت بحكم الاستمرار، وعدم حاجة الملوك إلى تغيير هذا الطراز من الخلفاء الذين يرضون بالاسم من الخلافة ولا يعارضون في شيء من أمور الملك. أقول: لولا هذه الاعتبارات لزالت الخلافة في تلك الأيام ولم يبق لها اسم ولا رسم.

جاء الملوك من أهل البيت العثماني التركي وانتحلوا اسم الخلافة بعد فتح مصر سنة ٩٢٢ هـ بزمن طويل والقوم قد رتبوا أمر الملك وجعلوه لأكبر موجود من

أهـل ذلك البيت، فصـار هذا النـظام متبعـاً في شـأن الخليفـة منهم إلى أن جـاء مصطفى كمال باشا وألغى الخلافة من البـلاد في شعبان سنـة ١٣٤٢ وقد أدّى هذا الترتيب إلى منازعات كثيرة سفكت بسببه دماء غزيرة من أهل ذلـك البيت، فـإن بعض ملوكهم كان يعمـد بعد تـوليته إلى استئصـال إخـوتـه وذوي قـرابتـه ليخلص الملك لبنيـه. ولكن لما كـان لهم نـظام يسيـرون عليـه في شـأن من يـلي الأمر، فقد حفظ أمر الخلافة والملك في هذا البيت إلى العهد الأخير.

أما الذين يقـولون بـأن الخلافـة حق من حقوق أهـل البيت العلوي فإنهم كـانوا يجـرون عليها حكم الـوراثة فيجعلون الخليفـة أحد أبنـاء الخليفـة المتـوفّى ويخصون بذلك أكبرهم وقد ساقت الفرقة الاثني عشرية (وعـلى مذهبهم جمهـور أهل فارس اليوم) الخلافة في بني الحسين بن علي، وسموا عليًّا ومن يليه الأئمة، وكانوا اثنى عشر آخرهم المهدي المنتظر الذي تغيب بسر داب بدارهم بالحلة وأنه يجيء آخر الزمان ويملأ الأرض عـدلاً كمـا ملئـت جـوراً.

ولغـير الاثنى عشريـة طرق أخـرى في سـوق الخـلافـة. وعنـد الشيعـة في تفصيلاتها اختلاف كبير يخرجنا تتبع الكلام فيه عن القصد.

* * *

للأستاذ الخضري كلمة جليلة في إحدى محاضراته ساقها في أمر الخلافـة، وما كان بين علماء الإسلام من البحوث المختلفة في شأنها نسوقها مع بعض تغيير كلما رأينا لزوماً لذلك من زيادة إيضاح أو نحوه، قال:

لم يكن يحَـلُّ الخـلاف في زمن من الأزمـان إلاّ بـالقـوّة فهي التي تجعـل صاحبها صاحب الحق. والناس في كل زمان يؤلهون القوّة ويجعلون بـاطلها حقـاً ويحقرون الضعف ويجعلون حقه باطلاً.

تناول العلماء في الدولة العباسيـة مسألـة الخلاف وأدخلوهـا ضمن مباحث العقـائد الـدينية. ويخيـل إلينا أن أوَّل من وضعهـا هذا المـوضع كـان يـرى رأي

الشيعة فإن الخلافة عندهم من أمور الدين ثم جرّ إليها المتكلمين وصار أمرها موضوعاً جدلياً كغيره من المسائل الدينية، وكان النزاع يدور بينهم على ستة أمور.

١ ـ وجوب نصيبِ الإمام: أهو واجب على الأمة من طريق السمع كما هو رأي الجمهور؟ أو من طريق العقل كما هو رأي المعتزلة والزيدية؟ أو من طريقهما معاً كما هو رأي بعض المعتزلة (وأراني إلى هذا أميل) أو على اللّه لحفظ قوانين الشرع كما هو رأي الإمامية؟ أو على اللّه ليكون معرفاً للّه وصفاته كما هو رأي بعض الإسماعيلية؟ أو لا يجب كما هو رأي بعض الخوارج؟ أو يجب عند الأمن لا عند الفتنة كما هو رأي هشام الفُوَطي وأتباعه؟ أو يجب عند الفتنة دون الأمن كما هو رأي الأصمّ ومن شايعه من المعتزلة!

٢ ـ شروط الإمام؛ وقد ذكروا شروطاً لا خلاف فيها وهي: أن يكون شجاعاً ليغزو بنفسه ويعالج الجيوش ويقوي على فتح البلاد ويحمي البيضة. وأن يكون أهلاً للقضاء؛ بأن يكون مسلماً مكلفاً حرّاً، عدلاً، ذكراً، مجتهداً، ذا رأى وسمع وبصر ونطق. ومنها شروط فيها خلاف؛ كالقرشية عند الجمهور، والهاشمية عند الشيعة، والعلم بجميع مسائل الدين؛ وظهور معجزة على يده عند بعض الشيعة.

ولما رأى القاضي أبو بكر الباقلاني ما عليه عصبية قريش من الاضمحلال واستبداد ملوك العجم على الخلفاء أسقط شرط القرشية، وإن كان رأيه هذا موافقاً لرأي الخوارج. وقد بقي الجمهور على اشتراطها وصحة إمامة القرشي ولو كان عاجزاً عن القيام بأمور المسلمين.

وكأني بأهل هذا الرأي يرون أن الخلافة التي أوجب الشرع إقامتها يكفي في سقوط الإثم باتخاذها على السبيل الذي تتخذ عليه الآثار القديمة والعاديات في المتاحف، ولا أخفى عليكم أن هذا ليس معجباً ولا تميل إليه نفسي.

٣ ـ ما تثبت به الإمامة؛ وهو النص من رسول اللّٰه ﷺ أو من الإمام الموجود وبيعة أهل الحل والعقد، خلافاً للشيعة. ثم قالوا: لا يحتاج الأمر إلى إجماع أهل الحل والعقد بل يكفي الواحد والاثنان، وقال بعضهم: لا بد أن يكون ذلك إمام بينة عادلة. وهل يجوز تعدد الأئمة أو لا يجوز؟ وهل يجوز خلعه ولأي شيء يكون؟

ولا يخفي أن وجوب الأخذ ببيعة واحد أو اثنين فيه خطر وافتيات على أهل الحل والعقد، والمعقول أن يكون ذلك بإصفاق أكثر من حضر منهم على البيعة. وأما جواز تعدد الأئمة ففي النفس منه شيء، مهما احتج المجيزون له بترامي الأطراف واحتياج البلاد النائية إلى قوة تضبط نواحيها وتُؤمِّن فِجاجهَا ونحو ذلك من الحجج لأن هذا يحصل باختيار الكفاة من الولاة.

أما الإمام إذا بويع فإنه لا يجوز خلعه لنحو فسق لما في مفارقة الجماعة بالخروج على الإمام من الخطر وسفك الدماء والمفاسد. ولكنه إذا كفر فلا رخصة في الإبقاء عليه بل لا بدّ من خلعه. ومثل ذلك إذا جُنّ.

ولا يذهبن عليكم أن القول بعدم خلع الإمام بالفسق قول لكثير من أصحاب رسول اللّٰه عليه السلام فقد كان جمهور المسلمين على هذا الرأي في خلافة يزيد وكثير من الصحابة يساكنونه في بلده ولم يحركوا ساكناً بعزله حتى بعد أن قتل الحسين وهو سبط رسول اللّٰه ﷺ.

وفريق يرى خلاف هذا الرأي كالحسين بن علي ومن تابعه وذلك اجتهاد منهم.

٤ ـ من هو الإمام الحق بعد رسول اللّٰه ﷺ؛ أهو أبو بكر أم علي؟ ومعلوم أن الجمهور من المسلمين يقولون: إنه أبو بكر. وأما الشيعة فيقولون: إن علياً معين من قبل رسول اللّٰه ﷺ قبل وفاته. ويدّعون لذلك حديثاً هو أن النبي ﷺ قال لعلي: «أنت أخي ووصيي وخليفتي من بعدي» وأنا لا أذهب بكم بعيداً،

بل أقول: إن رسول الله لو كان قد قال هذا القول لاحتجّ به عليٌّ يوم بويـع أبو بكر واستشهد على ذلك بالمسلمين وإني لأربأ بعلي رضي الله عنـه أن يكون قـد عمل على خلاف أمر رسـول الله ﷺ فبايـع أبا بكـر وهو ليس بـالإمام الحق ثم بايع بعد ذلك عمر ثم عثمان.

٥ ـ من هو أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ؛ ومعلوم أن جمهور المسلمين عـلى أنه أبـو بكر الصـديق. والشيعة عـلى أنـه عـلي بن أبي طـالب. وأمـا نحن فنقول: علم ذلك عند الذي يعلم سرهم ونجواهم وبيـده تقليب قلوبهم الحكم في ذلك وهو على كل شيء شهيد.

٦ ـ مـا حكم إمامـة المفضول مـع وجود الفـاضل؟ ولا شـك أن الجمهور يقولون بأن الإمامة تكون حينئـذ صحيحة وحجتهم رضـا الصحابـة رضوان الله عليهم وسكـوتهم على بيعـة يـزيـد بن معـاويـة مـع وجـود من يفضله منهم ومن التابعين. وأما الشيعة فيقولون بعدم صحة بيعته.

وعلى الجملة كانت هـذه المناقشـات مع حـدّتها وغـوصها عـلى معان جميلة شـريفة في بعض الأحيـان، عـديمـة الجـدوى من الـوجهـة العمليـة، لأن هؤلاء يتجادلون بأسنّة الأقـلام في مدارسهم وعـلى صفحات كتبهم، وأولئـك يُحَكِّمُون حدّ الحسام ولا يلقون بالا لتلك المناقشات كأن شأنها لا يهمهـم.

و (السيف أصـــدق أنبـاء من الكتب   في حـــدّه الحـدّ بـــين الجـدّ واللعب)

والخلاصة أن مسألة الخلافة الإسلامية والاستخـلاف لم تسر مع الـزمن في طريق يؤمن فيها العثار؛ بل كان تركها على ما هي عليه من غير حل بَـيِّنٍ الحدود ترضاه الأمة وتدافع عنه سبباً لأكثر الحـوادث التي أضنت المسلمين وأوجـدت ما سيرد أمام أعيننـا من أنواع الشقـاق والحروب المتـواصلة التي قلما خلا منهـا زمن سواء كان ذلك بين بيتين أو بين شخصين» اهـ. من محاضـرات الخضري بـزيادة وتغيير.

نوع الحكم في الخلافة الإسلامية

إذا نحينا جانبي الإفراط والتفريط في شأن الخلافة الإسلامية واتخذنا رأي الجمهور نظاماً للحكم في الخلافة ظهر لنا بذلك نوع غريب من أنواع الحكم.

إن الحكومات التي عرفت إلى اليوم أنواع:

١ ـ حكومة يكون الملك فيها مستبداً، أمره قانون متبع وشرع مطاع لا يراجعه أحد ولا يستشير أحداً. وهذه هي الحكومة الاستبدادية ويسمونها: (حكومة أوتوقراطية) أي حكومة ذاتية.

٢ ـ حكومة ينتخب الملك فيها من بيت خاص سواء كان ذلك على نظام متبع أولاً والملك فيها ليس مقيداً باتباع مجلس من المجالس، مع وجود مجالس للتشريع وسنّ الأنظمة وإبداء الرأي في مهامّ أمور المملكة. وأعضاء هذه المجالس تنتخبها الأمة على قاعدة متبعة، كانت الحكومة (أرستوقراطية) أو حكومة الأعيان.

٣ ـ إذا كان الملك ينتخب من بيت خاص، ولكنه لا شأن له بأمور المملكة سوى إمضاء المعاهدات والأوامر، وأما شؤون المملكة فالذي ينظر فيها مجالس تنتخبها الأمة، ولا يتأتي للملك أن يبت في أمر إلاّ بعد عرضه على تلك المجالس وإبداء الرأي فيه وما يستقرّ عليه رأي المجلس يمضيه الملك، كانت

حكومة شعب ويعبر عنها بقولهم: (حكومة ديمقراطية) وتارة يعبرون عنها بحكومة شورية.

٤ ـ حكومة يكون فيها الرئيس منتخباً من بين الشعب دون بيت خاص، ويكون انتخابه بواسطة مندوبين من الأمة على نظام خاص لمدة معينة ـ كثلاث سنين أو خمس سنين ـ ومعه مجالس تنوب عن الأمة ينتخب أعضاؤها بواسطة الأمة، تنظر هذه المجالس في كل شيء والرئيس مقيد بأمرها لا يبتّ شيئاً دونها، وليس له إلّا إمضاء القوانين والأوامر التي استقر عليها رأي المجالس بمقتضى الدستور المتبع ويمضي المعاهدات الدولية ونحوها، وليس له تصرف في مالية الأمة أو نظامها، فهذه تسمى: (حكومة جمهورية).

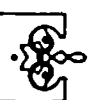
* * *

أما الخلافة الإسلامية وإن اختص الخليفة بأن يكون من قريش، ولكن قريشاً بيوت كثيرة جدّاً، فهي أشبه بأمة ولا يختص بالخلافة بيت من بيوتها دون بقيتهم، وأيضاً فإن الذي ينتخبه رجال الحل والعقد، وهم جمهور ذوي الرأي فهي من هاتين الجهتين تأخذ شبهاً من الحكومة الجمهورية.

ومن حيث إن الخليفة يُلْحَظُ في انتخابه الدوام دون أن يكون ذلك إلى زمن معين يكون معزولاً عن الخلافة بانقضائه، تأخذ شبهاً من الحكومة الملوكية.

ومن حيث إن الخليفة مقيد في اتباع أحكام نصوص الكتاب الكريم والسنة النبوية، وأن يقاس النظير على نظيره في الحوادث وما أجمع عليه أهل الحل والعقد بما ليس في كتاب ولا سنة ولم يوجد له نظير يأخذ حكمه، وليس له أن يضع شرائع من تلقاء نفسه، تأخذ شبهاً من الحكومة الدستورية أو الشورية أو (الديموقراطية).

وحيئنذ يمكننا أن نقول في تقريب وصفها مع شيء من التجوّز والتساهل في التعبير: إنها (حكومة ملوكية موحدة النظام لها بعض الشبه بالجمهورية).



انتخاب أبي بكر

لا يجهل أحد أن الأنصار إنما هم الأوس والخزرج. وهما شعبتان كان بينهما في الجاهلية ما يندر أن يكون مثله بين بني أب. وكان الخزرج أكثر عدداً، وكانت الرياسة لسعد بن عبادة من بني ساعدة وهو أحد النقباء. وكانت دار سعد مما يلي سوق المدينة وعندها سَقيفة كانت بالقرب من داره.

لم يلبث الأنصار بعد وفاة النبي ﷺ أن توافوا إلى سقيفة بني ساعدة ليدبروا رأيهم في شأن من يكون خليفة بعد رسول الله ﷺ، يريدون أن يلي هذا الأمر رجل منهم ويزووه عن المهاجرين، وكان سعد بن عبادة مريضاً فأخرجوه معهم وهو لا يقدر أن يُسمع الناس ما يقول فكان يبلغ عنه بعض ذوي قرابته ما يقول في خطبته يرفع به صوته ليسمع الناس. فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «يا معشر الأنصار، لكم سابقة في الدين وفضيلة في الإسلام ليست لقبيلة من العرب. إن محمداً عليه السلام لبث بضع عشرة سنة في قومه يدعوهم إلى عبادة الرحمن وخلع الأنداد والأوثان، فما آمن به من قومه إلّا القليل، وما كانوا يقدرون أن يمنعوا رسول الله ولا أن يعزوا دينه ولا أن يدفعوا عن أنفسهم ضيماً عُمُّوا به؛ حتى إذا أراد بكم الفضيلة ساق إليكم الكرامة وخصكم بالنعمة فرزقكم الله الإيمان به وبرسوله والمنع له ولأصحابه والإعزاز له ولدينه والجهاد لأعدائه. فكنتم أشدّ الناس على عدوّه منكم وأثقله على عدوّه من غيركم؛ حتى استقامت العرب لأمر الله طوعاً وكرهاً، وأعطى البعيدُ المقادة صاغراً داخراً؛ حتى أثخن الله عزّ وجل لرسوله بكم الأرض، ودانت بأسيافكم له العرب،

وتـوفاه اللّه وهـو عنكم راض وبكم قرير عين، استبـدوا بهذا الأمـر دون سائـر الناس فإنه لكم دون الناس».

فأجابـوه بأجمعهم أن قـد وفقت في الرأي وأصبت في القـول ولن نعدو مـا رأيت نوليك هذا الأمر فإنك فينا مقنع ولصالح المؤمنين رضي.

ثم إنهم ترادوا في الكلام بينهم، فقالوا: فإن أبت مهاجرة قريش فقـالوا: نحن المهـاجرون وصحـابة رسـول اللّه الأوّلون، ونحن عشيـرته وأوليـاؤه فعلام تنازعوننا هذا الأمر بعد؟ فقالت طائفـة منهم: فإنـا نقول إذا: «منـا أمير ومنكــم أمير» ولن نرضى بدون هذا الأمر أبداً. فقال سعد بن عبادة حين سمعهـا: «هذا أوّل الوهن».

بينما الأنصار يديرون الرأي على وجوهه ويترادون الكلام فيـما يجاوبـون به المهاجرين، نبىء عمـر بن الخطاب بـأمرهم ومـا هم عليه من الاستشـراف لهذا الأمر والتحفز للبيعة، فأقبل إلى منزل رسول اللّه ﷺ وأرسل إلى أبي بكـر (وكان مع علي رضي اللّه عنه في جهاز رسول اللّه عليه السلام) أن أخرج إليّ؛ فراجعه قائلاً: إني مشتغل بجهاز رسول اللّه، فرد عليه عمر بأن قد حدث أمر لا بدّ لك من حضوره. فخرج إليه، فقال: أما علمت أن الأنصار قـد اجتمعت في سقيفة بني سـاعدة يـريدون أن يـولوا هـذا الأمر سعـد بن عبادة. وأحسنهم مقـالـة من يقول: «منا أمير ومن قريش أمير»؟ فمضيا مسرعين نحوهم. فلقيا أبـا عبيدة بن الجراح، فتماشـوا إليهم ثلاثتهم فلقيهم عـاصم بن عديّ، وعويم بن سـاعدة. فقالا لهم: ارجعوا فإنه لا يكون ما تريدون. فلم يصغوا إلى قولهـما حتى وافوهم مجتمعين بالسقيفة وقد هيأ عمر في نفسه كلاماً يريد أن يقوم به فيهم. فلما اندفع إليهم يريد ابتداء كلامـه قال لـه أبو بكـر: رويداً حتى أتكلم ثم انـطق بعد بمـا أحببت. ثم تكلم أبو بكر: فلم يدع شيئاً مما في نفس عمر إلاّ قاله أو زاد عليه. فكان كلامه بعد حمد اللّه والثناء عليه أن قال:

«إن اللّه بعث محمـداً رسـولاً إلى خلقـه وشهيـداً عـلى أمتـه ليعبـدوا اللّه

ويوحّدوه وهم يعبدون من دونه آلهة شتى ويزعمون أنها لهم عنده شافعة، ولهم نافعة، وإنما هي من حجر منجور. ثم قرأ ﴿**ويعبدون من دون اللّه ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند اللّه - وقالوا - ما نعبدهم إلاّ ليقربونا إلى اللّه زلفي**﴾[1] فعظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم، فخص اللّه المهاجرين الأوّلين من قومه بتصديقه والإيمان به والمؤاساة له والصبر معه على شدة أذى قومهم لهم وتكذيبهم إياهم وكل الناس لهم مخالف زار عليهم فلم يستوحشوا لقلة عددهم وشنف[2] الناس لهم وإجماع قومهم عليهم، فهم أوّل من عبد اللّه في الأرض، وآمن باللّه وبالرسول، وهم أولياؤه وعشيرته وأحق الناس بهذا الأمر من بعده، ولا ينازعهم ذلك إلاّ ظالم، وأنتم يا معشر الأنصار من لا ينكر فضلهم في الدين، ولا سابقتهم العظيمة في الإسلام. رضيكم اللّه أنصاراً لدينه ورسوله وجعل إليكم هجرته، وفيكم جلة أزواجه وأصحابه. فليس بعد المهاجرين الأوّلين عندنا بمنزلتكم. فنحن الأمراء وأنتم الوزراء لا تفتاتون بمشورة ولا تقضى دونكم الأمور.

فقام الحباب بن المنذر بن الجموح فقال: يا معشر الأنصار، أملكوا عليكم أمركم فإن الناس في فيئكم وفي ظلكم، ولن يجترىء مجترىء على خلافكم ولن يصدرَ الناس إلاّ عن رأيكم. أنتم أهل العزّ والثروة، وأولو العدد والمنعة وذوو البأس والنجدة. وإنما ينظر الناس إلى ما تصنعون. ولا تختلفوا فيفسد عليكم رأيكم، وينتقض عليكم أمركم. أبي هؤلاء إلاّ ما سمعتم فمنا أمير ومنهم أمير.

فقال عمر: هيهات لا يجتمع اثنان في قَرَن. واللّه لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم، ولكن العرب لا تمنع أن تولي أمرها من كانت النبوّة فيهم، وولي أمورهم منهم، ولنا بذلك على من أبى من العرب الحجة الظاهرة.

---

(١) سورة يونس: الآية ١٨

(٢) شنف كفرح: نظر إلى الشيء كالمعترض.

من ذا يقارعنا سلطان محمد وإمارتـه ـ ونحن أولياؤه وعشيـرته ـ إلاّ مـدل بباطـل ومتجانف لإثم أو متورط في هَلَكة.

فقام الحباب بن المنذر فقال: يـا معشر الأنصار، أملكـوا على أيـديكم ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فإن أبوا عليكم مـا سألتمـوه فإجلوه من هـذه البلاد وتولوا عليهم هذه الأمور. فأنتم واللّه أحق بهذا الأمـر منهم فإنـه بأسيـافكم دان لهذا الدين من دان ممن لم يكن يدين، أنا جُذَيْلها المحكك، وعُـذَيقها المـرجب. أما واللّه لئن شئتم لنعيدنها جَذَعَة.

فقال عمر: إذن يقتلك اللّه. قال: بل إياك يقتل.

فقال أبو عبيدة: يا معشر الأنصار، إنكم أوّل من نصر وآزر. فلا تكـونوا أوّل من بدّل وغير.

فقام بشير بن سعد أبو النعمان بن بشير فقال: يا معشر الأنصار، إنا واللّه لئن كنا أولى فضيلة في جهاد المشركين، وسابقة في هـذا الدين، مـا أردنا بـه إلاّ رضا ربنا، وطاعة نبينا في الكدح لأنفسنا. فما ينبغي لنا أن نستطيـل على النـاس بذلك، ولا نبتغي به من الدنيا عرضـاً، فإن اللّه ولي المنـة علينا بـذلك. ألا إن محمداً ﷺ من قريش وقـومه أحقّ بـه وأولى وايْمُ اللّه لا يراني اللّه أُنـازعهم هذا الأمر أبداً. فاتقوا اللّه ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم.

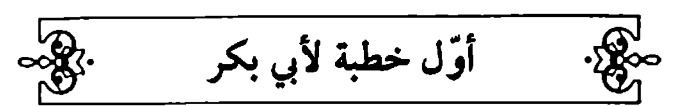
فقال أبو بكر: هذا عمر وهذا أبـو عبيدة، فـأيها شئتم فبـايعوا. فقـالا لا واللّه لا نتولى هذا الأمـر عليك. فـإنك أفضـل المهاجـرين وثاني اثنـين إذ هما في الغار، وخليفة رسول اللّه على الصـلاة والصلاة أفضـل دين المسلمين، فمن ذا ينبغي له أن يتقدمـك أو يتولى هـذا الأمر عليـك. أبسط يدك نبـايعك فسبقهـا بشير بن سعد فبايعه.

ولما رأت الأوس ما صنع بشير بن سعد، وما تدعو إليـه قريش ومـا تطلب الخـزرج من تأمـير سعد بن عبـادة، قال بعضهـم لبعض وفيهم أُسَيْـه بن حضيرة

أحد النقباء: والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة لازالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ولا جعلوا لكم معهم نصيباً أبداً، فقوموا فبايعوا أبا بكر. فقاموا إليه فبايعوه. فانكسر على سعد بن عبادة وعلى الخزرج ما كانوا أجمعوا له من أمرهم. وأقبل الناس يبايعون أبا بكر حتى كادوا يطأون سعد بن عبادة وهو مريض لا يستطيع النهوض. وتخلف عن البيعة علي بن أبي طالب ومن معه من بني هاشم، إذ كانوا مشتغلين بتجهيز رسول الله فلم يحضروا أمر السقيفة ولما سنورده. وأبي سعد بن عبادة المبايعة فتركوه لأبي بكر.

ولم يكن المانع لعلي عدم حضور السقيفة فحسب أو اشتغاله بتجهيز رسول الله ﷺ، ولكنه كان يرى أنه أحق بهذا الأمر من سواه لما له من صهر رسول الله وقرابته وسابقته وحسن بلائه في الإسلام وإن القوم قد غصبوه حقه وغلبوه على تراث رسول الله. ويريد أن يبقى على إبائه حتى لا يكون للناس عليه حجة بأنه نزل عن حقه لغيره ثم يترقب فرصة يعيد فيها الحق إلى نصابه.

غير أن الأحوال التي تلت بيعة أبي بكر من ارتداد العرب ونأيهم بجانبهم عن الإسلام، كانت أكبر من شأن الخلافة، والشدائد تذهب الأحقاد وتؤلف بين جميع من مسهم أذاها. لذلك أطرح على جانب الكلام في الخلافة ووضع يده في يد أبي بكر لدفع الأعراب عن المدينة وتثبيت كلمة الإسلام وتقليم أظافر الشرك الذي طما على الأمة.

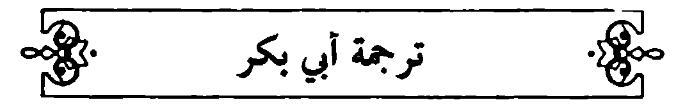


أوّل خطبة لأبي بكر

إن قيام الرؤساء من ملوك وأمراء ووزراء بالخطابة بعد تمام الأمر لهم يعربون عن خطتهم التي يتبعونها في سياسة أممهم ووجهتهم التي يولون وجوههم شطرها في حكم شعوبهم ليس بالأمر الحديث. فقد قام أبو بكر بعد توليته الخلافة. فخطب الناس خطبة أبان فيها ما اعتزم على سلوكه في سياسة الأمة بياناً لا إبهام فيه فقال:

«أيها الناس، قد وليت عليكم ولست بخير منكم. فإن أحسنت فأعينوني، وإن صدفت فقوموني. الصدق أمانة والكذب خيانة والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ له حقه، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء اللّٰه. لا يدع أحد منكم الجهاد فإنه لا يدعه قوم إلاّ ضربهم اللّٰه بالذل، أطيعوني ما أطعت اللّٰه ورسوله، فإذا عصيت اللّٰه فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم اللّٰه».

وهذه الكلمة مجمل الطريقة التي اتبعها في خلافته أخبرهم بواجب عليهم وهو إعانته، وحق لهم وهو تقويمه إذا صدف عن الحق وفيه ضمان لحريتهم في القول. أعطاهم عهداً أن يعدل فيهم فلا تمنعه قوة الظالم أن ينصف منه المظلوم، ولا يمنعه ضعف المظلوم أن ينصفه من ظالمه. حثهم على الجهاد الذي كان لا بد منه. أخبرهم أنه خليفة لينفذ الشريعة فإذا عدل عنها فلا طاعة له عليهم.



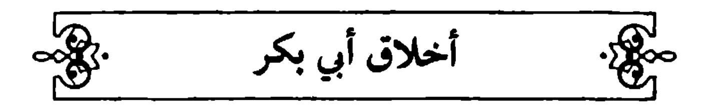
ترجمة أبي بكر

هو أبو بكر بن قحافة عثمان من بني تيم بن مرة يجتمع نسبه من رسول اللّٰه في مرة بن كعب بن لؤى. وأمه أم الخير بنت سلمى بنت صخر بن عامر من تيم بن مرة. ولد لسنتين من عام الفيل، وشب على الأخلاق الفاضلة حميد السيرة بغضت إليه الخمر في الجاهلية، وكان ذا ثراء وبسطة في الرزق، وقد ساعدته سعة حاله وما يكسبه من التجارة على الإفضال على أهل الحاجة. وكان قريباً من قلوب قريش محبباً فيهم. وإليه في الجاهلية الأشناق وهي الديات والمغارم، فإذا احتمل دية أو غرم مغرماً وأخبر قريشاً صدقوه وأعانوه عليه. وكان أبو بكر نسابة في العرب عامة وفي قريش خاصة، راوية لأخبارهم حافظاً لأنسابهم، عالماً بمفاخر كل قوم ومثالبهم. وكان يعرف من أنساب قريش وأخبارها ما لا يعرفه غيره. وكان بزازاً يعتمد على الكسب من تجارته في الجاهلية

والإسلام فبلغ رأس ماله أربعين ألف درهم أنفق منها خمسة وثلاثين ألفاً في الله ومعاونة رسوله. وكان يشتري المعذبين من الأرقاء بمكة، إذ كان يريد سادتهم فتنتهم عن الإسلام ويعتقهم. وكان أول من أجاب رسول الله ﷺ إلى الإسلام من الرجال فآمن به وصدقه وتابعه على دينه. وكان حفيّاً أثيراً لديه واحتمل أشد الإيذاء من قريش حتى لقد هم بالهجرة إلى الحبشة. فلقيه ابن الدُّغنَّة سيد القارة فأجاره على قريش وقال له: مثلك لا يهاجر إنك تصل الرحم وتصدق الحديث وتكسب المعدوم وتُعين على نوائب الدهر. وقد أجازت قريش جواره على أن لا يستعلن بصلاته لهم. فاتخذ بفناء داره مسجداً يصلي فيه ويقرأ القرآن. وكان رقيق القلب بكاء من خشية الله، فكان النساء والصبيان من المشركين يسقطون إليه ويعجبون من قراءته وصلاته. وشكاه رجال قريش إلى ابن الدغنة فرد عليه أبو بكر جواره راضياً بحماية الله تعالى له ممن يؤذونه. وقد هاجر مع رسول الله ﷺ إلى المدينة. وكان ثاني اثنين إذ هما في الغار وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ.

وإني ليعجبني قول صديقي الفاضل رفيق بك العظم رحمه الله في كتابه أشهر مشاهير الإسلام:

«تجسم أبو بكر رضي الله عنه من الفضيلة، وخلص جوهره من الدغل، وانفطر على سلامة النفس من شوائب العناد وطهارتها من عمي البصيرة عن إدراك الصواب والمماراة في الحق، فقامت لديه الحجة على الشرك وظهرت له محجة الرشد لأول وهلة من دعوة الرسول ﷺ الذي تفرس فيه الاستعداد الكامل للإيمان فبادره بالدعوة فلم يتردد، وعاهده على المظاهرة فقام بما تعهد. ولهذا قال ﷺ: «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبي بكر».



أخلاق أبي بكر

ليس من همنا أن نستقصي ما كان عليه أبو بكر رضي الله عنه من أخلاق

كريمة وسجايا جميلة، ولكنا نعمد إلى أظهر أخلاقه أثراً في أعمـاله التي استقبلهـا بعد أن ولي خلافة المسلمين، وفي معاملتهم وسياستهم. فإن لكل أمـير أو رئيس أخـلاقاً تملكـه ويشتهر بهـا، وأظهر أخـلاق أبي بكـر خلقـان: الـرقـة، وصـدق العزيمة.

أما رقته فقد كان هذا الخلق غالباً عليه من أيـام جاهليتـه واستمر معـه في الإسلام، فقد كان كثير البكاء خشية اللَّه تعالى، وكم من مرة قام يدافـع قريشـاً عن رسول اللَّه ﷺ وهو يبكي وقد لببوه بردائه قائلين: أنت الذي تريد أن تجعل الآلهة إلهاً واحـداً، وهو يـردهم عنه بـاكياً ويقـول: أتقتلون رجلاً أن يقـول ربي اللَّه؟ ولما استشار رسولُ اللَّه ﷺ أصحابه في أسرى بدر، كان رأيه أن يقبل منهم الفداء لأنهم قومـه وأهله وقد أظهـره اللَّه عليهم وعسى اللَّه أن يهديهم بـه. وقد مثله رسول اللَّه ﷺ بإبراهيم عليه السلام إذ قال: ﴿**فمن تبعني فـإنه مني، ومن عصاني فإنك غفور رحيم**﴾[1].

وسيمـر بنا في كتبـه وعهوده مبـالغته في الاستيثـاق لأهل العـافيـة والنسـاء والصبيان ومن ليس لهم شأن في الحرب ووصيته فيهم بالخير والرفق بهم.

وأما صدق عـزيمته فـإنه يتجـلى واضحاً فيـما يرد علينـا من ضبطه لـلأمور وجـدّه في حفظ البيضة ومجـاهدة المشـاقين وتسيـير دفـة الإسـلام وسط الخـطوب المظلمة وأمواج الفتن المتلاطمة حتى أرساها إلى مرفأ السلامـة والأمن. ولم يلحق بربه حتى أعاد الإسلام أقوى ما كان شوكة. وأمنع ما كان جانباً، وأثبت ما كان أسـاساً. وكـل ذلك بثبـاته أمـام الأخطار واستصغـاره الخطوب وتصميم عـزيمته ومضائه على الحق.

وأول مواقف أبي بكر إنفاذ جيش أسامـة، وقبـل الإفـاضة في الكـلام على جيش أسامة أريد أن أعجل بالكلام على ردَّة العرب بعد الإسلام.

(١) سورة إبراهيم: الآية ٣٦.

الردَّة

إن كثيراً من الأعراب المنبثين في جزيرة العرب كانوا حين وفاة رسول اللّه ﷺ لم يتفق لهم من صحبته ما يصفي جواهر نفوسهم مما مازجها من شوائب الشرك، ولم ينفذ إلى بصائرهم نور الحِكمِ الباهرة المنطوية في أوامر الإسلام ونواهيه. فزاغت بصائرهم عن أنَّ الزكاة صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، لا يكلفها إلاّ من آتاهم اللّه بسطة في الرزق. وعدُّوها إتاوة ضريبة يسامون أداءها كما يسوم الجبابرةُ من الملوك رعاياهم أداء الإتاوات وحمل المغارم. وذهلوا عن بون ما بين الخطتين. فتناجوا بالإثم والعدوان في منع الزكاة وفشت هذه المقالة في كثير منهم ـ وآخرون من دونهم فشت فيهم فاشية سَوْء وهم الذين قام فيهم متنبئون يُضلونهم بغير علم، كطليحة الأسدي، والأسود العنسي، ومسيلمة الكذاب، وسجاح التميمية. ومع أن المانعين للزكاة لم يرفضوا جميع أحكام الإسلام ولكنهم سمّوا مرتدين لجحدهم ركناً من أركانه.

ثبت على الإسلام أهل المدينة ومكة والطائف ومهاجرة الأعراب وبعض الدائنين بالإسلام في قليل من الأطراف كعبد القيس.

فلم يكد خبر وفاة رسول اللّه ﷺ ينتشر في الآفاق حتى نجم النفاق والشقاق وتطاولت أعناق كثير من قبائل العرب إلى البطش بالمسلمين وطمعوا في جانبهم وغرتهم الأماني، واللّه غالب على أمرهم.

إنفاذ أبي بكر جيش أسامة

بين هذه الفتنة الحالكة وفي معترك هذه الحوادث، والأنباء بارتداد العرب يتلو بعضها بعضاً، قام أبو بكر بإنفاذ جيش أسامة.

ذلك أن رسول اللّه ﷺ كان جهز جيشاً لمعاقبة قبائل قضاعة الضاربين في

جهات الشام مما يلي مؤتة لمظاهرتهم الروم على جيش المسلمين في غزوة مؤتة، وقد كان أمير الجيش زيد بن حارثة، وقد استشهد في تلك الغزوة فجهز جيشاً آخر لغزوهم. وقد جعل رسول اللّه ﷺ أمير هذا الجيش أسامة بن زيد، وكانت سنة ١٨ سنة، وكان تحت لوائه عدد من جلة الصحابة منهم أبو بكر وعمر. وقد حث رسول اللّه ﷺ على خروج جيش أسامة. ولم يقبل فيه مقالة من أراد أن يستبدل به من هو أسنّ منه، وقد توفي رسول اللّه قبل أن يزايل الجيش المدينة فبقي يظاهرها.

خشي المسلمون أن يطمع العرب وأهل النفاق في مسلمي المدينة إذا فصل جيش أسامة وبقي المسلمون بدون حامية قوية تردُّ عادية الطامعين فكلموا أبا بكر في استبقاء جيش أسامة ليكون للمسلمين رداءاً. وقالوا: إن هؤلاء جند المسلمين والعرب على ما ترى قد انتقضت بك فلا ينبغي أن تفرق جماعة المسلمين عنك. فقال: والذي نفسي بيده لو ظننت أن السباع تتخطفني لأنفذت جيش أسامة كما أمر رسول اللّه ﷺ.

وأرسل أسامة عمر بن الخطاب يعرض على أبي بكر تخلف الجيش عن وجهه وعهد بعض المسلمين إلى عمر أن يخاطب أبا بكر في أن يولي أمر الجيش من هو أسنّ من أسامة. فلما أفضى عمر إلى الخليفة بما حمل من رسالة زيد وجنده أبى إلّا المضاء فيما أمر به رسول اللّه واشتد على عمر حتى أخذ بلحيته وقال له: عدمتك أمك وثكلتك يا بن الخطاب، استعمله رسول اللّه ﷺ وتأمرني أن أنزعه!

تصوّر أبو بكر ماخامر قلوب رجال الجيش وما هو لاصق بنفوسهم من ألوثة الجاهلية والأنفة من تأمير من لم تُقدمه السنّ وللاستمساك بعرى التفاضل بالأنساب والأمور التي وضعها الإسلام. فرأى أن لا يجيبهم إلى طلبهم وأن يمحو من نفوسهم كل أثر من آثار الكبرياء والتفاضل إلّا بالتقوى وصالح العمل، وأن ينوّه بقدر زيد حتى يكون للقوم بخليفتهم أسوة حسنة. ولو أنه أطاع القوم لسنَّ

للناس مخالفة أمر رسول اللّه ﷺ ولأطمعهم في أن يطلبوا ما ليس لهم بحق، وفي ذلك من المضرة ما لا يجهل.

خرج أبو بكر حتى وافى الجيش وشيعهم ماشياً وأسامة راكب واستأذنه في أن يسمح لعمر بالبقاء معَه بالمدينة يستعين برأيه، فسمح له بذلك. وقال له أسامة: يا خليفة رسول اللّه لتركبن أو لأنزلن؟ فقال: واللّه لا نزلت ولا أركب، وما عليّ أن أغبر قدمي ساعة في سبيل اللّه؟

كان في عمل أبي بكر ما حدا القوم على الرضا بإمرة أسامة إذ رأوه ماشياً في ركابه غير مفتات عليه في استبقاء عمر دون إذنه، فكان عمله خير هاد لهم.

ومن جهة أخرى رأى أبو بكر أن التوقف عن إنفاذ الجيش إلى الوجه الذي أعدّ له يشعر قلوب العرب ضعف المسلمين عن حماية أنفسهم، فيطمع الذي في قلبه مرض، وإن إنفاذه إمضاء لأمر رسول اللّه ﷺ وتصوير المسلمين في النفوس بصورة القويّ الجريء الذي لم يختلج قلبه خوف ولم يستشعر الوجل.

زوّد أبو بكر جيش أسامة نصيحة هذا نصها: «لا تخونوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلاّ للأكل. وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له. وسوف تقدمون على قوم فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقاً» ثم قال: اندفعوا باسم اللّه.

نصيحة تخجل أدعياء المدنية الذين يظهرون بمظهر خدّام الإنسانية وهم أضرى العوادي عليها، ويرمون الإسلام بأنه دين الهمجية والوحشية والعسف وعدم احترام الإنسانية وهم في كل يوم يُصْلون الإنسانية من نار الهمجية ضروباً، ويذيقونها من الوحشية أفانين.

يجدر بالأمم المتمدنة أن تجعل هذه النصحية أول ما يتزوّد به الجنديّ، وأن

تكون القاعدة التي تبني عليها حقوق الدول والملل.

سار أسامة وشنّ الغارة على بلاد قضاعة وأحلافهم وغنم منهم واستمر في بعثه أربعين يوماً ثم عاد. وكان إنفاذ جيش أسامة نهاية الحزم، فقذفت في أعضاد المرتدّين حين تسامعوا به. وقالوا: لو لم يكن للقوم قوة لم يقذفوا بجيوشهم يرمون بها من بعد عنهم من القبائل ذات الشوكة. غير أن ذلك لم يثن كثيراً من المرتدّين عن الانحدار في مهواة الردّة التي زلت فيها أقدامهم.

قتال أبي بكر لأهل الردّة

إن الدين الإسلامي يُعْتَبَرُ أهله والداخلون فيه بمثابة جند على تعبية لمنازلة العدوّ العادي. فمن نكل عن العدوّ وخام عن اللقاء وولي العدوّ ظهره إلاّ متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة، فقد باء بغضب من الله واستحق جزاء الجنديّ الفارّ من صفوف الجيش أو المنحاز إلى الأعداء المظاهر لهم. لهذا كان قتال المرتدّين إلى أن يفيئوا إلى دينهم أوجب من قتال المخالفين، ولأن إعطاء الهوادة في أمرهم يكون مدرجة لمشاقة سواهم حتى تتفرّق الكلمة وتنشق العصا وتنفض البيضة وتكون فتنة في الأرض وفساد كبير.

الدين الإسلامي لا يفرض على متبعيه أتاوة، ولا يفرض عليهم خرجاً ولا يخلو حال الأمة من إقامة ولاة وأمراء وبعث بعوث وإطفاء فتن والإنفاق على مصالح عامة ومواساة ضعيف وإعانة ذي حاجة ونحو ذلك من الوجوه التي بينها الكتاب وجعلها مصارف للصدقات، ولا مادة لكل هذه الوجوه سوى الزكاة التي هي ركن لا يتحقق الإسلام من امرىء إلاّ بالإقرار به والعمل بمقتضاه.

لهذا كله كان المانعون للزكاة مساوين في الحكم للجاحدين للدين بعد انضوائهم إليه وانتظامهم في صفوف جنده.

رأى فريق من الصحابة ـ بعد تواتر الأخبار بارتداد العرب ومنع فريق

منهم الزكاة ـ أن يقبل أبو بكر منهم ما بذلوه وهو الصلاة ليكون ذلك تأليفاً لقلوبهم حتى يرجع جيش أسامة ويشتدّ ساعد المسلمين ثم يرمي المدبر بالمقبل، فلم يقبل أبو بكر هذا الرأي لأنه مؤذن بالضعف وثلمة لا يلبث القوم أن يوسعوها بالمطالب حتى يعودوا إلى وثنيتهم الأولى وما كان له أن يبدّد ذلك الإرث الذي خلفه رسول اللّه ﷺ بمجرد تناوله فقال: «واللّه لو منعوني عناقاً كانوا يؤدّونها إلى رسول اللّه ﷺ لقاتلتهم على منعها».

إذا صدقت العزائم واتحدت الوجهة وَخَلُصَتِ النيات في عصابة تحاول مروماً. فهناك يكون النصر القريب والفتح المبين. ناهيك بعصابة قوامها المهاجرون والأنصار، وهم قوم قد تأدّبوا بآداب الدين، وغلبت على نفوس كثير منهم أخلاق القرآن. وقد تبوّأ مكان الرئاسة فيهم أبو بكر الصديق يحف به ويؤازره على سياسة أمره أمثال علي وعمر وخالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل وعمرو بن العاص وخالد بن سعيد والمهاجر بن أبي أمية وأبي عبيدة بن الجراح ويزيد ومعاوية ابني أبي سفيان وعياض بن غنم وحبيب بن سلمة الفهري وسعد بن أبي وقاص وغيرهم من أصحاب محمد ﷺ «وكل إذا عُدّ الرجالُ مقدمُ».

كانت حامية المدينة قليلة بعد ارتحال جيش أسامة. فأخذ أبو بكر بالحزم ولم يشأ أن يعاجل العرب بما اعتزم عليه من إعضاض السيف رقابهم حتى تستقيم له قناتهم ويعودوا إلى الدين الذي إمرقوا منه حتى يعود جيش أسامة. فأخذ يطاول في الأمر ـ غير أن عبساً وذبيان وغطفان وأسداً وطيِّئاً قد أعجلوه. وكان بعضهم نازلاً بذي القصة وبعضهم بالأبرق بالقرب من المدينة وأرسلوا إليه وفداً يبذلون الصلاة ويمنعون الزكاة فأبى عليهم أن يجيبهم إلى تفريق ما جمع اللّه ـ والظاهر أن الوفد كانت له مهمة أخرى، وهي تجسس أحوال المسلمين والعلم بما هم عليه من قوّة أو ضعف.

عاد الوفد بعد ذلك إلى القوم بجواب أبي بكر وأفضوا إليهم بما رأوه من

قلة عدد المسلمين وضعف جانبهم وأطمعوهم في منازلتهم. غير أن الوفد كان على خطأ فيما أنبأ به القوم، فقد كان للقوم مدد لا يبصر بالعيون، وهو قوّة الإيمان وصدق اليقين وثبات إرادة القادة ومضاؤهم. ويؤازر هذا المَدَدَ مددٌ آخر، وهو طول التجربة والتمرس بالحرب والاكتواء بنارها في مختلف الوقائع التي لم يَنْفضوا عنهم غبارها، وأن مساعير الحرب من أمثال علي وطلحة والزبير وغيرهم من صناديد قريش لا تلين لهم قناة لا يفَلُّ لهم حدّ.

لم ينم أبو بكر بعد أن ردّ وفد القوم بالخيبة. بل أخذ يستجيش من تيسر له من المسلمين خشية أن يبيت القومُ المدينة، فجعل على أنصار المدينة علياً وطلحة والزبير وابن مسعود، وجعلهم على أنقاب المدينة. وأخذ أهل المدينة بحضور المسجد خوف البيات، ليكون منهم المدد لمن على الأنقاب إذا داهمهم العدوّ في ليل أو نهار.

لم يكن إلاّ ثلاث ليال من عود الوفد حتى طرق القوم المدينة غارة مع الليل. وقد خلفوا بعضهم بذي حِسى ليكونوا لهم فئة ورداءاً. وكان الذين على الأنقاب قد بثوا نفراً منهم يدرجون بعيداً عنهم، فلما أحسوا القوم نبهوهم، وعلم أبو بكر فخرج في أهل المسجد على النواضح فانهزم أهل الردّة وتبعهم المسلمون على الإبل حتى بلغوا ذا حِسىً خرج عليهم الردة بأنحاء قد نفخوها[1] وجعلوا فيها حبالاً ودهدهوها (دَحْرَجُوها) في وجوه إبل المسلمين فنفرت عائدة إلى المدينة لا يملك راكبٌ رأس بعيره، ولم يصب أحد من المسلمين. ولكن أبا بكر بات على تعبية وهيأ جنده وخرج في عقب ليلته يريد الأعداء.

أما المرتدّون فلما رأوا نفار الإبل غرّهم ذلك وبعثوا إلى أهل ذي القصة، وما طلع الفجر إلاّ وقد وافاهم أبو بكر بجنده وما سمعوا للمسلمين همساً ولا حساً حتى وضعوا السيف في رقابهم. وما ذر قرن الشمس حتى منح اللّه

---

(١) الأنحاء، جمع نحى (بكسر النون وسكون الحاء): الزق.

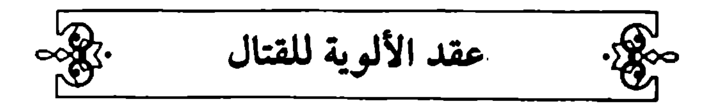
المسلمين أكتافهم وغنموا إبلهم، وكان نصر المسلمين في هذه الموقعة كنصرهم في وقعة بدر أوّل الإسلام فقد عزَّ بها المسلمون وذلّ المشركون.

جزعت عبس من هذه الوقعة أيّ جزع فطاشت أحلامهم ولم يجدوا إلى نكاية المسلمين سبيلاً سوى أن يقتلوا من كان مسلماً فيهم كل قتلة. ومعلوم أنهم بذلك إنما يقتلون أنفسهم ويوهنون جماعتهم ولا يضير ذلك جماعة أبي بكر، فحلف أبو بكر ليقتلنّ في كل قبيلة بمن قتلوا من المسلمين وزيادة.

بينما أبو بكر يعدّ للقوم ما استطاع من قوّة وافاه جيش أسامة فأمرهم بالإقامة بالمدينة ليأخذوا راحتهم ويريحوا ظهرهم، وخلف أسامة على المدينة حين خروجه لأهل ذي القصة.

وحين أراد أبوبكر الخروج مع الجند للقتال قالوا له: ننشدك اللّه يا خليفة رسول اللّه أن تعرّض نفسك فإنك إن تُصَب لم يكن للناس نظام ومقامك أشدّ على العدوّ، فابعث رجلاً فإن أصيب بعثت آخر. فقال: لا واللّه لا أفعل ولأواسينكم بنفسي.

سار أبو بكر بجنوده كما سار أوّلا إلى ذي حِسَى وذي القصة حتى نزل على أهل الربذة بالأبرق، فانهزمت بنوعبس وبنو بكر وأقام بالأبرق أياماً وقد غلب بني ذبيان على بلادهم وحماها لخيل المسلمين وأرعى سائر الناس الربذة ثم عاد إلى المدينة.



عقد الألوية للقتال

ولما استراح جيش أسامة خرج أبو بكر إلى ذي القصة على بريد من المدينة تلقاء نجد وَقطَّعَ الجند وعقد أحد عشر لواء لأحد عشر أميراً وأمر كل أمير أن يستفزّ مسلمي القبائل التي يمرّ بها ليكون بعضهم في جنده ويتخلف بعضهم لحماية قومهم. وقد حضرت في تلك الأيام صدقات فكانت عوناً.

وهؤلاء هم الأمراء الذين رمى بهم أبو بكر المرتدّين:

١ ـ خالد بن الوليد: وجهه إلى طليحة بن خويلد الأسدي بِبَـزَاخَة، فإذا فرغ من أمره قصد مالك بن نويرة بالبُطاح.

٢ ـ عكرمة بن أبي جهل: وجهه به إلى مسيلمة الكذاب باليمامة.

٣ ـ شُرَحْبيل بن حسنة وجهه في أثر عكرمة بن أبي جهل، فإذا فرغ من أمر مسيلمة قصد قضاعة.

٤ ـ المهاجر بن أبي أمية: وجهه به إلى جنود الأسود العنسي بصنعاء اليمن ومعاونة الأبناء على قتالهم ـ والأبناء: هم مولدة الفرس باليمن آمنوا وثبتوا على إيمانهم وذرّيتهم بها إلى اليوم ـ.

٥ ـ حذيفة بن مِحْصَن: وجهه إلى أهل دَبا بعُمان:

٦ ـ عرفجة بن هرثمة: وجهته أهل مهرة: وأمره هو وحذيفة أن يجتمعا وكل واحد منهما أمير على صاحبه فيما وجه إليه.

٧ ـ سويد بن مُقَرِّن إلى تهامة باليمن.

٨ ـ العلاء بن الحضرمي ووجهه إلى البحرين.

٩ ـ طريفة بن حاجز ووجهه إلى بني سليم ومن معهم من هوازن.

١٠ ـ عمر بن العاص ووجهه إلى قضاعة.

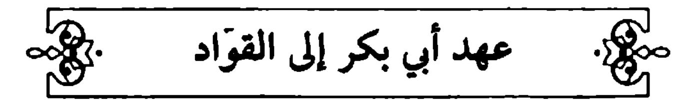
١١ ـ خالد بن سعيد ووجهه إلى مشارف الشام.

وقد فصلت الأمراء بجيوشها من ذي القصة بعد أن كتب إلى المرتدِّين من العرب كتاباً واحداً أرسله إليهم ليكون لهم نذيراً بين يدي جيوشه ليكون قد أعذر إليهم قبل الإيقاع بهم. فكان أول منشور عام يقرأ في مجامع الناس وأنديتهم. ولما كان هذا المنشور مطوَّلاً فنحن نجتزيء بأن نقتطف بعضه وهو ما يتعلق بالمرتدِّين.

كتب أبي بكر إلى أهل الردّة

بعد أن ذكر اللّٰه تعالى بما هو أهله وذكر رسول اللّٰه ووفاته قال: «وقد بلغني رجوع من رجع منكم عن دينه بعد أن أقرَّ بالإسلام وعمل به اغتراراً باللّٰه وجهالة بأمره وإجابة للشيطان. قال اللّٰه تعالى: ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدوّ بئس للظالمين بدلاً﴾[1] وقال: ﴿إن الشيطان لكم عدوّ فاتخذوه عدوّاً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾[2]. وإني قد بعثت إليكم فلاناً في جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان وامرته أن لا يقاتل أحداً ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية اللّٰه فمن استجاب له وأقرّ وكفّ وعمل صالحاً قبل منه وأعانه عليه، ومن أبى أمرت أن يقاتله على ذلك ثم لا يبقى على أحد منهم قَدَرَ عليه، وأن يحرقهم بالنار ويقتلهم كل قتلة، وأن يسبي النساء والذراري ولا يقبل من أحد إلاّ الإسلام. فمن اتبعه فهو خير له ومن تركه فلن يعجز اللّٰه. وقد أمرت رسولي أن يقرأ كتابي في كل مجمع لكم والداعية الأذان. فإذا أذن المسلمون فأذنوا كفّ عنهم وإن أقرّوا قبل منهم وحملهم على ما ينبغي».

ونفذ الكتب مع الرسل أمام الجنود.



عهد أبي بكر إلى القوّاد

وكتب إلى قوّاده عهداً صورته واحدة وهي:

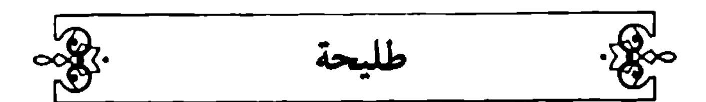
«هذا عهد من أبي بكر خليفة رسول اللّٰه ﷺ لفلان حين بعثه فيمن بعثه

---

(١) سورة البقرة: الآية ٣٤.

(٢) سورة فاطر: الآية ٦

لقتال من رجع عن الإسلام وعهد إليه أن يتقي اللّه ما استطاع في أمْره كله سرّه وعلانيته وأمره بالجدّ في أمر اللّه ومجاهدة من تولى عنه ورجع عن الإسلام إلى أماني الشيطان بعد أن يعذر إليهم فيدعوهم بداعية الإسلام فإن أجابوه أمسك عنهم وإن لم يجيبوه شنّ غارته عليهم حتى يقرّوا له ثم ينبئهم بالذي عليهم والذي لهم فيأخذ ما عليهم ويعطيهم الذي لهم ولا ينظرهم ولا يردّ المسلمين عن قتال عدوّهم. فمن أجاب إلى أمر اللّه عز وجل وأقرّ له قَبِل ذلك منه وأعانه عليه بالمعروف. وإنما يقاتل من كفر باللّه على الإقرار بما جاء من عند اللّه فإذا أجاب إلى الدعوة لم يكن عليه سبيل، وكان اللّه حسيبه بعد فيما استسر به. ومن لم يجب داعية اللّه قتل وقوتل حيث كان وحيث بلغ مراغمة لا يقبل من أحد شيئاً أعطاه إلاّ الإسلام فمن أجابه وأقرّ قبل منه وعلمه. ومن أبى قاتله فإن أظهره اللّه عليه قتل منهم كل قتله بالسلاح والنيران ثم قسم ما أفاء اللّه عليه إلاّ الخمس فإنه يبلغناه، وأن يمنع أصحابه العجلة والفساد، وأن يدخل فيهم حشوا حتى يعرفهم ويعلم ما هم لا يكونوا عيوناً ولئلا يؤتي المسلمون من قبلهم، وأن يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم في السير والمنزل ويتفقدهم ولا يعجل بعضهم عن بعض ويستوصي بالمسلمين في حسن الصبحة ولين القول».



طليحة

هو طليحة بن خويلد الأسدي، علم بمرض رسول اللّه ﷺ بعد حجة الوداع فسوّلت له نفسه أن يدّعي النبوّة في قومه ومن يليهم ليكون له مثل ما لنبي قريش. فتابعه قومه من بني أسد وأرزت إليهم عبس وذبيان وبعض من جديلة والغوث وطيء لما لها من الحلف في بني أسد.

كان عدي بن حاتم الطائي مقيماً بالمدينة وقد خشي على قومه أن يجتاحهم خالد وقد أمر أن يبدأ بهم، فاستأذن أبا بكر في اللحاق بقومه ليردّ من رجع منهم إلى الإسلام وليعين بهم خالدا، فأذن له، ففارق المدينة إلى قومه وصار يفتلهم في

الذروة والغارب حتى وافقوه على الإسلام ومفارقة طليحة وأرسلوا قومهم الذين مع طليحة ببزاخة وجاء عدي إلى خالد ليتلبث ثلاثاً حتى يعود رجال طيء لئلا يعتريهم طليحة بسوء، ففعل، ولحق من كان ببزاخة من طيء بجيش خالد ومعهم من خف من طيء. وأراد خالد أن يقصد جديلة، فشقّ ذلك على عدي ونهنهه عن قصده وأشار عليه بالتلبث حتى يأتي جديلة لعل اللّه ينقذهم به كما أنقذ بني الغوث قوم عدي، ففعل خالد ولم يزل عدي بالقوم حتى جاء إلى خالد بإسلامهم، وانضم منهم إلى جيش المسلمين ألف راكب، فكان عدي خير مولود ولد في أرض طيء وأعظمه بركة عليهم.

يمم خالد بجيشه ومن انضم إليهم من طيء بزاخة لقتال طليحة ومن لف لفه وكان طليحة يُسَمِّي المَلَكَ الذي يزعم أنه يأتيه بالوحي «ذا النون» وسن لهم الصلاة من قيام وقال: ما يصنع اللّه بتعفير وجوهكم، إن الرغوة فوق الصريح.

التقى خالد مع جيوش طليحة واستحرّ القتل بين الفريقين وعضت الحرب بني فَزارة وقائدُها وسيدها عيينة بن حصن يكرّ على طليحة كلما ضرسته الحرب يقول له: هل جاءك ذو النون؟ فيقول: لا وطليحة ملتفّ بكسائه بفناء بيت له من شعر. فلما استعر أوار الحرب جاء وقال له: هل جاءك ذو النون؟ قال: نعم جاءني وقال «إن لك يوماً ستلقاه ليس لك أوله ولكن لك أخراه ورحا كرحاه وحديثا لا تنساه» فقال عيينة: أرى واللّه أن لك حديثاً لا تنساه يا بني فَزارة هذا كذاب. وولي من عسكره ومنح اللّه المسلمين أكتافهم. وعمد طليحة - إذ رأى الهزيمة - إلى فرس كان قد أعدّه فركبه وأردف زوجته خلفه وقال: من استطاع أن يفعل كما أفعل فليفعل وولى وجهه شطر الشام. ثم عاد مسلماً وحسن إسلامه وكان ذا بلاء في قتال فارس في أيام عمر.

كان بنو عامر بن صعصعة قريباً من ساحة القتال ببزاخة على قادتهم وسادتهم ينظرون إلى القتال فلما رأوا ما حل بطليحة وجموعه أقبلوا يقولون:

ندخل فيما خرجنا منه ونؤمن بالله ورسوله ونسلم لحكمه في أموالنا وأنفسنا.

وقد كان الذي أعظم أمر طليحة بعد صغره ما سنقصه. وهو أن الرجل ادّعى النبوّة في حياة رسول الله فأرسل الرسول ضراراً إلى بني أسد وأمرهم بالقيام على كل من ارتدّ، فأشجوا طليحة وأخافوه، ونزل المسلمون بواردات والمرتدُّون بسميراء وأمْرُ المسلمين في نماء وأمر طليحة في انعكاس، وهَمَّ ضرار أن يأخذ طليحة سلماً وضرب طليحة بالسيف فنبا عنه فشاع أن السيف لا يحيك في جسده وجاء الخبر بموت رسول الله ﷺ والناس على ذلك فانفض من كان مع ضرار عنه وعظم أمر طليحة إلى أن كان ما أوردنا.

بنو تميم ومالك بن نويرة

كان رسول الله قد أمَّر على بطون تميم أمراء، منهم الزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم ووكيع بن مالك بن نويرة، فلما شاع موت رسول الله ﷺ كان منهم من بقي على الوفاء بما عاهد عليه الرسول فبعث بالصدقة إلى أبي بكر، ومنهم من منعها، ومنهم من تردَّد. وكان المانع مالك بن نويرة، وكان اختلاف القوم داعياً لاشتغال بعضهم ببعض.

وبينما القوم على هذه الحال إذ أقبلت عليهم سجاح بنت الحارث، وكانت نازلة مع أبيها في بني تغلب بالجزيرة وأبوها من بني يربوع من تميم.

كانت هذه المرأة قد ادَّعت النبوّة وتابعها على أمرها جموع من نصارى تغلب فهبطت بهم تريد قتال جند أبي بكر فلما أشرفت على بني تميم أرسلت إلى مالك بن نويرة سيد بني يربوع فوادعها وثناها عن قتال أبي بكر وأغراها بمخالفيه من أحياء بني تميم وتابعها على أمرها وكيع بن مالك وقومه فسجعت لهم قائلة: «أعدوا الركاب، واستعدُّوا للنهاب، ثم أغيروا على الرِّباب، فليس دونهم حجاب» فاستعرت نار الحرب في بني تميم.

ولما رأت أمرها لم يتم في بني تميم قالت لجندها من ربيعة وإياد وسواهم: «عليكم باليمامة، ودفوا دفيف الحمامة، فإنها غزوة صرامة، لا تلحقكم فيها ملامة» فنهدت بمن معها إلى بني حنيفة، وهابها مسيلمة وخاف إن هو شغل نفسه وقومه بأمرها أن يدهمه من جيوش أبي بكر داهم، وتتخطفه القبائل من حوله. فأهدى إليها الهدايا، واستأمنها على نفسه حتى يكلمها. فأمنته وأمها في أربعين وافداً من قومه، فقال لها مسيلمة: لنا نصف الأرض وكان لقريش نصفها لو عدلتْ، وقد رد اللّه عليك النصف الذي ردت قريش فحباك به، وكان لها لو قبلت. فقالت: لا يرد النصفَ من الأجنَف فاحمل النِّصْف، إلى خيل تراها كالسَّهْف. فقال مسيلمة: سمع اللّه لمن سمع وأطعمه بالخير إذا طمع، ولا زال أمره فيها سر نفسه يجتمع. رآكم ربكم فحياكم، ومن وحشة خلاكم، ويوم دينه أنجاكم. فأحياكم علينا من صلوات معشر أبرار، لا أشقياء ولا فجار، يقومون الليل ويصومون النهار لربكم الكُبَّار، رب الغيوم والأمطار. إلى غير ذلك من الأسجاع. وكان قد شرع لهم الامتناع عن النساء إذا ولد للرجل ولد ذكر إلى أن يموت ذلك الولد فيطلب أبوه غيره.

وقال مسيلمة لسجاح: هل أتزوّجك وآكل بقومي وقومك العرب؟ قالت نعم، فتزوّجها وأقامت معه ثلاثة أيام. ولما رجعت إلى قومها سألوها عن أمرها فقالت: إني وجدته على الحق فاتبعته وتزوجني. فسألوها عن صداقها فقالت: لم يعطني صداقاً. فردوها إليه لأنه قبيح بمثلها أن يزوج بلا صداق. فلما سألته الصداق دعا مؤذنها شبَث بن رِبْعي الرياحي، فأمره أن يؤذن في الناس أنه حط عن الناس صلاتين مما أتى به محمد: صلاة العشاء الآخرة وصلاة الفجر. وكان من أصحابها الزبرِقان بن بدر وعُطارد بن حاجب وعمرو بن الأهتم وغيلان بن خَرشَة وشَبَث بن رِبْعي.

انتهى الأمر بين سجاح ومسيلمة على أن يحمل إليها النصف من غلات اليمامة فطلبت أن يسلفها السنة المقبلة فعجلها بنصف السنة وخلفت على

السلف من يجمعه لها وانصرفت إلى الجزيرة.

لما عادت سجاح إلى الجزيرة ندم مالك بن نويرة على ما فعل وحار لا يدري ما يأتي وما يدع، وكذلك بقية مرتدّة بني تميم ورؤساءهم ندموا ندماً ظاهراً وأرسلوا الزكاة إلى خالد. وأما مالك فمنع الزكاة ورأى أن لا طاقة لقومه بني يربوع بخالد وجنوده، فأمرهم أن يتفرقوا. فلما ورد خالد البُطاح لم يجد أحداً، فبثّ سراياه مغيرة على من لقيها منهم، فجاءته السرايا بمالك في نفر من بني يربوع فحبسهم خالد ثم أمر بقتلهم فقتلوا، ويروى في قتله روايات أخرى.

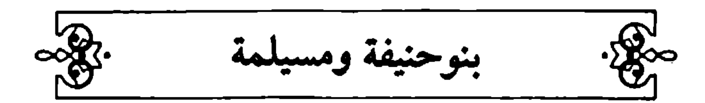
كان بعض رجال من جيش خالد قد شهدوا أن القوم أذّنوا حين سمعوا أذان المسلمين، وأنهم بذلك قد حقنوا دماءهم وأن قتلهم لا يحل، ومن أولئك القوم أبو قتادة صاحب رسول اللّه ﷺ. فأكبر الأمر، وزاد ذلك عنده أنه رأى خالد بن الوليد قد تزوّج امرأة مالك بن نويرة، ففارق أبو قتادة خالداً وقدم على أبي بكر ليشكو إليه خالداً فيما خالف فيه. فرأى أبو بكر أن فراق أبي قتادة لخالد خطأ لا ينبغي أن يرخص فيه له ولا لغيره لأنه يكون سبباً للفشل والجيش في أرض العدوّ، فاشتد على أبي قتادة ورده إلى خالد. وعملُ أبي بكر من أحكم السياسات الحربية.

كثر كلام المسلمين في شأن خالد وما صنع، وجاء متمم بن نويرة شاكياً ما صنع خالد بأخيه واشتدّ عمر في شأن خالد عند أبي بكر وأراده على أن يُقيِّدَ منه بمالك وأصحابه. فأبى أبو بكر عليه ذلك. وقال له: «هيه يا عمر، قد تأول فأخطأ فارفع لسانك عن خالد»، ولما عاد خالد إلى أبي بكر اعتذر مما كان منه في شأن مالك، وساق أبو بكر دية مالك بن نويرة. وبانكسار بني يربوع عاودت تميم كلها الإسلام ورضيت أن تؤدي إلى أبي بكر الزكاة كما كانت تؤديها إلى رسول اللّه ﷺ.

وقد كان من سياسة أبي بكر المبنية على الحكمة أن لا يَقِيد من عماله وقواده ووزعته إذا حصل منهم أمر في وجههم لقتال العدوّ، لأن مفاجأة القائد

وهو في جهاد عدوّه بالعقاب تخبث نفوس بقية القوّاد، وتطمع فيهم الجند، وتطلق ألسنة العيابين، وتفسد الأمر.

وهذه السياسة الحكيمة هي التي نراها من الأمم العريقة في الاستعمار: لا تعجل بمحاسبة عمالها على خطأ كان منهم، ولا تخذلهم في أثناء قيامهم بأعمالهم في خدمتها، وإنما تتريث في الأمر حتى إذا سكتت الزّوابع، وكفّت ألسن الشكاية وكان الأمر ثابتاً لا شبهة فيه، عمدت إلى نقل عاملها إلى مكان آخر وربما زادت في مرتبته حتى لا يتوهم الشاكون أن نقله كان بسعيهم أو إجابة لمطالبهم، وفي ذلك قطع لمطامع الشاكين. وهي سياسة الإنكليز في هذا العصر.



بنو حنيفة ومسيلمة

قدمنا أن بني حنيفة كانوا قد وفدوا على النبي ﷺ وأسلم الوفد وكان فيهم مسيلمة في رحالهم يحفظ ظهرهم، فلما أعطاهم رسول اللّه العطايا ذكروا له مكان مسيلمة فأعطاه كما أعطى واحداً منهم وقال: أما واللّه إنه ليس بشرّكم مكاناً يحفظ ضيعة أصحابه. ولما عاد الوفد إلى قومهم ادّعى مسيلمة أنه أشرك مع رسول اللّه في الرسالة إلى آخر ما بينا.

لما فصل عكرمة بن أبي جهل بجيشه إلى اليمامة لقتال مسيلمة، أرسل أبو بكر في أثره شرحبيل ليجتمعا على قتال مسيلمة. فأراد عكرمة أن يذهب بفخر القتال فتعجل وواقعه بنو حنيفة ونكبوه، ووقف شرحبيل حيث بلغه الخبر وكتب عكرمة إلى أبي بكر بما أصابه، فقال أبو بكر لعكرمة في كتاب بعث به إليه: «لا أَرَيَنَّك ولا تراني، لا ترجع فتوهن الناس، امض على وجهك حتى تساند حذيفة وعرفجة فقاتل معها أهل عمان ومهرة ثم تسير أنت وجندك تستبرءون الناس حتى تلتقوا أنتم والمهاجر بن أبي أمية باليمن وحضرموت» وكتب إلى شرحبيل بالتوقف حتى يأتيه أمره.

كان خالد بن الوليد قد فرغ من أمر بني يربوع كما قدمنا، فوجهه أبو بكر إلى اليمامة بمن معه وضمّ إليه جنوداً أخرى، لأن أمر مسيلمة كان قد استفحل باليمامة، وانضمّ إليه جنود تبلغ أربعين ألفاً على ما يرويه الطبري، اتبعوه عصبية وحِفَاظاً لقوميتهم مع إقرارهم بكذبه، حتى إن بعضهم كان يقول: أشهد أن مسيلمة كذاب، ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر.

سار خالد بجنده بعد أن ألحق به من أوعبهم أبو بكر من المقاتلة، وكان شرحبيل قد فعل فعلة عكرمة فأصابه ما أصابه فلامه خالد، ثم إن خالداً قدم إلى اليمامة وواقع القوم وحاربهم أشد حرب، واستمات بنو حنيفة في القتال حتى انكشف المسلمون. وكادت الدبرة تكون عليهم لولا أن اللّه ألهم رجالاً من المؤمنين أن صرخوا في القوم وصدقوا الحملة على بني حنيفة، وتبعتهم فئة باعوا أنفسهم للّه، حتى خالطوا مسيلمة فقتلوه. وقد تولى قتله وحْشي قاتل حمزة ورجل من الأنصار؛ فلما رأى بنوحنيفة ذلك داخلهم الوهن، فلجأوا إلى حصونهم واعتصموا بها، وكانت النصرة لخالد وجيشه في النهاية.

بعد أن تمّ الأمر على هذا الوجه جاء إلى خالد مُجاعة بن مرارة فصالحه على أن يحقن دم المقاتلة، وأن يأخذ ما عندهم من نقود الذهب والفضة والسلاح وربع السبي. وبعد أن تمَّ الاتفاق على الصلح ورد على خالد كتاب من أبي بكر يأمره بقتل مقاتلتهم، وقد كتبت شروط الصلح فوفي خالد للقوم بما عاهدهم عليه.

بعد أن انتهى الصلح على هذا الوجه رجعت بنو حنيفة إلى الإسلام. فأرسل خالد وفداً منهم إلى أبي بكر. فقال لهم حين قدموا عليه: ويحكم ما هذا الذي استنزل منكم ما استنزل؟ قالوا: يا خليفة رسول اللّه، قد كان الذي بلغك مما أصابنا. كان امرءاً لم يبارك اللّه عز وجل له ولا لعشيرته فيه، ثم سألهم عن بعض أسجاع مسيلمة، فتلوا عليه شيئاً منها، فقال: سبحان اللّه! واللّه ما خرج هذا من إلٍّ ولا بَرٍّ فأين يذهب بكم؟.

وبهـذا انتهى أمر بني حنيفـة بعد أن عضّت المسلمـين حربهم، وقتـل فيها كثـير من المهاجـرين والأنصار والتـابعين بـإحسان. وأقـام خالـد بواد من أوديـة اليمامة يقال له الوَبَر وقد قتل في هذه الحرب كثير من حفاظ القرآن.

اليمن والأسود العنسي

كـان باذان عـامـلاً للفـرس عـلى اليمن، فلما أسلم وأسلمت اليمن أقـره رسول اللّه ﷺ على ما كان في يده حتى مات. وبعد وفاتـه جعل رسـول اللّه ابنه شهراً والياً على صنعاء، وولي عـلى بقية اليمن عمـالاً آخرين، وجعـل معاذ بـن جبل معلماً ينتقل في كل ولاية من هذه الولايات.

حـدث قبل وفـاة رسول اللّه أن قـام رجل من عنس إحدى قبائـل قحطان اسمه الأسود العنسي كان كاهناً فتنبأ، وتـابعه عـلى أمره قـوم من أعراب اليمن، فـاشتدّ بهم سـاعده واقتحم بهم بـلاد نجران، فلم تلبث أن دانت لـه ودخل في أمره عَوَامُّ مَذحج، فكثر سواده وأَمَرَ أمْرهُ.

وكان الرجل رأى أن التريث يفسد عليه أمره، فرأى أن يبادر الفرصة قبل أن يجتمع أمر المسلمين وتتدبر القبائل في شأنها. فقصد صنعاء وهي أكبر حواضر اليمن وأكثرها حاضراً وأوسعها ثروة، فنـازل عاملهـا شهراً وقتله وهـزم الأبناء، وهم مولدة الفرس باليمن. ولم يكن بين خروجه لهذا الأمر واستيلائه على صنعاء سوى خمس وعشرين ليلة، ثم تـزوّج بامـرأة شهر بـن بـاذان. وصار الـرجل لا يميـل إلى قوم إلاّ دخلوا في أمـره أو صانعـوه تقية وإبقـاء عـلى أنفسهم وذريتهم، وجعـل أمره يستـطير استطارة الحـريق، وقد كتب عمـال رسول اللّه إليـه بشـأن الأسـود وما يصنـع، فأرسـل عليه السـلام كتابـاً على يـد وَبَـر بن يُحَنِّس إلى من بصنعـاء من الأبناء يـأمرهم فيـه بالقيـام على دينهم والنهـوض إلى العمل في أمـر الأسود وقتله بكل مـا يمكن من الوسـائل مصـادمة أو غيلة، وأن يبلغـوا من رأوا عنده نجدة وديناً.

عمل القوم على أمر رسول اللّه ﷺ، فرأوا أمـر الرجـل مُسْتَصعباً عليهم. وبينما هم على هـذه الحـال إذ علمـوا بتغـير الأسـود عـلى قيس بن عبـد يغـوث المرادي، وكان رئيس جنده وقد خبثت نية الأسود عليه وأضمر له الشر، وأعلمه أن الوحي أتاه وقال له: إن الملك يقول: عَمَدْت إلى قيس فأكرمته حتى إذا دخل منك كل مُدَّخَل وصـار في العزمثلك، مـال ميل عـدوّك وحاول ملكـك وأضمر على الغدر. إنه يقول: يا أسود يا أسود يا سوأة يـا سوأة، اقـطف قُنَّتَه وخـذ من قيس أعـلاه وإلاّ سلبك أو قـطف قُنَّتَك. فقـال قيس: وأقسم بـه، كـذب وذي الخمـار. لأنت أعظم في نفسي وأجـلّ عندي من أن أحـدّث بـك نفسي. فقـال الأسود: أتكذّب الملك؟ قد صدق الملك وعرفت الآن أنك تائب!

انتهز الأبناء هذه الفرصة ودعوا قيساً إلى ما يرون من الفتك به، فلبى ثم أفضوا إلى آزاد امرأة الأسود التي تزوّجهـا بعد شهـر بن باذان بـأمرهم وقـال من لقيها منهم: يا ابنـة العمّ قد عـرفتِ بلاء هـذا الرجـل عند قـومك قتـل زوجك وطأطأ في قومك القتل وسفل بمن بقي منهم وفضح النساء، فهل عندك من ممالأة عليه، إخراجه أو قتله؟ قالت: نعم! واللّه ما خلق اللّه شخصاً أبغض إليّ منه، ما يقوم للّه على حقّ ولا ينتهي عن حرمة، فإذا عزمتم فآذنوني.

وفي هذه الأثناء جاء كتاب رسول اللّه ﷺ إلى الأبناء عامر بن شهر وغيره، ووصل كتاب رسـول اللّه ﷺ إلى أهل نجـران: عربهم وسـواهـم، فانحـازوا إلى ناحية يريدون قتال الأسود، وكاتبوا مَن بصنعاء من الأبناء ليعينوا عليه.

غير أن المؤتمرين بقتله عاجلوا الأسود بممـالأة آزاد زوجته وقتلوه في قصـره وهم فيروز وداذَوَيهِ وقيس. ولما طلع الفجر أعلن قاتلو الأسود بشعارهم من فوق القصر، وفرّ أصحابه وجعلوا يترددون بين صنعاء ونجران. وكاتب القـوم رسول اللّه بمقتل الأسود فوافى رسولهم المدينة عقب وفاة رسول اللّه ﷺ.

كان الأسود قد استغلظ ملكه وثبت أمره، ودان له بالطاعة ما بـين صنعاء

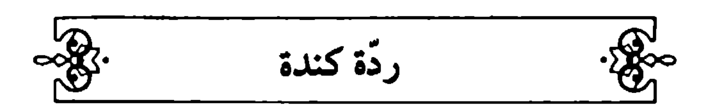
وسواحل اليمن إلى عمل الطائف إلى الأحسية وعليب. وبموته ظن المسلمون في صنعاء وما وليها أن جوّ البلاد قد صفا، ولكن لما داهمهم خبر وفاة رسول اللّه ﷺ عاد الأمر إلى أشدّ مما كان عليه وارتدّت العرب وعادوا إلى الخلاف تابعين لبعض الرؤساء، فبعث أبو بكر إلى من بقي على إسلامه من سادة اليمن ورؤسائهم يأمرهم بالثبات على أمرهم والوقوف حيال المرتدّين حتى توافيهم النجدات.

وذلك أن قيس بن عبد يغوث وهو رئيس جند الأسود والعامل في قتله بادر إلى الردّة حين علم بوفاة رسول اللّه ﷺ وكاتب المنهزمين من جند الأسود فاجتمعوا إليه. وأراد أن يقتل رؤساء الأبناء فصنع وليمة دعاهم إليها، فلم يظفر بأحد منهم سوى داذَوَيهِ وامتنع فيروز وخُشْنَش بقبيلة خَوْلان واستتبّ الأمر لقيس بصنعاء. وغرب عيالات الأبناء فاستخلصهم فيروز بمعونة بني عقيل وعَكّ. واجتمع لفيروز جموع من عرب اليمن كعقيل وعك وغيرهم، فنازل قيساً دون صنعاء فهزم قيس ومن معه من فل جنود الأسود ومن خفّ إليه من سواهم، وخرجوا إلى مجالاتهم التي كانوا فيها بعد مقتل العنسي يُصعِدون ويصوبون.

في أثناء هذا القتال وافى جيش الإسلام الذي يقوده المهاجر بن أبي أمية وكان أبو بكر قد بعثه لقتال جنود الأسود العنسي ومعاونة الأبناء. ثم جاء على أثر ذلك عكرمة بن أبي جهل بجنوده بعد أن انتهى من عمان ومهرة، وبتعاون هذه الجيوش هزم اللّه المرتدّين ومنح جنود الإسلام أقفيتهم، وأسر قيس وعمرو بن معد يكرب الزُّبَيْدِي وكان قد ارتدّ وتابع الأسود ثم وازر قيساً على قتال المسلمين.

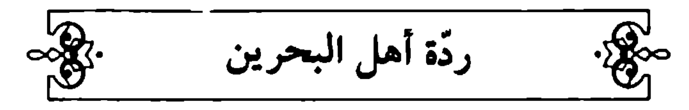
ولما جاء عمرو وقيس أسيرين إلى أبي بكر أنّب قيساً على عمله وحقن دمه ووبخ عمرو على ما كان منه وقال له: أما تستحي أنك كل يوم مهزوم أو مأسور؟ لو نصرت هذا الدين لرفعك اللّه. فقال: لا جرم لأُقبلنّ ولا أعود، فأطلقهما

ورجعا إلى قومهما مؤمنين. وكان لعمرو بن معد يكرب البلاء الحسن في فتوح نهاوند، وقد كان عمرو قد انهزم في أوّل ردّته من خالد بن سعيد بن العاص وغنم منه خالد سيفه الصمصامة، وقد بقي إلى عهد الواثق فدفعه إلى صيقل ليسقنه فتغير.



ردّة كندة

سبب ردّة كندة، اختلافُ شجر بين زياد بن لبيد الأنصاري عامل صدقات كندة وبين شيطان بن حجر وأخيه العداء في ناقة وضع عليها ميسم الصدقة غلطاً وأبي زياد أنْ يردها واستصرخ شيطان وأخوه قومهما بني عمرو بن معاوية من كندة فقاموا عصبيه لهما وتبعهم غيرهم، وتعصبت حضرموت والسُّكون لزياد وكانت الحرب بين الفريقين، ومال شرحبيل بن السمط وابنه وامرؤ القيس بن عابس إلى زياد فقتل من القوم وسبي. وقام الأشعث بن قيس يفكّ السبي وأدركت زياداً جنود المهاجر بن أبي أمية فنازل الأشعث وحصره وقومه، ثم نزلوا على حكمه عدا تسعة منهم وقتل المقاتلة وسبي النساء والذرية وأتي بالأشعث فعفا عنه أبو بكر ورد عليه زوجته وهي أخت أبي بكر وبقي بالمدينة إلى فتح العراق.



ردّة أهل البحرين

وإذا يسر الإله سعيدا لأناس فإنهم سعداء

ليس بين الشقاء والسعادة سوى عقبة لا يقطعها إلاّ المخِفّون من الشهوات، والغالبون على هوى النفس، المالكون للإرادة المطلقة من سلطان التقليد والشهوة.

وكما مُنِي الإسلام في أول أمره بقوم قد رانت على قلوبهم أهواؤهم وضعفت نفوسهم عن أطراح سلطان الشهوات والعادات، فلما لاح لعيونهم فجر كاذب من الآمال مالوا إلى مَأْلَفِهم القديم، وأَرَّثوا نار الفتنة وشبوا ضرامها وأبوا إلاّ الاسترسال في الرجوع إلى ما كان عليه أباؤهم؛ فقد رُزق أناساً قد استنارت بصائرهم بنور الهدى فكانوا للحقّ أنصاراً وللإسلام أعواناً: كالجارود بن المعلي العبدي، وصفوان بن صفوان التميمي، وعديّ بن حاتم الطائي وأمثالهم ممن أراد اللّه أن يضرب بهم وجوه المرتدِّين حتى تعلو كلمة الدين «أشهر مشاهير الإسلام ببعض تصرف».

كان أهل البحرين وهم قبائل من ربيعة قد وفدوا على رسول اللّه ﷺ في حياته، فأمّر عليهم المنذر بن ساوى. فلما توفي رسول اللّه ﷺ كان المنذر مريضاً فتوفي عقبة وارتدّ أهل البحرين كما ارتدّ غيرهم من العرب.

تمت بكر على ردّتها. وأما عبد القيس فكان فيهم الجارود بن المعلي وكان له صحبة برسول اللّه وفقه في الدين وصحة عقل ويقين. فجمع قومه وقال لهم: يا معشر عبد القيس، إني سائلكم عن أمر فأخبروني إن علمتم ولا تجيبوني إن لم تعلموا. قالوا: سل عما بدا لك. فقال: أتعلمون أنه كان للّه أنبياء فيما مضى؟ قالوا نعم. قال: تعلمونه أو تَرَونه. قالوا: لا بل نعلمه. قال: فما فعلوا؟ قالوا: ماتوا. قال: فإن محمداً ﷺ مات كما ماتوا. وأنا أشهد أن لا إله إلاّ اللّه، وأن محمداً عبده ورسوله. قالوا: ونحن نشهد أن لا إله إلاّ اللّه وأن محمداً عبده ورسوله وإنك سيدنا وأفضلنا وثبتوا على إسلامهم.

اجتمعت قبائل ربيعة بالبحرين على الردَّة، عدا الجارود ومن تبعه، وقد اجتمع رأيهم على أن يلقوا بمقاليد الملك إلى المنذر بن النعمان بن المنذر الملقب بالغرور.

قام الحُطم بن ضبيعة من بني بكر بن وائل في جمع عظيم من المشركين والمرتدِّين ليستبيحوا حمى الجارود ومن معه من عبد القيس والمسلمين. ونزل

القـطيف وهَجَـر وبعث بعثـاً إلى دارِين، وبعثـاً إلى جُؤاثي وشـدّد الحصر عـلى المسلمين حتى بلغ منهم الجهد.

بينما كان الحُطم يفعل ذلك بمسلمة ناحيته كـان العلاء بن الحضـرمي يسير إليهم في الجند الذين معه. فلما كان بحيال اليمامة لحق به ثمامة بن أثـال الحنفي في مسلمـة بني حنيفة، وقيس بن عـاصم المِنْقَرِي في قـومه. وأتـاه كثير من أهـل اليمن فسلك بهم الدهناء حتى إذا كان في بحبوحتها نزل وأمر الناس بـالنزول في الليل. فما كـادت أرجل القـوم تنال الأرض حتى نفـرت الابل بـأحمالهـا فما بقي عندهم بعير ولا زاد ولا ماء وأيقن القوم بالهلاك وقد دهمهم من الأمر مـا لم يكن لهم في حساب.

جـزع القوم لمـا أصابهم وحقّ لهم أن يجـزعوا النفوس تهلك ضيعـة في غـير غناء. إذ المكـان قفـر لانبات فيـه ولا ظلّ ولا مـاء، وقد انبتّ مـا كان مـوصولاً بأيديهم من أسباب الحياة. غير أن العلاء أمـير الجيوش أظهـر من رباطـة الجأش والثقة بالله تعالى والرجاء في غوث هذه العصابـة ما أثـاب للقوم بعض الـرشد. فلما أصبح دعا العـلاء ربه ودعـوا معه، ولم يمض قليـل من الزمن حتى رأوا لمـع الماء فمشوا إليه وشربوا واغتسلوا، وما تعـالى النهار حتى أقبلت الإبـل تجتمع من كل وجه فأناخت إليهم فسقوها. والذي يخيل إليّ أن الإبل كان الجـوع قد أخـذ منها فلما، نزل القوم ظنت أن بالمكان شيئاً من الكلأ فتفرّقت تطلب المرعى، فلما لم تجدِ شيئاً بقية ليلها وصدر نهارها ثـابت إلى مجتمع القـوم لعهدهـا أن الناس لا ينزلون إلاّ حيث يكون الأكل والماء. وقد كتب العـلاء بما لقي من عجيب الأمـر ووجدان الماء بمفازة الدهناء وما صنع الله لهم من اللطف في سفرهم.

نزل العلاء حين خلص من الدهنـاء إلى هَجَر وأمـر الجارود أن ينـزل عَلَى الحُـطم مما يليـه واجتمع أهـل البحـرين إلى الحـطم سـوى أهـل دارين وانحـاز المسلمون إلى العلاء وخندق كل على عسكره وكانوا يغدون إلى القتال ويـروحون واستمـر الأمر عـلى ذلك شهـراً ـ وبينما هم عـلى هذه الحـال إذ سمع المسلمـون

ضوضاء في معسكر أعدائهم، فأرسل العلاء العيون فأخبر بأن القوم قد شربوا الخمر من النهار، فلما أخذت من رؤوسهم أحدثوا ما سمع من الضجيج، فرأى العلاء الفرصة سانحة للإيقاع بهم، فخرج بالمسلمين حتى خالط القوم وهم على حالهم، وأعملوا السيف في رقابهم كيف شاءوا، وهرب الكفار بين متردٍّ وناج ومقتول ومأسور. ولم يفلت رجل إلّا بما عليه، وأسر المنذر بن النعمان وقتل الحطم، وأرسل العلاء إلى من ثبت على إسلامه من أهل تلك النواحي أن يقعدوا للمنهزمين بكل طريق، ففعلوا، وغنم ما كان بمعسكر أعدائه واتبع العُلَّالَ واجتاز الخليج عند دارين بجيشه لا يغمر الماء سوى أخفاف الإبل والتقوا بمن كان قد ركب السفن من فلّ ذلك العسكر، فقتلوهم ولم يبق منهم مخبر وضرب الإسلام بجرانه في تلك الناحية. وكان مع المسلمين راهب من أهل، هَجَر فأسلم وقال: خشيت أن يمسخني اللّه بعدها، فيض في الرمال، وتمهيد أثباج البحر، ودعاء سمعته في عسكرهم في الهواء سحراً «اللهم أنت الرحمن الرحيم لا إله غيرك، والبديع فليس قبلك شيء، والدائم غير الغافل، الحي الذي لا يموت، وخالق ما يرى وما لا يرى، وكل يوم أنت فيه في شأن، علمت كل شيء بغير تعلم» فعلمت أن القوم لم يعانوا بالملائكة إلّا وهم على حق. وبذلك انتهى قتال المرتدّين في هذه الناحية.



ردَّة أهل عُمان ومهرة

كان أهلُ عمان قد أسلموا في حياة رسول اللّه وولى عليهم جيفرا وعبداً ابنى جُلندا، وكان قد نبغ في عُمان ذو التاج لقيط بن مالك الأزدي وادّعى بمثل ما ادّعى غيره من المتنبئين ـ وقد خافه ابنا الجُلندا فعاذا بالجبال وكاتبا أبا بكر بشأنه. فبعث إلى هذا الوجه حذيفة بن مُحْصَن واتبعه بِعَرْفَجة بن هريمة على الوجه الذي قدمنا. وأرسل في أثرهما عكرمة بن أبي جهل بعد نكبته باليمامة فلحقهما دون عُمان.

أما لقيط فقد جمع جموعه بـدُبيّ ووافته جيوش المسلمين. فلما التقى الجمعان كان بينهما من القتال أشدّه. واستعلى المشركون على المسلمين. وكادت الدبرة تكون عليهم، وبينما هم على هذه الحال إذ منَّ اللّه على جيوش الإسلام بمدد اشتدّت به سواعدهم، فوافاهم جيش من بني ناجية يقودهم الخرِّيت بن راشد وآخر من عبد القيس وعليهم سيحان بن صوحان، ففت ذلك في أعضاد المشركين ولم يلبثوا أن ولوا الأدبار والمسلمون يأخذونهم بالسيف في كل سبيل فقتلوا منهم مقتلة قلَّ أن سمع العرب بمثلها في ماضي حروبهم.

ولما فرغ عكرمة من أمر عُمان سار بجيشه ومن انضمَّ إليه من ناجية وعبد القيس وراسب وسعد واقتحم بهم بلاد مهرة فوجد القوم في جمعين من مهرة مختلفين: أحدهما تحت إمرة سخْريت رجل منهم، والثاني تحت إمرة المصبح أحد بني محارب.

عمد عكرمة إلى إعمال حيلته فكاتب سخريت ودعاه إلى الإسلام. فأجاب بمن معه. وأما المُصَبَّح فلم يقبل، فشدّ عكرمة عليه بمن معه وصدق الحملة في قتال المرتدِّين رجاء أن يمحو ما لحقه من غضب أبي بكر في قتال أهل اليمامة، فهزم جموع المرتدِّين وغنم المسلمون ما شاءوا، وأقام بعد ذلك يسكن الناس، وعاد القوم إلى الإسلام.

كانت حروب سوى ما ذكرنا بين المسلمين وأهل الردَّة وفي جميعها كان النصر حليف المسلمين.

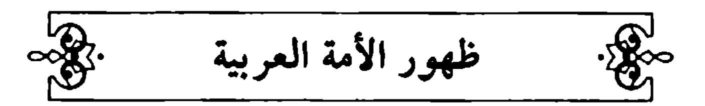
نرى مما قدّمنا أن أبا بكر قام في شأن الردّة وأهلها قياماً محموداً، وأخذ الأمر بحكمة سامية وهمة نادرة المثال لا توجد إلاّ في الأبطال الذين لا يجود بهم الزمان إلاّ نادراً.

نار تأجّجت في كل ناحية وصُقْع، وعصا قد انشقت، وكلمة تفرقت، وأمة قد صار أهلها عباديد، وركب كل حيٍّ هواه. فشمَّر لها أبو بكر، وضرب

المدبر بالمقبل، ورمى كل نابح بحجرة، وسدّ كل ثغر، ولقي كل كارثة بأمثال عدّتها (كالسيل يقذف جلموداً بجلمود)، فلم تنقض سنة من ولايته حتى اختنق وليد الفتنة وقد شبّ عن الطوق، وأخمد تلك النيران المستمرة كأنما قد قال لها: كوني برداً وسلاماً فكانت، واجتثّ الفتنة من أصولها، وأدال بطن الأرض ممن على ظهرها من أهل الشقاق، وأتبعهم بين سمع الأرض وبصرها فجعلهم كأعجاز نخل خاوية، فهل ترى لهم من باقية؟

عزيمة صادقة وحسن نظام في تزجية الجيوش، وسرعة في تلقى الأخبار وإلقاء الأوامر، وقوّاد قد خرّجتهم الحروب وصقلتهم الوقائع، وجنود باعوا أنفسهم في سبيل اللّٰه. كل ذلك عوامل نصر قلّ أن تجتمع لقائد إلاّ بمعجزة أو توفيق من اللّٰه.

من نظر نظرة صادقة في التاريخ، لا يتردّد في أن أبا بكر مجدِّد دين الإسلام وممسك رمقه بإذن اللّٰه في ذلك الوقت الذي عمَّ فيه الذهول وغلبت الدهشة على العقول. وعلى الجملة فإن انتصار جيوش المسلمين على سائر العرب المرتدّين قد استأصل من النفوس الطماعية في الارتداد، واستأصل البقية الباقية في أعماق القلوب من الشرك، ووحّد وجهة العرب وأيامهم من كل دين سوى الإسلام، وجمعهم على الطاعة لوليّ أمر المسلمين. وكانت ردّة العرب وما استتبعت من الحروب بمثابة تمحيص نفي من الأمة الزيغ، وأخرج الخَبَث وصفي حساب الإسلام مع الشرك حتى صار الدين خالصاً للّٰه.



ظهور الأمة العربية

لم تظهر الأمة العربية بين الأمم المتحضرة ذات الفتوح والمطامع في الاستعمار منذ عرفها التاريخ إلى أن انتهى أبو بكر من أصحاب الردّة. نعم إن المؤرّخين يذكرون عن بعض ملوك اليمن أخباراً غريبة في الغزو في بلاد بعيدة؛

ولكن ذلـك لم يحرز من الثقـة ما يحقق لهم ذلـك المظهـر، ولئن كـان ذلـك ففي أزمان طال عليها القدم، وعفى كرّ الغداة ومرّ العشيّ على تلك الآثار.

لم يكد أبو بكر يُخَلِّصُ يده من أهل الردَّة حتى أمسـك بكلتا يـديه بـدولتي فارس والروم، يريد أن يلقي القومُ بأيديهم إليه بالطاعة، وأن يدخلوا فيـما دخل فيـه أهل الجـزيرة العـربية. والفـرس والروم هُمَـا ما هُمَـا ضخامـة ثروة، وسمـوّ مدنية، واستبحار عمران، وشموخ عزّ، وانفساح رقعة، وقـوّة بطش، وخصـوبة أرض، واستحكام ملك؛ وما شئت من موجبات السلطان والرفعة والعزّ.

بعيشك حدّثني. ماذا حدث في الأكوان فقلب الوضع وجعل الأصل مُغَلَّباً للفرع، وصير المـأكول آكـلاً، وأعاد النبيـه خامـلاً، والغالب مغلوبـاً، والسالبَ مسلوبـاً؟ وبأيّ سلطان استنسر البغـاث، واستأسـدت الأوعـال، وجَـرَّت بيضَ الأفيـال النمـال؟ أَتُجْتَـاحُ دولتـا الشـرق والغـرب، وتـزلـزل عـروش القيـاصـرة والأكاسرة، وتُفَضّ بيضـة العالم القـديم، وتفلّ جيـوش أوروبا وآسيـا وإفريقيـة بـأيدي العـرب وهم في ذلك الحـين فلّ حـرب داخلية قـد حصـدتهم حصـداً، وأكلت عددهم على ما هم عليه من قلّة وذلّة، وسذاجة في العيش، وعدم دربـة في فنون الحرب النـظامية، وضعف عُـدَّة، وضيق ذات يد، وقلّة عـدد بالقيـاس (في كل ذلك) على ما عند الدولتين؟ إنه لمرتقي عالٍ يصعب تسنمه، ومرام وَعْر يعزّ على من رامه ويطول.

كيف تسنّى للعـرب أن يستبيحـوا عَـرِين الآسـاد، ويـدوسـوا الحصـون الشداد، والمعاقـل ذات العتاد؛ بعـدد لا يزيـد عن حاميـة مدينـة من المدن، أو حرس ناحية من النواحي؛ مـع رقة أحـوالهم، وخشونـة عيشهم، وقلة مددهم، ونقصهم عن المدافعين في جميع مواد الحياة؛ وكل الوسائل والعوامـل الماديـة التي يحرز بها النصر وينال بها الظفر؟

قد كان العرب في جميع أطوار حياتهم بحيال فارس لا يهجس في نفـوسهم

هاجس بالاستطالة عليها، أو مساماتها في الملك ومطاولتها في السلطان، بل كان قصارى من سمت به همته إلى الملك وتعلق بأن يكون له ولقومه ما يشبه أحوال الناس. أن يكون لهم تابعاً، ولأوامر ملوكهم خاضعاً، ليس به منعة منهم ولا يد له بمدافعتهم عن مراد يريدونه، وقد كان الروم في شمال بلادهم ومن صاقبهم من العرب عما لهم على من يليهم من عرب نواحيهم يدينون للروماني بالطاعة، ويبذلون في مرضاتهم غاية الاستطاعة. لا يحدّث أحد ملوكهم نفسه بالاستبداد بأمره ولا يطمع في اقتطاع أمور من يليه دونهم. ومن كان يحلم ببعض ما كان منهم في عهد أبي بكر وعمر، سُكِّت وبكت، واحتسب ذلك منه بعض الأوهام، أو أضغاث أحلام. فبأي لقاح لقح دم هذه الأمة فوثبت إلى ما وثبت، وأتت من ضروب خوارق العادات ما أتت؟.

كأني بصائح يصيح: إن تضعضع حال الدولتين بسبب الحروب، وانتشار المظالم والانقسامات الدينية في بعضها. دفع العرب إلى اجتياحها والإتيان على ملكها بالفتح والاستيلاء (ومن لا يسوس الملكَ يخلعه).

وإني أجيبه بأن ذلك قد يكون بعض الأسباب وليس يمكن أن يكون كلها. إذ العرب لم ترتق حالهم إلى أن يكونوا أكثر من أحد الفريقين عدداً ولا أقوى عُدَّة. ليس العرب فيما أتوا بأولى من ملوك الهياطلة في شرق فارس وخاقان الترك في شمالهم، وهم أمم لهم ملك متسق، وأمر مجتمع، وعدد وافر، وعدَّة قوية، ومدد متصل، وثروة عريضة، ومطامع في الفتح، وسابقة صول في فارس، ونكاية في جنودهم وإيغال في حدودهم؛ وليس للعرب من هذه الشؤون والبواعث ما لهؤلاء القوم، فما الذي أهاب بالعرب إلى أن يأتوا ما أتوا، وأحجم بهؤلاء وهم أعلم بحال جيرانهم من العرب وأقوم على شئونهم؟ فلا بدّ أن يكون شيء وراء ذلك. وأيضاً فليس العرب بأولى من إحدى الدولتين بالاستيلاء على أخراهما، وكل جندهم لا يبلغ عدده ما يمكن أن يجتمع من إحدى الولايات، فكان الأجدر بإحداهما أن تستولي على الآخرى بطريقة أسهل من

استيلاء العرب وهم أضعف من أهل أية ولاية من الولايات، وكل منهما تعلم من حال الأخرى ما لا يعلم العرب.

أريد أن أذكر الدافع الذي حدا بالعرب إلى الفتح ثم أتبعه ببيان الأسباب التي ساعدتهم على ذلك، وسهلت عليهم نيل ما نالوا بسرعة لم يعرفها التاريخ لأمة فاتحة قبلهم ولا بعدهم، ولا لأمة في مثل حالهم أو خير منها.

جرأة العرب على الفتح

إن العرب في أيام باديتهم، وفي جميع أطوارهم قبل الإسلام، كانوا ينظرون إلى الروم والفرس نظر الهيبة والاحترام، يضربون الأمثال بعزّهما وسطوتهما وضخامة ملكيهما، لما ينظرون في أهلها من حسن الحال، وقوّة السطوة، وضخامة العمران، وما عليه حال العرب من الرقة وخشونة العيش وقلة الريف وضعف عُدَّة الحرب، إذ لا يعرفون منها سوى القوس، والرماح مشدودة بالعصب، والسيوف يتقلدونها معلقة بالميسور من قِدٍّ أو خرقة. والقوم لم يهجس في خواطرهم ولم يمر في خيالهم قبل الإسلام أن يخرجوا من جزيرتهم غازين لجيرانهم ولا أن ينازعوهم الملك.

لا شك أن الإسلام قد بدَّل أحوال العرب وأنشأهم خَلْقاً جديداً، وغير ما كانوا عليه من الأخلاق وبدَّلهم منها أخلاقاً لا تلتئم مع الأنكماش والانزواء. كانوا قبائل متنافرة، وبطوناً متدابرة، يضرب بعضهم رقاب بعض، لا يبيت أحدهم إلا على حَذَر ممن بعدت به العصبية من بني عمه وذوي قرابته. فأزال الإسلام تلك الأضغان التي رانت على القلوب، واستخرج تلك الأحقاد، وألَّف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمة الله إخواناً أشدّاء على أعدائهم، رُحَماء بينهم. وجعلوا عوامل التفريق دبر آذانهم، وصاروا على قلب رجل واحد.

ومن المعلوم في طبيعة الجماعات أن اجتماعهم يحدث فيهم قوّة تشجع

الجبان وتغري الناكل بالإقدام. فما قولك في أمة عظيمة إذا اجتمعت وكانت الشجاعة أخصَّ أوصاف أفرادها، لا شك في أنها تقدم على العظائم، وتستهين بالأخطار، ولا شك في أنها تقوم بما لا تقوم به عصبة أو فر منها عَدَداً وأوفي عُدَدا.

لا يرجى غير ذلك من عصبة تغلغل في مكان الاعتقاد منها صدق الداعي الذي يدعوها إلى سعادة الدنيا والآخرة، وجرى من كل فرد مجرى دمه في مفاصلة أن الآخرة خير وأبقى، ﴿**إن اللّه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، يقاتلون في سبيل اللّه فيقتلون ويقتلون**﴾[1]. وأن الذين يقتلون في سبيل اللّه ليسوا أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون، فرحين بما آتاهم اللّه من فضله، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم وقد أوقر في نفوسهم أنهم سيفتحون المدن والأمصار، ويجوزون الممالك والأقطار، ويأكلون كنوز كسرى وقيصر. ووعد بعض أولئك الأعراب ـ البوّالين على أعقابهم ـ أنه سيتحلى بحلى شاهنشاه كسرى. وكرَّر وعد اللّه لهم بالنصر على الملوك والاستعلاء على الممالك في غير موقف حتى لم يُبْق في نفس أحد مجالاً للشك ولا محلاً للريب. وفوق ذلك قد ذوَّقهم حلاوة النصر في مواطن كثيرة، أدركوا فيها فوزاً لم يكونوا يؤملون بعضه، وقادهم إلى فتوح باهرة فأرتهم على يده الأيام ما لم يرهم المنام؛ وقد استقرّ في مكان اليقين من نفوسهم أنهم إذا صدقت منهم النيات في لقاء عدوهم فاز المقتول منهم بسعادة الآخرة، وأحرز الباقي سعادة الدنيا ﴿**قل هل تربصون بنا إلاّ إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم اللّه بعذاب من عنده أو بأيدينا**﴾[1] هذان هما العاملان اللذان جرّا العرب على المغامرة بحرب أقوى الدول شَوْكة وأشمخها بنياناً.

أما الاتحاد فأجلى مظاهره أن دين الإسلام عنوان التوحيد، وقد نزلت

---

(١) سورة التوبة: الآية ١١١

(١) سورة التوبة: الآية ٥٢.

الآيات الكثيرة حاثّة على الاتحاد واجتماع الكلمة، منفرة من التفرُّق، محذِّرة منه؛ سواء كان التفرُّق في الدِّين، أو في الكلمة والرأي. وقد جاء في الدِّين أمورٌ هي رمزٌ أبدِيٌّ للوحدة كاتحاد جميع المسلمين في استقبال مكان واحد، يولون وجوههم شَطْره، أينما كان الواحد منهم وحيث وجد، وهو الكعبة. وأوجب على المستطيع منهم حجّ هذا المكان وقضاء النسك عنده تأكيداً لمعنى الوحدة مع فوائد أخرى. وأوجب (على سبيل الكفاية) إجتماع أهل المحلة خمس مرّات لأداء الصلوات المكتوبة جماعة، وذلك في كل يوم وليلة، وأوجب اجتماع أهل البلد الواحد في كل أسبوع مرّة لصلاة الجمعة. هذا فضلاً عن اجتماعهم عند الأمور المهمة في سرور أو غيره للصلاة كصلاة العيدين والاستسقاء والكسوف والخسوف وغير ذلك. وإنك لا تكاد تقرأ خطبة من خطب الخلفاء الراشدين إلّا وتجد فيها ذكر الاتحاد، والاتفاق وما نالت الأمة ببركة الاتحاد بعد الاختلاف، وإنه منّة من منن اللّه تعالى على الأمة أعتقهم الدين بها من الأهواء المختلفة والآراء المتباينة. أما ما جاء في الأحاديث فشيء كثير جداً لا يكاد يستقصيه مستقص.

وأما تحققهم صدق رسول اللّه ﷺ فيما جاءهم به من وعد اللّه لهم بإحدى السعادتين إن قتلوا أو فازوا فيما أخبرهم به من الاستعلاء والتمكن في الأرض وغلبتهم على دولتي كسرى وقيصر فظاهر من أقوال أصحاب رسول اللّه ﷺ، وما فاهوا به في حضرة الملوك وقوّاد الأجناد، كقول المغيرة بن شعبة لرُسْتم حين قال له: «إنكم ستموتون فيما تطلبون» إذ قال له المغيرة: «يدخل من قتل منّا الجنة، ومن قتل منكم النار. ويظهر من بقِيَ منّا على من بقِيَ منكم» وهذا عُبادة بن الصامت قد خوَّفه المقوقس جموع الروم، وأن العرب في قلّة عددهم لا يقدرون عليهم، فقال عبادة: «يا هذا لا تَغُرّنّ نفسك ولا أصحابك أما ما تُخَوِّفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم وأنّا لا نقوي عليهم، فلعمري ما هذا الذي تخوّفنا بالذي يكسرنا عما نحن فيه، وإن كان ما قلتم حقّاً فذلك واللّه أرغب ما يكون

في قتالهم وأشدّ لحرصنا عليهم، لأن ذلك أعذر لنا عند ربنا إذا قدمنا عليه. إن قتلنا عن آخرنا كان أمكن لنا في رضوانه وجنّته، وما شيء أقرّ لأعيننا ولا أحبّ لنا من ذلك. وإننا منكم حينئذ لعلي إحدى الحسنيين: إما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا إن ظفرنا بكم، أو غنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا وإنها لأحبُّ الخصلتين إلينا» الخ.

الأمور التي ساعدت العرب على الفتح

قد اختص المسلمون في أوّل الفتح بأمور ساعدتهم على قصدهم وكانت عوامل باجتماعها كان فوزهم، ولم يكن لأعدائهم مثل ما لهم، فكانت لهم بها الميزة على خصومهم. نذكر منها:

١ ـ نشاط العرب وخفّة أثقالهم لإلفهم خشونة العيش، وتجافيهم عن الترف ومذاهبه بما أَلِفُوه من سكني البادية، وتعوّدهم الجوع والعطش، واجتزاؤهم بالقليل مما يمسك الرمق، فلا يتكلّف أحدهم ما يثقل كاهله، أو يشقّ على راحلته حمله كما يفعل الجُنْد في الأمم المتحضرة، فإنهم يحتاجون إلى أصناف منوّعة متعددة من المأكول والمشروب وأدوات صحية وعقاقير طبية وعلوفات للماشية وأواني للمياه. وكل ذلك مشغلة للجُنْد، عائق لهم عن سرعة السير.

ولا تنس أن العرب معهم الإبل التي تصبر عن الطعام والشراب أياماً عديدة فلا تعوقها الصحاري، ولا يتهيّبون القفار وهي معهم.

إن الجُنْد المتمدن لا يستطيع السير في بلاد غير متمدنة إلّا إذا كان معه الأحمال من البقسماط واللحوم المحفوظة والسكر والشاي والبنّ والشمع وفناطيس[1] الماء والخيام والأمتعة وعلف الماشية. وقد كانت حملة المِتمة سنة

(١) فناطيس: يطلق هذا اللفظ على أوعية توضع فيها المياه لاستعمالها عند الحاجة.

١٨٩٧ ـ ١٨٩٨ م عددها ١٥٠٠ جندي، وجمالها أربعة آلاف، ومعها الجمالة والخدم. أما الرجل من أهل السودان (وهم عَـرَبٌ) فكان الواحد منهم في غِنىً عن ذلك كله بجراب فيه شيء من الذرة الجافة أو الدخن يتأبّطه، وربما كان ذلك مؤونة شهر أو شهرين. وهو في ذلك يكاد يكون نسخة مطابقة للأصل من المجاهد العربيّ في عصر الفتح.

٢ ـ اعتقاد المسلمين بالقضاء والقدر، وقد رسخ ذلك في نفوسهم أعظم رسوخ بما جاء في الكتاب العزيز من مثل قوله: ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلاّ في كتاب من قبل أن نبرأها﴾[٢] وقوله ﴿قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم﴾[٣] وقوله ﴿إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾[٤] وقوله: ﴿قل لن يصيبنا إلاّ ما كتب اللّه لنا﴾[٥] فكان هذا الاعتقاد يحدو بهم إلى الاستهانة بالأخطار لأنها لا تقرِّب أجلاً ولا تدني حيناً. ولهذا أبدوا من البسالة ضروباً، ومن الشجاعة والإقدام فنوناً؛ ولم يكن اعتقادهم ذلك على النحو الذي يتخيَّله الأوروبي فيمن اعتقد هذه العقيدة من أنه تكلة مستسلم، لا يهمّ بعمل، ولا ينشط لنافع، اعتماداً على القضاء والقدر.

٣ ـ إن العرب وإن كانوا حديثي عهد بالقتال بالزحف، ولكن القتال لذلك العهد كان يبدأ بالمبارزة غالباً، فيبدأ الفارس يطلب قرناً ينازله. وخيل العرب أنجب من خيل الفُرْس والروم، فهي تدرك الخصم إذا كرّت، وتفوته إذا فرَّت. وكانوا أقدر على تصريف الأعنّة من سواهم، ففرس الواحد منهم طوع يده. وكانوا أسدَّ بالنبال رمياً، وكان لذلك يغلب أن يفوز العربيّ بالغلب على

---

(٢) سورة الحديد: الآية ٢٢

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٥٤

(٤) سورة الاعراف: الآية ٣٤

(٥) سورة التوبة: الآية ٥١.

مبارزه فيكسر ذلك من قلوب مقاتليهم ويوقع الرعب في نفوسهم من أوّل الأمر، وخاصة إذا كان المغلوب رئيس الجند أو ممن أشهر بالشجاعة فيهم.

٤ ـ ما كان للمسلمين من الثروة الواسعة في عظماء الرجال من القوّاد ذوي الحُنكة والدربة قد خرّجتهم الحروب وثقفتهم الوقائع فبرزوا كما يبرز السيف من الصقال. فإن ما كان في طبيعة العرب من حبّ الغزو والإغارات والتلبب للصيال والحفاظ للجار؛ كل ذلك أرّث نار الحرب بينهم. وقد كانت وقائع الإسلام من غزوات وسرايا مدرسة عليا زادتهم تبصرة بالحروب ومكائدها وعوّدتهم إحراز الفوز.

وقد جاءت حرب الردّة فزادتهم في الحرب بصيرة، وفي مكايدها حذْقاً ومهارة.

فإذا ذهبنا نعدّ أمثال خالد بن الوليد وخالد بن سعيد وأبي عبيدة بن الجرّاح وسعد بن أبي وقّاص ويزيد بن أبي سفيان وعلي بن أبي طالب ممن تتجلّى فيهم البسالة والحِذْق في قيادة الجنود وجدنا عدداً جمّاً، وإذا أردنا أن نعدّ أمثال عمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان والمغيرة بن شعبة ممن يغلب عليهم الدهاء وحسن السياسة وجدنا عدداً فوق الكفاية وعلى رأس هؤلاء وأولئك أبو بكر وناهيك بالرجل في الحزم والتقوى وصدق العزيمة والعدل.

إن أمة تضمّ حاشيتاها أمثال من ذكرنا جديرة بأن تتبوأ أعلى مراتب العظمة، وتحوز أقصى غايات الفخار.

٥ ـ نجدة العرب واستمساك كثير منهم بأسباب العصبية. ذلك أن العرب المنبثّين في نواحي الشام الخاضعين للروم، وكذلك العرب الذي يناوحون الفُرْس، لم يبدُ منهم كبير عناد في مقاومة المسلمين ومقاتلتهم وإن كانوا على غير دينهم فإن الرُّبَط التي كانت تربط العرب في تلك الأصقاع بفارس والروم لم تكن مريرة محكمة، والقوم لم تزل أنفسهم تشعر بأن العرب قومهم وفئتهم التي

يرجعون إليها، فلم يكونـوا يحتاجـون إلى كبير عـلاج في دخولهم في الإسـلام أو الدخول في طاعته. وكان ذلك من الأسباب التي سهلت فتح بعض البقاع وفتت في أعضاد أعدائه.

٦ ـ حفظ خط الرجعة. فلا يُوغلون في البلاد قبل أن تـدين لهم بالـطاعة ويثقوا بأن العدوَّ قد انقطع طمعه من مفاجأتهم من خلف ظهورهم. وكان ذلـك في مبـدأ الأمر هينـاً عليهم في جهات الشـام. فإن الصحـراء من خلفهم تكون لهم ملجأ إذا خافوا أن يلحق بهم عدوّهم، ولا يتقدّمون خـطوة في أرض عدوّهم إلاّ إذا كـانوا قـد استولـوا على مـا على يمينهم وشمـالهم من المـدن والبـلاد ودان لهم بالطاعة وسدّوا كل ثغر بالمقاتلة.

وقد كانت تلك القاعدة مرعية عندهم يحرصون عليها كل الحرص.

وقد قال المثنى بن حارثة الشيباني: «قاتلوا الفرس على حـدود أرضهم على أدنى حجر من أرض العرب، ولا تقاتلوهم بعُقْر دارهم، فإن يظهر الله المسلمين فلهم ما وراءهم، وإن كانت الأخرى رجعوا إلى فئـة ثم يكونـون أعلم بسبيلهم وأجرأ على أرضهم إلى أن يردّ الله الكرة عليهم» وقـد أقام سعـد بـن أبي وقاص بمدائن كسرى بعد افتتاحها، وكذلك عمرو بن العاص أقام بالإسكندريـة. فقال عمـر بن الخـطاب: «لا تجعلوا بيني وبينكم مـاء، متى أردت أن أركب إليكم راحلتي حتى أقـدم عليكم قدمت» فتحـوَّل سعد إلى الكـوفـة وتحـوَّل عمـرو إلى الفُسْطاط.

٧ ـ مـا كانت عليـه أحوال الـدولتين: الفـارسية والـرومانيـة من الاعتلال والاختلال. وقد أتيت على شرح تلك الأحوال في المحاضـرات الماضيـة بما يتـرك صورة مصغرة للدولتين في نفس القارىء.

ذلك أن حال كـل من الدولتـين كان في انحـطاط وتدهـور، فقد فسـدت الأخلاق، وانحطت الهيأة الاجتماعية، وبدأ التحاسد والتباغض في بيت الملك،

وخبثت النيات، وكثرت الدسائس بين الاب وابنه والأخ وأخيه، ونزاع على عروش الملك أبناء السوقة والغاصبون. هذا فضلاً عن الاختلال في الأحوال الدينية، ودوام المنازعة بين أهل الدولتين، واستعار نار الحرب؛ فما تكاد الدولة منهما تُغمد السيف من حرب في الخارج حتى تستله على الرعية في الداخل، وكل ذلك دعا إلى تضعضع حال الدولتين وأوجب اختلالهما.

هذا فضلاً عن استحكام الشحناء بين أهل البلاد الداخلة في حكم الدولة الرومانية وبين الرومانيين، وبخاصة في مصر والشام، لاختلاف القوم في المذهب الذي يدينون به، ومباينتهم للرومان في ذلك، واستعلائهم على أهل البلاد بما لهم من السلطة وأخذهم بالعسف. فالأقباط في مصر قد عانوا حُكْم الأجانب من فرس فيونان فرومان أجيالاً متطاولة، وقاسوا من ذلك أهوالاً، ويئسوا من قيام الملك في أحد منهم، وأيقنوا أنهم مأكولون على كل حال، فهان عليهم الانتقال من سلطة إلى سلطة رجاء أن يجدوا فترة يجدون فيها راحة من الضغط والظلم. وكذلك أهل الشام وهم خليط من الآراميين والسريان والأنباط واليهود وغيرهم، فقد نالهم ما نال المصريين، فلا يهمّ أحداً من هؤلاء أن يكون الحاكم عربياً أو رومانياً. وإنما يهمهم أن يجدوا مسّ الراحة. ومما لا خلاف فيه أن المرء يميل بطبعه إلى البعيد عنه، ويرجوا أن ينال النفع منه، ويتوسّم الخير في القادم المجهول أكثر مما يظنه في الحاصل المعلوم، وبخاصة إذا كان الفرق بينهما ظاهراً كما كانت الحال ظاهرة الفرق بين الروم والعرب؛ فقد كانت الرومان يومئذ في أدبار دولتهم وانحطاطهم، وقد فسدت آدابهم وأحكامهم، والعرب في إبَّان إقبال دولتهم ودور نهضتهم، وقد جعلوا العدل شعارهم، والمساواة أساس أحكامهم؛ فكان ذلك من العوامل المساعدة للعرب على افتتاح ما فتحوا في تلك الجهات.

٨ ـ كان الرومان مع انقسامهم إلى طوائف وأحزاب في الدين قد اجتمعوا على اضطهاد اليهود ومضايقتهم مضايقة شديدة، وقد بلغت البغضاء بين

الفريقين أقصى نهايتها، واليهود يودون بجَدع الأنف أن يصيبوا رغم الرومان، فكانوا عوناً للعرب يدلونهم على عَوْرات القوم ويرشدونهم إلى مقاتلتهم.

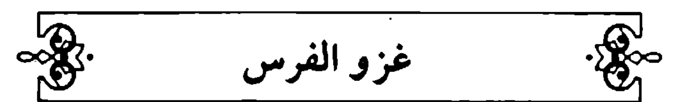
وهذه مدينة السامرة افتتحها أبو عبيدة بن الجرّاح صلحاً على أن يكون أهلها عيوناً للمسلمين على أعدائهم، وأطعمهم أرضهم ووضع عنهم جزية رؤسهم.

٩ ـ إن المسلمين كانوا يفشون العدل في البلاد التي تدين بطاعتهم، ويرفقون بالرعية، ويعفون عما في أيدي المحكومين؛ وهذا شيء لم يألفوه في حكامهم. فكان شيوع هذه الخلال عنهم يسبقهم ويفتح لهم القلوب قبل فتح المدن والحصون.

١٠ ـ إن العرب كانوا إذا دخلوا قرية أقرّوا أهلها على ما هم عليه من دين ومعاملات، ولا يتقاضون منهم سوى الجزية ثمناً لحمايتهم والدفاع عن حوزتهم وتأمين سُبُلهم، وهي بالطبع ليست إلّا جزءاً من الإتاوة التي كانوا يؤدّونها إلى حكامهم من الرومان. فكان في ذلك تخفيف لإصرهم وما عليهم من الاغلال. ويرى ذلك واضحاً في قول عبادة بن الصامت للمقوقس والقبط لما دعاهم إلى الإسلام: «وإن أبيتم إلّا الجزية فأدّوها إلينا عن يدٍ وأنتم صاغرون، وأن نعاملكم على شيء نرضى به نحن وأنتم في كل عام أبداً ما بقينا وبقيتم، ونقاتل عنكم من ناوأكم وعرض لكم في شيء من أرضكم ودمائكم وأموالكم ونقوم بذلك عنكم» الخ.

ولما دخلت حمص في ذِمة المسلمين وأدّوا الجزية واحتاج المسلمون بعد ذلك إلى الاجتماع في اليرموك ردّوا إلى أهل حمص ما أخذوا من جزيتهم وقالوا: «قد شُغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم» فقال أهل حمص: «لولايتكم وعدلكم أحبّ إلينا مما كنا فيه من الظلم والضيم، ولندفعن جُنْد هرقل عن المدينة مع عاملكم».

وعلى الجملة إن المسلمين لم يجرِّئْهم على الفتح سوى الدين وصحة الاعتقاد بالنصر مع ما كان فيهم من الميزات كالمهارة والفروسية وقوّة أبدانهم ونشاطهم وما كانوا عليه من التقشُّف ومجافاة الترف ومذاهبه. ونبوغ كثير من القوّاد وذوي الرأي، مع العدل والقسط والرفق، واختلال أحوال دولتي الروم والفرس ومَلَل المحكومين من حكامهم. فلم يمض عليهم بضع عشرة سنة حتى اجتاحوا فلسطين والشام ومصر والعراق وفارس وأخذوا ينتقصون الأرض التي على الساحل الجنوبي للبحر الأبيض المتوسط بخطوات ثابتة، وهو أمر لم يعرفه التاريخ لغير العرب.



غزو الفرس

لو أن أبا بكر حين فرغ من أمر أهل الردّة أعاد الجيوش إلى بلادها، وأقرّ السيوف في أغمادها، لما استقام له الأمر طويلاً، ولعاد بعد قليل إلى نشر ما طوى، ولاحتاج إلى ائتناف ما انتهى منه، وافتقر إلى إطفاء فتن تشبّ في الأطراف، وحروب تستعر نارها في أرجاء البلاد. لأن قوماً شُبوا وشابوا في الجلاد والصدام لا يمكن أن يهدأ ثائر نفوسهم، بل هم يحرصون على خلق الأعداء في الداخل إن لم يجدوهم من خارج بلادهم. ولكن اللّه تعالى خلق لهم الاشتباك مع الفرس ثم الروم ليكون ذلك أدعى إلى توافق القوم وتوازُرهم وتناصرهم فانقطعت الحروب فيما بينهم واتصلت بينهم وبين مجاوريهم.

كان ابتداء أمر فارس مع المسلمين أن الملك في فارس قد أفضى إلى بوران بنت كسرى لفقدان من يصلح من بيت الملك لأن شيرويه كان قد قتل جميع إخوته سوى جوان شير فإنه كان طفلاً. فلما مات جوان شير ولِيَتْ هي المُلْك بعده فشاع في أطراف الأرضين أن فارس لا مَلِكَ لها وإنما يلوذون بباب امرأة، وكان أمر فارس في اضطراب واختلال مُطمع للجيران.

خرج في تلك الأيام رجلان من بني بكر بن وائل. أحدهما: المثنّى بن

حارثة الشيبانيّ، وثانيهما: سويد بن قطبة العجليّ، ونـزلا فيمن جمعا من العـرب بتخوم أرض العجم. فكانا يغيران على الدَّهاقين[1] فيأخذان ما قدرا عليه، فإذا طُلبا أمعنا في البر فلا يتبعهما أحد ـ وكانا المثنًى يُغيرمن جهة الحيـرة، وسويـد من جهة الأُبُلَّة. وذلك في خلافة أبي بكـر ـ فكتب المثنى إلى الخليفة يعلمـه ضَرَاوتـه بفارس وينبئه بوهن القوم ويسأله أن يمدَّه بجيش ليؤثر في فارس.

كـان خالد بن الوليـد قد انتهى من أمـر بني حنيفة حـين ورد كتاب المثنى على أبي بكر فندبه لغزو بـلاد فارس وأمره أن يبـدأ بثغر الهنـد وهو يـومئذ الأُبلة وندب عِيَاض بن غُنْم ليغزو فارس من الشمال ويبدأ بـالْمُضيح في شمـال العراق وأمرهما أن لا يستكرها أحـداً ممّن معهما إذا عـزَما فـانفض عنهما جمـوع ممن معهما وأمرهما أن يستنفرا من قاتل أهل الردّة وأن لا يستعينا بمرتدّ. ولـما استمده خـالد وعَياض أمدّ الأوّل بالقعقاع بن عمرو التيمي وقال لمن راجعه بقوله: أتمدَّه برجل واحد؟ ـ: «لا يغلب جيش فيه مثل هذا!». وأمد الثاني بعبد يغوث الحميريّ.

ولما وافى خالداً كتاب أبي بكـر وهو بـاليمامـة كتب إلى صاحب الثغـر وهو هُرْمُز كتاب إنذار يقول فيه: «أما بعد، فأسلم تسلم، أو اعتقد لنفسك وقومـك الذمّة، واقرر بالجزية وإلاّ فلا تلومنّ إلاّ نفسك فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبُّون الحياة» ولم يحمل خالـد عسكره في طـريق واحد. بـل جعلهم ثلاث فـرق فسـرح الْمُثَنّى بن حارثـة (وكان قـد وافاه فيمن معـه) قبله بيومـين. ثم عـديّ بن حاتم وعاصم بن عمرو؛ أحدهما قبل صاحبه بيـوم. وخرج خـالد وقـد واعدهم الحفير ليجتمعوا به ليصدعوا عدوّهم مجتمعين.

لما قدم كتاب خالد على هُرْمز كتب بالخبر إلى أزدشير الملك وجمع جموعه ثم تعجل يريد الكواظم، وهي من جادة اليمامة فلم يجدهـا طريق خـالد ونبىء أن جموع المسلمين تواعدوا الحفير فيممه يبادرهم إليه وعبَّى به جيشه.

---

(١) الدهقان (بضم الدال وكسرها): زعيم فلاحي العجم ورئيس الإقليم.

ولما علم خالد بأمره عدل إلى كاظمة، فخفّ هرمز إليها، وكان من أخبث الناس وأشدّهم دهاء وأعظمهم نكاية، تضرب العرب به المثل في الكفر والخبث لما كان منه من سوء الجوار لهم، وكلهم عدوّ له حاقد عليه. وكان هرمز قد بقي في عسكره وقد قيدوا أنفسهم في السلاسل آية استبسالهم في القتال وعدم البراح، وكان الماء في أيديهم. ولما وافى خالد نزل على غير ماء، فقيل له في ذلك فقال: حطوا أثقالكم ثم جالدوهم على الماء فلعمري ليصيرن الماء لأصبر الفريقين وأكرم الجندين، ثم تبارز هرمز وخالد، وكان هرمز قد اتفق مع أصحابه على الغدر بخالد إذا بارزه، فلما تلاقيا صرعه خالد وخرج أصحاب هرمز لاستلحام خالد فلم يثنه ذلك عن قتله، وخفّ القعقاع في جماعة إلى أصحاب هُرْمز فأناموهم وشدّوا على القوم فانهزموا.

ثم رحل خالد بجيشه حتى نزل قريباً من موضع البصرة، وكانت لم تبنَ في ذلك الوقت.

كان كسرى قد أمدّ هرمز بجيش تحت قيادة قارن بن قريانس ففصل عن المدائن حتى انتهى إلى المذار ـ على أربعة أيام من البصرة إلى شمالها قرب واسط ـ فأدركه فِلَال جيش هرمز من الأهواز والسواد والجيل، وضوى جميعهم إلى جيش قارن وعسكر جمعهم حيث انتهى، واستعمل قارن على مُجَنِّبَتَيه قُباذ وأنوشجان، وكانا من قوّاد هرمز. وخف المُثنى وأخوه المَعنى إلى خالد بالخبر فقسم الفيء على من أفاء اللّه عليه، ونفل من الخمس ما شاء اللّه، وبعث ببقيته وبالفتح إلى أبي بكر مع الوليد بن عقبة، وبعث معه بالخبر عن اجتماع القوم ـ مغيثهم ومغاثهم ـ بالمُثنّى. وخرج خالد بجيشه حتى التقى وهو على تعبية بجيش قارن فاقتتلوا على حنق وحفيظة وبدأت الحرب بالمبارزة. فكان أوّل صريع، وقتل الأخوان أنوشجان وقُبَاذ، وهما من ذرية أردشير الأكبر وقتلت الفرس مقتلة عظيمة وانهزموا وأعطى خالد الأسلاب لسالبيها بالغة ما بلغت وقسم الغنيمة وبعث بالخمس والفتح إلى أبي بكر مع سعيد بن النعمان من بني عدي.

انتهى خبر الهزيمة إلى كسرى بالمدائن، فجهز جيشاً كثيفاً بقيادة الأنْدرْ زغر فسار حتى أتى كسكر ثم إلى الولجة وهي في شمال المدار. ثم حجز بهمن جاذويه فسلك وسط السواد وحشر إلى الأندَر زَغَر من بين الحيرة وكسكر من عرب الضاحية والدهاقين وعسكروا إلى جنب جيش أندر زغر.

أما خالد فلما علم بأمرهم أذن بالرحيل على تعبية بعد أن خلف على القرى حامية تحمي ظهر جيشه وتحفظ عليه خط الرجعة، ورتب الهجوم على عدوه من ثلاث جهات. جعل جهتين منها كميناً، وصادمهم بمن معه فقاتلهم قتالاً شديداً حتى ظن الفريقان أن الصبر قد نفد. واستبطأ خالد كمينه. ثم لم يشعر القوم إلاّ بالكمين قد اكتنف العدو من جانبيه فانهزمت صفوف الأعاجم وأخذهم الكمين من خلفهم، وخالد بمن معه من بين أيديهم. وانهزم أندر زغر ومات عطشاً. وأصيب في هذه الوقعة كثير من نصارى بكر بن وائل فغضبوا حمية لقومهم وكاتبوا الفرس ليكونوا لهم عوناً على العرب المسلمين واجتمعوا بألّيس وعلى العرب رؤساؤهم وعلى الفرس جابان. وقد أمره جاذويه أن لا ينازل العرب حتى يصل إليه إلاّ أن يعجلوه.

ولما علم خالد باحتشاد القوم تعجل إليهم وهو لا يظن أن يلقى إلاّ متنصرة العرب من عجل وتيم اللات وضبيعة وعرب الضاحية ولا يظن أن جابان معهم. فلما أطل عليهم كان الفرس قد هيأوا الطعام وتنادوا له ولم يظهروا الا كتراث لأمر خالد ومن معه وكان خالد على تعبية فأجهضهم عن طعامهم وقاتلهم قتالاً شديداً وكانت جموع المشركين تزيد كلباً وشدة، ثقة منهم بأن بهمن جاذويه لاحق بهم في مدد عظيم. وحرب المسلمون عليهم فكشف المشركون وكانت عليهم الدبرة وأفحش خالد في قتلهم وغنم المسلمون طعامهم الذي كان مهيئاً لهم. وكان فيه الرقاق فلم يعرف كثير من المسلمين ما هو، وقالوا: ما هذه الرقاع البيض؟ فكان العارفون منهم يمزحون قائلين هذا رقيق العيش. وكانت هذه الوقائع في صفر من السنة الثانية عشرة إلاّ وقعة الأُبُلة

فكانت في المحرم وكان جيش خالد قد بلغ ثمانية عشر ألفاً وكان لا تمر به واقعة إلاّ كانت التي تليها أعظم منها نصراً وغنيمة. وكان يوصي بالفلاحين وأهل الأعمال ولا يظلمهم بل يقرهم في عملهم ولا يتصدى إلاّ للمقاتلة وأهليهم؛ وكل ذلك عملاً بوصية أبي بكر له. وكان من أمر خالد أنه بعد وقعة الوَلجة خطب في جنده يرغبهم في بلاد العجم ويزهدهم في بلاد العرب. وقال:

«ألا ترون إلى الطعام كرفغ التراب وباللّه لو لم يلزمنا الجهاد في اللّه والدعاء إلى اللّه عز وجل ولم يكن إلاّ المعاش، لكان الرأي أن نقارع على هذا الريف حتى نكون أولى به، ونولي الجوع والإقلال من تولاه ممن أثّاقل عما أنتم عليه».

ولما فرغ خالد من وقعة أليّس نهض فأتى مغيشيّاً وقد جلا أهلها عنها وتفرقوا في السواد وكانت مصراً كالحيرة وكان فرات بَادَقْلي ينتهي إليها وكانت أليس، من مسالحها فأصاب المسلمون بها ما لم يصيبوا مثله فلقد بلغ سهم الفارس ألفاً وخمسائة درهم سوى النفل الذي نفله خالد أهل البلاء؛ ثم أمر بهدمها وكل شيء كان في حيزها، ولما جاء خمس الغنيمة إلى أبي بكر وبلغه ما صنع خالد أخبر قريش الخبر فقال: «يا معشر قريش، عدا أسدكم على الأسد فغلبه على خراذيله. أعجزت النساء إن ينشئن مثل خالد؟».

لما علم الأزاذبة مرزبان الحيرة بما صنع خالد بامغيشيا أيقن أنه غير تاركه، فتهيأ للحرب وقدم ابنه أمامه ثم خرج في أثره على عسكر خارجاً من الحيرة وأمر ابنه بسد الفرات. وكان خالد قد حمل الرجل في السفن مع الأنفال والأثقال. فلم يفجأ إلاّ والسفن جوانح. فارتاع المسلمون لهذا الأمر وقال لهم الملاحون: إن الفرس قد فجروا الأنهار فسلك الماء غير طريقه ولا يجري الماء إلينا إلاّ بسد الأنهار. فنهض خالد في خيل نحو ابن الأزاذْبَة. فلقي خيلاً من خيله فجئهم وهم آمنون لغارة خالد في تلك الساعة فأنامهم بالمقر ثم نهض من فوره وسبق الأخبار حتى لقي بجند من جند ابن الأزاذبة على فم فرات بادقلي فقاتلهم

وهزمهم وسد الأنهار وسلك الماء سبيله. ثم استلحق خالد عسكره ويمم الحيرة حتى نزل بين الخورنق والنجف.

أما الأزاذبة فقد طرقه مصاب ابنه وخبر موت أزدشير في وقت واحد فهاله الأمر وكان معسكراً بين الغربين والقصر الأبيض فاستخفه الفزع فعبر الفرات هارباً من غير قتال قبل أن تتام أصحاب خالد. فلما لحق بخالد عسكره سار حتى عسكر بهم مكان الازاذبة وجنوده. وأهل الحيرة متحصنون. فأدخل الحيرة الخيل من عسكره وأمر ضرار بن الأزور بمحاصرة أهل القصر الأبيض وفيه إياس بن قبيصة الطائي وضرار بن الخطاب بحصار قصر العدسيين وفيه عدي بن عدي العبادي. وكان ضرار بن مقرن المزني عاشر عشرة إخوة له محاصراً قصر بني مازن وفيه ابن أكال، والمثنى بن حارثة كان محاصراً قصر ابن بقيلة وفيه عمرو بن عبد المسيح، وقد عهد خالد إلى أمرائه أن يدعوا القوم إلى الإسلام فإن أجابوا قبلوا منهم وإن أبوا أن يؤجلوهم يوماً، وقال: لا تمكنوا عدوكم من أذانكم فيتربصوا بكم الدوائر ولكن ناجزوهم ولا تردوا المسلمين عن قتال عدوهم، ففعلوا، فاختار القوم المنابذة وعمدوا لمرمى المسلمين بالحزف فرشقهم المسلمون بالنبل وبنوا غارتهم ففتحوا الدور والديارات فنادى القسيسون. يا أهل القصور ما يقتلنا غيركم فنادى أهل القصور: يا معشر العرب قبلنا واحدة من ثلاث فكفوا عنا. وخرج رؤساء أهل القصور إلى خالد فخلا بأهل كل قصر على حدة ولامهم وكان مما قاله: ويحكم ما أنتم؟ أعرب فما تنقمون من العرب أو عجم فما تنقمون من الإنصاف والعدل؟ ثم قال اختاروا واحدة من ثلاث، إن تدخلوا في ديننا فلكم مالنا وعليكم ما علينا إن نهضتم وهاجرتم وإن أقمتم في دياركم أو الجزية أو المنابذة والمناجزة فقد والله أتيتكم بقوم هم على الموت أحرص منكم على الحياة. فقالوا: بل نعطيك الجزية. وصالحوه على مائة وتسعين ألفاً. وبعث خالد بالفتح والهدايا إلى أبي بكر. وكانوا أهدوا إلى خالد هدايا، فقبل أبو بكر الهدايا على أن تكون من الجزية، وكتب إلى

خالد أن احسب لهم هديتهم من الجزاء وخذ بقية ما عليهم فقوّ بها أصحابك. وقد كتب خالد لأهل الحيرة كتاباً هذا نصه:

(بسم اللّه الرحمن الرحيم. هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد عدياً وعمراً ابني عدي وعمرو بن عبد المسيح وإياس بن قبيصة وحيري بن أكال وهم نقباء أهل الحيرة ورضي بذلك أهل الحيرة وأمروهم به. عاهدهم على مائة وتسعين ألف درهم تقبل في كل سنة جزاء عن أيديهم في الدنيا رهبانهم وقسيسهم إلاّ من كان منهم على غير ذي يد حبيساً عن الدنيا تاركاً لها، وعلى المنعة، وإن لم يمنعهم فلا شيء عليهم حتى يمنعهم، وإن غدروا بفعل أو قول فالذمة منهم بريئة وكانت كتابة هذا العهد في شهر ربيع الأول سنة ١٢ هـ».

ومن طريف ما يحكي في فتح الحيرة أن رجلاً من متنصرة العرب اسمه شويل كان قد أسلم على يد رسول اللّه ﷺ فسمع رسول اللّه يبشر المسلمين بأن قصور الحيرة ستفتح عليهم. فسأله أن يعطيه كرامة بنت عبد المسيح من سبي الحيرة حين تفتح. فقال النبي عليه السلام: هي لك. فلما أراد خالد صلح أهل الحيرة جاء شويل يستنجز خالداً عدة رسول اللّه ﷺ فشرط خالد عليهم أن يسلموا كرامة فشق ذلك على القوم وعلمت كرامة فقالت لهم لا يشق عليكم ذلك فإنه رجل أحمق رآني في شبيبتي فظن أن الشباب يدوم فأسلموني فإني سأفتدي منه فلما حصلت عند الرجل قالت: ما رأيك من عجوز كما ترى؟ فأدني. قال لا إلاّ على حكمي قالت فلك حكمك. قال فلست لأم شويل إن نقصتك عن ألف درهم فأظهرت أنها تستكثر ذلك لتخدعه ثم أتته بالألف ورجعت إلى قومها. وتسامع الناس بما كان من شويل فعنفوه على أن لم يطلب أكثر من ذلك. فقال: ما كنت أرى أن عدداً يزيد على ألف! وخاصم القوم إلى خالد فقال: كانت نيتي نهاية العدد وقد ذكروا أن العدد يزيد على ألف. فقال خالد: أردت أمراً وأراد اللّه غيره نأخذ منك بما يظهر وندعك ونيتك.

ولما صالح خالد أهل الحيرة. جاء إليه صلوباً بن نسطونا وهو صاحب

قس الناطف فصالحه على بانَقْيا وبـاروسما وضمن له ما عليهما وعلى أرضيهمامن شاطىء الفرات على عشرة آلاف دينار، وكتب لهم خالد كتاباً نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم

«هذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونـا وقومـه، إني عاهـدتكم على الجزية والمنعة على كل ذي يد بانقيـا وباروسـما جميعاً عـلى عشرة آلاف دينـار سوى الخرزة[1] القوي على قوته والمقل على قدر إقلالـه في كل سنـة وإنك نقبت على قومك وإن قومك قد رضوا بك وقـد قبلت ومن معي من المسلمين ورضيت ورضي قومك فلك الذمة والمنعة فإن منعناكم فلنا الجزية وإلاّ فلا حتى نمنعكم».

وكان الدهاقين يتربصون بخالد وينظرون ما يصنع بأهل الحيرة فلما استقام ما بينه وبين الحيريين، أتته دهاقين البلاد فصالحوه على ما بين الفلاليج إلى هرمز جرد على ألفي ألف درهم وكتب لهم بذلك كتاباً فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم

«هذا كتاب من خالد بن الوليد لـزاذ بهيش وصلوبا بن نسـطونا. إن لكم الـذمة وعليكم الجـزية وأنتم ضـامنون لمن نقبتم عليـه من أهل اليهقبـاذ الأسفل والأوسط على ألفي ألف تقبل في كل سنة عن كـل ذي يد سـوى ما عـلى بانقيـا وباروسما وإنكم قد رضيتموني والمسلمين وإنا قد رضيناكم وأهل اليهقباذ الأسفل ومن دخل معكم من أهل اليهقبـاذ الأوسط على أمـوالكم ليس فيها مـا كان لآل كسرى ومن مال ميلهم».

بعد ذلك بعث خالد مسالحه وعليهـا ضرار بن الأزور وضـرار بن الخطاب والمثنى بن حارثة وضـرار بن مقرن والقعقـاع بن عمرو وبُسْر بن أبي رهُم وعتيبـة

(١) كذا في ابن جرير وفي معجم الأدباء لياقوت «مادة بانقيا» كتاب بغير هذه الصورة.

ابن النهـاس. وأمرهم بـالغارة والإلحـاح في الوجـوه التي وجهوا إليهـا وكان قـد أغزاهم.

ولما استقر خالد على أحد جانبي السواد. دعـا برَجُـل حيري وآخـر نبطي وكتب معهـما كتابـين: إحداهمـا إلى ملك الفرس مـع مرّة الحيـري وقال: اذهب إليهم فلعل اللّه يُمر عيشهم أو يسلمـوا أو ينيبوا. وأعـطى النبطي حـزقيل كتـاباً وقال: اللّه أزهق نفوسهم وكان إلى المرازبة ـ فأما كتاب الملك فهو:

بسم اللّه الرحمن الرحيم

من خـالد بن الـوليد إلى ملوك فـارس أما بعـد: فالحمـد للّه الـذي حـل نـظامكم، ووهن كيدكم وفـرق كلمتكم ولو لم يفعـل ذلك بكم كـان شـرّاً لكم فـادخلوا في أمرنـا ندعكم وأرضكم ونجـوزكم إلى غيركم وإلاّ كـان ذلـك وأنتم كارهون على غلب على أيدي قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة. وصورة الثاني:

بسم اللّه الرحمن الرحيم

«من خالد بن الوليد إلى مرازبة فارس: أما بعـد: فأسلمـوا تسلموا. وإلاّ فاعتقدوا مني الذمة وأدوا الجزية. وإلاّ فقد جئتكم بقوم يحبـون الموت كـما تحبون شرب الخمر».

وكـان أهل فـارس في ذلك الحـين عقب مـوت أردشـير مختلفـين في الملك مجتمعين على قتال خالد متساندين، وكانوا بذلك سنة والمسلمون يمخرون ما دون دجلة وليس لأهل فارس فيها بين الحيـرة ودجلة أمر، وليست لأحـد منهم ذمة إلاّ الذين كاتبوه واكتتبوا منه وسائر أهل السواد جلاّء ومتحصنـون ومحاربـون. وكان الفرس ليس منهم سوى المدافعة عن بُهْرسير وهي إحدى المدائن التي سميت بهـا مدائن كسرى واقعة في الجانب الغربي من دجلة أمام الإيوان الذي كان في الجهة الشـرقية منهـا. فلما وردت كتب خالـد أحبوا أن يفـرغـوا من اختـلافهم فـوقـع

اختيارهم على رجل من غير بيت الملك يـولونـه إلى أن يوجـد من آل كسرى من يصلح للملك. وكان الذي ولوه هو الفـرُّخْزَاذ خسْـرَوْ ولم يستقر لـه الملك فولـوا يَزْدَجِرْد بن شَهْرِيار وكان في ملكه من الأحداث ما سيأتي.

لما استقام لخالد الأمر في الناحية التي أثخن فيها أجمع السير لإغاثة عياض ابن غنم الذي أرسله أبـو بكـر ليفتـح العـراق من شمـاليـه ويلتقي بخـالـد؛ فاستخلف على الحيرة القعقاع بن عمرو وسار بجنده حتى وافى الأنبار فوجد القوم قد امتنعوا بحصونهم وخندقـوا على أنفسهم وأشـرفوا من أعـالي الحصون. فـأمر جنوده أن يرشقوهم بالنبل فأصابوا في عـدوهم. وكان خـالد رجـلاً لا يصبر عن الحرب إذا رآها، فقال لمن معه: إني أرى قـوماً لا علم لهم بـالحرب فـارشقوا في عيونهم ولا تحرّوا سواها. فأصيب في ذلك اليوم ألف عين.

ولم يكتف خالد بما صنع بـل عمد إلى أضيق مكـان في الخندق وعمـد إلى الضعـاف من الإبل في جيشـه فنحرهـا وأفعم الخندق بجثثهـا واقتحم المسلمون الخندق وجسرهم عليه جثث الإبل وصـاروا مع أعـادئهم داخل الخنـدق فالتجأ المشركون إلى الحصن.

وكـان رئيس القوم رجـل يقال لـه شيرزاذ صـاحب سابـاط وكـان أعقـل أعجمي يـومئذ وأسـوده وأقنعه في النـاس العرب والعجم. فـراسـل خـالـداً في الصلح على ما أراد فقبل خالـد منه عـلى أن يخليه ويلحقـه بمأمنـه في جريـدة من الخيل ليس معهم من المتاع والأموال شيء، ووفي له خالد بما صالح عليه.

ولما انتهى أمر الصلح مع القوم صالح من حولهم واستخلف الزبرقان بـن بدر وسار إلى عين التمر وبهـا يومئـذ مهران بن بهـرام جوبـين في جمع عـظيم من الفـرس والعرب وعقبـة بن أبي عقة في جمـع عظيم من التمـر وتغلب وإياد ومن لف لفهم. فلما سمعوا بقدوم خـالد قـال عقـة لمهـران: إن العـرب أعلم بقتـال العرب فدعنا وخالداً قال: صدقت لعمري لأنتم أعلم بقتال العرب وإنكم لَمِثلنا في قتال العجم ـ وقد كان العجم ينظرون إلى العـرب بعين الاحتقـار والمهانــة ـ

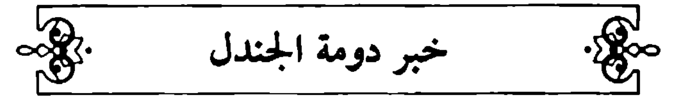
فقال مع من مهران من العجم: كيف تقول ما قلت لهذا الكلب؟ فقال: دعوني فإني لم أرد إلاّ ما هـو خير لكم وشر لهم. إنـه قد جـاءكم من قتل ملوككم وفـل حدكم فاتقيته بهم. فإن كانت لهم على خـالد فهي لكم، وإن كـانت الأخرى لم يبلغوكم حتى يهنوا فنقاتلهم ونحن أقوياء وهـم مضعفون. فحمدوا له رأيه. فلزم مهران العين ونزل عقة لخالد عـلى الطريق وعـلى ميمنته بجـير أحد بني عبيـد بن سعد بن زهيروعلى ميسرته الهذيل بن عمران وبـين عقة ومهـران غدوة أو روحـة ومهران في الحصن في جند فارس وعقة كالخفير له بجنده. فقدم خالد في تعبيته، وقال لمُجنِّبَتيه: اكفونا ما معه فإني حامل ووكل بنفسه حوامي ثم حمـل وعقة يقيم صفوفه فاحتضنه فأخذه أسيـراً فانهزم جنـده قبل القتـال، وأمعن المسلمون فيهم الأسر، وأمعن كثير من المشركين في الهرب.

لم يكد الخبر يصـل إلى مهران حتى وهنت قـوته فتـرك الحصن ونجا فيمن معـه من الفرس. وجـاء فلال جيش عقـة إلى الحصن فاقتحمـوه واعتصمـوا بـه وكأنما كان اعتصامهم به إنما هو اعتقال وسجن ضرب عليهم حتى يتسلمهم خالد فإنه لما قدم إلى الحصن ومعه عقة وعمرو بن الصعق في الأسر نزل عليهم وكـان القوم يظنون أن خالداً كمغيرة العرب لا يلبث أن يعود أدراجـه إذا أصاب مغنـماً فلما رأوه غير تاركهم يئسوا من النجاة ونزلوا عـلى حكمه. فـأمر بعقـة وعمرو بن الصعق فضـربت أعناقهـما وأجـزر السيف بقيـة من كـان معهـما وغنم مـا حـواه حصنهم وسبي السبي. وقـد وجد في بيعتهم أربعين غـلامـاً يتعلمـون الإنجيـل عليهم باب مغلق فكسره عنهم وقال: ما أنتم؟ قـالوا: رُهُن. فقسمهم في أهـل البـلاء منهم أبو زيـاد مولى ثقيف. ومنهم نصـير أبو مـوسى بن نصير. ومنهم أبـو عمرة جد عبد اللّه بن عبد الأعلى الشاعر وسيرين أبو محمد بن سيـرين. وحمران مولى عثمان بن عفان وغيرهم.

وكان خالد أرسل الوليد بن عقبة بالأخماس إلى أبي بكر. فوجه به أبو بكـر إلى عياض بن غنم في جند مدد له

وبينما كان خالد يفتح الفتوح ويحرز النصر كان عياض لم يعمل شيئاً ولم يدرك غرضاً مما وجه إليه. فقد كان أبوبكر وجهه ليفتح شمال العراق ويكون اجتماعه مع خالد بالحيرة وأيهما سبق إليها كان أميراً على صاحبه. فأتم خالد ما نيط به وشرع يعمل في عمل عياض. ولما قدم الوليد على عياض بدومة الجندل وجده قد حاصر القوم وحاصروه وأخذوا عليه الطريق. فقال له: الرأي في بعض الحالات خير من جند كثيف، إبعث إلى خالد فاستمده. ففعل، وقدم رسول عياض على خالد مستغيثاً في أعقاب واقعة العين. فكتب إليه: «من خالد إلى عياض - إياك أريد».

لَبِّثْ قليلاً تأتك الجلائب
يحملن آساداً عليها القاشب
كتائب يتبعها كتائب»



خبر دومة الجندل

خلف خالد على عين التمر - عويم بن الكاهل الأسلمي. وخرج في تعبيته التي دخل بها العين ويمم دومة الجندل، فلما علم أهل دومة بمسير خالد إليهم استنفروا أحلافهم من بهراء وكلب وغسان وتنوخ والضجاعم. ومن قبل وافاهم وديعة في كلب وبهراء ومسانده ابن (وَبرة) بن رومانس. وأتاهم ابن الحِدْرجان في الضجاعم وابن الأيهم في طوائف من غسان وتنوخ فأشجوا عياضاً وشَجُوا به.

وقد كان للقوم رئيسان: أحدهما أكيدر بن عبد الملك والجودي بن ربيعة، فقال أكيدر: أنا أعلم الناس بخالد، لا أحد أيمن طائراً منه ولا أَحَدُّ في حرب، ولا يرى وجه خالد قوم أبداً قلوا أو كثروا إلّا انهزموا عنه؛ فأطيعوني وصالحوا القوم. فأبوا عليه. فقال: لن أمالئكم على حرب خالد. وتركهم وذهب لِطِيَّته.

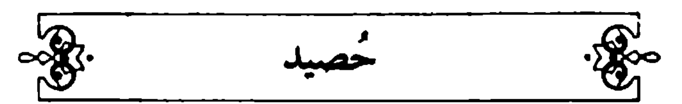
قد كان في رأي أكيدر كل الحزم وفي مخالفته الخطل والطيش والغرور:

لا يذهب من ذاكرتنا أن أكيدرا هذا كان قد صالح رسول اللّه ﷺ على الجزية ليلة أن أرسل خالداً إليه فجاء به في رجال من قومه إذ كانوا يصيدون البقر في ليلة قمراء وقتل في تلك الليلة أخا أكيدر. فلما مات رسول اللّه ﷺ كان فيمن غدر وخاس بالعقد، فلما علم خالد بخروج أكيدر أرسل إليه من عارضه في الطريق وأتى به فضرب عنقه جزاء غدره.

مضى خالد حتى نزل على دومة وعلى المشركين يومئذ الجودي بن ربيعة ووديعة الكلبي وابن رومانس وابن الأيهم وابن الحدْرجان، فجعل خالد دومة بين عسكره وعسكر عياض، وكان مدده من متنصرة العرب محيطاً بالحصن لأنه لم يحملهم. وخرج الجودي ووديعة لخالد وابن الأيهم وابن الحدرجان لعياض، فأظفر اللّه المسلمين بالفريقين وأثخن كل فيمن يليه من المشركين، وأخذ خالد الجودي أسيراً، وأخذ عيينة ابن حصن وديعة أسيراً كذلك. وطلب المنهزمة الحصن للالتجاء إليه فلم يحتملهم وأغلق أهل الحصن أبوابه وبقي المغيثون بالعراء بادية مقاتلهم. فأجار عاصم بن عمرو ومن معه من تميم حلفاءهم من كلب فنجوا. وقتل خالد من كان خارج الحصن واقتلع بابه وقتل من كان فيه.

أقام خالد بدومة فظن الأعاجم به الظنون وكاتبهم عرب الجزيرة غضباً لعقة فخرج زَرْمهْر من بغداد ومعه رُوزبه يريدان الأنبار واتعدا حُصيدا والخنافس. فكتب الزبرقان وهو على الأنبار إلى القعقاع خليفة خالد على الحيرة بما علمه من أمر العجم والعرب. فبعث القعقاع أعْبَد بن فدكي وأمره بالْحُصيَد. وبعث عروة بن الجعد وأمره بالخنافس. وقال لهما: إن رأيتما مقدماً فأقدما. فخرجا فحالا بين زرمهر وروزبة وبين مقصديهما، فلما قدم خالد الحيرة علم بالأمر فعجل القعقاع وأبا ليلى بن فدكي إلى روزبه وزمهر فسبقاه إلى عين التمر، وقدم على خالد كتات من امرىء القيس الكلبي يعلمه أن الهذيل بن عمران قد عسكر بالْمُضَيَّح ونزل ربيعة بن بجير بالثِّني وبالبشر في عسكر غضبا

لعقة يريدان روزبه وزمهر. فخرج خالد واستخلف على الحيرة عياض بن غنم وأخذ طريق القعقاع وأبي ليلى حتى قدم عليهما بالعين فبعث القعقاع إلى الحصيد وأبا ليلى إلى الخنافس. كان من همه أن يزجيا القوم ليجتمعوا حتى ينازلهم بجمع كثيف هم ومن هب لمعاونتهم من العرب. ولكن القوم لم يجتمعوا ولعلهم فطنوا لنية خالد فأرادوا أن لا ينيلوه مراده.



حُصيد

لما رأى القعقاع أن زرمهر وروزبه لا يتحركان قصد الحصيد وعلى من به من العجم والعرب روزبه. فاستغاث بزرمهر فخف إليه بنفسه وخلف على جيشه المهبوذان، والتقى المسلمون بأعدائهم فقتل من العجم مقتلة عظيمة وقتل زرمهر وروزبه وغنم المسلمون غنائم كثيرة وانحاز فلال جيش حصيد إلى الخنافس.



الخنافس

ولما قصد أبو ليلى بن فدكي الخنافس ـ وبها المهبوذان وجنده ومن ضوى إليهم من فلّ جيش الحصيد وَعلم به المهبوذان، انهزموا دون قتال وانضموا إلى المُضَيَّح وبه الهذيل بن عمران ومن معه (مُضَيَّحْ بني البرشاء). ولما انتهى إلى خالد ما كان بالحصيد والخنافس كتب إلى قواده وواعد القعقاع، وأبا ليلى، وأعبد، وعروة ليلةً وساعةً يجتمعون فيها إلى المضيح وهي بين حوران والقلت. فتوافوا إليها في موعدهم فاتفقوا على أمرهم وبيتوا الهذيل ومن معه من ثلاثة أوجه وهم نائمون فأتوا عليهم وامتلأ الفضاء برمم القتلى فما شبهوا إلاّ بغنم مصرعة ولم ينج سوى الهذيل في نفر قليل. وقد أصاب جرير بن عبد اللّه يوم المضيح عبد العزي بن أبي رُهم ولبيد بن جرير، وكان معهما كتاب من أبي بكر بإسلامهما فوداهما أبو بكر، وكان عمر رضي اللّه عنه يعتد على خالد بقتلهما

وقتل مالك بن نويرة.. وقد سمع عبد العزي في تلك الليلة يقول:

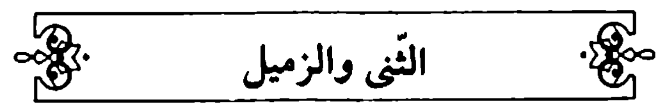
اقول إذ طرق الصباح بغارة　　　سبحانك اللهم رب محمد

سبحان ربي لا إلهُ غيره　　　رب البلاد ورب من يتوردِ

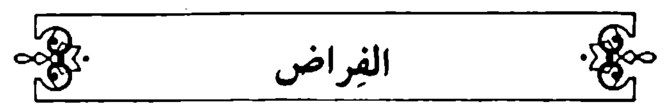
فكان أبو بكر يقول

كذلك يلقى مَن ساكن أهل الحرب في دارهم.

وقد كان للرجلين متسع من الأرض يأمنان فيه وليس بهما من ضرورة تضطرهما إلى المقام في مستنقع الموت وفي صف أعداء دينهم والمشاقين لأهل الإسلام. ومن ظن أنه يصنع صنيعهما ولا يكون موطناً نفسه على أن يكون طعاماً للسيوف فقد ظن عجزاً، وليس لعمر حق في الاعتداد بهما على خالد.



لما أصاب خالد أهل المضيح بما أصابهم به تقدم إلى القعقاع وأبي ليلى أن يرتحلا أمامه وواعدهما الليلة ليفترقوا فيها للغارة على من بالثني من ثلاثة أوجه، كما فعل بأهل المضيح، ففعلوا وأعملوا السيوف في أهله بياتاً وهم نائمون فلم يفلت من الجيش مخبر، ثم عطف بمثلها على من بالزميل وهو البشر وقد سبق الخبر إليهم ثم عطف من بالبشر إلى الرضاب وكان هناك هلال بن عفة فانقشع عنها. ولم يلق خالد كيداً.



وهي تخوم العراق والشام والجزيرة. قصدها خالد بعد الرضاب ليكون على بينة من أنه لم يترك وراء جيشه عورة ينالهم العدو منها، وقد أفطر في تلك السَّفْرَة في رمضان لما كان من تتابع الغزوات واتصالها والأيام والوقائع قد نظمن فيها نظماً وقد أكثر الرُّجّاز في هذه الغزوات.

فلما اجتمعت المسلمون بالفِراض حميت الروم واغتاظت واستجاشوا من يليهم من مسالح الفرس يستعينون بهم، واستمدوا تغلب وإيادا والنمر فأمدوهم وناهدوا خالداً حتى صار الفرات بينهم وبين المسلمين، وأجال الرومان الرأي فقال بعضهم لبعض: هذا رجل يقاتل على دين وله عقل وعلم والله لينصرن ولنخذلن. ثم لم ينفعوا بذلك وعبروا أسفل من خالد وامتازوا ليعلموا من يأتي بحسن ومن يأتي بقبيح وناجزوا خالدا الحرب واقتتلوا قتالاً شديداً طويلاً ثم انهزمت جموع الروم ومن معهم من العرب، فقال خالد: ألحوا عليهم ولا تَرَفَّهُوا عنهم وقد أفحش فيهم القتل. وكانت هذه الواقعة آخر حروب خالد بالعراق.

* * *

يحق لنا أن ننظر نظرة متأمل إلى ما صنعه خالد في سنته. فإنا نجده قد فعل في هذه المدة القصيرة ما لم يفعله قائد من القواد في مثل عدة جنده مع كثرة عديد أعدائه ومحاربيه وقوة عُدَدهم. فقد اقتطع من بلاد العجم حوض نهر الفرات من شمالي الأبلة إلى الفرات وهي تخوم الشام والعراق والجزيرة شرقي الفرات وأثخن في جيوش الفرس والعرب والروم في مواقع كثيرة لم تهزم له فيها راية ولم ينثن سيفه عن ضريبته وكان الرعب يسبقه إلى كل قوم ويسير أمامه في كل موقعة أجمع عليها حتى أن اسمه كان بمثابة مدد للجيوش. وكان في كل أعماله فاتحاً موطداً لأركان الملك والاستعمار، لا مغيراً ناهباً. فلم تدن له بلد بالطاعة إلّا خلف عليها حامية لحفظ نظامها، وأميراً لإقامة العدل فيها، وآخر يجبي خراجها من الذمة على مقتضى كتاب صلحهم.

ومن أحسن ما يؤثر لخالد من المحاسن الغراء أنه لم يكن يتعرض للفلاحين بسوء ولا يمسهم بأذى. بل كان يشملهم برأفته ويعمهم برعايته ويمنعهم ممن يريدهم بسوء لاعتقاده أنهم مادة الأمة وبهم قوام الدولة. ولهذا صاروا يفضلون حكمه على حكم الفرس لما كانوا يجدونه في عظمائهم من الغلظة عليهم والإعنات لهم ويستعبدونهم ويذلونهم.

وكما كان خالد رؤوفاً بهؤلاء كان شديد الأخذ للمقاتلة وأهل الحرب لا يصبر على الميدان إذا رآه ولا يدع الجنود ينظر بعضهم إلى بعض دون أن يشنها غارة شعواء ـ بل سُرْعان ما يخرج طالباً كبش الكتيبة في بحبوحة الميدان ويدعوه إلى المبارزة ثم ينقض عليه انقضاض البازي على العصفور وفي ذلك بواره فكان عمله هذا يشرد من خلفه من عدوه ويوقع الرعب في قلوبهم ويكون سبباً للفشل ثم الهزيمة.

قال الأستاذ الخضري: وعلى الجملة فهذه السنة كانت لخالد غرة في جبين تاريخه. ومما يبين عظيم عمله ما قاله الهيثم البكائي قال: كان أهل الأيام من أهل الكوفة يوعدون معاوية عند بعض الذي كان يبلغهم ويقولون: ما شاء معاوية، نحن أصحاب ذات السلاسل (وهي أول واقعة بين خالد والفرس) ويسمون ما بينها وبين الفراض ما يذكرون ما كان بعد احتقاراً لما كان بعد فيما كان قبل.

وإني ما عجبت من شيء لا يبلغ ذلك عجبي من أمر أولئك القوم الذين كانوا يتهافتون على حرب خالد تهافت الفراش على النار، قد يكون وجه العذر واضحاً في أهل ذات السلاسل وما بعدها بواقعتين أو ثلاث، ولكن ما عذر أولئك الذين كانوا يعرفون أثره في غيرهم ومِيسمه في آناف القبائل ثم لا يكون منهم إلّا أن يهجموا عليه هجوم الحمار على الأسد؟ إن البهائم تعرف ريح الليث بما قدرت عليه ولكن هؤلاء القوم جهلوا ما عرفته البهائم فلم يكتفوا من الليث بريحه دون أن يذوقوه.

أينكر ريح الليث حتى يذوقه ... وقد عرفت ريح الليوث البهائم

كان لخالد في العراق من الوقائع:

١ ـ ذات السلاسل. ٢ ـ والمذار.

٣ ـ والولجة. ٤ ـ وأليّس وامغشيا.

٥ ـ والمقر وفم فرات بادَقلي. ٦ ـ وقصور الحيرة.

٧ ـ وذات العيون بالأنبار وكلواذي.

٨ ـ وعين التمر. ٩ ـ ودومة الجندل وحُصيد.

١٠ ـ ١١ ـ والخنافس. ١٢ ـ ومضيح بني البرشاء.

١٣ ـ ١٤ ـ الثنيُّ والزميل. ١٥ ـ الفراض.

وقد انتظم جميعها في سمط لأقل من سنة من خروجه للقتال. أفما كان في الناس رجل رشيد يحثهم على المساومة وبذل ما يريده يحقن على الناس هذا الدم الممأر؟ إن الابتعاد عن طريق خالد نهاية الحزم ولا يمكن أن يهجس في خاطري أن الذين اتقوه بالفرار من الفرس كانوا جبناء أو ضعفاء لأن الإقدام الذي لا تقع منه إلقاء بالنفس إلى التهلكة؟

على أن القوم الذين كانوا يجمعون له ويرصدونه أو ينهدون إليه كان يكون لهم شبه عذر لو أن الذي يقع في يده محارباً يجد منفذاً إلى النجاة أو طريقاً إلى السلامة فيكون القوم قد أقدموا على طمع في الفوز أو أمل في النجاة، إنِ خانهم الظفر فلم يخنهم عفو المنتصر. ولكن الرجل ما كان يقبل لمخذول عثرة بعد ما أشرع الرمح وفوّق النبل «بل كان كما قال عمر بن الخطاب لأبي بكر: إن في سيف خالد رهقاً. ولو أنني كنت القائل لقلت: إن في سيفه قرماً إلى لحوم مخالفية وزهداً في موافقيه.

* * *

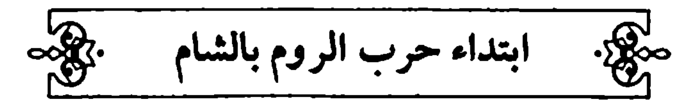
نعود إلى خالد في الفراض فنقول: إنه أقام بعد الموقعة عشرة أيام ثم أذن في الناس بالرحيل إلى الحيرة لخمس بقين من ذي القعدة، وأمر عاصم بن عمر أن يسير بالناس وأمر شجرَة بن الأعز أن يسوقهم وأظهر أنه في الساقة. ثم خالد من معه إلى مكة حاجاً يعتسف البلاد حتى أتى مكة على السَّمتِ في عدة من أصحابه فتأتى له من ذلك ما لم يتأت لدليل خريت ولا رئبال. وقد سلك بأصحابه طريقاً من طرق أهل الجزيرة لم ير طريق أعجب ولا أشد صعوبة منه. فلما قضى نسكه خف مسرعاً إلى جنده. فما توافى الجند بالحيرة إلاّ وقد طلع

عليهم في أصحابه مع ساقة الجند فقدما معاً ولا يعلم الجند بحج خالد ومن معه إلّا بعد أن رأوهم محلقين رؤوسهم إلّا ما كان ممن أفضى إليهم بذلك من أهل الساقة.

وقد انتهى إلى أبي بكر ما كان من خالد من ترك الجند ومخالفتهم إلى الحج فأكبر ذلك واعتده إعجاباً منه بنفسه وبما أتيح له من الظفر واغتراراً بمن يجاوره من عدوه واستضعافاً لشأنهم. وصادف في ذلك الحين أن أبا بكر احتاج إلى أن يرمي الروم بمثل ما رمى فارس، وقد استمده أمراؤه فأحب أن يرمي غرضين بحجر، فأمر خالدا بالإنصراف إلى الشام مدداً لمن هناك من الأمراء بنصف الجند وأن يخلف المثنى بن حارثة على من معه من الجنود بالعراق فأرسل إلى خالد كتاباً يعاتبه فيه على ما كان منه ويعظه ويأمره بالإنصراف إلى الشام وكان في هذا الكتاب.

سر حتى تأتي جموع المسلمين باليرموك فإنهم قد شُجُوا وأشْجَوْا. وإياك أن تعود لمثل ما فعلت فإنه لم يشج الجموع بعون اللّه من الناس شجيك ولم ينزع الشجي من الناس نزعك فَلْيَهْنِئْكَ أبا سليمان النية والحظوة فأتمم يتم اللّه لك ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل، وإياك أن تُدل بعمل فإن اللّه عز وجل له المن وهو ولي الجزاء.

وكان انصراف خالد في صفر سنة ١٣ هـ.



ابتداء حرب الروم بالشام

كان ابتداء حرب الروم متأخراً عن حرب الفرس. وأول ما كان من ذلك أن أبا بكر رضي اللّه عنه كان عقد لخالد بن سعيد على جيش حين بعث البعوث إلى أهل الردة. وقد جهد عمر بن الخطاب بأبي بكر أن يصرف خالداً عن العمل له. وقال له: إنه لضعيف التروئة مخذول فلا تستنصر به. فأطاعه أبو

بكر في بعض أمره وخالفه في بعض، ذلك أنه أمر خالد بن سعيد أن ينـزل بتيماء وأن يدعو من حوله للانضمام إليه، وأن لا يقبل مرتدّاً ولا يقاتل إلاّ من قـاتله. وأن لا يبرح مكانه حتى يأتيه أمره.

وكان سبب حنق عمر على خالد بن سعيد أن خـالداً كـان عامـلاً لرسـول الله ﷺ على اليمن فقدم بعد وفاة رسول الله ﷺ بشهر والقـوم في مصابـرة أهل الردة. وكان لابساً جبة ديبـاج، فقال عمـر لمن يليه: مـزقوا عليـه جبته. أيلبس الحرير وهو في رجالنا في السلم مهجور؟ فوجدها خالد في نفسه ولقي علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان فقال: يا بني عبد مناف لقد طبتم نفسـاً عن أمركم يليـه غيركم. وتربص ببيعة أبي بكر مدة يقول أمّرني رسول الله ﷺ ثم لم يعزلني حتى قبضه الله. فكان عمر يضطغن ذلك عليه وأبو بكر ولم يحفلها ولم يحتمل عليه.

فصل خالد بن سعيد وجنده وسار حتى نزل على تيماء. فاجتمع إليه جنـد كثير وبلغ الروم عظم ذلك العسكر فرأوا أن يقذفوا جلموداً بجلمود ويفلوا ذلك الجيش قبل أن يعظم بجموع من عرب الضاحية والحديد بالحديد يفلح.

علم خـالد بن سعيـد بمـا صنعت الـروم فكتب إلى أبي بكـر بهـذا الشـأن وبنـزول من استفـزت الـروم ونفـر إليهم من بهـراء وكلب وسليح وتنـوخ ولخم وجـذام وغسان. فكتب إليـه أبو بكـر أن أقـدم ولا تحجم واستنصر الله. فنهـد إليهم خالد في جموعه فلما داناهم تفرقوا وأعْروْا منزله فنزله ودخل عامة من تجمع له في الإسلام. وكتب إلى أبي بكر بما كان. فكتب إليه: أقـدم ولا تقتحمن حتى لا تؤتي من خلفك، فسار فيمن كان خرج معه من تيماء ومن لحق بـه حتى نزلـوا فيما بين آبـل وزيزاء والقسـطل. فسيرت الـروم إليه عسكـراً بقيادة بـطريق منهم يدعى باهان فهزمه خالـد وفض جموعـه. وكأن خـالداً رأى أن تـوالى نكايتـه في الروم يُنبّهُم إلى شأنـه والجد في أمـره فكتب إلى أبي بكر يستمـده حتى لا يفاجئـه العدو بجيش لا قبل له به.

وافق كتاب خالد بن سعيد إلى أبي بكر أن قدم إلى المدينة المستنفرون من اليمن ومن بين مكة واليمن وفيهم ذو الكلاع وقدم على أبي بكر أيضاً عكرمة قافلاً وغازياً فيمن كان معه من تهامة وعمان والبحرين والسرو فكتب أبو بكر إلى أمراء الصدقات أن يبدلوا من استبدل فكلهم استبدل فسمى جيش البدال وكتب أبو بكر إلى عمرو بن العاص يخيره بين عمله الذي هو فيه أو يوجهه إلى عمل آخر يراه خيراً لدنياه وآخرته. فكتب إليه عمرو: إني سهم من سهام الإسلام وأنت بعد الله الرامي بها والجامع لها فانظر أشدها وأخشاها وأفضلها فارم بها شيئاً إن جاء من ناحية من النواحي. وكتب إلى الوليد بن عقبة فأجابه بإيثاره الجهاد. فأوعب أبو بكر إلى خالد بن سعيد جيشاً فيه الوليد بن عقبة وعكرمة بن أبي جهل وذو الكلاع وغيرهم فوافوا خالد بن سعيد. وعند ذلك اهتاج أبو بكر إلى الشام واعتزم على الجد في أمر الروم وأرسل الأمراء والجنود لافتتاح الشام.

في أواخر سنة ١٢ هـ اختار أبو بكر أربعة من خيرة قواد المسلمين لهم جد وهمة وغناء وهم ١ ـ عمرو بن العاص. ٢ ـ ويزيد بن أبي سفيان. ٣ ـ وأبو عبيدة بن الجراح وهم قرشيون. ٤ ـ وشرحبيل بن حسنة وهو قحطاني.

وقد تخير لكل واحد منهم جنده وأمر كل واحد أن يسير في الطريق التي سماها له وعين لكل واحد منهم الولاية التي يتولاها بعد الفتح فجعل لعمرو بن العاص فلسطين وليزيد بن أبي سفيان دمشق ولأبي عبيدة حمص ولشرحبيل الأردن وكان عدد الجنود التي سيرت إلى الشام سبعاً وعشرين ألفاً على ما رواه الطبري.

رأى خالد بن سعيد أنه قد عز بمن أمده بهم أبو بكر، وأن جنود المسلمين وقوادهم قد فصلوا لفتح الشام. فأراد أن يدرك الفوز قبل مقدمهم ويحرز الفخار دونهم فبادر الأمراء بقتال الروم، واستطرد له باهان وقصد فيمن معه قصد دمشق واقتحم خالد في الجيش ومعه ذو الكلاع وعكرمة والوليد حتى نزل

مرج الصفر بين الواقوصة ودمشق فانطوت عليه مسالح باهان وأخذوا عليه الطريق وهو لا يشعر وزحف له باهان وأصاب سعيد بن خالد فقتله ومن معه. وعلم خالد بالخبر فخرج هارباً في جريدة وأفلت من أصحابه من أفلت على ظهور الخيل والإبل وقد أجهضوا عن عسكرهم، ولم تنته بخالد وأصحابه الهزيمة عن ذي المروة وأقام عكرمة ردءاً للناس يرد عنهم باهان وجنوده. وقد علم أبو بكر بما نكب به خالد بن سعيد فكتب إليه وهو بذي المروة أن أقم مكانك فلعمري أنك مقدام محجام نجاء من الغمرات لا تخوضها إلى حق ولا تصبر عليه.

ولما علم الروم بقدوم أمراء جيوش المسلمين كاتبوا هرقل فقدم حمص وأراد أن يشغل قواد المسلمين عن بعضهم بما عنده من الجنود الكثيرة. وأرسل إلى كل قائد أمثال ما عنده، فهابهم المسلمون ورأوا التريث حزماً وكاتبوا أبا بكر وعمرو بن العاص فيما نزل بهم. فأرسل إليهم عمرو أن الرأي الاجتماع وذلك أن مثلنا إذا اجتمع لم يغلب من قلة وإذا نحن تفرقنا لم يبق الرجل منا في عدد يقرن فيه لأحد ممن استقبلنا وأعدلنا. فاتّعدوا اليرموك ليجتمعوا به وهو واد يصب في الأردن وقد طلع عليهم كتاب أبي بكر أن اجتمعوا فتكونوا عسكراً واحداً وألقوا زحوف المشركين بزحف المسلمين فإنكم أعوان اللّه واللّه ناصر من نصره وخاذل من كفره ولن يؤتي مثلكم من قلة وإنما يؤتي العشرة آلاف والزيادة على العشرة آلاف إذا أتوا من تلقاء الذنوب فاحترسوا من الذنوب واجتمعوا باليرموك متساندين وليصلّ كل رجل منكم بأصحابه.

لما علم هرقل باجتماع المسلمين باليرموك كتب إلى قواده أن اجتمعوا لهم وانزلوا بالروم منزلاً واسع التعطن واسع المضرب ضيق المهرب. وبين لكل قائد مكانه من الجيش: من يكون على المقدمة والميمنة والميسرة ومن يكون قائداً عاماً. فصدعوا بأمره ونزلوا الواقوصة وهي على ضفة اليرموك وصار الوادي خندقاً لهم وهو لِهْبٌ لا يدرك غوره ـ وقد أراد قواد الرومان أن يستفيق الروم ويأنسوا

بالمسلمين حين يرون قلتهم وكثرة جند الروم وترجع إليهم أفئدتهم عن طيرتها. ولما نزل الروم منزلهم هذا انتقل المسلمون ونزلوا بحذائهم على طريقهم وليس لهم طريق غيره. فقال عمر بن العاص: أيها الناس أبشروا حصرت والله الروم وقلما جاء محصور بخير. فأقام المسلمون على حالهم هذا صفرا وشهري ربيع سنة ١٣ لا يقدرون من الروم على شيء ولا يخلصون إليهم اللهب وهو الواقوصة من ورائهم والخندق من أمامهم.

كان المسلمون في مبدأ اجتماعهم كتبوا إلى أبي بكر واستمدوه فقال أبو بكر: والله لأنْسِينَّ الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد. وكتب إلى خالد الكتاب الذي قدمنا فوافاه إلى الحيرة منصرفة من حجة وأمره أن يسير إلى الشام بشطر الناس وأن يخلف على الشطر الباقي المثنى بن حارثة. وقال لا تأخذنّ نجداً إلّا تركت له نجداً فإذا فتح الله عليكم فارددهم إلى العراق وأنت معهم ثم ائت على عملك.

ولما أراد خالد أن يفصل بنصف الناس استأثر بأصحاب رسول الله فأبى المثنى إلّا أن يكون الأمر على ما كتب أبو بكر فلم يزل به خالد حتى أرضاه. وكان خالد يعتقد أن صرفه عن العراق وفارس إلى الشام إنما كان بسعي عمر حسداً له أن يكون فاتح العراق وفارس. وقد كان إرسال خالد إلى الشام توفيقاً من الله تعالى لأبي بكر لأنه كان صاحب اليوم الذي حصلت فيه الصدمة الأولى وتتابعت الفتوح بعده.

سار خالد بمن معه من الجنود من الحيرة حتى نزل على عين التمر فأغار على أهلها فأصاب منهم ثم أغار على جموع من تغلب وكلب على ماء يسمى قراقر. ثم أراد السير مُفوِّزاً من قراقر إلى سُوَى وهو ماء لبهراء من ناحية السماوة. وقراقر ماء لبني كلب وبينهما خمسة أيام للراكب المفرد المُخِف؛ وإنما أراد خالد هذا الطريق لأنه إذا مر في العمران ودار حول المفازة وجد جموع الروم في طريقة؛ وذلك يدعوه إلى منازلتهم وفي ذلك ما يؤخره عن الموعد الذي يريده

وهو إغاثة المسلمين باليرموك فالتمس دليلاً يسلك به المفازة فدل على رافع بن عميرة الطائي، فأراده خالد على الانطلاق بالناس فقال رافع: إنك لن تطيق ذلك بالخيل والأثقال والله إن الراكب المفرد ليخافها على نفسه وما يسلكها إلّا مغرراً. إنها لخمس ليال جياد ولا يصاب فيها ماء مع مضلتها. فقال خالد: ويحك إنه والله إنَّ لي بُدُّ من ذلك أنه قد أتتني من الأمير عزمة بذلك فمر بأمرك. قال: استكثروا من الماء، من استطاع منكم أن يصر إذن ناقته على ماء فليفعل فإنها المهالك إلّا ما دفع اللّه ـ أبغني عشرين جزوراً عظاماً سماناً مَسَان. فأتاه خالد بهن فظمَّاهُن، حتى إذا أجهدهن عطشاً أوردهن فشربن حتى إذا امتلأن عمد إليهن فكممهن لئلا يجتررن ثم أخلى أدبارهن ثم قال لخالد سر فسار بالناس مغذا بالخيول والأثقال فكلما نزل منزلاً أقتط أربعاً من تلك الشوارف فأخذ ما في أكراشها فخلطه بما كان من لبن ثم سقى الخيل وسقى الناس مما حملوا معهم من الماء. فلما كان آخر يوم خشي خالد على أصحابه فقال لرافع: ما عندك؟ قال أدركت الري إن شاء اللّه ليطمئنّ الناس فلما دنا من العلمين قال للناس: انظروا هل ترون شجيرة من عوسج كقعدة الرجل؟ فوجدوا جذمها بعد جهد فأشار عليهم بأن يحفروا في أصلها فحفروا فخرجت لهم أوشال فشربوا وسقوا ظهرهم واتصلت بعد ذلك لخالد المنازل وقد قال بعض القوم في ذلك:

للّه عينا رافع إني أهتدي ... فوَّز من قُراقِر إلى سُوى
خمساً إذا ما سارها الجيش بكى ... ما سارها قبلك أنسى يُرى

ولم يكد خالد يصل إلى سُوى حتى صبح بَهراء بالقتال، وهم يظنون أن أحداً يأتيهم من هذه المفازة المهلكة، فدهمهم وبعضهم في صبوحه. ثم أتى أرك فصالحوه، ثم أتى تدْمُر فتحصن أهلها ثم صالحوه، ثم أتى القريتين على مرحلتين من تدمر فقاتلهم فظفر بهم وغنم، وأتى قُصَم فصالحه بنو شجعة من قضاعة. وسار فوصل إلى ثنية العقاب عند دمشق ناشراً راية سوداء كانت لرسول اللّه ﷺ تسمى العقاب، ثم أتى مرج راهط فصبح غسان في يوم فصحهم فقتل وسبي،

ثم سار إلى بصرى فقاتل من بها فظفر بهم وصالحهم فهي أول مدينة فتحت صلحاً بالشام على يد خالد وجند العراق. ثم بعث بالخمس إلى أبي بكر. ثم سار فأطل على المسلمين في ربيع الآخر وطلع باهان على الروم ومعه القسوس والشمامسة فكان كل حزب مستبشراً فرحاً بما جاءه من المدد.

واقعة اليرموك

كان المسلمون في قلة من العدد بالنسبة إلى عدد الروم، فالمقلّ من المؤرخين يجعلهم أربعين ألفاً، والمكثر يجعلهم ستة وأربعين ألفاً. وأما الروم فعددهم أربعون ومائتا ألف على رواية الطبري وأقل ما قيل فيهم ما قاله ابن الأثير في إحدى روايتيه أنهم كانوا مائة ألف. وكان قتال المسلمين على تساند، كل أمير على جيشه وقد مكث القسّيسون شهراً يحرضون على القتال ويرغبون الروم فيه وينعون لهم النصرانية حتى أحمسوهم. فخرج الروم في تعبية لم ير مثلها للقتال الذي ليس بعده قتال. فلما رأى خالد هذا الأمر مع تفرق المسلمين على عدة أمراء وأن القوة مجزأة بتعدد الأمراء؛ خشي أن يدخل على جيش الإسلام الوَهن والضعف، لأنهم إنما يقاتلون عدواً كثير العدد قوي العدة موحد الرأي والكلمة، ولا بد لنيل الظفر من حزامة الرأي واجتماع الكلمة. فقام خالد في الأمراء، فحمد اللّه وأثنى عليه، ثم قال: هذا يوم من أيام اللّه لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي، أخلصوا جهادكم وارْضُوا اللّه بعملكم، فإن هذا اليوم له ما بعده. ولا تقاتلوا قوماً على نظام وتعبية وأنتم متساندون، فإن ذلك لا يحل ولا ينبغي. وأن مَنْ ورَاءكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا. فاعملوا في ما لم تؤمروا به بالذي ترون أنه رأي من واليكم ومحبته. قالوا: هات فما الرأي؟ قال: إن أبا بكر لم يبعثنا إلاّ وهو يرى أننا سنتياسر، ولو علم بالذي كان ويكون لما جمعكم. إن الذي أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيهم وأنفع للمشركين من أمدادهم. ولقد علمت أن الدنيا فَرَّقتْ بينكم، فاللّه اللّه، فقد أُفرد كلُّ

رجل منكم ببلد لا ينقصه منه أن دان لأحد من أمراء الجنود، ولا يزيده عليه إن دانوا له. إن تأمير بعضكم لا ينقصكم عند اللّه ولا عند خليفة رسول اللّه ﷺ. هلموا فإن هؤلاء قد تهيئوا وهذا يوم له ما بعده. إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نرُدهم، وإن هزمونا لم نُفلح بعدها. فهلموا فلنتعاور الإمارة فليكن عليها بعضنا اليوم والآخر غداً والآخر بعد غد حتى يَتأمر كلكم. ودعوني إليكمُ اليوم فأمِّروه. وهم يرونها كخرجاتهم وأن الأمر أطول مما صاروا إليه.

صار خالد أمير المسلمين في ذلك اليوم، وقد قدمنا أن الروم خرجوا في تعبية لم ير الراءون أحسن منها ولا أهيب في العين، فخرج إليهم خالد في تعبية لم تعبها العرب قبلها: فخرج في ستة وثلاثين كردوساً إلى الأربعين. والكردوس هو الجماعة من العسكر، وظاهر أن كردوس المسلمين في هذه الوقعة لا يزيد على ألف مقاتل إلاّ قليلاً. وقد قسم الجيش فجعل على كراديس الميمنة عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة، وجعل على كراديس الميسرة يزيد بن أبي سفيان، وجعل على كراديس القلب أبا عبيدة. وأقام على كل كردوس قائداً من شجعانهم وكان القاضي في ذلك الجيش أبو هريرة. والقاصّ الذي يعظ الناس ويحرضهم على القتال أبو سفيان بن حرب. فكان يقف على كل كردوس ويقول: «اللّه اللّه إنكم ذادة العرب وأنصار الإسلام، وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك. اللهم إن هذا يوم من أيامك، اللهم أنزل نصرك على عبادك». وكان المسلمون يقرأون على الجنود وهم في الصفوف سورة القتال.

وفيما المسلمون في المصاف قبل أن ينشب القتال خرج قائد القلب من جيش الروم طالباً خالد بن الوليد، فجاء إليه وكلمه في بعض الشأن.

ذلك أنه لا بد في كل زمان ومكان من أناس يتزيدون في الأخبار ويهرفون بما لا يعرفون، ويؤولون الكلام على ما يخطر على قلوبهم بدون تدبر ولا تحقيق. ولعل بعض القوم أشاعوا في بلاد الشام أن خالداً في يده سيف نزل من السماء يهزم به أعداءه أعطاه له رسول اللّه. وأخذوا ذلك مما اشتهر به بين المسلمين أنه

سيف اللّه. ويظهر أن ذلك القائد (ويسميه الطبري جَرجَة بن توذر، ولعله جورج بن ثيودور) كان يعرف العربية لأنه كلم خالداً بدون ترجمان.

وقف ذلك القائد فقال: يا خالد لا تكذبي فإن الحر لا يكذب، ولا تخدعني فإن الكريم لا يخادع المسترسل. هل أنزل اللّه على نبيكم سيفاً من السماء فأعطاكه فلا تسله على قوم إلاّ هزمتهم؟ قال: لا. قال: فبم سميت سيف اللّه؟ قال: إن اللّه عز وجل بعث فينا نبيه ﷺ فدعانا فنفرنا عنه ونأينا عنه جميعاً. ثم إن بعضنا صدقه وتابعه، وبعضنا كذبه فكنت فيمن كذبه وباعده وقاتله. ثم إن اللّه أخذ بقلوبنا ونواصينا فهدانا به فتابعناه، فقال: «أنت سيف من سيوف اللّه سله اللّه على المشركين» ودعا لي بالنصر فسميت سيف اللّه بذلك فأنامن أشد المسلمين على المشركين. قال: صدقتني ثم أعاد عليه يسأله عن الإسلام وما يأمر به، وما للداخل فيه من الحقوق وما عليه من الواجبات، وخالد يجيبه عن كل ما سأل عنه، فمال مع خالد إلى صفوف المسلمين، ودخل خيمة خالد فاغتسل وتشهد وصلى ركعتين، وخرج يقاتل مع المسلمين إلى أن قتل عصر ذلك اليوم ما صلى سوى الركعتين.

نعود إلى شأن القتال فنقول: لما مال ذلك القائد مع خالد ظن الروم أنها من قائدهم حملة فحملوا فأزالوا المسلمين عن مواقفهم إلى المحامية وعليهم عكرمة وعمه الحارث بن هشام، فقال عكرمة: قاتلت رسول اللّه في كل موطن وأفر اليوم؟ ثم نادى: من يبايع على الموت؟ فبايعه الحارث بن هشام وضرار بن الأزور في أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم. فقاتلوا بين يدي فسطاط خالد حتى ثبتوا جراحة، فمنهم من برأ ومنهم من قتل. وقد اشتد القتال بين الفريقين النهار كله إلى جنوح الشمس للغروب، فنهد خالد بالقلب حتى تصافح القوم بالسيوف وصار خالد بمن معه بين خيل الروم ورجلهم، وكان المكان واسع المطرد ضيق المهرب. وتضايقت خيل الروم، فلما وجدت مذهباً ذهبت تشتد في الصحراء، وأفرج لها المسلمون وترك فرسانهم الرجالة في مصافهم وتفرقوا في كل

مذهب لا يلوون على شيء. وأقبل خالد والمسلمون على الرجْل ففضوهم، فكأنما هدم بهم حائط فاقتحموا في خندقهم فاقتحمه عليهم فعمدوا إلى الواقوصة فهووا فيها. وقد زاد خسارتهم أنه كان فيهم كثير من المقيدين وآخرون مسلسلين للموت، فكان الجماعة من المسلسلين أو المقيدين إذا هوى واحد منهم في الواقوصة هوى بقيتهم بِهُوِيِّه، فكان ذلك نكالاً لهم ووبالا عليهم إذ تهافت في الواقوصة أكثر القتلى.

وقد ذكر الطبري أنه قد هوى فيها من الروم عشرون ومائة ألف، وهؤلاء سوى من قتلوا بالمعركة. وقد استمر القتال طول النهار ومعظم الليل. وأصبح خالد وهو في رواق رئيس جند الروم. وإني لأشك في عددهم، ولكن لا شك في نصر المسلمين.

وقد شق على كثير من عظماء جنود الروم وشجعانهم وقوادهم أن يروا هزيمة جيشهم بأعينهم، ففضلوا الموت على الحياة: فتزملوا وجلسوا ينتظرون الموت حتى لا يروا اليوم البئيس فقتلوا على حالهم تلك ـ وهذه هي العادة لم تزل إلى اليوم في بعض القبائل العربية: إذا غلب الجيش على أمره وحقت عليه الهزيمة عمد الرؤساء إلى التزمل والجلوس حتى يأتي من يقتلهم ليريحوا أنفسهم من عار الهزيمة وتجرع غصص الذل. وقد أبلى المسلمون بلاء حسناً وقتل منهم نحو ثلاثة آلاف فيهم كثير من أجلاء أصحاب رسول الله ﷺ، وقد شهد اليوم منهم ألف؛ وفي ذلك اليوم سمع خالد رجلاً يقول: ما أكثر الروم وأقل المسلمين! فقال خالد: ما أقل الروم وأكثر المسلمين. إن الجيوش إنما تكثر بالنصر وتقل بالخذلان، ولوددت أن الأشقر بريء مما به من الوجى وقد أضعف الروم جيوشهم.

وفي أول هذا اليوم ورد كتاب عمر بن الخطاب بوفاة أبي بكر رضي الله عنه وبتولي عمر الخلافة، وفيه عزْل خالد عن إمارة جيشه وتولية أبي عبيدة بن الجراح. فلما جاء الرسول سئل عما وراءه، فأخبر بالمدد وبسلامة الأمة، وأعطى

الكتاب لخالد وأسرَّ إليه بما وراءه. فأحمد خالد رأيه ولم يشأ أن يظهر الأمر للناس وهم على حالهم تلك؛ حتى إذا ما انتهت الوقعة سلم الكتاب إلى أبي عبيدة وسلم عليه بالإمارة. وفي الصبح بعد انتهاء الموقعة أتى خالد بعكرمة وابنه عمر فوضع رأس عكرمة على فخذه ورأس عمر على ساقة، وصار يقطر في حلقيهما ويمسح وجههما ويقول: زعم ابن حنتمة أن لا نستشهد ـ يريد عمر رضي الله عنه ـ وقد قاتل النساء في ذلك اليوم قتالاً شديداً في بعض الجولات، وكن يقمن بسقي الجند الماء ومداواة الجرحى وتمريضهم.

ومكان العبرة بعد هذه الموقعة هو أن جيشاً عدته أربعون ألفاً قد غلب جيشاً فيه خمسة أمثاله، يفتش الناس عن الأسباب التي دعت إلى ذلك.

أنا لا أبعد بكم إلى شيء ناء، وإنما أحيلكم على ما قدمنا من الأسباب. وأزيدكم أن جيش المسلمين كان فيه العدد المدرب على الحرب وهم قريبو عهد بالانتصار على الجنود الفارسية، فأورثهم ذلك ضرارة عليهم. وقد أحبوا أن ينتظموا الروم مع فارس في سلك ليكون لهم فخر الإثخان في الدولتين.

قد كان في حكم المقبول أن يقال: إن الانتصار في كل من الناحيتين (العراق والشام) سببه ارتباك الدولتين، غير أن هذا الارتباك لم يمنع الطائفتين عن حشد الجنود التي تفوق المسلمين أضعافاً مضاعفة، ورمى كل ثغر بما يسده من المقاتلة وذوي النجدة. فالأمر الذي ساعد المسلمين كما قدمنا وراء العدد وهو أن الجندي المسلم إنما كان يخوض المعامع وقلبه متأثر بأمرين:

أولهما: ثقته بأن العاقبة له لما قرأه في الكتاب من عدة النصر وما سمعه من الرسول من التبشير بهذه الفتوح. وهذه الثقة في قلبه بمنزلة مدد من الله تعالى يؤيده.

ثانيهما: إنه واثق بالعاقبة في الأخرى فهو إن قتل شهيداً فائزٌ بالحسنى وزيادة، وإذا عاش ظافراً فذلك خير عَجَّله الله له، والآخرة خير وأبقى.

ولا تنس براعة القواد وحسن تدبيرهم. فإن أولئك القواد الذين قاموا بهذه الفتوح قد أعجزوا من بعدهم أن يقدم إقدامهم في مثل حالهم، وإن أمثالهم في تاريخ الشرق قليل.

أما خالد فكان واسطة عقد هؤلاء القواد، وزينة تاريخ أبي بكر. وبانتهاء وقعة اليرموك تمت الأعمال الكبرى التي قامت بين دولة الإسلام في مقابلة دولتي الفرس والروم في عهد أبي بكر. وإنما عددنا اليرموك من الأعمال في عهد أبي بكر؛ لأنها بدأت وتهيأت في زمنه، وبعمله، وإن كان تمامها في عهد عمر. وإن الأعمال الْكُبَر التي تمت في هذا التاريخ القصير الذي لم يمتد إلى أكثر من سنتين وأربعة أشهر - وهي مدة خلافة أبي بكر - تشهد بأن الرجل كان صادق العزيمة قوي الإرادة كبير الهمة؛ لأنه لا يحمل العظيم من الأمور ويستقل به لا العظيم.

إدارة البلاد في عهد أبي بكر

لم يكن للمسلمين بلاد في عهد أبي بكر سوى شبه جزيرة العرب، وهي التي كانت تابعة للإدارة الإسلامية نهائياً. وقد كان أبو بكر جزأها إلى ولايات، وجعل على كل ولاية أميراً من قبله، وكان الأمير يقيم الصلاة ويقضي في القضايا ويقيم الحدود. فكان أميراً وقاضياً ومنفذاً يقوم بعمل الشرطة، ولم يول أبو بكر قضاة يتولون القضاء دون الأمراء. وهذه ولاية الجزيرة وولاتها لعهده:

١ - مكة: وأميرها عتاب بن أسيد، وهو الذي ولاه رسول اللّه ﷺ واستمر مدة أبي بكر.

٢ - الطائف: وأميرها عثمان بن أبي العاص، ولاه رسول اللّه ﷺ وأقره أبو بكر.

٣ - صنعاء: وأميرها المهاجر بن أبي أمية، وهو الذي فتحها ووليها بعد انتهاء أمر الردة.

٤ ـ حضرموت: وواليها زياد بن لبيد.

٥ ـ خولان: وواليها يَعَلَى بن أمية.

٦ ـ زُبَيْدٌ وَرِمَع: وواليهما أبو موسى الأشعري.

٧ ـ الجَنْدَ: وأميرها معاذ بن جبل، وبها مسجد من بناء معاذ، وقد كانت العرب تحج بمسجد الجَندَ قبل الإسلام.

٨ ـ نجران: وواليها جرير بن عبد اللّه.

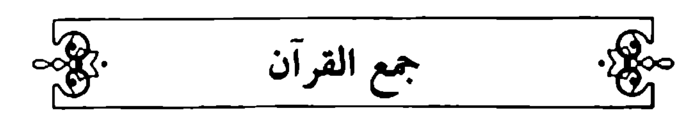
٩ ـ جرش: وواليها عبد اللّه بن ثور.

١٠ ـ البحرين: وواليها العلاء بن الحضرمي.

أما العراق والشام فكان أمراء الجند هم ولاة الأمر فيها: ولم يكن أمر التولية في نواحيها راجعاً إلى أبي بكر. بل كان كل أمير يولي واحداً من قبله على الناحية التي فتحها ليكون نائباً عنه فيها، ولم يكن الأمر قد استقر في تلك النواحي استقراراً نهائياً.

ولم يتخذ أبو بكر وزيراً، وإنما كان عمر يلي له القضاء بالمدينة ولم يكن قاضياً. وكان أبو عبيدة أميناً على بيت المال قبل أن يسير إلى الشام.

ولم يتخذ أبو بكر كاتباً بعينه، بل كان يكتب له زيد بن ثابت، وكان يكتب له الأخبار عثمان بن عفان، وكان يكتب له من حضر كعلي وغيره.



جمع القرآن

وفي عهد أبي بكر جمع القرآن. وذلك أن القتل قد استحرّ في القراء في حروب اليمامة وأهل الردة. فرأى عمر أن يجمع القرآن في مصحف خشية أن يهلك الحفاظ فيضيع القرآن، فلَم يزل بأبي بكر حتى رضي بذلك، فدعا زيد بن ثابت فلم يزل به أبو بكر حتى رضي، وهو الذي قام بجمع القرآن. أخرج البخاري عن زيد بن ثابت قال: «أرسل إليّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة وعنده

عمـر فقال أبـو بكر: إن عمـر أتاني فقـال: إن القتل قـد استحـرَّ يـوم اليمـامـة بـالناس، وإني لأخشى أن يستحـر القتل بـالقـراء في المـواطن فيـذهب كثـير من القرآن، إلّا أن يجمعوه، وإني لأرى أن يجمع القرآن.

«قـال أبو بكـر: فقلت لعمر: كيف أفعـل شيئاً لم يفعله رسـول اللّه ﷺ؟ فقـال عمر: هـو واللّه خـيرا فلم يـزل عمـر يـراجعني حتى شـرح اللّه صـدري لذلك، فرأيت الذي رأى عمر. قال زيد: وعمر عنـده جالس لا يتكلم، فقـال أبو بكر: إنك شاب عاقل ولا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول اللّه ﷺ فتتبّع القرآن فاجمعه. فواللّه لو كلفني نقل جبل ما كان أثقل علي مما كلفني به من جمع القرآن، فقلت: كيف تفعلان شيئاً لم يفعله النبي ﷺ؟ فقـال أبو بكـر: هو واللّه خير. فلم أزل أراجعه حتى شـرح اللّه صدري للذي شـرح اللّه له صـدر أبي بكر وعمر. فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع، والأكتاف، والعَسَب، وصدور الرجال، حتى وجدت من سورة التوبة آيتين عندّ خـزيمة بن ثـابت لم أجدهمـا مع غيره: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾[1] إلى آخرها. فكـانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند أبي بكر حتى توفاه اللّه، ثم عند عمـر حتى توفـاه اللّه، ثم عند حفصة بنت عمر رضي اللّه عنها.

وسنذكر عند الكلام على عثمان أنه هو الـذي استنسخ المصـاحف وفرقهـا في الأمصار، وكان القرآن قبل ذلك محفوظاً مرتباً في الصدور مكتوباً آيات وسوراً ليست مجتمعة.



رزق الخليفة

كان أبو بكـر يرتـزق من استغلال ملكـه وعمل يـده. وقد ظـل مدة ستـة أشهر بعد خلافته وهو على حاله تلك، لا ينفق على نفسه من بيت مال المسلمين

---

(١) سورة التوبـة: الآية ١٢٨

شيئاً، فأصبح ذات يوم وعلى ساعده أبراد وهو ذاهب إلى السوق. فلقيه عمر فقال: أين تريد؟ قال: إلى السوق. قال: تصنع ماذا وقد وليت أمر المسلمين؟ قال: فمن أين أطعم عيالي؟ فقال: انطلق يفرض لك أبو عبيدة (أمين بيت المال) فلما ذهب إليه، قال: أفرض لك قوت رجل من المهاجرين ليس بأفضلهم ولا أوكسهم، وكسوة الشتاء والصيف إذا أخلقت شيئاً رددته وأخذت غيره. ففرضا له كل يوم نصف شاة وما كساه في الرأس والبطن. أخرجه ابن سعد عن عطاء بن السائب.

وقال الطبري: قالت عائشة: كان منزل أبي بالسُّنْح عند زوجته حبيبة ابنة خارجة، وكان قد حجَّر عليه حُجْرَة من سعَفٍ، فما زاد على ذلك حتى تحول إلى منزله بالمدينة فأقام هناك بالسُّنْح بعد ما بويع له ستة أشهر يغدو على رجليه إلى المدينة، وربما ركب على فرس له وعليه إزار ورداء ممشق فيوافي المدينة فيصلي الصلوات بالناس، فإذا صلى العشاء رجع إلى أهله بالسنح فكان إذا حضر صلى بالناس وإذا لم يحضر صلَّى بهم عمر بن الخطاب. فكان يقيم يوم الجمعة صدر النهار بالسُّنْح يصبغ رأسه ولحيته، ثم يروح لقدر الجمعة فيُجمِّعُ بالناس. وكان رجلًا تاجراً. فكان يغدو كل يوم إلى السوق فيبيع ويبتاع. وكانت له قطعة غنم تروح عليه، وربما خرج هو بنفسه فيها، وربما كفيها فرعيت له وكان يحلب للحي أغنامهم. فلما بويع له بالخلافة قالت جارية من الحي: اليوم لا تُحلب لنا منائح دارنا، فسمعها أبو بكر فقال: بلى، لعمري لأحلبنها لكم وإني لأرجو أن لا يغيرني ما دخلت فيه عن خُلُقٍ كنت عليه. فكان يحلب لهم فربما قال للجارية من الحي: يا جارية أتحبين أن أرْغي لك أو أُصرِّح؟ فربما قالت: ارْغِ، وربما قالت: صرح، فأي ذلك قالته فعل. فمكث كذلك بالسُّنْح ستة أشهر، ثم نزل إلى المدينة فأقام بها. ونظر في أمره فقال: لا والله لا تصلح أمور الناس على التجارة وما يصلحهم إلّا التفرغ لهم والنظر في شأنهم. ولا بد لعيالي مما يصلحهم. فترك التجارة واستنفق من مال المسلمين ما يصلحه ويصلح عياله

يوماً بيوم ويحج ويعتمر. وكان الذي فرضوا له في كل سنة ستة آلاف درهم، فلما حضرته الوفاة قال: ردوا ما عندنا من مال المسلمين فإني لا أصيب من هذا المال شيئاً. وإنَّ أرضي التي بمكان كذا وكذا للمسلمين بما أصبت من أموالهم. فدفع ذلك إلى عمر ولقوحاً وعبداً صيْقلا وقطيفة ما تساوي خمسة دراهم. فقال عمر: لقد أتعب مَن بعده.

وروي عن عائشة أنها دخلت على أبيها في مرضه الذي توفي فيه وطلبت إليه أن يعهد بالأمر وهي حزينة كئيبة. فرفع رأسه وقال: «أي أمَّه هذا يوم يُجْلى لي عن غطائي وأشاهد جزائي: إن فرحاً فدائم، وإن ترحاً فمقيم. إني اضطلعت بإمامة هؤلاء القوم حين كان النكوص إضاعة، والخذل تفريطاً. فشهيدي اللَّه ما كان يقيلني إياه، فتبلغت بصفحتهم وتعللت بدِرّة لقْحَتهم. فأقمت صلاتي معهم لا مختالاً أشرا، ولا متكاثراً بطراً. لم أعْد سد الجُوعة وَوَرْى العورة وَقُواته الْقوَام[1]. حاضري اللَّه من طوى مُمْعض تهفو منه الأحشاء وتَجبُ له الأمعاء، فاضطررت إلى ذلك اضطرار المريض إلى المَعيف الآجن. فإذا أنا مت فردي إليهم صحفتهم وعبدهم ولقحتهم ورحاهم ودثارة ما فوقي اتقيت بها البرد ودثارة ما تحتي اتقيت بها نز الأرض، كان حشوها قطع السعف اهـ.

وكأن أبا بكر يرى أنه ليس له حق في أن يأخذ من بيت مال المسلمين شيئاً، فلهذا أوصى بأرضه للمسلمين في نظير ما أخذه من أموالهم.

ومناقب أبي بكر كثيرة. منها قول النبي ﷺ «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلاّ كانت له عنه كبوة غير أبي بكر». وقد شهد له بالجنة وبعتقه من النار. وأخبر بخلافته تعريضاً لا نصاً بقوله لامرأة «إن لم تجديني فإنك تجدين أبا بكر». وشهد المشاهد كلها مع رسول اللَّه ﷺ وأعتق سبعة نفر كلهم كانوا يعذبون في اللَّه: بلال، وعامر بن فهيرة، وزنّيرة، والنهدية، وابنها، وجارية بني مؤمل، وأم

---

(١) القوام: ما يعاش به.

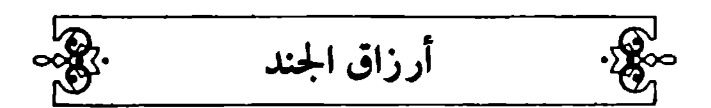
عبيس. وكان بيت المال معه في داره. ولما فتح بيت المال بعد وفاته لم يجدوا فيه درهماً ولا ديناراً إلّا ديناراً واحداً سقط من غراره.

وقال أبو صالح الغفاري: كان عمر يتعهد امرأة عمياء بالمدينة بالليل فيقوم بأمرها، فكان إذا جاء وجد غيره قد سبقه، فرصده فإذا هو أبو بكر وهو خليفة.

وقيل: إن زوجته اشتهت حلواً، فقال لها: ليس لنا ما نشتري به. فقالت. أنا أستفضل من نفقتنا عدة أيام ما نشتري به. قال: إفعلي. ففعلت ذلك فاجتمع لها في أيام كثيرة شيء يسير، فلما عرّفته ذلك ليشتري به حلواً أخذه فرده إلى بيت المال وقال: هذا يفضل عن قوتنا. وأسقط من نفقته بمقدار ما نقصت كل يوم وغرمه من بيت المال من ملك كان له.

وهو أول من سمي ما كتب فيه القرآن مصحفاً، وأول من فرض له رعيته نفقة، وأول من سمي خليفة، وأول خليفة ولي وأبوه حي.

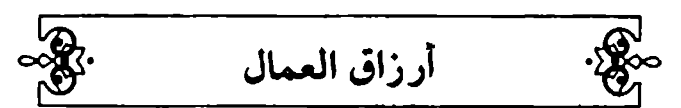
كان يسوي في قسمته بين السابقين الأولين والمتأخرين في الإسلام، وبين الحر والعبد والذكر والأنثى * من ابن الأثير.



أرزاق الجند

كان جند المسلمين في عهد أبي بكر متطوعين لا يكلفون الخليفة ولا بيت المال شيئاً، وإنما ينفقون من أموالهم ابتداء ثم مما يصيبون من الغنائم فإن المقاتلة لهم أربعة أخماس الغنيمة سوى ما يناله القاتل من سلب القتيل. وكان الأمير ينفل أهل البلاء الممتازين بالغناء في الحرب والضراوة على العدو. ولقد كانت الغنائم في العراق والروم مما يغري المخلفين باللحاق بإخوانهم، لأنها كانت شيئاً كثيراً لا عهد لهم به. وحسبنا من ذلك خطبة خالد التي أغراهم فيها على العراق وافتتاحه وحيازته دون فارس، وأن الأمر لو لم يكن ديناً ولم يكن إلّا المعاش لكان

في الحق أن يجالدوهم على ما في أيديهم. وقد كان أبو بكر يسوي في العطاء بين الناس ولا يميز أحداً عن أحد، فقيل له: كيف تسوي بالسابقين الأولين غيرهم؟ فقال: أولئك قوم عملوا لأنفسهم وسبقوا إلى الدخول في الدين ابتغاء مرضاة اللّه فوقع أجرهم على اللّه. أما أنا فلا أفضل أحداً على أحد. وعذره في ذلك أن رسول اللّه ﷺ إنما كان يفاضل بين الناس في العطاء، لأنه كان أعلم بوجوه المصلحة، وأجر العطاء مردود إليه يصنع فيه ما شاء، والناس يرضون منه بكل ما يجيء به، فإذا حرم أحداً من أهل البلاد رجع وهو راض مكتفياً برضا اللّه ورسوله عنه. وليس لأبي بكر ما لرسول اللّه ﷺ.



أرزاق العمال

كان يرد لبيت المال خمس الغنائم، وصدقات المسلمين، وجزية أهل الذمة؛ وذلك كله مادة الخلافة يرزق الخليفة منها العمال، ويعين منها المجاهدين في سبيل اللّه، ويفض ما بقي على أهلها المعينين في كتاب اللّه تعالى.



وفاة أبي بكر

مرض أبو بكر بالحمى لسبع خلون من جمادي الآخرة سنة ١٣ هـ. ومكث محموماً ١٥ يوماً، وتوفي في مساء ٢١ جمادي الآخرة سنة ١٣ هـ (٢٢ أغسطس سنة ٦٣٤ م) فكانت مدته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليالي ودفن في حجرة عائشة بجوار رسول اللّه ﷺ، يميل عنه قليلاً إلى الجهة الشرقية.



انتخاب عمر للخلافة

لما اشتدَّ على أبي بكر مرضه، وأحس بدنوّ أجله، خـاف على المسلمـين أن ينتشر أمرهم وتنحلَّ عقدة اجتماعهم بتنـازعهم سبل الخـلافة. وقـد رأى الناس يوم وفاة رسول اللّه ﷺ قد انقسمـوا فئتين كـل منهما يجـذب الخلافـة إلى حيزه ـ فكـان ذلك حـادياً لـه على النـظر للمسلمين والاحتيـاط لاجتمـاع كلمتهم، ولم يشغله ما هو فيه عن النظر في مصلحتهم من بعده وجمع كلمتهم، ولو أن أبا بكر ترك مركـز الخلافـة شاغـراً لكان للتصـاول عليها مجـال، ولشغل المسلمـون عن أعدائهم بأنفسهم، ولكان وجه التاريخ تغـير عما هـو عليه اليـوم، ولكانت فتنـة القوم بالخلافة أنكى وأشد من فتنة الردة، ولعادت فتنة الردة جذعة واتسع الفتق على الراتق.

أدار أبو بكر عينه في أصحابه يتخير منهم لهذا المنصب رجلاً يكون شديـداً في غير عنف، ليناً في غير ضعف، فوجد كثيراً من أصحاب رسول اللّه ﷺ على ما يجب. غـير أن عمر كـان أفضلهم في نفسـه، وأقـربهم إلى الصفـة التي يجب أن يكون عليها خليفة المسلمين. وكذلك كان عمر في نفوس من استشارهم أبو بكر في أمر الخلافة ومن يليها.

يقول صاحب أشهر مشاهير الإسلام رحمـه اللّه، «وممن توفـرت فيهم هذه الصفة من الصحابة الكرام عمـر بن الخطاب وعـلي بن أبي طالب، إلّا أن الأول كان ربما يريد الأمر فيرى في طريقه عقبة فيدور إليه، والثاني يرى الاستقامـة فلا يبالي بالعقبة تقوم بين يديه، فهو إلى الشدة أميل منه إلى اللين».

أقول: إن ما ذكره حضرة الفاضل في وصف الرجلين صحيح، غير أن عدول أبي بكر عن علي إلى عمر لم يكن سببه ما ذكر فحسب. والذي أعتقد أن تريث علي في بيعة أبي بكر واحتجاجه على أحقيته للأمر بقرابته من رسول الله ﷺ هو الذي حدا بأبي بكر إلى العدول عنه إلى غيره؛ لأنه خشي أن يجعلها ميراثاً للأعقاب على نظام الأرستقراطية، في حين إن أبا بكر كان يراها غير خاصة ببني هاشم كما يرى علي. بل قد صرح بأنه كان يود: أن لو كان سأل رسول الله ﷺ عن الأنصار: هل لهم في هذا الأمر شيء حتى لا يكون قد غلبهم يوم السقيفة بأن كان ألحن منهم بحجته. فهو يود أن لو كان استبرأ لنفسه. ومن كانت هذه حاله كان أحرص على إبعادها عمن يراها تراثاً وطعمة لأهله خاصة. هذا هو الذي أظنه سبباً لما ذكر.

عزم أبو بكر على اختيار عمر. وأحب أن يستوثق للأمر ويوطن أصحاب رسول الله وأهل السابقة على هذا الأمر حتى لا يكون في نفس أحد منهم حفيظة، ولئلا يكون قد استخلف عليهم من لا يرضونه. فسأل عبد الرحمن بن عوف فقال: أخبرني عن عمر بن الخطاب. فقال: ما تسألني عن أمر إلاّ وأنت أعلم به مني. فقال: وإن. فقال عبد الرحمن: هو أفضل من رأيك فيه من رجل، ولكن فيه غلظة. قال أبو بكر: ذلك لأنه يراني رقيقاً، ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيراً مما هو فيه. ثم دعا عثمان بن عفان فقال: أخبرني عن عمر. فقال أنت أخبرنا به. فقال: على ذلك يا أبا عبد الله، أخبرني عن عمر. فقال: اللهم علمي به أن سريرته خير من علانيته، وأنه ليس فينا مثله. فقال أبو بكر: رحمك الله أبا عبد الله. لا تذكر مما ذكرت لك شيئاً، قال: إفعل. فقال له أبو بكر: لو تركته ما عدوتك وما أدري لعله تاركه، والخيرة له ألاّ يلي من أموركم شيئاً، ولوددت أني كنت خلواً من أموركم وأني كنت فيمن مضى من سلفكم. وسأل أسيد بن حضير فقال أسيد: اللهم أعلمه الخير بعدك، يرضى للرضى ويسخط للسخط، الذي يسر خير من الذي يعلن ولن يلي هذا الأمر أحد أقوى

عليه منه. واستشار غير هؤلاء سعيد بن زيد وجماعة من المهاجرين والأنصار فكلهم قال خيراً وأثنى عليه.

ولما تهيأ لأبي بكر ما أراد دعا عثمان بن عفان فأملى عليه:

«بسم الله الرحمن الرحيم» هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة إلى المسلمين أما بعد» ثم أغمي عليه فكتب عثمان: «فإني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيراً «ثم أفاق أبو بكر فقال: اقرأ عليّ. فقرأ عليه فكبر أبو بكر وقال: أراك خفت أن يختلف الناس إن افتُلِتُّ في غشيتي. قال: نعم. قال: جزاك الله خيراً عن الإسلام وأهله. وأقرها أبو بكر من هذا الموضع.

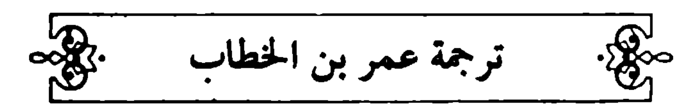
قال الطبري: ثم أشرف على الناس وزوجه أسماء بنت عميس ممسكته. فقال لهم: أترضون بمن أستخلف عليكم؟ فإني والله ما ألوت من جهد الرأي ولا وليت ذا قرابة وإني قد وليت عليكم عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا. فقالوا: سمعنا وأطعنا.

ثم دعا أبو بكر بعمر خالياً فقال: إني مستخلفك من بعدي وموصيك بتقوى الله. إن لله عملاً بالليل لا يقبله بالنهار، وعملاً بالنهار لا يقبله بالليل، وإنه لا تقبل نافلة حتى تؤدي الفريضة فإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم. وحق لميزان لا يوضع فيه إلّا الحق أن يكون ثقيلاً. وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل وَخِفَّتِهِ عليهم، وحق لميزان لا يوضع فيه إلّا الباطل أن يكون خفيفاً. إن الله ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئاتهم، فإذا ذكرتهم قلت: إني أخاف أن لا أكون من هؤلاء. وذكر أهل النار فذكرهم بأسوأ حالهم ولم يذكر حسناتهم، فإذا ذكرتهم قلت: إني لأرجو أن لا أكون من هؤلاء. وذكر آية الرحمة مع آية العذاب ليكون العبد راغباً راهباً ولا يتمنى على الله غير الحق ولا يلقى بيده إلى التهلكة. فإذا حفظت وصيتي فلا

يكن غـائب أحب إليـك من المـوت وهـو آتيـك، وإن ضيعت وصيتي فـلا يكن غائب أبغض إليك من الموت ولست بمعجزه.

ولمـا خرج عمـر من عنده رفـع يـديـه وقـال: اللهم إني لم أرد بـذلـك إلاّ صـلاحهم وخفت عليهم الفتنة فعملت فيهم بمـا أنت أعلم به، واجتهـدت لهم رأياً فوليت عليهم خيرهم، وأقواهم عليهم، وأحرصهم على مـا أرشدهم، وقـد حضرني من أمرك ما حضر، فاخلفني فيهم فهم عبادك ونواصيهم بيـدك، أصلح اللهم لهم ولاتهم واجعله من خلفائك الراشدين وأصلح له رعيته.

وكان بدء خـلافة عمـر بن الخطاب يـوم الثلاثـاء ٢٢ جمادي الثـانية سنـة ١٣ هـ (٢٣ أغسطس سنة ٦٣٤ م).



ترجمة عمر بن الخطاب

هو عمر بن الخطاب بن نفيل من بني عـدي بن كعب من بني لؤى. وأمه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة من بني مخزوم بن يقظة بن مرة. ولـد لثلاث عشـرة سنة من ميلاد رسـول اللّه ﷺ. كان عمـر ذا شهامـة ونجدة وجـرأة وشجاعـة. وكانت الشجاعة الأدبية أخص أوصافه لا يخاف في الحق لومة لائم، ولا يقر على كتمانة ولا يعطي هوادة في باطل يعتقد بطلانه.

كان عمر في صغره يرعى على أبيه غنمه ويضم إليهن غنيمات لخالات له. وقد روى ابن عساكـر بسنده: أن عمـر مر بصجنـان (اسم مكان) فقـال: كنت أرعى للخطاب بهذا المكان فكان فظّاً غليظاً. فكنت أرعى أحياناً وأحطب أحياناً فأصبحت أضرب الناس ليس فوقي أحد إلاّ رب العالمين. ثم قال:

لا شيء ممـا تـرى تبقى بشـاشتـه   يبقى الإلـه ويـودي المـال والـولـد

ولما كبر عمر اشتغل بالتجارة في ماله وكان يذهب أحياناً إلى الشام متجراً. وقد روى ابن عساكر: أن بطريقـا أسره بـالشام واستعمله في بعض عمله فتغفله

عمر وقتله وخرج هارباً من الشام. ولم يكن لعمر وفر من المال، بل كان مقّلاً من ذلك وحرفته التجارة في الجاهلية والإسلام إلى أن ولي الخلافة.

كان عمر عزيز الجانب في قومه مشهوراً بالشدة، وصدق العزيمة وقوة الشكيمة، وكانت سنه حين البعثة سبعاً وعشرين سنة. ولم يكون قد أشرق نور الإيمان على قلبه فكان ينال المسلمين بالأذى.

كان رسول اللّه في مبدأ أمره يتمنى أن يكون له بين المسلمين رجل له عز وشرف وصدق عزيمة يكفكف عنهم المشركين ويكون للمسلمين ردءاً من الأذى؛ ويرى أن قريع هذه الصفات إنما هو عمر بن الخطاب، وعمرو بن هشام، فكان يدعو اللّه أن يعز الإسلام بأحدهما، فاستجاب اللّه له في عمر.

ذكر في أسد الغابة بسنده قال: قال لنا عمر بن الخطاب: أتحبون أن أعلمكم كيف كان بدء إسلامي؟ قلنا نعم. قال: كنت من أشد الناس على رسول اللّه ﷺ، فبينا أنا يوماً في يوم حار شديد الحر بالهاجرة في بعض طرق مكة، إذ لقيني رجل من قريش فقال: أين تذهب يا ابن الخطاب؟ أنت تزعم أنك هكذا، وقد دخل عليك هذا الأمر في بيتك، قلت: وما ذاك؟ قال: أختك قد صبأت، قال: فرجعت مغضباً، وقد كان رسول اللّه يجمع الرجل والرجلين إذا أسلمنا عند الرجل به قوة فيكونان معه، ويصيبان من طعامه. وكان قد ضم إلى زوج أختي رجلين. قال: فجئت حتى قرعت الباب. فقيل: من هذا؟ قلت: ابن الخطاب. قال: وكان القوم جلوساً يقرأون القرآن في صحيفة معهم، فلما سمعوا صوتي تبادروا واختفوا وتركوا أو نسوا الصحيفة من أيديهم، فقامت المرأة ففتحت لي، فقلت: يا عدوة نفسها، قد بلغني أنك صبؤت. قال: فأرفع شيئاً في يدي فأضربها به، فسال الدم، فلما رأت المرأة الدم بكت، ثم قالت: يا ابن الخطاب ما كنت فاعلاً فافعل، فقد أسلمتُ. قال: فدخلت وأنا مُغْضَب، فجلست على السرير، فنظرت فإذا بكتاب في ناحية البيت، فقلت: ما هذا الكتاب أعطينيه، فقالت: لا أعطيك، لستَ من أهله، أنت لا تغتسل من

الجنابة ولا تَتَطَهَّر، وهذا لا يمسه إلاّ المطهرون؛ قال: فلم أزل بها حتى أعطتنيه، فإذا فيه ﴿بسم اللّه الرحمن الرحيم﴾ فلما مررت بالـرحمن الرحيم، ذعـرت ورَميت بالصحيفة من يدي، ثم رجعت إلى نفسي فإذا فيهـا ﴿سبح للّه مـا في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾[1] قال فكلما مررت باسم من أسماء اللّه عز وجل ذعـرت ثم تراجعت إلى نفسي حتى إذا بلغت ﴿آمنـوا باللّه ورسـوله وأنفقـوا مما جعلكم مستخلفـين فيه﴾[2]. حتى بلغت إلى قـوله: ﴿إن كنتم مؤمنـين﴾ قال: فقلت أشهـد أن لا إلـه إلاّ اللّه وأن محمداً رسـول اللّه، فخرج القـوم يتبادرون بـالتكبير استبشـاراً بما سمعـوه مني، وحمدوا اللّه عـز وجـل، ثم قـالـوا: يـا بن الخطاب، أبشر فإن رسول اللّه دعا يوم الإثنين فقال: «اللهم أعز الإسلام بأحد الرجلين: إما عمرو بن هشام، وإما عمر بن الخطاب» وإنا نرجو أن تكـون دعوة رسول اللّه لك الخ. وقد قدمنا فيما سبق نحو هذا مع اختلاف يسير.

ولما أعلن عمر إسلامه في قريش اشتد الأمر على القوم وكادوا يقتلونـه لولا أن أجاره منهم العاص بن وائل السهمي، وناله ما كان يناله المسلمون من الأذى غير أنهم لم يبلغوا به مبلغهم.

ولما كانت الهجـرة كان النـاس يخرجـون متسللين لا يعلم بخروجهم أحـد حتى لا تمنعهم قريش. أما عمر فأعلن أنه مهاجر وقال: «من أراد أن تَثْكَلَه أمـه وتأيم عرسه فليلقني خلف هذا الوادي» ثم خرج مهاجراً فلم يتبعه أحد.

وقد شهد مـع رسول اللّه ﷺ المشـاهد كلهـا. وكان مـوفق الرأي، ملهـماً بالصواب، وكثيراً ما كان يشير على رسول اللّه ﷺ بالأمر ثم ينزل القرآن مـوافقاً لما أشار به، وكان هو وأبو بكر بمنزلة وزيرين لرسول اللّه ﷺ. وقد تزوج رسول اللّه ﷺ بابنته حفصة، وله مقامات حسان في الحدب على رسول اللّه ﷺ والذبّ

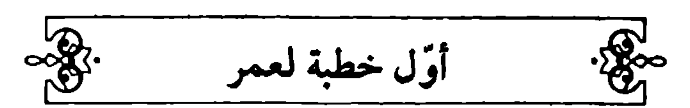
---

(١) سورة الحديد: الآية ١

(٢) سورة الحديد: الآية ٧.

عنه، والشدة على من ناوأه. وقد قال رسول اللّه ﷺ: «لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدَّثون فإن يكن في أمتي أحد فهو عمر».

ومن مقاماته المحمودة في الإسلام يوم السقيفة حين اختلفت الآراء وخشي أن يتفرق أمر المسلمين وتُشَبّ نار الفتن فأخمدها بالمبادرة إلى مبايعة أبي بكر، فكان عمله هذا سبباً لنجاة المسلمين من أكبر كارثة كانت تحلّ بهم لولا يمن نقيبته وصحة نظره بعد معونة اللّه تعالى. وقد كان لأبي بكر بمنزلة الوزير الأوّل يؤازره ويعينه ويشير عليه، وكان أبو بكر يحيل عليه النظر فيما يرفع إليه من القضايا بالمدينة، فكان قاضياً له وإن لم يتسمّ باسم قاض.



أوّل خطبة لعمر

بعد أن بويع عمر بالخلافة بعد وفاة أبي بكر صعد المنبر فقال كلمة قصيرة اشتملت على سياسته التي اعتزم أن يسوس بها الناس فقال بعد حمد اللّه والثناء عليه بما هو أهله:

«إنما مثل العرب كمثل جملٍ آنف اتبع قائده فلينظر قائدهُ أين يقوده. أما أنا فوربِّ الكعبة لأحملنكم على الطريق».

والجمل الآنف: هو الجمل الذلول المواتي الذي يأنف من الزجر والضرب ويعطي ما عنده من السير عفواً سهلاً. وهذا تشخيص حسن للأمة الإسلامية لعهده فإنها كانت سامعة مطواعة إذا أمرت ائتمرت، وإذا نهيت انتهت. ويتبع ذلك المسؤولية الكبرى على قائدها فإنه يجب عليه أن يرتاد لها ويصدر في شأنها بعقل، ويورد بتمييز حتى لا يورطها في خطر، ولا يُقحمها في مهلكة، ولا يهمل شأنها إهمالاً يكون من ورائه البطر. وقد أراد بالطريق: الطريق الأقوم الذي لا عوج فيه. وقد بَرَّ بما أقسم به.

فتح فارس وما كان بعد خالد

رحل خالد عن العراق كما أمره أبـو بكر وشيعـه المثنى ثم قال لـه خالـد: ارجع إلى سلطانك غير مقصر ولا وان. وقد استقـام أمر فـارس على رأس سنـة من مقدم خالد على شهر براز بن أردشير بن شهريار، فوجه إلى المثنى جنداً كثيفاً بقيادة هرمز جاذويه معهم فيل. وكتبت المسـالح إلى المثنى بـإقبال ذلـك الجيش، فخرج المثنى من الحيرة للقاء الجيش وضمَّ إليه مسالحه وجعل على مُجَنِّبَتيه أخويه: المعنًى ومسعوداً وأقام ببابل. وأقبل هرمـز وعلى مجنبتيـه الكوكبـذ والخوكبـذ. وقد كتب شهر براز إلى المثنى كتاباً يقول فيه:

«إني قد بعثت إليك جنداً من وخش أهل فـارس. إنما هم رعـاة الدجـاج والخنـازير ولست أقـاتلك إلاّ بهم» فأجـابه المثنى: إنمـا أنت أحد رجلين إمـا باغ فذلك شرّ لك. وإما كاذب فأعظم الكذابين عقوبة وفضيحة عند اللّه وفي الناس الملوك. وأما الذي يدلنا عليه الرأي فإنكم إنما اضطررتم إليهم فالحمد للّه الذي ردّ كيـدكم إلى رعاة الـدجاج والخنـازير، فجـزع الفرس لـذلك وقـالوا لملكهم: جرأت علينا عدوّنا بالذي كتبت به إليهم، فإذا كاتبت أحداً فاستشر.

التقت جموع الفرس وجموع المسلمين ببابل بعـدوة الصَّراة الـدنيا وتقـاتلوا قتـالاً شديـداً. ثم إن المثنى قصد الفيـل في جمع من المسلمـين وكان يفـرّق بـين الصفـوف والكراديس فـأصابـوا مقتلة فانهزم الفـرس وتبع المسلمـون فلّهم حتى جازوا بهم مسالحهم وهم يقتلون ويأسرون فيهم حتى انهزموا إلى المدائن.

وقد رأى المثنى أن الفرس غير تاركيه ولا بدّ لهم من مناجزته بجنود لا قبل لـه بهم، فخف إلى المدينـة ليخبر أبـا بكر بـالمسلمين ومـا تمّ لهم ومـا يتـوقعـون ويستأذنه في الاستعانة بأهل الردّة ممن قد ظهـرت توبتـه وندمـه، وكان المثنى قـد خلف على من كان معـه بشير بن الخصـاصية، ووافق انصـراف المثنى إلى المدينـة

اضـطراب الفرس في شـأن ملكهم، فشغلهم ذلك عن المثنى وجيشـه إلى أن عاد من وجهه ذاك.

ولما قدم المثنى على أبي بكر وجده قد اشتدّ به المرض، فلما أخبره الخبر قال عليّ بعمر، فلما حضره قال: إني لأرجو أن أموت في يومي هذا، فإن أنا متّ فلا تُمسِينّ حتى تندب النـاس مع المثنى ولا تشغلنكم مصيبـة وإن عـظمت عن أمـر دينكم ووصيـة ربكم؛ وقد رأيتني متـوفي رسـول اللّه ﷺ ومـا صنعت ولم يصب الخلق بمثله، ووالله لو أني آبي عن أمر اللّه ورسـوله لخَـذَلَنَا وَلَعَـاقَبَنَا فـاضطرمت المدينة ناراً. وإن فتح اللّه على أمراء الشام فاردد أصحاب خالد إلى العراق فإنهم أهله وولاة أمره وحده وأهل الضراوة بهم والجرأة عليهم.

فلما فـرغ عمر من أبي بكـر ندب النـاس مع المثنى قبـل صلاة الفجـر من الليلة التي مات فيها أبو بكر، ثم أصبح فبايـع الناس. ولـما فرغ من أمـر البيعة عاد فندب الناس إلى فارس.

كان الناس قد وقر في نفوسهم عظم ملك الفـرس وقوّة شـوكتهم وظفرهم في الحروب في الجاهلية، فكان حـرب الفرس أثقـل شيء على نفـوسهم فاثّـاقلوا فلم ينتدب أحد لذلك الـوجه، ومـا زال عمر ينـدب الناس إلى اليـوم الرابـع، فكـان أوّل منتدب أبـو عبيد بن مسعـود الثقفي وسعد بن عبيـد الأنصـاري، ثم تتابع الناس بعد ذلك وتكلم المثنى بن حارثة فقال: أيها الناس لا يعظمن عليكم هـذا الوجـه، فإنـا قد تبحبحنا ريف فارس وغلبنـاهم عـلى خـير شِقَّي السـواد وشاطرناهم ونلنا منهم واجترأ من قِبلنا عليهم ولها إن شاء اللّه مـا بعدهـا. وقام عمر فقال: إن الحجـاز ليس لكم بدار إلاّ عـلى النُّجْعَةَ ولا يقـوى عليه أهله إلاّ بذلك. أين الـطراء المهاجـرون عن موعـود اللّه! سيروا في الأرض التي وعـدكم اللّه في الكتاب أن يورثكموها، فإنه قال: ﴿ليظهره على الدين كله﴾[1] واللّه مظهر دينه ومعزّ ناصره ومولى أهله مواريث الأمم. أين عباد اللّه الصالحون؟

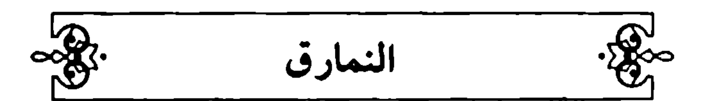
---

(1) سورة التوبة: الآية ٣٣.

فكـان بعد ذلـك انتداب أبي عبيـد. ثم ثنى سعـد بن عبيـد أو سليط بن قيس.

لما اجتمع ذلـك البعث قيل لعمـر: أمِّرْ عليهم رجـلاً من السـابقـين من المهاجرين أو الأنصار فقال: والله لا أفعل إن الله إنما رفعكم بسيفكم وسرعتكم إلى العدّو فإذا جَبُنْتُم وكـرهتم اللقاء فـأولى بالـرياسـة منكم من سبق إلى الدفـع وأجـاب إلى الدعـاء، والله لا أؤمِّر عليهم إلاّ أوّلهم انتـداباً. ثم دعـا أبـا عبيـد وسليطاً وسعداً فقال: أما إنكما لو سبقتمـاه لوليتكـما ولأدركتما بهـا إلى مالكـما من القُـدْمة. فـأمّر أبـا عبيد عـلى الجيش وقال لـه؛ اسمـع من أصحـاب النبي ﷺ وأشـركهم في الأمر ولا تجتهـد مسـرعـاً حتى تتبـين، فـإنها الحـرب، والحـرب لا يصلحها إلاّ الرجل المكيث الذي يعرف الفرصة والكف.

عجل المثنى إلى عسكره وأبو عبيد بمن معـه، وكانـوا خمسة آلاف، في أثـره وصار أبو عبيد يستنفر من يمرّ به من العرب لقتال الفـرس فأجـابه بشر كثـير وقد وَصَلَ المثنى إلى الحيرة في عشر ليال وجاء أبو عبيد بعده بشهر.



النمارق

كانت الفرس مشغولة عن المسلمين بموت شهر براز وصـارت تولي وتعـزل إلى أن عاد المثنى من المدينـة إلى الحيرة، وكـان الفرس قـد ولوا رُسْتُم أمـر حرب المسلمـين فكتب إلى دهاقـين السواد أن يثـوروا بالمسلمـين ودسَّ في كـل رُسْتَـاق رجلاً ليثور بأهله، فبعث جابان إلى اليهقباذ الأسفل، وبعث نَرْسي فنزل زَنْدَوَرْد وثـار أهل الـرساتيق من أعـلى الفرات إلى أسفله ـ فضمّ المثنى مسـالحه وحـذر. وعجل جابان فنزل النمارق ونزل المثنى بِخَفّان حتى لا يقطع عليـه خط الرجعـة إلى أن قدم عليه أبو عبيد ونـزل حتى جَم الناس ومـا معهم من الظهـر، ثم تعبأ ونزل على جيش جابان بالنمارق فـاقتتلوا قتالاً شـديداً ثم انهزمت الفـرس وأسر جابان ومـردان شاه ـ فـأما آسر مـردان شاه فقتله، وأمـا آسر جابـان فقد خـدعه

جابان فقال له: إنكم معاشر العرب أهل وفاء، فهل لك أن تؤمنني وأعطيك كذا؟ قال: نعم. قال: فادخلني على ملككم حتى يكون ذلك بمشهد منه. ففعل. وأجاز أبو عبيد أمانه. ولما علم بنو تميم أنه الرئيس قالوا لأبي عبيد اقتله. قال: ما تروني فاعلاً معاشر ربيعة[1]؟ أيؤمنه صاحبكم وأقتله أنا؟ معاذ اللّه ما لزم بعض المسلمين فقد لزمهم كلهم. وكان آسره مَطَر بن فضة التميمي.

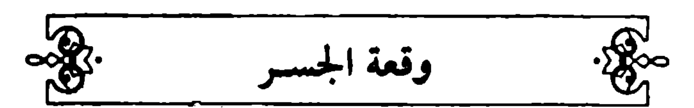
قسم أبو عبيد الغنائم وبعث بالخُمس إلى عمر ثم نادى بالرحيل إلى كسكر حيث ينزل نَرْسي وهو ابن خالة كسرى. وكسكر قطيعة له وقد ضوى إليه فل جيش جابان وقد وجه إليه رستم وبوران بجيش على رأسه الجالنوس حين بلغهما هزيمة جيش جابان، فرجا نرسي ومن معه أن يدركه المدد قبل منازلة المسلمين له. ولكن أبا عبيد عاجلهم وكان المثنى على تعبيته التي لقي بها جابان فاقتتلوا أسفل من كسكر بمكان يقال له: السقاطية قتالاً شديداً فانهزمت الفرس وفر نرسي وغلب على عسكره وأرضه، وأخرب أبو عبيد ما كان حول عسكرهم من كسكر وجمع الغنام، فوجد من الأطعمة شيئاً كثيراً وأخذت خزائن نرسي فلم يكونوا بشيء مما في خزائنه أفرح منهم بالنرسيان لأنه كان يحميه. لا يأكله بشر ولا يغرسه سواه وأهل بيته أو ملك الفرس، فاقتسموه وجعلوا يطعمونه الفلاحين، وبعثوا بخمسه إلى عمر وكتبوا: إن اللّه أطعمنا مطاعم الأكاسرة يحمونها وأحببنا أن تروها لتذكروا أنعام اللّه وأفضاله.

وأقام أبو عبيد بكسكر وسرح المثنى وغيره من القوّاد يغيرون على النواحي ويفلون عصائب الجنود التي كانت متفرقة هناك، وصالحه أهل بعض تلك النواحي، وجاء فروخ وفرَاونداذ من أهل الصلح إلى أبي عبيد بآنية فيها أطعمة فارس من الألوان والأخبصة وغيرها فقالوا: هذه كرامة أكرمناك قرى لك. قال: أأكرمتم الجند وقريتموهم مثله؟ قالوا: لم يتيسر ونحن فاعلون. قال: لا حاجة

---

(١) كذا في ابن الأثير، ولعل صحتها مضر لأن آسره تميمي وهم من مضر لا من ربيعة.

لنا في ما لا يسع الجند، وقدم إليه آخرون مثل ذلك، فأبى وقال: بئس المرء أبو عبيد إن صحب قوماً من بلادهم أهرقوا دمهم دونه أو لم يهرقــوا فاستأثر عليهم بشيء يصيبه؛ لا والله لا يأكل مما أفاء الله عليهم إلاّ مثل ما يأكل أوساطهم.



وقعة الجسر

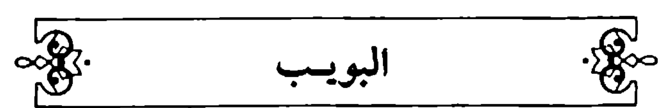
جاء خبر الهـزيمة إلى رستم فجهـز جيشاً آخـر عظيـماً وعليه بَهْمَنْ جـاذويه وأعطاه الراية الكبرى لفارس وهي المسماة دِرَفْش كـابيان وعـرضها ثمـانية أذرع وطولها اثنا عشر ذراعاً من جلود النمر. وأقبل أبو عبيد ونـزل المَرْوَحـة، موضـع البرج والعاقول، فبعث إليه بهمن: إمـا أن تعبروا إلينـا وندعكم والعبـور، وإما تخلوا بيننـا وبين العبـور. فقال من مـع أبي عبيد: دعهم يعبـرون إلينا فـأبى ولج وقال: لا يكونون أجرأ على الموت منا. فعبروا عـلى جسر نصبوه في مكـان ضيق المطرد والمذهب فاقتتلوا يومـاً، حتى إذا كان آخـرَ النهار واستبـطأ رجل من ثقيف الفتح ألّفَ بين الناس فتصافحوا بالسيوف وقصد أبو عبيد الفيـل وضربـه فخبط الفيل أبا عبيد وقد أسـرعت السيوف في أهـل فارس وأصيب منهم ستـة آلاف. فلما خُبط أبو عبيد انهزم المسلمون وتموا عـلى هزيمتهم وعمـد رجل من ثقيف إلى الجسر فقطعه. فانتهى الناس إلى الجسر والسيوف تأخـذهم من خلفهم فتهافتـوا في الفرات فأصيب من المسلمـين أربعة آلاف من بـين غريق وقتيـل. وقام المثنى من خلف الناس في أهل النجـدة يحمون ظهـورهم ويدافعـون عنهم حتى أصلح الجسر وعبر الناس ثم عبر بمن معه إلى المـروحة وهـو جريـح ومعه عـدد من حماة الناس جرحى وهذه عاقبة اللجاج والمجازفة في الحرب.

كـان المثنى قد نصـح لأبي عبيد وقـال لـه: إنـك تقـدم عـلى أرض المكـر والخديعة والخيانة والجبرية، تقدم على قوم قد جـرءوا على الشرّ فعلمـوه وتناسـوا الخير فجهلوه، فانظر كيف تكون واخزن لسانك ولا تفشين سرّك، فإن صـاحب السرِّ ما ضبطه متحصن لا يؤتي من وجه يكرهه وإذا ضيعه كان بمضيعة.

هرب من الناس بشر كثير على وجوههم وافتضحوا في أنفسهم واستحيوا مما نزل بهم وبلغ عمر من بعض ما آوى إلى المدينة فلم يعنف الفارين وخفف عنهم مصابهم وقال: عباد الله اللهم إن كل مسلم في حلّ مني، أنا فِئَةُ كل مسلم. يرحم الله أبا عبيد: لو كان عبر فاعتصم أو تحيز إلينا ولم يستقتل لكنا له فئة.

أراد أهل فارس العبور للمسلمين لما رأوا من قلتهم وضعفهم بمن قتل منهم أو شرد وأحبوا أن يستأصلوهم. فدهمهم خبر أهمهم وصرفهم عن نيتهم. وهو أن الناس بالمدائن قد ثاروا برستم ونقضوا الذي بينهم وبينه فصاروا فرقتين: الفهلوج على رستم، وأهل فارس على الفيزران. وقد كان بين وقعة اليرموك ووقعة الجسر أربعون يوماً.

وقد أخطأ أبو عبيد رحمه الله في عبور النهر ومخالفته أصحابه، وقد أمره عمر بأن يستشيرهم وينتهي إلى رأيهم وهم أصحاب رسول الله وبخاصة سليط ابن عمرو، ولم يسمع نصيحة المثنى وهو رجل قد خرجته الوقائع وزاده علماً ما رآه من خالد إذ كان معه. وخطأ ثان ما صنعه مرثد الثقفي من قطع الجسر على الناس، فإن العدوّ لم يحدث بهم من النكاية ما أحدثه فيهم بعمله، فكان الصديق الجاهل، ولا ينفعه اعتذاره بأنه أراد أن يقاتل الناس على ما قاتل عليه أمراؤهم، فإن لكل مقام مقالاً ومثل هذا القول لا يصلح في وقت الجولة. وإنما يقال للقوم وصفوفهم ثابتة وآذانهم مصغية وهم في سعة من التدبر وإجالة الرأي، فأما وقت الهزيمة فلا كلام.



البويب

إن وقعة الجسر قد أكلت جيش المسلمين وعلم عمر أن ليس بالقوم امتناع ولا قوة إذا نازلهم العدوّ فشرع يبعث الإمداد إلى المثنى منهم جرير بن عبد الله الْبَجلي في بجيلة وعصمة بن الحارث فيمن تبعه من قومه بني ضبة. وكتب إلى

أهل الردّة ولم يوافه في شعبان أحد إلاّ رمى به المثنى فتوافى المنجدون إليه في جمع عظيم. وبلغ رستم والفيرزان ما عليه المثنى وما ينتظر من المدد. فاجتمعا على أن يبعثا مهران الهمذاني إلى الحيرة. وعلم المثنى فخفّ إلى البويب لموعد من كان بالحيرة من المسلمين وخرجوا منها حين علموا بجند مهران وقد توافت جنود المثنى ومددهم إلى ذلك المكان مما يلي موضع الكوفة وبينه وبين مهران النهر. فكاتبه مهران يخيره في العبور ولكن المثنى رأى العبرة في أبي عبيد وجيشه فلم يرض أن يكون هو الذي يعبر. فعبر مهران بجنوده وكان ذلك في رمضان. فنادى المثنى انهدوا لعدوّكم. وكان قد عبأ جيشه تعبية خالدية. وخطب المثنى في المسلمين فقال: إنكم قوم صوام والصوم مَرقَّة مضعفة، وإني أرى من الرأي أن تفطروا ثم تقوّوا بالطعام على قتال عدوّكم فأفطروا. ورأى رجلاً يستوفر ويستقتل من كردوسه فقال: ما شأنه؟ قالوا: قد فرّ يوم الجسر ويريد أن يستقتل، فقرعه بالرمح وقال: لا أبا لك الزم موقفك فإذا أتاك قِرْنك فأغنه عن صاحبك ولا تستقتل. قال: إني بذلك لجدير. واستقرّ ولزم الصفّ. وسار المثنى على الرايات يقف بها راية راية يحضهم ويأمرهم بأمره ويهزهم بأحسن ما فيهم ويقول لكل قوم: إني لأرجو أن لا تؤتى العرب اليوم من قبلكم، والله ما يسرني اليوم لنفسي شيء إلاّ وهو يسرني لعامتكم. فيجيبونه بمثل ذلك. وأنصفهم المثنى في القول والفعل وخلط الناس في المكروه والمحبوب فلم يستطع أحد أن يعيب له قولاً أو عملاً. وقال: إذا كبّرت الرابعة فاحملوا فأعجلهم أهل فارس عند التكبيرة الأولى وحمي القتال بين الفريقين واشتد فعمد المثنى إلى أنس بن هلال وقال له: إنك امرؤ عربي وإن لم تكن على ديني فإذا رأيتني حملت على مهران فاحمل معي. وذمر قوماً معه وأوصى القوّاد بأمره وبأن لا يزايلوا أمكنتهم لئلا ينكشف الجيش وحمل المثنى وخالط القوم وأوغل في صفوفهم وصبر المسلمون صبراً جميلاً. ولم يزل المثنى يعمل ومن معه في قلب الفرس حتى أفناه فقنويت مجنبات المسلمين على من يليهم وصار المثنى يذمرهم ويحضهم حتى هزم الفرس وسبقهم المثنى إلى جسرهم فقطعه لئلا يعبره أحد منهم.

كان عمل المثنى هذا خطأ، لأن القوم وإن كانت الهزيمة قد حقت عليهم في عدد كبير وقوَّة عظيمة إذا تَتَامَّ فَلُّهم في مكان ووجدوا من يقودهم وهم واجدون لا محالة، عادت لهم قوتهم وثاب إليهم نشاطهم إلى القتال ويصيرون بعد ذلك كالشوكة في جنب جيش المسلمين.

قتل في هذه الوقعة مهران، قتله بعض فتيان تغلب وكانوا مع المسلمين، وتمت الهزيمة على الفرس بقتله، وأخذ فل المنهزمين يصعد ويصوب إذ جلأهم المثنى عن الجسر وخيل المسلمين تتبعهم ويقتلون منهم فلم تكن وقعة من الوقائع أبقى رمة منها. وقد أصيب من حماة المسلمين عدد كبير بين قتيل وجريح. ومما يؤثر عن المثنى حكمه على نفسه في قطعه الجسر وإخراجه العدو ـ قال: لقد عجزت عجزة وقى الله شرها بمسابقتي إياهم إلى الجسر وقطعه حتى أحرجتهم، فإني غير عائد فلا تعودوا ولا تقتدوا بي أيها الناس فإنها كانت مني زلة. لا ينبغي إحراج أحد إلّا من لا يقوى على الامتناع.

ثم أرسل في أثر المنهزمين من اتبعهم حتى وصلوا إلى السيب ـ كورة من سواد الكوفة ـ بعد أن عقد لهم جسراً. وكانت هذه الوقعة من الوقائع الكبرى التي أوقعت الرعب في قلوب أهل فارس، واستمكن المسلمون من الغارة في السواد وانتقضت مسالح الفرس وتشتت أمرهم في تلك الناحية واجترأ المسلمون عليهم وشنّوا الغارة عليهم فيما بين سوراً وكسكر والصراة والفلاليج والاستانات. وقد قال عروة بن زيد الخيل في هذه الوقعة والطبري ينسبها إلى الأعور الشني:

هاجت لعروة دار الحي أحزانا	واستبدلت بعد عبد القيس همدانا
وقد أرانا بها والشمل مجتمع	إذ بالنخيلة قتلى جند مهرانا
أيام سار المثنى بالجنود لهم	فقتل القوم من رَجل وركبانا
سما لأجناد مهران وشيعته	حتى أبادهم مثنى ووحدانا
ما إن رأينا أمير بالعراق مضى	مثل المثنى الذي من آل شيبانا

إن المثنى الأمير القرمَ لا كَذِبٌ   في الحرب أشجع من ليث بخفانا

وقد كان عمر من أول أمره حريصاً على تعرف حال المسلمين والوقوف على ما عليه الجند من الشؤون. فكان يعهد إلى قوم من المسلمين بالكتاب إليه بكل شؤونهم وأحوالهم حتى إذا رأى خللاً أو خطلاً بادرهم بما يصلحهم لا تأخذه في ذلك هوادة ـ لأن الجند والرعية إنما يؤتون من قبل الإهمال والاستهانة بالخلل حتى يقوى ضعيفه ويعظم صغيره.

من ذلك أن المثنى أرسل رجلين من بكر بن وائل في جند للإغارة على صفّين وبها النمر وتغلب على تساند. فأغار جند المسلمين على القوم حتى أقحموا طائفة منهم في الماء فناشدوهم أن يكفوا عنهم وينادونهم الغرق الغرق. وأخذ عتيبة وفرات البكريان وهما قائدا الجند يذمران الناس ويناديانهم: تغريق بتحريق يذكرانهم بما كان من النمر وتغلب في أيام الجاهلية إذ حرقوا قوماً من بكر بن وائل في إحدى الغياض. وبعد أن فرغوا من أمر القوم رجعوا إلى المثنى، وقد كانت لعمر عيون في كل جيش فكتب إليه العين بما قال عتبة وفرات يوم بني تغلب والنمر على صفّين. فاستقدمها أمير المؤمنين وأخبراه بأنهما قالا ذلك على وجه أنه مثل وأنهما لم يقولا ذلك على وجه طلب دَخْل الجاهلية فاستحلفهما على ذلك فحلفا أنهما ما أرادا بذلك إلاّ المثل وإعزاز الإسلام، فقبل منهما وصدقهما وردّهما إلى المثنى. فهكذا يكون حرص الأمراء على صيانة أخلاق الرعية وحياطتها من تسرب الفساد إليها.

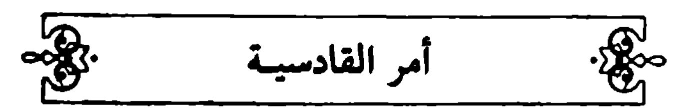
كان المثنى اتخذ دليلين: أحدهما أنباري والآخر حيري، فدله الأنباري على الخنافس وكانت هذه السوق عظيمة يؤمها تجار فارس والسواد فانتهبها المثنى. ثم قدم على سوق بغداد، أسرى إليه من ليلته ثم صبح السوق فملأ أصحابه أيديهم من الذهب والفضة وحر المتاع وتفرق الناس عن بضائعهم وقتل من كانوا يخفرون السوق من ربيعة وقضاعة، ثم عاد إلى معسكره، وكانت عسكره تصوّب وتصعد ولا حامي للبلاد منهم.

ولما بلغ سويد بن قطبة العجلي ما أتيح للمثنى بن حارثة من الظفر يوم مهران أحب أن يكون له من الفخر ما للمثنى فكتب إلى عمر يخبره بوهن الناحية التي هو فيها ويسأله أن يمدَّه بجيش يغزو به الفرس في ذلك الوجه. فندب عمر لذلك الوجه عتبة بن غزوان المازني من أصحاب رسول الله ﷺ وأمَّره على جيش فيه ألفا مقاتل من المسلمين وكتب إلى سويد بن قطبة يأمره بأن ينضم إلى عتبة. وقد خرج عمر لتشييع الجيش وأوصى عتبة فقال: «يا عتبة إن إخوانك من المسلمين قد غلبوا على الحيرة وما يليها، وعبرت خيلهم الفرات حتى وطئت بابل مدينة هاروت وماروت ومنازل الجبارين، وإن خيلهم اليوم لتُغير حتى تشارف المدائن، وقد بعثتك في هذا الجيش فاقصد قصد أهل الأهواز فاشغل أهل تلك الناحية أن يمدّوا أصحابهم بناحية السواد على إخوانكم الذين هناك وقاتلهم مما يلي الأُبُلّة» فسار عتبة حتى أتى مكان البصرة، ولم تكن هناك يومئذ إلى الخُرَيْبَة. وكانت منازل خربة وبها مسالح الفرس تمنع الأعراب من العبث في تلك الناحية. وموضع البصرة إذ ذاك حجارة سود وحصى. ثم سار حتى نزل على الأبلة وافتتحها عنوة بعد قتال شديد وكتب إلى عمر رضي الله عنه: «أما بعد، فإن الله وله الحمد فتح علينا الأبلة وهي مرقى سفن البحر من عمان والبحرين وفارس والهند والصين. وأغنمنا ذهبهم وفضتهم وذراريهم وأنا كاتب إليك ببيان ذلك إن شاء الله».

ثم إن عتبة سار حتى أتى إلى المذار وأظهره الله على أهله ووقع مرْزُبانة في يده، فضرب عنقه وأخذ بزّته وفي منطقته الزمرد والياقوت وأرسل بذلك إلى عمر. وقد تباشر المسلمون بذلك وأكبوا على رسول عتبة يسألونه عن أهل البصرة (وكان ذلك ابتداء اختطاطها ونزول المسلمين بها) فقال: إنهم يهيلون الذهب بها هيلاً فرغبهم ذلك في القدوم إليها. وكان ذلك قبل تمصير البصرة.

ثم خرج عتبة إلى فرات البصرة فافتتحها ثم إلى دست مسان فافتتحها بعد أن قاتل مرزبانها وقتله وهزم من بها من العجم ثم إلى ابرقباذ فافتتحها كذلك ثم

عاد إلى مكانه من البصرة. وكاتب عمر يستأذنه في العود إلى المدينة فأذن له. ثم أرسل بعده المغيرة بن شعبة بالبصرة مدة ثم استبدل به أبا موسى الأشعري.



أمر القادسية

نظر الفرس فيما دهمهم من أمر العرب الذين يجوسون خلال ديارهم ويفضون مسالحهم ويغيرون على أسواقهم ويحتوون متاجرهم .وأمتعتهم وضيقوا على فارس السبل في الوجه الذي هم فيه. فقالوا لرستم والفيرزان: ما تنتظرون والله إلاّ أن يُنْزَل بنا ونهلك، والله ما جرَّ هذا الوهن علينا غيركم يا معشر القواد، لقد فرقتم بين أهل فارس وثبطتموهم عن عدوهم، والله لولا أن في قتلكم هلاكنا لعجلنا لكم بالقتل الساعة، ولئن لم تنتهوا لنهلكنكم ثم نهلك وقد اشتفينا منكم وإنه لم يبلغ من خطركما أن تعزكما فارس على ما أنتم عليه وأن تعرضاها للهلكة. ما بعد بغداد وساباط وتكريت إلاّ المدائن، والله لتجتمعان أو لنبدأن بكما قبل أن يشمت بنا شامت.

تفاوض الرجلان ومن معهما من وجوه فارس في الأمر وعلموا أن كلام أهل فارس الذين كلموهم حق وقالوا: إنما أتينا من تمليك النساء علينا فقالا لبوران بنت كسرى - وكانت عدلاً في فارس تلي ملكهم مدة الاختلاف إلى أن يتفقوا - اكتبي لنا نساء كسرى وسراريه ونساء آل كسرى وسراريهم ففعلت وأرسلت إليهن فلم يبق منهن امرأة إلاّ أتوا بها فأخذوهن بالرجال ووضعوا عليهن العذاب يستدلونهن على رجل من آل كسرى. فَقلن لم يبق إلاّ ولد يدعى يزد جرْد من ولد شهريار بن كسرى وأمه من أهل بَادُورَيًّا. فأتوا بها فدلتهم عليه، وكان ابن إحدى وعشرين سنة، فاطمأنت فارس واستوثقوا وملكوه عليهم وتبارى الرؤساء في طاعته ومعونته. فأخذ أمر القوم بعزيمة وهمة وجيش الجيوش وكتب الكتائب وسمى الجنود لكل مسلحة من المسالح التي كانت لكسرى وسد الثغور وسير جنداً إلى الحيرة والأنبار.

علم المثنى علم القوم فكاتب عمر بشأنهم وما ينتظر من انتقاض من دان لـه بالطاعة ممن بين ظهرانيهم. فلم يصل الكتاب إلى عمر حتى انتقض أهل السواد وكفروا من لم يكن في يده عهد ومن كان له عهد، فخرج المثنى على حاميته حتى نزل بذي قار وتنزل الناس بالطف حتى جاءهم كتاب عمر وفيه:
«أما بعد، فأخرجوا من بين ظهري الأعاجم وتفرقوا في المياه التي تلي الأعاجم على حدود أرضكم وأرضهم ولا تدعوا في ربيعة أحداً من أهل النجدات ولا فارساً إلّا اجتلبتموه، فإن أتى طائعاً وإلّا حشرتموه. احملوا العرب على الجد إذ جد العجم فلتلقوا جدهم بجدكم، فأقام المثنى بمن معه بذي قار ونزل الناس بالجل وشِراف إلى غضي. حيال البصرة، فكانوا في أمواه العراق من أوّلها إلى آخرها مسالح بعضهم ينظر إلى بعض ويغيث بعضهم بعضاً إن كان كون، وذلك في ذي القعدة سنة ١٣ هـ وكتب عمر - إلى عماله على الكور والقبائل - أن لا تدعوا أحداً له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأي إلّا انتخبتموه ثم وجهتموه إلى والعجل العجل، وكان ذلك في ذي الحجة سنة ١٣ هـ فلم يقفل من حجه حتى وافته الجنود من كل وجه وناحية. فأما القبائل التي طرقها على مكة والمدينة فقد اجتمعوا عليه بالمدينة، وأما من كان على أكثر من نصف الطريق من المدينة فقد لحق بالمثنى.

والذين وافوا عمر أخبروه فيمن وراءهم بالحث وترادف ورود الجنود إلى أن جاء المحرم سنة ١٤ هـ فخرج عمر بمن اجتمع إليه إلى ماء يدعى صرار على ثلاثة أميال من المدينة فعسكر به ولا يدري الناس ما يصنع عمر، يسير بهم أم يرجع إلى المدينة ويؤمر رجلاً آخر. وقد رغب الناس في الوقوف على نيته.

كان الناس إذا أرادوا علم شيء من عمر فهابوا أن يسألوه رموه بعبد الرحمن بن عوف أو بعثمان بن عفان. وكانوا يدعون عثمان رديفاً - والعرب تقول ذلك للرجل يرجونه بعد رئيسهم - فإذا أعيا عليهما ذلك الأمر فزعوا إلى العباس بن عبد المطلب. فلما أرادوا معرفة نيته كلموا عثمان. فقال لعمر: ما

تريد؟ فنادى الصلاة جامعة فاجتمع الناس إليه. فأخبرهم الخبر وانتظر ما يشيرون به. فقال العامة: سر وسر بنا معك.

رأى عمر ذلك منهم والصواب في خلافه، غير أنه لم يرد أن يخالفهم لأول أمرهم، بل دخل في أمرهم إلى أن يخرجهم من ذلك الرأي برفق فقال: استعدّوا وأعدّوا فإني سائر إلاّ أن يجيء رأي هو أمثل من ذلك. ثم بعث إلى أهل الرأي فاجتمع إليه وجوه أصحاب النبي ﷺ وأعلام العرب. فقال: أحضروني الرأي فإني سائر. فأجمع ملؤهم على أن يبعث رجلاً من أصحاب رسول اللّه ﷺ ويقيم عمر ويرميه بالجنود، فإن كان الذي يشتهي من الفتح فهو الذي يريد ويريدون، وإلاّ أعاد رجلاً وندب جنداً آخر، وفي ذلك ما يغيظ العدوّ ويقر عين المسلمين ويجيء نصر اللّه بإنجاز موعوده، فنادى عمر. الصلاة جامعة. فاجتمع الناس إليه وأرسل إلى علي ـ كرم اللّه وجهه ـ وكان قد استخلفه على المدينة فأتاه، وإلى طلحة وقد بعثه على المقدمة فرجع إليه وعلى المجنبتين الزبير وعبد الرحمن بن عوف، فقام في الناس فقال: إن اللّه عز وجل قد جمع على الإسلام أهله فألف بين القلوب وجعلهم فيه إخواناً، والمسلمون فيما بينهم كالجسد لا يخلو منه شيء من شيء أصاب غيره، وكذلك يحق على المسلمين أن يكونوا وأمرهم شورى بينهم بين ذوي الرأي منهم، فالناس تبع لمن قام بهذا الأمر ما اجتمعوا عليه ورضوا به لزم الناس وكانوا فيه تبعاً لهم ومن أقام بهذا الأمر تبع لأولى رأيهم ما رأوا لهم ورضوا به لهم من مكيدة في حرب كانوا فيه تبعاً لهم. يا أيها الناس، إني إنما كنت كرجل منكم حتى صرفني ذوو الرأي منكم عن الخروج. فقد رأيت أن أقيم وأبعث رجلاً. وقد أحضرت هذا الأمر من قدمت ومن خلفت (يريد علياً وطلحة).

أخذ عمر في إجالة الرأي في شأن من يتولى إمارة الجيش وقال: أشيروا عليّ برجل. وكان سعد بن أبي وقاص على صدقات هوزان وقد كتب إليه عمر قبل ذلك بانتخاب ذوي النجدة والرأي والسلاح، فجاء كتاب سعد إلى عمر

وهو يستشير الناس فيمن يبعثه. يقول فيه: قد انتخبت لك ألف فارس كلهم له نجدة ورأي وصاحب حيطة يحوط حريم قومه، إليهم انتهت أحساب قومهم ورأيهم. فلما قرأ عمر الكتاب قال القوم: قد وجدته. قال: من هو؟ قالوا: الأسد عادياً، سعد بن مالك. فانتهى عمر إلى قولهم وأحضروه وأمره على حرب العراق. ووصاه فقال: لا يغرنك من اللّه أن قيل خال رسول اللّه ﷺ وصاحب رسول اللّه، فإن اللّه لا يمحو السيء بالسيء ولكنه يمحو السيء بالحسن، وليس بين اللّه وبين أحد نسب إلاّ طاعته، فالناس في ذات اللّه سواء، اللّه ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية ويدركون ما عنده بالطاعة فانظر الأمر الذي رأيت رسول اللّه ﷺ يلزمه ووصاه بالصبر، وسرحه فيمن اجتمع إليه وهم أربعة آلاف. وكان في ذلك الجيش حد الأمة العربية وجدها ونجدتها ورأيها. فإن عمر لم يدع رئيساً ولا ذا رأي ولا ذا سلطة ولا ذا نجدة ولا خطيباً ولا شاعراً إلاّ رماهم به، فكانت حاشيتا الجيش تضمان وجوه الناس وغُررهم.

وقد أمر سعداً بالمسير وقال له: إذا انتهيت إلى زرود فانزل بها وهي رمال بين الثعلبية والخُزيمية على طريق الحاج إلى الكوفة. فلما نزل بها تفرق الجند فيما حولها من أمواه تميم وأسد. وانتظر اجتماع الناس وأمر عمر. وفي ذلك الوقت توفي المثنى بن حارثة من جراحة كانت أصابته قبل ذلك.

وقد كان المثنى البادىء بأمر فارس من تلقاء نفسه. وكان فارساً مغواراً صاحب مكيدة وغناء في الحرب، بصيراً بقيادة الجند، شديد الحذر، نافذ الرأي قوّي الإرادة، موفقاً في الحرب، مظفراً على العدو، حريصاً على نصر الإسلام وظهور المسلمين على الفرس. فلما أحس بدنوّ أجله كتب وصيّته إلى سعد بن أبي وقاص يبصره فيها بأمر العجم ويلقى إليه بزبدة الوقائع التي مخضها ونتيجة خِبْرته وتجاربه قبله. فأوصاه أن يقاتل الفرس على حدود أرضهم على أدنى حجر من أرض العرب وأدنى مدر من أرض العجم، فإن يُظهر اللّه المسلمين عليهم فلهم ما وراءهم، وإن تكن الأخرى فاءوا إلى فئة ثم يكونون أعلم بسبيلهم

وأجرأ على أرضهم إلى أن يردّ اللّه الكَرة لهم. وهي وصية انضجتها الخبرة وسبكتها التجربة.

سار سعد من زرود حتى نزل بشراف وأرسل المغيرة بن شعبة إلى ناحية الأبلة من أرض العرب وكتب إلى عمر بمنزله وبمنازل الناس، فكتب إليه عمر: إذا جاءك كتابي هذا فعشر الناس (اجعلوهم عشرة عشرة) وعرّف عليهم وامر على أجنادهم وعبّهم ومر رؤساء المسلمين فليشهدوا وقدّرهم وهم شهود، ثم وجههم إلى أصحابهم وواعدهم القادسية واضمم إليك المغيرة بن شعبة في خيله واكتب إليّ بالذي يستقرّ عليه أمرهم. فأرسل سعد إلى المغيرة فانضم إليه ودعا برؤساء القبائل فأتوه. فقدر الناس وعبأهم بشراف وعرف العرفاء فعرف على كل عشرة رجلاً كما كانت العِرافات أيام رسول اللّه ﷺ وأمر الأمراء. وأمر على الرايات رجالاً من أهل السابقة. وعشر الناس وأمر على الأعشار رجالاً من الناس لهم وسائل في الإسلام وولى الحروب رجالاً فولى على مقدماتها ومجنباتها وساقتها ومجرداتها وطلائعها ورجلها وركبانها.

فكان أمراء التعبية يلون الأمير. ويليهم أمراء الأعشار ثم أصحاب الرايات ثم القواد رؤوس القبائل، ولم يفصل سعد من شراف إلاّ على تعبية وبإذن من عمر. وقد بعث عمر إليهم الأطباء وجعل على قضاء الناس عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي وجعل إليه الأقباض وقسمة الفيء وجعل داعيتهم ورائدهم سلمان الفارسي.

فلما فرغ سعد من تعبيته وأعدّ لكل شيء من أمره جُمّاعاً ورأساً كتب إلى عمر بذلك. وكان في تلك الأثناء ـ قبل إذن عمر في الارتحال إلى القادسية ـ قدوم المعنى بن حارثة وسلمى بنت خصفة إلى سعد بوصية المثنى. وكان السبب في إبطائهما مع أمر المثنى لهما بالتعجل إلى سعد أن الأزاد مرْد بعث قابوس بن قابوس بن المنذر إلى القادسية وقال: ادعُ العرب وأنت ملك على من أجابك كما كان آباؤك. فلما علم المعنى به أسرى إليه حتى بيته ومن معه فأنامهم فشغله ذلك

عن الإسراع إلى سعد بزرُود فلما وقف سعد على الوصية ترحم عليه وولى المعنى على عمله وأوصى بأهل بيته خيراً، وتزوّج سلمى بعد انقضاء عدتها. وكان في جيش سعد بضعة وسبعون بدْرياً وثلاثمائة وبضعة عشر ممن كانت له صحبة فيما بين بيعة الرضوان فما فوق، وثلاثمائة ممن شهد الفتح، وسبعمائة من أبناء الصحابة من جميع أحياء العرب.

وكان كتاب عمر إلى سعد وهو بشراف: «أما بعد. فسر من شراف نحو فارس بمن معك من المسلمين وتوكل على الله واستعن به على أمرك كله. واعلم فيما لديك أنك تقدم على أمة عددهم كثير وعدتهم فاضلة وبأسهم شديد وعلى بلد منيع وإن كان سهلاً كؤود لبحوره وفيوضه ودآدئه إلّا أن توافقوا غيضاً من فيض. وإذا لقيتم القوم أو أحداً منهم فابدءوهم الشدّ والضرب، وإياكم والمناظرة بجموعهم ولا يخدعنكم فإنهم خدعة مكرة أمرهم غير أمركم إلّا أن تجادُّوهم. وإذا انتهيت إلى القادسية والقادسية باب فارس في الجاهلية - وهي أجمع تلك الأبواب لمادتهم ولما يردونه من تلك الأصول وهو منزل رغيب خصيب حصين دونه قناطر وأنهار مقنعة - فتكون مسالحك على أنقابها ويكون الناس بين الحجر والمدر على حافات الحجر وحافات المدر والجراع بينهما. ثم الزم مكانك فلا تبرحه فإنهم إذا أحسوك أنغضهم ورموك بجمعهم الذي يأتي على خيلهم ورجلهم وحدّهم وجدهم فإن أنتم صبرتم لعدّوكم واحتسبتم لقتاله ونويتم الأمانة رجوت أن تنصروا عليهم ثم لا يجتمع لكم مثلهم أبداً إلّا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم. وإن تكن الأخرى كان الحجر في أدباركم فانصرفتم من أدنى مدرة من أرضهم إلى أدنى حجر من أرضكم ثم كنتم عليها أجرأ وبها أعلم وكانوا عنها أجبن وبها أجهل حتى يأتي الله بالفتح عليهم ويردّ لكم الكرة.

وكتب إليه أيضاً باليوم الذي يرتحل فيه من شِراف - وكانت الكتب متواصلة مترادفة بين سعد وعمر رضي الله عنهما -

وقد جاء إلى سعد كتاب عمر يقول له فيه: «واكتب إليّ أين بلغ جمعهم

ومن رأسهم الذي يلي مصادمتكم. فإنه قد منعني من بعض ما أردت الكتاب به قلة علمي بما هجمتم عليه والذي استقر أمركم عليه. فصف لنا منازل المسلمين والبلد الذي بينكم وبين المدائن صفة كأني أنظر إليها. واجعلني من أمركم على الجلية».

فكتب إليه سعد بصفة البلدان يقول. «القادسية بين الخندق والعقيق[1] وإن ما عن يسار القادسية بحر أخضر في جوفٍ لاحّ[2] إلى الحيرة بين طريقين فأما أحدهما فعلى الظهر، وأما الآخر فعلى شاطىء النهر يدعى الحَضُوض[3] يطلع بمن سلكه على ما بين الخورنق[4] والحيرة. وإن ما على يمين القادسية إلى الوَلجة فيض من فيوض مياههم. وإن جميع من صالح المسلمين من أهل السَّواد قِبَلَى إلْب لأهل فارس. قد خفوا لهم واستعدوا لنا وإن الذي أعدوا لمصادمتنا رُسْتم في أمثال له منهم. فهم يحاولون إنغاضنا وإقحامنا ونحن نحاول إنغاضهم وإبرازهم وأمر اللّه بعدُ ماض وقضاؤه مسلم إلى ما قدّر لنا وعلينا، فنسأل اللّه خير القضاء وخير القدر في عافية».

فكتب إليه عمر: «قد جاءني كتابك وفهمته. فأقم بمكانك حتى يُنْغِض اللّه لك عدوّك واعلم أن لها ما بعدها، فإن منحك اللّه أدبارهم فلا تنزع عنهم حتى تقتحم عليهم المدائن فإنه خرابها إن شاء اللّه» ثم كتب إلى سعد: «إني قد ألقى في روْعي أنكم إذا لقيتم العدوّ وهزمتموهم فاطرحوا الشكّ وآثروا التقية عليه فإنْ لاعب أحد منكم أحداً من العجم بأمان أو قَرفَه بإشارة أو بلسان كان لا يدري الأعجمي ما كلمه به وكان عندهم أماناً فأجروا ذلك له مجرى الأمان وإياكم والضحك والوفاء الوفاء، فإن الخطأ بالوفاء بقية وإن الخطأ بالغدر الهلكة

---

(١) الخندق: حفير لسابور الملك ببرية الكوفة، والعقيق: نهر.

(٢) لاح: ضيق.

(٣) الحضوض كصبور. نهر كان بين القادسية والحيرة.

(٤) الخورنق كفدوكس: قصر للنعمان الأكبر، معرب خورنكاه، أي موضع الأكل.

وفيها وهْنُكم وقوّة عدوّكم وذهاب ريحكم وإقبال ريحهم. واعلموا أني أحذركم أن تكونوا شيناً على المسلمين وسبباً لتوهينهم.

ولما نزل سعد عذيب الهجانات بثّ الغارات وكان من ذلك سرية فيها الشماخ الشاعر القيسي في ثلاثين معروفين بالنجدة والبأس وأميرهم بُكيْر بن عبد اللّه الليثي وسرحهم في جوف الليل وأمرهم بالغارة على الحيرة فسروا حتى جاوزوا السليحين وقطعوا جسرها يريدون الحيرة فسمعوا جلبة فأحجموا عن الإقدام وأقاموا كميناً فمرت بهم خيل تقدم تلك الغوغاء فتركوها فنفذت الطريق. وإذا أخت أزاد مَرْد بن أزاذبه مرزبان الحيرة تزفّ إلى صاحب الصِّنِّين وكان من أشراف العجم. فلما انقطعت الخيل عن الزواف والمسلمون كمين في النخل وجازت بهم الأثقال حمل بُكير على شير زاد بن أزاذبة فقصم صلبه وطارت الخيل على وجوهها. واحتوى المسلمون الأثقال وابنه الأزاذبه وثلاثين امرأة من نساء الدهاقين ومائة امرأة من التوابع ومما لا يدري قيمته ثم عاجوا فصبحوا سعداً بعذيب الهجانات بما أفاء اللّه على المسلمين فكبر المسلمون تكبيرة شديدة. فقال سعد: أقسم باللّه لقد كبَّرتم تبيرة قوم عجفت فيهم العزّ. ثم فضّ الغنيمة في المجاهدين بعد أن نفل الخمس وأعطاهم بقيته، فوقع ذلك منهم موقعاً.

كان كثير من المسلمين يرحلون إلى الغزو بحريمهم وعيالاتهم وذراريهم فأنزل سعد حريمهم في حامية وأمّر علىمم غالب بن عبد اللّه الليثي ونزل سعد بالقادسية.

كانت الفرس تنظر إلى رستم نظر المستغيث إلى مغيثه وكانت العرب من حين نزولهم إلى القادسية يبثون السرايا فتغير على النعم والدواب وكانوا في قرم إلى اللحم أما الشعير والحنطة وما ينفع من الحبّ فقد كان عندهم من ذلك الحبّ ما يغنيهم أياماً طويلة لو لم يأتهم منه شيء، وكانوا يسمون الأيام بأسماء ما يأتيهم من اللحمان كيوم الأباقر ويوم الحيتان. فلما تواترت منهم الإغارات في السواد على دوابّ الفرس ومن معهم واغتنام مواشيهم، كتب أهل السواد

وعظماء فارس ممن كان له ملك بناحيتهم إلى يزدجـرْد وعجوا إليـه بالشكـوى من العرب وما يعترونهم به من النكبات قائلين: إن العرب قد نـزلوا القـادسية بـأمر ليس يشبه إلاّ الحرب وإنّ فعل العربِ مذ نزلوها لا يبقى على شيء وقد أخـربوا ما بينهم وبين الفرات وليس فيها هنـاك أنيس إلاّ في الحصون وقـد ذهب الدواب وكل شيء لم تحتمله الحصون من الأطعمة ولم يبق إلاّ أن يستنزلونا، فإن أبطأ عنا الغياث أعطيناهم بأيدينا.

وكتب إليه بذلك الملوك الذين لهم ضياع بالظفّ وهيجوه على بعثة رُسْتُم.

أرسل يزدجـرد إلى رستم فلما جاء قـال له: إني أريـد أن أوجهك في هـذا الوجه وإنما يعد للأمور على قدَرها وأنت رجلُ أهل فارس اليوم وقد ترى ما جاء أهل فارس من أمر لم يأتهم مثله منذ ولي آل أردشير. فأراه أن قد قبـل منه وأثنى عليه.

إن اشتراك الملوك مع القوّاد في شؤونهم إذا كانـوا غير مضـطلعين بـالحرب عارفين بكـل ما يلزم لهـا لا يعود إلاّ بـالخيبة والخسـار. وهذه العـادة الرديئـة قد خذلت قوّاداً من أحسن القواد خبرة وأغزرهم علماً بالحـرب وفنونها ومكـايدهـا. فكانت وبالا على الدول. ونحن لم نزل نسمع ما يقوله الخبراء عن إدارة الحـرب الروسية العثمانية سنة ١٢٩٤ ـ ١٢٩٥ هـ إنما كان أكبر أسباب الخذلان فيهـا أن القوّاد لم يكونـوا أحراراً في عملهم من تقـدم أو تأخـر بحسب ما يستلزم الميـدان وتقتضيه الأحوال. بل كانت الأوامر من القوّاد من الآستانة.

من ذلـك أن يزدجرد قـال لـرستم: صف لي العـرب وفعلهم منـذ نـزلـوا القادسية وصف لي العجم ومـا يلقون منهم. فقـال رستم: صفة ذئـاب صادفت غـرة من رعاء فـأفسدت فقـال: ليس كذلك أعني إنما سـألتـك رجـاء أن تعـرب صفتهم فأقويك لتعمل على قدر ذلك فلم تصب. فافهم عني. إنمـا مثلهم ومثل أهل فارس كمثل عقاب أو فى على جبل يأوي إليه الطير بالليـل فتبيت في سفحه في أوكارها فلما أصبحت تجلت الطير فأبصرته يرقبها فإن شذّ منهـا شيء اختطفـه

فلما أبصرته الطير لم تنهض من مخافته. وجعلت كلما شذَّ منها طائر اختطفه فلو نهضت نهضة واحدة ردته. وأشدُّ شيء يكون في ذلك أن تنجو كلها إلّا واحداً وإن اختلفت لم تنهض فرقة إلّا هلكت. فهذا مثلهم ومثل الأعاجم، فاعمل على قدر ذلك. فقال له رستم: أيها الملك، دعني فإن العرب لا تزال تهاب العجم ما لم تُضْرهم بي، ولعل الدولة أن تثبت بي فيكون اللّه قد كفى ونكون قد أصبنا المكيدة رأي الحرب. فإن الرأي فيها والمكيدة أنفع من بعض الظفر. فأبى عليه وقال. أي شيء بقي؟ فقال رستم. إن الأناة في الحرب خير من العجلة وللأناة اليوم موضع. وقتال جيش بعد جيش أمثل من هزيمة بمرة وأشدّ على عدّونا. فلج وأبى فخرج حتى أنزل عسكره بسباط.

رأى رستم أنه يسير في الحرب برأي غيره ويعمل فيها بمشورة سواه الغائب عنها الجاهل بها فأراد أن يستعفي يزدجرد من قيادة الجيش في هذا الوجه واختلفت منه إلى الملك الرسل ليرى موضعاً لإعفائه وبعثه غيره فلم يُنله الملك مأربه.

قد يقال إن عمر كان يوافي سعداً بالنصائح والآراء، ولا ينتقل من موضعه الذي يكون فيه إلّا بأمر منه، فلماذا لم يكن هذا توهينا لأمر سعد؟ والجواب على هذا أن عمر من أهل المكيدة في الحرب والرأي الراجح والبصر النافذ فيها وهو يخشى أن يتورط سعد فيما تورط فيه أبو عبيد يوم الجسر. فكان يحذره مثل ذلك. ولما صار سعد مع العجم وجهاً لوجه. لم يكن ليأمره بشيء من أمر الحرب لأنه أعلم بها من الغائب عنها. والدليل على أن عمر كان ضليعاً بالحرب ذا كفاءة للقيادة أن أبا بكر رضي اللّه عنه كان يندم على أنه حين صرف خالد بن الوليد عن العراق إلى الشام لم يكن قد ولي عمر مكانه فجعله بحيال فارس. وكانت كل أوامر عمر تصدر إلى القائد بأخذ الحيطة والاحتراس والتأني والحث على الصبر والعدل والزهد في الدنيا ونحو ذلك مما هو بمنزلة المدد للجيش. والفرق بين الغرضين واضح.

خرج رستم حتى نزل بساباط واجتمع إليه الجند. وجاء العيون إلى سعد بذلك من قبل الحيرة وبني صلوبا. فأعلم عمر بذلك، وكثرت الاستغاثة على يزدجرد من أهل السواد وعليهم الإزاذمرد بن الإزاذبه الذي جشعت نفسه وكان ضيقاً لجوجا فاستحثّ رستم فقال له: أيها الملك، لقد اضطرني تضييع الرأي إلى إعظام نفسي وتزكيتها ولو أجد من ذلك بداً لم أتكلم به فأنشدك الله في أهلك ونفسك وملكك. دعني أقم بعسكري وأسرح الجالينوس: فإن تكن لنا فذلك، وإلاّ فأنا على رجل وأبعث غيره حتى إذا لم نجد بداً ولا حيلة صبرنا لهم وقد وهناهم وحسرناهم ونحن جامّون. فأبى إلاّ أن يسير. فكتب إلى فارس وعظمائها أن يرموا حصونهم وأن يعدوا ويستعدوا. وقال في كتابه: فكأنكم بالعرب قد وردوا بلادكم، وقارعوكم عن أرضكم وأبنائكم.

ولما بلغ عمر أن كسرى ولى رستم بن الْفَرُّخْزَاذْ حرب المسلمين وفصول رستم بالجند إلى ساباط كتب إلى سعد لايَكْرُبنك ما يأتيك عنهم ولا ما يأتونك به واستعن بالله وتوكل عليه وابعث إليه رجلاً من أهل المنظرة والرأي يدعونه فإن الله جاعل دعاءهم توهيناً لهم وفلجاً عليهم. واكتب إليّ في كل يوم.

ولما جاء أمر عمر إلى سعد اختار من جنده قوماً عليهم نِجار وآخرين لهم آراء، فأما الأولون فالنعمان بن مقرّن، وبُسر بن أبي رهم، وحمالة بن جُوَيَّة الكنائي، وحنظلة بن الربيع التميمي، وفُرات بن حيان العجلي، وعدي بن سهيل، والمغيرة بن زرارة. وأما الآخرون فعطارد بن حاجب، والأشعث بن قيس، والحارث بن حسان، وعاصم بن عمرو. وعمرو بن معد يكرب، والمغيرة بن شعبة، والمُعنى بن حارثة، فبعثهم دعاة إلى الملك كسرى يزدجرد فسار القوم حتى وصلوا إلى المدائن واستأذنوا فحبسوا، وبعث يزدجرد إلى وزرائه ووجوه أرضه يستشيرهم فيما يصنع بهم ويقوله لهم. وسمع بهم الناس فحضروهم ينظرون إليهم وعليهم المقطات والبرود وفي أيديهم سياط دقاق وفي أرجلهم النعال وبعد أن أجلسهم قال للترجمان: سلهم ما جاء بكم وما دعاكم

إلى غزونا والولوع ببلادنا من أجل أنا أجممناكم. وتشاغلنا عنكم اجترأتم علينا؟ فردّ عليه النعمان بن مقرِّن وكان رئيس الوفد: إن شئتم أجبت عنكم ومن شاء آثرته. فقالوا بل تكلم. وقالوا للملك: كلام هذا الرجل كلامنا فقال النعمان: إن اللّه رحمنا فأرسل إلينا رسولاً يدلنا على الخير ويأمرنا به، وعرفنا الشر وينهانا عنه، ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة فلم يَدْعُ إلى ذلك قبيلة إلا صاروا فرقتين فرقة تقاربه وفرقة تباعده ولا يدخل معه في دينه إلا الخواص، فمكث بذلك ما شاء اللّه أن يمكث ثم أمر أن ينبذ إلى من خالفه من العرب وبدأ بهم وفعل فدخلوا معه جميعاً على وجهين مكره عليه فاغتبط، وطائع أتاه فازداد، فعرفنا جميعاً فضل ما جاء به على الذي كنا عليه من العداوة والضيق. ثم أمرنا بأن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف فنحن ندعوكم إلى ديننا وهو دين حسّنَ الحسن وقبّح القبيح كله فإن أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شر منه الجزاء فإن أبيتم فالمناجزة فإن أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب اللّه وأقمناكم عليه أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم وإنْ اتقيتمونا بالجزاء قبلنا ومنعناكم وإلاّ قاتلناكم. فقال يزدجرد: إني لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقى ولا أقلّ عدداً ولا أسوأ ذات بين منكم. قد كنا نوكل بكم قرى الضواحي فيكفوننا إياكم لا تغزوكم فارس ولا تطعمون أن تقوموا لهم، فإن كان عدد لحق فلا يغرنكم منا، وإن كان الجهد قد دعاكم فرضنا لكم قوتاً إلى خصبكم وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم وملكنا عليهم ملكاً يرفق بكم. فسكت القوم.

فقام المغيرة بن زُرَارة الأسيدي فقال: أيها الملك إن هؤلاء رؤوس العرب ووجوههم، وهم أشراف يستحيون من الأشراف، وإنما يكرم الأشراف الأشراف ويعظِّم حقوق الأشراف الأشراف، ويفخم الأشراف الأشراف. وليس كل ما أرسلوا به جمعوه لك، ولا كل ما تكلمت به أجابوك عليه. وقد أحسنوا ولا يحسن بمثلهم إلاّ ذلك، فجاوبني لأكون الذي أبلغك ويشهدون على ذلك. أما

ما ذكرت من سوء الحال فما كان أحد أسوأ حالاً منا وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع، كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات فنرى ذلك طعامنا وأما المنازل فإنما هي ظهر الأرض، ولا نلبس إلاّ ما غزلنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم. ديننا أن يقتل بعضنا بعضاً، ويغير بعضنا على بعض، وإن كان أحدنا ليدفن ابنته حيّة كراهية أن تأكل من طعامنا، فكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرت، فبعث اللّه إلينا رجلاً معروفاً نعرف نسبه ونعرف وجهه ومولده؛ فأرضه خير من أرضنا، وحسبه خير من حسبنا، وبيته أعظم من بيوتنا، وقبيلته خير من قبائلنا، وهو بنفسه كان خيرنا في الحال التي كان فيها أصدقنا وأحلمنا. فدعانا إلى أمر فلم يجبه أحد أول من سِرْب كان له وكان الخليفة من بعده فقال وقلنا وصدَّق وكذبنا وزاد ونقصنا؛ فلم يقل شيئاً إلاّ كان؛ فقذف اللّه في قلوبنا التصديق له واتباعه. فصار فيما بيننا وبين ربِّ العالمين، فما قال لنا فهو قول اللّه، وما أمرنا فهو أمر اللّه فقال لنا إن ربكم يقول: إني أنا اللّه وحدي لا شريك لي، كنت إذ لم يكن شيء، وكل شيء هالك إلاّ وجهي وأنا خلقت كل شيء و إليّ يصير كل شيء وإن رحمتي أدركتكم فبعثت إليكم هذا الرجل لأدلكم على السبيل الذي بها أنجيكم بعد الموت من عذابي ولأحلكم داري. دار السلام فنشهد عليه أنه جاء بالحق من عند الحق. وقال: من تابعكم على هذا فله مالكم وعليه ما عليكم، ومن أبى فاعرضوا عليه الجزية ثم امنعوه مما تمنعون منه أنفسكم، ومن أبى فقاتلوه! فأنا الحكم بينكم، فمن قتل منكم أدخلته جنتي، ومن بقي منكم أعقبته النصر على من ناوأه. فاختر إن شئت الجزية عن يد وأنت صاغر، وإن شئت فالسيف، أو تسلم فتنجي نفسك.

أصابت الكلمات مكان العزة من نفس كسرى يزدجرد، ورأى كبيراً عليه أن ينابذ إليه بالقتال ـ وهو شاها نشاه الواسع، الملك العزيز الجانب المهيب السطوة ـ من قوم ظلوا مستضعفين لآبائه طول حياتهم لا يأبه لامتلاك أرضهم طامع، ولا ترغب نفس أحد الملوك في التغلب عليهم لقحولة أرضهم، وقلة

ريفها، وسوء عيشهم فيها، وقلتهم وذّلتهم. وأقلّ عَبْدٍ من عَبيده أبهى منهم رواء. وأحسن منظراً، وهو أقوى منهم ناصراً وأكثر عدداً. وهاجه منهم أن يستقبلوه بطلب الجزية يؤدِّيها صاغراً فعل الذليل المستضعف، والحقير المستضام. فقال محنقاً: أتستقبلني بمثل هذا؟ فقال: ما استقبلت إلاّ من كلمني ولو كلمني غيرك لم أستقبلك به فقال كسرى: لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم، لا شيء لكم عندي. ثم قال ائتوني بوقر من تراب فاحملوه على أشرف هؤلاء، ثم سوقوه حتى يخرج من المدائن. ارجعوا إلى صاحبكم فأعلموه أني مرسل إليه رستم حتى يدفنكم ويدفنه في خندق القادسية، وينكِّل بكم وبه من بعد، ثم أوردكم بلادكم حتى أشغلكم في أنفسكم بأشد مما نالكم. ثم قال: من أشرفكم؟ فقال عاصم بن عمرو: أنا. فحملوه وقر التراب على عنقه فحمله حتى أتى راحلته فحمله عليها، ثم صار هو وأصحابه حتى أتى إلى سعد بالتراب متفائلين بالظفر، متأولين أن كسرى أعطاهم أرضه. وإنما قصد كسرى أن يعطيهم التراب من الجزية ولا ينالون منه إلاّ المذّلة التي تكون بحمل التراب.

وقد جهد رستم حين بلغه ما صنع كسرى أن يلحق عسكراً بحامل التراب ليأخذوه منه فأخبر بأنه فاتهم إلى المسلمين فأهمه ذلك ورآه فعل سوء عليهم. وكان يتعاطى العيافة والتنجيم واعتدّها من سوء فعل الملك.

وفي الوقت الذي قرب فيه جيش رستم كان سعد قد بثّ الطلائع لاستطلاع أحوال الفرس وتقدّم إليهم أن يأتوه برجل من الفرس يعلمه علمهم، وكان فيمن ذهب إلى هذا الوجه عمرو بن معد يكرب الزُّبَيْدي وطليحة بن خويلد الأسدي ـ الذي كان متنبِّئاً في بني أسد أيام الردّة ـ فلما رأوا عسكر الفرس، وكانوا لا يعلمون بمقدمهم، لم يشأ طليحة أن يعود إلى معسكر المسلمين. فقال له أصحابه: ما تريد؟ قال: أريد أن أخاطر القوم أو أهلك. فقالوا: أنت رجل في نفسك غدر ولن تُفلح بعد قتلك عكاشة بن مِحصَن. فارجع بنا. فأبى ومضى حتى دخل عسكر رستم وبات فيه يجوسه وينظر ويتوسمّ.

فلما أدبر الليل أتى في ناحية العسكر فإذا فرس لم ير في خيل القوم مثله فانتضى سيفه فقطع مقود الفرس ثم ضمه إلى مقود فرسه ثم حرك فرسه فخرج يعدو به. ونُذر به عسكر الفرس فتنادوا وركبوا الصعبة والذلول في طلبه، وأصبح وقد لحقه فارس من الجند فبعد مصاولة قليلة قتله طليحة، ثم لحق به آخر فسقّاه بكأس الأوّل، ثم لحق به ثالث فما زال يصاول حتى استأسر الفارسي، فسار حتى غشي عسكر المسلمين فجاء إلى سعد؛ فلما انتهى إليه قال له: ما وراءك؟ قال: دخلت عساكرهم وجُسْتُها منذ الليلة وقد أخذت أفضلهم توسُّماً، وما أدري أصبت أم أخطأت؟ وها هو ذا. فاستخبره وأمنَّه على دمه إن صدقه فاسمح له بذلك. فقال: أخبركم عن صاحبكم قبل أن أخبركم عمن قبلي. باشرت الحروب وغشيتها، وسمعت بالأبطال ولقيتها منذ أنا غلام إلى أن بلغت ما ترى. ولم أر ولم أسمع بمثل هذا. إن رجلاً قطع عسكرين لا يجتريء عليهما الأبطال ـ وكان طليحة قد جاز عسكر الجالينوس وعسكر ذي الحاجب إلى عسكر رستم ـ إلى عسكر فيه سبعون ألفاً يخدم الواحد منهم الخمسة إلى العشرة فما دون، فلم يرض أن يخرج كما دخل حتى سلب فارس الجند وهتك أطناب بيته فأنذره فأنذرنا به فطلبناه فأدركه الأوّل وهو فارس الناس يعدل ألف فارس فقتله فأدركه الثاني وهو نظيره فقتله، ثم أدركته لا أَظُنني خلفت بعدي من يعدلني وأنا الثائر بالقتيلين، وهما أبناء عمي، فرأيت الموت فاستأسرت. ثم أخبره عن أهل فارس بأن الجند عشرون ومائة ألف، وبأن الأتباع مثلهم خُدّام لهم، وأسلم الرجل وسُمِّي مسلماً، وكان من أهل البلاء.

كان بين خروج رستم من المدائن إلى أن لقي سعداً أربعة أشهر، لا يقدم ولا يقاتل رجاء أن يضجر المسلمون بمكانهم، وأن يجهدوا فينصرفوا، وكره قتالهم مخافة أن يلقى ما لَقِي من قبله وطاولهم. وجعل الملك يستحثّه وينهضه ويقدمه حتى أقحمه.

كان على مقدّمة سعد زهرة بن الحَوِيَّة، وعلى مجنبتيه عبد الله بن المُعْتم

وشـرحبيل بن السمط الكنـدي، وعلى مجـردته عـاصم بن عمرو، وعـلى المرامية والرجل قائدان من أهل النجدة، وعلى الطلائـع سواد بن مـالك. وعـلى مقدّمة رستم الجالينوس، وعـلى مجنبتيه الهـرمُزان ومهـران، وعلى المجـردة ذو الحاجب، وعـلى الطلائـع الفيـرُزان، وعـلى الـرجـالـة زاذ بن بهيش. فلما انتهى رستم إلى العقيق نزل عليه بحيـال عسكر سعـد وتلاحق بـه العسكر حتى تكـاملوا وأخذوا منازلهم والمسلمون ممسكون عنهم، وكان مـع رستم ثلاثـة وثلاثـون فيلاً مُضـرَّاةً بالحرب.

ولما أصبح رستم ساير العقيق ليَحزُر المسلمين ويعرف مقدار عـددهم حتى انتهى إلى منقطع العسكر. وأرسل إلى زهرة قـائد مقـدمة المسلمـين فخرج إليـه حتى واقفـه. فأراده عـلى الصلح ويجعل لـه جعلاً عـلى أن ينصرفـوا عنه وجعـل يقول: أنتم جيراننـا، وقد كانت طائفـة منكم في سلطاننا، فكنـا نحسن جوارهم ونكفُّ الأذى عنهم، ونـوليهم المـرافق الكثيـرة، ونحفـظهم في أهــل بـاديتهم؛ فنرعيهم مراعينا ونميرهم من بلادنا، ولا نمنعهم من التجارة في شيء من أرضنا، وقد كان لهم في ذلك معاش. يُعرِّض لهم بالصلح ولا يصـرح. فقال لـه زهرة. صـدقت قـد كـان مـا تـذكـر، وليس أمـرنـا أمــر أولئـك ولا طلبتنـا طلبتهم، إننـا لم نـأتكم لـطلب الـدنيـا إنمـا طلبتنــا وهمتنـا الآخــرة، كنّـا كـما ذكـرت يــدين لكم من ورد عليكم منّـا، ونضــرع إليكم بـطلب مــا في أيـديكم؛ ثم بعث اللّه تبارك وتعالى إلينا رسولاً فدعانـا إلى ربه فـأجبناه فقـال اللّه لنبيه ﷺ: إني قد سلطت هذه الطائفة على من لم يدن بـديني فأنـا منتقم بهم منهم، وأجعل لهم الغلبة عليهم ما داموا مقرِّين به، وهو دِين الحقّ لا يرغب عنه أحدٌ إلاّ ذلّ، ولا يعتصم بـه أحدٌ إلاّ عـزّ. فقال رستم: ومـا هو؟ قـال: أما عمـوده الذي لا يصلح منه شيء إلاّ به «فشهادة أن لا إله إلاّ اللّه وأن محمداً رسول اللّه» والإقرار بمـا جاء من عنـد اللّه تعـالى: قـال: مـا أحسن هـذا؟ وأيّ شيء أيضـاً؟ قـال: وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبـادة اللّه. قال: حسن، وأيّ شيء أيضـاً،

قال: والناس بنو آدم وحوّاء إخوة لأب وأم. قال: ما أحسن هذا. ثم قال له رستم: أرأيت لو أني رضيت بهذا الأمر وأجبتكم إليه ومعي قومي، كيف يكون أمركم، أترجعون؟ قال: أي والله ثم لا نقرب بلادكم أبداً إلاّ في تجارة أو حاجة. قال صدقتني.

لم يكن استرسال رستم معه في الكلام هذا الاسترسال عن اقتناع أو رضى بما يقول، وإنما كان خديعة ليأتي زهرة بآخر ما عنده ويعرض عليه منتهى أمانيه وأماني القوم الذين هو منهم، ويدلّ على ذلك قول رستم له بعد ذلك: والله إن أهل فارس منذ ولي أردشير لم يدعوا أحداً يخرج من عمله من السِّفْلة. كانوا يقولون إذا خرجوا من أعمالهم تعدوا طورهم وعادوا إلى أشرافهم. فقال له زهرة: نحن خير الناس للناس فلا نستطيع أن نكون كما تقولون. نطيع الله في السِّفْلة ولا يضرنا من عصى الله فينا.

إن الكلام الحق لا بدّ أن يترك في النفس أثراً، مهما حاول الإنسان مقاومته. فلما انصرف رستم إلى قومه دعا رجال فارس فذاكرهم ما دار بينه وبين زهرة فَحَمُوا من ذلك وأنفوا ونالوا منه ونال منهم.

أرسل سعد إلى المغيرة بن شعبة، وبشر بن أبي رهم، وعرفجة بن هرثمة، وحذيفة بن مُحصَنٍ وربعيّ بن عامر، وقرفة بن زاهر الوائلي. ومذعور بن عدي العجلي، ومعبد بن مرّة العجلي، والمضارب بن يزيد العجلي. وكان معبد من دُهَاةَ العرب فقال: إني مرسلكم إلى هؤلاء القوم فما عندكم؟ قالوا جميعاً: نتبع ما تأمرنا به وننتهي إليه، فإذا جاءنا أمر لم يكن منك فيه شيء نظرنا أمثل ما ينبغي وأنفعه للناس فكلمناهم به. فقال سعد: هذا فعل الحزمة. اذهبوا فتهيأوا. فقال ربعيّ بن عامر: إن الأعاجم لهم آراء وآداب ومتى جئناهم جميعاً يروا أنا قد احتفلنا بهم فلا تزدهم على رجل فمالؤوه على ذلك، فقال: سرحوني فسرحه حتى دخل على عسكر رستم فحبسه العسكر حتى جاء إذن رستم فيه، وقد أظهر رستم الزينة بسط البسط والنمارق، وجلس رستم على سرير الذهب

ولبس زينته. وأقبل ربعيّ على فرس له زباء قصيرة، ومعه سيف مشـوفٌ وغمدة لفافة ثوب خَلَق ورمحه معلوب. ومعه حجفة من جلود البقـر على وجهها قرص جلد أحمـر مثل الـرغيف، ومعه قـوسه ونبله ورمحـه، وعليه درع لـه كأنها إضـاة ويلمعة؛ عباءة بعيره قد جلبها وتدّرعها وشدّها على وسطه بسلب وقد شـدّ رأسه بمعجرته، وهي نِسعة بعيره، ولرأسه أربع ضفائـر كأنها قـرون الوعلة. ولم ينـزل عن فرسه إلاّ على البساط، ثم أرادوه على وضع سـلاحه فـأبى أن يأتيهم إلاّ كـما يريد وإلاّ رجـع. وأراد أن يستحرجهم فـأقبل يمشي وهـو يتوكـأ على رمحـه وَزُجُّه نصل يقارب الخطو وزج الرمح يهتك النمارق والبسط.

ولـما دنـا من رستم تعلق بـه الحرس وجلس عـلى الأرض. وركـز رمحـه بالبساط فقالوا له: ما حملك عـلى هذا؟ فقـال: لا نستحبّ الجلوس على زينتكم هذه، فقال له رستم: ما جاء بكـم؟ فقال: اللّه ابتعثنا واللّه جاء بنـا لنخرج من شـاء من عبادة العبـاد إلى عبـادة اللّه ومن ضيق الـدنيـا إلى سعتهـا، ومن جـور الأديان إلى عدل الإسلام فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه. فمن قبل ذلـك قبلنا ذلك منه ورجعنا عنه وتركناه وأرضه يليها دوننا، ومن أبى قـاتلناه أبـداً حتى نفضي إلى موعود اللّه. قال: وما موعود اللّه؟ قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي فقـال رستم: قد سمعت مقـالتكم. فهل لكم أن تؤخـروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا؟ قال نعم، كم أحب إليـك؟ أيومـاً أم يومـين؟ قـال: لا بل حتى نكـاتب أهل رأينـا ورؤساء قـومنا. وأراد مقـاربته ومـدافعته. فقـال: سن لنا رسـول اللّه ﷺ وعمل بـه أئمتنا أن لا نمكن الأعـداء من آذاننا، ولا نؤجلهم عنـد اللقاء أكـثر من ثلاث، فنحن متـرددون عنكم ثلاثـاً فانـظر في أمـرك وأمرهم، واخـتر واحدة من ثـلاث بعد الأجـل. اختر الإسـلام ونـدعـك وأرضك، أو الجزاء فنقبل ونكف عنك، وإن كنت عن نصرنا غنيّاً تركنـاك منه؛ وإن كنت إليه محتاجاً منعناك. أو المنابذة في اليوم الرابع، ولسنا نبـدؤك فيما بيننـا وبين اليوم الرابع إلاّ أن تبدأنا، أنا كفيـل لـك بذلـك على أصحـابي. وعلى من

ترى. وكأن رستم عد غريباً أن يضمن له هذا الرجل الزريّ الهيئة سكون الجيش إلى اليوم الرابع، فقال له: أسيدهم أنت؟ قال: لا، ولكن المسلمين كالجسد بعضهم من بعض، يجير أدناهم على أعلاهم.

كان رستم قد قارن بين ما قال زهرة وما قاله ربعيّ بن عامر. فرأى اتحاداً في الكلمة وصدقاً في اللهجة. وفي اعتقادي أنه أراد أن يصرف القوم عن بلاده بأي الوسائل، وفي نيته أن يخدعهم بقبول دينهم ويصرفهم عن وجههم بكلمة ينطقها، ثم يكون على ما عليه قومه. ولو وجد من فارس من يعينه على رأيه لفعل. ولكنه خلص إلى أهل فارس ورؤسائهم فقال: ما ترون؟ هل رأيتم كلاماً قط أوضح ولا أعز من كلام هذا الرجل؟ قالوا: معاذ اللّه لك أن تميل إلى شيء من هذا أو تدع دينك لهذا الكلب. أما ترى إلى ثيابه؟ ثم أخذوا يعيبون رثاثته وتناولوا سلاحه وأداة حربه فعمدوا إلى تجربتها فاستبان فضل ذلك على سلاحهم. فلما رأى منهم ربعيّ ذلك قال: يا أهل فارس، إنكم عظمتم اللباس والطعام والشراب وإنا صغرناهنّ، ثم رجع إلى أن ينظروا إلى الأجل.

فلما كان اليوم الثاني طلب رستم أن يرسل إليه المسلمون الرجل الذي كان بالأمس (ربعيّ) فأرسل إليه سعد حذيفة بن محصن، وكان منه ما كان من ربعيّ، لا يكاد أمرهما يختلف. ثم في اليوم الثالث طلب رستم أن يرسل إليه سعد رجلاً له عقل ورأي يكلمه، فأرسل إليه المغيرة بن شعبة.

جاء المغيرة إلى رستم ومعه وجوه قومه، عليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب وبسطهم على غلوة من مجلس رستم. وأقبل المغيرة وله أربع ضفائر يمشي حتى جلس معه على سريره ووسادته، فوثبوا عليه فترتروه وأنزلوه. فقال: كانت تبلغنا عنكم الأحلام، ولا أرى قوماً أسفه منكم إنا معشر العرب سواء، لا يستعبد بعضنا بعضاً إلاّ أن يكون محارباً لصاحبه، فظننت أنكم تتواسون بينكم كما نتواسى. وكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض. وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نصنعه. ولم آتكم ولكن دعوتموني.

اليوم علمت أن أمركم مضمحلّ، وأنكم مغلوبون. وأن مُلكاً لا يقوم على هذه السيرة ولا هذه العقول. فقال السفلة: صدق والله هذا العربيّ، وقال الدهاقين: والله لقد رمى بكلام لا يزال عبيدنا ينزعون إليه. قاتل الله أوّلينا ما كان أحمقهم حين كانوا يصغرون أمر هذه الأمة. وقد رأى رستم أن يأسو ما صنعت حاشيته وأن يطيب خاطره ليستخرج ما عنده، فمازحه ليمحو ما صنع. فقال له: يا أعرابيّ إن الحاشية قد تصنع مالا يوافق الملك فيتراخى عنها مخافة أن يكسرها عما ينبغي من ذلك، فالأمر على ما تحب من الوفاء وقبول الحقِّ، ما هذه المغازل التي معك؟ (يريد السهام) قال: ما ضرّ الجمرة أن لا تكون طويلة، ثم راماهم. قال: ما بال سيفك؟ قال: رثّ الكسوة، حديد المضربة ثم عاطاه سيفه.

بعد ذلك أراد رستم أن يكلمه فيما استقدمه لأجله. فقال له: تكلم أو أتكلم؟ فقال المغيرة: أنت الذي بعثت إلينا فتكلم. فأقام الترجمان بينهما وتكلم رستم فحمد قومه وعظم أمرهم وطوّله وقال: لم نزل متمكنين في البلاد، ظاهرين على الأعداء، أشرافاً في الأمم، فليس لأحد من الملوك مثل عزنا وشرفنا وسلطاننا، ننصر على الناس ولا ينصرون علينا إلّا اليوم واليومين، أو الشهر والشهرين للذنوب، فإذا انتقم الله فرضى ردّ علينا عزّنا وجمعنا لعدونا ثم لم يكن في الناس أمة أصغر عندنا أمراً منكم كنتم أهل قشفَ ومعيشة سيئة لا نراكم شيئاً ولا نعدكم، وكنتم إذا قحطت أرضكم وأصابتكم السنة استغثتم بناحية أرضنا فنأمر لكم بالشيء من التمر والشعير، ثم نردكم وقد علمت أنه لم يحملكم على ما صنعتم إلّا ما أصابكم من الجهد في بلادكم وأنا آمر لأميركم بكسوة وبغل وألف درهم وآمر لكل رجل منكم بوقر تمر وبثوبين وتنصرفون عنا، فإني لست أشتهي أن أقتلكم ولا آسركم. فتكلم المغيرة بن شعبة فحمد الله وأثنى عليه وقال:

إن الله خالق كل شيء ورازقه فمن صنع شيئاً فإنما هو يصنعه والذي له؛

وأما الذي ذكرت به نفسك وأهل بلادك من الظهور على الأعداء والتمكن في البلاد وعظم السلطان في الدنيا، فنحن نعرفه ولسنا ننكره فالله صنعه بكم ووضعه فيكم، وهو له دونكم.

وأما الذي ذكرت فينا من سوء الحال وضيق المعيشة واختلاف القلوب فنحن نعرفه ولسنا ننكره، والله ابتلانا بذلك فصيرنا إليه، والدنيا دول، ولم يزل أهل شدائدها يتوقعون الرخاء حتى يصيروا إليه، ولم يزل أهل رخائها يتوقعون الشدائد حتى تنزل بهم ويصيروا إليها، ولو كنتم فيما آتاكم الله ذوي شكر كان شكركم يقصر عما أوتيتم وأسلمكم ضعف الشكر إلى تغير الحال. ولو كنا فيما ابتلينا به أهل كفر كان عظيم ما تتابع علينا مستجلباً من الله رحمة يرفه بها عنا. ولكن الشأن غير ما تذهبون إليه أو كنتم تعرفوننا به.

إن الله تبارك وتعالى بعث فينا رسولاً (ثم ذكر ما ذكره سابقه حتى انتهى إلى قوله) وإن احتجت إلينا أن نمنعك منعناك فكن لنا عبداً تؤدي الجزية عن يد وأنت صاغر وإلاّ السيف إن أبيت.

فاستشاط رستم غضباً، وحلف بالشمس: لا يرتفع لكم الصبح غداً حتى أقتلكم أجمعين. فانصرف المغيرة.

ثم بعد ذلك أرسل سعد بقية ذوي الرأي إلى رستم وحبس الثلاثة الذين ذهبوا إليه فكلمهم بمثل ما تكلم به وكلموه بمثل ما تكلم به سابقوهم وضرب لهم الأمثال وضربوا له الأمثال كذلك، ثم تهيأ الفريقان للحرب.

وقد سأل رستم ذلك الوفد: أتعبرون إلينا أم نعبر إليكم؟ فقالوا: بل اعبروا إلينا. وأخذ سعد في الاستعداد ـ ولما أرادوا عبور العقيق على القنطرة وكانت في يد المسلمين أبوا عليهم ذلك وقالوا شيء غلبناكم عليه لا نعيده إليكم أبداً بل انظروا لكم معبراً آخر، فباتوا ليلتهم يسكرون العقيق ثم أصبحوا فعبروه على ما سكروا به من قصب وبراذع وتراب.

عين رستم جيشه ورتب الفيلة في مواقفها وعليها الرجال في الصناديق، وكان يزدجرد قد رتب الرجال بينه وبين رستم بين كل رجلين مقدار ما يسمع أحدهما صوت الآخر فكلما نزل أو ارتحل أو حدث أمر قاله فقاله الذي يليه حتى يقوله الذي يلي باب الإيوان وفيه الملك. وهكذا إذا أراد الملك إصدار أمر إلى رستم على هذا النمط. فكانت الأخبار تعلم ساعة حدوثها لا يغيب عنه شيء حدث في ليل أو نهار.

كان بسعد عِرق النِّسا وحبُون قامت له، لا يستطيع معها الركوب ولا الجلوس. فخلف على الناس خالد بن عُرفُطة. فشغب عليه بعض وجوه الجند. فقال سعد: احملوني واشرفوا بي على الناس. فارتقوا به فأكب مطلعاً عليهم وتحت صدره وسادة. وأتى بمن شغب على خالد فهمّ بهم وشتمهم وقال: أما والله لولا أن عدوكم بحضرتكم لجعلتكم نكالاً لغيركم ولا يعود أحد بعدها يحبس المسلمين عن عدوهم ويشاغلهم وهم بإزائه إلاّ سُنتْ به سنة يؤخذ بها من بعدي ـ ثم كتب إلى الرايات: إني قد استخلفت عليكم خالد بن عرفطة، وليس يمنعني أن أكون مكانه إلاّ وجعي الذي يعودني وما بي من الحبون، فإني مكب على وجهي وشخصي لكم باد فاسمعوا له وأطيعوا، فإنه إنما يأمركم ويعمل برأي. فقريء أمره على الناس فانتهوا إلى رأيه وقبلوا منه وتحاثوا على السمع والطاعة والرضا بما صنع سعد. فكان سعد يرمي بالرقاع فيها أمره ونهيه إلى خالد بن عرفطة وخالد يبلغها من قصد بها لينفذها (فكان أركان حرب لسعد ذلك اليوم).

وقبل أن تنشب الحرب بين الفريقين أرسل سعد إلى الذين انتهى إليهم رأي الناس والذين انتهت إليهم نجدتهم ومن أحرزوا أصناف الفضل، فكان منهم ذوو الرأي النافذ الذين أتوا رستم: المغيرة بن شعبة، وحذيفة بن مُحْصن، وعاصم بن عمرو، وبسر بن أبي رهم، وعرفجة بن هرثمة، وربعي بن عامر، وقرفة بن زاهر، ومذعور بن عدي، ومعبد بن مرة، والمضارب بن يزيد،

وطليحة وقيس الأسديان، وغالب بن عبد اللّه الأسدي. وعمرو بن معد يكرب وأمثالهم، ومن الشعراء: الشماخ والحطيئة وأوس بن مغْراء وعبدة بن الطيب وأمثالهم. وقال انطلقوا فقوموا في الناس بما يحق عليهم عند مواطن البأس فإنكم من العرب بالمكان الذي أنتم به وأنتم شعراء العرب وخطباؤهم وذوو رأيهم ونجدتهم وسادتهم، فسيروا في الناس فذكروهم وحرضوهم ـ فما شئت في ذلك اليوم من خُطب حشوها الحث على الحرب والحض على الطعان والاستبسال بكلام تستأسد منه الأوعال ويستنسر به البغاث ويغلي به دم القلوب وتتوتر له الأعصاب. ومن شعر يؤرث الشر ويوغر الصدور ويهون الموت.

لو تتبعنا ذلك لامتد بنا القول واتسع مجال الكلام وخرجنا عن عهدة ما نحن بصدده.

اتَّعدَ سعد مع جنده أن يكبر لهم ثلاث تكبيرات، والثالثة علامة بدء الحرب والرابعة علامة الزحف العام وإن ذلك يكون بعد صلاة الظهر. فلما أذن المؤذن بصلاة الظهر وأدوا المكتوبة كبر سعد ثلاث تكبيرات، فلما كبر سعد الثالثة برز أهل النجدات فأنشبوا القتال. وبرز غالب بن عبد اللّه الأسدي وهو يقول:

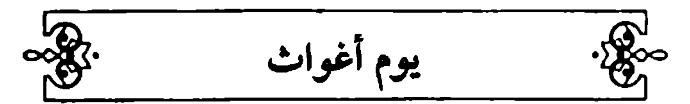
قد علمت واردة المسائح ... ذات اللَّبان والبنان الواضح
أني سمام البطل المشايح ... وفارج الأمر المهم الفادح

وبرز عاصم بن عمرو وهو يقول:

قد علمت بيضاء صفراء اللبب ... مثل اللجين إذ تغشاه الذهب
أنى امرؤ لا من يعينه السبب ... مثل على مثلك يغريه العتب

ثم كبر سعد التكبيرة الرابعة وهي علامة الهجوم العام فزحف الجنود واصطدموا صدمة من أشد صدمات الحروب هولاً وكان شد شيء لقي منه المسلمون عناء لا يطاق الفيلة. فإنها لما حمل أصحابها خافتها الخيل فتفرقت عن الرجالة وكان مبدأ أمرها في بجيلة، تؤكل حين فرت عنها خيلها فرقاً من الفيلة.

فلما رأى سعد ما حل بهم أعانهم ببني أسد فصمدوا لها وكانت حلبة الفرس تدور على بني أسد قبل الهجوم العام. فلما رأى سعد ما حل ببني أسد فصمدوا لها وكانت حلبة الفرس تدور على بني أسد قبل الهجوم العام. فلما رأى سعد ما حل ببني أسد من الفيلة أرسل إلى عاصم بن عمرو التميمي وقال: يا معشر بني تميم، أما عندكم لهذه الفيلة من حيلة؟ قالوا: بلى ثم نادى برجال من قومه رماة وآخرين لهم ثقافة فقال للرماة: ذبُّوا ركبان الفيلة عنهم بالنبل وقال لأهل الثقافة: استدبروا الفيلة وقطعوا وضُنُها، ففعل كل فريق ما أمر به ووقعت الصناديق عن ظهور الفيلة، فلم يبق من ركبان الفيلة راكب إلّا قتل. ولما أعريت الفيلة من ركبانها عادت إلى مواقفها ونفّس ذلك الكرْب عن بني أسد بعد ما قتل منهم في ذلك اليوم خمسمائة مقاتل وكانوا رداءً للناس. واستحر القتال حتى غربت الشمس ثم حتى ذهبت هدأة من الليل. وقد كان الظفر ظاهراً ذلك اليوم في صفوف الفرس وهذا اليوم يسمى يوم أرماث ـ وكان فيه عاصم عادية الناس وحاميتهم. وكان ذلك في المحرم سنة ١٤ هـ يوم الإثنين.



يوم أغواث

ولما أصبح القوم من الغد أصبحوا على تعبية ووكل سعد قوماً بنقل القتلى إلى مُشرِّف وهو واد بين العذيب وبين عين الشمس، ووكل آخرين بحمل الجرحى إلى العذيب ليقوم النساء بتمريضهم ومداواتهم وبينما القوم على هذا الحال ولم ينشب القتال إذ طلعت نواصي خيل الإسلام قادمة من الشام. وذلك أن عمر أرسل إلى أبي عبيدة بن الجراح بعد فتح دمشق أن يرد الجند الذين جاءوا من العراق إلى الشام مع خالد بن الوليد ليكونوا عوناً لجنود سعد على قتال الفرس. فكان وصولهم إلى جيش المسلمين ذلك اليوم قبل انتشاب القتال وكانوا ستة آلاف، منهم خمسة آلاف من ربيعة ومضر وألف من أفناء اليمن. وكان خالد قد فصل بهم وهم تسعة آلاف قبل اليرموك ـ وكان الأمير على هذا الجيش

عتبة بن أبي وقاص وعلى مقدمته القعقاع بن عمرو، وعلى مجنبتيه قيس بن هبيرة، والهزهاز بن عمرو العجلي. وقد عجل القعقاع فطوى حتى قدم المسلمين بالقادسية صبيحة ذلك اليوم.

وقد أراد القعقاع أن يوقع الرعب في قلوب الفرس فقسم جيشه عشرة أقسام ليردوا على المسلمين قسماً بعد قسم ليعلم الفرس أن المدد مواصل على المسلمين فيكون ذلك أدعي إلى انكسار نفوسهم ـ ثم قدم هو في القسم الأول ولم يلبث أن باشر القتال ذلك اليوم. وكان قدومه سبباً لتنشيط المسلمين واستبشارهم حتى كأن لم تكن فيهم مصيبة بالأمس. وقد كان القعقاع فارس يوم أغواث. فإنه حين ورد ساحة الحرب طلب البراز فبرز إليه ذو الحاجب بَهْمَنْ جاذويه وهو صاحب يوم الجسر الذي قتل فيه أبو عبيد فقتله القعقاع، ثم برز إليه البيرزان والبندوان. فقتل القعقاع أولها، وقتل الحارث بن ظبيان ثانيهما وباشر المسلمون العجم بالسيوف فاجتلدوا إلى المساء وأكثر المسلمون فيهم القتل، ولم ير أهل فارس في قتال هذا اليوم ما يعجبهم ولم تباشر فيلتهم الحرب لأن صناديقها كانت قد تكسرت فلم تصلح حتى أمسى المساء، وفي هذا اليوم قدم رسول عمر بأربعة أسياف وأربعة أفراس لتقسم على أهل البلاء إن كان سعد لقي حرباً ففضها سعد في أهل البلاء وفي ذلك يقول الدبيل بن عمرو:

لقد علم الأقوام أنا أحقهم	إذا حصلوا بالمرهفات البواتر
وما فتئت خيلي عشية أرمثوا	يذودون رهواً عن جموع العشائر
لدن غدوة حتى أتى الليل دونهم	وقد أفلحت أخرى الليالي الغوابر

وقال القعقاع

لم تعرف الخيل العراب سواءنا	عشية أغواث بجنب القوادس
عشية رحنا بالرماح كأنها	على القوم ألوان الطيور الرسارس

ومما صنعه المسلمون في ذلك اليوم أن بني عم القعقاع حملوا عشرة عشرة

من الرجال على إبل قد ألبسوها الجلال والبراقع وطافت بهم الخيل تحميها في حملتها على خيول العجم بين الصفين يتشبهون بالفيلة، فجعلت تلك الإبل لا تصمدُ لقليل ولا كثير إلّا نفرت بهم خيلهم وركبتهم خيول المسلمين وقد استن بهم الناس في عملهم فلقي الفرس منها ما لقيت خيل المسلمين من الفيلة في اليوم الأول وقد استحر القتال إلى نصف الليل وكان الظفر للمسلمين واضح الغرَّة ذلك اليوم.

وفي ذلك أبلى أبو محجن الثقفي بلاء حسناً، وذلك أنه كان محبوساً في منزل سعد بن أبي وقاص لشغبه على خالد بن عرفطة، فلما كان يوم أغواث قال لسلمى زوج سعد هل لك أن تخليني وتعيريني البلقاء؟ فللّه إن سلمني اللّه أن أرجع إليك حتى أضع رجلي في قيدي فأبت، فقال:

كفى حزناً أن ترتدي الخيل بالقنا	وأترك مشدوداً على وثاقيا
إذا قمت عناني الحديد وأغلقت	مصاريع دوني قد تصم المناديا
وقد كنت ذا مال كثير وإخوة	فقد تركوني واحداً لا أخاليا
وللّه عهد لا أخيس بعهده	لئن فرجت أن لا أزور الحوانيا

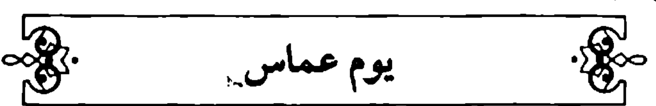
فرقت له سلمى وأطلقته وأعطته البلقاء فرس سعد فركبها فحمل على الفرس وكان يقصف الناس قصفاً منكراً. وتعجب المسلمون منه وهم لا يعرفونه وكان سعد يقول لولا مَحْبس أبي محجن لقلت أبو محجن وهذه البلقاء حتى إذا انتصف الليل أقبل وأعاد رجليه في القيد وقال أبياتاً منها:

وليلة قادس لم يشعروا بي	ولم أشْعر بمُخْرِجِيَ الزُّحوفا
فإن أحبس فذلكم بلائي	وإن أترك أذيقُهم الحتوفا

وآخر أبياته الأولى يدل على أنه إنما حبس في الخمر كما هو المشهور وبدليل قوله لزوجة سعد وقد سألته عن سبب حبسه: إني كنت صاحب شراب في الجاهلية وأنا امرؤ شاعر يدب الشعر على لساني، فقلت:

إذ مت فادفني إلى جنب كرمة | تروّى عظامي حين تسقي عروقها
ولا تَدْفِنَنّي في الفلاة فإنني | أخاف إذا ما مت أن لا أذوقها

ولعله كان قد اجتمع عليه الأمران. ولما علم سعد بأمره أطلقه وقال: اذهب فما أنا مؤاخذك بشيء تقوله حتى تفعله. فقال لا جرم لا أجيب لساني إلى صفة قبيح أبداً.



يوم عماس

وفي اليوم الثالث أصبح القوم وهم على مواقفهم وقد أصيب من المسلمين ألفان ما بين قتيل وجريح وأحرز المسلمون قتلاهم خلف ظهورهم ووكلوا بهم من يدفنهم وبالجرحى من يبلغهم مكان النساء لتمريضهم وكان النساء والصبيان يحفرون القبور في يومى أغواث وأرماث.

وقد بات القعقاع يسرب أصحابه وأمرهم أن يعودوا من النهار مائة مائة ليجدد نشاط المسلمين، وكان قتلى فارس بين الصفين لم يوارهم أحد، فكان ذلك مما أشجى الفرس وفتَّ في عضدهم. وزاد ذلك ما صنعه القعقاع بجنوده وطلوعهم مدداً للمسلمين واقتدى به عاصم بن عمرو ووصل هاشم بن عتبة في سبعمائة من جند عتبة بن أبي وقاص فصنع صنع القعقاع وكلما جاء جماعة كبر المسلمون.

أما الفرس فقد أصبحوا على مواقفهم وقد أصلحوا توابيت الفيلة فأقبلت ومعها رجال يحمونها أن تقطع وضُنها ومن خلفهم رجال تحميهم إذا أرادوا كتيبة دَلَفُوا لها بفيل وأتباعه لينفروا بهم خيلهم. وقد ظن الفرس أن ذلك يكون كما حصل في يوم الرماث، ولكن خيل المسلمين لم تنفر من الفيلة فعلها في ذلك اليوم، لأن الفيلة فيه كانت وحدها، فلما كانت في هذا اليوم والفيلة معها الرجال أنست الخيل ولم تنفر. واستمر القتال شديداً بين العرب والعجم كل فريق منها صابر على شدة القتال والنجدات تصل إلى الفرس ويزدجرد يُزْجيها

ويمدهم بأهل النجدة والبأس من قومه والأمداد تصل على البُـرد وهم يقوون بهـا كما قوى المسلمون بهاشم بن عتبـة ومن معه، وكـان البلاء فيـه من الجانبـين على السواء.

رأى سعد أن الفيلة قد عادت إلى فعلها في اليوم الأول فأرسـل إلى جماعـة من مسلمة الفرس أسلموا قبيل الحرب فسألهم: هل للفيلة مَقاتل؟ قالوا: نعم مشافرهـا وعيونها، فـأرسلوا إلى القعقاع وعـاصم ابني عمرو وقـال لهما: اكفيـاني الفيـل الأبيض، وأرسل إلى الـربيل وحمـال الأسديـين وقال لهـما: اكفياني الفيل الأجـرب، وكانت الفيلة كلهـا آلفة لاثنيهـما. فحمل القعقـاع وأخوه عـلى الفيل الذي وجه له ففقأ عينه ونفحه بالسيف فرمى بمشفره، فلم يكن من الفيل إلاّ أن يُقْعى على من خلفه ثم ينقلب بمن على ظهره فيقتلهم المسلمـون، وأما الآخـران فعورا الأجرب ورمياً بمشفره ففـر ووثب في العقيق فتبعته الفيلة وخـرقت صفوف الفـرس وألقت من عليهـا وعبـرت العقيق في أثـر الأجـرب حتى أتت المـدائن بتوابيتها.

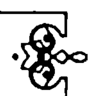
ولمـا ذهب الفيلة وخلص المسلمـون بـأهـل فـارس ومـال الـظل تـزاحف المسلمون وحماهم فرسانهم الذين قاتلوا أول النهار فاجتلدوا عـلى جـرَدَ بـالسيوف وهم في ذلك على السواء.

ولما جاء الليـل خرج القعقـاع بن عمرو التميمي في جنـد وزاحف الفرس بغـير إذن سعد ثم تبعـه كثير من القبـائل حتى زحف الجيش كله واشتـد القتـال وخشعت الأصـوات فلم يكن يسمع في تلك الليلة سـوى صليل السيـوف كأنـه صوت مطارق الحداد على الحـديد، ورأى العـرب والعجم أمراً لم يـروا مثله قط وانقـطعت الأخبار والأصـوات عن سعد ورستم وبـات سعد بليلة لم يبت مثلهـا وأقبل على الـدعاء للمسلمـين بالنصر. فلما أصبـح الصبح انتسب النـاس فعلم أنهم الأعلون وأصبح الناس وهم حسرى لم تغمض عيونهم ليلتهم كلها.

ولما أصبح القوم أخذ القعقاع يحرض الناس ويقول: إن الدائرة بعد ساعة لمن بدأ القوم فاصبروا ساعة واحملوا عليهم فإن النصر مع الصبر، فاجتمع إليه جماعة من الرؤساء وتحاضوا على الموت وحملوا في من يليهم. فاقتتلوا أشد قتال إلى أن جاء الظهر، وحينئذ بدأ الخلل في صفوف الفرس فتأخروا وثارت عاصفة فألقت طيارة رستم في العقيق وانتهى القعقاع إليها فلم يجده لأنه قام عن مكانه حين قلعت طيارته إلى بغال كانت مهيأة فاستظل بحمل بغل منها وضرب هلال بن عُلَّفَة الحمل الذي تحته رستم وهو لا يدري به فسقط عليه العدل وضربه هلال فلم يقتله فرمى بنفسه في العقيق فأخذ هلال برجله فأخرجه وقتله ثم نادى: قتلت رستم ورب الكعبة. فأطاف به الناس وكبروا وانهزم قلب الفرس وتتابعت الهزيمة وغنم المسلمون راية الفرس وهي (دُرفش كابيان) ثم تتبع المسلمون المنهزمين حتى أجلوهم إلى ما وراء القنطرة. وليلة الهرير يمر بالمسلمين ليلة أشد منها هولاً مع الفرس ولا غيرهم وقتل فيها من المسلمين نحو ثمانية آلاف ومن الفرس ثلاثون ألفاً.

قال الطبري: فأما المقترنون فإنهم جشعوا فتهافتوا في العقيق فوخزهم المسلمون برماحهم فما أفلت منهم مخبروهم ثلاثون ألفاً وكان الذي أخذ (درفش كابيان) ضرار بن الخطاب فعوض منها ثلاثين ألف درهم، وكانت قيمتها ألف ألف ومائتي ألف. وقد قتل في اليوم الذي تلا ليلة الهرير عشرة آلاف سوى من قتل في الأيام قبله.

أما الأسلاب والغنائم في تلك الوقعة فلم يأخذ المسلمون غنيمة مثلها قبلها ولا بعدها. وقد كان سلب رستم سبعين ألف درهم. ولو وجدت قلنسوته لكان ثمنها مائة ألف درهم. وقد تعقب المسلمون المنهزمين فلم يكن بهم منعة ولا مدافعة ولا نجاء. وقد صمد للقتال بعد الهزيمة بضع وثلاثون كتيبة استحيواً من الفرار فعمد لكل كتيبة رئيس من رؤساء المسلمين في جنده، فمن هذه الكتائب ما استؤصل ومنها ما هرب.



ما بعد الموقعة

بعد أن انتهت الموقعة كتب سعد إلى عمر: «أما بعد فإن اللّه نصرنا على أهل فارس ومنحهم سنن من قبلهم من أهل دينهم بعد قتال طويل وزلزال شديد، وقد لقوا المسلمين بُعدة لم ير الراؤون مثل زهائها فلم ينفعهم اللّه بذلك بل سلبهموه ونقله عنهم إلى المسلمين، واتبعهم المسلمون على الأنهار، وعلى طفوف الآجام، وفي الفجاج. وأصيب من المسلمين سعد بن عبيد القارىء وفلان وفلان ورجال من المسلمين لا نعلمهم، اللّه أعلم بهم، كانوا يدوون بالقرآن إذا جن عليهم الليل دوى النحل وهم آساد الناس لا يشبههم الأسود، ولم يفضل من مضى منهم من بقي إلّا بفضل الشهادة إذ لم تكتب له».

كان عمر حريصاً على تعرف أجناد المسلمين في القادسية وكان كل الناس في شبه جزيرة العرب يرونها الحد الفاصل بين العرب والفرس. ولا يرون أن الإسلام تقوم له قائمة وينتظم للأمة العربية حال إلّا بالظفر فيها، يشترك في هذا الاعتقاد كل أهل الجزيرة من عدن أبين إلى أبلة إلى البحرين إلى حدود الشام. حتى الرجل منهم إذا كان له عمل أحجم عنه حتى يرى ما يكون من شأن حرب القادسية فلا غرو إذا كان عمر مشغول القلب والبال بها.

كان يخرج كل يوم يتنسم الأخبار من حين يصبح إلى انتصاف النهار ثم يرجع إلى منزله. وبينما هو بسبيل ذلك ذات يوم لقي البشير عمر، فسأله من أين؟ فأخبره. قال يا عبد اللّه حدثني. قال: هزم اللّه العدو وعمر يخب معه ويستخبره والبشير يسير على ناقته ولا يعرفه حتى دخل المدينة. فإذا الناس يسلمون عليه بإمرة المؤمنين. فقال الرجل هلا أخبرتني رحمك اللّه أنك أمير المؤمنين؟ وجعل عمر يقول: لا عليك يا أخي. فهكذا يكون أمراء المؤمنين والخلفاء الراشدون.

قرأ عمر الكتاب على الناس وقال: إني حريص على أن لا أدع حاجة إلّا سددتها ما اتسع بعضنا لبعض، فإذا عجز ذلك عنا تآسينا في عيشنا حتى نستوي في الكفاف. ولوددت أنكم علمتم من نفسي مثل الذي وقع فيها لكم. ولست معلمكم إلّا بالعمل، إني واللّه ما أنا بملك فأستعبدكم، وإنما أنا عبد اللّه عرض عليَّ الأمانة فإن أبيتها ورددتها عليكم واتبعتكم حتى تشبعوا في بيوتكم وترووا سعدت وإن أنا حملتها واستتبعتها إلى بيتي شقيت ففرحت قليلاً وحزنت طويلاً وبقيت لا أقال ولا أرد فأستعتب.

وكتب سعد إلى عمر يقول: « إن أقواماً من أهل السواد ادّعوا ولم يقم على عهد أهل الأيام لنا ولم يف به أحد علمناه إلا أهل بانقيا وبارسما وأهل أليّس الآخرة وادعى أهل السواد أن فارساً أكرهوهم وحشروهم فلم يخالفوا إلينا ولم يذهبوا في الأرض » ثم كتب كتاباً آخر يقول فيه: « إن أهل السواد جلوا فجاءنا من أمسك بعهده ولم يُجلب علينا فتممنا لهم ما كان بين المسلمين قبلنا وبينهم وزعموا أن أهل السواد قد لحقوا بالمدائن فأحدث إلينا فيمن تم وفيمن جلا وفيمن ادعى أنه استكره وحشر فهرب ولم يقاتل، أو استسلم. فأنا في أرض رغيبة والأرض خلاء من أهلها وعددنا قليل وقد كثر أهل صلحنا وإنَّ أعمر لها وأوهن لعدونا تألَفهم ».

فقام عمر في الناس واستشارهم فيما طلبه سعد. فأجمعوا على أن الوفاء لمن أقام وكف ولم يزده كفه إلا خيراً. وإن من ادعى فصدق أو وفى فبمنزلتهم وإن من كذب نبذ إليهم وأعادوا صلحهم وأن يجعل أمر من جلا إليهم، فإن شاءوا دعوهم وكانوا لهم ذمة وإن شاءوا تموا على منعهم من أرضهم ولم يعطوهم إلا القتال، وأن يخيروا من أقام واستسلم الجزاء أو الجلاء. وكذلك الفلاحون. فكتب عمر جواب الكتاب الأول يقول: « أما بعد ـ فإن اللّه جل وعلا أنزل في كل شيء رخصة في بعض الحالات إلا في أمرين: العدل في السيرة والذكر. فأما الذكر فلا رخصة فيه في حالة ولم يرض منه إلا بالكثير. وأما الثاني العدل فلا

رخصة فيه لقريب ولا بعيد ولا في شدة ولا رخاء وإن رؤى ليناً فهو أقوى وأطفأ للجور وأقمع للباطل من الجور وإن رؤى شديداً فهو أنكش للكفر. فمن تم على عهده من أهل السواد ولم يعن عليكم بشيء فلهم الذمة وعليهم الجزية. وأما من ادعى أنه استكره ممن لم يخالفهم إليكم أو يذهب في الأرض فلا تصدقوهم بما ادعوا من ذلك إلا أن تشاءوا فانبذ إليهم وأبلغوهم مأمنهم».

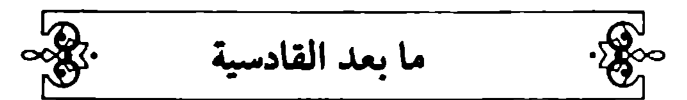
وكتب إليه جواب الكتاب الثاني:

«أما من أقام ولم يجل وليس لهم عهد فلهم ما لأهل العهد بمقامهم لكم وكفهم عنكم إجابة عدوكم. وكذلك الفلاحون إذا فعلوا ذلك. وكل من ادعى وصدق فلهم الذمة وإن كذبوا نبذ إليهم. وأما من أعان رجلاً فذلك أمر جعله اللّٰه لكم فإن شئتم فادعوهم إلى أن يقيموا لكم في أرضهم ولهم الذمة وعليهم الجزية وإن كرهوا ذلك فأقسموا ما أفاء اللّٰه عليكم منهم».

وهنا أقول لسنا في حاجة إلى بيان ما تضمنته الكتب وأجوبتها من الأمور الإدارية والنظام البديع وطرق الاستعمار. وإنما العجب أن يصدر عن قوم لا عهد لهم بهذه الأمور، وإنما يصل إليها الناس بعد الدرس والبحث والتجارب الطويلة.

فلما عادت كتب عمر عرضوا على من يليهم ممن جلا وتنحى عن السواد أن يتراجعوا ولهم الذمة وعليهم الجزية فتراجعوا وصاروا ذمة كمن تم ولزم خراجهم أثقل. وأنزلوا من ادعى الاستكراه وهرب منزلتهم وعقدوا لهم. وأنزلوا من أقام منزلة ذي العهد. وكذلك الفلاحون. ولم يدخلوا في الصلح ما كان لآل كسرى ولا ما كان لمن خرج معهم ولم يجبهم إلا إلى واحدة من اثنتين: الإسلام أو الجزاء فصارت فيئاً لمن أفاء اللّٰه عليه فهي والصوافي الأولى ملك لمن أفاء اللّٰه عليه وسائر السواد ذمة. وأخذوهم بخراج كسرى. وكان على رؤوس الرجال على ما في أيديهم من الحصة والأموال.

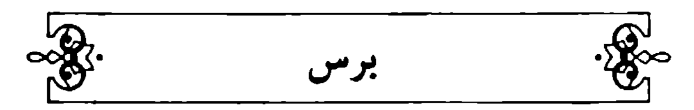
ولم تتأت قسمة ما كان لآل كسرى ومن أقام معهم لأنه كان متفرقاً في السواد فكان يليه لأهل الفيء من وثقوا به وتراضوا عليه.



ما بعد القادسية

أقام سعد بالقادسية شهرين بعد انتهاء الموقعة. وذلك أمر طبيعي بعد موقعة قاسى فيها الجيش شدائد عظاماً وأهوالاً جساماً واصطلى بنارها جميع الجيش، فكانوا بعد ذلك كله في حاجة إلى الجمام والراحة. ولو كان عند سعد جيوش احتياطية لم تشهد الحرب ولم تَكتوا بنارها لكان في حكم الحزم أن يرمي الفرس بها قبل أن يأخذوا راحتهم ويدبروا أمرهم، لأن المعاجلة في مثل هذه الحال حزامة ـ ولكن القوم كانوا على ما علمنا من قلة عدد وقد قاتلوا عدواً يفوقهم أضعافاً وقد نالوا منه ونال منهم. فلابد أن يكونوا في حاجة إلى الراحة والمدد ـ ومع هذا فما كان احتياج القوم إلى الراحة ليحبسهم شهرين في القادسية. بل كان أكثر ما لبثهم تطهير النواحي التي غلبوا عليها من الأعداء حتى لا يتركوا وراءهم عورة يخافونها وأن ينتهوا مع من دانوا لهم بالطاعة على حال وأن يستأمروا عمر في شأنهم وفي الوجه الذي يريد أن يرميهم به والعمل بماينبغي.

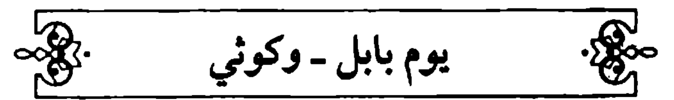
أمر عمر رضي اللّه عنه سعداً أن يؤم المدائن وعهد إليه أن يخلف النساء والعيال بالعقيق ويجعل معهم كثفاً من الجند وأن يشركهم في كل مغنم ما داموا يخلفون المسلمين في عيالاتهم فقدم زهرة بن الحوية إلى اللسان الذي أدلعه البر في الريف وعليه الكوفة اليوم والحيرة قبل اليوم وكان النخيرجان معسكراً به فارفض ولم يثبت فلحق بأصحابه.



برس

وبعد تقديم زهرة إلى اللسان أتبعه بعبد اللّه بن المعتم، ثم شرحبيل بن

السمط ثم هاشم بن عتبة وقد ولاه عمل خالد بن عرفطة وجعل خالداً على الساقة ثم اتبعهم وكل المسلمين فارس مؤد[1] قد نقل الله إليهم ما كان في عسكر فارس من سلاح وكراع ومال وكان ارتحاله لأيام بقين من شوال فلما وصلت مقدمة المسلمين (بُرْس) لقيهم جمع من الفرس بصُبْهُري. فلم يكن بين الفريقين كبير قتال حتى انهزموا إلى بابل، وبها فل القادسية وجميع رؤساء الفرس كالنخيرجان ومهرجان ومهران الرازي والهرمزان وأشباههم وعليهم الفيرُزان.
ولما رأى بسطام دُهقان برس أن المسلمين قادمون على بلاده وقد هزموا من بإزاء بلده من الفرس بعد أن هزموا عسكرهم الأكبر بالقادسية وقتلوا قائدهم الأعظم وعلم أن بلده حاصل في قبضتهم وخاف معرة دخولهم عليه عنوة وخشي أن يعتريه أحد منهم بسوء بادر إلى زهرة فاعتقد منه ذمة وعقد له الجسور وأتاه بخبر الذين اجتمعوا ببابل لموافقة المسلمين.



يوم بابل - وكوثي

فلما علم زهرة بما أنبأه به بسطام كتب إلى سعد يعلمه بما أجمع عليه الفرس وما أعدوا له. وقد قال الفرس فيما بينهم: نقاتلهم دستاً (طابقاً) قبل أن نتفرق وذلك ليبلوا عذراً أمام الأمة حتى لا يقال إنهم تفرقوا وتشتت جمعهم وهم في عدة تفوق المسلمين تمكنهم من أن يواقفوهم فخلوا بينهم وبين البلاد جبناً وهلعاً - ومعلوم أن جيشاً يقاتل على مثل هذه النية لا يكون مآله سوى الهزيمة ولا تغنيه كثرة العدد شيئاً لأن توطيد الجند العزيمة على النصر وانفساح الآمال بالفوز أمامهم وعظم الثقة بالنصر مددٌ لا يعادله مدد. وأما ضد ذلك إذا جال في رؤوس القواد والجنود فهو هزيمة معجلة وخذلان تسلفوه.

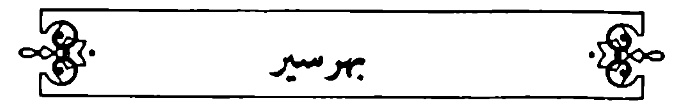
التقى الجمعان ببال بعد أن زجى سعد الجيوش إليها وفي رؤوس الفرس ما بينا والمسلمون كما قد علمنا وأفكارهم ما بينوه ليزدجرد ورستم ورؤساء فارس

---

(١) المؤدي هو التام عدة الحرب القوي.

فلم يكن إلا كلفت الرداء حتى انهزم الفرس، ثم لم يكن لهم هم سوى الافتراق. فخرج الهرمزان إلى ناحية الأهواز فأخذها وأكلها ومهرجان قذف وخرج الفيرزان حتى نزل على نهاوند وبها كنوز كسرى فاحتواها وأكل الماهين وولى النخيرجان ومِهران الرازي وجهيهما شطر المدائن حتى عبرا (بَهرُسَير) إلى جانب دجلة الآخر ثم قطعا الجسر.

أقام سعد أياماً ببابل وبلغه أن النخيرجان ومهران قد خلفا شهريار دهقان كوثى لقتال المسلمين في جمع من الجنود. فقدم سعد إليه الجيوش. فالتقى أوائل جموع المسلمين بجنود شهريار فلم يلبثهم أن طلب البراز وقال: « ألا رجل » ألا فارس منكم شديد عظيم يخرج إليّ حتى أنكل به؟ فأخرج له زهرة أبا نباتة بن نائل بن جعشم الأعرجي فخرج إليه. وكلاهما وثيق الخلق إلا أن شهريار مثل الحمل فلما تلاقيا تجالدا ثم تعانقا. فصرع شهريار أبا نباتة وأراد أن يحتزّ رأسه بخنجره فوقعت إبهام الفارسي في شدق أبي نباتة فلاكها فاسترخى الفارسي وفتر فانقلب عليه واحتز رأسه واستلبه وأخذ برذونه. وكان يلبس ملابسه ويتحلى بحلاه ويلبس أساوره عند الحرب، وهو اول مسلم تزيا بذلك الزي بأمر من سعد ابن أبي وقاص.



بهرسير

بهرسير إحدى المدائن السبع التي سميت بها المدائن وهي في غُدْوة دِجلة الغربية تجاه إيوان كسرى ولم يبق من المدائن سواها إلى عهد صاحب معجم البلدان.

قدّم سعد زهرة من كوثى إلى بهرسير. فتلقاه شيرزاد بساباط بالصلح وتأدية الجزاء فأرسله إلى سعد حتى قدم معه. ثم سار زهرة حتى أتى إلى المُظْلُمْ وكان به كتيبة لكسرى تسمى بوران ولعلها بمنزلة ما يسمونه الحرس الملوكي - وكان أهل هذه الكتيبة مدلين بأنفسهم ويقسمون بأن مُلك فارس لا يزول ما

عشنا، يفعلون ذلك كل يوم - فلقيهم زهرة بجنوده ففلهم. ثم جاء هاشم بن عتبة بن أبي وقاص إلى المظلم ووقف حتى لحق به سعد ووافق ذلك رجوع (المقرّط) وهو أسد كان لكسرى قد ألفه وتخيره من أسود مظلم ساباط فبادر المقرط الناس حتى انتهى فخرج إليه هاشم فقتله بسيفه. وقبل سعد رأس هاشم. فقبل هاشم قدم عمه سعد ولما جاء إلى المظلم قرأ ﴿أو لم تكونوا أقسمتم من قبل، مالكم من زوال﴾[1] وقدم سعد على بهرسير - وكلما قدمت خيل من خيول الإسلام إليها كبروا إلى أن تنام الجند وكان ذلك في السنة الخامسة عشرة.

أقام سعد على بهرسير شهرين يحاصرها ويرميها بالمجانيق ويدب إليها بالدّبابات ويقاتلونهم بكل عدة. وكان الفرس البادئين بالرمي بالمجانيق والعرادات فاستصنعها سعد وأقام عليها عشرين منجنيقاً فشغلهم بها - ولما طال الأمد على الفرس خرجوا في رجالة وناشبة وتجردوا للعرب وتبايعوا على الصبر فقاتلتهم المسلمون فلم يثبتوا لهم.

ولما رأى الفرس أن البقاء في هذه المدينة لا يستقيم تركوها ودخلها المسلمون فلم يجدوا فيها غير نفر قليل وقعوا أسرى في أيديهم - وفي مقام سعد على بهرسير. أرسل سراياه فأغارت في سواد الفرات فأتت بناس من الفلاحين لا عهد لهم ولا ذمة. فكانوا مائة ألف فقال شيرزاد: إن هؤلاء عُلُوج لأهل فارس لم يُحرضوا عليكم فاتركوهم حتى يفرق لكم الرأي. فتركهم سعد بعد أن كتب عليه أسماءهم ثم كتب إلى عمر يقول: « إنا وردنا بهرسير بعد الذي لقينا فيما بين القادسية وبهرسير فلم يأتنا أحد لقتال فبثثت الخيول فجمعت الفلاحين من القرى والآجام فَرّ رأيك » فأجابه « إن من أتاكم من الفلاحين إذا كانوا مقيمين لم يعينوا عليكم فهو أمانهم. ومن هرب فأدركتموه فشأنكم به » فلما ورد كتاب عمر خلى سعد عن أولئك الفلاحين فلم يطلبهم، ودعاهم إلى الإسلام والرجوع أو الجزاء ولهم الذمة والمنعة فتراجعوا عن الجزية والمنعة فلم يبق في غربي دجلة إلى أرض العرب سوادى إلا آمن واغتبط بملك الإسلام واستقبلوا الخراج.

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ٤٤.



المدائن القصوى

ولما دخل سعد بهرسير وكان ذلك في شهر صفر سنة ١٦ طلب السفن ليعبر عليها إلى عدوة دجلة الشرقية فلم يجد سفيناً يجيز الناس عليهن فبقى على ذلك أياماً من صفر، فجاء بعض أهل فارس ودلهم على مخاضة فخشى سعد ذلك ثم بدا له أن يجيز بهم في دجلة وقد جاء المدد. فقام في الناس فقال: « إن عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر فلا تخلصون إليهم معه وهم يخلصون إليكم إذا شاءوا فيناوشونكم في سفنهم وليس وراءكم شيء تخافون أن تؤتوا منه فقد كفاكم أهل الأيام وعطلوا ثغورهم وأفنوا ذادتهم. وقد رأيت من الرأي أن تبادروا و جهاد العدو بنياتكم قبل أن تحصركم الدنيا. إلا أني قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم. فقالوا جميعاً: عزم الله لنا ولك على الرشد. ثم انتدب الناس ليحموا الفِراض حتى يعبر الناس ويتلاحقوا حتى لا يمنعهم الفرس العبور فانتدب أنجاد الناس وأولهم عاصم بن عمرو ذو البأس وانتدب معه ستمائة من أهل النجدات فجعل عاصماً عليهم فصار بهم عاصم وانتدب منهم ستون ليكونوا أولين. فاقتحموا دجلة بخيلهم ورآهم الفرس فاقحموا خيلهم دجلة ليلاقوهم ويمنعوهم فلقوا عاصماً في السرعان فصاح عاصم: الرماح الرماح، أشرعوها وتوخوا العيون. فطعنوهم في أعينهم فمن لم يقتل منهم صاروا عوراناً فساحلوا بخيلهم فلم تصل إلى الشاطيء حتى ولت مدبرة وملك الستون الفراض وتلاحق سائر الستمائة ثم اقتحم المسلمون دجلة حتى ضاروا بالعدوة الشرقية مع الفرس. والذي يظهر أن الفرس باحتوائهم السفن كانوا آمنين أن يعبر إليهم المسملون في زمن قريب. وأن ذلك لا يكون إلا بعد أن يحصلوا على سفن يجيزون فيها إليهم، فلم يكن بالقوم استعداد للقائهم في ذلك الحين ولا على تلك الحال. فأجهضهم المسلمون وأعجلوهم عن جمهور أموالهم واقتحموا عليهم مدينتهم على هذا الوجه واستولوا على كل ما بقي في بيوت كسرى من الأموال.

وقد قال الطبري: فيما هيج سعداً على دعاء الناس لعبور دجلة ـ إن علجاً فارسياً أتى سعداً فقال ما يقيمك؟ لا يأتي عليك ثالثة حتى يذهب يزدجرد بكل شيء في المدائن.

والذي يفهم من ذلك أن سعداً كان على ثقة من أن القوم قد يئسوا من المقام في المدائن وأن حاميتهم لا تصلح للمقاومة، وإلا كان عمله مخاطرة لا تصح من قائد حريص ولا تلتئم مع تحذير عمر له ذلك التحذير الذي علمناه.

كان يزدجرد قد أحس سوء الحال فرحل عياله إلى حلوان حين فتحت بهرسير. ولما علم بعبور المسلمين خف حتى لحق بعياله وخلف مهران الرازي والنخيرجان وخرجوا معهم بما قدروا عليه من حر متاعهم وخفيفه وما قدروا على استخلاصه من بيت المال والنساء والذراري وتركوا في الخزائن من الثياب والمتاع والآنية والفضول والألطاف والأدهان شيئاً لا تعلم قيمته لكثرته وغادروا ما أعدوا للحصار من البقر والغنم والأطعمة والأشربة. وكانت كتيبة الأهوال أول داخل المدينة وهي كتيبة عاصم بن عمرو ثم الخرساء، وهي كتيبة القعقاع بن عمرو وحمّال بن مالك والربيل بن عمرو ـ فأخذوا في سككها لا يجدون أحداً إلا من كان بالقصر الأبيض. وقد استجابوا على الذمة وقد نزل سعد القصر الأبيض. وصلى فيه صلاة الفتح وجعله مسجداً ودخله وهو يقول: **﴿كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين، كذلك وأورثناها قوماً آخرين، فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين﴾**[1].

في مثل هذا الدخول الفجائي الذي دخل به المسلمون مدائن كسرى، وبخاصة إذا كان بحالة غريبة، يستولي الفزع على الأفئدة وتجيش النفوس إلى الفرار ومفارقة الديار. ولكن كثيراً ممن يستولي على نفوسهم الهلع ويجلون عن أوطانهم لا يذهبون بعيداً عنه حتى تضيق الدنيا في وجوههم وتحرج صدورهم

---

(١) سورة الدخان: الآية ٢٥

وتعمى عليهم السبل ثم تنازعهم نفوسهم إلى مألفهم القديم ثم لا يلبثون أن يعودوا، ولاسيما إذا عرفوا أن من ملأ الخوف قلوبهم منه وظنوه فتاكاً لا يأخذ الناس بعنف ولا يسوسهم بعسف، بل يبسط المعدلة ويتوخى حسن السيرة. فإنهم حينئذ يعودون إلى وطنهم ويثوب إليهم رشدهم. كذلك كان حال أهل المدائن فإنهم تراجعوا إلى مدينتهم ودخلوا في ذمة المسلمين إلا من كان من آل كسرى ومن معهم.

ثم جمع سعد ما وجد في خزائن كسرى من الأموال والغنائم فكان شيئاً كثيراً فخمسه وقسم أربعة الأخماس على المقاتلين، فكان نصيب الفارس اثني عشر ألف درهم. وهو شيء لم يكن أحد من العرب يظن أن يراه في منامه. وكان كل المسلمين فرساناً وبعضهم معه الجنائب. ثم قسم سعد دور المدائن على الناس وأنزلهم بها ثم جمع الخمس وأدخل فيه كل شيء أراد أن يعجب منه عمر من ثياب كسرى وحليه وسيفه وما كان يعجب العرب أن يقع إليهم وكان في ما أرسله إلى عمر أيضاً بساط ذرعه ستون ذراعاً في مثلها فيه طرق كالصور وفصوص كالأنهار وخلال ذلك كالدير وفي حافاته كالأرض المزروعة والأرض المبقلة بالنبات في الربيع من الحرير على قضبان الذهب. وقواره بالذهب والفضة وأشباه ذلك ـ فلما قسم سعد الفيء في العسكر فضل هذا البساط عنهم ولم تستقم قسمته. فجمع سعد المسلمين فقال: « إن اللّه قد ملأ أيديكم وقد عسر قسم هذا البساط ولا يقوى أحد على شرائه، فأرى أن تطيبوا به نفساً لأمير المؤمنين يضعه حيث شاء. ففعلوا. فلما قدم البساط على عمر بالمدينة جمع الناس واستشارهم. فمن مشير بقبضه وآخر مفوض إليه وآخر مرقق. فقام عليٌّ حين رأى عمر يأبى حتى انتهى إليه فقال: لِمَ تجعل علمك جهلاً ويقينك شكّاً؟ إنه ليس لك من الدنيا الا ما أعطيت فأمضيت أو لبست فأبليت أو أكلت فأفنيت. قال: صدقتني، فقطعه وفرقه في الناس ـ وفي رواية أخرى أنه قال له: يا أمير المؤمنين الأمر كما قالوا ولم يبق إلّا التروية. إنك إن تقبله على هذا اليوم لم نَعدم

في غد من يستحق به ما ليس له. فقال: صدقتني. وقد أصاب علياً قطعة منه فباعها بعشرين ألفاً وما هي بأجود تلك القطع[1]

ونوى سعد الإقامة بالمدائن وصلى فيها صلاة المقيم وأول جمعة صليت في العراق كانت بالمدائن في صفر سنة ١٦ هـ. ثم بث السرايا تغير فيها حول المدائن في الوجوه كلها. وصدر الأمر من عمر بولاية سعد بن أبي وقاص صلاة ما غلب عليه وحَرْبه وولى النعمان وسويد بن عمرو الخراج أولهما على ما سقت دجلة وثانيهما على ما سقى الفرات. ولما جيء إلى عمر بتلك الأخماس من الغنيمة وفيها زينة كسرى وتاجه وحلاه وأزياؤه التي كان يلبسها للمباهات وبساطه، أكثر الناس الكلام في فضل أهل القادسية وحق لهم أن يكثروا، فقال عمر: أولئك أعيان العرب وغررها اجتمع لهم مع الأخطار الذين هم أهل الأيام وأهل القوادس.

يقول ابن الأثير: كان في بيت المال ثلاثة آلف ألف ألف ألف ثلاث مرات أخذ منها رستم عند سيره إلى القادسية النصف وبقي النصف.

والذي أراه أن هذا المقدار يزيد على عشرات المقدار الذي كان موجوداً لأنه يقتضي أن يكون في خزائن كسرى ثلاثة آلاف بليون وهو مقدار لا يمكن أن يتفق مثله لدولة في ذلك العهد مهما كان عمرانها مستبحراً وخراجها وافراً.

وما لنا وللكلام؟ لابد أن نرجع إلى الأرقام فإنها لا تكذب.

قال ابن الأثير نفسه: إن سهم الفارس بلغ في المدائن اثني عشر ألف درهم وكان المسلمون جميعاً فرساناً، فإذا فرضنا أن المسلمين كان عددهم في ذلك اليوم هو عددهم يوم القادسية بزيادة الربع كان عدد المسلمين الذين كان لهم حظ من غنيمة المدائن ستين ألفاً.

---

(١) لم يكن من شأن العرب الإحتفاظ بمثل هذه الذخائر. ولو أنهم من أهل هذا العصر المقدرين للآثار والنفائس قدرها لاحتفظوا به على الدهر.

فعلى ذلك يكون عدد النقود التي قسمت على الغانمين ٧٢٠ مليوناً.

فإذا أضيف إلى ذلك الخمس (١٨٠ مليوناً) كان مجموع ذلك ٩٠٠ مليون.

وإذا كان رستم أخذ مقداراً مساوياً له كان ما في الخزائن من قبل ١٨٠٠ مليون. وبعبارة أخرى بليوناً واحداً وثمانمائة مليون. فأين هذا من ثلاثة ترليونات وهو يزيد عما أدى إليه الحساب مع التساهل ترليونان وثمانية وتسعون بليوناً ومائتا مليون.

ما جمع من غنائم أهل المدائن وقسمتها

كان سعد قد جعل على الأقباض عمرو بن عمرو بن مقرن وعلى القسمة سليمان بن ربيعة الباهلي فجمع ما في القصر والإيوان والدور وأحصى ما يأتيه به الطلب وكان أهل المدائن قد نهبوها عند الهزيمة وهربوا في كل وجه، فما أفلت منهم أحد بشيء إلا أدركهم الطلب فأخذوا ما معهم. ورأوا بالمدائن قباباً تركية مملوءة سلالاً مختومة برصاص فحسبوه طعاماً فإذا فيها آنية الذهب والفضة وكان الرجل يطوف ليبيع الذهب بالفضة متماثلين ورأوا كافوراً كثيراً فحسبوه ملحاً فعجنوا به فوجدوه مراً وأدرك الطلب مع زهرة جماعة من الفرس على جسر النهروان فازدحموا عليه فوقع منهم بغل في الماء فعجلوا وأكبوا عليه فقال بعض المسلمين. إن لهذا البغل لشأناً فجالدهم المسلمون عليه حتى أخذوه وفيه حلية كسرى: ثيابه وخرزاته ووشاحه ودرعه التي فيها الجوهر وكان يجلس فيها للمباهاة ولحق الكلخ بغلين معهما فارسيان فقتلهما وأخذ البغلين فأبلغهما صاحب الأقباض وهو يكتب ما يأتيه به الرجال فقال له: قف حتى ننظر ما معك فحط عنهما فإذا سفطان فيهما تاج كسرى مرصعاً وكان لا يحمله إلا الإسطوانيان وفيه الجوهر وعلى البغل الآخر سفطان فيهما ثياب كسرى التي كان يلبس من الديباج

المنسوج بالذهب المنظوم بالجوهر وغير الديباج منسوجاً منظوماً وأدرك القعقاع بن عمرو فارسياً وأخذ منه عيبتين في إحداهما خمسة أسياف وفي الأخرى ستة أسياف وأدرع منها درع كسرى ومغافره، ودرع هرقل ودرع خاقان ملك الترك ودرع داهر ملك الهند ودرع بهرام جوبين ودرع سياوخش ودرع النعمان استلبها الفرس أيام غزاهم خاقان وهرقل وداهر.

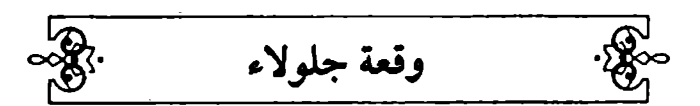
وأما النعمان وجوبين فحين هربا من كسرى - والسيوف من سيوف كسرى وهرمز وقباذ وفيروز وهرقل وداهر وبهرام وسياوخش والنعمان فأحضر القعقاع الجميع عند سعد فخيره بين الأسياف فاختار سيف هرقل وأعطاه درع بهرام ونفل سائرها في الخرساء إلا سيف كسرى والنعمان بعث بهما إلى عمر بن الخطاب لتسمع العرب بذلك. حسبوها في الأخماس وبعثوا بتاج كسرى وحليته وثيابه إلى عمر ليراه المسلمون وأدرك عصمة بن خالد الضبي رجلين معهما حماران فقتل أحدهما وهرب الآخر فأخذ الحمارين فأتى بهما صاحب الأقباض فإذا على أحدهما سفطان في أحدهما فرس من ذهب بسرج من فضة وعلى ثفره ولباته الياقوت والزمرد المنظوم على الفضة ولجام كذلك وفارس من فضة مكلل بالجوهر. وفي الآخر ناقة من فضة عليها شليل من ذهب وبطان من ذهب ولها زمام من ذهب وكل ذلك منظوم بالياقوت، وعليها رجل من ذهب مكلل بالجواهر. وكان كسرى يضعها على اسطوانتي التاج.

وأقبل رجل بحق إلى صاحب الأقباض فقال هو والذي معه ما رأينا مثل هذا ما يعدله ما عندنا ولا يقاربه. فقالوا: هل أخذت منه شيئاً؟ فقال: والله لولا الله ما أتيتكم به. فقالوا: من أنت؟ فقال: والله لا أخبركم فتحمدوني ولكني أحمد الله وأرضى بثوابه فاتبعوه رجلاً فسأل عنه فإذا هو عامر بن عبد قيس. وقال سعد: والله إن الجيش لذو أمانة ولولا ما سبق لأهل بدر لقلت إنهم على فضل أهل بدر. لقد تبعت منهم هناة ما أحسبها من هؤلاء.

وقال جابر بن عبد الله: والذي لا إله إلا هو ما أطلعنا على أحد من أهل

القادسية أنه يريد الدنيا مع الآخرة فلقد اتهمنا ثلاثة نفر فما رأينا كأمانتهم وزهدهم وهم طليحة وعمرو بن معد يكرب وقيس بن المكشوح.

وقال عمر لما قدم عليه بسيف كسرى ومنطقته وبزبرجده: إن قوماً أدوا هذا لذوو أمانة. فقال علي. إنك عففت فعفت الرعية. فلما جمعت الغنائم قسم سعد الفيء بين الناس بعد ما قسمه وكانوا ستين ألفاً فأصاب الفارس اثني عشر ألفاً وكلهم كان فارساً ليس فيهم راجل.



وقعة جلولاء

قال ياقوت: طسُّوجٌ من طساسيج السواد في طريق خراسان بينها وبين خانقين سبعة فراسخ، ثم حكاه بالقصر والمد في قول القعقاع:

ونحن قتلنا في جلولا أثابراً ومهران إذ عزت عليه المذاهب
ويوم جلولاء الوقيعة أفنيت بنو فارس لما حوتها الكتائب

وسبب هذه الوقعة أن الفرس لما انتهوا إلى جلولاء في هربهم من المدائن إلى هذا الموضع وافترقت الطرق بأهل أذربيجان والباب وأهل الجبال وفارس - ويظهر أن جمهور جيش الفرس كان مجتمعاً من هذه الأقاليم فقال رؤوس القوم: إنا إذا افترقنا لم نجتمع أبداً وهذا مكان يفرق بيننا. فهلموا فلنجتمع للعرب ولنقاتلهم، فإن كان الظفر لنا فذاك الذي نحب، وإن كانت الأخرى نكون قد قضينا الذي علينا.

ويظهر أن القوم في هذه المرة كانوا قد وطنوا أنفسهم على الاستماتة في القتال وصدق الحملة فاجتمعوا تحت إمرة مهران الرازي واحتفروا خندقاً حول حصنهم وأحاطوه بحسك الخشب أول أمرهم ثم استبدلوا به حسك الحديد إلا طُرُقَهُم. وعلم سعد بأمرهم فاستأمر عمر فأمره أن يسرح إليهم هاشم بن عتبة في اثني عشر ألفاً وأن يجعل على مقدمته القعقاع بن عمرو. فسار هاشم في

جيشه وفيه وجوه المهاجرين والأنصار وأعلام العرب ممن كان ارتد وممن ثبتوا على إسلامهم إلى أن نزل على الفرس بمكانهم هذا.

كاتب الفرس كسرى يزجرد وهو بحلوان يعلمونه بأمرهم الذي أجمعوا عليه فأمدهم بالأموال والرجال وجعل يستنفر الفرس فيما يليه وكلما اجتمع إليه جند بعثهم إليهم مدداً. وقد عزم الفرس على المطاولة لا يخرجون إلى القتال إلا إذا شاءوا والمسلمون محيطون بحصنهم فزاحفهم المسلمون ثمانين زحفاً وهم في كل مرة ينالون من الفرس. وأمد سعد المسلمين فلما رأى الفرس أن الأمداد متواصلة إلى عدوهم خافوا أن يصير المسلمون إلى حال قوة يضعف الفرس عن منازلتهم معها وذلك أن الفرس كانوا أكثر من محاصريهم أضعافاً كثيرة وازدياد المدد على المسلمين يغير من تلك الحال فاعتزموا على القتال وتقاسموا بالنار على أن لا يفروا وجعلوا في الخندق من ناحيتهم طرقاً لخيلهم فأفسدوا بذلك حصنهم ثم خرجوا للقتال فاقتتلوا قتالاً شديداً لم يقاتلوا المسلمين مثله في موطن من المواطن حتى أنفدوا ما معهم من نَبل ونُشاب وأطعنوا بالرماح حتى تقصفت ثم صاروا إلى السيوف والطَّبرزينات فكانوا على هذه الحال صدر نهارهم إلى الظهر، وصلى المسلمون إيماء وقد كلَّ المسلمون وبلغ التعب بهم أشده. فجاء القعقاع بن عمرو إلى الناس فقال: « أهالتكم هذه؟ قالوا: نعم، نحن كالون وهم مريحون والكال يخاف العجز إلا أن يعقب. فقال: إنا حاملون عليهم ومجادّوهم وغير كافين عنهم حتى يفتح اللّه بيننا وبينهم. فاحملوا حملة رجل واحد حتى تخالطوهم ولا تكذبن. ثم حمل وحملوا معه فانفرجوا فما ذب أحد عن باب الخندق وألبسهم الليل سواده فأخذوا يمنة ويسرة وجاء إلى المسلمين أمداد فيهم طليحة وقيس بن المكشوح وعمرو بن معد يكرب وحُجر بن عدي فوافقوا القوم وقد تحاجزوا لما أجنهم الليل، غير أن القعقاع لم يكف بل أمر مناديه أن يقول يا معشر المسلمين هذا أميركم قد دخل الخندق. وقصد أن يقويهم بذلك فحملوا لا يشكون أن هاشماً في الخندق فإذا هم بالقعقاع قد أخذ به وانهزم الفرس يمنة

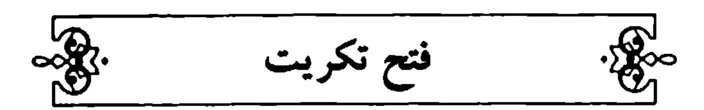
ويسرة فوقعت خيلهم فيما أعدوا من الحسك فعقرت وصاروا رجالة. واتبعهم المسلمون فلم يفلت منهم إلا عدد يسير وذهب جمع الفرس طعمة للسيف وصاروا مصرعين في المجالات وتلك النواحي حتى تجللت الأرض بهم.

وصار القعقاع في طلب الفالّة حتى وصل إلى خانقين وقتل بها مهران ثم أخذ ناحية حلوان في جيش من الأفناء والحمراء. فوجد الملك يزدجرد قد أجفل منها إلى الري عندما بلغه خبر الهزيمة بحلولاء فنزل القعقاع بحلوان وكانت هذه الوقعة في ذي القعدة سنة ١٦ هـ. ولم يلق القعقاع كبير قتال دون حلوان وبقي بها إلى أن تحول سعد إلى الكوفة أما غنائم جلولاء، وما سباه المسلمون من النساء والذرية فكان شيئاً يخرج عن الوصف فكانت سهام المقاتلة تسعة آلاف وتسع دواب وفي رواية اثني عشر ألفاً. وأما السبي فكان شيئاً كثيراً من أحرار فارس حتى أن عمر استعاذ باللّٰه من ذرية سبي جلولاء.

ولما ذهب الخمس إلى عمر كان على حسابه زياد بن أبيه. فقص على عمر أخبار الوقعة وما كان فيها من الأهوال وما فتح اللّٰه على المسلمين. فقال له عمر: هل تستطيع أن تقوم في الناس بمثل ما كلمتني به؟ فقال: واللّٰه ما على وجه الأرض شخص أهيب في صدري منك فكيف لا أقوى على هذا من غيرك؟ فقام زياد في الناس وقص عليهم ما فتح اللّٰه عليهم وما كان منهم في حربهم وما صنعوا وما يستأذنون فيه من الانسياح في بلاد عدوهم فأحسن في ذلك ما شاء اللّٰه أن يحسن. فقال عمر: هذا الخطيب المِصقَع. فقال زياد: «إن جندنا أطلقوا بالفعال لساننا» وكان زياد شاباً حدثاً في ذلك الوقت.

ثم كتب عمر إلى سعد بإقرار الفلاحين على حالهم إلاّ من حارب أو هرب منك إلى عدوك فأدركته وأجر لهم ما أجريت للفلاحين من قبلهم وإذا كتبت إليك في قوم فأجروا أمثالهم مجراهم، ثم كتب إليه سعد في غير الفلاحين. فكتب إليه «أما من سوى الفلاحين فذلك إليكم ما لم تغنموه - يعني قسمته - ومن ترك أرضه من أهل الحرب فخلاها فهي لكم فإن دعوتموهم وقبلتم منهم الجزاء

ورددتموهم قبل قسمتها فذمة، وإن لم تدعوهم ففيء لكم لمن أفاء اللّٰه ذلك عليه.

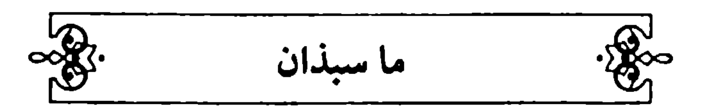


فتح تكريت

علم سعد أن الفرس قد جمعوا جموعاً بتكريت اجتمعوا من الموصل، فسرح إليهم عبد اللّٰه بن المعتم في جيش قوامه خمسة آلاف. فسار أربعاً حتى نزل على تكريت وفيها جموع الفرس ومعهم جموع من الروم وإياد وتغلب والنمر وقد خندقوا بها فحصرهم بها أربعين يوماً وقد تزاحفوا أربعة وعشرين زحفاً وكانوا أهون شوكة وأخف أمراً من أهل جلولاء. ولما أحس الروم أنهم لا يخرجون مرة إلا نال منهم المسلمون تركوا أمراءهم ونقلوا أمتعتهم إلى السفن ورأى العرب الذين معهم ذلك وعلموا أن القوم منفض جمعهم عنهم وأنهم لا يقوون على المسلمين بعد ذلك، فجاءت العيون من أياد والنمر وتغلب إلى عبد اللّٰه بن المعتم بالخبر وسألوه السلم للعرب فدعاهم إلى الإسلام فاستجابوا له سرّاً واتفق معهم على أن يأخذوا على القوم الأبواب من ناحية النهر إذا أخذها بجنده من ناحية البر. ففعلوا. ونهد المسلمون لما يليهم وكبروا علامة ما بينهم وبين مسلمة ليلتهم فأخذ جنود الفرس والروم من كل ناحية ولم ينج إلا من أسلم في تلك الليلة من العرب.

ولم يلبث عبد اللّٰه بن المعتم أن أرسل إلى الحصنين قوة ممن معه عليها الأفكل العنزي إلى الحصنين وبها جموع من فارس. وقال له: اسبق الأخبار وسر ما دون القيَلْ أَحْيِ الليل. وسرح معه من كان مع الفرس بتكريت من إياد والنمر وتغلب فقدمهم وعليهم عتبة بن الوعل وغيره من أمرائهم فادعى عتبة بالظفر والنفلَ والْقَفَل ثم جاء من بعده من أمرائه حتى أخذوا الأبواب وأقبلت سرعان الخيل مع ربعي بن الأفكل فاقتحموا الحصنين فأجاب من استجاب

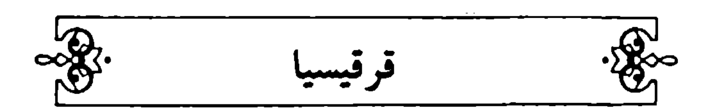
وهرب من لم يستجب ثم عاد القوم وتراجع الهراب واغتبط المقيم وصاروا جميعاً ذمة ولهم المنعة.



ما سبذان

ماسَبَذَان عن يمين حلوان إلى همذَان.

وأرسل سعد بن أبي وقاص فصيلة أخرى من المدائن يقودها ضرار بن الخطاب لفتح ماسبذان. وذلك أنه قد بلغ سعداً أن أذين بن الهرمزان قد جمع جمعاً فخرج بهم إلى السهل فأرسل إليه ذلك الجيش فالتقى ضرار بن الخطاب بمن معه بالفرس فأخذ أذين وضرب عنقه وشتت شمل جيشه وأثخن فيهم القتل ثم خرج في طلب الفالّة حتى انتهى إلى سيروان فأخذت ماسبذان عنوة فتطاير أهلها في الجبال ثم عادوا وصاروا ذمة للمسلمين وعليهم الجزاء.



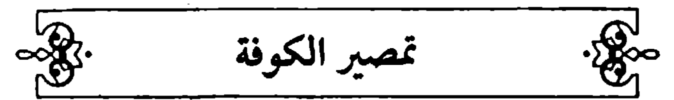
قرقيسيا

بلدة على نهر الخابور وهو يصب في الفرات، فهي بين الخابور والفرات.

كان سبب هذه الغزوة أنه لما رجع هاشم بن عتبة عن جلولاء اجتمعت جموع أهل الجزيرة فأمدوا هرقل بجند يساعدونه على أهل حمص وبعثوا جنداً إلى أهل هيت. فوجه إليهم سعد عمر بن مالك بن عتبة بن نوفل بن عبد مناف في جند وعلى مقدمته الحارث بن يزيد العامري في غيره من القواد فسار عمر حتى نزل على هيت وقد خندق من بها عليهم خندقاً واعتصموا به - فلما رأى عمر امتناع القوم خشي أن يطول عليه الأمد. فخرج في نصف الجند وكتم خروجه عن الأعداء وأمر أن لا يقوضوا خيامهم حتى لايعلم الأعداء بقلة المسلمين المحاصرين لهم ثم خلف على من أقام الحارث بن يزيد وذهب هو بمن معه حتى نزل على قرقيسيا على حال غرة من القوم لا يشعرون به فأخذها عنوة. فطلب

أهلها أن يقيموا على الجزاء فرضي منهم بذلك. فلما رأى من بهيت ذلك جزعوا. وكتب عمر إلى الحارث يقول له: إنهم إن استجابوا فخل عنهم فليخرجوا، وإلا فخندق عليهم خندقاً يحيط بخندقهم وأبوابه مما يليك حتى أرى رأيي. فسمحوا بالإجابة وانضم الجند إلى عمر، والأعاجم إلى أهل بلادهم.

بعد هذا صار السواد كله في يد المسلمين فمهدوا طريق إدارته وأقاموا الجنود مرابطة في الثغور بينهم وبين الجبال فكان الفلاحون للطرق والجسور والحرث والدلالة مع الجزاء عن أيديهم على قدر طاقتهم. وكانت الدهاقين للجزية عن أيديهم والعمارة، وعلى كلهم الإرشاد وضيافة ابن السبيل من المسلمين وأما من أفاء الله عليهم البلاد فالضيافة كانت لهم خاصة ميراثاً. وكان في صلح عمر لهم أنهم إن غشوا المسلمين لعدوهم برئت منهم الذمة وإن سبوا مسلماً أن ينهكوا عقوبة وإن قاتلوا مسلماً أن يقتلوا وعلى عمر منعتهم وبريء عمر إلى كل ذي عهد من معرة الجيوش.



تمصير الكوفة

لما فتح على المسلمين ما فتح من العراق وفارس أوطن المسلمون بمختلف البلدان عنها ـ وكان كل أمير على ناحية يبعث بالوفود إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ فكان عمر يرى في أوجه من يرد عليه تغيراً فقال لهم والله ما هيئتكم بالهيئة التي أبدأتم بها ولقد قدمت وفود القادسية والمدائن وإنها لكما أبدؤوا فما غيركم؟ فأجابه القوم بأن وخومة البلاد قد أثرت فيهم هذا الأثر وأراد عمر أن يتعرف الأسباب التي أثرت فيهم هذا الأثر وأهمه ذلك فكتب إلى سعد يسأله عن ذلك الذي غير ألوان العرب ولحومهم، فكتب سعد إليه يقول: إن العرب خددهم وكفى ألوانهم وخومة المدائن ودجلة. فكتب إليه عمر إن العرب لا يوافقها إلا ما وافق إبلها من البلدان فابعث سلمان رائداً وحذيفة ـ وكانا رائدي الجيش ـ ولم يكن أمر في الجيش إلاّ أسند إلى من يقوم به ـ فليرتادوا منزلاً برياً

بحرياً ليس بيني وبينكم فيه بحر ولا جسر ـ فبعثهما لذلك فسارا مرتادين غربي الفرات حتى أتيا موضع الكوفة وهو حصباء ورمل مختلطان فأعجبتهما وفيها أديار ثلاثة: دير حُرَّمَة ـ دير أم عمرو ـ دير سلسلة. وبينهما خصاص خلال ذلك. فنزلا فيها وصليا ودعوا ثم كتبا إلى سعد بالخبر فأبلغه عمر: فأمره أن يسير بالجنود. فطلب سعد إلى أمراء الجنود بالثغور أن يستخلفوا عليها ويقفلوا إليه ففعلوا وارتحل سعد بالناس حتى عسكر بالكوفة في المحرم سنة ١٧ هـ (يناير سنة ٦٣٨) وكان بين وقعة المدائن ونزول المسلمين بالكوفة سنة وشهران. وقد ترك سعد من رضي بالإقامة بالمدائن ليكونوا مَسْلَحَة للمسلمين في نواحيهم.

كان عمر يريد ممن نزلوا الكوفة أن يكونوا في خيامهم لأن ذلك أسرع في انتقالهم إذا مست الحاجة إلى ذلك وليكون ذلك أهيب في عين عدوهم وأدعى إلى إحجامه عن أمر يهم به إن كان في رأسه شيء من ذلك. ثم بعد ذلك استأذنوه في اتخاذ البيوت من القصب فأذن لهمّ في ذلك بعد أن عرفوه أنه هو العكرش إذا روى.

ثم أصاب الكوفة بعد ذلك حريق أتى على ثمانين بيتاً فاستأذنوه في البناء باللبن فأذن فيه وقال افعلوا ولا يزيدن أحدكم إلا على ثلاثةأبيات (حجرات) ولا تطَاولوا في البنيان والزموا السنة تلزمكم الدولة. فرجع المستأذنون إلى الكوفة بذلك وكتب إلى أهل البصرة بمثله. وكان على تنزيل الكوفة أبو هَيَّاج بن مالك وعلى تنزيل البصرة عاصم بن دُلفً أبو الجرباء. وقد قدر عمر لهما المناهج أربعين ذراعاً وما بين ذلك عشرين ذراعاً والأزقة سبع أذرع والقطائع ستين ذراعاً. وأول شيء خطه فيهما وبنى المسجدان مسجد الكوفة ومسجد البصرة وقام في وسطهما رجل شديد النزع فرمى في كل جهة بسهم وأمر أن يبني فيما وراء ذلك وبنى ظُلّة في مسجد الكوفة على أساطين رخام في مقدمته كانت في بعض أبنية الأكاسرة بالحيرة وبنوا لسعد داراً بحيال المسجد وهي قصر الكوفة بينها وبين المسجد طريق منتصب بناها روزبة من آجر بنيان الأكاسرة بالحيرة: وجعل

الأسـواق على شبـه المساجـد من سبق الى مقعد فهـو له حتى يقـوم منـه إلى بيتـه ويفرغ مما معه.

بلغ عمر أن سعداً قال وقد سمع أصوات الناس من الأسواق سَكِّنـوا عن الصُّوَيت وإن الناس يسمونه قصر سعد فبعث محمد بن مسلمة إلى الكوفـة وأمره أن يحرق باب القصر ثم يرجع. فحـرق باب القصر واستـدعاه سعـد فلم يفعل فخرج إليه وعـرض عليه نفقـة فأبى وبلغـه كتاب عمـر إليه وفيـه: « بلغني أنك اتخذت قصراً جعلته حصناً ويسمى قصر سعد. بينك وبين الناس بـاب. فليس بقصرك ولكنه قصر الخبال. انزل منه مما يلي بيوت الأموال واغلقه ولا تجعـل على القصـر باباً يمنع الناس دخوله» فحلف له سعد ما قال الذي قالـوا فرجـع محمد فأبلغ عمر وصدقه.

كأني بصائحـين يصيحون مـا هذا الحـرَدَ الذي استفـز عمر إلى أن يـزعج، محمد بن مسلمة ويكلفه أن يذرع ما بين المـدينة والكـوفة لإحـراق باب قصر أو باب بيت اتخذه أمـير ليكون حجـاباً بينـه وبين من لا يـروق منظره ومن لا يحب مقابلته؟ وهل يريـد عمر أن يسكن النـاس في القبور وهـم أحيـاء؟ ومن ذا الذي حرم زينة اللّه التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق؟ وأي حرج على الناس إذا استـطالوا في البنـاء وجملوا دورهم بما تتسـع لـه حـالهم التي صـاروا إليهـا؟ ومن المعلوم عند علماء الإقتصاد أنه إذا لم يوجـد في الناس أهـل الثراء الـذين يروقهم تأثّل القصور واتخاذ الشامخ من البنيان والرائع من الزينة والـزخرف لا يمكن أن يكون للأمة لاقي ولا يوجد فيها من يتعـاطى الفنـون الجميلة فضلاً عن البـراعة فيهـا. فكيف يضيق عمر عـلى الناس واسعـاً ولا يـأذن لهم في اتخـاذ البنيـان من اللبن إلا بعد مؤامرة ثم هو بعد ذلك يأمـرهم بعدم الاستـطالة في البنيـان وذلك تعطيل للفنون الجميلة ومعارضة لرقي الأمم الذي هو الغاية من العمران؟

أما أنا فأعرض عن أولئك الصائحين ـ وإنما أقول لكم ـ إن القوم على أثر من رسالة قد بهرتهم عجائبها وفي عقب نبوة قد أخذت بنواصيهم وعـلى بينة من

دين استغـرق أفئدتهم وملك عليهم مشـاعـرهم وهم حـديثـو عهـد بـأخـوّة قـد أحكمت عـراها واستحصـدت مِرَّتهـا ولم تنجل عن قلوبهم تلك الـروعـات التي كـانوا يسمعـونها في قولـه تعالى: ﴿إنمـا المؤمنـون إخـوة﴾[1] وفي قـولـه تعـالى: ﴿فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾[2] وهذه يد عمر لم تغتسل من دماء الأعاجم والروم الذين كانوا يتخذ بعضهم بعضـاً أربابـاً من دون اللّه وملوكهم يتخذون المصـانع الشامخة والقصور المزخرفة فغرتهم الحياة الدنيا وسوغوا لأنفسهم استعبـاد الرعيـة وتسخير الكافة في توفير لذاتهم وشهـواتهم فأدال اللّه منهم هؤلاء القـوم وهـم على حـال أخوة وتـواس فيما بينهم لا مِيـزَة لأحد منهم عـلى الآخـر إلا بحسن البـلاء أكرمهم عند اللّه وفيما بينهم أتقاهم لم تَبهرهم الدنيـا بزخـرفها ولم تختلب قلوبهم بنقشها ورقشها. فمثل عمر يخشى أن يغمس أمثال سعد بن أبي وقاص ومن على شاكلته أيديهم فيما غمست فارس والروم أيديهم فيه فيديل اللّه من أهل الإسلام كما أدالهم من جيرانهم بالأمس.

واتخاذ الأبواب دون الأمير وصعوبة الوصول إليه أمر لم تجربه عادة العـرب ولم يألفوه فيما بينهم إلى اليوم وعمر يخشى أن يكون مبدأ جبرية يقترفها سعد تحت ظل ويأخذ الناس بها باسمه سرت إليـه من أهل فـارس. إذا رخص له عمـر في أخذ الناس بها كان شريكاً له في إثمها ومسـاهماً لـه في جزائهـا. وهم إنما كـانوا يعيرون العجم بالأمس ويحجـونهم بمثل مـا يتخوف عليهم عمـر مغبتة اليـوم ولا يحسن في القالة أن يكونوا ممن يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم.

إن الأمر الذي أخذ به سعداً مما تَطرَب له قلوب أهل الإشتراكيـة المعتدلـة وتصغي إليه مسامع الفئات التي تنشد المساواة وتخفيف ويلات الإنسانيـة وتطهـير المجتمـع من أدران المدنيـة الجائـرة القاسيـة وتعبس له وجـوه أهل الأثـرة وعبـاد الأنانية ومن يؤلهون الأبهة ويقدسون الخيلاء.

---

(١) سورة الحجرات: الآية ١٠

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٠٣

أما تحجيره على أهل المصرين أن يبتنوا بيوتهم في أول الأمر ثم تسويغهم ذلك على شرط القصد في البناء وعدم الاستطالة فسببه أن القوم هم جند الإسلام وأعباء الجهاد وحماة تلك النواحي وذادة الملة وهم على أهبة النجعة وعلى أوفاز للإغاثة أن دعا داع في ناحية من النواحي. والجندي إذا تأثل العقار وتبحبح في اتخاذ الدور المنجدة بأنواع الزخرف والزينة كان ذلك أدعى إلى ثِقل الجهاد على نفسه ورغبته عن مزايلة مستقر راحته وإذا أزعج من مكانه هذا إلى وجه من الوجوه أو ناحية من النواحي كان قلبه دائم الالتفات إلى ما خلف وراءه من نعيم وما فارق من مال هو عدل نفسه وشقيق رُوحه. وإني أقتصر على هذا وأترك لكم الحكم بالإنصاف في منع أمير المؤمنين وإذا استطاع واحد منكم أن يفهم الصائحين فليفعل وله الأجر.

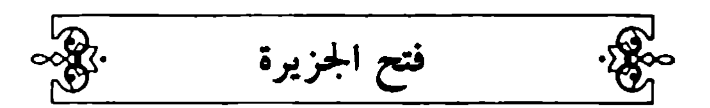
ومهما كان الشأن في ذلك. فإن عمر وضع تخطيط المصرين على قاعدة صحيحة محكمة فقد وسع طرقها وجعلها على نظام جميل وهي في شكلها العام تشبه أن تكون كحلوان في نظامها واتساع طرقها إذا قارنا بين ارتفاع الحيطان فيها وسعة المناهج والطرق لا في الرواء والزينة ـ فكانت الكوفة تجمع بين سكني المدن وهواء البادية وتربتها، وذلك أدعى إلى صحة الأجسام وجودة الهواء لأن سعة الطرق للبلاد بمثابة الرئة للجسم.

ومن المدن التي خططت على نظام أتم مدينة الخرطوم الحالية وقد قسمت درجات فما يلي النيل الأزرق الدرجة الأولى ووراءها الدرجة الثانية فالثالثة فالرابعة وهي في سعة الشوارع على هذا الترتيب.

وقد بنيت البصرة والكوفة في سنة واحدة وإن كان أهل البصرة قد نزلوها قبل ذلك وبهذا يجمع بين الأقوال المختلفة في تحديد العام الذي أسست فيه البصرة فمن قال إن ذلك كان سنة ١٤ هـ فذلك مبدأ نزولها ومن قال سنة ١٧ هـ فذلك عام تمصيرها والبناء فيها على التخطيط الذي وصفنا.

وكانت ثغور الكوفة في ذلك الزمن أربعة: حلوان وماسذان وقرقيسيا

والموصل وأميرها سعد بن أبي وقاص وكانت البصرة ثغراً له أمير خاص يعينه أمير المؤمنين. وقد صار كل من الكوفة والبصرة مركزاً حربياً تفصل منه الجنود لحرب العجم، ولكل منهما جنود خاصة ترابط فيه لحين الحاجة.



فتح الجزيرة

يراد بالجزيرة هنا ما بين دجلة والفرات من جهة الشام ويسمى جزيرة أقور وهي تشتمل على ديار مضر وديار بكر ومن أمهات مدنها حرَّان والرُّها والرُّقة ورأس عين ونصيبين وسنجار والخابور وماردين وآمد وميافارقين والموصل وغير ذلك.

وكان الذي أثار فتحها أن عرب الجزيرة قد أمدوا الروم بجموع كثيرة يعاونونهم على المسلمين الذين كانوا يقاتلون الروم بناحية حمص - فأراد عمر أن يخالفهم إلى ديارهم وبلادهم ليشغلهم في أنفسهم وأهليهم عن نصرة الروم.

وقد نقل ابن جرير الطبري خبر فتح الجزيرة فقال أول ما أذن عمر للجند بالكوفة بالانسياح أن الروم خرجوا وقد تكاتبوا هم وأهل الجزيرة يريدون أبا عبيدة والمسلمين بحمص فضم أبو عبيدة إليه مسالحه وعسكروا بفناء مدينة حمص وأقبل خالد من قنسرين وانضم إليهم فيمن انضم من أمراء المسالح فاستشارهم أبو عبيدة في المناجزة أو التحصن إلى مجيء الغياث. فكان خالد يأمره أن يناجزهم وكان سائرهم يأمرونه بأن يتحصن ويكتب إلى عمر فأطاعهم وعصى خالداً وكتب إلى عمر بخروجهم عليه وشغلهم أجناد أهل الشام عنه وقد كان عمر اتخذ على كل مصر على قدره خيولاً من فضول أموال المسلمين عُدة لكوْن إن كان. فكان بالكوفة من ذلك أربعة آلاف فرس. فلما وقع الخبر لعمر كتب إلى سعد بن مالك أن اندب الناس مع القعقاع بن عمرو وسرحهم من يومك الذي يأتيك فيه كتابي إلى حمص فإن أبا عبيدة قد أحيط به. وتقدم إليهم

بالجد والحث. وكتب إليه أيضاً أن سرح سهيل بن عدي إلى الجزيرة في الجند وليأت الرّقة فإن أهل الجزيرة هم الذين استثاروا الروم على أهل حمص وإن أهل قرقيسيا لهم سلف وسرح عبد اللّه بن عتبان إلى نصيبين فإن أهل قرقيسيا لهم سلف ثم لينفضا حران والرها. وسرح الوليد بن عقبة على عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ وسرح عياضاً فإن كان قتال فقد جعلت أمرهم جميعاً إلى عياض بن غنم. وكان عياض من أهل العراق الذين خرجوا مع خالد بن الوليد منجدين لأهل الشام وممن انصرف أيام انصراف أهل العراق ممدين لأهل القادسية وكان يرافد أبا عبيدة فمضى القعقاع في أربعة آلاف من يومهم الذي أتاهم فيه الكتاب نحو حمص وخرج عياض بن غنم وأمراء الجزيرة فأخذوا طريق الجزيرة على الفراض وغير الفراض وتوجه كل أمير إلى الكورة التي أمر عليها فأتى سهيل الرقة وخرج عمر من المدينة مغيثاً لأبي عبيدة يريد حمص حتى نزل الجابية. ولما بلغ أهل الجزيرة الذين أعانوا الروم على أهل حمص واستثاروهم وهم معهم مقيمون عن حديث من بالجزيرة منهم بأن الجنود قد ضربت من الكوفة ولم يدروا الجزيرة يريدون أم حمص؟ أجفلوا فتفرقوا إلى بلدانهم وإخوانهم وخلوا الروم. ورأى أبو عبيدة أمراً لما انفضوا غير الأول فاستشار خالداً في الخروج فأمره بالخروج ففتح اللّه عليهم. ا هـ.

وعلى هذا الوجه فتحت الجزيرة على الصلح وما جري مجراه ولم تكن بلد أيسر منها أمراً ولا أسهل منها فتحاً.

كان رسول اللّه ﷺ قد عاهد وفد تغلب على أن لا ينصروا وليداً فكان ذلك الشرط على الوفد وعلى من أوفدهم ولم يلتزمه غيرهم. فلما جاء عمر ووجه إليهم الوليد بن عقبة وأبى أن يقبل منهم إلا الإسلام حاجوه بأنهم لا سبيل عليهم لأنهم لم يعطوا عهداً بذلك ولا شأن له عليهم، فكتب الوليد إلى عمر في شأنهم فكتب إليه عمر: إنما ذلك في جزيرة العرب لا يقبل منهم فيها إلا الإسلام فدعهم على أن لا يُنَصروا وليداً واقبل منهم إذا أسلموا. فقبل منهم على

أن لا ينصرّوا وليداً ولا يمنعوا أحداً منهم من الإسلام فأعطى بعضهم ذلك فأخذوا به وأبى بعضهم إلا الجزاء فرضي منهم بما رضي من العِبّاد وتنوخ. على أن رضى القوم بالجزاء إنما كان باسم صدقة أنفة منهم أن يساموا جزية. وذلك أن الوليد أرسل رؤساءهم وديَّانيهم إلى عمر فقال لهم عمر: أدوا الجزية. فقالوا له أبلغنا مأمننا واللّه إن وضعت علينا الجزاء لندخلن أرض الروم واللّه لتفضحنا من بين العرب. فقال أنتم فضحتم أنفسكم وخالفتم أمتكم فيمن خالف وافتضح من عرب الضاحية وتاللّه لتؤدن وأنتم صَغَرَة قمأة. ولئن هربتم إلى الروم لأكتِبن فيكم ولأسبينكم. فقالوا خذ منا شيئاً لا تسميه جزاء. فقال أما نحن فنسميه جزاء وسموه أنتم ما شئتم. فقال علي بن أبي طالب: يا أمير المؤمنين ألم يُضْعف عليهم سعد بن مالك الصدقة؟ قال بلى وأصغي إليه ورضي منهم بالجزاء على أن يسمى صدقة. وكان في بني تغلب عز وامتناع وكانوا ينازعون الوليد فهم بهم وقال:

إذا ما عصبت الرأس مني بِمِشْوَذٍ فَغَيَّك مني تغلب ابنة وائل

فخاف عمر أن يحرجوه فيخرجوه إلى أن يسطو عليهم فعزله وولى عليهم سواه.



فتح الأهواز[1]

الأهواز تتاخم حدود البصرة وكان بها الهرمزان وكان من أحد بيوتات فارس وأمته بتلك الناحية فكان يغير على البلاد التي دانت لحكم المسلمين، فلما علم بذلك عتبة بن غزوان وهو بالبصرة استمد سعد بن أبي وقاص فأمده بنعيم ابن مقرن ونعيم بن مسعود في عسكر وأمرهما أن يأتيا ميسان ودستميسان حتى

(١) الأهواز مجموع كور عدها ياقوت عشراً وهي سوق الأهواز ورامهرمز وأبذج وعسكر تكرم وتستر جندي سابور وسوس وسرق ونهر تيري ومناذر. وهي مقابلة البصرة.

يكونا بينهم وبين نهر تيري وأرسل عتبة بن غزوان سلمى بن الْقينْ وحرملة بن مريطة في جند وأمرهما أن يكونا بين ميسان ودستميسان وبين مناذر. وقد دعوا بني العم بن مالك وكانوا من حاضري تلك الجهة فأجاب رؤساءهم إلى أن يكونوا عوناً للمسلمين واتفقوا على إحداث ثورة بمناذر ونهر تيري والهرمزان يومئذ بين نهر تيري وبين دلث. فلما التقت جيوش المسلمين بجيوش الهرمزان واشتد القتال بين الفريقين كان بنو العم قد أخذوا مناذر ونهر تيري. ففت ذلك في عضده وهزم جنده فقتل المسلمون منهم ما شاءوا وأسروا منهم عدة ثم عبر الهرمزان بمن بقي معه من دُجيلا أمام سوق الأهواز وصار دُجَيل بين المسلمين ومن معهم من بني العم وبينه ثم طلب الهرمزان الصلح فعقد معه الصلح على الأهواز كلها ومِهرجان فذق ما عدا ما فتحه المسلمون عنوة. واتخذ المسلمون مناذر ونهر تيري مسلحتين للبصرة فيهما الجنود مرابطون.

أقام بنو العم مسلحة للمسلمين بتلك الناحية. ثم شجر اختلاف بين بعض رؤساء بني العم غالب وكليب وبين الهرمزان على حدود الأرضين ورؤساء بني العم يومئذ سلمى وحرملة وغالب وكليب الوائليان. فقدم سلمى وحرملة لينظرا الخلاف فوجدا الهرمزان ظالماً لغالب وكليب فحالا بينه وبينهما. فنقض الهرمزان صلحه ومنع ما قبله واستعان بالأكراد فكثُف جنده وانتهى إلى عتبة بن غزوان فكتب بذلك إلى عمر فأمره أن يمدهم بجند من عنده عليهم حُرقوص بن زهير فالتقى بنوا العم وهم على ساداتهم مع جند المسلمين بجنود الهرمزان على جسر سوق الأهواز فانهزم الهرمزان وجنده وفر إلى رامهرمز وافتتح حرقوص سوق الأهواز ونزل الجبل واتسقت له بلاد سوق الأهواز إلى تَستر ووضع الجزية على أهل البلاد التي افتتحها وجد في عمارتها ثم أرسل الهرمزان في الصلح فأجابوه إلى الصلح على ما لم يفتح عنوة وهو رامهرمز وتستر والسوس وجندي سابور والبنيان ومهرجان قذق.

كان عمر يخاف أن يكون نقض أهل الذمة ما بأيديهم من العهود عن غدر

من المسلمين أو ظلم منهم لأهل الذمة فكتب إلى عتبة: أن يوفد عليه عشرة رجال من صلحاء جند البصرة. فأوفدهم وفيهم الأحنف بن قيس، فسأله عمر عن حال الجند وعن انتقاض من ينتقض بتلك الناحية أعن ظلم هو؟ فقال: لا بل لغير ظلم والناس على ما تحب فصدقه عمر فيما قال، وقال عمر - وقد رأى في ثياب الأحنف فضولاً -: خصوا وضعوا الفضول مواضعها تريحوا أنفسكم وأموالكم ولا تسرفوا فتخسروا أنفسكم وأموالكم. وكتب عمر إلى عتبة: أعزب الناس عن الظلم واتقوا الله واحذروا أن يدال عليكم لغدر يكون منكم أو بغي فإنكم إنما أدركتم بالله ما أدركتم على عهد عاهدكم عليه وقد تقدم لكم فيما أخذ عليكم فأوفوا بعهد الله وقوموا على أمره يكن لكم عوناً وناصراً.

غزو فارس من البحرين

كان المسلمون في ناحية البصرة والكوفة بإزاء الفرس وقد استقامت الأحوال في الغالب والفرس في تلك الناحية يؤدّون الخراج للمسلمين لا يدخل عليهم ولهم الذمة والمنعة. وكان عميد الصلح في تلك الناحية من البصرة الهرمزان. وكان عمر يريد الاكتفاء بما في أيدي المسلمين ويقول: وددت لو أن بيننا وبين فارس جبلاً من نار لا يصلون إلينا ولا نصل إليهم.

وكان العلاء بن الحضرمي عاملاً لعمر على البحرين وكان له ذكر وشهرة في أيام حرب أهل الردة ليست لسعد بن أبي وقاص، فلما فتح سعد العراق والفرس وظفر بالقادسية وأزاح الأكاسرة وورث المسلمين أرضهم وديارهم عفى ذلك على ما كان للعلاء من شهرة وبلاء وكان العلاء يباريه. فسر العلاء أن يبلي بلاء يكون في وزان ما صنعه سعد لئلا يذهب عليه بالشهرة والصيت.

ندب العلاء أهل البحرين إلى فارس فأسرعوا في إجابته ونزلوا عندما يسّره وفرقهم أجناداً على أحدها الجارود بن المعلي وعلى الآخر السوار بن همّام، وعلى الثالث خُليد بن المنذر بن ساوي وجعله قائداً عاماً وحملهم على السفن وأجازهم

في البحر إلى فارس دون أن يكون قد أذن لـه عمر في ذلـك ولم يستأذنـه في شيء من هذا الأمر وكان عمر يكره أن يغرر بـالمسلمين أو يجيـزهم إلى عدوهم في مـاء قبل أن يثخنوا في ناحيته ويكسروا شوكته.

عبرت تلك الجنود فخرجوا وبإزائهم أهل فارس وعليهم الهربذ فاجتمعـوا عـلى الجند وحـالوا بينهم وبـين سفنهم. فقام خليـد في النـاس فخـطبهم وحثهم وقال:

أما بعد: فإن اللّه إذا قضى أمراً جرت به المقادير حتى تصيبـه، وإن هؤلاء القوم لم يزيدوا على أن دعوكم إلى حربهم وإنما جئتم لمحاربتهم والسفن والأرض لمن غلب فاستعينوا بالصبر والصـلاة وإنها لكبيرة إلا عـلى الخاشعـين ـ فلما صلوا الظهر شبوا القتال بينهم وبين الفرس فقتل من قواد المسلمـين السوار والجـارود. وجعل خليد يـذمر القـوم ويحرضهم فـاشتد القتـال فقتل الفـرس مقتلة لم يقتلوا مثلهـا قبلها ولم يجـد المسلمون سبيـلاً إلى الرجـوع في البحر لأن الفـرس أغرقـوا سفنهم فخرجوا يريدون البصرة فوجدوا شِهرَك قد أخذ عليهم الـطرق فعسكروا وامتنعوا.

وصـل الخبر إلى عمـر فتذكـر مـا قـدم بمـا حـدث وخشي أن يصيب هـذا العسكر ما أصاب عسكر أبي عبيدة فاشتد غضبه على العلاء فعزله وكتب يتوعده وأمره بأمر يشق عليه حمله وهو: أن يلحق فيمن معه بجند سعد بن أبي وقاص. وكتب إلى عتبـة بن غزوان: أن العـلاء بن الحضرمي عمـل جنداً من المسلمـين فأقطعهم أهل فارس وعصاني وأظنه لم يرد وجه اللّه بذلك فخشيت عليهم أن لا ينصروا وأن يغلبوا وينشبوا فاندب الناس واضممهم إليـك قبـل أن يجتاحوا.

انتدب له أنجاداً من الناس كعاصم بن عمر وعرفجة بن هرثمة والأحنف ابن قيس وسواهم من أنجاد أهـل الإسلام في اثني عشر ألفـاً على البغـال يجنبون الخيـل وعبيهم أبو سبـرَة بن رُهم والمسالـح على حـالها بـالأهـواز فسـار لا يلقـاه

معارض إلى أن التقى بجيش خليد وقد كان أهل اصطخر وحدهم وشذاذ من غيرهم هم الذين أخذوا الطرق على جيش خليد. فلما أقام المسلمون بمكانهم طارت الأخبار إلى أهل فارس فطار إليهم من كل فج وناحية وتوافت إلى الفرس أمدادهم وتوافت إلى المسلمين أمدادهم كذلك فاقتتلوا قتالاً شديداً حالف المسلمين فيه الظفر ونالوا من الفرس ما شاءوا قتلاً وأسراً. وكانت هذه الغزوة سبباً فيها طار بين الناس من شرف نابتة البصرة وكانوا أفضل نوابت الأمصار وأفضل المصرين نابتة ثم انكفأوا بما أصابوا وعاد المُنْقِذُون من أهل هجر والبحرين إلى قبائلهم من البصرة.

هنا نلفت نظركم إلى خطأين. فأما أولهما: فمن العلاء بن الحضرمي لأنه أجاز جنده البحر إلى قوم لهم قوة وشوكة وليسوا بدون جنده عدداً وعدة دون أن يكون له بتلك العدوة وزر أو فئة. ولم يكن عند السفن من يمنعها من الأعداء أن يعتروها بسوء ـ فلو أن الهزيمة كانت على جنده لاستؤصلوا وكانت نكبة دونها نكبة جسر أبي عبيد.

الخطأ الثاني: ما حصل من أهل فارس بإخراج جند في قوة ومنعة وقد نال منهم. ولو أن القوم وجدوا سفنهم لأجازوا فيها وخَلَّوْا للقوم ديارهم. ولكن القوم وهم في قوة عمدوا إلى المكاشرة وامتنعوا حتى جاءهم المدد وتنقذهم ولم يُجدِهم ما صنعوه من إغراق السفن ولا أخذ الطرق عليهم، بل كانت خسارة أهل فارس مضاعفة.

ولما أحرز عتبة الأهواز وذلل الفرس في ناحيته استأذن عمر في الحج فأذن له. فلما قضى نسكه استعفاه فأبى أن يعفيه وعزم عليه ليرجعن إلى عمله فانصرف فمات ببطن نخلة فدفن به. وبلغ عمر خبره فمر به زائراً وقال: أنا قتلتك، لولا أنه أجل معلوم وكتاب مرقوم. وأثنى عليه بفضله وولى عمر بدله المغيرة بن شعبة مفتتح سنة ١٨ هـ.

فتح رامهرمز والسوس وتستر

كان يزدجرد بمرو وفي يده ما بقي من بلاد فارس وهو رقعة فسيحة كان في ميسوره أن يدبر أمرها لو قنع والقوم وادعون راضون به. وعمر بن الخطاب رضي اللّٰه عنه مقصّر للمسلمين من عنانهم لا يرضى لهم بالانسياح فيها وراءهم من فارس. غير أن اللّٰه تعالى إذا أراد أمراً يسره. فإن يزدجرد لم يسغ الغصة التي رمى بها. فلم يقر له قرار عن استرجاع بلاده فأخذ يحمس أهل فارس ويستثير حميتهم ونخوتهم ويهزهم لاستنقاذ بلادهم ومسح العار اللاحق بهم. فتحركوا لذلك. وكاتب بعضهم بعضاً ودخل أهل الأهواز في أمر فارس وتعاقدوا وتعاهدوا وتواثقوا على النصر. وجاءت الأخبار إلى عمر وإلى المسلمين بالبصرة. فكتب إلى سعد أن ابعث إلى الأهواز بعثاً كثيفاً مع النعمان بن مقرّن وعجل وابعث سويد بن مقرّن وعبد اللّٰه بن ذي السهمين وجرير بن عبد اللّٰه البجلي فلينزلوا بإزاء الهرمزان حتى يفرغوا من أمره وكتب إلى أبي موسى أن ابعث إلى الأهواز جنداً كثيفاً، وأمر عليهم سهل بن عدي وابعث معه البراء بن مالك وعاصم بن عمرو ومجزأة بن ثور وكعب بن سور وعرفجة بن هرثمة وحذَيفة بن محْصن وعبد الرحمن بن سهل والحصين بن معبد، وعلى أهل الكوفة وأهل البصرة جميعاً أبو سبرة بن أبي رهم وكل من أتاه ممداً له. فخف النعمان في أهل الكوفة على البغال يجنبون الخيل حتى انتهى إلى تيري فجاوزها ثم جاوز مناذر وسوق الأهواز قاصداً رامهرمز. فلما سمع الهرمزان بقصده طمع في نصر أهل فارس وأراد أن يقتطع النعمان ومن معه وبادره القتال بأربك وقد وردت أوائل الفرس تستر فاقتتلوا قتالاً شديداً فانهزم الهرمزان وأخلى رامَهرمز ولحق بتُستر وأخذ النعمان رامهرمز. ولما وصل أهل البصرة إلى سوق الأهواز جاءهم خبر الوقعة وأن الهرمزان لحق بتستر فمالوا نحوها وراغ النعمان إليها من رامهرمز وقصدنها المسالح التي تركوها خلفهم وكان عليها حرقوص وجزء ولحق بهم

سلمى وحرملة من بني العم ونزل جميعهم على تستر وبها الهرمزان وجنوده من أهل فارس. ثم جاء أبو موسى الأشعري مدداً للمسلمين فحاصروا الفرس أشهراً وقتل كل من البراء بن مالك ومجزأة بن ثور وكعب بن ثور وأبو تميمة ونفر سواهم في براز الفرس مائة مقاتل سوى من قتل منهم في غير براز.

وقد زاحف المسلمون الفرس في حرب تستر ثمانين زحفاً يكون ذلك لهم مرة وعليهم أخرى، فلما كان آخر زحف قال المسلمون يا برآء أقسم على ربك ليهزمنهم لنا فقال: اللهم اهزمهم واستشهدني فهزموهم واقتحموا عليهم خنادقهم ففزع الفرس إلى المدينة وأحاط المسلمون بها وقد ضاقت بهم المدينة.

وبينما المسلمون على ذلك إذ خرج إلى النعمان رجل من المدينة فاستأمنه على أن يدله على مدخل المدينة.

وقال أبو حنيفة الدينوري في الأخبار الطوال أن الرجل إنما كلم أبا موسى الأشعري وكان اسم الرجل سمينة وكان من أشراف المدينة فقال تؤمنني على نفسي وأهلي وولدي ومالي وضياعي حتى أعمل في أخذك المدينة عنوة فجعل له ذلك فقال ابعث معي رجلاً من أصحابك فندب أبو موسى الناس لذلك الوجه. فقال الأشرس بن عوف الشيباني أنا فمضى معه حتى خاض به دجيلاً ثم أخرجه في سرب حتى انتهى به إلى داره ثم أخرجه من داره وقد ألقى عليه طيلساناً وقال امش ورائي كأنك من خدمي ففعل ومر به في أقطار المدينة طولاً وعرضاً حتى انتهى به الى أحراس أبواب المدينة ثم انطلق حتى مر به على الهرمزان وهو على باب قصره ومعه ناس من مرازبته وشمع أمامه حتى نظر الرجل إلى جميع ذلك ثم انصرف إلى داره وأخرجه من السرب وعاد إلى أبي موسى فأخبره الأشرس بجميع ما رأى وقال وجه معي مائتي رجل حتى أقتل الحرس وافتح الباب فانتدب مائتي رجل مع الأشرس وسيمينة حتى دخلوا من ذلك النقب وخرجوا في دار سيمينة وتأهبوا للحرب ثم خرجوا والأشرس أمامهم حتى أتوا إلى باب المدينة وأقبل أبو موسى في جميع الناس حتى وافوا الباب من خارج فوافى

الأشرس بمن معه وقتلوا حرس الباب وضربوا القفل حتى كسروه ودخل المسلمون ووضعوا السيف فيهم وهرب الهرمزان في عظماء مرازبته حتى دخلوا الحصن الذي في جوف المدينة وامتنعوا به ولما أخرج الهرمزان طلب أن يسلم على حكم عمر يصنع به ما شاء فرضوا منه بذلك ثم ذهبت طلائع المسلمين في أتباع الفالة وأخذ ما أحاط بتستر من البلدان.

أما الرجل الذي دل المسلمين على عورة بلده فلا أدري سبب فعلته وليس من شأن الفرس هذا فهل كان له ثأر قبل الهرمزان؟ لم أقف على ذلك.

وأرسل أبو سبرة الهرمزان الى عمر فلما قدموا به الى المدينة وكان في الوفد أنس بن مالك والأحنف بن قيس، ألبسوه كسوته من الديباج الذي فيه الذهب ووضعوا على رأسه تاجاً يسمى الأزين وألبسوه حليته كيما يراه عمر.

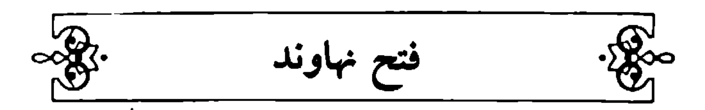
فلما دخلوا المدينة قصدوا بيت عمر فلم يجدوه فقيل لهم إنه في المسجد مع وفد جاءوا اليه فقصدوا المسجد فلم يجدوه فذهبوا يسألون عنه فقال لهم ولدان المدينة ما تلدُّدُ كم تريدون أمير المؤمنين إنه نائم في ميمنة المسجد متوسد بُرْنسه فذهبوا اليه فوجدوه كما وصفوا ودرته معلقة في ذراعه فجلسوا دونه وليس في المسجد نائم ولا يقظان غيره ـ فقال الهرمزان: أين عمر؟ فأشاروا إليه فقال: وأين حرسه وحجابه عنه؟ فقالوا: ليس له حارس ولا حاجب ولا كاتب ولا ديوان فقال: ينبغي أن يكون نبياً ـ قالوا لا بل يعمل عمل الأنبياء. وكثر الناس واستيقظ عمر على الجلبة فاستوى جالساً ثم قال: الهرمزان؟ قالوا نعم. فتأمله وتأمل ما عليه ثم قال: أعوذ بالله من النار وأستعين الله. وقال الحمد لله الذي أذل بالإسلام هذا وأشباهه. يا معشر المسلمين تمسكوا بهذا الدين واهتدوا بهدى نبيكم ولا تبطرنكم الدنيا فإنها غرارة وقال الوفد: هذا ملك الأهواز فكلمه. فقال: لا حتى لا يبقى عليه من حليته شيء فرمى بكل شيء عليه إلا شيئاً يستره وألبس ثوباً ضفيقاً. فقال عمر: هيه يا هرمزان كيف رأيت وبال الغدر وعاقبة أمر الله؟ فقال: يا عمر إنا كنا وإياكم في الجاهلية كان الله قد خلى

بيننا وبينكم فغلبنا كم إذ لم يكن معنا ولا معكم فلما كان معكم علبتمونا ـ فقال عمر: إنما غلبتمونا في الجاهلية باجتماعكم وتفرقنا ثم قال عمر: ما حجتك في انتقاضك مرة بعد مرة فقال: أخاف أن تقتلني قبل أن أخبرك. قال: لا تخف ذلك واستسقى ماء فأتى به في إناء غليظ. فقال: لو مت عطشاً ما شربت في هذا. فأتى به في إناء يرضاه فجعلت يده ترتجف وقال: أخاف أن أقتل وأنا أشرب الماء. فقال عمر لا بأس عليك حتى تشربه فأكفأه. فقال عمر: لا تجمعوا عليه بين القتل والعطش فقال. لا حاجة لي في الماء. فقال له عمر إني قاتلك. فقال آمنتني. فقال عمر كذبت، فقال أنس بن مالك صدق يا أمير المؤمنين. فقال عمر ويحك مني يا أنس أنا أؤمن قاتل البراء ومجزأة بن ثور؟ والله لتأتيني بمخرج أو لأعاقبنك. قال قلت: لا بأس عليك حتى تخبرني. وقلت لا بأس عليك حتى تشرب. وقال له من حوله مثل ذلك فأقبل عمر على الهرمزان وقال: خدعتني والله لا أنخدع إلا لمسلم فأسلم الهرمزان وفرض له عمر في العطاء على ألفين وأنزله المدينة.

والذي أعتقده أن عمر إنما أنزله المدينة ليكفي المسلمين عواقب غدر الرجل ومكره فإنه كان واسع الحيلة خداعاً كما يتبين من عمله هذا وما كان منه مع المسلمين في الأهواز. والرجل لم يترك دسائسه وهو بالمدينة حتى كان من أمره ما كان حين قتل أبو لؤلؤة المجوسيُّ عمر. ولو أنه أقام بعد عمر لتحيل حتى يرجع إلى بلاده ثم يكون له مع المسلمين شأن آخر. فإسلامه كما أعتقد إنما كان تقية ودسيسة على الإسلام والمسلمين. وقد بلغ من قوة مكيدة الرجل أن كان يتحبب إلى عمر ويوهمه أنه يخلص النصح له حتى يكسب ثقته.

خلص عمر إلى الوفد يسأل عن المسلمين وما يعاملون الناس به وخشي أن يكونوا قد اعتروا أحداً من أهل الذمة بسوء وأن يكون الانتقاض له سبب من ذلك فقال للوفد. لعل المسلمين يفضون إلى أهل الذمة بأذى وبأمور لها ما ينتقضون بكم فقالوا ما نعلم إلا وفاء وحسن ملكة. قال فكيف هذا؟ فقال له

الأحنف يا أمير المؤمنين أخبرك أنك نهيتنا عن الأنسياح في البلاد وأمرتنا بالاقتصار على ما في أيدينا وان ملك الفرس حي بين أظهرهم وإنهم لا يزالون يساجلوننا ما دام ملكهم فيهم ولم يجتمع ملكان فاتفقا حتى يخرج أحدهما صاحبه. وقد رأيت أنَّا لم نأخذ شيئاً بعد شيء إلا بانبعاثهم وأن ملكهم هو الذي يبعثهم ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا فَلْنَسِحْ في بلادهم حتى نزيله عن فارس ونخرجه عن مملكته وعز أمته. فهنالك ينقطع رجاء أهل فارس. فقال عمر صدقتني والله وشرحت لي الأمر عن حقه. ثم قدمت الكتب على عمر باجتماع أهل نهاوند على قتال المسلمين. فكان ذلك سبباً لإذن عمر للمسلمين بالانسياح في بلاد فارس.



فتح نهاوند

كان الفرس قد اجتمعوا بنهاوند من بلاد الجبل جنوبي همذان واستشار عمر الهرمزان. فقال: إن فارس اليوم رأس وجناحان فاقطع الجناحين يهن الرأس وذكر له أن الرأس بنهاوند وهو بُنْدَار فإن معه أساورة كسرى وأهل أصبهان. فقال عمر كذبت يا عدو الله بل أعمد إلى الرأس أقطعه فإذا قطعه الله لم يعص عليه الجناحان وكتب الى أبي موسى أن سر بأهل البصرة. وإلى حذيفة بن اليمان أن سر بأهل الكوفة فإذا التقيتم فأميركم النعمان بن مقرن المزني. وكتب الى النعمان «بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر أمير المؤمنين الى النعمان بن مقرن سلام عليك فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو. أما بعد. فإنه بلغني أن جموعاً من الأعاجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند فإذا أتاك كتابي هذا فسر بأمر الله وبعون الله وبنصر الله بمن معك من المسلمين ولا توطئهم وعراً فتؤذيهم ولا تمنعهم حقهم فتكفرهم ولا تدخلنّهم غيضة فإن رجلاً من المسلمين أحب إلى من مائة ألف دينار. والسلام عليك» فسار النعمان في جند المسلمين وفيهم أعيان الصحابة ووجوه العرب وأنجادهم.

فلما انتهى إلى نهاوند بث العيون ليتعرفوا له حال ناحيتها فأخبروه بأن القوم قد ألقوا حولهم الحسك وهم ممتنعون.

حط المسلمون في تلك الناحية وأنشبوا القتال مع الفرس أياماً ثم انحجزوا في خنادقهم لا يخرجون إلا إذا شاءوا. وخاف المسلمون أن يطول بهم المقام عليهم فكلموا النعمان في الأمر فجمع أهل الرأي والنجدة في الجند وأجال معهم الرأي فيما ينبغي أن يصنعه والقوم معتصمون أشد اعتصام بالحصون والخنادق والمدائن والمسلمون لا يقدرون على إنغاضهم وانبعاثهم وإنه إنما يريد أن يحمسهم ويستخرجهم الى المنابذة وترك التطويل. فقال عمرو بن ثُبيٍّ وكان أكبر الناس سناً وكانوا يبدأون بذوي الأسنان. فقال: التحصن عليهم أشد من المطاولة عليكم فدعهم ولا تخرجهم وطاولهم وقاتل من أتاك منهم. فردوا عليه جميعاً رأيه وقال عمرو بن معد يكرب: ناهدهم وكاثرهم ولا تخفهم. فردوا عليه رأيه وقالوا إنما تناطح بنا الجدران والجدران لهم أعوان علينا. وقال طليحة الأسدي: قد قالا ولم يصيبا ما أرادا. وأما أنا فأرى أن نبعث خيلاً مؤدية فيحدقوا بهم ثم يرموهم لينشبوا القتال ويحمسوهم فإذا استحمسوا واختلطوا بهم وأرادوا الخروج أرزوا إلينا استطراداً فإنا لم نستطرد لهم في طول ما قاتلناهم وإنا إذا فعلنا ذلك ورأوا ذلك منا طمعوا فينا ولم يشكوا في هزيمتنا فخرجوا فجادونا وجاددناهم حتى يقضي اللّه فينا وفيهم ما أحب فرُضي منه هذا القول. وأمر القعقاع. ففعل وأنشب القتال فأنغضهم ثم نكص ونكص وظنها الأعاجم هزيمة فاغتنموها وخرجوا حتى لم يبق منهم سوى من يحرس الأبواب وتقهقر القعقاع الى المسلمين حتى انقطع الفرس عن حصنهم وقد أمر النعمان الناس بأن يلزموا الأرض ولا يقاتلوا حتى يأذن لهم وقد رماهم الفرس وفشت فيهم الجراحات وجعلوا يستأذنون في الهجوم وهو يلبثهم ثم أمر بالهجوم وصار يمشي في الرايات ويقول: قد علمتم ما أعزكم اللّه به من هذا الدين، وما وعدكم من الظهور،

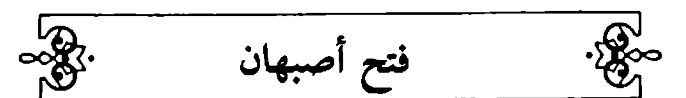
وقد أنجز لكم هوادي ما وعـدكم وصدوره، ولم يبق إلا أعجـازه وأكارعـه واللّه منجـز وعده ومتبـع آخر ذلـك أوله واذكـروا اذ كنتم أذلة ومـا استقبلتم من هذا الأمـر وأنتم أعـزة. فـأنتم اليـوم عبـاد اللّه حقـاً وأوليـاؤه. وقـد علمتم انقـطـاعكـم مـن إخـوانكم من أهل الكوفة والذي لهم في ظفركم وعزكم والذي عليهم في هزيمتكم وذلكم. إلى آخر ما كلمهم وأطال به.

بعثهم فانبعثوا إلى الأعداء فاقتتل الناس بالسيوف اقتتالاً شديـداً لم يسمع الناس بوقعة يوم قط كـانت أشد هـولاً منها. وقتـل من الفرس فيـما بين الـزوال والعتمة ما طبق أرض الميدان وما يزلق الناس والدواب. وأصيب النعمان فأخذه أخـوه سواد وسجـاه بثوبـه. وتناول الـراية حـذيفـة بن اليمـان ولا يعلم النـاس بمصـاب النعمـان وكتم ذلـك من علمـه لئـلا يهن النـاس حتى إذا أقبـل الليـل انكشف الفـرس ولزم المسلمـون مجالـدتهم فعمى السبيل عـلى الفرس وهـووا في هاوية كانت هناك بعيدة الغور ولم ينج من جموع الفُـرس سوى الشـريد ـ وكـان فيهم الفيـرزان فهرب من بين الصـرعى وتبعه القعقـاع وهو يتعقب الفـلال حتى أخذه ووصل القعقاع إلى همذان. وقد هال ذلـك أهل البـلاد القريبـة من نهاوند فصالحوا ودخـل المسلمون نهاونـد واحتووا مـا فيها من الأمـوال وكان شيئـاً كثيراً وأقبل الهربـذ صاحب بيت النـار يطلب الأمـان لنفسه ولمن يـريد عـلى أن يؤدي اليهم ما وضع عنده التخيرجان من ذخائر كسرى وهي جوهر كان أعده لنـوائب الزمان فأجمع رأي المسلمين على رفعه الى عمر مع الأخماس وخرج بذلك السائب ابن الأقرع وأدى إليه ذلـك. ولم يقبل عمـر سفطي الـدر بل ردهمـا على حـذيفة ليقسم أثمانهما بين المسلمين ولم يرض بشيء مما خصنوه به وهو كنوز كسرى.

وقد بكى عمر لاستشهاد النعمان بكاء شديداً حتى سمع له نشيج. وبعـد انتهاء الموقعة أذن عمر للمسلمين بالانسيـاح في بلاد الفـرس لقطع مـادة الشغب وليبـأس الملك من عود ملكـه إليه حتى لا يكـون كالشـوكة في جنب المسلمـين. فعين رؤساء الجنود التي تذهب لافتتاح البلدان وأرسل اليهم بالألوية وهم:

١ ـ الأحنف بن قيس التميمي ووجهه إلى خراسان.
٢ ـ مجامع بن مسعود السُّلمي ووجهه الى أردشير خُرَّة وسابور.
٣ ـ عثمان بن أبي العاص الثقفي ووجهه إلى اصطخر.
٤ ـ سارية بن زنيم الكناني ووجهه إلى فَسَا ودار بُجرُد.
٥ ـ سهيل بن عدوي ووجهه الى كرمان.
٦ ـ عاصم بن عمر ووجهه إلى سجستان.
٧ ـ الحكم بن عمير التغلبي ووجهه إلى مكران.

وقد استعدت هذه الجنود إلى وجهها مفتتح سنة ١٨ هـ.



فتح أصبهان

أصبهان إقليم من نواحي الجبل تجمع بها جمع للفرس فسار إليهم عبد الله بن عبد الله بن عتبة في جند من المسلمين وصار يغلب على البلاد حولها ويصالح من طلب الصلح منهم حتى انتهى إلى أصبهان وكان بينه وبين ملكها القاذوسبان زحوف وكان ذلك بقاعدة هذا الإقليم وهي (جَي) ثم خرج القاذوسبان وقال لعبد الله: لا تقتل أصحابي ولا أقتل أصحابك ولكن أبرز لي فإن قتلتك رجع أصحابك وإن قتلتني صالحك أصحابي وإن كان أصحابي لا يقع لهم نُشابة. فبرز له عبد الله وقال إما أن تحمل عليّ وإما أن أحمل عليك. فقال: أحمل عليك. فوقف له عبد الله وطعنه القاذوسبان فأصاب قربوس سرجه فكسر وقطع السرج واللبب والحزام وأزال اللبد والسرج وعبد الله على الفرس فوقع قائماً واستوى على الفرس عُرْياً وقال له أثبت، فحاجزه وقال: ما أحب أن أقاتلك قد رأيتك رجلاً كاملاً ولكن ارجع معك الى عسكرك فأصالحك وأدفع المدينة إليك على أن من شاء أقام ودفع الجزية وأقام على ماله وعلى أن تجري من أخذتم أرضه عنوة مجراهم ويتراجعون. ومن أبى أن يدخل فيما دخلنا فيه ذهب حيث شاء ولكم أرضه فإن لكم ذلك ودخل أهل جَي في الذمة إلا ثلاثين رجلاً

من أهل أصبهان خالفوا قومهم وتجمعوا فلحقوا بكرمان.

قال الطبري: وقدم أبو موسى الأشعري من ناحية الأهواز وقد صالح القاذوسبان عبد الله ثم قال: ودخل أبو موسى وعبد الله جي وقد جاء كتاب عمر إلى عبد الله أن سر حتى تقدم إلى سهيل بن عدي على قتال من بكرمان.

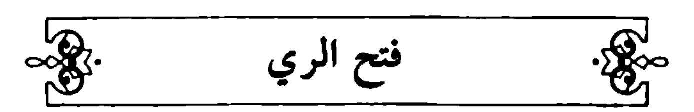
وكان كتاب صلح أصبهان «بسم الله الرحمن الرحيم» كتاب من عبد الله للقاذوسبان وأهل أصبهان وحواليها. إنكم آمنون ما أديتم الجزية وعليكم من الجزية بقدر طاقتكم في كل سنة تؤدونها الى الذي يلي بلادكم عن كل حالم، ودلالة المسلم وإصلاح طريقه وقراه يوماً وليلة وحملان الراجل الى مرحلة ولا تسلطوا على مسلم وللمسلمين نصحكم وأداء ما عليكم ولكم الأمان ما فعلتم فإذا غيرتم شيئاً أو غيره مغير منكم ولم تسلموه فلا أمان لكم ومن سب مسلما بلغ منه فإن ضربه قتلناه وكتب وشهد عبد الله بن قيس، وعبد الله بن ورقاء وعصمة بن عبد الله.».



فتح أذربيجان

صُقْع جليل ومملكة عظيمة الغالب عليها الجبال وحدها من برذغة مشرقاً الى أذربيجان مغرباً ويتصل حدها من جهة الشمال ببلاد الجبل والديلم وقصبتها تبريز وكانت أقبل مدينة المراغة.

وذلك أن نعيم بن مقرن كان في همذان بعد أن فتحها فبلغه أن الفرس تجمعوا بواج روذ بين همذان وقزوين. فخرج إليهم وأنشب القتال معهم في ملحمة كبرى كانت تعدل وقعة نهاوند وهزمهم هزيمة منكرة.

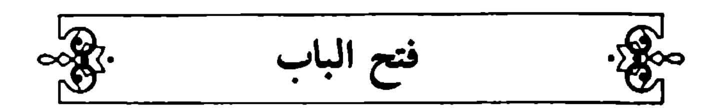


فتح الري

الري قصبة بلاد الجبال بينها وبين نيسابور ١٦٠ فرسخاً وإلى قزوين ٢٧

فرسخاً وكانت مدينة عظيمة جداً ويقال في النسبة إليها رازي.

لما فرغ نعيم من أمر بواج الروذ قصد الري فقهر المجتمعين في تلك الناحية ثم دانوا له بالصلح وكان الذي ولى الصلح عنهم رئيسهم الزينبي أبو الفَرُّخَان وبعد أن تم صلحهم بعث أخاه سويد بن مقرن الى قومس، فسار إليها وأخذها سلماً. ومن هناك كاتبه ملك جرجان (وهي مدينة عظيمة بين طبرستان وخراسان) بالصلح فكتب له كتاب صلح وتابعهم على ذلك أهل طبرستان.



فتح الباب

الباب مدينة عظيمة على بحر طبرستان (بحر قنوين) وهي ثغر عظيم.

سار سراقة بن عمرو على رأس جيش الى الباب وعلى مقدمته عبد الرحمن ابن ربيعة. فلما أطل عبد الرحمن على الباب كاتبه ملكها شهربراز مستأمناً ليأتيه افأمنه عبد الرحمن فجاء الملك إليه ويظهر أن هذا الملك كان حكيماً عاقلاً رأى العبرة في غيره فلم يقبل أن يكون عبرة لسواه. وقد رأى المسلمين قد غلبوا فارس على العراقيين والأهواز وغيرها وأنه وإن كان في بلد منيع وثيق الحصون وعنده من الحماة من يقدر على الامتناع مدة غير أن ذلك ينهك قوته ويضعفه عمن يتاخمون حدوده من الأعداء وليس وراءه سوى التسليم لحكم قاهريه وليس وراء ذلك سوى القتل وسبي الذرية فأحب أن يبقي على نفسه ومن معه من الرجال والذرية والنساء وأن يتركوا على حال عافية ليكون ذلك أبقى لهم عاقبة وعَوْناً على مصاولة من وراءهم من الأعداء.

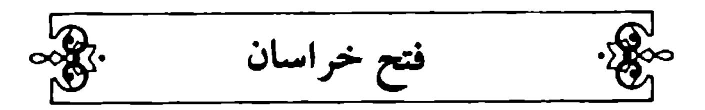
قال الملك لعبد الرحمن: إني بإزاء عدو كلب وأمم مختلفة لا ينسبون الى أحساب، ولا ينبغي لذي الحسب والعقل أن يعين أمثال هؤلاء ولا يستعين بهم على ذوي الأحساب والأصول، وذوُ الحسب قريبُ ذي الحسب حيث كان ولست من القبج في شيء ولا من الأرمن وإنكم قد غلبتم على بلادي وأمتي وأنا

اليوم منكم وصغوي معكم وبارك اللّه لنا ولكم وجزيتنا إليكم النصر لكم والقيام بما تحبون، فلا تذلونا بالجزية فتوهنونا لعدوكم.

كلام جميل وعبارة ناصعة تدل على عقل وبعد غور في السياسة. وما كان جواب عبد الرحمن الا أن قال له: فوقي رجل قد أظلك. وجوّزه. فسار الى سراقة فلما جاءه وكلمه بمثل ما كلم به عبد الرحمن وقع ذلك من سراقة موقعاً فقال له: قد قبلت ذلك فيمن كان معك على هذا ما دام عليه، ولابد من الجزية ممن يقيم ولا ينهض. فقبل ذلك وصار سنة فيمن كان يحارب العدو من المشركين وفيمن لم يكن عنده الجزية إلاّ أن يستنفر فتوضع عنهم الجزية تلك السنة. وكتب بذلك سراقة الى عمر فأجازه وحسنه. وكان في كتاب صلحهم الأمان على أنفسهم وأموالهم. وأن ينفروا لكل غارة وينفذوا لكل أمر ناب أو لم ينب رآه الوالي صلاحاً على أن توضع الجزية عمن أجاب الى ذلك إلا الحشر والحشر عوض عن جزيتهم. ومن استغنى منهم وقعد فعليه مثل ما على أهل أذربيجان من الجزية والدلالة والنزل يوماً كاملاً فإن حشّروا وضع ذلك عنهم وان تركوا أخذوا به. وهذه سنة حسنة في عهد عمر بن الخطاب، فليست الاستعانة بالمخالفين ووضع جزية الحماية عنهم بدعة جديدة.

ثم وجه سراقة بعد ذلك فصائل الى الجبال المحيطة بأرمينية موقان وتفليس وجبال اللان فلم ينجح أحد منهم في غزاته سوى بكير بن عبد اللّه الذي توجه موقان من جبال القبج وأعطاهم الأمان على الجزية عن كل حالم والدلالة والنزل للمسلم يوماً وليلة ـ وكان غزو سراقة ومن معه على هذا الوجه لم يخطر لعمر ولا لغيره ببال. لأن جيشاً ليس بالضخم يخرج إلى مثل هذا الوجه بغير زاد ولا مؤونة ثم يلاقي هذه السهولة في الفتح والنجاح أمر يتعجب منه، وبخاصة أن هذه الناحية ثغر عظيم حافل بالجند، والفرس كانوا يتوقعون أن تكون نكاية جند الإسلام في هذه الناحية، فجاء الأمر على ما لا يشتهون. وقد مات سراقة بعد أن استوثق أهل هذه الناحية واستَحلوا الاسلام وكان قد استخلف عبد

الرحمن بن ربيعة فأقره عمرـ وقد غـزا عبد الـرحمنن فيها وراء البـاب. فلما قطعه لوجهه ذاك قال له شهربَراز: ما تريد أن تصنع؟ قـال: أريد بَلَنْجـر. فقال: إنـا نرضى منهم أن يدعونا، قال: ولكنا لا نرضى منهم بذلك حتى نأتيهم في ديـارهم وتاللّـه إن معنـا لأقواماً لـو يأذن لنـا أميرنـا في الإمعان لبلغت بهم الـردم. قال: ومن هم؟ قال: أقوام صحبـوا رسول اللّه ﷺ ودخلوا في هـذا الأمر بنيـة كانـوا أصحاب حياء وتكرم فازداد حياؤهم وتكرمهم فلا يزال هـذا الأمر دائـماً لهم ولا يزال النصر معهم حتى يغيرهم من يغلبهم وحتى يلفتـوا عن حالهم بمن غيـرهم. ثم أخذ عبد الرحمن طريقه حتى غزا بلنجـر غزاة لم تئم أيهـا امرأة ولا يتيم فيهـا صبي. وبلغ بخيله البيضاء على مائتي فرسخ من بلنجر وذلـك أن أهل البـلاد لما رأوا هؤلاء القـوم قد طلعـوا عليهم حال اللّه بـين الترك أهـل تلك الناحية وبينه وأوقـع الرعب في قلوبهم فقـالوا: لـولا أن الملائكـة تمنعهم من الموت لم يجترئـوا علينا، فتحصنوا منهم ورجع عبد الرحمن بالغنم والظفر.



فتح خراسان

(بلاد واسعة في شرقي الفارسية وقصبتها مرو. وبها نيسـابور وهـراة وبلخ وطالقان ونسا وأبيورد وَسرَخْس وغير ذلك من المدن التي دون نهر جيحون).

سبب هذه الغزوة أن كسرى يزدجرد لما وقعت هـزيمة جلولاء خـرج يريـد الري وقد جعـل له محمـل واحد يـطبّق ظهر بعيـره فإذا سـار نام فيـه ولم يعرس بالقوم. فلما انتهى الى الري وعليها أبـان جاذويـه وثب عليه فـأخذه. فقـال له: أتَغدر بي؟ قال: لا ولكن قد تركت ملكك وصار في يد غيرك فأحببت أن أكتتب على ما كـان لي من شيء ومـا أردت غـير ذلـك ووصـل الأدَم واكتتب الصكـاك وسجل السجلات بكل ما أعجبه ثم ختم عليها ورد الخاتم. وكره يزدجرد المقـام معه فخرج الى كرمان والنار معه. ثم عزم على خراسان فأتى مرو فنزلها وقـد نقل النار فبنى لها بيتاً واتخذ بستاناً وبنى أزجا فرسخين من مرو إلى البستان واطمأن في

نفسه وأمن أن يؤتى وكاتب الأعاجم فيها لم يفتحه المسلمون فدانوا له حتى أثار أهل فارس والهرمزان فنكثوا وثار أهلُ الجبال مع الفيرُزان فكان ذلك سبباً لتغيير عمر رأيه في الانسياح في بلاد الفرس فانساح أهل البصرة والكوفة حتى أثخنوا في الأرض وتوجه الأحنف بن قيس إلى خراسان فأخذ على مهرجان قذق ثم إلى أصبهان وأهل الكوفة محاصروجي. فدخل خراسان من الطّبَسين فافتتح هراة عنوة واستخلف عليها صُحار العبدي ثم سار نحو مرو الشاهجان وأرسل مُطرِّف بن عبد الله بن الشِّخير وليس دونها قتال وأرسل الحارث بن حسان الى سرخس. فلما دنا الأحنف من مرو الشاهجان خرج منها يزدجرد الى مرو الروذ حتى نزلها وحل الأحنف بمرو الشاهجان.

كتب يزدجرد وهو بمرو الروذ الى خاقان ملك الترك يستمده جنداً يقاتل بهم العرب فأمده. وكتب الى ملك الصغد كذلك وإلى ملك الصين يستعينه.

أما الأحنف بن قيس فاستخلف على مرو الشاهجان حارثة بن النعمان الباهلي بعد أن لحقت به أمداد الكوفة على أربعة أمراء وهم: علقمة بن النضر النصري، وربعي بن عامر التميمي، وعبد الله بن أبي عقيل الثقفي، وابن أم غزال الهمْداني. ثم خرج الأحنف سائراً نحو مرو الروذ فخرج منها يزدجرد ومرّ على وجهه بَلْخ فأقام الأحنف بمرو الروذ وقدم جنود أهل الكوفة الى بلخ ثم أتبعهم الأحنف فالتقت جنود أهل الكوفة بيزدجرد ومن معه فانهزم يزدجرد وتوجه بمن بقي معه من الفرس الى النهر فعبره ولحق الأحنف بأهل الكوفة وقد فتح الله عليهم وحصلت بلخ في أيديهم وتتابع أهل خراسان ممن شذ أو تحصن على الصلح فيما بين نيسابور الى طخارستان وعاد الأحنف الى مرو الروذ واستخلف على طخارستان ربعي بن عامر. ثم كتب الأحنف الى عمر بفتح خراسان، فقال: لوددت أني لم أكن بعثت إليها جنداً، ولوددت أنه كان بيننا وبينها بحر من نار. وكتب عمر إلى الأحنف: «أما بعد فلا تجاوزن النهر واقتصر على ما دونه وقد عرفتم بأي شيء دخلتم خراسان فداوموا على الذي دخلتم به

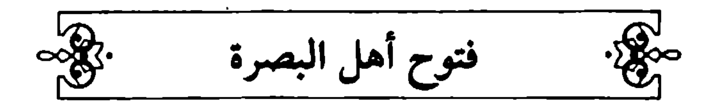
خراسان يدم لكم النصر وإياكم أن تغْبُروا فتنغضوا ».

كـان عبور يـزدجرد قبـل أن يستتب لخاقـان وعـوزك ملك الصغـد إنجـاد يزدجرد والملوك ترى حقاً عليها إنجاد الملوك. فـأقبلت جيوش التـرك وحشر أهل فرغانة والصُّغْد وعاد بهم يزدجرد إلى خراسان فلما عبر إلى بلخ خف أهل الكوفة الذين بها الى مرو الروذ وجـاء إليها المغيثـون والأحنف بها. وكـان الأحنف حين بلغـه عبور القـوم يخرج يتسمـع ليلاً فمـر برجلين ينقيـان علفاً وأحـدهمـا يقـول للآخر: لو أن الأمير جعل هذا الجبل خلف ظهورنا وتركنا نقاتل العدو من وجـه واحد رجوت أن يكون النصر لنا. فأخذهما الأحنف وعمل بهـا. وجاءت جمـوع الترك وسواهم فصاروا يقاتلون حتى إذا جاء الليل انشمروا الى مكان بعيـد ـ ولم يهـدأ للأحنف روع حتى علم أين يكـونون. ثم خـرج ليلة وحده حتى إذا كـان بمكان قريب منهم وقف فلما كان وجه الصبح خرج فارس منهم ومعه طبل فطبل به ثم أخذ مكاناً وقف فيـه فجاء الأحنف فقتله. ثم خـرج الثاني ففعـل فعله ثم وقف فقتله الأحنف. ثم خرج الثالث ففعل فعلهما فألحقه بهما وانصرف لا يشعر به أحد من المسلمـين. فلما خرج التـرك وجدوا فـرسانهم قتـلى فتطيـروا ورجعوا عودهم على بدئهم يؤمون بلادهم وقالوا: لا خير لنا في قتال هؤلاء.

وفي تلك الأثناء ذهب يزدجـرد فيمن معه من الفـرس الى مرو الشـاهجان والأحنف لا يعلم بـه فتحصن منـه حـارثـة بن النعمـــان ومن معـه فحصـــرهم واستخرج كنوزاً كانت له فأعجل عنها. وأراد أن يستقل فأراد أهل فارس صرفه عن قصده وقالوا له: إن هذا رأي سوء منك إنك إنما تأتي قوماً في مملكتهم وتدع مملكتك وأرضك وقومك ولكن ارجع بنا إلى هؤلاء القوم فنصالحهم فـإنهم أوفياء وأهل دين وهم يلون بلادنا. وإن عدواً يلينا في بلادنا أحب إلينا ملكـه من عدو يلينا في بلاده ولا دين لهم ولا ندري ما وفاؤهم. فأبى عليهم وأبـوا عليه وقـاتلوه وهزموه وكاتبوا الأحنف بالخبر فاعترضهم المسلمـون والفرس ينـازعونـه فأعجلوه عن الأثقال ومضى حتى قطع النهر إلى فرغانة والتـرك فلم يزل مقيـماً هناك زمـان

عمر. وأقبل أهل خراسان على الأحنف يصالحونه ودفعوا إليه الخزائن وتراجعوا الى بلدانهم وأموالهم على أفضل ما كانوا في زمان الأكاسرة كأنما هم في ملكهم إلا أن المسلمين أوفى وأعدل عليهم فاغتبطوا وغبطوا.

ولما عاد رسول يزدجرد الذي بعثه إلى ملك الصين أخبره أنه أهدى إليه هدايا وأنه سأله عن القوم الذين غلبوهم على بلادهم وقال له: إنك تذكر قلة منهم وكثرة منكم ولا يبلغ أمثال هؤلاء القليل الذين تصف منكم فيما أسمع من كثرتكم الا بخير عندهم وشر فيكم، فقلت: سلني عما أحببت. فقال: أيفون بالعهد؟ قلت: نعم قال: وما يقولون لكم قبل أن يقاتلوكم؟ قلت يدعوننا الى واحدة من ثلاث: إما دينهم فإن أجبناهم أجرونا مجراهم، أو الجزية والمنعة أو المنابذة. قال: فكيف طاعتهم أمراءهم؟ قلت: أطوع قوم لمرشدهم. قال: فما يحلون وما يحرمون؟ فأخبرته فقال: أيحرمون مايحلون أو يحلون ما يحرمون؟ قلت: لا قال فإن هؤلاء لا يهلكون أبداً حتى يحلوا حرامهم ويحرموا حلالهم ثم قال: أخبرني عن لباسهم فأخبرته. وعن مطاياهم فقلت الخيل العراب ووصفتها فقال نعمت الحصون هذه. ووصفت له الإبل وبروكها وانبعاثها بحملها فقال: هذه صفة دواب طوال الأعناق. وكتب مع الرسول الى يزدجرد أنه لم يمنعني أن أبعث اليك بجيش أوله بمرو وآخره بالصين الجهالة بما يحق علي ولكن هؤلاء القوم الذين وصفهم لي رسولك لو يحاولون الجبال لهدوها ولو خلا لهم سرْبُهمْ أزالوني ما داموا على ما وصف لي فسالمهم وارض منهم بالمساكنة ولا تهيجهم ما لم يهيجوك.



فتوح أهل البصرة

كان مما فتحه أهل البصرة من البلاد الفارسية ـ توّج ـ فتحها سارية بن زنيم الدؤلي ـ ثم فتح فساو دار بجرد ـ وفتح عثمان بن أبي العاص اصطخر ـ

وفتح سهل بن عدي كرمان ـ وفتح عاصم بن عمرو سجستان ـ وفتح الحكم بن عمرو التغلبي مكران.

قد نقل الأستاذ الخضري حديثاً طريفاً هو حديث قيس بن سلمة وكان عمر قد ولاه قيادة جيش لمقاتلة الأكراد، فسار اليهم وهزمهم، ولما قسم على الجند النفل رأى شيئاً من حلية. فقال: إن هذا لا يبلغ فيكم شيئاً فتطيب نفوسكم أن نبعث به الى أمير المؤمنين فإن له برداً ومؤونة؟ قالوا: نعم، قد طابت أنفسنا. فجعل تلك الحلية في سفط ثم بعث برجل من قومه يوصل ذلك الى عمر. قال الرسول: فأتيت الى المدينة فإذا عمر يغدي الناس متكئاً على عصا كما يصنع الراعي وهو يدور على القطاع. فلما دفعت إليه قال: اجلس. فجلست في أدنى الناس فإذا طعام فيه خشونة ـ طعامي الذي معي أطيب منه فلما فرغ الناس. قال يا يرفأ: ارفع قصاعك ثم أدبر، فاتبعته، فدخل داراً ثم دخل حجرة، فاستأذنت وسلمت، فأذن لي فدخلت عليه فإذا هو جالس على مسح متكيء على وسادتين من آدم محشوتين ليفاً فنبذ إليّ بإحداهما فجلست عليها. فإذا بهو في صفة فيها بيت عليه سُتَيْر فقال: يا أم كلثوم غداءنا، فأخرجت إليه خبزة بزيت في عرضها ملح لم يدق فقال: يا أم كلثوم، ألا تخرجين إلينا فتأكلين معنا من هذا؟ فقالت إني أسمع عندك حس رجل قال نعم. ولا أراه من أهل البلد. قالت: لو أردت أن أخرج إلى الرجال لكسوتني كما كسا ابن جعفر امرأته، وكما كسا الزبير امرأته، وكما كسا طلحة امرأته. قال: أو ما يكفيك أن يقال أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب وامرأة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ ثم قال: كل فلو كانت راضية لأطعمتك أطيب من هذا ـ قال: فأكلت قليلاً وطعامي الذي معي أطيب منه وأكمل. فما رأيت أحداً أحسن أكلاً منه. ما يتلبس طعامه بيده ولا فمه. ثم قال: اسقونا. فجاءوا بعُس من سُلت. فقال اعط الرجل قال: فشربت قليلاً ثم أخذه فشرب حتى قرع القدح جبهته، فقلت حاجتي يا أمير المؤمنين أنا رسول سلمة بن قيس. قال: مرحباً بسلمة بن

قيس ورسوله حدثني عن المهاجـرين كيف هم؟ فقلت هم كما تحب من السـلامة والظفر على عدوهم. قال: كيف أسعارهم؟ قلت: أرخص أسعـار، قال: كيف اللحم فيهم؟ فإنها شجرة العرب ولا تصلح العرب الا بشجرتها، قلت: البقـرة بكذا والشاة بكذا. ثم أدى إليه رسالته وأخبره خبر الحلية التي اختصه بها سلمة. فلما نظر إلى فصوصها وثب ثم جعل يده في خاصرته. ثم قال: لا أشبع اللّه إذن بطن عمر، ثم قال كيف ما جئت به؟ أما واللّه لئن تفرق المسلمون في مشـاتيهم قبـل أن يقسم هذا فيهم لأفعلن بـك وبصاحبـك الفاقـرة. قال: فـارتحلت حتى أتيت سلمة. فقلت: ما بارك اللّه لي فيما خصصتني به. اقسم هذا في الناس قبل أن يصيبني وإياك فاقرة فقسمه عليهم.

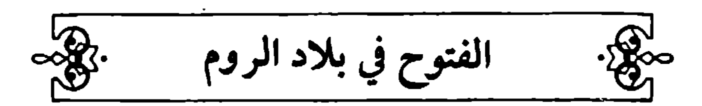
هذه الحكاية لا تخبرنا بحديث لا نعلمه عن عمر في زهده وتقشفه في منزله وأخذه أهله بذلك ولكنها تنبيء عن زهد في الدنيـا وقد عـرضت عليه وخـروجه منها وقد تلبست به وتشبثت بأهدابة وذلك ينبيء عن قوة إرادة لا تبلغ إلا بمعونة اللّه تعالى. فقد كانت الحلية حِـلاً بِلاّلـه جاءتـه عن طيب خاطـر من أصحابهـا رضية بها نفوسهم. ولكنه يرى القوم جند الإسلام وعزه فهو يريد توفير السعـادة لهم وإيثارهم بالغنى ليزدادوا رغبة فيما هم بسبيله وهو لا يريد تغيير حاله التي هو فيها لئلا تشغله الدنيا عنهم وتصدف به عن الالتفـات إلى أحوالهم ـ وفـوق ذلك فإنه يريد قطع مادة الطموح إلى غنائم المسلمين ونفلهم لئلا يكون أخذ مثل هذه اليوم بحق مدرجة لامتداد يد غيره من بعده إلى أمثالها بغير حق متأولين في تناول ما يتناولون ما كان من عمر من أخذ بعض الغنائم ولا يبعـد أن يتأولـوا أن ذلك كان صفياً له. فيأخذوا بحقه ما هو باطل ويستحلوا مـا هو محـرم. فيكون ذلـك مدرجة للفساد وفشو الطمع وحب الأثرة وفي ذلك هلاك الراعي والرعية.

وبما تقدم من الفتوح التي سردناها سقطت مملكة فارس نهائياً بيد المسلمين وصار لهم قطعة من الأرض يحدها من الغرب نهر الفرات والخليج الفـارسي ومن الشـرق نهر جيحـون والسنـد ومن الجنـوب المحيط الهنـدي ومن الشمـال بـلاد

أرمينية. وكان افتتـاح ذلك كله في زمن لم يتجـاوز سبع سنين، وكان النصر لهم رفيقاً في كل الـوقائـع التي واقعوا فيهـا الفرس إلا قليـلاً. وكان للمسلمـين اسم جميل عند عامة الفرس لما رأوا فيهم من العـدل والوفـاء وحس الملكة. وكيف لا يكون ذلك رأيهم وعمـر يواليهم بـالنصائـح والعظات ولا يتـرك فرصـة تمر دون تذكيرهم بالوفاء والعدل وحسن السيرة فيما بينهم وفي أهل ذمتهم.

وقـد كان شهـربراز مـع عبد الـرحمن بن ربيعة وجـاءت شهربـراز ياقـوتة ثمينة، فناولها لعبد الرحمن فنظر فيها ثم ردها إليـه. فقال شهربراز وهـو صاحب الباب: لهذه خـير من هذا البلد ـ يعني مـدينة البـاب ـ وايم اللّٰه لأنتم أحب إليّ ملكـة آل كسرى، ولو كنت في سلطانهم ثم بلغهم خبرها (الياقوتة) لانتزعوهـا مني وايم اللّٰه لا يقوم لكم شيء ما وفيتم ووفى ملككم الأكبر.

وإلى هنـا ننقل الكـلام إلى ما حصـل في أرض الروم في عهـد عمر رضي اللّٰه عنه.



الفتوح في بلاد الروم

لم يتفق المؤرخون على ترتيب الوقائع في مملكة الروم فبعضهم يقـدم بعض الوقائع على بعض مع اتفاقهم على حصول تلك الـوقائـع ونتائجهـا: والسبب في هذا الاختلاف تلاحق الوقائع وتواليها فيما بين السنة ١٣ والسنة ١٤ فربما كـان حصول واقعتين في وقت واحد فيذكر الراوي إحدى الواقعتين ثم يثني بالأخـرى فيتلقف الكاتب ذلك ويرتبها على حسب ترتيبهـا في الذكـر ويقدم إحداهما عـلى الأخرى. فإذا جاء راو آخر وعكس الترتيب في الذكر تبعه مؤرخ آخر وصار على طريقته. وربما فتح البلد الواحد مرتين وفتح بلد آخر بينهما فيذكـر الراوي الفتـح الأول ثم يذكر فتح البلد الآخر ـ ثم يأتي راو آخر ويذكر فتح البلد الآخر ويذكر الفتح الثاني. وهكذا.

قال صاحب أشهر مشاهير الإسلام: أما أمراء المسلمين فقد أوغلوا بجيوشهم في أحشاء البلاد، فنزل أبو عبيدة الجابية، ونزل شرحبيل الأردن، ونزل عمرو بن العاص العربة من فلسطين وكان يريد البلقاء ومن ثم اختلف المؤرخون في كيفية ترتيب الوقائع. فمن قائل إن أول وقعة كانت بين المسلمين والروم وقعة اليرموك، ومن قائل غير ذلك. والذي قال بالأول بنى قوله على أن المسلمين لما تفرقوا في البلاد وراعهم ما جمعه لهم هرقل من الجموع استشاروا فأشار عليهم بالاجتماع فاجتمعوا باليرموك وكتبوا الى أبي بكر فأمدّهم بخالد بن الوليد ولما وصل إليهم وجد الأمراء متساندين فتأمر عليهم. الى أن قال:

مع أن إمعان الأمراء بجيوش المسلمين في الجزء الجنوبي والجنوب الغربي من البلاد ووصول بعضهم الى الأردن قرب طبرية والبعض الآخر الى فلسطين ثم اختلاف المؤرخين في عزل خالد بن الوليد هل كان وهم على دمشق أم في اليرموك. كل هذا يؤيد أن واقعة اليرموك إنما كانت بعد وقائع كثيرة كواقعة مرج الصفر وواقعة أجنادين التي بشر أبو بكر بظفر المسلمين فيها بآخر رمق وواقعة للعربة من فلسطين وغيرها، وأن المسلمين افتتحوا كثيراً من البلاد قبل اليرموك صلحاً أو حرباً. ويؤيد هذا ما ذكرناه سابقاً عن البلاذري من أن أهل حمص عاهدوا المسلمين على الوفاء لما انجلت حاميتهم عن حمص بقصد الاجتماع مع بقية الجيوش على اليرموك.

ويدل على أن لجيوش المسلمين مع بعض مدن الشام وبلاده وقائع قبل اليرموك قول القعقاع بن عمرو وقد كان في جيش خالد الذي جاء من العراق:

بَدَأنا بجمع الصفرين فلم ندع   لغسان أنفاً فوق تلك المناخر
صبيحة صاح الحارثان ومن به   سوى نفر نجتذُّهم بالبواتر

وجئنا إلى بصرَى وبصرى مقيمة   فألقت إلينا بالحشى والمعاذر
فضضنا بها أبوابها، ثم قابلت   بنا العيس في اليرموك جمع العشائر

فتح دمشق

قدمنا أن وقعة اليرموك كانت في أول خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وأن الرسول جاء بموت أبي بكر وتولية عمر يوم الواقعة وأسرّ الى خالد بالأمر وأن خالداً كتم الأمر إلى تمام الوقعة وانتهائها بالفتح .

فلما انتهى أمر اليرموك، استخلف أبو عبيدة عليها بشير بن كعب الحميري وسار حتى نزل بالصفر، فأتاه الخبر فأن فالة الروم نزلوا بفحل وأن الروم توافي مددهم الى دمشق، فكتب الى عمر بذلك، فأمره عمر بأن يسير فيبدأ بدمشق فإنها حصن الشام وبيت ملكهم وأن يشغل من بفحل بخيل تكون بإزائهم حتى إذا فتح دمشق عاد الى فحل فنازل من بها. وقد كتبت في سنة ١٣٣٦ (١٩١٨ م) ما يأتي:

البدء بالقوة الكبرى تسير عليه قواد الجيوش وأهل الفنون الحربية في هذا الزمن. فقد كان من هم قواد الألمان في الحرب التي أثاروا عجاجها سنة ١٩١٤ والعالم لم يزل يصطلي بنارها الى اليوم أن يبدؤا بالقوة الفرنسية وهي القوة الحربية الحقيقية في ذلك اليوم ليسحقوها غير حاسبين للقوة الروسية التي كانت تتجمع في شرق مملكتهم حساباً لأنها بطيئة الحشد لقلة المواصلات واحتياجها الى الزمن الفسيح لتستكمل عدتها وتتهيأ لخوض أهوال الحرب حاسبين أنهم يفرغون من الجيش الفرنسي في زمن يسير ثم يتهيأون للجيوش الروسية على هينهم فلما قامت الجيوش البلجيكية في سبيلهم وصدتهم عن مباغتة الجيش الفرنسي وعوقتهم نحو سبعة عشر يوماً فاستعد الجيش الفرنسي فيها استعداداً كاملاً وصار أداة حرب صالحة ولم يدركوا أربتهم منه، ورأوا روسيا جادة في مفاجأتهم على حالهم تلك بجيشها العامل، كفوا عن الإيغال وعمدوا الى حرب الخنادق ثم وجهوا الى الجيش الروسي الهائل جيوشاً نازلته وقهرته ثم صارت الحرب الى

الحال التي هي عليها الآن ونحن في يوم ٥ مارس سنة ١٩١٨

صدع أبو عبيدة بأمر عمر وهو أن يذهب الى الشام أولاً فيبدأ بها فإذا فتحت سار إلى فحل فإذا فرغ من أمرها سار هو وخالد الى حمص وترك شرحبيل ابن حسنة وعمراً بالأردن وفلسطين. فنزل جيش من المسلمين على فحل وخشى الروم أن يصل المسلمون إليهم فبثقوا الماء حولهم فوَحلت الأرض وحصروا أنفسهم بأيديهم وسهلوا للمسلمين المقام على حصارهم وكانوا أول محصور.

وقام أبو عبيدة عسكراً بين حمص ودمشق لئلا يأتي المدد من حمص إليها وأرسل جنداً آخر ليكونِ بين دمشق وفلسطين ليصد المدد إن جاء منها. ونزل أبو عبيدة على ناحية من دمشق وخالد على ناحية وعمرو على ناحية وكان هرقل نازلاً قريب حمص.

حصر المسلمون دمشق على هذه الصورة وطمع أهلها في أن يمدهم هرقل بالجنود فصابروا المسلمين وصبروا على هذا الحصار الشديد سبعين ليلة والمسلمون يزاحفونهم ويرمون عليهم بالمجانيق وهم معتصمون بالمدينة يرجون الغياث. وأرسل هرقل لإنجادهم خيلاً فمنعتها خيول المسلمين التي عند حمص ويئس القوم من المعونة.

كان خالد لا ينام ولا ينيم ولا يبيت إلاّ على تعبية ولا يخفى عليه من أمر الروم بدمشق شيء وقد اتخذ حبالاً كهيئة السلاليم وأوهاقاً. وقد علم أنه وُلد للبطريق الذي على دمشق مولود فصنع طعاماً ودعا إليه حُماة المدينة فأكلوا وشربوا وزالوا عن مواقفهم أمنة منهم وثقة بمنعة حصونهم. فانتهز خالد هذه الفرصة ونهض فيمن معه من جنده. وتقدمهم هو والقعقاع بن عمرو ومذهور بن عدي وأمثالهم وقالوا إذا سمعتم تكبيراً على السور فارقوا إلينا واقصدوا الباب. فلما انتهى إلى الباب الذي يليه هو وأصحابه رموا الشُّرف بالحبال وعلى ظهورهم القربُ التي قطعوا بها الخندق. فلما ثبت لهم وَهَقَان تسلق القعقاع ومذهور وأثبتا

الأوهاق بالشرف فتسلق خالد وأصحابه. وكان المكان الذي اقتحموا منه أحسن مكان يحيط بدمشق وأشده مُدْخَلاً. ولما استووا على السور حدر خالد عامة أصحابه وانحدر معهم وخلف من يحمي مرتقاهم وأمرهم بالتكبير فكبر الذين على رأس السور فنهد المسلمون الى الباب ومال إلى الحبال جند كثير فارتقوا فيها. وانتهى خالد فيمن معه إلى أول من يليه فأنامهم وانحدر إلى الباب فقتل البوابين وثار أهل المدينة لا يدرون ما دهمهم واشتغل أهل كل ناحية بمن يليهم خشية الاقتحام فلم ينجدوا أهل الناحية التي بها خالد وأصحابه وكسر خالد ومن معه إغلاق الباب بسيوفهم وفتحوا للمسلمين وأعلموا سيوفهم في المقاتلة الذين في ناحية خالد فلم يبق منهم أحد إلا قتل.

لما شد خالد على من يليه وأدرك منهم ما أراد عنوة اجتمع من أفلت منهم إلى الأبواب التي تلي غيره. وكانوا قبل ذلك قد أرسلوهم على المشاطرة فأبوا عليهم ذلك. فلم يدر أهل تلك الأبواب من المسلمين إلاّ بالروم قد ألقوا إليهم بأيديهم يبذلون ما امتنعوا من الإقرار به من قبل وهو الصلح على المقاسمة وهم لا يدرون سبباً لهذا الرضا بعد التأبي والامتناع. فلما قبلوا منهم قالوا لهم: ادخلوا فامنعوا عنا من بالجانب الآخر. فدخل أهل باب بصلح مما يليهم ودخل خالد مما يليه عنوة، فالتقى القواد في وسط دمشق هذا استعراضاً وانتهاباً وهذا صلحاً وتسكيناً. وأجروا ناحية خالد على صلح أهل الأبواب الأخرى. وكان صلح دمشق على المقاسمة في الدينار والعقار ودينار عن كل رأس. هكذا ذكر كثير من المؤرخين والظاهر أن رواية المقاسمة على العقار ليست صحيحة بدليل قول عمر لأبي عبيدة « وأما الحنطة والشعير التي وجدتموها في دمشق وكثر مشاجرتكم فيها فهي للمسلمين وأما الذهب والفضة ففيهما الخمس ».

وبعد انتهاء فتح دمشق جاء أمر عمر لأبي عبيدة يأمره بصرف جيش العراق إلى العراق فصرفه مع هاشم بن عتبة وأبقى خالد إضاية.

غزوة فحل

لما فتح المسلمون دمشق كان وراءهم جنود الروم في فِحْل ولا يتسنى لهم الإيغال في تلك البلاد ووراءهم في ذلك المكان قوة رومية لا يستهان بها. فقد قالوا إنهم كانوا ثمانين ألفاً قد حصرتهم المياه والوحول والمسلمون بإزائهم من ورائها ففصل أبو عبيدة بالجيوش وخلف يزيد بن أبي سفيان على دمشق وعلى الناس شرحبيل بن حسنة لأنه ولى الحرب في الأردن. وجعل خالداً على المقدمة وأبا عبيدة وعمراً على المجنبتين، وضرار بن الأزور على الخيل، وعياض بن غنم على الرجْل. ولما انتهوا إلى أبي الأعور السلمى وكان بين الأردن ودمشق ليصد المدد فقدموه إلى طبرية فحاصرها ونزل سائر الجيش على فِحْل.

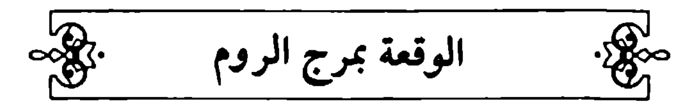
ولما رأى المسلمون أن الروم في حرز حريز من الوحل الذي جعل الوصول إليهم مستحيلاً كتبوا إلى عمر ليأمرهم بأمره. والمسلمون ناعمون في ريف الأردن وخيراته والروم في حرزهم كأنهم دودة القز في برجها الحريري، فهم محرومون من كل شيء فيه نعيم ولا يقدرون على الخروج إلاّ على غرر.

ضاقت على الروم المذاهب فرجوا أن يصيبوا من المسلمين غرة ويوقعوا بهم وظنوا بالمسلمين الغفلة فخرجوا بقيادة قائدهم سقلار غير أن شرحبيل كان حازماً شديد اليقظة فكان لا يبيت إلا على تعبية واستعداد للحرب. فلما هجم الروم على المسلمين خارج الوحل والماء لم ينظرهم المسلمون بل بادروهم بالشدة وقاتلوهم أشد قتال ليلتهم ويومهم فلما جن عليهم الليل حار الروم وأرادوا الرجوع إلى مكانهم الأول فضلوا ولم يهتدوا إلى الطريق الذي خرجوا منه فانهزموا حيارى وقتل قائدهم الأول (سقلار) وقائدهم الثاني فوقع فيهم الاختلاط وانهزموا فانتهوا في هزيمتهم إلى الوحل الذي صنعوه بأيديهم ليتقوا به الموت فكان موتهم ذلك الذي جعلوه وقاية لهم. فإنهم لما تورطوا في الرداغ ركبهم المسلمون

وهم لا يردون يد لامس وكان الوحل الذي كرهه المسلمون أكبر عون لهم على الفتك بأعدائهم.

ومن هنا ومما كان باليرموك نعلم أن القيادة في جيوش الروم لم تكن من الحنكة والدربة على الحرب ومكائده في وزان القيادة في الجيوش العربية لأن النزول بهم على الواقوصة كان أشد وبالاً عليهم من سيوف أعدائهم.

وكذلك بثق الماء حول الجيش في فحل كان حصاراً لهم في مقامهم وشركاً لهم في حربهم. واللّه يحكم لا معقب لحكمه.



الوقعة بمرج الروم

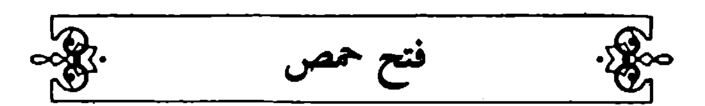
علم هرقل بما أصاب جنده في دمشق والأردن وما عزم عليه أبو عبيدة من قصد حمص فأراد أن يشغل المسلمين بجيش مع قائده ثيودور وآخر بقيادة القائد شنس. ويظهر أن القائدين كانا على اتفاق فيما يصنعان بأن يقف أحدهما لشغل جيش المسلمين في الوقت الذي يخالف الآخر إلى دمشق وهي في قلة من الحامية ليأخذها وَيَنْقُضَ على المسلمين ما أبرموا.

وقد التقى الجيشان بجيش المسلمين في مرج الروم غربي دمشق فنزل أبو عبيدة بإزاء شنس ونزل خالد بإزاء ثيودور. ولما أصبحوا نازلهم شنس ولم يجد خالد لثيودور أثراً، وعلم أنه قصد دمشق فأمر أبو عبيدة خالداً باقتفاء أثره.

وعلم يزيد بن أبي سفيان بمقدم جيش الروم فخرج لقتالهم. ولم يشعر الروم بخالد ومن معه إلا وقد أتوهم من ورائهم فأخذوا من بين أيديهم ومن خلفهم فلم ينج منهم إلا الشريد. ونازل أبو عبيدة ثيودور فقتله وهزم جيشه وتبعهم المسلمون يقتلونهم ووصل فل ذلك الجيش إلى حمص.

تحقق هرقل أنهم بعد ذلك موافوه إلى حمص فيئس من بقاء الشام في يده فودعها الوداع الأخير بقوله (Adeiu Siria) وأمر عامله على حمص بالتحصن وأن

يطاول المسلمين حتى يأتي الشتاء وأن لا ينازلهم إلّا في يوم بارد فلا يمر الشتاء إلاّ وقد أهلكهم البرد.



فتح حمص

حمص مدينة بين دمشق وحلب.

قصد أبو عبيدة حمص عن طريق بعلبك وقدم إليها السمط بن الأسود الكندي وقدم خالد إلى البقاع فافتتح خالد بلاد البقاع. ونزل أهل بعلبك إلى أبي عبيدة فصالحوه على أن يكون لهم الأمان على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وكتب لهم بذلك كتاباً ثم توجه إلى حمص فنزل عليها وقاتلهم قتالاً شديداً وكانوا يغادون المسلمين القتال ويراوحونهم في كل يوم شديد البرد ولقي المسلمون برداً شديداً وطال على الروم الحصار، ولما رأوا أن الشتاء قد انصرمت مدته ولم ينصرف المسلمون عنهم اشتد عليهم الأمر ورجعوا إلى ما كان يدعوهم إليه بعض مشايخهم وهم يأبون منه وهو الصلح فطلبوا من أبي عبيدة ذلك فصالحهم على صلح أهل دمشق. ونزل بها السمط بن الأسود الكندي في بني معاوية والأشعث بن ميناس في السكون والمقداد في بلي ونزل بها غيرهم. وقد كان نزول المسلمين في كل مرفوض جلا أهله أو ساحة متروكة.

وقد بعث أبو عبيدة بالأخماس والفتح إلى عمر مع عبد الله بن مسعود فكتب إليه عمر أن أقم في مدينتك وادع أهل القوة والجلد من عرب الشام فإني غير تارك البعث إليك بمن يكانفك إن شاء الله.

وغرض عمر من ذلك أن يكون أبو عبيدة في قوة ومنعة تكف عادية الروم لأن بلده أقرب إلى بلادهم وهي مظنة لأن تكون غرضاً لهم ثم بعث أبو عبيدة خالداً إلى الحاضر ـ حاضر حلب ـ وكان أصناف من العرب ينزلونه وكان جمع من الروم عليهم ميناس وهو أعظمهم بعد هرقل فلاقاهم خالد بالحاضر فهزمهم وقتل قائدهم ولم يفلت من هذا العسكر أحد.

أما عرب الحاضر فاعتذروا إلى خالد بأنهم حشروا كرهاً ولم يكن من نيتهم أن يقاتلوا فقبل منهم وتركهم. ولما بلغ عمر ذلك قال: أمَّرَ خالد نفسه يرحم الله أبا بكر هو كان أعلم بالرجال مني. وقال في حقه وفي حق المثنى بن حارثة: إني لم أعزلهما عن ريبة ولكن الناس عظموهما فخشيت أن يوكلوا إليهما.

ثم سار خالد حتى نزل على قنّسرِين فتحصن أهلها منه فقال لهم: لو كنتم في السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم إلينا. فنظر القوم في أمرهم وعلموا أنهم ليسوا بأقوى من أهل الأمصار قبلهم، فصالحوه على صلح أهل حمص.

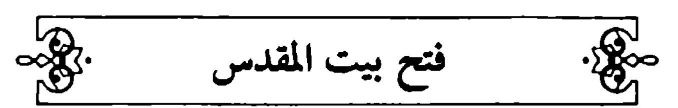
ثم فتحت قيسارية على يد معاوية بن أبي سفيان.

ثم فتحت أجنادين على يد عمرو بن العاص وكان بها قائد يقال له أرطبون هو أدهى الروم وأبعد رجالهم غوراً وأنكاهم فعالاً - ولما بلغ عمر بن الخطاب قال: قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب فانظروا عم تنفرج. وكان الأرطبون قد أراد تفريق جنود العرب فوضع بالرملة جنداً عظيماً، وبإيليا جنداً عظيماً. فكتب عمرو إلى عمر بذلك ووجه جنوداً إلى كل ناحية فيها جند الروم وكتب عمر إلى يزيد أن يوجه معاوية إلى أهل قيسارية ليشغلهم عن عمرو ابن العاص فافتتحها كما قدمناه وتتابعت الإمداد على عمرو فأرسل يمد من أقامهم بإزاء جنود الروم بالرملة وأيلة. ومكث مدة لا يقدر من الأرطبون على سَقطة ولا تشفيه الرسل. فوليه بنفسه فدخل عليه كأنه رسول، فأبلغه ما يريد وسمع كلامه وتأمل حصونه حتى عرف ما أراد.

وقع في نفس الأرطبون أن الرسول عمرو بن العاص، أو الرجل الذي يستشيره عمر في أمر الحرب. فدعا برجل من جنده وأسرَّ إليه كلاماً. وفطن عمرو للأمر. فقال له قد سمعت مني وسمعت منك فأما ما قلته فقد وقع مني موقعاً وأنا واحد من عشرة بعثنا عمر بن الخطاب مع هذا الوالي لنكاتفه ويشهدنا أموره فأرجع فآتيك بهم الآن فإن رأوا في الذي عرضت مثل الذي أرى لقد رآه

أهل العسكر والأمير، وإن لم يروه رددتهم إلى مأمنهم وكنت على رأس أمرك، فقال نعم. ودعا رجلاً فساره وقال اذهب إلى فلان فرده فرجع إليه الرجل وقال لعمرو انطلق فجيء بأصحابك، فخرج ورأى أن لا يعود إلى مثلها. وبلغت عمر فقال غلبه عمرو، للّه عمرو ـ وقد استبعد الأستاذ الخضري أن يغرر رجل حذور كعمرو بنفسه ويترك جيش المسلمين وهو قائده وروحه ويجعله تحت الخطر، وإني أوافقه وأقول ما كان ليفعل هذا التغرير ووراءه رجل يقظ حذر كعمر.

اقتتل الروم والمسلمون في أجنادين قتالاً شديداً وكثرت بينهم القتلى حتى كان هذا القتال في شدته يشبه القتال في اليرموك ثم انهزم الأرطبون بجنوده حتى آوى إلى إيليا وأفرج له المسلمون الذين عليها حتى دخلها وأقام بها إلى أن فتحت ونزل عمرو أجنادين.



فتح بيت المقدس

لما انتهى عمرو من أمر أجنادين ترك أهل إيلياء وهي بيت المقدس في الحصار وأخذ يتمم فتح مدن فلسطين وقراها: ففتح غزة، ولُدّ، ونابلس وبيت جبرين، ومرج عيون، ويافا ـ فلما أتم هذا الفتح قصد بيت المقدس والأرطبون ممتنع بها، فأخذ يخاطبه في تسليم المدينة فأبى.

وقد جاء في الطبري أن عَمراً دعا برجل يعرف الرومية وأمره أن يأتي أرطبون بكتاب من عمرو فيه: جاءني كتابك وأنت نظيري ومثلي في قومك لو أخطأتك خصلة، تجاهلت فضيلتي. وقد علمت أني صاحب فتح هذه البلاد واستعدي عليك فلاناً وفلاناً. لوزرائه. وأمر الرسول أن يقرب ويتنكر وقال استمع ما يقول حتى تخبرني به إذا رجعت ـ فلما جمع أرطبون وزراءه وقرأ عليهم الكتاب أغربوا في الضحك. وقالوا له: من أين علمت أنه ليس بصاحبها؟ ـ فقال صاحبها رجل اسمه عمر ثلاثة أحرف. فكتب عمرو إلى عمر يستمده

ويقول إني أعالج حرباً كؤوداً صدوماً وبلاداً قد ادخرت لك فرأيك في هذه الرواية غرابة ولا يمكن للمؤرخ أن يستند إليها لأنها لم تبن على أساس متين. والذي أراه أنصع، روايةِ أخرى عن الطبري، هي أن أبا عبيدة حصر أهل بيت المقدس فطلبوا منه أن يصالحهم على أهل الشام وأن يكون المتولي للعقد عمر بن الخطاب. فكتب إليه بذلك فسار عن المدينة ممداً لهم بعد أن استخلف علياً عليها وقد قال له علي أين تخرج بنفسك إنك تريد عدواً كلباً. فقال: إني أبادر بجهاد العدو موت العباس. إنكم لو فقدتم العباس لا نتقض بكم الشر كما ينتقض أول الحبل.

وكان خروج عمر إلى الشام في هذه المرة أول خرجة خرجها وكتب إلى أمراء الشام أن يستخلفوا على ما بأيديهم ويوافوه بالجابية فلقوه بها. فكان أول من لقيه يزيد بن أبي سفيان، وأبو عبيدة بن الجراح، وخالد بن الوليد على الخيول عليهم الديباج والحرير، فلما رأى عمر ذلك كبر عليه أن يرى القوم في زينة وزخرف وهم قريبوا عهد برسول اللّه أو خاف عليهم أن يكونوا قد افتتنوا بالدنيا وزينتها ـ فنزل عن دابته وأخذ الحجارة ورماهم بها لا يحجزه عنهم ما هم من مكانة شامخة وعز باذخ. وقال: سرع ما لُفِتُّم عن رأيكم. إياي وتسقبلون بهذا الزي وإنما شبعتم منذ سنتين. سرع ما ندت بكم البطنة وتاللّه لو فعلتموها على رأس المائتين لاستبدلت بكم غيركم فلم يكن من القوم إلّا أن قالوا: يا أمير المؤمنين إنها يلامعة وإن علينا السلاح ـ قال فنعم إذن وركب حتى نزل الجابية وبينما عمر بالجابية إذ فزع الناس إلى السلاح فسأل عن شأنهم فقالوا: ألا ترى الخيل والسيوف فنظر فإذا كردوس يلمعون بالسيوف، فقال: هذه مستأمنة فلا تراعوا وأمنوهم. فإذا هم أهل إيلياء قد جاءوا للصلح.

ذلك أن أهل إيلياء قد اشتد عليهم الحصار وصاروا به في ضنك شديد وأيقنوا بعد انقطاع المدد عنهم واستيلاء المسلمين على أطراف الشام ومدنها أنهم مأخوذون ولا مطمع لهم في إنقاذ دولة الروم إياهم بعد أن دالت في هذه الناحية

دولتهم وزالت عن البلاد سلطنهم وأشفقوا أن لا يعطيهم المسلمون ما أعطوا غيرهم من أهل المدن الأخرى من الأمان لما أسلفوا من شدة قتال وقوة مراس، ولما بذله المسلمون في حربهم من الدماء. وربما كان القوم قد ظنوا أن المسلمين يَرَوْنَ أن مدينتهم بها البيت المقدس الذي يرى المسلمون تعظيمه. فخافوا أن يغلبوهم عليه ويزيلوا منه معالم الأديان الأخرى وينتزعوا منهم كنيستهم العظمى وقبلتهم المقدسة ويحرموهم ذلك بحق الفتح فرأوا توكيداً للأمان وزيادة في توثيق عري العهد أن يباشروا ذلك مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

ولما ورد أهل إيلياء إلى الجابية أخبروا أنهم نواب الصلح وأن أميري الجند الرومي قد لحقا بمصر فصالحهم عمر على إيلياء وحيزها والرملة وحيزها وكتب لهم بذلك كتباً. وكتب لأهل إيلياء كتاباً خاصاً وهذا نصه:

« بسم الله الرحمن الرحيم » هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود. وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوت (وفي رواية الصوص ولعلها الصحيحة) فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم. ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وعلى صلبهم حتى يبلغوا مأمنهم. ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان (هكذا في جميع ما رأيت من التواريخ) فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم. وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة

المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية شهد على ذلك خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان وكتب وحضر سنة ١٥ هـ.

ولما بعث عمر بأمان بيت المقدس وسكنها الجند شخص إلى بيت المقدس من الجابية وكان فرسه قد وجى فأتى ببرذون فركبه فلما سار جعل يتخلج به فنزل عنه وضرب وجهه بطرف ردائه وقال لا علم الله من علمك هذا من الخيلاء. ودعا بفرسه فركبه حتى جاء إلى المسجد الأقصى ليلاً فدخله وصلى في محراب داوود ولم يلبث أن طلع الفجر فأمر المؤذن بالإقامة وتقدم فصلى بالناس بسورة ص وصدر بني إسرائيل ثم انصرف فقال: عليَّ بكعب (كعب الأحبار) فلما أتى به قال: أين ترى أن نجعل المصلي؟ فقال: إلى الصخرة فقال: ضاهيت والله اليهودية يا كعب، وقد رأيتك وخلعك نعليك. فقال: أحببت أن أباشره بقدمي. فقال: قد رأيتك. بل نجعل قبلته صدره كما جعل رسول الله قبلة مساجدنا صدورها اذهب إليك فإنا لم نؤمر بالصخرة ولكنا أمرنا بالكعبة، ثم قام إلى كناسة كانت قد كانت الروم دفنت فيها بيت المقدس وهو الهيكل في زمان بني إسرائيل وقال: يا أيها الناس اصنعوا كما أصنع وحثا في أصلها وحثا في قباء. وسمع تكبيرة من خلفه. فقالوا ما هذا: فقالوا كبر كعب فكبر الناس بتكبيره فقال: عليّ به. فأتى فسأله عن سبب تكبيره. فقال: يا أمير المؤمنين إنه قد تنبأ على ما صنعت نبي منذ خمسمائة سنة، وسرد له خبراً ذكره الطبري كله من الإسرائيليات التي ابتدعها هو وسواه ولا أصل لها.

إن كعباً ـ ككل يهودي ـ فرح بدخول المسلمين إلى بيت المقدس وافتتاحه لأن ذلك يشفي بعض ما في صدورهم من الغلة والحقد على المسيحية والقائمين بها، وقد كان بيت المقدس محرماً عليهم دخوله والدنو منه. وهم بذلك الفتح ينالون حرية أداء العبادة فيه وهو معبدهم الأول وبلدهم العتيق فلا غرو أن كانوا أكثر الناس فرحاً بهذا الفتح الذي ينيلهم الحرية الدينية.

والعبرة من هذا الفتح تظهر جلية واضحة من كتاب عمر بالأمان الذي حشوه الرفق والعدل والحرية وصيانة الدماء والحقوق فإن بيت المقدس لم يدخل مدينته أحد من الفاتحين كما دخلها خليفة المسلمين أمير المؤمنين عمر بن الخطاب منذ خلقت إلى ذلك العهد. بل كان الفاتح يدخلها مخرباً مبيداً مدمراً عاتياً جباراً سفاكاً لا رحمة عنده ولا شفقة عليهم لديه. فهذا بختنصر في الخراب الأول وطيطوس في الخراب الثاني على رأس سبعين سنة ميلادية قد فعلا الأفاعيل وخربا المدينة والمسجد تخريباً، وأما عمر فقد دخلها كما وصفنا وأعطى أهلها من الأمان ما بينا.

ولما جاءها بعد ذلك (غودوفروا دوبيون) قائد الجيوش الصليبية استن بأهلها سنة وثني بابل ووثني رومة فخرب المسجد وأجزر السيف تسعين ألفاً من أهلها المسلمين.

ولما جاء صلاح الدين الأيوبي وأخذها من الصليبيين دخلها دخولاً عمرياً وأمن أهلها على نفوسهم وأولادهم ونسائهم وخرجوا منها على فداء طفيف يؤدونه. وقد تجاوز أخوه أبو بكر العادل عن ذلك المقدار لكثير من النساء وكان الثناء عليه عامّاً في أوروبا وعلى أخيه صلاح الدين.

وفي سنة ١٧ هـ أراد عمر رضي اللّه عنه أن يزور الشام للمرة الثانية فخرج إليها ومعه المهاجرون والأنصار حتى إذا نزل بسَرَغ على حدود الحجاز والشام لقيه أمراء الأجناد فأخبروه أن الأرض سقيمة وكان الطاعون بالشام. فقال عمر لابن عباس اجمع لي المهاجرين الأولين، قال: فجمعتهم فاستشارهم فاختلفوا عليه، فمنهم القائل خرجت لوجه تريد فيه اللّه وما عنده، ولا نرى أن يصدك عنه بلاء عرض لك. ومنهم القائل: إنه لبلاء وفناء ما نرى أن تقدم عليه. فلما اختلفوا عليه قال: قوموا عني، ثم قال لابن عباس اجمع لي مهاجرة الأنصار. فجمعهم له، فاستشارهم فسلكوا طريق المهاجرين فكأنما سمعوا ما قالوا فقالوا مثله. فلما اختلفوا عليه قال قوموا عني. ثم قال: اجمع لي مهاجرة

الفتح من قريش، فجمعهم له فاستشارهم فلم يختلف عليه منهم اثنان وقالوا ارجع بالناس فإنه بلاء وفناء. فقال عمر يا بن عباس اصرخ في الناس فقل إن أمير المؤمنين مصبح على ظهر ، وأصبحوا عليه فلما اجتمعوا قال: أيها الناس إني راجع فارجعوا. فقال أبو عبيدة بن الجراح: أفراراً من قدر الله؟ قال: نعم فراراً من قدر الله إلى قدر الله، أرأيت لو أن رجلاً هبط وادياً له عدوتان إحداهما خصبة والأخرى جدبة، أليس يرعى من رعى الجدبة بقدر الله ويرعى من رعى الخصبة بقدر الله؟ لو غيرك يقول هذا يا أبا عبيدة. ثم خلا به بناحية دون الناس، فبينا الناس على ذلك إذ أتى عبد الرحمن بن عوف وكان متخلفاً عن الناس لم يشهدهم بالأمس، فلما أخبر الخبر قال: عندي من هذا علم، قال عمر: فأنت عندنا الأمين المصدق، فما ذا عندك؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إذا سمعتم بهذا الوباء ببلد فلا تقدموا عليه وإذا وقع وأنتم به فلا تخرجوا فراراً منه لا يخرجنكم إلا ذلك » فقال عمر: لله الحمد، انصرفوا أيها الناس. فانصرفوا.

كان حصول الطاعون في ذلك الوقت بعد المجازر البشرية وكثرة القتلى وتعفن الجو وفساده بتلك الجيف أمراً طبيعياً وبخاصة إذا عرفنا أن وسائل الوقاية الصحية لم تكن معروفة في ذلك الزمن. على أن مجرى اجتماع الجيوش الكثيرة في مكان واحد داع إلى فشو الأمراض والأوبئة. وقد اجتمع في تلك البلاد كثير من الجنود بين روم وعرب فكان لابد من حصول الأوبئة.

وبعد انصراف عمر حصل الطاعون الجارف المعروف بطاعون عَمْوَاس وكانت شدته بالشام فهلك به خلق كثير منهم أبو عبيدة بن الجراح وهو أمير الناس، ومعاذ بن جبل، ويزيد بن أبي سفيان، والحارث بن هشام وقيل اشتشهد باليرموك، وسهيل بن عمر، وعتبة بن سهيل وأشراف الناس. ولم يرتفع عنهم الوباء إلّا بعد أن وليهم عمرو بن العاص فخطب الناس وقال لهم: أيها الناس إن هذا الوجع إذا وقع فإنما يشتعل استعمال النار فتجنبوا منه في

الجبـال، فخرج وخـرج الناس فتفـرقوا حتى رفعـه اللّٰه عنهم فبلغ عمر مـا فعله عمرو فما كرهه.

أما السر في اشتداد الطاعون في دمشق دون سواها من بلدان سورية، فهو أن أهل دمشق إنما يشـربون من النهـر (نهر بَرَدى) وهـو عرضـة للتلوث بجراثيم الوباء ونقل العدوى بواسطتـه سهل جـداً وانتشارهـا مضمون. أمـا بقية البـلاد فيغلب أن يكـون شـربهم من العُيـون وهي أقـل قـابليـة للتلوث ونشر المـرض وتعميمـه وهو السر أيضـاً في أنهم لما ارتفعـوا في الجبال كـان ذلك سببـاً لـزوالـه عنهم.

وأهـل دمشق الآن لا يشربـون من نهر بَرَدَى وإنمـا يشربـون من ماء عـين الفيجة ساقـوه في الأنابيب إلى بلدهم ومـاء نهر بَرَدى يـدخل في جميـع بيوتهم ولا ينتفعون منه بالشرب وإنما يستعملونه في غسل الملابس والأواني ونحوها.

رأى عمر بعد ارتفـاع الطاعـون أن يسير إلى الشـام لينظر في أمـور الناس بعد هذا المصاب الذي دهمهم. فسار حتى نزل الشام ونظر في أمـور الناس وولى الولاة وورث الأحياء من الأمـوات. ثم خطبهم خـطبة قـال « ألا وإني قد وليت عليكم وقضيت الذي عليّ في الذي ولاني اللّٰه من أمركم. إلى أن قـال فمن علم علم شيء ينبغي العمـل بـه فبلغنـا نعمـل بـه إن شـاء اللّٰه، ولا قـوة إلا بـاللّٰه » وحضرت الصلاة فقال الناس لو أمرت بلالاً فأذن. فـأمره فـأذن فما بقي أحـد كان أدرك رسول اللّٰه وبلال يؤذن له إلا بكى حتى بلّ لحيته وبكى من لم يـدركه ببكائهم لذكره ﷺ.

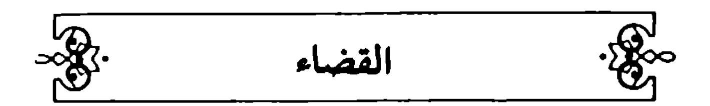
وفي عهد عمر رضي اللّٰه عنه فتحت حلب وقنسرين كـما قدمنـا وأنطاكيـة وبلاد سواحل الشام كبيروت وطرابلس وغيـرها، ودانت كـل هذه البـلاد لحكم المسلمين.

وفي عهده كان فتح مصر على يـد عمرو بن العـاص السهمي. وسنفردهـا

بكلام خاص نستوفي الكلام على ذلك متى جاء وقت ذلك.

هذا ما كان من الفتوح في عهد عمر بن الخطاب ـ ومدته لا تزيد عن عشر سنوات. ففتحت فارس كلها ووقف المسلمون من جهة الشرق على نهر السند ونهر جيحون فلم يتعدوهما في عصره. وفتحت بلاد الشام ومصر وأديرت هذه البلاد على مقتضى العدل الإسلامي فتقبل الناس حكمه مسرورين لأنه قد أزال عنهم جبروت الملوك وعسف الجبابرة.

ولما كانت حياة عمر ممتازة بكثير من الميزات التي جعلتها أساساً عظيماً لكثير من المدينة الإسلامية ـ حسن بنا أن نورد جملاً بتعرف منها مقدار هذا الرجل العظيم الذي ساس العرب سياسة لم تعرف لغيره من سائر الناس متأسياً في ذلك برسول الله ﷺ وصاحبه أبي بكر الصديق رضي الله عنه.



القضاء

قدمنا في الكلام على أبي بكر رضي الله تعالى عنه أنه لم يتخذ قاضياً في أيام خلافته، بل كان القضاء في يده، فكان الأمير والقاضي والمنفذ. وبعبارة أوضح كانت في يده القوات الثلاث: وهي القوة التشريعية، والقوة القضائية، والقوة التنفيذية. وليس معنى قولنا إن القوة التشريعية في يده أنه كان يأتي الناس بشرع جديد. وإنما معنى ذلك أنه الأمير الذي ينظر في الكتاب والسنة ويجتهد في الوقائع التي ليس فيها شيء من النص. وهو الذي يحكم بمقتضى ذلك فهو بهذه المثابة قاض، ثم إنه يمضي ذلك الحكم فهو منفذ.

وقد قدمنا أيضاً أنه كان يفوض إلى عمر النظر في الوقائع التي كان يدلي بها الخصوم إليه ـ غير أنه لم يختصه بذلك ويفرغه له، ولم يكن لعمر اسم قاض في زمنه.

أما عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد كان في مسائل الفتوح وتدبير

أمـور الخلافـة التي تشعبت ونمت نمّواً عـظيـماً في عهـده، مـا يشغله عن التفـرغ للقضاء فرأى أن يفرغ نفسه وبعض أمـرائه لمـا هم بصدده فعـين قضاة مختصـين بفصل الخصومات بين الناس فولى أبا الدرداء معه بالمـدينة، وولى شـريحاً قضـاء الكوفة وولى أبـا موسى الأشعـري بالبصـرة وقيس بن أبي العاص السهمي قضاء مصر وهو أول قاض بها في الإسلام. أما بقية الأمصار والولايـات فكان القضـاء فيها إلى الأمير الـذي عليها. وإنمـا كان عمـر حريصـاً على تفـريغ نفسـه وبعض أولئك العمال والأمـراء لما قصـده من تفريـغ نفسه وذلـك البعض للقيام بـأعباء السياسة العامة وأَشغالها الكثيرة من الجهاد والفتوح وسد الثغور وحماية البيضة.

وقد كان شريح بن الحارث الكندي قاضي الكوفة من كبار التـابعين ظـل قاضياً بها خمساً وسبعين سنة لم يتوقف عن قضائه فيها سوى ثلاث سنـين في فتنة ابن الزبير ولما ولى الحجاج استعفاه فأعفاه. ومن طُرف قضائه أن عدي بن أرطأة دخـل عليه. فقـال: إني رجل من أهـل الشـام. فقـال: مكـان سحيق. قـال: تزوجت عندكم قال: بالرفاء والبنـين. قال: وأردت أن أرحلهـا. قال: الـرجل أحق بأهله. قال: وشرطت لها دارها. قال: الشرط أملك. قال: فاحكم بيننا، قال: قد حكمت.

وقد ساق صاحب العقد الفريد حكاية تزوجه بـزينب بنت جريـر من بني تميم كيف اضطرته لأن يخطب ليلة زفافها عليه لما بدأته بالخطبة وأنه ظل معها في أهنأ عيش عشرين سنـة لم يعتب عليها في شيء إلا مـرة واحدة ـ قـال وكنت لها ظالماً: أخذ المؤذن في الإقامـة بعدمـا صليت ركعتي الفجر وكنت أمـام الحي فإذا بعقرب تدب فـأخذت الإنـاء فأكفـأته عليهـا ثم قلت يا زينب لا تتحـركي حتى آتي. فلو شهدتني يا شعبي وقـد صليت ورجعت فإذا أنـا بالعقـرب قد ضـربتها فدعوت بالكُسْت والملح فجعلت أمغث إصبعها وأقرأ بالحمـد والمعوذتـين. وكان لي جار من كندة يُفزِّع امرأته ويضربها فقلت في ذلك:

رأيت رجـالاً يضـربـون نسـاءهم   فشلت يمـيني حـين أضـرب زينبـاً

أأضربها في غير ذنب أتت به   فما العدل مني ضرب من ليس مذنباً
فزينب شمس والنساء كواكب   إذا طلعت لم تبد منهن كوكباً

أما أبو الدرداء رضي اللّه تعالى عنه فكان من أصحاب رسول اللّه ﷺ.

ومن أعرف من ولاهم عمر القضاء أبو موسى الأشعري، وكان مع ذلك ذا بلاء في الحروب وقيادة الجند وله أثر جميل في فتوح فارس. وقد كتب إليه عمر رضي اللّه عنه كتابه المشهور في القضاء يبين كثيراً من نظام القضاء وأصوله وهو يعتبر بمثابة لائحة داخلية يعمل القضاة بمقتضاها. وهذا نصه:

« بسم اللّه الرحمن الرحيم » من عبد اللّه عمر أمير المؤمنين إلى عبد اللّه ابن قيس. سلام عليك، أما بعد: فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة[١] فافهم إذا أدلى إليك[٢] فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له. آس بين الناس[٣] في وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك. البينة على من ادعى واليمين على من أنكر. والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً[٤] لا يمنعك قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه عقلك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق فإن الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل[٥] الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في

(١) يريد أن يبين له المادة التي يقضي بها وهي لا تعدو ما حده اللّه وهذا ما أشار إليه بالفريضة المحكمة وما بينه رسوله وهي ما أشار إليه بقوله وسنة متبعة.

(٢) يريد أن يدلي بحجة مهما كان مصيباً وقوله حقاً واضحاً فإن كلامه لا ينفعه إذا لم يكن لكلامه نفاذاً إلى قلب القاضي وذلك لا يكون إلاّ بالتقيد لما يقوله الخصوم.

(٣) هذا أساس المساواة التي جاء بها الدين ولا احترام للقضاء بدونها فإن القاضي إذا كان له ضلع مع أحد الخصمين فشت قالة السوء فيه وإن نجا من عواقبها اليوم فليس بناج غداً.

(٤) هذا أمر يوافقه ما أتفقت عليه جميع القوانين من أن كل صلح يخالف فيه القانون العام فهو باطل لا قيمة له لأن الخصم إذا ملك حق نفسه وساغ له التصرف بما شاء فإنه لا يملك حق الشارع الذي راعى بتشريعه العام حق الجمهور.

(٥) يريد بذلك أن القاضي لا يتقيد بما فهمه من النصوص في قضية فحكم به. بل إذا ظهر له وجه

كتاب ولا سنة[1]. ثم اعرف الأشباه والأمثال، فقس الأمور عند ذلك واعمد إلى أقربها إلى اللّه وأشبهها. واجعل من ادعى حقاً غائباً أمداً ينتهي إليه فإن أحضر بينته وإلا استحللت عليه القضية فإنه أنفى للشك وأجلي للعمى[2] المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً في حد أو مجرباً عليه شهادة زور أو ظنيناً في ولاء أو نسب فإن اللّه تولى منكم السرائر ودرأ بالبينات والأيمان، وإياك والقلق والضجر والتأذي بالخصوم والتنكر عند الخصومات فإن الحق في مواطن الحق يعظم به اللّه الأجر ويحسن به الذكر. فمن صحت نيته وأقبل على نفسه كفاه اللّه ما بينه وبين الناس. ومن تخلق للناس بما يعلم اللّه أنه ليس من نفسه شانه اللّه، فما ظنك بثواب غير اللّه في عاجل رزقه وخزائن رحمته. والسلام.

وهذا الكتاب قد اتخذه جمهور من قضاة المسلمين أساساً لنظمهم القضائية، وهو كتاب جليل خليق بذلك.

لم يكن القضاء في زمن عمر إلا سهلاً بسيطاً مجرداً عن النظم الوضعية الكثيرة ولم يكن للقاضي كاتب ولا سجل ولم توضع للمرافعات أصول كالتي

الخطأ في حكمه الأول كان عليه أن يحكم بما ظهر له من الصواب فيمايكون لديه مما يشبه القضية التي حكم فيها خطأ أولاً لأن الخطأ لا يكون قاعدة. ولأن عمر حكم في قضية بحكم ثم بدا له الصواب في قضية تشبهها فلم يغير الحكم السابق. وحكم على مقتضى لصواب في اللاحق، وقال: ذاك على ما قضينا وهذا ما نقضي.

(١) يريد بذلك بيان أصل ثالث للأحكام وهو القياس وهو أن يلحق ما لم يعلم حكمه بما علم حكمه لمشابهة بينهما في السبب الذي من أجله شرع الحكم. ولهذا يكون من أوجب الواجبات على القاضي أن يكون عارفاً بأسرار التشريع حتى يتسنى له هذا الإلحاق ومن ذلك ينتج اشتراط أن يكون مجتهداً لا مقلداً غيره في تفسير أو تأويل.

(٢) يشير بذلك إلى جواز التأجيل إذا طلبه الخصم وكان لطلبه سبب معقول. والذي ذكره من الأسباب هو غيبة الشهود الذين يظهر بهم حقه ثم تقييده بأمد ينتهي إليه إنما كان دفعاً للمشقة التي تحصل لأحد الخصمين بطلب التأجيل من خصمه الآخر في كل جلسة، فيظل أبد الدهر تحت رحمته ـ لهذا قيده بأمد يستحل عليه القضية إذا لم يثبت حقه فيه.

وضعت الآن فلم تكن الدعاوي بصيغة خاصة وأركان معينة ولابد من سبق إعلان في مدة خاصة إلى آخر ما وضع من الناس ثم صار عمدة في القضاء أكثر من الحكم الشرعي المقصود.

سيرة عمر في عماله

معلوم أن الخليفة في الأمة قائم بين اللّه وبين عباده في إقامة العدل وتأييد الحق وإقامة الدين وسياسة الدنيا به وإلزام كل إنسان حد ماله وما عليه دون بغي عليه أو استطالة منه على سواه.

ولما كان القائم بالخلافة يستحيل عليه أن يباشر كل شيء من ذلك في البلدان المختلفة والأصقاع النائية في ملك مترامي الأطراف كان لابد من تفويض ذلك منه إلى عمال يقومون عنه بذلك الأمر في نواحيهم ويكونون بينه وبين الرعية يطالعونه بأمورهم ويسوسونهم بسياسته.

ولا يعزب عنا أن عمر كان حريصاً على اتباع الكتاب الكريم فيما جاء به والاستنان بسنة رسول اللّه ﷺ في كل قول أو عمل يعلم أنه قاله أو عمله سائراً بسيرته بين الناس سائساً لهم بسياسته ومتحرياً لما أخذ به أبو بكر من ذلك. وقد كان حريصاً كل الحرص على أن يأخذ عماله بسيرته ويؤدبهم بآدابه رعاية للرعية وتحقيقاً لحسن ملكة الإسلام وسماحة الدين وعدله. ويعتد نفسه شريكاً للعامل في كل هفوة يهفوها قسيماً له في كل جريمة يقترفها، إنما يأتي ذلك بماله من السلطان الذي يستمده منه، ويرى نفسه مسؤولاً أمام اللّه عن ذلك.

قال الأستاذ الخضري: كان عمر ممن يشترون رضا العامة بمصلحة الأمراء. فكان الوالي في نظره فرداً من الأفراد يجري حكم العدل عليه كما يجري على غيره من سائر الناس. فكان حب المساواة لا يعد له شيء من أخلاقه: إذا اشتكى العامل الرعية جره إلى المحاكمة حيث يقف الشاكي والمشكو منه يسوي

بينهما في الموقف حتى يظهر الحق فإن توجه قبل العامل اقتص منه إن كان هناك داع إلى القصاص أو عامله بما تقضي به الشريعة أو عزله. وإني أقول: إن هذا الرأي الذي كان يراه عمر واستغرق وجدانه ومشاعره هو الرأي الذي ينص عليه في قوانين أكثر الأمم عدالة وأسماهم حرية وأحرصهم على المساواة بين أفراد الأمة بعد أن أغرقوا في العلم والمدنية وساروا في الحضارة والفلسفة الاجتماعية شوطاً بعيداً وأجروا في سبيل تلك الحرية والمساواة والعدالة أنهاراً من الدماء. وأزاروا المقابر عشرات الألوف في سبيل تحقيق غرضهم وإن القوانين التي أخذت أخذ هؤلاء الناس واقتبست من قواعدهم، ثم استثنت بعض ذوي المقامات وأخرجتهم من حكم القانون العام تدل بأوضح دلالة على أن فيها عرقاً ينبض إلى الاستبعاد والاستبداد، إن لم نقل إنها تميل إلى الاستنبات بجعل فريق من الناس في نظر قليل منهم كأنواع النبات التي ينصرف فيها مالكها بما يشاء ويهوى ـ وليس عمر بدعاً فيما كان يصنع: فقد كان مظهراً لا مبتدئاً.

فقد تقرر ذلك بمقتضى قوله تعالى ﴿إن أكرمكم عند اللّه أتقاكم﴾[1] وبمقتضى قول رسول اللّه ﷺ في حجة الوداع «لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى» وإنما جعل هذا الخلق ظاهراً في عمر أن الفتوحات قد كثرت والملك قد اتسع فكثرت العمال وطال زمن عمر وحدثت الأحداث وظهرت خطته في ذلك واضحة.

ومعلوم أن سواس الأمم يختلفون في شأن مؤاخذة العامل ذي السلطان بما يصدر منه من الهفوات ومجازاته بما يجترم من السيئات لأن فريقاً يرون أن التجاوز عن سيئاته وغض الطرف عن زلاته أهيب لمقامه في نظر الرعية. ومن هذا القبيل سياسة الدولة الإنجليزية مع عمالها في المستعمرات لا تكسرهم أمام المحكومين ولا تؤاخذهم بما يصدر منهم من المخالفات لئلا يكون ذلك مدرجة لكثرة مطالب الرعية وكيدها للعمال وتجنيها عليهم أما في بلاد الإنجليز أنفسهم فإن الحاكم إذا

(١) سورة الحجرات: الآية ١٣

تعدى حد عمله وسام أحد الرعية بأذى فإن القضاء له بالمرصاد والقانون يوفيه جزاءه العادل. وقد كان أبو بكر على هذا الضرب من السياسة مع قواده وعماله في أيام أهل الردة وقيام الاضطراب في كل ناحية. وهي حال خاصة يغتفر فيها ما لا يغتفر في غيرها. وكان عمر يخالفه في هذا النحو من السياسة ويشير عليه بالاقتصاص من كل مخالف. وإن ما ذكرناه من إحضار سعد بن أبي وقاص من الكوفة لشكوى رفعها بعض من ألبوا عليه في وقت كان المسلمون في أشد الحاجة إليه إذ كانت البعوث تضرب على الناس وهم في التهيؤ لمناهضة العجم الذين جمعوا الجموع لحرب المسلمين وإخراجهم من فارس فلم يكرثه ذلك ولم يشغله عن النظر في شكوى الشاكين وسعد من نفس عمر بالمنزلة التي دفعت به إلى جعله من أصحاب الشورى الذين ينتخب الخليفة منهم من بعده. وقد قال للمؤلبين: « إن الدليل على ما عندكم من الشر نهوضكم في هذا الأمر وقد استعد لكم من استعد ـ يعني الفرس وايم الله لا يمنعني ذلك من النظر فيما لديكم وإن نزلوا بكم ». وقد كانت مصلحة العامة عنده فوق كل شيء[1].

كان عمر شديد المراقبة لعماله كثير السؤال عن سيرتهم وأخبارهم يقيم عليهم العيون يوافونه بأخبارهم ولا يتركون خبر سوء يبلغه عن أحدهم دون تحقيقه والتثبت في شأنه تثبتاً لا يدع للشك مجالاً ولا يغفل أن يرسل إليهم الأوامر تباعاً أن يعدلوا ولا يظلموا ولا يأخذوا بالظنة ولا يبغوا ولا يغدروا.

ولما غدر الهرمزان بعد العهد خشي أن يكون ذلك من ظلم أصابه من المسلمين فاستقدم وفداً من البصرة فيهم الأحنف بن قيس وسأله عن غدره أعن ظلم؟ قال: لا، فكتب إلى عتبة بن غزوان زيادة في الوصية ومبالغة في التوكيد: « أعزب الناس عن الظلم واتقوا واحذروا أن يدال عليكم لغدر يكون منكم أو بغي فإنكم إنما أدركتم بالله ما أدركتم على عهد عاهدكم عليه وقد تقدم إليكم فيما أخذ عليكم فأوفوا بعهد الله وقوموا على أمره يكن لكم عوناً وناصراً ».

---

(١) ومن ذلك أنه جلب أبا موسى من البصرة حين شكاه الرجل العنزي.

وبلغه أن حرقوصا عامله على الأهواز نزل جبلاً كؤوداً يشق على من رامه والناس يختلفون إليه فكتب إليه « أما بعد: بلغني أنك نزلت منزلاً كؤداً لا تؤتى فيه إلا على مشقة. فأسهل ولا تشق على مسلم ولا معاهد وقم في أمرك على رجل تدرك الآخرة وتصفُ لك الدنيا. ولا تدركنك فترة ولا عجلة فتكدَرَ دنياك وتذهب آخرتك ».

وخطب عمر فقال: « يا أيها الناس، إني والله ما أرسل عمالي إليكم ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم ولكني أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسننكم ويقضوا بينكم بالحق ويحكموا بينكم بالعدل فمن فُعل به شيء سوى ذلك فليرفعه إليّ، فوالذي نفس عمر بيده لأقصنهُ منه » فوثب عمرو بن العاص فقال: يا أمير المؤمنين، أرأيت إن كان رجلاً من أمراء المسلمين على رعيته فأدب بعض رعيته إنك لتُقِصُّه منه؟ قال: أي والذي نفس عمر بيده إذن لأقِصّنه منه، وكيف لا أقِصُّه منه وقد رأيت رسول الله ﷺ يقتص من نفسه؟ ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ولا تجمّروهم فتفتنوهم ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم.

وروى الطبري أن عمر كان يقول في عماله: اللهم إني لم أبعثهم ليضربوا أبشَارهم. مَن ظلمه أميره فلا إمرة عليه دوني. وعن أبي رواحة قال: كتب عمر ابن الخطاب إلى العمال: « اجعلوا الناس عندكم في الحق سواء، قريبهم كبعيدهم وبعيدهم كقريبهم، إياكم والرشا والحكم بالهوى وأن تأخذوا الناس عند الغضب فقوموا بالحق ولو ساعة من نهار ».

وكان إذا استعمل العمال خرج معهم يشيعهم فيقول: إني لم أستعملكم على أمة محمد ﷺ على أشعارهم ولا على أبشارهم ولا تجلدوا العرب فتذلوها ولا تجمروها فتفتنوها ولا تغفلوا عنها فتحرموها. جردوا القرآن وأقلوا الرواية عن محمد ﷺ وأنا شريككم.

وكان عمر يأمر عماله في كل سنة أن يوافوه في الموسم ومن كانت له

شكوى أو مظلمة وافاه إلى موسم الحج ورفعها على العامل بحصرته. وهناك ترد إلى المظلوم ظلامته ويُشّكيه من خصمه. فكان العمال يخافون الافتضاح في موقف الحج على رؤوس الأشهاد ويحدو بهم ذلك الخوف إلى الابتعاد عن الظلم.

ولقد أحضر عمر كثيراً من عماله الذين لهم فضل عظيم في الفتوح وأثر كبير في نصرة الدين. فهذا سعد بن أبي وقاص من أخوال رسول الله ﷺ، وهو فاتح القادسية والمدائن والعراق ومدوّخ الفرس وممصر الكوفة، اشتكى عليه بعض رعيته فأرسل محمد بن مسلمة يحقق الشكاية علناً وجاء بسعد وخصومه إلى عمر فوجده بريئاً من كل ما قرف به ولكنه عزله احتياطياً. وأوصى عند وفاته ان يولي لأنه لم يعزله لجناية أو خيانة.

والمغيرة بن شعبة، كان أميراً على البصرة وهو ذو بلاء وغناء في نصرة الدين وفتوح فارس وغيرها. اتهمه بعض من كان معه بتهمة شنيعة فلم يلبث أن أرسل إليه كتاباً عاتبه فيه واستحثه وعزله وأمّر غيره. وهو «أما بعد فقد بلغني نبأ عظيم فبعثت أبا موسى أميراً، فسلم ما في يدك والعجَل العجل». فقدم على عمر ومعه الشهود الذين شكوه فلم تثبت التهمة عليه وأقام عمر الحد عليهم بما فرضه الله لمثلهم.

وهذا عمار بن ياسر، كان أميراً على الكوفة وهو من السابقين الأولين أنهى إلى عمر قوم من الكوفة أنه لا يحتمل ما هو فيه من الولاية عليهم وأنه ليس بأمير يقدر على هذا العمل. فأمره عمر بأن يقدم عليه في وفد من أهل الكوفة، فسألهم عمر عما يشكون من عمار فقال قائلهم. إنه غير كاف ولا عالم بالسياسة وقال قائل منهم: إنه لا يدري علام استعمل؟ فاختبره عمر اختباراً يدل على سعة علمه بفارس ونواحي الكوفة وتصوره موقع كل بلد. فلم يحسن عمار الإجابة في بعض ما سئل عنه فعزله. ثم دعاه بعد ذلك: فقال له أساءك حين عزلتك؟ فقال: والله ما فرحت حين بعثتني ولقد ساءني حين عزلتني. فقال: لقد علمت ما أنت بصاحب عمل ولكني تأولت قوله تعالى ﴿ونريد أن نمن على

الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾[1].

جاء في كنز العمال عن عاصم بن أبي النجود أن عمر بن الخطاب كان إذا بعث عماله شرط عليهم: أن لا تركبوا برذوناً ولا تأكلوا نقياً ولا تلبسوا رقيقاً ولا تغلقوا أبوابكم دون حوائج الناس، إن فعلتم شيئاً من ذلك حلت بكم العقوبة.

أما انتخابه للأمراء وتحريه لأن يكونوا ذوي عفة وقناعة فكان على أتمه وقد تيسر له من هذه الطائفة ما لم يتيسر لغيره. وكان كثير من عماله ينهجون منهجه ويترسمون خطواته فمن عماله سلمان الفارسي على المدائن كان يلبس الصوف ويركب الحمار ببرذعته بغير إكاف ويأكل خبز الشعير، ولما حضرته الوفاة بكى وقال له سعد بن أبي وقاص: يا أبا عبد اللّه ما يبكيك؟ فقال سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «إن في الآخرة عقبة لا يقطعها إلاّ المخفون». وأرى هذه الأساودة حولي. فنظروا فلم يجدوا في البيت إلا إداوة وكوة ومطهرة. وكان أبو عبيدة بن الجراح عامله على الشام يظهر الناس وعليه الصوف الجافي. فعذل في ذلك فقال: ما كنت بالذي أترك ما كنت عليه في عصر رسول اللّه ﷺ.

كان عامله على حمص سعيد بن حذْيَم. فشكاه أهل حمص إلى عمر وسألوه عزله. وكان عمر يعتقد أنهم ظالمون له فقال اللهم لا تقلّ فراستي فيهم وجمع بينهم وبينه فقال ما تنقمون منه؟ قالوا لا يخرج إلينا حتى يرتفع النهار. فقال ما تقول يا سعيد؟ فقال يا أمير المؤمنين إنه ليس لأهلي خادم. فأعجز عجيني ثم أجلس حتى يختمر ثم أخبز خبزي ثم أتوضأ وأخرج إليهم. قال: وماذا تنقمون منه؟ قالوا: لا يجيب بليل. قال قد كنت أكره أن أذكر هذا. إني جعلت الليل كله لربي وجعلت النهار لهم. قال: ماذا تنقمون منه؟ قالوا يوم في الشهر لا يخرج إلينا؟ قال: نعم. ليس لي خادم فأغسل ثوبي ثم أجففه فأمسي. فقال عمر: الحمد للّه لم يقلّ فراستي فيكم يا أهل حمص فاستوصوا بواليكم

---
(١) سورة القصص: الآية ٥.

خيـراً، وبعث إليه بـألف دينار يستعـين بها فـأبقى منها يسيـراً وفرق سـائرهـا في اليتامى والفقراء والمساكين ولم يغير من عادته.

وكان عمر إذا بلغه عن عامل من عماله ريبة في معصية لم يمهله أن يعزله. لأن استصلاح الرعية بضرره بالعزل خير من الإبقاء عليه مع ضـرر الرعيـة. من ذلك أنه استعمل النعمان بن نضلة على ميسان من بلاد فارس وكان يقول الشعر فقال:

ألا هــل أتى الحسنــاء إن حـليلهــا	بميســان يسقي في زجــاج وحنتم
إذا شئتُ غنـتني دهــاقــين قــريــة	وصنــاجـة تشــدو عـلى كــل ميسم
فـإن كنت نـدمـاني فبـالأكبـر أسقني	ولا تـسـقــني بــالأكـبــر المـتـثــلم
لــعــل أمــير المؤمــنــين يــســوءه	تـنــادمـنــا بــالجــوسق المتهــدم

فقال عمر أي والله إنـه ليسوءني ذلـك. وعزلـه، فقدم عـلى عمر وقـال: والله ما أحب شيئاً مما قلت ولكني كنت امرءاً شـاعراً وجـدت فصلاً من القـول فقلت فيه الشعر. فقال عمر: والله لا تعمـل إلى على عمـل ما بقيت وقـد أشار المعري إلى هذه الحادثة بقوله:

أنعمــان مـا سر بـن حنتمــة الـذي	سـررت به من شـرب مـا في الحنـانم

قال الأستاذ الخضري ولم يمض عامل زمن عمر موثوقاً به في كـل أيامـه إلاّ القليلين، وفي مقدمتهم أبو عبيدة عامر بن الجراح.

كان عمر قد أقام محمد بن مسلمة مفتشاً عامـاً يرسله إلى كـل بلد اشتكى على أميره وكان عمر يثق به ثقة تامة وكان أهــلاً لذلك منه وقد كان من رأيه أن يحقق الأمـر تحقيقـاً علنيـاً عـلى مـلأ من الأشهـاد إذ لا محـل للتـأثـير في الشهـود والخصوم لأن يد عمر كانت قوية جداً وقد زاد في حـرية النـاس كثيراً، فـما كان أحد يخشى أميراً ولا عمـر بن الخطاب. اللهم إلاّ المـريب فإن عقـابه عليه كان صارماً.

ومما ساس عمر به عماله أنه كان يحصى عليهم أموالهم قبل توليتهم. فإذا زاد لهم مال بعد ولايتهم صادرهم عليه كله أو بعضه ـ ذلك أنه كان يرى أن لا يتناول العامل من مال الأمة فوق كفايته. فإذا تأثل مالا كان بذلك إما مربياً أخذه من غير حله فبيت مال المسلمين أولى به وفيهم اليتيم والمسكين والضعيف وذو الحاجة. وإما أن يكون راتبه فوق كفايته والمسلمون أولى بما فضل عن كفاية العامل الذ يعمل بالأجر ـ فمن ذلك أن عمر استعمل عتبة بن أبي سفيان على كنانة فقدم المدينة بمال فقال: ما هذا يا عتبة؟ قال: مال خرجت به معي وتجرت فيه. قال ومالك تخرج المال معك في هذا الوجه؟ فصيره في بيت المال.

ومن ذلك أن خالد بن الوليد أدرب هو وعياض بن غنم إلى بلاد الروم ثم انتجع الأشعث بن قيس خالداً من العراق فوصله خالد بعشرة آلاف درهم وكان عمر كما نعلم لا يخفي عليه شيء في عمله، فكتب إليه بخروج من خرج من العراق إلى الشام وبجائزة من أجيز. فدعا البريد وكتب معه إلى أبي عبيدة أن يقيم خالداً ويعقله بعمامته وينزع قلنسوته حتى يعلمهم من أين أجاز الأشعث أمن ماله أم من إصابة أصابها؟ (يعني المغنم) فإن زعم أنه من إصابة فقد أقر بخيانة. وإن زعم أنها من ماله فقد أسرف وأعزله على كل حال واضمم إليك عمله. فكتب أبو عبيدة الى خالد فقدم عليه ثم جمع الناس وجلس لهم على المنبر. فقام البريد فقال: أمن مالك أجزت بعشرة آلاف أم من إصابة؟ فلم يجبه حتى أكثر عليه وأبو عبيدة ساكت لا يقول شيئاً. فقام بلال إليه فقال: إن أمير المؤمنين أمر فيك بكذا وكذا ثم تناول قلنسوته فعقله بعمامته فقال ما تقول؟ أمن مالك أم من إصابة؟ قال: لا بل من مالي. فأطلقه وأعاد قلنسوته وعممه بعمامته بيده وقال « نسمع ونطيع لولاتنا ونفخم ونخدم موالينا ». وأقام خالد لا يدري أمعزول هو أم غير معزول؟ وأبو عبيدة لا يخبره كرامة له وكان عمر لما أبطأ عليه علم بالذي كان. فكتب إلى خالد بالقدوم عليه. فعتب خالد على أبي عبيدة لأنه لم يعلمه بأمر عمر. ثم إن خالداً قدم إلى المدينة على عمر فشكاه

وقال: لقد شكوتك للمسلمين وبالله إنك في أمري غير مجمل يا عمر. فقال عمر: من أين هذا الثري؟ قال من الأنفال والسهمان ما زاد على الستين ألفاً فهو لك. فقوَّم عروضه فكانت ثمانين ألفاً أدخل منها بيت المال عشرين ألفاً. ثم قال: يا خالد والله إنك علي لكريم وإنك إليّ لحبيب ولن تعاتبني بعد اليوم على شيء. وكتب عمر إلى الأمصار « إني لم أعزل خالداً عن سخطة ولا خيانة ولكن الناس فتنوا به فخفت أن يوكلوا إليه وأن يبتلوا به فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع وأن لا يكونوا بعرض فتنة ». ويدل عليّ أنه عمل ما عمل لا عن خيانة أو ريبة، أن عمر قام يوماً خطيباً فقال من خطبته « وإني أعتذر إليكم من خالد ابن الوليد فإني أمرته أن يحبس هذا المال على ضعفة المهاجرين، فأعطاه ذا البأس وذا الشرف وذا اللسان، فنزعته وأمرت أبا عبيدة » والذي أفهمه من قوله هذا أنه لو تحرى بالعطاء أهل الضعف والحاجة من المهاجرين، ولم يضع عطاءه في الأشعث بن قيس ونحوه، لم يجد عمر عليه سبيلاً.

ولقد سمع هذه الخطبة أبو عمرو بن حفص بن المغيرة ـ وهو ابن عم خالد ـ فقام فقال: والله ما اعتذرت يا عمر ولقد نزعت عاملاً استعمله رسول الله ﷺ وأغمدت سيفاً سله رسول الله ﷺ ووضعت أمراً نصبه رسول الله ﷺ وقطعت رحماً وحسدت ابن العم. فقال عمر إنك قريب القرابة حديث السن مغضب في ابن عمك. ومن كلام عمر ـ وقد طُعن ـ « لو أدركت خالد بن الوليد لوليته فإذا قدمت على ربي فسألني من وليت على أمة محمد؟ قلت أي رب سمعت عبدك ونبيك يقول: خالد بن الوليد سيف من سيوف الله سله على المشركين » وما كان فإني أفهم أن عمر كان متحاملاً على خالد.

وقد ورد أن عمر قاسم سعد بن أبي وقاص ماله وكذلك عمرو بن العاص. قد يجد هذا العمل مجالاً للانتقاد من الوجهة النظرية الدينية، ولكن عمر (كما قال الأستاذ الخضري) كان يعرف مَن من عماله يستحق هذه العقوبة أن تقع عليه. إذ ماذا يعمل برجل ولاه وهو يعرف مقدار عطائه ورزقه ثم يراه

بعد ذلك قد أثرى ثروة لو جمعت أعـطياتـه ما بلغتهـا؟ لم ير عمـر أمام ذلـك إلاّ هـذه المصادرة وقـد اكتفى بأن يشـاطر العـامل مـا يملك، ولست أريد أن أحسن هـذه الطريقة.

معاملة عمر للرعية: كـانـت رأفـة عمر ورقته على عامة النـاس في وزان ما كان عليه من الشدة على عمـاله فكـان عمر شـديد الاهتمـام بأمـر الرعيـة دائم العناية بمـا يصلحهم وكان يحس من ذلـك بمسؤولية عـظمى. فكان يقـول لو أن جمـلاً هلك ضياعـاً بشط الفرات لخشيت أن يسـأل اللّه عنـه آل الخطـاب (يعني نفسه) وقد قال هشام الكعبي رأيت عمر يحمل ديـوان خزاعـة حتى ينزل قـديداً فنـأتيه بقـديد، فـلا يغيب عنه امـرأة ولا بكر ولا ثيب فيعـطيهن في أيديهن، ثم يروح فينزل عسفان فيفعل مثـل ذلك أيضـاً حتى توفي. وقـال الحسن البصري: قال عمر: لئن عشت لأسيرن في الرعية حولاً فإني أعلم أن للناس حوائج تقـطع دوني فأما عمالهم فلا يرفعونها إليّ، وأمـا هـم فلا يصلون إليّ، فـأسير إلى الشـام فـأقيم بها شهـرين. ثم عدّد الأمصـار الكبرى يقيم في كـل منهـا شهـرين (وقـد حالت منيته دون هـذه السياحة).

وروى أسلم: قال خرجت مع عمر بن الخطاب إلى حرة وأقـم، حتى إذا كنا بصرار إذا نار تؤرث فقال: يـا أسلم أرى هؤلاء ركباً قصر بهم الليـل والبرد انـطلق بنا فخـرجنا نهرول حتى دنـونا منهم، فـإذا امرأة معهـا صبيان لهـا وقـدر منصوبة عـلى النار وصبيـانها يتضاغـون. فقال عمـر السلام عليكم يـا أصحاب الضوء (وكره أن يقول النار) قالت المرأة: وعليك السلام. فقال أأدنو؟ قالت أدن بخير أودع فقال ما بالكم؟ قالت قصر بنا الليل والبرد. قال فما بال هؤلاء الصبية يتضاغون؟ قالت الجوع. قال وأي شيء في القدر قالت ماء أسكتهم به حتى يناموا، اللّه بيننـا وبين عمـر. فقال: أي رحمـك اللّه ما يـدري عمر بكم. قـالت يتولى أمـورنا ويغفـل عنا. فـأقبل عـلي فقال انـطلق بنا فخـرجنا نهرول حتى أتينـا دار الدقيق فأخرج عدلاً فيه كبة شحم فقـال أحملـه علي. قلت أنـا أحمله عنك قـال

احمله عليّ (مرتين أو ثلاثاً) كل ذلك أقول أنا أحمله عنك فقال أخر ذلك أنت تحمل عني وزري يوم القيامة لا أم لك، فحملته عليه. فانطلق وانطلقت معه نهرول حتى أتينا إليها فألقى ذلك عندها وأخرج من الدقيق شيئاً وجعل يقول ذري علي وأنا أحرك لك وجعل ينفخ تحت القدر وكان ذا لحية عظيمة فجعلت أنظر إلى الدخان من خلال لحيته حتى أنضح أدم القدر وقال إبغيني شيئاً. فأتته بصحفة فأفرغها فيها وجعل يقول أطعميهم وأنا أسطح لك فلم يزل حتى شبعوا ثم خلى عندها فضل ذلك وقام وقمت معه. فجعلت تقول: جزاك الله خيراً، أنت أولى بالأمر من أمير المؤمنين. فيقول: قولي خيراً، إنك إذا جئت أمير المؤمنين وجدتيني هناك إن شاء الله. ثم تنحى ناحية ثم استقبلها وربض مربض السبع. فجعلت أقول إن ذلك لشأناً غير هذا وهو لا يكلمني حتى رأيت الصبية يصطرعون ويضحكون ثم ناموا وهدأوا فقام وهو يحمد الله ثم أقبل عليّ فقال: يا أسلم إن الجوع أسهرهم وأبكاهم فأحببت ألا أنصرف حتى أرى ما رأيت فيهم.

ومعلوم أن الحوادث الصغيرة كهذه الحادثة تدل على روح الرجل وأحواله النفسية وتنبيء عن شفقته وخوفه أن يكون مقصراً في حق من وليهم من الرعية ونحن نخجل في عصرنا هذا، لأننا لا نجد أميراً كبيراً من الناس يهتم بمرؤوسه عشر معشار هذا الاهتمام، ولو أن امرأة كهذه رآها مدير أو مأمور لكان أقرب شيء يعمله لها أن يكتب لها محضر تشرد ويقدمها للقضاء ليحكم عليها.

وخطب مرة فقال: أيها الناس إني قد وليت عليكم ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم وأقواكم عليكم وأشدكم استضلاعاً بما ينوب من مهم أموركم ما توليت ذلك منكم ولكفى عمر مهما محزناً انتظار موافقة الحساب بأخذ حقوقكم كيف آخذها، ووضعها أين أضعها وبالسير فيكم كيف أسير؟ فربي المستعان فإن عمر أصبح لا يثق بقوة ولا حيلة إن لم يتداركه الله عز وجل برحمته وعونه وتأييده.

وكـان رحمه اللّٰه ذا سياسة حسنـة في تقويم أخـلاق النـاس وحملهم عـلى المحبة الواضحة. جاء في كنز العمال من حـديث عتبة بن مسعـود قال سمعت: عمر بن الخطاب يقول: إن ناساً كانوا يؤخذون بالوحي في عهـد رسول اللّٰه ﷺ إن الوحي قد انقطع وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنـا من أعمالكم فمن أظهـر لنا خيراً أمنّاه وقربناه وليس لنا من سريرته شيء اللّٰه يحاسبه في سريرته ومن أظهر لنا شرّاً لم نأمنه ولم نصدقه وإن قال إن سريرته حسنة. فهو بهذه المثابة يهـديهم أمثل الطرق ويحذرهم المزالّ ويواليهم بالنصائح ويرشـدهم إلى محجه الخـير الواضحـة ويبصرهم سنن السعادة ويأمرهم بالتقوى والعدل والتآلف، وبخاصة قريش فإنه كان لا ينام لهم على أمر ولا يدعهم ساعـة من نصيحة فـإنهم قدوة النـاس وأئمة العرب.

أخرج الطبري عن ابن عباس أن عمر قال لناس من قريش: بلغني أنكم تتخذون مجالس، لا يجلس اثنان معاً حتى يقال: من صحابـة فلان، من جلسـاء فـلان؟ حتى تحوميت المجـالس وايم اللّٰه إن هذا لسـريـع في دينكم. سـريـع في شرفكم. سريع في ذات بينكم، ولكأني بمن يأتي بعدكم يقول: هذا رأي فلان. قـد قسموا الإسـلام أقسامـاً. أفيضوا مجـالسكم بينكم وتجالسـوا معاً فـإنـه أدوم لألفتكم وأهيب لكم في الناس اللهم ملوني ومللتهم وأحسست من نفسي وأحسوا مني، ولا أدري بأينا يكون الكون؟ وقد أعلم أن لهم قبيلاً منهم فاقبضني إليك.

ومن جميل سياسته أنه كان لا يرضى من عماله الشـدة في استيفاء الحقـوق والتزيد عـلى ما أمـر اللّٰه أن يؤخذ النـاس به، بـل كان يـوصيهم بالـرفق والأناة والعدل وعدم الايغال في العقوبة.

عن ابن عمر قال: كنت مع عمر في حـج فإذا نحن بـراكب، قال عمـر: أرى هذا يطلبنا. فجاء الرجل فبكى. قال: ما شـأنك، إن كنت غـارماً أعنـاك وإن كنت خـائفاً آمنـاك إلا أن تكون قتلت نفسـاً فتقتل بهـا، وإن كنت كـرهت جوار قوم حولناك عنهم؟ قال: إني شربت الخمر وأنا أحد بني تميم وإن أبا مـوسى

جلدني وحلقني وسود وجهي وطاف بي على الناس. وقال لا تجالسوه ولا تواكلوه فحدثت نفسي بإحدى ثلاث: إما أن أتخذ سيفاً فأضرب به أبا موسى، وإما أن آتيك فتحولني إلى الشام فإنهم لا يعرفونني، وإما أن الحق بالعدو فآكل معهم وأشرب. فبكى عمر وقال: ما يسرني أنك فعلت وأن لعمر كذا وكذا. وإني كنت لأشرب الناس لها في الجاهلية وإنها ليست كالزنا. وكتب إلى أبو موسى ما صورته سلام عليك. أما بعد، فإن فلان ابن فلان التميمي أخبرني بكذا وكذا وايم.اللّه إني إن عدت لأسودَن وجهك ولأطوِّفنَّ بك في الناس فإن أردت أن تعلم حق ما أقول بعد، فأْمُرِ الناس أن يجالسوه ويؤاكلوه فإن تاب فاقبلوا شهادته. وحمله عمر وأعطاه مائتي درهم.

ومع أن عمر قد أرخى للناس طول الحرية وأجرهم رسن المساواة وفرش للعامة صدره، فقد كان مهيباً فيهم حتى املأت صدورهم بهيبته. لم يجرد عليهم سيفاً ولم يرفع عليهم سوطاً. وإنما كانت له درة وهي عصا صغيرة كالمخصرة يستعملها في تأديب من استحق الأدب منهم وكانت في يده على الدوام أني سار. وكان الناس يهابونها أكثر مما يخيفهم السيوف.

روى الطبري عن إياس بن سلمة عن أبيه قال: مر عمر بن الخطاب في السوق ومعه الدرة فخفقني بها خفقة فأصاب طرف ثوبي. فقال: أمط الطريق. فلما كان في العام المقبل لقيني. فقال: يا سلمة تريد الحج؟ فقلت: نعم. فأخذ بيدي فانطلق إلى منزله فأعطاني ستمائة درهم وقال استعن بها على حجك، واعلم أنها بالخفقة التي خفقتك. قلت يا أمير المؤمنين ما ذكرتها. قال: وأنا ما نسيتها. فكان عمر مؤدباً حكيماً. قال الخضري: ولعل درته لم يسلم من خفقها إلّا القليل من كبار الصحابة.

روى راشد بن سعد أن عمر بن الخطاب أتى بمال فجعل يقسمه بين الناس فازدحموا عليه فأقبل سعد بن أبي وقاص يزاحم الناس حتى خلص إليه. فعلاه عمر بالدرة. وقال: إنك أقبلت لا تهاب سلطان اللّه في الأرض فأحببت

أن أعلمك أن سلطان اللّٰه لا يهابك. والذي حمل عمر على أن يأتي إلى سعد ما أتى، غضبه منه لمزاحمته الناس مدلاً عليهم بفضله وسابقته وعمر يعشق المساواة ويكره الإدلال على الناس، وقد كانت الرعية كما قلنا تهابه مهابة شديدة.

روى أسلم أن نفراً من المسلمين كلموا عبد الرحمن بن عوف فقالوا: كلم عمر بن الخطاب فإنه قد أخشانا حتى واللّٰه ما نستطيع أن نديم إليه أبصارنا. فذكر ذلك عبد الرحمن بن عوف لعمر فقال أو قد قالوا ذلك؟ واللّٰه لقد لنت لهم حتى تخوفت اللّٰه في ذلك، ولقد اشتددت عليهم حتى خشيت اللّٰه وايم اللّٰه لأنا أشد منهم فَرَقاً منهم مني.

عفة عمر عن مال المسلمين

كان عمر قد أخذ نفسه وأهله بحال من التقشف وخشونة العيش حتى ساوى البائس الفقير الذي إنما يعيش بما يتبلغ به مما يمسك الرمق ويدفع الجوع. لم تشره نفسه إلى رقيق العيش ونعيم الحياة الدنيا. ولم يهم بمكاثرة الناس في المال ويرى مال المسلمين مرتعا وبيلا على من رعاه فقتر على نفسه تقتيراً جعله موضعاً للانتقاد واعتراض المعترضين ـ وقد بلغ من شدة احترازه عن أخذ مال المسلمين أن عطاءه ربما قصر به عن بلوغ الكفاية من حاجاته وحاجات أهله. فلا يسمح لنفسه بأن يطلب من المسلمين أن يفرضوا له كفايته. بل كان يلجأ إلى الاقتراض من أمين بيت المال فإذا حل ميعاد الوفاء ولم يجد عنده ما يسد منه احتال له حتى إذا أخذ عطاءه سدد منه.

رأى بعض أصحاب رسول اللّٰه ما يعانيه أمير المؤمنين من جهد العيش فاجتمع نفر منهم فيهم عثمان وعلي وطلحة والزبير. وقالوا: لو قلنا لعمر في زيادة نزيده إياها في رزقه. فقال عثمان هلم فلنعلم ما عنده من وراء وراء. فأتوا أم المؤمنين حفصة بنت عمر وحدثوها بما اعتزموا عليه وأوصوها ألا تخبر بهم عمر. فلقيته حفصة وقالت له في ذلك فغضب وقال: من هؤلاء؟

لأسوءنهم. قالت لا سبيل إلى علمهم قال أنت بيني وبينهم. ما أفضل ما اقتني رسول اللّه ﷺ من الملبس؟ قالت ثوبين ممشقين كان يلبسهما للوفد والجمع. قال: فأي الطعام ناله عندك أرفع؟ قالت: حرفا من شعير فصببنا عليه وهو حار أسفل عكة لنا فجعلتها دسمة حلوة فأكل منها. قال: فأي مبسط بسط عندك كان أوطأ؟ قالت: كساء ثخين تربعه في الصيف فإذا جاء الشتاء بسطنا نصفه وتدثرنا بنصفه. قال: فأبلغيهم أن رسول اللّه ﷺ قدر فوضع الفضول مواضعها وتبلغ بالتزجية. وإنما مثلي ومثل صاحبي كثلاثة سلكوا طريقاً فمضى الأول لسبيله وقد تزود فبلغ المنزل ثم أتبعه الآخر فسلك سبيله فأفضى إليه ثم أتبعه الثالث فإن لزم طريقهما ورضي بزادهما لحق بهما وإن سلك طريقاً غير طريقهما لم يلقهما.

كان عمر مع ذلك لا يسوغ أحداً من أهل بيته أن ينتفع بشيء ليس له فيه حق. روي مالك في الموطأ أن عبد اللّه وعبيد اللّه ابني عمر خرجا في جيش إلى العراق فلما قفلا مرا على أبي موسى الأشعري وهو أمير البصرة. فرحب بهما وسهل. ثم قال: لو أقدر لكما على أمر أنفعكما به. ثم قال: بلى، ههنا مال من مال اللّه أريد أن أبعث به إلى أمير المؤمنين فأسلفكماه فتبتاعان به متاعا من متاع العراق ثم تبيعانه بالمدينة فتؤديان رأس المال إلى أمير المؤمنين ويكون لكما الربح، فقالا وددنا ذلك. ففعل وكتب إلى عمر بن الخطاب أن يأخذ منهما المال فلما قدما باعا فأربحا فلما دفعا ذلك إلى عمر قال: أكل الجيش أسلفه؟ قالا لا فقال عمر ابن الخطاب: ابنا أمير المؤمنين أسلفكما، أديا المال وربحه. فأما عبد اللّه فسكت، وأما عبيد اللّه فقال: ما ينبغي لك يا أمير المؤمنين هذا. لو نقص هذا المال أو هلك لضمناه. فقال عمر أديا فسكت عبد اللّه وراجعه عبيد اللّه. فقال رجل من جلساء عمر: يا أمير المؤمنين لو جعلته قراضا. فأخذ عمر رأس المال ونصف ربحه وأخذ عبد اللّه وعبيد اللّه نصف ربح المال. قالوا: وهو أول قراض في الإسلام.

وقد ذكر الأستاذ الخضري في محاضراته أنه ـ لما ترك ملك الروم الغزو وكاتب عمر وقاربه وسير إليه عمر الرسل مع البريد بعثت أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب إلى ملكة الروم بطيب ومشارب وأحناش من أحناش النساء ودسته إلى البريد فأبلغه لها فأخذ منه وجاءت امرأة قيصر وجمعت نساءها وقالت: هذه هدية امرأة ملك العرب وبنت نبيهم وكاتبتها وأهدت لها وفيها أهدت لها عقد فاخر. فلما انتهى به البريد إليه أمر بإمساكه ودعا الصلاة جامعة. فاجتمعوا فصلى بهم ركعتين وقال: إنه لا خير في أمر أبرم عن غير شوري من أموري. قولوا في هدية أهدتها أم كلثوم لامرأة ملك الروم فأهدت لها امرأة ملك الروم. فقال قائلون: هو لها بالذي لها وليست امرأة الملك بذمة فتصانع به ولا تحت يدك فتنقيك. وقال آخرون قد كنا نهدي الثياب لنستثيب ونبعث بها لتباع ولنصيب شيئاً، فقال: ولكن الرسول رسول المسلمين والبريد بريدهم والمسلمون عظموها في صدرها فأمر بردها الى بيت المال ورد عليها بقدر نفقتها. اهـ. ولو أن عمر أرخى العنان لنفسه أو لأهل بيته لرتعوا ولترع من بعدهم وكان مال الله تعالى حبسا على أولياء الأمور. ومن القواعد الطبيعية المؤيدة بالمشاهد أن الحاكم إذا امتدت يده إلى مال الدولة اتسع الفتق على الراتق واختل بيت المال أو مالية الحكومة وسري الخلل في جميع فروع المصالح وجهر المستتر بالخيانة وانحل النظام.

ومن المعلوم أن الإنسان إذا كان ذا قناعة وعفة عن مال الناس زاهداً في حقوقهم دعاهم ذلك إلى محبته والرغبة فيه. وإذا كان حاكما حدبوا عليه وأخلصوا في طاعته نياتهم وكان أكرم عليهم من أنفسهم.

وقد كان عمر إذا نهى الناس عن أمر من الأمور جمع أهله فقال: إني نهيت الناس عن كذا وكذا وإن الناس ينظرون إليكم نظر الطير إلى اللحم وأقسم بالله لا أجد أحداً منكم يفعله إلا أضعفت عليه العقوبة.

ما كان عمر مع ذلك الذي يضيق على العامة أو يأخذ الرعية بمذهبه بل

كان يرى أن يحملهم على الجادة الوسطى وأن يتنعموا بالطيبات وإنما كان يـأخذ عماله بمذهبه. فقد كتب أبو عبيدة إلى عمر كتاباً يخبره فيه بـأنه لا يـريد الإقـامة بأنطاكية لطيب هـوائها وخـوف إخلاد الجنـد إلى الراحـة. فكان من كتـاب عمر إليـه: وأما قـولك إنـك لم تقم بأنـطاكية لـطيب هوائهـا فاللّه عـز وجل لم يحـرم الطيبات على المتقين الذين يعملون الصالحات. فقال تعالى في كتابـه العزيـز ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم﴾[1] وكان يجب عليـك أن تريـح المسلمين من تعبهم وتـدعهم يرغـدون في مـطعمهم ويـريحـون الأبدان النصبة.

ميـل عمر لـلإستشارة وقبـوله النصـح. كان عمـر لا يستأثـر بالأمـر دون المسلمين ولا يستبد عليهم في شأن من الشئون العامة. فإذا نزل به أمر لا يبـرمه حتى يجمع المسلمين ويحـل الرأي معهم فيـه ويستشيرهم. ومن مـأثور قـوله: لا خـير في أمر أبـرم من غير شـورى. وكان مسلكـه في الشورى جميـلا. فإنـه كان يستشـير العامـة أول أمره فيسمـع مَنهم، ثم يجمع مشـايـخ أصحاب رسـول اللّه وأصحاب الـرأي منهم ثم يفضي إليهم بالأمـر ويسألهم أن يخلصـوا فيه إلى رأي محمود، فما استقر عليه رأيهم أمضاه: وعمله هذا يشبه النظامـات الدستـورية في كثير من الممالك النظامية إذ يعرض الأمـر على مجلس (النـواب) مثلا ثم بعـد أن يقـرر بالأغلبيـة يعـرض عـلى مجلس آخـر يسمى في بعضهـا مجلس الشيـوخ وفي بعضها مجلس اللوردات فإذا انتهى المجلس من تقريره أمضاه الملك. والفرق بين عمل عمر وعمل هذه الممالك أن هذا الأمر كان اجتهاداً منـه وبغير نـظام متبع، أو قوانين مسنونة. وأما في الممالك المتمدنة اليوم فالأمر يجري على نظام وقوانين. ومن قوله في الشـورى: يحق على المسلمـين أن يكون أمـرهم شورى بينهم وبـين ذوي الرأي منهم. فالناس تبع لمن قام بهذا الأمر ما اجتمعوا عليه ورضـوا به من مكيدة في حرب كانوا فيه تبعا لهم. فهو في قوله هذا قد جعل أولى الأمر منفذين لما رآه أولو الرأي والناس تبع للإمام فيما أخذ به من رأى أولى الرأي.

---

(١) سورة المؤمنون الآية ٥١.

وكثيراً ما كان يجتهد في الشيء ويبدي رأيه فيه ثم يأتي أضعف الناس فيبين له وجه الصواب فيقبله ويرجع عن خطأ ما رأى إلى صواب ما استبان له.

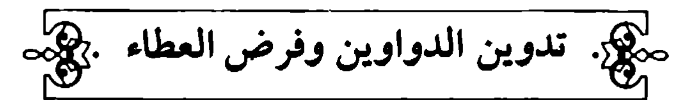
رأى الناس بعد توالي الفتوح وكثرة الأموال لديهم قد غالوا في مهور النساء فلم يعجبه ذلك من أمرهم وعزم على أن يجعل للمهر حداً لا يتجاوزه الناس. فنادته امرأة من أُخريات المسجد قائلة كيف: وقد قال اللّه تعالى: **﴿وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً﴾**[1] فاللّه يعطينا بالقنطار وأنت تمنعنا الدراهم يا عمر؟ فقال: أصابت امرأة وأخطأ عمر. وكان يطلب من الناس أن يفضوا إليه بنصائحهم ويبينوا له وجه الحق إذا رأوا منه انحرافاً عن القصد. قد ورد أنه قال مرة في خطبة «أيها الناس إن أحسنت فأعينوني وإن صدفت فقوّموني» فقال له رجل من أُخريات المسجد: لو رأينا فيك إعوجاجاً لقومناه بسيوفنا. وفي المناقب عن الحسن رضي اللّه عنه قال: كان بين عمر بن الخطاب وبين رجل كلام في شيء فقال له الرجل: اتق اللّه. فقال رجل من القوم أتقول لأمير المؤمنين اتق اللّه؟ فقال عمر: دعه فليقلها لي. نعم ما قال. لا خير فيكم إذا لم تقولوها ولا خير فينا إذا لم نقبلها.

وقد كان لعمر خاصة من علية الصحابة وذوي الرأي. منهم العباس بن عبد المطلب وابنه عبد اللّه وكان لا يكاد يفارقه في سفر أو حضر وعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وعلي بن أبي طالب ونظراؤهم وكان يستشيرهم ويرجع إلى رأيهم.

رأيُ عمر في الاجتماعات ـ كان عمر رضي اللّه عنه يرى أن ابتعاد الخاصة عن عامة الناس واختصاصهم بأفراد لا يغشي تلك المجالس سواهم أمر غير لائق. لأنه كان يعتبر علية الناس وذوي فضلهم بمنزلة المربي للعامة يقتدون بهم ويترسمون خطواتهم فإذا دفعت العامة عن غشيان مجالس أولي الفضل فاتت الفائدة المقصودة، ووجدت هوة بعيدة الغور بين الفريقين. ثم يتبع ذلك أن المجالس يدور فيها الكلام على أنحاء وفنون. فإذا نقل ما يدور فيها إلى الناس

(١) سورة النساء: الآية ٢٠

نقل على غير وجهه وصرف عن منحاه وظنت بـالمجالس وأهلهـا الظنـون. وكان ذلـك أدعى إلى سقوط منـزلتهم. وفوق هـذا فـإن ذلـك يـدعـو إلى الاختـلاف والتـدابر والتنـاكر لأن من يغشـون مجلساً يُـدلون بعميـد ذلك المجلس وكبيـره. وذلك مؤد إلى النفاسة وقد نهى عمر عن ذلك ناساً من قريش فيما قدمنا عن ابن عباس. قال الأستاذ الخضري: والذي خافه عمر عـلى الناس وعـلى من يأتي قـد وقع فكثرت الآراء المنقولة عن أفراد ذلك العصر ودعـا ذلك إلى اختـلاف الناس في الدين اختلافاً عظيماً.



تدوين الدواوين وفرض العطاء

أترك الأستاذ الخضري يتكلم على تدوين الدواوين قال:

من البديعي أن حاجات الدولة تترقى بتـرقي العمران وامتـداد السلطان. وقد كانت دولة الإسلام في خـلافة أبي بكـر وصدراً من خـلافة عمـر في مبادىء الظهور وسذاجة البيئة وعدم اتساع السلطان ولم يكن لها من الدخل والخـرج إلا الصـدقة التي كـانت تؤخذ من الأغنيـاء وترد عـلى الفقـراء وأمـا الغنـائم والفيء فكانت قليلة لم تحوج أخماسها التي يبعث بها للمدنيـة إلى صرف العنـاية وتـرتيب الشؤون الإدارية على أصول الدولا المتـرقية يـومئذ كفـارس والروم. وإنمـا كانت العناية منصرفة إلى الشؤون الحربية والفنون العسكرية.

ولما توسـع المسلمون بـالفتح وانتشـروا في الممالـك وكثرت مـوارد الدولـة وتبسطت في مناحي العمران وأخذ يزداد الفيء من الخراج والجزية زيادة لا طاقة للخليفة وأمرائه بضبطها، ولا قبل لهم بإحصاء مستحقيها وتوزيع الأعطيات على أربابها بالعدل إلا بضبطها وترتيبها على أصول ثابتة وقيـدها في قيـود خاصـة دعا عمر رضي اللّه عنه الصحابة واستشارهم في كيفية تدوين الديوان فقال عـلي بن أبي طالب: تقسم كل سنة ما اجتمع من مال ولا تمسك منه شيئـاً وقال عثمـان: أرى مـالا كثيراً يسـع الناس وإن لم يحصـوا حتى يعـرف من أخـذ ممن لم يـأخـذ

خشيت أن ينتشر الأمر وقال له الوليد بن هشام بن المغيرة: قد جئت الشام فرأيت ملوكها قد دونوا ديواناً وجندوا جنداً فدون ديواناً وجند جنداً فأخذ بقوله فدعا عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم وكانوا من نبهاء قريش فأمرهم بتدوين الديوان ففعلوا والديوان هو الدفتر أو مجتمع الصحف والكتاب يكتب فيه أهل الجيش وأهل العطية كما في القاموس وتوسعوا بمسماه بعد فأطلقوا على كل دفاتر الحكومة الإدارية وغيرها ثم على المكان الذي يكون فيه الديوان ديواناً.

ولما كتبت الدواوين كتب ديوان الشام بالرومية وديوان العراق بالفارسية واستمر إلى عهد عبد الملك بن مروان بالشام والحجاج بن يوسف عامله على العراق ونقل عبد الملك في الشام الديوان إلى العربية ونقله الحجاج في العراق إلى العربية.

الوصف على الجملة:

كان عمر يحب رعيته حبا جماً ويحب ما يصلحها ويكره ما يفسدها ساسها بسياسة تقربه إلى القلوب فكان عفيفاً عن أموالهم عادلاً بينهم مسوياً بين الناس لم يكن قوي يطمع أن يأخذ أكثر مما له ولا ضعيف يخاف أن يضيع منه ماله كان حكيما يضع الشيء في موضعه يشتد حينا ويلين حينا حسبما توحي إليه الأحوال التي هو فيها. عرف العرب معرفة تامة وعرف ما يصلح أنفسها فسيرها في الطريق الذي لا تألم فيه فصيرها أمة حرة لا تستطيع أن تنظر إلى خسف يلحقها من أي إنسان ولذلك نقول: إن عمر أتعب من بعده فإن النفوس التي تحتمل للعرب ما احتمله عمر قليلة في الدنيا بأسرها وإلا فأين ذلك الرجل الذي يفني في مصلحة رعيته ولا يرى لنفسه من الحقوق إلا كما لأدناهم مع تحمله مشقات الحياة وأتعابها. العربي يستدعي سياسته حكمة عالية: فإنك إن اشتددت معه أذللته فهلك، وإن لنت معه ليكون رجلا نافعاً لم يكن هناك حد لجفائه ولا لحريته فهو يحتاج إلى عقل كبير يدبره حتى لا تهلكه الشدة ولا يطغيه اللين، ولم

يكن ذلك العقل الكبير إلا في رأس عمر بن الخطاب بعد صاحبيه.

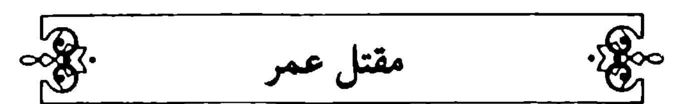
نعم قد قام بعده خلفاء راشدون وأئمة مهتدون ولكنهم لم يجمعوا صفات عمر التي كان مجموعها كدواء مركب إذا سقط منه أحد العقاقير فربما أهلك صاحبه لذلك نصرح بأن العرب بعد عمر لم تجتمع على أي خليفة في أي زمن من الأزمان حتى وقتنا هذا والسبب معقول.

بيت عمر:

تزوج عمر في الجاهلية زينب ابنة مظعون من بني جمح من قريش فولدت له عبد اللّٰه وعبد الرحمن الأكبر وحفصة أم المؤمنين وتزوج في الجاهلية مليكة ابنة جرول من خزاعة فأولدها عبد اللّٰه وقد فارقها في هدنة الحديبية تزوج قريبة ابنة أبي أمية من بني مخزوم وقد فارقها في الهدنة وتزوج أم حكيم بنت الحارث بن هشام من بني مخزوم فولدت له فاطمة وتزوج جميلة بنت قيس من الأنصار فولدت له عاصما وهذه طلقها وتزوج أم كلثوم بنت علي فولدت له زيداً ورقية ومات عنها وتزوج لهية وهي امرأة من اليمن فولدت له عبد الرحمن الأصغر وتزوج عاتكة بنت زيد بن عمرو.

وخطب أم كلثوم بنت أبي بكر وهي صغيرة وأرسل فيها إلى عائشة فقالت: الأمر إليك. فقالت أم كلثوم: لا حاجة لي فيه. فقالت عائشة: ترغبين عن أمير المؤمنين؟ فقالت نعم إنه خشن العيش شديد على النساء فأرسلت عائشة إلى عمرو بن العاص فأخبرته. فقال: أكفيك فأتى عمر فقال: يا أمير المؤمنين بلغني خبر. أعيذك باللّٰه منه؟ قال ما هو؟ قال: خطبت أم كلثوم بنت أبي بكر؟ قال: نعم أفرغبت بي عنها أم رغبت بها عني؟ قال: لا واحدة. ولكنها حدثة نشأت تحت كنف أم المؤمنين في لين ورفق وفيك غلظة ونحن نهابك وما نقدر أن نردك عن خلق من أخلاقك فكيف بها إن خالفتك في شيء فسطوت بها كنت قد خلفت أبا بكر في ولده بغير ما يحق عليك؟ قال: فكيف بعائشة وقد كلمتها؟

قال: أنالك بها وأدلك على خير منها أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب تعلق منها بنسب من رسول اللَّه ﷺ وخطب أبان بنت عتبة بن ربيعة فكرهته وقالت يغلق بابه ويمنع خيره ويدخل عابساً ويخرج عابساً.



مقتل عمر

بينما المسلمون مغتبطون بما يفتح عليهم من الأمصار والمدن والممالك شرقي بلاد العرب وغربيها وشماليها إذ فوجئوا بأمير المؤمنين مضرجا بدمه في محرابه فتبدل صفوهم كدراً وسرورهم حزناً على هذا الخليفة الراشد العادل التقي.

إن رضي الخلائق غاية لا تدرك: فعمر وإن كان أرضى بعدله الخلاق سبحانه وتعالى وشمل عدله من قرب منه ومن نأي عنه من رعيته، ولكن قلوباً من غير أهل الإسلام كانت مشتملة على مطوية حقد له، مفعمة بالسخط منه.

كان بالمدينة ملك من ملوك الفرس قد أضاع ملكه وتاجه وعرف المسلمون فيه نكث العهود والخيس بالمواثيق والحنث بالأيمان. قد جمع إلى ذلك الخب والدهاء وقد أقام بالمدينة واحداً من الجمهور لا ميزة له على أحد من الناس بعد ذلك العز الباذخ والسلطان العظيم. وهو يسمع بالفتح في بلاده الفارسية يعقبه الفتح والنصر يحوزه المسلمون يتبعه النصر والغنائم يحوونها يمنة ويسرة فيودع ذلك قلبه حسرة. وكان المسلمون يسبون من أبناء فارس ويتخذون منهم الموالي وقد دفت منهم دافة إلى المدينة وأقاموا بها في أكناف ساداتهم وخدمة مواليهم وقد كان كثير منهم يختلفون إلى ذلك الملك الذي كان فيهم وهو الهرمزان. وقد كان من سبايا فارس رجل يقال له أبو لؤلؤة عبد المغيرة بن شعبة وكان حاقداً على المسلمين صنعهم ببلاده ويتمنى لو جعلهم اللَّه في نفس واحدة ليشتفي منهم بالقتل دفعة واحدة. وكان لما ورد على المدينة سبايا جلولا، يمسح رؤوسهم ويقول: أكلَ كبدي عمر. ذلك أن عمر هو الذي يزجي الجيوش إلى

فارس ويصرفها إلى البلاد، وأمرها إليه في الإصدار والإيراد.

وبينما عمر يطوف يوماً في السوق إذ جاءه فيروز الملقب بأبي لؤلؤة، وكان نصرانياً، فقال يا أمير المؤمنين أعدني على المغيرة بن شُعبة فإن علي خراجاً كثيراً. قال: كم خراجك؟ قال: درهمان في كل يوم. قال: وايش صناعتك قال: نجار نقاش حداد. قال: فما أرى خراجك بكثير على ما تصنع من الأعمال. قد بلغني أنك تقول: لو أردت أن أعمل رحى تطحن بالريح فعلتُ. قال: نعم. قال: فاعمل لي رحى. قال: لئن سلمت لأعملن لك رحى يتحدث بها من بالمشرق والمغرب. ثم انصرف عنه فقال عمر: لقد توعدني العبد آنفاً. ثم انطلق عمر إلى منزله. فلما كان من الغد جاءه كعب الأحبار فقال: يا أمير المؤمنين اعهد فإنك ميت في ثلاثة أيام؟ قال: وما يدريك قال أجده في كتاب اللّٰه التوراة. فقال عمر: آللّٰه إنك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة؟ قال: اللهم لا ولكن أجد صفتك وحيلتك وإنه قد فني أجلك. وعمر لا يحس وجعاً ولا ألما. فلما كان من الغد غدا عليه كعب فقال: يا أمير المؤمنين ذهب يوم وبقي يومان. ثم جاءه من غد الغد وقال: ذهب يومان وبقي يوم وليلة وهي لك إلى صبيحتها. ذلك أن كعباً رجل يهودي رأى الإسلام يعلو ويتزايد أمره ولم يقف في سبيل نموه شيء ولا دين في بلاد العرب وخارجها. فأسلم لشيئين أولهما أنه رأى اليهودية تضؤل وتضمحل أمام الإسلام في بلاد العرب والنصرانية ضاغطة عليها في سورية وبقية المملكة الرومانية. والتظاهر بالإسلام يكسبه عزاً لم يكن له في قومه ثانيهما أن الرجل من اليهود أهل الكتاب الأول والعلم أيام جاهلية العرب. والتوراة بلسانه دون لسان العرب. وفي أسفارها من المعميات والألغاز ما لا يمكن أن يفقهه العرب ولو لقنوا العبرية فهي إذن مجال فسيح للكذب يلقيه إلى المسلمين ليفسد عليهم أمرهم ويعمي عليهم سبيل الهدي. فهو بذلك أراد أن يضرب عصفورين بحجر. وكذلك كان. فإن الرجل نال بين المسلمين مركزاً عظيماً. وقد كان كثير يرون أن التوراة فيها علم كل شيء وإنه صادق فيما يخبر به،

وبخاصة بعد أن تحقق قوله في عمر. والرجل قد أفاض على المسلمين ثروة واسعة من الإسرائيليات التي ندري نحن حقيقتها وكان هو لا يدري من حقيقتها شيئاً سوى أنه مبتدعها. وكان يسند كلامه إلى التوراة والتوراة خالية مما كان يموه به على الناس. وهذه التوراة بين أيدينا نقرؤها وليس فيها شيء مما كان يقوله هذا الرجل لمعاصريه وهو بالأساطير أشبه.

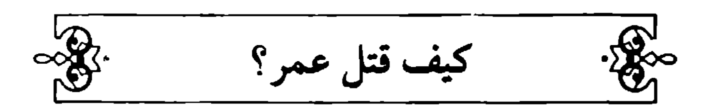
بعد أن تمهد هذا أقول: إن حكاية إخباره بمصرعه على هذا الوجه المروي لو كانت صحيحة، لم يبق عند الواقف عليها شك في أن هذا الرجل كان وقفاً على ما دبره فيروز أبو لؤلؤة من اغتيال عمر، وأن خطة السير للوصول إلى قتله كان كعب الأحبار عارفاً بها واقفاً عليها وقوفاً تاماً. وإنما أراد بإخبار عمر على هذا الوجه، أن تزيد منزلته عند المسلمين وينال الحظوة فيهم وتكون رواياته وحكاياته أكثر قبولاً ولو وجد محقق ذكي وعرض عليه أمر كعب الأحبار وما أخبر به عمر قبل القتل ما نجا كعب من النكال ولعد شريكاً للجاني ولكان حقيقاً أن ينفذ فيه قانون الاتفاقات الجنائية الذي شرع في مصر سنة ١٩١٠

كان بالمدينة رجل من نصارى الأنباري أقدمه سعد بن أبي وقاص ليعلم أبناء المسلمين بالمدينة القراءة والكتابة اسمه جفينة. وناحية الأنبار كانت تابعة للفرس وللرجل بهم إلف. فكان يجتمع بالهرمزان، وفيروز أبي لؤلؤة وقد روى أن عبد الرحمن بن أبي بكر مر بالهرمزان وأبي لؤلؤة وجفنية يتناجون وهم جلوس فلما رأوا عبد الرحمن قاموا وقوفاً فسقط بينهم خنجر له رأسان نصابه في وسطه، وهو الخنجر الذي قتل به عمر بعد ذلك.

من اجتماع هذه الأحوال والمناسبات أرى أنه لا يكون بعيداً من الصواب من بعد قتل عمر نتيجة لمؤامرة واتفاق جنائي غمس يده فيه كل من.

١ ـ الهرمزان.
٢ ـ فيروز أبي لؤلؤة عبد المغيرة بن شعبة.
٣ ـ جفينة الأنباري.

٤ ـ كعب الأحبار اليهودي. ولو كان المسلمون في شريعتهم إيجاب العقوبة بالقرائن ووجد من يحقق مع من بقي منهم بعد مقتل عمر لكان من المحتمل جداً أن يعاقب كل منهم على ذلك الاتفاق الأثيم. لأنهم في ذلك الوقت يعتبرون من الرعية المسالمين لا الأعداء المحاربين فليس لهم عذر ولا شبهة عذر في تدبير ذلك الجرم الفظيع.



كيف قتل عمر؟

قال الطبري: فلما كان الصبح خرج عمر إلى الصلاة وكان يوكل بالصفوف رجالاً فإذا استوت جاء فكبر ودخل أبو لؤلؤة في الناس في يده خنجر له رأسان نصابه في وسطه فضرب عمر ست ضربات إحداهن تحت سرته وهي التي قتلته وقتل معه كليب بن أبي بكير الليثي وكان خلفه. فلما وجد عمر حَر السلاح سقط وقال: أفي الناس عبد الرحمن بن عوف؟ قالوا: نعم هوذا. قال تقدم فصل، فصلى عبد الرحمن بن عوف وعمر طريح. ثم احتمل فأدخل داره فدعا عبد الرحمن بن عوف.

ثم نادى عمر ابنه عبد الله وقال اخرج فانظر من قتلني فقال: يا أمير المؤمنين قتلك أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة. فحمد الله تعالى أن لم يقتله رجل سجد لله تعالى سجدة ثم قال: يا عبد الله ائذن للناس فجعل يدخل عليه المهاجرون والأنصار فيسلمون عليه فيقول: عن ملأ منكم كان هذا؟ فيقولون معاذ الله.

وقد دخل في الناس كعب الأحبار فقال. ﴿الحق من ربك فلا تكونن من الممترين﴾[1] قد أنبأتك أنك شهيد فقلت من أين لي الشهادة وأنا في جزيرة العرب.

ويقال إنه لما نظر عمر إلى كعب قال:

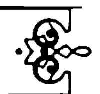
---

(١) سورة آل عمران: الآية ٦٠

فـأوعـدني كعب ثـلاثـاً أعـدهـا ولا شـك أن القول مـا قـال لي كعب
ومـا بي حـذار المـوت، إني لميـت ولكن حـذار الـذنب يتبعـه الـذنب

ثم دعى له الطبيب فقـال: أي الشراب أحب إليـه فجيء له بنقيـع التمر فسقاه فخرج على حاله من الجرح ثم سقاه اثنين فخرج على حاله فأيقن أنه ميت ولم يجـد للقضاء حيلة. وقـد توفي عمـر ليلة الأربعاء لثـلاث ليـال بقـين من ذي الحجة سنة ٢٣ ودفن بكـرة يوم الأربعـاء في حجرة عـائشة مـع صاحبيـه بعد أن استأذن عائشـة في ذلك عقيب أن طعن ـ ولمـا أدرج في كفنه ابتـدر علي وعثمـان الصلاة عليه فقال عبد الرحمن بن عوف: إنكما حريصان على الإمـارة. ليس لكما ذلك وإنما هو لصهيب لأنه قد أمره أن يصلي بالناس. فتقدم صهيب فصـلى عليه ثم حمل إلى حجرة عائشة فووری التراب. وكانت مدة خلافته عشر سنوات وستة أشهر وأربعة أيام من ابتداء ٢٢ جمـادى الثانيـة سنة ١٣ إلى ٢٦ ذي الحجـة سنة ٢٣ وكانت سنه حين قتل ٦٣ سنة كصاحبيه في أشهر الأقوال.

أما أبو لؤلؤة فقد جهد النـاس أن يقبضوا عليـه فأصـاب منهم ثلاثـة عشر رجـلاً بجراحـات وأعياهم أمـره فجاء رجـل من بني تيم وألقى عليـه رداء، فلما علم أنه مأخوذ قتل نفسه.



كيف انتخب عثمان؟

لما طعن عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه قيل له: يا أمير المؤمنين لو استخلفت. قال من أستخلف؟ لو كان أبوعبيدة بن الجراح حيًّا استخلفته فإن سألني ربي قلت سمعت نبيك يقوله: إنه أمين هذه الأمة. ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حيًّا استخلفته. فإن سألني ربي قلت: سمعت نبيك يقول: إن سالماً شديد الحب للّه ـ فقال له رجل: أدلك عليه. عبد اللّه بن عمر. فقال: قاتلك اللّه. واللّه ما أردت اللّه بهذا. ويحك. كيف استخلف رجلاً عجز عن طلاق امرأته؟ لا أرب لنا في أموركم. ما حمدتها فأرغب فيها لأحد من أهل بيتي. إن كان خيراً فقد أصبنا منه وإن كان شرًّا فشر عنا إلى عمر. بحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد ويسأل عن أمر أمة محمد. أما لقد جهدت نفسي وحرمت أهلي وإن أنج كفافاً لا وزر ولا أجر إني لسعيد. وأنظر فإن استخلف فقد استخلف من هو خير مني (يعني أبا بكر) وإن أترك فقد ترك من هو خير مني (يعني رسول اللّه ﷺ) ولن يضيع اللّه دينه فخرجوا.

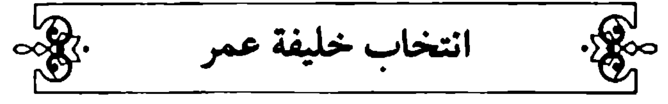
وكأن أصحاب رسول اللّه ﷺ خافوا أن يقضي عمر نحبه بدون استخلاف فينتشر أمر المسلمين لتطلع كثير من الصحابة إلى هذا الأمر فتكون فتنة في الأرض وفساد كبير، فراحوا إلى عمر كرة أخرى، وقالوا: يا أمير المؤمنين لو عهدت عهداً. فقال كنت أجمعت بعد مقالتي لكم أن أنظر فأولى رجلاً أمركم هو أحراكم أن يحملكم على الحق (وأشار إلى علي) ودهمتني غشية فرأيت رجلاً دخل الجنة قد غرسها فجعل يقطف كل غضة ويانعة فيضمه إليه ويصيره تحته فعلمت

أن اللّه غالب أمره ومتوف عمر فيما أريد أن أتحملها حيًّا وميتاً، عليكم هؤلاء الرهط الذين قال رسول اللّه ﷺ إنهم من أهل الجنة، سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل منهم ولست مدخله ولكن الستة: علي وعثمان ابنا عبد مناف وعبد الرحمن وسعد خالا رسول اللّه ﷺ والزبير بن العوام حواري رسول اللّه وابن عمته وطلحة الخير بن عبيد اللّه. فليختاروا منهم رجلاً فإذا ولوا والياً فأحسنوا موازرته وأعينوه وإن ائتمن أحداً منكم فليؤد إليه أمانته. وخرجوا. ولقي العباس عليّاً فقال له لا تدخل معهم. قال أكره الخلاف. قال: إذا ترى ما تكره.

والذي أراه أن العباس غلب على ظنه أن القوم يفضلون اختيار غير علي فإذا حدث ذلك وهو واحد منهم كان عليه في ذلك غضاضة ورأى ذلك غصة لا يسيغها علي إلاّ على ألم، ولكنه إذا نفض يده من الأمر واختير واحد من جماعة ليس على واحداً منها لم يكن الإيثار ظاهراً ولا غضاضة عليه في ذلك فأراد أن يحطاط لابن أخيه هذا الإحتياط.

فلما أصبح عمر دعا عليًّا وعثمان وسعدا وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام. فقال: إني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ولا يكون هذا الأمر إلاّ فيكم وقد قبض رسول اللّه ﷺ وهو عنكم راض. إني لا أخاف الناس عليكم إن استقمتم ولكني أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس، فانهضوا إلى حجرة عائشة فتشاوروا رجلاً منكم. ثم قال: لا تدخلوا حجرة عائشة ولكن كونوا قريباً. ثم وضع رأسه وقد نزفه الدم. فدخلوا فتناجوا، ثم ارتفعت أصواتهم. فقال عبد اللّه بن عمر. سبحان اللّه. إن أمير المؤمنين لم يمت بعد، فأسمعه فانتبه. فقال: ألا أعرضوا عن هذا أجمعون. فإذا مت فتشاوروا ثلاثة أيام وليصل بالناس صهيب. ولا يأتين اليوم الرابع إلاّ وعليكم أمير منكم ويحضر عبد اللّه بن عمر مشيراً ولا شيء له من الأمر وطلحة شريككم في الأمر. فإن قدم في الأيام الثلاثة فأحضروه أمركم وإن مضت الأيام الثلاثة قبل قدومه

فـاقضوا أمـركم. ومن لي بطلحـة؟ فقال سعـد بن أبي وقاص: أنـا لـك بـه ولا يخالف إن شاء اللّه فقال عمر: أرجو أن لا يخالف إن شاء اللّه، وما أظن أن يلي إلاّ أحد هذين الرجلين: علي وعثمان، فإن ولي عثمان فرجل فيه لين. وإن ولي علي ففيه دعابة، وأحر به أن يحملهم على طريق الحق. وإن تولوا سعـداً فأهلهـا هـو وإلاّ فليستعن به الـوالي. فإني لم أعز لـه عن خيـانـة ولا ضعف ونعم ذوي الرأي عبد الرحمن بن عوف مسدد رشيد لـه من اللّه حافظ فـاسمعوا منـه. وقال لأبي طلحة الأنصاري: يا أبا طلحة، إن اللّه عز وجـل طالما أعز الإسـلام بكم فاختر خمسين رجلاً من الأنصار فاستحث هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلاً منهم. وقـال لمقداد بن الأسـود: إذا وضعتموني في حفـرتي فاجمـع هؤلاء الرهط في بيت حتى يختاروا رجلاً منهم. وادخـل علياً وعثمـان والزبـير وسعداً وعبـد الرحمن بن عوف وطلحة إن قدم. واحضر عبد اللّه بن عمر وقم على رؤوسهم. فإن اجتمع خمسة ورضوا رجـلاً وأبى واحد فـاشدخ رأسـه بالسيف وإن اتفق أربعـة فرضـوا رجـلاً منهم وأبى اثنان فـاضرب رأسهـما بالسيف. فـإن رضي ثلاثـة رجـلاً منهم وثلاثة رجلاً منهم فحكموا عبد اللّه بن عمر. فأي الفريقـين حكم له فليختـاروا رجلاً منهم. فإن لم يرضوا بحكم عبد اللّه بن عمر. فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس.



انتخاب خليفة عمر

فلما دفن عمـر جمع المقـداد أهل الشـورى في بيت المسور بن مخـرمـة وهم خمسة، معهم عبد اللّه بن عمـر وطلحة غـائب، وأمروا أبـا طلحة أن يحجبهم. وجاء عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة فجلسا بـالباب. فـأقامهـا سعد وقـال: تـريدان أن تقـولا حضرنـا وكنا في الشـورى. فلما أخذوا في إجـالة الـرأي بينهم تنافسوا في الخلافة وكثر بينهم الكلام. فقـال أبو طلحـة: أنا كنت لأن تـدفعوهـا أخـوف مني لأن تنافسـوها، لا والـذي ذهب بنفس عمر لا أزيـدكم على الأيـام

الثلاثة التي أمرتم ثم أجلس في بيتي فأنظر ماذا تصعنـون؟ فقال عبـد الرحمن بن عوف: أيكم يخرج منها نفسه ويتقلدهـا على أن يـوليها أفضلكم؟ فقـال عثمان: أنـا أول من رضي فإني سمعت رسـول اللّٰه ﷺ يقـول أمـين في الأرض أمـين في السماء. فقال القـوم: قد رضينـا وعلي سـاكت. فقال: مـا تقول يـا أبا الحسن؟ فقال: لتؤثرن الحق ولا تتبع الهوى ولا تخص ذا رحم ولا تألوا لأمـه. فقال عبـد الرحمن: أعطوني مواثيقكم على أن تكونوا معي على من بدل وغـير، وأن ترضـوا من اخترت لكم على ميثـاق اللّٰه أن لا أخص ذا رحم لرحمـه ولا آلو المسلمـين. فأخذ منهم ميثاقاً وأعطاهم مثله.

تقلد عبـد الرحمن الأمـر على أن يختـار أفضل أهـل الشورى، وخـلا بعلي وقال له: إنك تقول إني أحق من حضر بالأمر لقرابتك وسابقك وحسن أثـرك في الدين ولم تبعد. ولكن، أرأيت لو صرف هـذا الأمر عنـك فلم تحضر. من كنت ترى من هؤلاء الرهط أحق بالأمر؟ قال: عثمان ثم خلا بعثمان فقال له: تقـول شيخ من بني عبد منـاف وصهر رسـول اللّٰه ﷺ وابن عمه لي سـابقة وفضـل ـ لم تبعـد. فلم يصرف هـذا الأمر عني؟ ولكن لـو لم تحضر فأي هؤلاء الـرهط تـراه أحق به؟ قال: علي ثم خلا بالزبير فكلمه بمثل ما كلم به عليًّا فقـال: عثمان ثم خلا بسعد وقال له مثل ذلك فقال: عثمان. فلقي عـلي سعداً فقـال له ﴿واتقوا اللّٰه الذي تساءلون به والأرحام، إن اللّٰه كان عليكم رقيباً﴾[1] أسألك برحم ابني هـذا من رسول اللّٰه ﷺ وبـرحم أمي حمزة منـك أن لا تكون مـع عبـد الـرحمن لعثمان علي ظهيراً فإني أدلى بما لا يدلي به عثمان.

لم يقتصر عبـد الرحمن عـلى ما قـدمنا في الاستشـارة في هذا الأمـر بـل دار لياليه يلقى أصحاب رسول اللّٰه ﷺ ومن وافى المدينة من أمراء الأجناد وأشـراف النـاس يشاورهم ولا يخلو بـرجـل إلاّ أمـره بعثمـان. حتى إذا كـانت الليلة التي ينتهي في صبيحتهـا الأجل أتى دار المسـور بن مخرمـة وهو ابن أختـه فأيقـظه عبد الرحمن وقال لـه: ألا أراك نائـماً ولم أذق في هذه الليلة كثـير غُمض انطلق فـادع

(١) سورة النساء: الآية ١

الـزبير وسعـداً فدعـاهما. فبـدأ بالـزبير في آخـر المسجد في الصفـة التي تـلي دار مروان. فقال للزبير: خل ابني عبد مناف وهذا الأمر. قـال نصيبي لعلي. وقـال لسعد: أنا وأنت كلالة: فـاجعل نصيبـك لي فأختـار، قال. إن اختـرت نفسك فنعم، وإن اخترت عثمان فعلي أحب إليّ، أيها الرجل بايع نفسك وأرحنا وارفع رؤوسنا فقال عبد الرحمن يـا أبا اسحق إني قـد خلعت نفسي منها عـلى أن أختار ولو لم أفعل وجعل الخيار إليّ لم أُرِدْهَـا، قال: لا يقـوم بعد أبي بكـر وعمر أحـد فيرضى الناس عنه ثم انصرف الزبير وسعد.

ومن هذا نرى أن الزبير وسعـد حالا عن رأيهـما الذي قـالاه لعبد الـرحمن أولاً لأنهما كانا قد أشارا عليه بعثمان لـو لم يحضر كل منهـما الأمر، وإني لا أدري السبب في هذا العدول وغاية ما يمكنني أن أقولـه أن كلا منهـما راجع فكـره ونظر إلى مصلحة المسلمين، فرأى أن عليًا يكـون في سيرتـه أقرب إلى منهـاج عمر من القوة على الحق والبعد عن الانغماس في الدنيا والاغترار بزينتها، وأن عثمان فيه رقة ورأفة وقد أخذت منه الشيخوخة مأخـذها ومن كـان كذلـك كان أقـرب إلى استكفاء غيره والركون إلى مشورة سواه وهم لا يـدرون من يكون ذلـك الكافي؟ ولا يثقـون بمنهج المشـير ـ أو يكون عـلي قد أثـر كلام عـلي في سعـد ـ ثم أرسـل المِسْور إلى علي فجاء فناجاه طويلاً، ثم أرسل إلى عثمان فجاء فناجاه حتى فـرق بينهما الصبح وكـان علي لا يشـك في أن الأمر لـه ـ فلما صلوا الصبح جمـع رجال الشورى وبعث إلى من حضره من المهاجرين وأهل السابقة والفضل من الأنصار وأمـراء الأجناد ـ فـاجتمعوا حتى التـج المسجد بـأهله، فقال: أيهـا النـاس، إن الناس قد أحبوا أن يلحق أهل الأمصار بأمصارهم وقد عملوا من أميرهم. فقال سعيد بن زيد: أنا نراك لها أهلاً. فقال أشيروا علي بغير هـذا. فقال عمـار: إن أردت أن لا يختلف المسلمون فبايع عليًا فقال المقداد بن الأسـود صدق عمـار إن بايعت عليًا قلنـا سمعنا وأطعنـا، فقال عبـد الله بـن أبي سرح: إن أردت أن لا تختلف قـريش فبايـع عثمان، فقـال عبد الله بـن أبي ربيعـة صدق، إن بـايعت عثمان قلنا سمعنا وأطعنا، فشتم عمـار بـن أبي سرح، وقـال: متى كنت تنصح

المسلمين؟ فتكلم بنوهاشم وبنو أمية، فقال عمار: أيها الناس إن الله عز وجل أكرمنا بنبيه وأعزنا بدينه، فأني تصرفون هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم؟ فقال رجل من بني مخزوم: لقد عدوت طورك يا ابن سُمَيَّة وما أنت وتأمير قريش لأنفسها، فقال سعد بن أبي وقاص: يا عبد الرحمن افرغ قبل أن يفتتن الناس، فقال عبد الرحمن إني قد نظرت وشاورت فلا تجعلن أيها الرهط على أنفسكم سبيلاً. ودعا عليًّا، فقال: عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده؟ قال أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي ودعا عثمان. فقال له مثل ما قال لعلي، قال: نعم فبايعه. فقال: علي حَبْوَته حَبَو دَهْرٍ، ليس هذا أول يوم تظاهر تم فيه علينا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون: والله ما وليت عثمان إلاّ ليرد الأمر إليك والله كل يوم هو في شأن، فقال عبد الرحمن يا علي لا تجعل على نفسك سبيلاً، فإني قد نظرت وشاورت الناس فإذا هم لا يعدلون بعثمان. فخرج علي وهو يقول: سيبلغ الكتاب أجله. فقال المقداد: يا عبد الرحمن، أما والله لقد تركته من الذين يقضون بالحق وبه يعدلون. فقال: يا مقداد، والله لقد اجتهدت للمسلمين.

قدم بعد ذلك طلحة في اليوم الذي بويع فيه لعثمان، فقيل له: بايع عثمان فقال: أكل قريش راض به؟ قالوا: نعم فأتى عثمان، فقال له عثمان: أنت على أمرك إن أبيت رددتها قال: أتردها؟ قال: نعم، قال: أكل الناس بايعوك؟ قال: نعم، قال: رضيت لا أرغب عما قد أجمعوا عليه وبايع. وقد ورد أن المغيرة بن شعبة قال لعبد الرحمن أصبت إذ بايعت عثمان، وقال لعثمان لو بايع غيرك ما رضينا فقال له عبد الرحمن: كذبت يا أعور والله لو بايعت غيره لبايعته ولقلت هذه المقالة.

وروى الطبري في خبر أن عليًّا تلكأ في بيعة عثمان فقال عبد الرحمن بن عوف: ومن نكث فإنما ينكث على نفسه، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً فرجع علي يشق الناس حتى بايع وهو يقول: خدعة وأيما خدعة.

الحالة العامة في عهد عمر

إن الحالة العامة للمسلمين على عهد عمر بن الخطاب تختلف عنها في عهد أبي بكر فقد تقوى في عهد عمر الدين وصارت كلمته العليا في جزيرة العرب وتوطد الملك للمسلمين وشيدت دعائم الدولة ونسي العرب ما كان بينهم في الجاهلية من الانقسام والتفرق ومحاربة بعضهم بعضاً وزالت عن أعينهم غشاوة الجهل بأمور الدول وتجردوا عن كثير من تلك السذاجة التي كانت فيهم، وصارت الأمة الإسلامية سائسة ملك وربة سطوة ومؤسسة دولة ومقننة قانون وصاحبة دين أهاب بها إلى الجد وحملها على مزاحمة أمم التاريخ بالمناكب حتى وسمت بأنها أعظم الأمم.

في عهد عمر كانت حياة الأمة نامية نمُوًّا عجيباً يتدفق فيضها الحيوي في جميع عناصرها وأعضائها تدفقاً ينعش كل جزء من أجزائها وينمي ذلك الجسم نمُوًّا سريعاً يؤذن بانقلاب في العالم تهتز له أعصاب دول الأرض ويتناول أهل المشارق والمغارب ـ فاندفعت الأمة في عصره بما استحدثه فيها الدين من الاتحاد القومي وما رسخ في اعتقادهم من أنهم الأمة الوارثة للأمم، وأن اللّٰه تعالى سيمكن لها في الأرض ويجعل أهلها أئمة ويجعلهم الوارثين. فسال سيلهم على أطراف الممالك المجاورة لهم وهم الفرس والروم، فزلزلوا سلطان فارس وتغلغلوا في أحشائها وطم سيلهم على بلادها وطغى على ما جاورها من البلدان النائية والأمصار المترامية ووطئت خيلهم بلاداً لم يمر اسمها على خاطرهم وشردوا حامل تاج الملك فارس وثلوا عرشه وأزعجوا القواد والرؤساء حتى درس ذلك الملك وصيروا تلك الدولة الساسانية تاريخاً يُعبّر كأن لم تغن بملوكها البلاد ولم تَعنُ لهيبتهم وجوه العباد.

وأما الدولة الرومانية فقد انتقصوا أطرافها وقلصوا ظلها عن الجزيرة

وسورية وجزء من أرمينيا وجميع مصر وبرقة. وفي كل آن لهم غارات في قراهم وفتكات في جنودهم وأحشاء بلادهم ويغزونهم في عقر دارهم وبمرأى ومسمع من عاصمة ملكهم ومستقر عزهم، بجنود أقل من جنودهم عدداً وعدة، وهم في كل مرة يواتيهم الظفر ويسعفهم النصر.

كانت الممالك المجاورة للعرب قد تأصلت فيها جذور الاستبداد ورئم أهلها الاستعباد وقد نسي الرومان مسمى الحرية التي جاهد آباؤهم في سبيل إحرازها جهاد الأبطال وانتزعوا حريتهم من أيدي الأباطرة انتزاعاً ـ وقد بخع الفرس بنفوسهم للملوك والرؤساء واستُعبدوا لأشراف البلاد. وقد تساوى الفرس والروم في فقدان مبدأ الاعتماد على النفس وحب الاستقلال الذاتي في أصول حياتهم وفروعها ـ ولكن العرب الذين جاسوا خلال ديارهم وألقوا رحالهم بينهم جاءوا إليهم حاملين للحرية التي امتزجت بدمائهم وخالطت جواهر نفوسهم. حتى بلغ من أمرهم أنهم لا يطيقون من أميرهم أن يتفوق عليهم في شيء من الأشياء. وقد شكا بعض العرب أبا موسى أمير البصرة لأن له جارية يقال لها عقيلة يرفع لها جفنة لغدائها وجفنة لعشائها وهم لا يقدرون على مثل ذلك ـ وقد كان من ورائهم عمر بن الخطاب يُقِيدُ العامة من الأمراء ـ ويقول بملء فيه على المنبر: من ظلمه أميره فلا إمرة له عليه دوني.

نفث العرب الفاتحون في روع أهل البلاد المفتتحة روحاً جديدة وذوقوهم حلاوة الحرية الشخصية. وأشعروا نفوسهم أنهم بشر لا ينحطون في الحقوق العامة عن مرتبة الأمراء، حتى بلغ من أمر أحد المصريين أنه لما أهين من ابن عمرو بن العاص أمير مصر شخص إلى مقر الخلافة يشكو ابن الأمير. فأقاده عمر منه دون محاباة ولا مجاملة لأبيه ولا مراعاة لمكانته وسابقته وحسن بلائه.

عدل شامل ينعم به المواتي، ويغتبط به العدو ويفيضه عمر على الرعية ما بين برقة ونهر جيحون غرباً وشرقاً، وما بين القوقاز والأناضول شمالاً إلى

المحيط الهندي جنوباً، لا يشعر أحد من الرعية بتميز أحد عليه إلاّ بالتقوى وحسن البلاء.

خالط العرب هذه الأمم ودال إليهم ذلك الملك العريض ورأوا أبهة الحضارة فأشعرت قلوبهم لزوم الحياة المدنية للأمم الغالبة كما هي سنة الوجود. وليس في أيديهم من أدوات تلك الحياة سوى الاستعداد الفطري لقبول الخير والشر. والشرع الإلهي الذي أطلق عقولهم من أسر التقليد وأخرجهم من الظلمات إلى النور. فأخذوا بحكم الطبيعة يقلدون مجاوريهم في العادات وبدأوا يبارونهم في مضمار الحياة. وكان أول شيء طمحت نفوسهم إليه تقليد مجاوريهم في فنون القتال ومحاذاة الروم وفارس في استصناع الآلات الحربية ليقابلوا القوة بمثلها ويعدوا للفتوح عدتها ـ ثم تطرقوا إلى الأمور السياسية والإدارية يحتذون مثالهم فيها ويترسمون خطواتهم في العمل بها. فوضع عمر التاريخ ودوّن الدواوين على نحو ما كان موجوداً عند الدولتين: الفارسية والرومية. ثم أقبل على ترتيب الولايات وتقسيم الأعمال وانتقاء العمال، وفرض العطاء وقرر مصرف الفيء في غير سرف ولا تقتير، ونشر جناح الأمن وأقام ميزان العدل وقرر أصول الجباية بلا إجحاف في حقوق الرعية ولا غبن على الدولة. فعم الرخاء وبدأت مظاهر العمران في أنحاء المملكة وانهال الغني والثروة على الفاتحين وخطوا خطى خفيفة إلى الراحة والنعيم مع الأخذ على الشكائم والتخوشن بعض الشيء في المأكل والملبس، والتوسط في العيش، والقصد في الإنفاق وعدم التبسط في البذل خوف الأخذ على أيديهم من عمر، كما يتبين في صنعه مع خالد إذ أعطى الأشعث بن قيس عشرة آلاف. فكان ذلك سبباً لاعتقاله بفضل عمامته وتقريره عن الدراهم التي أجاز بها؛ أمن إصابة أم من ماله وعزله على كل حال. إذ أقامه عمر بين الخيانة والإسراف وكل لا خير فيه.

ومن جهة أخرى فإن عمر لم يدع للعرب في مدته فرصة تمكنهم من

الإخلاد إلى الراحة والإيواء إلى ظل النعم والسكون تحت كنف الأمصار. والتبسط في نعيم الحياة وزخرف العيش. بل دفع بهم في معترك الحياة الحضرية وزج بهم في معترك الحروب في وقت واحد. وكانت الحروب أكبر همهم والتغلب على العدو آثر شيء لديهم فشغلهم عن النعيم والرفاهية بالفتوح وألهاهم بادخار الغنائم عن التمتع بها. وأرجأوا ذلك ريثما يفلوا من غرب الدول المجاورة لهم ويأمنوا غائلة الأمم المغلوبة وانتقاضها عليهم.

استفاد العرب من هذه السياسة العمرية في أحوالهم الاجتماعية فلم يسمع في زمنه ناعق بفرقة ولا صائح بانقسام ولا داع إلى تنافر وتدابر ولا هاتف بعصبية بل كان جزاء من يفعل ذلك الضرب بالسيف ـ ولكن اندفاع القوم إلى الفتوح وتفرقهم في أنحاء الممالك وتعجلهم الظهور قبل تأصل الدين فيهم وتمكنه من نفوس عامتهم. نشأ عنه بعد ذلك تشويش في الدين والملك ـ ومن ذلك عدم الإجهاز على الوثنية ومحو أثرها من البلدان المفتتحة مع دخول كثير من أهلها في الإسلام. فاختفت هذه الآثار حيناً ثم بدأت تظهر كرة ثانية مصطبغة بصبغة أخرى نتج عنها تفرق أهواء المسلمين وظهور البدع والمبتدعين وبخاصة بين الأعاجم من المسلمين أو الذين ظهروا بمظهر الإسلام واتسموا بسمته.

ومن المعلوم أن الإسلام طم على البلاد بسرعة مدهشة فائقة الوصف. والشيء إذا سار بسرعة لم يكن طروء الخطأ والفساد فيه مأموناً. كما لو ضاعفت النار بشيء تريد نضجه فإنه وإن نضج ظاهره في وقت قريب فإن باطنه لم يزل فجا لا أثر للنضج فيه. ولهذا كانت سرعة تأخر الأمة العربية في الحضارة والرقي بمقدار تقدمها في ذلك وسرعة فتحها للبلاد.

والذي يمكن أن يكون عذراً لعمر أن سياسته في تعجل الفتح أول الأمر كان لها فائدة جليلة في ذلك الحين. وذلك أنه دفع بالقوم إلى الفتح في إبان الظهور واتقاد جمرة الحماسة في النفوس قبل أن تطفأ تلك الوقدة وتنحل عقدة الإخاء بين قبائل العرب وتتراخى أسباب الألفة فأراد أن يساجل القوم قبل أن

يلتئم شملهم ويكاثروا العرب بما لا قبل لهم به ـ فلما نال القصد وأدرك الغاية عمد إلى الإرعاء عليهم وهم بأن لا يرخى لهم طول الفتوح وأن يقنعوا بما أحرزوا ولكن القوم أخطروه بما كان يبدو منهم من الانتقاض ونكث العهود إلى الإذن للمسلمين بقطع مادة الفساد.

ومما يدل على أن عمر كان يسوق الأمة إلى المدنية سوقاً تدريجيًّا، ولم يكن يريد بهم الاقتحام في تيارها ما كان منه حين ورد عليه الأحنف بن قيس في وفد من أهل البصرة فتكلم عنهم فقال: ولقد يعزب عنك ما يحق علينا إنهاؤه إليك مما فيه صلاح العامة. وإنما ينظر الوالي فيما غاب عنه بأعين أهل الخير ويسمع بآذانهم وإنا لم ننزل منزلاً بعد منزل حتى أرزنا إلى البر. وإن إخواننا من أهل الكوفة نزلوا في مثل حدقة البعير الغاسقة من العيون العذاب والجنان الخصاب فتأتيهم ثمارهم غضة ولم تخضد وإنا معشر أهل البصرة نزلنا سَبِخَةً هشاشة زعقة نشاشة طرف لها في الفلاة وطرف لها في البحر الأجاج يجري إليها ماء جرى في مثل مريء النعامة دارنا فخمة ووظيفتنا ضيقة وعددنا كثير وأشرافنا قليل وأهل البلاء فينا كثير ودرهمنا كبير وقفيزنا صغير، وقد وسع الله علينا وزادنا في أرضنا فوسع علينا يا أمير المؤمنين وزدنا وظيفة توظف علينا ونعيش بها فقال عمر. هذا الغلام سيد أهل البصرة. وأمسكه سنة لئلا يحمل الناس على فضل عقله. فيطلب منهم مثل ما عنده فيورطهم. وكذلك فعل مع زياد حين أوفده عليه أبو موسى واحتبسه. فسأله زياد عن السبب. فقال: كرهت أن أحمل الناس على فضل عقلك.

ترجمة عثمان بن عفان

هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي القرشي الأموي، يجتمع مع رسول الله ﷺ في عبد مناف. يكنى أبا عبد الله وأبا عمرو، وثانيها أشهرهما، ولد في السنة السادسة بعد عام الفيل.

وأمه أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف. وأمها البيضاء أم حكيم بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ.

كان عثمان تاجراً وقد ذهب إلى الشام مرة في تجارته. وقد أدرّ الله تعالى عليه أخلاف الخير فقد كان واسع الثروة كثير المال ـ وقد شبّ على كريم الشيم وحسن السيرة عفيفاً حياً محبباً في قومه مأموناً عندهم أثيراً لديهم. أخرج ابن عساكر عن الشعبي قال: كان عثمان في قريش محبباً يوصون إليه ويعظمونه. وإن كانت المرأة من العرب لترقص ولدها وهي تقول:

أحبك والرحمن ... حب قريش عثمان

أجاب عثمان إلى الإسلام بدعوة من أبي بكر وكان إسلامه مع الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله. فهو من السابقين الأولين الذين أحرزوا أفضل السبق وفخر القيام بنصرة الدين. وقد روى ابن الأثير في أسد الغابة عن ابن عباس أن قوله تعالى ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين[1]﴾ نزلت في عشرة: أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف وسعيد بن زيد وعبد الله بن مسعود.

كان عثمان في صحبته محبباً من رسول الله ﷺ كريماً عليه وقد أصهر إليه رسول الله ﷺ بابنته رقية بعد إسلامه. ولما ناله الأذى من قريش في الإسلام هاجر بها الى الحبشة. وفي ذلك قال رسول الله « صحبهما الله إن عثمان لأول من هاجر بأهله بعد لوط » يشير إلى قوله تعالى ﴿فآمن له لوط وقال إني مهاجر الى ربي﴾[2] ثم رجع من الحبشة الى مكة. فلما كانت الهجرة الى المدينة هاجر إليها ـ وهي الهجرة الثانية ـ وقد بقيت رقية معه إلى أن توفيت بالمدينة في اليوم الذي أظفر الله المسلمين على مشركي قريش ببدر. ولم يشهدها عثمان لأنه كان

---

(١) سورة الحجر: الآية ٤٧.

(٢) سورة العنكبوت: الآية ٢٦

قائماً على تمريض زوجته. ولكن رسول الله أسهـم له مع الغانمين فعد بدرياً.

شهد عثمان مع رسول الله جميع مشاهـده إلا بدراً كـما قدمنـا وقد زوجـه رسول الله بابنته أم كلثوم: ولهذا كان يلقب بذي النورين لأنه كان ختن رسـول الله في ابنتيه رقية وأم كلثوم إلى أن توفيت في السنة التاسعة من الهجرة وقـد قال رسول الله ﷺ: «لوأن لنا ثالثة لزوجناك». وهذا يدل على شـدة حب رسول الله له وثقته به وسمو مكانته عنده.

ولما كانت بيعة الحديبية كان عثمان سفير رسول الله إلى قريش فلما شاع أن قريشاً غدرت بعثمان بايع أصحابه تحت الشجرة بيعة الرضوان ثم علم حينـذاك أن عثمان حي فقال النبي ﷺ « إن عثمـان في حاجـة الله وحاجـة رسولـه » ثم ضرب بإحدى يديه على الأخرى وقال بيده اليمنى: « هذه يد عثمان » فكانت يد رسول الله لعثمان خيراً من أيديهم لأنفسهم.

كان عثمان كريم النفس جواداً بمـا له سخي اليـد في طاعـة الله عز وجـل وإعلاء دينه حتى أنه بذل في تجهيز جيش العسرة من مـاله مـا لم يبذلـه أحد فقـد جهـز ذلك الجيش بـألف بعير وخمسـين فرسـاً ـ وقد أخـرج التـرمـذي عن أنس والحـاكم وصححه عن عبـد الرحمن بن سمـرة قال: جـاء عثمـان الى النبي ﷺ بألف دينار حين جهز جيش العسـرة فنثرهـا في حجره فجعـل رسول الله يقلبهـا ويقول « ما ضر عثمان ما صنع بعد اليوم » مرتين.

ومن مسـارعته الى البـذل ابتغاء وجـه الله تعالى أن بئـر رومة كـانت ركية ليهـودي يبيع المسلمـين ماءهـا. فقـال رسـول الله ﷺ: «من يشتري بئـر رومـة فيجعلها للمسلمين يضرب بدلوه في دلائلهم وله بها مشرب في الجنة» فأتى عثمان اليهودي فساومه بها فأبى أن يبيعها كلها. فاشترى نصفها بـاثني عشر ألف درهم فجعله للمسلمين فقال له عثمان، إن شئت جعلت على نصيبي قرنين وإن شئت فلي يوم ولك يوم قال بل لك يوم ولي يوم. فجعل المسلمون إذا كان يـوم عثمان

استقوا ليومين. فلما رأى اليهودي ذلك قال: أفسدت على ركبتي فاشتر النصف الآخر. فاشتراه منه بثمانية آلاف درهم وصارت كلها للمسلمين.

ومن هذا القبيل أن رسول اللّه قال: «من يزيد في مسجدنا»؟ فاشترى عثمان موضع خمس سوار فزاده في المسجد.

وكان عثمان يكتب الوحي لرسول اللّه ﷺ وكان لأبي بكر ثم لعمر أميناً كاتباً يستشار في مهام الأمور ويؤخذ رأيه في جلائل الأعمال ولما قتل عمر رضي اللّه تعالى عنه كان أحد الستة الذين قال فيهم عمر: إن رسول اللّه مات وهو عنهم راض وإنهم رؤساء الناس والناس لهم تبع. وكانت استشارة عبد الرحمن ابن عوف للناس في شأن من يلي الخلافة تتجلى في الغالب عن أن أكثر المشيرين يطلبون تولية عثمان وقد بويع بالخلافة بعد ذلك فاستقبل بخلافته السنة الرابعة والعشرين (٧ نوفمبر سنة ٦٤٤ م).

أول قضية نظر فيها عثمان

قدمنا أن أبا لؤلؤة فيروز الفارسي غلام المغيرة بن شعبة هو الذي قتل عمر ابن الخطاب أمير المؤمنين وقد قتله رجل من بني تيم أو قتل نفسه لما أعيا القوم القبض عليه، وقد قتل رجلاً من المسلمين وجرح ثلاثة عشر رجلاً - فلما كان ذلك جاء عبد الرحمن بن أبي بكر وأخبر أنه رأى أبا لؤلؤة قبل قتل عمر بيوم ومعه جفينة وهو رجل نصراني من أهل الأنبار جاء به سعد بن أبي وقاص ليعلم أبناء المسلمين بالمدينة الكتابة ومعهما الهرمزان ذلك الملك الفارسي - وحاله كما وصفنا - وهم نجى فلما زهقهم عبد الرحمن قاموا وسقط بينهم خنجر له رأسان نصابه في وسطه ثم قال فانظروا بأي شيء قتل فجاءوا بالخنجر الذي قتل به عمر فإذا هو بالصفة التي وصفه بها عبد الرحمن. سمع ذلك عبيد اللّه بن عمر فاعتقد أن أباه قتل بمماة هؤلاء الثلاثة وأنهم شركاء في دمه. فأمسك حتى إذا مات عمر - اشتمل عبيد اللّه على سيفه فأتى الهرمزان فقتله فلما عضه السيف قال لا إله إلا

اللّه ثم مضى حتى أتى جفينة فعلاه بالسيف فصلب بين عينيه ثم قتل ابنة أبي لؤلؤة، ولما علم صهيب بذلك بعث إليه عمرو بن العاص فلم يزل به وعنه ويقول السيف: بأبي وأمي، حتى ناوله إياه وثاوره سعد بن أبي وقاص وجذبه من شعره وأخذ به حتى جاء به الى صهيب فحبسه في دار سعد بن أبي وقاص حتى إذا انتهى عثمان من البيعة دعا بعبيد اللّه بن عمر، وقال لجماعة المهاجرين والأنصار وهو جالس في ناحية المسجد أشيروا علي في هذا الذي فتق في الإسلام ما فتق. فقال علي أرى أن تقتله. فقال بعض المهاجرين: قتل عمر أمس ويقتل ابنه اليوم؟ فقال عمرو بن العاص يا أمير المؤمنين إن اللّه قد أعفاك أن يكون هذا الحدث كان ولك على المسلمين سلطان، إنما كان هذا الحدث ولا سلطان لك. قال أنا وليهم وقد جعلتها دية واحتملتها في مالي.

إن عبيد اللّه يعتبر من الوجهة الشرعية قاتلاً قتل عمداً ولا يمكن أن يعتبر عمله هذا قصاصاً لأنه قتل غير القاتل ومن قتلهم لم يثبت عليهم الاشتراك في الجناية ثبوتاً شرعيًا ولا يتولى القصاص الا بعد الحكم ولو ثبت اتفاقهم على هذه الجناية لم يكن الحكم الشرعي مبيحاً لقتل من قتل والشرع لا يأخذ في الحدود والعقوبات بالقرائن التي من هذا القبيل فكان عبيد اللّه مستوجباً للقصاص بلا شبهة ـ ولم يكن ما أشار به عمرو بن العاص من أن ذلك الأمر حدث في غير سلطان عثمان كافياً في نجاته من العقاب ولو أن عمر كان حيًا وقد صنع ابنه ما صنع لأمضى فيه حكم اللّه ـ غير أن عثمان رأى ما رآه بعض المهاجرين من استفظاع على أثر مقتل أبيه وأن يكون بدء خلافته إدخال المصيبة على آل الخطاب خاصة من بين المسلمين فرأى للخروج من هذا المأزق أن يجعلها دية في ماله وهو تخلص حسن ـ وكان رجل من الأنصار يقال له زياد بن لبيد البياض إذا رأى عبيد اللّه يقول:

ألا يا عبيد اللّه مالك مهرب	ولا ملجأ من ابن أروى ولا خفر
أصبت دماً واللّه في غير حله	حراماً وقتل الهرمزان له خطر

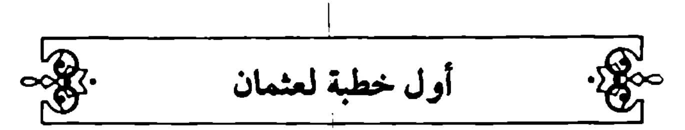
على غير شيء غير أن قال قائل أتتهمون الهرمزان على عمر؟
فقال سفيه والحوادث جمة نعم أتهمه قد أشار وقد أمر
وكان سلاح العبد في جوف بيته يقلبها، والأمر بالأمر يعتبر

شكا عبيد اللّه زياد بن لبيد إلى عثمان فنهاه فقال:

أبا عمرو عبيد اللّه رهن فلا تشكك بقتل الهرمزان
فإنك إن غفرت الجرم عنه وأسباب الخطأ فرسا رهان
أتعفو إذ عفوت بغير حق فمالك بالذي تحكي يدان

فدعا عثمان زياد بن لبيد فنهاه وشد به.

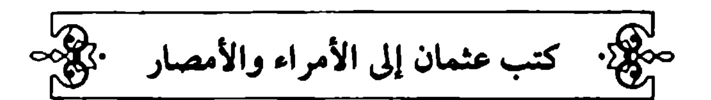
إن الهرمزان وجفينة قتلا مظلومين شرعاً ولكن الظروف التي وجد فيها الهرمزان وما يحتف بسيرته من الغدر المتكرر وما رواه عبد الرحمن بن أبي بكر لا توجد في القلب موضعاً للأسف لما لقيه وعندي أنه لو وجد محقق ماهر لأثبت اشتراك الهرمزان وجفينة وأبي لؤلؤة وكعب الأحبار في المؤامرة لاغتيال عمر.



أول خطبة لعثمان

قال الطبري - لما بايع أهل الشورى عثمان خرج وهو أشدهم كآبة فأتى منبر رسول اللّه ﷺ فخطب الناس فحمد اللّه وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ وقال « إنكم في دار قُلعَة وفي بقية أعمار فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه. فلقد أتيتم صبحتم أو مسيتم ألا وإن الدنيا طويت على الغرور فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم باللّه الغرور. واعتبروا بمن مضى ثم جدوا ولا تغفلوا فإنه لا يغفل عنكم، أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين أثاروها وعمروها ومتعوا بها طويلاً؟ ألم تلفظهم؟ ارموا بالدنيا حيث رمى اللّه بها. واطلبوا الآخرة فإن اللّه قد ضرب لها مثلاً والذي هو خير فقال عز وجل ﴿**واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان اللّه على**

كل شيء مقتدراً المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً﴾ ـ وذكر غير الطبري أنه ارتج عليه.



كتب عثمان إلى الأمراء والأمصار

لما ولى عثمان الخلافة كتب إلى أمراء الأمصار كتاباً عاماً صورته:

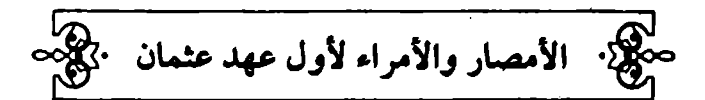
« أما بعد، فإن اللّه أمر الأئمة أن يكونوا رعاة ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة، وإن صدر هذه الأمة خلقوا رعاة ولم يخلقوا جباة وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة ولا يكونوا رعاة. فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء، ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين وفيما عليهم فتعطوهم مالهم وتأخذوهم بما عليهم، ثم تعتنوا بالذمة فتعطوهم الذي لهم وتأخذوهم بالذي عليهم، ثم العدو الذي تنتابون فاستفتحوا عليهم بالوفاء ».

وكتب إلى أمراء الأجناد بالثغور « أما بعد. فإنكم حماة الإسلام وزادتهم وقد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا بل كان عن ملأ منا ولا يبلغني عن أحد منكم تغيير ولا تبديل فيغير اللّه بكم ويستبدل بكم غيركم. فانظروا كيف تكونون فإني أنظر فيما ألزمني اللّه النظر فيه والقيام عليه ».

وكتب الى عمال الخراج «أما بعد فإن اللّه خلق الخلق بالحق فلا يقبل الا الحق خذوا الحق واعطوا الحق به. والأمانة الأمانة، قوموا عليها ولا تكونوا أول من يسلبها فتكونوا شركاء من بعدكم الى ما اكتسبتم. والوفاء الوفاء لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد فإن اللّه خصم لمن ظلمهم ».

وكتب الى العامة من المسلمين بالأمصار « أما بعد فإنما بلغتم ما بلغتم بالإقتداء والإتباع فلا تلفتنكم الدنيا عن أمركم فإن أمر هذه الأمة صائر الى الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم تكامل النعم وبلوغ أولادكم من السبايا وقراءة

الأعـراب والأعاجم القـرآن، فإن رسـول اللّه ﷺ قال: «الكفر في العجمة فـإذا استعجم عليهم أمر تكلفوا وابتدعوا».



الأمصار والأمراء لأول عهد عثمان

كانت الأمصار الكبرى لآخر عهد عمر وأول عهد عثمان هذه:

١ ـ مكة، وأميرها نافع بن عبد الحارث الخزاعي.
٢ ـ الطائف، وأميرها سفيان بن عبد اللّه الثقفي.
٣ ـ صنعاء، وأميرها يعلي بن مُنبه حليف بني نوفل بن عبد مناف.
٤ ـ الجند، وأميرها عبد اللّه بن أبي ربيعة.
٥ ـ البحرين وما والاهـا، وأميرهـا عثمان بن أبي العـاص الثقفي ـ وهذه الخمس في جزيرة العرب.
٦ ـ الكوفة، وأميرها المغيرة بن شعبة الثقفي.
٧ ـ البصـرة، وأميرهـا أبو مـوسى عبد اللّه بن قيس الأشعـري. وهـاتـان بالعراق:
٨ ـ دمشق، وأميرها معاوية بن أبي سفيان الأموي.
٩ ـ حمص، وأميرها عمير بن سعد. وهاتان بالشام.
١٠ ـ مصر، وأميرها عمرو بن العاص السهمي.

الفتوح في زمن عثمان

إن جنود الإسلام كانت في زمن عمر قـد فتحت المملكة الفـارسية جميعهـا وبـلاد سوريـة كذلـك ومصر. غير أن بعض مـا فتح لم يكن الأمـر فيه مـوطـداً توطيداً تاماً: بل كان أهله يجيبون كل داع إلى شق العصا وخلع اليد من الـطاعة فكـانت الجنود الإسـلامية تقـوم بردهم الى الـطاعة في زمن عثمـان وتثبت حكم الإسـلام فيها ـ ولهـذا يكون إرجـاع تلك البلاد إلى الـطاعة فتحـاً على التحقيق

وللمسلمين في عهد عثمان فتوح في بلاد لم تطأها أقدام جنود الإسلام من قبل وسنذكر ذلك إن شاء الله.

إن صديقنا الفاضل رفيق بك العظم لم يمر في كتابه (أشهر مشاهير الإسلام) بروايات المؤرخين في الفتح الإسلامي مروراً بسيطاً بل وقف وقفة المدقق الباحث وقد تسنى له الوقوف على تواريخ الأمم التي كان الفتح الإسلامي في زمن عثمان موجهاً إليها. وقد أتيح له تحقيق واف شاف في فتوح بلاد أرمينيا أحببت أن ألم به وأجعله عمدة كلامي في هذا الباب سواء كان ذلك بأخذ العبارات بنصها أو تلخيصها بحسب ما أراه.

فتح أرمينيا والقوقاز في عهد عثمان

تحد أرمينيا شمالاً بالبحر الأسود وكرجستان. ومن الشرق بكرجستان أيضاً وجزء من بلاد فارس. ومن الجنوب بكردستان والجزيرة. ومن الغرب بآسيا الصغرى. هذه حدود أرمينيا الآن ـ والعرب كانوا يتوسعون في هذا الاسم. فربما أدخلوا في أرمينيا قسماً من بلاد القوقاز من جهة الشمال وهو « أران » المشتمل على مقاطعة أريوان وتفليس. وكانوا يسمون هذا القسم باسم الران وهو يمتد شمالاً الى داغستان. وشرقاً الى أذربيجان وبحر الخزر. وأما من جهة الجنوب فكانوا يدخلون فيها قسماً من كردستان وهو عمالة بتليس وربما جعلوها من أرمينيا الرابعة التي يجعلون نهاية حدها الجنوبي الجزيرة. ولهذا لم يذكر مؤرخو العرب فتح القوقاز على حدة. بل جعلوه مضموناً الى فتح أرمينيا.

قال: وقبل أن أبسط الكلام في جغرافية القوقاز أذكر هنا بعض الأمكنة الشهيرة في أرمينيا زيادة في الإيضاح.

فمن مدن أرمينيا الشهيرة: خلاط، وقاليقلا ـ (التي هي أرزروم أو أرزن الروم كما يقول أبو الفداء) وإلى جهة الغرب منها أرزنجان. ثم أرجيش

على بحيرة وان. ووان ـ وهي في الطرف الشرقي من البحيرة المسماة باسمها. وفي الجهة الشرقية من سلسلة جبال أرمينيا جبل الجودي ـ أواراط الذي استوت عليه سفينة نوح ومن أنهارها الفرات وأراس المعروف عند العرب بنهر الرس وينحدر من الجبال قرب أرزروم ويمر في مقاطعتي القارس وأرزروم ويقطع كرجستان حتى يلتقي مع نهر كور الآتي من أعالي القارص وتفليس ويصبان في بحر الخزر.

أما بلاد القوقاز ـ حالاً ـ فتحد شمالاً ببلاد الروسيا (ونحن الآن لا ندري أي حكومة من الحكومات الروسية تجاورها من الشمال بعد أن انقسمت روسيا الى حكومات عديدة، والحدود لم تحدد إلى الآن ولم ترسم خريطة للممالك، وقد دخل في تركيا بعض هذه البلاد فقد استولت على باطوم والقارص وأردهان، ودخل في حكمها مدينة باكو على بحر الخزر، وإلى الآن في يوم ١٢ مارس سنة ١٩١٨ لم تجل الحال تماماً) وجنوباً العجم وتركيا وآسيا (وعلى ما قدمنا تكون أرمينيا القوقازية التابعة لتركيا) وشرقاً بحر الخزر الذي يفصلها عن بقية آسيا الروسية وغرباً البحر الأسود. ويسمى العرب هذه البلاد جبال كوه قاف وبلاد القبق وربما دعوها باسم بلاد الران (أرّان) من تسمية الكل باسم الجزء.

فمن أقسام البلاد الجنوبية أيبريا أوكر جستان وعاصمتها تفليس على نهر كور وهي جزء من بلاد شروان الممتدة شمالاً إلى داغستان[1] ويظهر من سياق خبر الفتح في تاريخ البلاذري أن العرب كانوا يسمون هذا الجزء كورة جرزان وأنه يمتد غرباً إلى آسيا الصغرى ـ ومن مدن الران الشهيرة الروان، وفيها كنيسة كبرى للأرمن ومن مدنه المشهورة عند العرب منجليس وجرزان وبردعة والباب. أوباب الأبواب (دربند) والبيلقان. قال الإصطخري: ليس في أرّان مدينة أكبر من بردعة والباب وتفليس. ومن أقسامه الشمالية ـ بلاد الجركس. ويجري فيها نهر قوبان الذي يصب في البحر الأسود ونهر كوما ـ وترك (ته رك) اللذان يصبان في

(١) تكتب في التركية بالطاء وتنطق دالاً مفخمة.

بحـر الخزر. ومن أقسـامه داغستـان. على بحـر الخزر وفيهـا يجـري نهر سمـوز في السهـول الواقعـة شمال داغستـان ومن مدنها الشهيـرة باكـو التي فيها منـابـع النفط (ولعلها التي يسميها القرماني في جغرافيته. باكوية) ـ ودربند عـلى شاطيء بحر الخزر وهي ذات المضيق المعروف بمضيق دربند الذي اجتازه عبد الرحمن بن ربيعـة الباهـلي بجيشه الى السهـول الشماليـة حيث قتل عـلى نهر. ترك. الـذي يسميه العرب نهر بلنجر.

لا خلاف بين المؤرخين في أن العرب دوخوا أرمينيا مرتين أولاهما على عهد عمر بن الخطاب والثانية على عهد عثمان بن عفان. وقد أيد هذا الكلام تواريخ الأرمن وأشار إليه القس جبرائيل الخانجي في مختصر تاريـخ الأرمن وإن لم يذكـر أسماء الفاتحين في المرتين ولم يعين السنـين بالضبط. أمـا ديفرچي فقـد عين مـدة الخليفة فأخطأ: والثابت عنـد مؤرخي العرب أن فتـح تلك البلاد في عهـد عمر كـان سنــة ١٨ هـ ٦٣٩ م وأمــا فتحهــا في عهــد عثمــان فكــان في سنــة ٢٦ هـ ٦٤٦ م ـ كما يعلم من مقارنة التواريخ وجعل الطبري ذلك سنة ٣١.

كـان بكير بن عبـد اللّٰه وعتبة بن فـرقد قـد فتحـا في خـلافـة عمـر بـلاد أذربيجان الواقعة شرقي بلاد أرمينيا ـ فكتب بكير بالفتـح الى عمر. فكتب عمـر الى سراقة بن عمرو بغزو الباب وعلى مقدمته عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي وعلى مجنبتيه ابن أسيد الغفاري وبكير بن عبد اللّٰه المتقدم، وعـلى المقاسم سلمـان بن ربيعة ـ وكتب إلى حبيب بن سلمة الفهري أن يمد سراقة وهـو يومئـذ بالجـزيرة. فلما نهض سـراقة من البصـرة لوجهـه، تقدم عبـد الـرحمن إلى أرمينيـا الشـرقيـة وفتحها حتى وصل الى الباب « دربند » على شط بحر الخزر وعليها شديار فكاتبه وأستأمنه « كما قصصنا ذلك من قبل » ـ ولما فرغ سـراقة من البـاب بعث الأمراء والقواد الى ما يليه من بلاد أرمينية. فأرسل بكير بـن عبد اللّٰه الى موقـان وحبيب ابن سلمـة الى تفليس عاصمـة كرجستـان. وحذيفـة بـن اليمان الى بـلاد جبـال الـلان « القوقـاز ». فاشتبكت جنـوده في أرمينيا وأطـرافها مـع الأمير أوهـان بن كـامساركـان ـ وأخيه ديـران ـ فقتلا وتشتت جنـدهما بخيـانة أحـد قـواد الأرمن

المسمى ساحور، فإنه خان أوهان، وانضم بجيشه الى العرب، كما يقول ديفرجي وصاحب تاريخ الأرمن.

أما حبيب بن سلمة الفهري الذي قصد كرجستان وعاصمتها تفليس فنهض له ثيودور أحد أمراء البلاد، وكانت البلاد منقسمة على بعضها، وبذلك سعي في جمع كلمة الأمراء في أرمينيا ودخولهم تحت لوائه لصد المسلمين ففشل فيما حاول وكان البطريك استراس يؤازره ويعضده ـ فلما رأى أن الأمر على غير ما يشتهي أصابه الغم الشديد ومات غمًّا وكمداً.

بينما الأرمن مهتمون في إقامة بطريك ـ غير استراس إذا فاجأهم المسلمون بقيادة حبيب بن سلمة وحاصر وامدينة، دوفان، أو ـ تفين ـ وفيها كرسي البطريك ويقول ديفرجي: إن حصارها بدأ في نوفمبر سنة ٦٣٩ ذي القعدة سنة ١٨ هـ واستمر الى اليوم السادس من يناير سنة ٦٤٠ م ٥ المحرم سنة ١٩ هـ ففتحها حبيب ثم أخذ في إتمام فتح أرمينيا وكردستان، ففتح وان، وبخشوان، وسيس على الضفة الثانية من نهر الرس ويسميه الجغرافيون « أراس وأراكس » ـ ثم سار إلى أرمينيا الغربية ثم عطف على إيبريا التي هي جزء من كرجستان الحالية وأخذ عاصمتها وسائر مدنها الكبرى ـ وفي أثناء ذلك مات سراقة واستخلف عبد الرحمن بن ربيعة فأقره عمر على ثغر الباب وأمره بغزو الترك، فسار شمالاً مجتازاً مدينة الباب وبلادها بعد أن استخضع أكثر بلاد الجبل الممتدة على شاطيء بحر الخزر وكان سكانها على جانب عظيم من التوحش والجهالة. وبعد أن اجتاز الباب أوغلت خيله في السهول الشمالية إلى مائتي فرسخ من بلنجر (ته رك) ثم عاد ولم يقم له أحد من أهل تلك الناحية. وقد حكى الطبري: أن أهل تلك الناحية كانوا يعتقدون ان هؤلاء العرب يموتون ولا يقطع فيهم السلاح. فكانوا يهربون منهم في الآجام والغياض، ثم عاد عبد الرحمن الى الباب. وجعل يردد غزواته في تلك الناحية الى أن جَرَّب أحد أهل تلك البلاد قتل المسلمين بأن كمن في إحدى الغابات ورمى رجلاً منهم فقتله. فأخبر قومه

بـأن هؤلاء المسلمين كـالناس يُقتلون ويمـوتون. فـطمعوا في المسلمـين واجتمعوا لقتـالهم. وقد قتـل عبد الـرحمن بن ربيعة في إحـدى الـوقـائـع في بـلادهم زمن عثمـان. وقد قـال الطبـري: إنهم احتفـظوا بجسم عبـد الـرحمن يتبـركـون بـه ويستسقون ويستنصرون به الى الزمن الذي أدركه الطبري وكان على نهر (ته رك) وأخذ الراية أخوه سلمان وخرج بالناس فسلك طريق جيلان إلى جرجان بأن دار على شواطيء بحر قزوين ـ وبعضهم سلك طريق الباب الى أرمينيا.

فكان فتح عبد الرحمن قد بلغ إلى شمالي بلاد القوقـاز في شرق أرمينيـا مما يلي بحر الخزر. وأما حبيب فقد بلغ في فتوحه شمال القوقاز أيضـاً مما يـلي البحر الأسود كل ذلك في خلافة عمر فيما بين سنتي ١٨ و ٢٠ هـ إلا أن ذلك الفتح لم يكن إلا فتحاً هيناً غير موطد الدعـائم. بل كـان فتحاً عـلى الجزيـة ولم يكن عند المسلمين من الجند العدد الكافي لسد هذه الثغور وتوطيد الأمن فيها وتثبيت كلمة المسلمين في نواحيها المتنائية وأطرافها المترامية. وقد كان عمر يظن ذلك كما روي ذلك العلامة ابن خلدون وقد صدق ظنه ـ فقد قال ديفـرچي: إن المسلمين قـد اضطروا عقب ظهور الخـزر على نهر تـرك ـ الى الجلاء عن كـل أرمينيا ثم عـادوا إليها بقوة أعظم سنة ٦٤٦ ـ سنة ٢٦ هـ وهي السنة التي وجه فيها عثمـان حبيباً وسلمـان الى استرداد البـلاد وفتح أرمينيـا والقوقـاز ففتحاهـا وكان الفتـح الأول تمهيداً للفتح الثاني الذي صارت به البلاد تابعة للدولة الإسـلامية ولم تنتقض إلاّ في فترات قليلة ثم استتب فيها الأمر للمسلمين.

وقـد أشار صـاحب مختصر تاريـخ الأرمن الى تسليم الأرمن بعـد الحـرب الثانية للعرب على عهـد سنباط بن فـارازديروس الـذي كان واليـاً من قبل قيصر القسطنطينية إذ كان الأرمن طلبوا والياً من قبله على بلادهم بعد اختلال أمر دولة الفـرس التي كانت متسلطة عليهم، وزار سلطانها بعـد أن بـدأت حـروبهـا مـع المسلمين فولى الأمبراطور عليهم فارازديروس والد سنباط وتولى مدة سنـة ومات وخلفه ابنه سنباط.

في خلافة عثمان انتقضت أرمينيا، والظاهر أن ذلك كان لضعف حاميتها وقلة عددهم وكثرة أهل البلاد ورغبة كبرائهم في التخلص من أيدي المسلمين، وساعد على ذلك بعد البلاد عن مركز قوة المسلمين وإبطاء النجدة عنهم، وكان عثمان قد جمع لمعاوية الشام والجزيرة وثغورها، وأمره أن يغزو شمشاط وهي أرمينيا الرابعة أو يغزيها، وقد كان حبيب بن مسلمة الفهري قد فتحها مع عياض بن غنم في خلافةعمر فوجهه معاوية في ستة آلاف مقاتل لفتح أرمينيا فنهض إليها حتى أتاح على قاليقلا سنة ٢٦ هـ وأقام عليها حتى خرج إليه أهلها طالبين الصلح على الأمان والجزية فأجابهم الى ذلك وجلا من جلا وأقام من أقام.

أقام حبيب بقاليقلا بعد افتتاحها، وبلغه أن الموريان بطريق أرميناقس قد جمع جموعاً عظيمة وانضمت إليه أهل اللان وأفخاز وسمندر من الخزر ـ فكتب الى عثمان يسأله المدد ـ فكتب عثمان الى معاوية أن يمده بقوم من أهل الشام والجزيرة ممن يرغب في الجهاد فأمده بألفي رجل أسكنهم قاليقلا وأقطعهم القطائع وجعلهم مرابطة بها ـ وكتب عثمان أيضاً الى سعيد بن العاص أمير الكوفة أن يمد حبيب بن مسلمة بجيش عليه سلمان بن ربيعة الباهلي وكان غزّاء صاحب إقدام ومكيدة في الحرب ـ فسار إليه سلمان بستة آلاف من جند الكوفة وأقبلت الروم ومن معها فنزلوا على الفرات. وقد أبطأ على حبيب المدد، ورأى حبيب أن يبيت أعداءه على ما يجنده من قلة عله أن يصيب منهم غرة قبل أن يقووا عليه، فبيتهم واجتاحهم وقتل قائدهم.

ومما يؤثر من شجاعة النساء. قوة جيش بعضهن، أن أم عبد اللّٰه الكلبية زوج حبيب قالت له ليلة أن قام لتبييت جند الروم: أين موعدك؟ قال: سرادق الطاغية (يعني الموران) أو الجنة. فلما انتهى الى السرادق وجدها عنده ولما ورد سلمان بجنوده وقد فرغ حبيب من أمر عدوه أراد سلمان أن يتأمر على حبيب ومن معه من الجند كما جرت به العادة من أن هذه الناحية كان غزوها لأهل

الكوفة والأمير منهم من قبل، فأبى عليه حبيب ذلك حتى قال أهـل الشام: لقـد همنا بضرب سلمان، فقال أوس بن مغزاء وهو من جند سلمان:

فإن تضربـوا سلمان نضـرب حبيبكم وإن تـرحلوا نحو ابن عفـان نـرحـل
وإن تقســطوا فـالثغــر ثغـر أميـرنـا وهــذا أمـير في الـكتــائـب مقبــل
ونـحن ولاة الـثـغــر كـنـا حمــاتــه ليــالي نــرمي كــل ثـغــر ونثـكــل

ومن ثم افترق القائدان، فأخذ حبيب في افتتاح أرمينيا الغربيـة، وسلمان في افتتاح أرمينيا الشرقية.

فسار سلمان إلى أرّان ففتح مدينة البيلقان (فيتقـران) صلحاً واشتـرط على أهلها الجزية والخراج، ثم أتى بردعة وعسكـر على نهر الثـوثر، عـلى فرسـخ منها فامتنعت عليه وعاناها أياماً فصالحـه أهلها عـلى صلح أهل البلقـان. وفتحوا لـه أبوابها فدخلها وأقام بها ووجه خيله ففتحت غيرها من البلاد والـرساتيق في أران ودعا أكراد البوسنجان (أو البـلاسجان) إلى الإسـلام فقاتلوه فـظفر بهم فـأقب بعضهم عـلى الجزيـة وأدى البعض الصدقـة ممن دخلوا في الإسـلام ثم سـار الى مجمع نهر الكرّ (كور بالكاف الثقيلة) والرس (أراس) فعبـر الكر ففتـح « قبالـة » وكـل البلاد التي عـلى الضفة الشمـالية من نهر الكـر ـ ويسميهـا ديفـرجي بـلاد سشاكي ـ ثم دخل بلاد سشيوان، وصالحه صاحب شكن وشيران والباب. ومن هنـا اختلف المؤرخون فبعضهم يقـول: إن سلمـان انتهى الى مـدينـة البـاب ولم يتجاوزها، ومن هذا الفريق ابن خلدون وهـو الظاهـر. لأن ما وراء البـاب أمم كثيرة قوية وإنما كان خوفهم من المسلمين واعتقادهم أنهم لا يموتون لأن المـلائكة تؤيـدهم وتعينهم هو الـذي يـدفـع بهم الى الهـرب من أمـامهم. فلما أنسـوا بهم وعرفوا أنهم يموتون اجتمعوا واعتزموا على قتالهم ولم يكن مع سلمـان سوى ستـة آلاف وهو عدد قليل إذا أوهنه بالغزو فيما وراء الباب لم يؤمن أن يعـود القوم الى حالهم من الانتـقــاض.

أما حبيب بن سلمة فسار من قاليقلا بعد وصول المدد إليه ونزل (مـربالا)

فأتاه بطريق خلاط بكتاب عياض بن غنم الذي أمنه به على نفسه وماله وبلاده وقاطعه على أتاوة فأنفذه حبيب له، ثم نزل منزلاً بين الهرك ودشت الورك، فأتاه بطريق خلاط بالمال وهدية فلم يقبلها. ونزل خلاط، ثم سار الى الصيانة فلقيه صاحب مكس وهي ناحية من نواحي البسفرجان فقاطعه على بلاده وكتب له كتاب صلح وأمان. ووجه إلى قرى أرجيش وباذغيس من غلب عليها ثم اجتاز نهر الرس وأتى مرج دبيل وغلب على جميع تلك النواحي، حتى بلغ سراج طير ويفروند. فأتاه بطريق دبيل فصالحه عنها على إتاوة يؤديها وعلى مناصحة المسلمين وقراهم ومعاونتهم على أعدائهم وكتب لهم.

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا كتاب من حبيب بن مسلمة الفهري لنصارى أهل دبيل ومجوسها ويهودها شاهدهم وغائبهم إني آمنتكم على أنفسكم وأموالكم وكنائسكم وبيعكم وسور مدينتكم فأنتم آمنون وعلينا الوفاء لكم بالعهد ما وفيتم وأديتم الجزية والخراج. شهد الله وكفى به شهيداً، وختم حبيب بن مسلمة.

وأتاه بطريق البسفرجان فصالحه على جميع بلاده وقصد السيسجان فحاربه أهلها فهزمهم وغلب عليهم ثم سار الى جرزان فأتاه رسول بطريقها وقدم له هدية وسأله كتاب صلح وأمان. فكتب:

« أما بعد: فإن نقلي « نقولا » رسولكم قدم عليّ وعلى الذين معي من المؤمنين فذكر عنكم أننا أمة أكرمنا الله وفضلنا. وكذلك فعل الله. وله الحمد كثيراً وصلى الله على محمد نبيه خيرته من خلقه وعليه السلام ـ وذكرتم أنكم أحببتم سلمنا. وقد قومت هديتكم وحسبتها من جزيتكم وكتبت لكم أماناً واشترطت فيه شروطاً فإن قبلتم ووفيتم به وإلا فأذنوا بحرب من الله ورسوله والسلام على من اتبع الهدى ».

وقد كان أمراء الإسلام لا يقبلون الهدايا وإنما يحسبونها لأهل الذمة من

جزيتهم ولم يقبلها من أهل الذمة إلا عبد الله بن عامر وهو أمير على الكوفة، فقالوا فيه: ضمها القرشي وكان مضياً.

ثم أن حبيباً سار الى تفليس عاصمة كرجستان فصالحه أهلها وكتب لهم:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ هذا كتاب من حبيب بن مسلمة لأهل تفليس من منجليس من جرزان القرمز بالأمان على أنفسهم وبيعهم وصوامعهم وصلواتهم ودينهم على إقرار بالصغار والجزية على أهل كل بيت دينار وليس لكم أن تجمعوا بين أهل البيوت تخفيفاً للجزية، ولا لنا أن نفرقهم استكثاراً منها ولنا نصيحتكم وضلعكم على أعداء الله ورسوله ﷺ وقرى المسلم المحتاج ليلة بالمعروف من حلال طعام أهل الكتاب. وإن انقطع برَجُلٍ من المسلمين عندكم فعليكم أداؤه الى أدنى فئة من المسلمين إلا أن يحال دونهم، وإن أنبتم وأقمتم الصلاة فإخواننا في الدين وإلا فالجزية عليكم وإن عرض المسلمين شغل عنكم فقهركم عدوكم فغير مأخوذين بذلك ولا هو ناقض عهدكم: هذا لكم، وهذا عليكم. شهد الله وكفى به شهيداً ».

ثم إن حبيباً صار يفتح في بلاد أرمينيا الغربية مما يلي البحر الأسود حتى انتهى الى بلاد القوقاز في شمال أرمينيا كما انتهى الى مثل ذلك سلمان في شرقيها مما يلي بحر الخزر.

تتمة فتح بلاد فارس

إن بلاد الفرس أو المملكة الفارسية كانت في أيام العرب تشتمل على بلاد وأرض أوسع مما نسميه اليوم بلاد الفرس، فقد كان يدخل فيها بلاد البلوجستان، وبلاد الأفغان واقليم أذربيجان وكردستان وبعض أرمينيا وهو الجزء الشرقي منها مما يلي بحر قزوين. وفي مدة عمر بن الخطاب قد فتح المسلمون أكثر ذلك كله. غير أن بعض هذه البلاد قد توطد فيه ملك المسلمين وهو ما يلي

ناحيتهم، وبعضه لم يتوطد فيه الملك وهو ما بعد عنهم كجهات المروين وطخارستان وبلخ وسجستان وبعضها لم يكن فتح من قبل.

وقد كان العرب يقسمون المملكة الفارسية الى أقسام كثيرة يسمونها كوراً.

« فالقسم الشمالي منها » مما يلي أرمينيا غرباً والقوقاز شمالاً يعرف بكورة اذربيجان ومن مدنه الشهيرة تبريز، وزنجان، والببر، والموقان، والطيلسان، وإلى الشرق منها قزوين الواقعة شمال بلاد الجبل، وكانت تسمى بلاد الديلم. ثم إلى شرقي هذا القسم في الجهة الجنوبية من بحر قزوين، طبرستان وجرجان. ومن مدنها، الشهيرة دماوند ـ أو دنبا وند ـ واستراباذ والدامغان. وقومس في جهة الجنوب أبيورد، ونسا، وسَرَخْس، ومرو الشاهجان في جهة الشمال والشرق من هذا القسم. والجزء الغربي منه يعرف الآن بمازندران.

« والقسم الغربي منها » يعرف بالعراق العجمي وخوزستان، وبلاد الجبل ـ ومن مدن العراق العجمي الشهيرة: المدائن، والنهروان على نهر دجلة، ومناذر، وقصر شيرين ثم نهاوند، وقاشان، وأصفهان من بلاد الجبل، والأهواز، ورامهرمز والسوس وجند يسابور من خوزستان.

« والقسم الجنوبي منها » يعرف بفارس وكرمان ومكران أو كورة السند « تعرف الآن ببلوجستان » وسجستان وهي بين مُكران وخراسان ـ ومن مدن فارس الشهيرة: اصطخر، وبسا، ودار ابجرد، وكازرون، وجور ثم جيرفت، وهميد، والسيرجان من مدن كرمان، ثم مُكران، وقندابيل، وفنزبور، وأرمائيل وبيرون، والدبيل « ثغر على المحيط الهندي من كرمان أو السند » ثم زالق على طرف المفازة المعروفة بمفازة كرمان « لعلها صحراء لوط » وزرنج التي يؤخذ منه إلى وادي سناروز، والكش من ناحية الهند ورشت، وناشرورز من سجستان.

« والقسم الشمالي الشرقي » يعرف بخراسان وطخارستان وزابلستان،

وهذا القسم أكثره واقع في أفغانستان الآن، وكان العرب يقسمونه الى أقسام كثيرة أو كور فمنها. كورة مرو، وهراة، وطوس، ونيسابور من ولاية خراسان، وغزنة وكابل من زابلستان. وبلخ من طخارستان، وأشهر مدن جراسان: نيسابور الواقعة في الجهة الشمالية الغربية، ومن خراسان وطوس الى الشمال منها أيضاً، ومن مدن نيسابور وزام، وبشت، وباخرز، وجوين، وأُبْرشهر، وبيهق، واسفرائن، وأرغينان وغيرها، ثم هراة، ومرو الروذ في الجهة الشرقية من خراسان، ومدن هذه الجهة بوشنج وباذغيس وطاغون، وسنج، وغيرها. أما طخارستان الواقعة شرقي خراسان وشمال زابلستان وجنوب الصاغانيان فإن من مدنها الشهيرة: بلخ وهي عاصمتها وتعد الآن من بلاد التاتار الجنوبية الواقعة جنوبي نهر جيحون. والجورجان. والفارياب والطالقان. وغيرها. وأما زابلستان: فمن مدنها، كابل وغزنة.

وقد تقدم الكلام في فتح الجزء الأكبر من هذه الجهات في خلافة عمر بن الخطاب.

في السنة الثالثة من خلافة عثمان بن عفان انتقضت آمد وبلاد الأكراد، فعزم أبو موسى الأشعري وإليّ البصرة يومئذ على الخروج لرد القوم الى الطاعة فحمل ثقله على أربعين بغلاً بعد أن كان يحض الناس على الجهاد والنهوض إليه مشياً. فتألب عليه أهل البصرة. وذهب منهم وفد إلى عثمان فاستعفوه من أبي موسى وتولى كبر ذلك غيلان بن خرشة الضبي. فقال عثمان: من تحبون؟ فقال غيلان: في كل أحد عوض عن هذا العبد الذي أكل أرضنا وأحيا أمر الجاهلية فينا، وقال إذا أمرت علينا صغيراً كان فيه عوض منه أو مُهْتَراً كان فيه عوض منه ومن بين ذلك من جميع الناس خير منه. وقال: أما منكم خسيس فترفعوه. أما منكم فقير فتجبروه يا معشر قريش؟ فعزله عثمان، وولى عبد الله بن عامر ابن كريز بن ربيعة القرشي، وهو ابن خال عثمان وكان ابن خمس وعشرين سنة وجمع له جند أبي موسى وجند عثمان بن أبي العاص من عمان والبحرين.

فصرف عبيد اللّه بن معمر عن خراسان وبعثه الى فارس وولى على خرسان مكانه عمير بن عثمان بن سعد فأثخن فيها حتى بلغ فرغانة. ولم يدع كورة إلاّ أصلحها. ثم ولى عليها في السنة التالية أَمَيْنَ بن أحمر اليشكري وعلي كَرْمان عبد لرحمن بن عبيس. واستعمل على سجستان عبد اللّه بن عمير الليثي فأثخن فيها الى كابل. ثم عمران بن الفضيل البُرْجُمي وعلى مُكران عبيد اللّه بن معمر فأثخن فيها حتى بلغ النهر.

ثم إن أهل فارس ثاروا وانتقضوا على عبيد اللّه بن معمر فسار إليهم والتقى معهم علي اصطخر فقتل عبيد اللّه. وبلغ الخبر ابن عامر فاستنفر أهل البصرة وسار بالناس الى فارس وعلى مقدمته عثمان بن أبي العاص وعلي مجنبتيه أبو بَرزة الأسلمي ومعقل بن يسار، وعلى الخيل عمران بن حصين. وكلهم له صحبة. فلقيته جموع الفرس بإصطخر فهزمهم وأوقع بهم وقعة عظيمة وأخذ المدينة عنوة. ثم قصد إلى دار أبجرد ثم إلى مدينة جور وكان هرم بن حيان على حصارها فلما جاء ابن عامر فتحها ورجع الى اصطخر وقد انتقضت ثانياً فحاصرها حصاراً طالت مدته ورماها بالمجانيق وافتتحها عنوة وأوقع بأهلها وقعة شديدة وهلك فيها أكثر أهل البيوت والأساورة لأنهم كانوا قد لجأوا إليها ووطيء عبد اللّه بن عامر أهل فارس وطأة صاروا منها في ذل، وكتب الى عثمان بالفتح فكتب إليه أن يستعمل على بلاد فارس هرم بن حسان اليشكري وهرم بن حيان العبدي والخريت بن راشد والمنجاب بن راشد والترجمان الهجيمي. وأمره أن يفرق كور خراسان على جماعة فيجعل الأحنف بن قيس على المروين. وحبيب ابن قرة اليربوعي على بلخ وخالد بن عبد اللّه بن زهير على هراة وأُمَينْ بن أحمر على طوس. وقيس بن هبيرة السلمي على نيسابور. ثم إن عثمان رضي اللّه عنه قبل موته جمع هذه الولاية لقيس بن هبيرة، واستعمل أُمَينْ بن أحمر على سجستان.

ولما رجع ابن عامر الى البصرة بلغه نقض أهل خراسان للذمة ونكثهم

للعهد. فجاءه الأحنف بن قيس وقال له، أيها الأمير إن عدوك منك هارب ولك هائب والبلاد واسعة فسر فإن اللّه ناصرك ومعز دينه. فتجهز وسار واستخلف على البصرة زياداً واستعمل على حرب سجستان الربيع بن زياد الحارثي وعلى كرمان مجاشع بن مسعود السلمي وتقدم هو إلى نيسابور وجعل على مقدمته الأحنف بن قيس فأتى الطبسين وهما حصنان وهما بابا خراسان ففتحهما عنوة ثم سير أمراءه الى أعمال نيسابور ففتحوا زام وقهستان وبيهق وبشت ـ ثم تقدم وقد سير عبد اللّه بن عامر وافتتح نيسابور وكل أعمالها وطوس كذلك وهراة كذلك وأعمالها.

وقد سير عبد اللّه بن عامر الأحنف بن قيس إلى طخارستان فأتى سوانجرد فصالحه أهلها على ثلثمائة ألف درهم ثم مضى الى مرو الروذ فقالته أهلها ثم صالحوه وسير سرية فاستولت على رستاق «بغ» فعظم الأمر على أهل طخارستان فاجتمع لقتاله أهل الجوزجان والطالقان والفارياب ومعهم ملك الطاغنيان من (تركستان الشرقية) فقاتلهم الأحنف قتالاً شديداً حتى هزمهم وفل جموعهم وفتح تلك الناحية ـ ثم سار الى بلخ وهي عاصمة طخارستان ففتحها ـ ثم قصد خوارزم على نهر جيحون (في تركستان الغربية) فاستعصت عليه فعاد الى بلخ.

أما مجاشع بن مسعود السلمي فتوجه الى كرمان فأتى في طريقه هيد فافتتحها ثم قصد السيرجان وهي مدينة كرمان فحاصرها أياماً ثم فتحها وفتح جيرفت عنوة ثم سار في نواحي كرمان ومدنها وقراها فدوخ أهلها وافتتح تلك المدن وأخضع أهل تلك النواحي وقد هرب كثير من أهل كرمان إلى مكران وسجستان فأقطعت العرب أرضهم فعمروها واختفروا لها القنى وأدوا العشر عنها.

وأما الربيع بن زياد الحارثي الذي سار الى فتح سجستان، فإنه قطع المغازة (لعلها مغازة كوهستان وهي غير قوهستان) فأتى حصن زالق وأغار على أهله فأسر دهقانها فافتدى منه بأن غرز عنزة (أطول من العصى وأقصر من

الرمح) وغمرها ذهباً وفضة وصالحه على صلح أهل فـارس ـ ثم فتح كـركويـه ـ ثم أتى روشت بقـرب ذرنج فقـاتله أهلها وأصيب رجـال من المسلمـين ثم انهزم أهلها ـ ثم أتى ناشرواذ ثم زرنج فناوله أهلها وقاتلوه فهـزمهم وصالحـه مرزبـانها على مال كثير ودخل المسلمون المدينـة ثم ذهب إلى وادي سناروز ثم رجـع وأقام في زرنج سنة وعاد إلى ابن عامـر بعد أن استخلف عليهـا عامـلاً. فأخـرج أهل زربج العامل وامتنعوا ـ فـولى ابن عامـر عبد الـرحمن بن سمرة بـن حبيب عبـد شمس على سجستان فخرج إليها وحاصر زرنج فصالحه مرزبانها عـلى ألفي ألف درهم وغلب عبد الرحمن على ما بين زرنج والكش من نـاحية الهنـد، وغلب من ناحية الرخج على ما بينه وبين الدوان. ولمـا انتهى إلى الدوان حصـرهم في جبل الزوز ثم صالحهم ودخل على الزوز وهو صنم من ذهب عيناه ياقوتتان فقطع يده وأخذ الياقوتتين ثم قال للمرزبان دونك الذهب والجوهر. وإنما أردت أن أعلمـك أنه لا يضر ولا ينفع ـ وفتح عبد الرحمن كابـل وزابلستان وهي ولايـة غزنـة، ثم عاد إلى زرنج فأقام بها حتى اضطرب أمر عثمان فـاستخلف عليها أمـين بن أحمر وانصرف فعاد القوم الى العصيان.

ولمـا تم لابن عامـر هذا الفتـح العظيم قيـل له: لم يفتـح لأحـد مـا فتـح عليك. قال لا جرم، لأجعلن شكري للّه على أن أخرج محرماً من موقفي هذا. فأحرم بعمرة من نيسابور وقدم عـلى عثمان. واستخلف عـلى خراسـان قيس بن الهيثم وخرج بن عامر منها في سنة ٣٢ فجمع قـارن وكان من كبـار قواد الفـرس جمعاً كثيراً من ناحية الطبسين وأهل باذغيس وهراة وقهستان وأقبل في أربعين ألفاً ـ فقال قيس لعبد اللّه بن خازم: ما ترى؟ قال أرى أن تخرج من البلاد وتخليهـا فإني أميرها إذا كانت حرب وأخرج كتاباً من عبـد اللّه بن عامـر قد افتعله فكـره قيس مشاغبته وخلاه والبلاد وذهب الى ابن عامر فلامه واعتذر قيس مما كـان من أمر الكتاب.

أما عبد اللّه بن خازم فسار إلى قارن في أربعة آلاف وأمـر الجند أن يحملوا

لودك. فلما قرب من عسكر قارن قال ليدرج كل منكم على زج رمحه ما كان معه من قطن أو خرقة أو صوف ثم أوسعوه من الودك من دهن أو زيت أو إهالة أو سمن وسار حتى إذا أمسى قدم مقدمة ثم أتبعهم وأمر الناس فأشعلوا النيران في أطراف الرماح وجعل يقتبس بعضهم من بعض، فأتوا عسكر قارن نصف الليل فناوشوهم وهم آمنون من البيات فرأوا النيران يمنة ويسرة ترتفع وتنخفض وتميل في كل ناحية فقاموا على دهش فهاجوا وهالهم الأمر وتقدمت المقدمة تناوشهم ثم غشيهم ابن خازم في جنده فقتل قارن وانهزم جنده فتبعوهم يقتلونهم كيف شاءوا وغنموا عسكرهم وسبوا سبياً كثيراً وكتب بالفتح الى ابن عامر فرضي وأقره وما زال بها الى أن انتهت وقعة الجمل.

كانت هذه النواحي مغازي أهل البصرة.

وأما أهل الكوفة فكانت مغازيهم بناحية أذربيجان وأرمينيا كما قدمنا. وفي ناحية طبرستان ـ فإن سعيد بن العاص أمير الكوفة من قبل عثمان سنة ٣٠ سار يريد خراسان بجيش فيه جماعة من أبناء أصحاب رسول اللّٰه منهم حذيفة بن اليمان والحسن والحسين وعبد اللّٰه بن عباس وعبد اللّٰه بن عمر وعبد اللّٰه بن عمرو بن العاص وعبد اللّٰه بن الزبير وغيرهم وكان ابن عامر قد خرج من البصرة يريد خراسان أيضاً فلما وصل سعيد إليه وجده قد نزل ابْرَشْهَر. فنزل قومس وهي صلح صالحهم عليها حذيفة بن اليمان بعد وقعة نهاوند ولم تنتقض وأتى جرجان فصالحوه على مائتي ألف درهم ـ ثم إلى طيمية وهي كلها من طبرستان متاخمة جرجان وهي على ساحل بحر الخزر فقاتله أهلها قتالاً شديداً حتى وصل صلاة الخوف وضرب يومئذ سعيد أحد المشركين على حبل عاتقه بالسيف فخرج من تحت مرفقه. وحاصرهم فسألوا الأمان فأعطاهم وافتتح سهل طبرستان والرويان ودنباوند وأعطاه أهل الجبال مالاً ـ ثم كان المسلمون بعد ذلك يغزون طبرستان ونواحيها. فربما أعطوا الإتاوة عفواً وربما منعوا فلم يعطوا إلاّ بعد قتال. وظل أهل بلاد جرجان وطبرستان على شيء من الاستقلال والنزوع

الى الشغب والإباء عن الخضوع لدولة الخلافة مدة الخلفاء الراشدين وصدراً من الدولة الأموية حتى أخضعها يزيد بن المهلب في خلافة سليمان بن عبد الملك بن مروان.

والذي يظهر للمطلع على التاريخ أن جيوش المسلمين فيما يلي فارس أو المملكة الفارسية كانت قد ضخمت وكثرت كثرة غير متناسبة مع عددهم عند ابتداء الفتح أيام القادسية. يدل على ذلك ما أورده الطبري من أبيات لابن جعيل مدح بها سعيد ابن العاص أمير الكوفة لما عاد من غزوة في جهات جرجان وطبرستان يقول فيها:

فنعم الفتى إذ جال جيلان دونه ... وإذ هبطوا من دستبي ثم أبهرا
تعلم سعيد الخير إن مطيتي ... إذا هبطت أشفقت من أن تعقرا
كأنك يوم الشعب ليث خفية ... تجرد من ليث العرين وأصحرا
تسوس الذي ما ساس قبلك واحد ... ثمانين ألفاً دارعين وحسرا

الفتح في مملكة الروم زمن عثمان

كانت دولة الرومان على أشد الحذر من جيوش المسلمين ناظرة إليهم في كل حين من عهد اقتطاعهم سورية ومصر من جسم سلطنتهم، وقد عرف قواد المسلمين ذلك الحذر منها فاتجه تيار فتوحهم الى جهات فارس وأرمينيا فترة من الزمن، الى أن جاءت سنة ٢٥ و ٢٦ ـ فعقد معاوية بن أبي سفيان عزيمته على منازلة دولة الروم في إقليمي قبادوكيا في الجهة الشرقية من آسيا الصغرى مما يلي أرمينيا ـ وفريجيا من المقاطعات الوسطى من آسيا الصغرى فأخذ « عمورية » من مدن فروجيا الكبرى على حدود غلاطية ولم يوغل فيما وراء ذلك. ولعل السبب في عدم إيغاله في تلك الأصقاع علمه بشدة حذر الروم واستعدادهم للدفاع عن بلادهم بالقوى الكبيرة مع قرب تلك النواحي من عاصمة ملكهم وسهولة حشد

الجيوش عليهم. فهو إذا أقدم في ذلك الزمن كان ثمن الفتح غالياً ـ وقد قدمنا ما كان من إرساله حبيب بن مسلمة الى أرمينيا.

كان معاوية ذا شغف زائد بالإجهاز على الدولة البيزنطية وفتح مدينة القسطنطينية وهو يعلم شدة حذر الروم ويقظتهم ويعلم ما عليه بلاد الأناضول من كثرة الجبال ووعورة الطرق، فبلوغ غرضه من طريق البر دونه أهوال مصاعب لا قبل لجيوش الشام في ذلك الحين بتذليلها، فاتجه تيار تدبيره الى البحر يريد أن يبلغ حاجته فيه بحمل المسلمين على إثباجه والاستيلاء على المراكز المهمة والنقط النافعة في الغزو البحري تمهيداً للقيام بعمله الهائل.

كانت هذه الفكرة تهجس في خاطر معاوية من أيام عمر بن الخطاب فكتب إليه يرغبه في أن يأذن له في فتح قبرص ويذكر له قربها من الساحل وسهولة ذلك عليه وقال: إن قرية من قرى حمص ليسمع أهلها نباح كلابهم (أهل قبرص) وصياح دجاجهم فكاد ذلك يأخذ بقلب عمر ولكنه اتهمه وكتب الى عمرو بن العاص ـ أن صف لي البحر وراكبه فإن نفسي تنازعني إليه ـ فكتب إليه عمرو: « إني رأيت خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير إن ركن خرّق القلوب وإن تحرك أزاغ العقول يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة. هم فيه كدود على عود إن مال غرق وإن نجا برق » فلما قرأه عمر كتب الى معاوية « إنا سمعنا أن بحر الشام يشرف على أطول شيء على الأرض يستأذن الله في كل يوم وليلة في أن يفيض على الأرض فيغرقها، فكيف أحمل الجنود في هذا الكافر المستعصب، وتالله لمسلم أحب إليّ مما حوت الروم. فإياك أن تعرّض لي وقد تقدمت إليك، وقد علمتَ ما لقي العلاء مني ولم أتقدم إليه في مثل ذلك ».

سكت معاوية بعد كتاب عمر على مضض في النفس الى أن كان زمن عثمان فاستأذنه. وبعد لأي ما أذن له في غزو الروم في البحر وذلك سنة ٥٢٧، وشرط عليه عثمان أن ينتدب الناس للغزو، وأن لا ينتخبهم ولا يقرع بينهم. فمن انتدب جهزه وأعانه فأعد معاوية لذلك أسطولاً في سواحل الشام وأرسل

إلى عبد اللّه بن أبي سرح عامل مصر يومئذ أن يجهز أسطولاً آخر ففعل واجتمع الأسطولان على قتل أهل قبرص، وبعد أن دافع أهلها دفاعاً شديداً وقاتلوا المسلمين أشد قتال صالحوا على سبعة آلاف دينار في كل سنة يؤدون الى الروم مثلها لا يمنعهم المسلمون عن ذلك، وليس على المسلمين منعهم ممن أرادهم. وعليهم أن يؤذنوا المسلمين بمسير عدوهم إليهم. ويكون طريق المسلمين الى العدو عليهم. وليس لذلك معنى سوى أن قبرص صارت بذلك محطة حربية ومستودعاً للمسلمين في البحر الأبيض المتوسط ونقطة اتصال بين أهل الشام وبين أساطيلهم التي ابتدأت تمخر في ذلك البحر وتلجأ الى تلك الجزيرة عند الحاجة. وكان الفتح سنة ٢٨ وحضره من أصحاب رسول اللّه جماعة منهم عبادة ابن الصامت وزوجته أم حرام بنت سلمان، ومن هذا التاريخ صارت دولة الإسلام دولة بحرية كما هي دولة برية وذلك أمر طبيعي لمملكة أحرزت من الشواطيء الواسعة ما أحرزت دولة الخلافة. فإنه قد صار لها شواطيء سورية ومصر وبرقة الى افريقية (تونس) في هذا الزمن القليل. وهذه الشواطيء تحتاج الى الحماية من غارات الأعداء من الرومان وهم أمة عريقة في البحرية وقيادة الأساطيل.

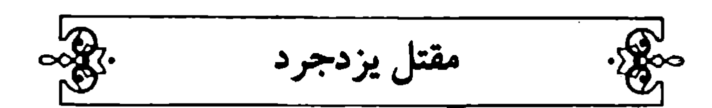
وقد كان أمير البحر الذي قاد الأساطيل لمعاوية عبد اللّه بن قيس الحارثي حليف بني فزارة فغزا خمسين غزاة من بين شاتية وصائفة في البحر. ولم يغرق فيه أحد ولم ينكب. وكان يدعو اللّه أن يرزقه العافية في جنده وأن لا يبتليه بمصاب أحد منهم وقد أجاب اللّه تعالى دعوته في جنده دونه.

وقد طار لعبد اللّه بن قيس ذكر في سواحل الروم وشواطيء البحر الأبيض المتوسط واشتهر شهرة عظيمة جدًّا ـ حتى إذا أراد اللّه أن يصيبه وحده خرج في قارب طليعة فانتهى الى المرقى من أرض الروم وعليه سُؤّل يعترّون بذلك المكان فتصدق عليهم. وكان معطاءاً كريماً فنم عليه جود كفه ـ فإن امرأة من السؤّال رجعت الى بيتها فقالت للرجال: هل لكم في عبد اللّه بن قيس؟

قالوا: وأين هو؟ قالت: في المرقى، قالوا: أي عدوة اللّٰه ومن أين تعرفين عبد اللّٰه بن قيس؟ فوبختهم وأعلمتهم أنها سألته فأعطاها عطاء ملك ولم يكن عطاء تاجر، فثاروا إليه فهجموا عليه فقاتلوه وقاتلهم فأصيب وحده وأفلت الملاح حتى أتى أصحابه، فجاؤوا حتى أرقوا والخليفة منهم عن قيس سفيان بن عوف الأزدي فخرج فقاتلهم فضجر وجعل يبعث بأصحابه ويشتمهم فقالت جارية عبد اللّٰه: واعبد اللّٰه، ما هكذا كان يقول حين يقاتل، فقال سفيان وكيف كان يقول؟

قالت: الغمرات ثم ينجلينا، ترك ما كان يقول الى ما قالت، وأصيب في المسلمن ناس يومئذ.

وقد ذكر سيديو في تاريخه أن معاوية فتح سنة ٢٩ هـ جزيرة إقريطش (كريد) وجزيرة كوس وجزيرة رودس، ولم يقل بذلك مؤرخو العرب والظاهر أن هذه الجزر فتحها معاوية في خلافته أيام هجماته المتابعة على سواحل الروم وتدميره لأسطولها العظيم ثم محاصرته للقسطنطينية كما سيأتي خبر ذلك كله في سيرة معاوية اهـ، من أشهر مشاهير الإسلام.



مقتل يزدجرد

من الأحداث في عهد عثمان مقتل يزدجرد وانتهاء الملك في فارس.

اضطربت كلمة المؤرخين في مقتل يزدجرد ملك الفرس ورويت في ذلك روايات عديدة رواها الطبري وتابعه عليها ابن الأثير. أقربها أن يزدجرد عزم على قصد خراسان ليجمع الجموع ويسير بهم الى العرب فسار الى مرو ومعه الرهن من أولاد الدهاقين ومعه فرخزاد أخو رستم. فلما اعتزم القدوم الى مرو كاتب ملك الصين وملك فرغانة وملك كابل وملك الخزر يستمدهم.

وكان الدهقان بمرو ماهويه أبو براز وقد جعل ماهويه ابنه محافظاً للمدينة وقد أراد يزدجرد صرف الدهقنة عن ماهويه الى ابن أخيه سنجان وشعر بذلك

ماهويه فأسرّ إلى ابنه بمنع يزدجرد عن دخـول مرو وأخـذ ماهـويه في العمـل على إهلاك يزدجرد فكتب إلى نيزك طرخان من ملوك التـرك يدعـوه الى الاتفاق عـلى قتل يزدجرد ومصالحة العرب عليـه ويضمن له ألف درهم في كـل يوم إن أعـانه على ما طلب. فأجاب نيزك الى ذلك وكاتب يزدجرد يبذل له المعونـة والنصرة إذا نحى عنه فرخزاد وجنده. واستشار يزدجرد أصحابه فكل أشار بـراي فتنحى عنه فرخزاد وجنده وجاء نيزك في جند واستقبـل الملك ماشيـاً فأمـر له بفـرس ودخل عسكر نيزك في موكب حافل تعزف فيه الموسيقى، فلما توسط الملك عسكر نيـزك قال له فيما يحدثه: زوجني إحدى بناتك حتى أناصحك في قتـال عدوك، فغضب منه يزدجرد وسبه، فعـلاه نيزك بمقرعة ففـر منه وقتـل أصحاب نيـزك أصحاب يزدجرد وانتهى الفرار بالملك الى بيت طحـان أو صانـع أرحاء عـلى نهر المرغـاب (نهر الطير) فمكث عنده ثلاثة أيام لا يأكل والطحـان أو صانـع الأرحاء لا يعلم من أمره شيئاً. فقال له: أخرج أيها الشقي فكل طعامـاً فقد جعت، فقـال: إني لا أصل الى ذلك الا بزمزمة وهي أدعية وصلوات يقوم رجال الدين من المجوس بتلاوتها على الطعام قبل الأكـل فأحضر لـه رجلاً فـزمزم لـه، وأكل، فلما رجـع المزمزم سمع الناس يتحدثون بهرب يزدجرد واختفائه فسأل عن حليته فوصف له فأخبر النـاس بمكانـه وانتهى الخبر إلى مـاهويـه أبو بـراز فأرسـل أحد الأسـاورة ليقتله. فأنكر الطحان أن يكون عنده. وقال رجل: إني أشم ها هنا ريح المسك ودخلوا بيت الطحان فإذا يزدجرد قد نزل في النهر فجروا طرف ثـوبه فـأخرجـوه. فأراد أن يفتدي من قاتله بخاتمه ومنطقته وفيها غنى الدهر لمن أخـذهما فلم يقبـل وطلب منـه أربعة دراهم عـلى أن يتركـه فلم يجـدهـا فـطلب أن يـذهب بـه الى الدهقان أو إلى العرب فإنهم يستبقونه فلم يقبل منه وقتله وألقاه في المرغاب.

ويقول سيديو في تاريخه: إن ملك الصين المسمى تائي تُسنْغ أمـد يزدجـرد بالجنود وأنه هو الذي سلط عليه من قتله على شاطيء المـرغاب. وانقضت بقتله الدولة الساسانية التي استمرت زاهية وأعلامهـا خافقـة على تلك الممـاليك نحـو

تسع وعشرين وثلاثمائة سنة، وقال ابن الأثير: وسمع بقتله مطران كان بمرو فجمع النصارى وبنوا له ناووساً وأخرجوه من الماء وكفنوه، وكان ملكه عشرين سنة: منها أربع سنين في دعة وست عشرة سنة في تعب من محاربة العرب إياه وغلظتهم عليه، وكان آخر من ملك من آل أردشير بن بابك، وصفا الملك بعده للعرب وذلك سنة إحدى وثلاثين هـ.

اجتماع أعمال سورية كلها لمعاوية

كان معاوية بن أبي سفيان عاملاً على الأردن في عهد عمر بن الخطاب وكان أخوه يزيد بن أبي سفيان أميراً على دمشق فلما مات نعاه عمر إلى أبي سفيان فقال: من جعلت على عمله يا أمير المؤمنين؟ قال: معاوية، فقال: وصلتك رحم، ومات عمر ومعاوية على دمشق والأردن.

وقد كان عياض بن غنم خال أبي عبيدة بن الجراح ومن أبناء عمومته وكان في عهد عمر بن الخطاب قد ولى عملاً بالجزيرة وكان شجاعاً وقائداً بارعاً. فبلغ عمر عنه إتلاف للمال فأحضره عمر وألبسه جبة صوف وأعطاه عصى وجاءه بصرمة من الغنم وقال له: ارع فإن أباك كان راعياً، وبعد مدة صرفه الى الشام فلحق بأبي عبيدة وكان جواداً كريماً مشهوراً لا يليق شيئاً ولا يمنع أحداً سأله معروفاً، فلما حضر أبو عبيدة استخلف عياضاً على عمله فأقره عمر، وكلم عمر في ذلك وقيل له عزلت خالداً أو عبت عليه العطاء، وعياض أجود العرب وأعطاهم لا يمنع شيئاً يسأله. فقال عمر عياض في ماله حتى يخلص الى مالنا وإني مع ذلك لم أكن مغيراً أمراً قضاه أبو عبيدة. ومات عياض بعد ذلك، فولى عمر مكانه على حمص سعيد بن جذيم الجمحي ثم مات فولى مكانه عمير ابن سعد الأنصاري وتوفي عمر وهو على حمص ثم إن عمير بن سعد مرض مرضاً شديداً وأضنى فاستعفى عثمان واستأذنه في الرجوع إلى أهله فأذن له، وضم عمله الى معاوية فكان له حمص ويتبعها قنسرين ودمشق والأردن.

وكان عبد الرحمن بن علقمة بن مجزر الكنائي على فلسطين، فلما مات في أيام عثمان ضمت فلسطين إلى معاوية وبذلك اجتمعت له كل ولايات سورية وكان معها جزء من الجزيرة.

الفرقة العربية وأسبابها ونتائجها

لابد لمن يريد أن يتكلم على الأمور التي كانت سبباً لتفريق وحدة المسلمين وتشعب آرائهم في السياسية، ولم تقتصر على ذلك حتى أنبتت لهم شعباً في الدين ومزقتهم كل ممزق، أقول: لابد لمن يريد ذلك من السير بالأمور من مبدئها والإتيان عليها واحدة واحدة. وأن يبدأ ذلك بأحوال المسلمين في أمصارهم ومنشأ ما كان بينهم وبين ولاتهم وما لهجوا به في حقهم وما عابوه عليهم ليكون ملمًّا بالأحوال بدأ ونهاية ـ هذا وقد أسهب المؤرخون وأصحاب السير والأخبار في أسباب الفتن والفرقة إسهاباً كثيراً. وقد جاء الطبري بالكثير من ذلك في أخبار مفرقة، ونسق العلامة ابن خلدون أحوال الأمصار وأسباب الفتنة ومبادئها نسقاً بديعاً في تاريخه وألم بشيء من ذلك في الجزء الأول، وقد حذا حذوه الأستاذ الخضري وجاء في محاضراته من ذلك بالكثير الطيب، وكذلك صاحب أشهر مشاهير الإسلام فقد جمع في هذا الباب شيئاً كثيراً وأبدى آراء سديدة، وقد جاء ابن الأثير في هذا الباب أيضاً بشيء كثير، وهذه الكتب التي اخترتها مادة لم أورده في هذا الباب وعمدة أرجع إليها وأنقل عنها مع ما يبدو لي من التعديل أو التحوير أو الزيادة أو نحو ذلك والله المستعان.

هل كان عثمان مسيئاً إلى الناس أو نقص عنهم الرزق في عهده؟

روي الطبري عن الحسن البصري قال: كان عمر بن الخطاب قد حجز على أعلام قريش من المهاجرين الخروج في البلدان إلا بإذن وأجل، فشكوه

فبلغه، فقال: « ألا إني قد سَنَنْتُ الإسلام سنَّ البعير يبدأ فيكون جَذَعاً ثم ثنيًّا ثم رُباعِيًّا ثم سدِيساً ثم بازِلاً، ألا فهل يُنْتَظَر بالبازل إلا النقصان. ألا وإن الإسلام قد بَزَلَ. ألا وإن قريشاً يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده، ألا فأما وابن الخطاب حي فلا، إني قائم دون شعب الحرة آخذ بحلاقيم قريش وحجزها أن يتهافتوا الى النار »، فلما ولي عثمان لم يأخذهم بالذي كان يأخذهم به عمر، فانساحوا في البلاد، فلما رأوها ورأوا الدنيا، انقطع من لم يكن له طول ولا مزية في الإسلام فكان مغموماً في الناس وصاروا أوزاعاً إليهم وأمَّلوهم وتقدموا في ذلك، فقالوا يملكون فنكون قد عرفناهم، وتقدمنا في التقرب والانقطاع إليهم، فكان ذلك أول وهن دخل على الإسلام وأول فتنة كانت في العامة.

وقال الشعبي لم يمت عمر حتى ملته قريش وقد كان حصرهم في المدينة فامتنع عليهم وقال: إن أخوف ما أخافه على هذه الأمة انتشاركم في البلاد، فإن الرجل ليستأذنه في الغزو - وهو ممن حبس من المهاجرين ولم يكن فعل ذلك بغيرهم من أهل مكة - فيقول قد كان لك في غزوك مع رسول الله ﷺ ما يبلغك، وخير لك من الغزو اليوم ألا ترى الدنيا ولا تراك. فلما كان عثمان خلى عنهم فاضطربوا في البلاد وانقطع إليهم الناس فكان أحب إليهم من عمر - وروى الطبري بسنده قال: لم تمض سنة من إمارة عثمان حتى اتخذ رجال من قريش أموالاً في الأمصار وانقطع إليهم الناس.

والمطلع على ما تقدم يرى أن رأي عمر في الحجر على قريش أوثق من رأي عثمان في إرخاء الحبل لهم، ذلك أن قريشاً (كما قال الأستاذ الخضري) كانت بحسب القاعدة التي كانت متبعة كأعضاء الأسرة التي لها الأمر، كبارها مرشحون لأن يلوا الخلافة يوماً ما وليس هناك نظام يعين سابقهم ولاحقهم وهم مع ذلك متباعدو العشائر، ومحيط المدينة ضيق عن تدبير ما يمكن أن يختلج في النفوس من الشغب على الخليفة، أو ما يمكن أن يأتيه آت لإفساد ذات البين.

وقال صاحب أشهر مشاهير الإسلام: أجمع الرواة وأهل الإخبار على أن عثمان قضى الشهر الأكبر من خلافته وهو أحب إلى الناس من عمر لشدته ورأفة عثمان ولينه، وإقبال الدنيا على الناس على عهده وتبسطهم في المعيشة وامتلاء أيديهم من المغانم، لكن غلب عليه بنو أمية في أواخر مدته، فآثرهم على غيرهم من قريش ووصلهم بالأموال الكثيرة فانحرفت عنه من أجل ذلك القلوب ونظرت إليه قريش بغير عين الرضا ونهض لمناقشته الحساب أهل الأمصار وتخلل ذلك أمور خفية وجلية أدخلت الناس في غمار فتنة عمياء كانت نتيجتها ضعف السلطة الشرعية وغلبة القوة والأثرة على الملك الى اليوم.

أخرج ابن عساكر عن الحسن أنه قال: أدركت عثمان ـ على ما نقموا عليه ـ قل ما يأتي على الناس يوم إلا ويقسمون فيه خيراً، فيقال لهم: يا معشر المسلمين اغدوا على أعطياتكم، فيأخذونها وافرة، ثم يقال: أغدوا على أرزاقكم فيأخذوها وافرة، ثم يقال على السمن والعسل، الأعطيات جارية والأرزاق داره والعدو منفي وذات البين حسن والخير كثير: وما مؤمن يخاف مؤمناً من لقيه فهو أخوه من كان: ألفته ونصيحته ومودته، قد عهد إليهم أنها ستكون أثرة فإذا كانت أن تصبروا، قال رسول اللّه لأسيد بن حضير «ستلقون بعدي أثره، قال فما تأمرنا؟ قال تصبروا حتى تلقوا اللّه ورسوله» قال الحسن: لو أنهم صبروا حين رأوها وأخذوا بأمر اللّه ورسوله لو سعهم ما كانوا فيه من العطاء والرزق والخير الكثير، قالوا لا واللّه ما نصابرها فواللّه ماردوا ولا سلموا. والأخرى كان السيف مغمداً عن أهل الاسلام، ما على الأرض مؤمن يخاف أن يسل عليه سيفاً حتى سلوه على أنفسهم، فواللّه ما زال مسلولاً الى يوم القيامة أ هـ

لم يكن عثمان بالذي ينتهي عند حد الإذن لقريش بالانسياح في البلاد بعد الحجر الذي ضربه عليهم عمر، بل ساعدهم على ذلك حاسباً أنه يقمع بهم الفتنة ويخمد بهم نار الفرقة إذا شبت ويثبت بهم أركان الدولة فكانوا أول جان عليه اجتهاده، ذلك أنه في سنة ثلاثين أنبأه سعيد بن العاص بأحوال

الكوفة وما يشيمه في أهلها من بوارق الفتن واستعدادهم للشر، فكان فيما قاله عثمان لأهل المدينة أن الناس يتمخضون بالفتنة وإني والله لأتخلصن لكم الذي لكم حتى أنقله إليكم إن رأيتم ذلك. فهل ترونه؟ حتى يأتي من شهد مع أهل العراق الفتوح فيقيم معه في قلادة: فقام أولئك وقالوا: كيف تنقل لنا ما أفاء الله علينا من الأرضين يا أمير المؤمنين؟ فقال: نبيعها ممن شاء بما كان له بالحجاز. ففرحوا وفتح الله عليهم به أمراً لم يكن في حسابهم. فاغتنم بعض قريش ذلك وتأثلوا العقار والمزدرعات وبادلوا منْ لم يهاجر على سهمانهم بالعراق بما لهم بالحجاز.

ومن ذلك أن طلحة بن عبيد الله جمع ماله من سهمان خيبر وغير ذلك مما له بالحجاز واشترى به من نصيب من شهد القادسية والمدائن ولم يهاجر الى العراق التشاسنج، واشترى مروان بما كان أعطاه عثمان نهر مروان وهو يومئذ أجمة، واشترى رجال من القبائل بالعراق بأموالهم التي لهم بجزيرة العرب من أهل المدينة ومكة والطائف، فهذا سبب أيضاً من الأسباب التي وجد بها رجال قريش سبيلاً للوجود في الأمصار، روي الطبري بسنده قال: اشترى هذا الضرب رجال من كل قبيلة ممن كان له هناك شيء فأراد أن يستبدل به فيما يليه، فأخذوا وجاز لهم عن تراض منهم ومن الناس وإقرار بالحقوق.

إلا أن الذين لا سابقة لهم ولا قُدمة لا يبلغون مبلغ أهل السابقة والقُدْمة في المجالس والرياسة والحظوة ثم كانوا يعيبون التفضيل ويجعلونه جفوة وهم في ذلك يختفون به ولا يكادون يظهرونه لأنه لا حجة لهم والناس عليهم فإذا لحق بهم لاحق من ناشيء أو أعرابي أو محرر استحلى كلامهم، فكانوا في زيادة وكان الناس في نقصان حتى بلغ الشر.

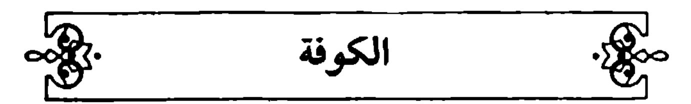
كان المسلمون في أيام عمر لا يعرفون للشقاق معنى، ولا يختلفون فيما بينهم على شيء لفقدان الدواعي الى ذلك، وأكبر دواعي نزوع العرب الى الشر اختلاف رؤسائهم وتنازع كبرائهم، ثم لا توجد يد قوية شديدة البطش تقف

بالمتنازعين عند الحد الذي لا ينبغي أن يتجاوزوه، وقد كان عمر ذلك الخليفة الحازم، لا تفزعه الأهوال، ولا تتكاءده الكوارث ولا يهاب عظيماً لعظمته، ولا يحجم عن اجتثاث الفتنة من أصولها ويضرب على يد النازع إليها ولو كان آثر الناس لديه وأكرمهم عليه، فكانت روحه تخيف الرؤساء وذوي المطامع، فلا يجد أحد منهم سبيلاً الى نزاع أو شر ـ هذا إلى ما وقر في أنفس القوم من الألفة التي عقدها الإسلام بينهم وانشغال أكثر الناس بالجهاد والفتح الذي تتوالى أخباره، ومعلوم أن مسائل الحرب تصرف أفكار الناس إلى التحدث بها والنظر في نتائجها وعواقبها ـ إلى ما يتبع ذلك من بسالة الجند وبراعة القواد، وبخاصة إذا كان الجيش منتصراً ظافراً، فإن تلك الأحوال تميت الشقاق ولا تحييه، ولو كان عثمان من ذوي السياسة العالية لرمي بالجنود وكثيري الكلام في حرب ضروس يوجه بهم إليها، ويشغلهم بأنفسهم عنه.

وقد قال العلامة ابن خلدون: لما استكمل الفتح واستكمل للملة الملك ونزل العرب بالأمصار في حدود ما بينهم وبين الأمم من البصرة والكوفة والشام ومصر، وكان المختصون بصحابة الرسول ﷺ والإقتداء بهدية وآدابه المهاجرين والأنصار من قريش وأهل الحجاز ومن ظفر بمثل ذلك من غيرهم، وأما سائر العرب من بني بكر بن وائل وعبد القيس وسائر ربيعة والأزد وكندة وتميم وقضاعة وغيرهم فلم يكونوا من تلك الصحبة بمكان إلاّ قليلاً منهم، وكانت لهم في الفتوحات قدم فكانوا يرون ذلك لأنفسهم مع ما يدين به فضلاؤهم من تفضيل أهل السابقة ومعرفة حقهم وما كانوا فيه من الذهول والدهش لأمر النبوة وتردد الوحي وتنزل الملائكة فلما انحصر ذلك العباب وتنوسي الحال بعض الشيء وذل العدو واستفحل الملك كانت عروق الجاهلية تنبض ووجدوا الرياسة عليهم للمهاجرين والأنصار وقريش وسواهم فأنفت نفوسهم منه، ووافق ذلك أيام عثمان، فكانوا يظهرون الطعن في ولاته بالأمصار والمؤاخذة لهم باللحظات والخطوات والاستبطاء عليهم في الطاعات والتجني بسؤال الاستبدال منهم والعزل ويفيضون في النكير على عثمان وفشت المقالة في ذلك في أتباعهم وتنادوا

بالظلم من الأمراء في جهاتهم وانتهت الأخبار بذلك الى الصحابة بالمدينة فارتابوا وأفاضوا في عزل عثمان وحمله على عزل أمرائه وبعث الى الأمصار من يأتيه بالخبر فلم يجدوا أثراً لظلم ولا ظلا لعسف أو جور.

قد آن لنا أن نلم بأحوال المسلمين في الأمصار وما كان يعمل فيهم من العوامل التي أدت الى إشعال نار الفتنة وتأريث جماحها حتى تأججت وأكلت كل أخضر ويابس وأعيا إطفاؤها ونتج عنها أشأم ثورة ثارت في الإسلام والمسلمون يجنون منها اليوم شر ما يجني ويقاسون أشد ألم من جرائها.



الكوفة

إن الكوفة أول مصر نزغ الشيطان بين أهله في الإسلام، وكان بدء ذلك أن سعد بن أبي وقاص كان أمير الكوفة في خلافة عثمان بوصية من عمر وكان عبد اللّه بن مسعود أمين بيت المال فاستقرض سعد من عبد اللّه بن مسعود من بيت المال مالاً، فلما جاء الأجل أتى ابن مسعود الى سعد وقال له: أد المال الذي قبلك، فقال له سعد: ما أراك الا ستلقى شرًّا هل أنت إلا ابن مسعود عبد من هذيل؟ فقال: أجل، واللّه إني لابن مسعود وإنك لابن حمينة فقال هاشم بن عتبة بن أبي وقاص: أجل، واللّه إنكما لصاحبا رسول اللّه ﷺ يُنْظَرُ إليكما، فطرح سعد عوداً كان في يده ـ وكان رجلاً فيه حدة ـ ورفع يده وقال: اللهم رب السموات والأرض. فقال عبد اللّه ويلك قل خيراً ولا تلعن، فقال سعد: أما واللّه لولا اتقاء اللّه لدعوت عليك دعوة لا تخطئك، فولى عبد اللّه سريعاً حتى خرج، ولم يتيسر لسعد الإسراع بأداء المال فاستعان عبد اللّه بأناس على استخراج المال من سعد واستعان سعد بأناس على استنظاره، وافترقوا وبعضهم يلوم سعداً وبعضهم يلوم عبد اللّه ووصل الخبر بذلك إلى عثمان فغضب عليهما وهم بهما ثم ترك ذلك، وعزل سعداً وأخذ ما عليه وأقر عبد اللّه بن مسعود وتقدم إليه في ذلك.

ولما عزل عثمان سعداً ولى الوليد بن عقبة الكوفة ـ وكان قبل ذلك عاملاً على الجزيرة من عهد عمر ـ فلما قدم الوليد كان أحب الناس في الناس وأرفقهم بهم، فكان كذلك خمس سنين وليس على داره باب.

حدث في أثناء ولاية الوليد أن شباباً من شباب الكوفة نقبوا على ابن الحيسمان الخزاعي داره وكاثروه ونذر بهم فخرج إليهم بسيفه فلما رأى كثرتهم استصرخ وكان أبو شريح الخزاعي جاراً له وهو من أصحاب رسول الله ﷺ نقل أهله من المدينة الى الكوفة ليكون قريباً من الغزو. فلما سمع استصراخ ابن الحيسمان أطل هو وابنه فإذا هو بأولئك الشباب يقولون لجاره لا تصح فإنما هي ضربة حتى نريحك وضربوه فقتلوه وأبو شريح يصيح بهم وأحاط الناس بهم فأخذوهم وفيهم زهير بن جندب الأزدي ومورع بن أبي مورع الأسدي وشبيل ابن أبي الأزدي في عدة فشهد عليهم أبو شريح وابنه أنهم دخلوا عليه فقتله بعضهم. فكتب الوليد الى عثمان فيهم وارتحل إليه أبو شريح ونقل أهله الى المدينة ولهذا الحديث لما كثر أحدثت القسامة وأخذ يقول ولى المقتول ليفطم الناس عن القتل عن ملأ من الناس يومئذ وقال عثمان القسامة على المدعى عليه وعلى أوليائه يقسم منهم خمسون رجلاً إذا لم تكن بينة فإن نقصت قسامتهم أو إن نكل منهم رجل واحد ردت قسامتهم ووليها المدعون فإن حلف منهم خمسون استحقوا وقد ثبت القتل على هؤلاء النفر. فكتب فيهم الوليد إلى عثمان فكتب إليه في قتلهم فقتلوا على باب القصر في الرحبة ـ وقد قال في ذلك عمرو بن عاصم التميمي:

لا تأكلوا أبداً جيرانكم سرفاً ... أهل الدعارة في ملك ابن عفان

وقال:

إن ابن عفان الذي جربتموا ... فطم اللصوص بمحكم الفرقان
ما زال يعمل بالكتاب مهيمناً ... في كل عنق منهم وبنان

ولما قتل هؤلاء الرهط قصاصاً بمن قتلوا اضطغن آباؤهم على الوليد لـذلك وصاروا يتحينون الفرص للإيقاع به ـ وكـان للوليد سمـار يسمرون عنـده ومنهم أبو زبيد الطائي كان رجلاً نصـرانيًا معروفاً بشرب الخمر، وقد عرفه الـوليد أيـام نصرانيته وكان مقامه في تغلب أخواله أيام كان الوليد أميراً عليهم بالجزيـرة وكان يغشي الوليد بالجزيرة أيام كان فيها وبالمدينة إذ كان بها. فلما جاء الـوليد الكـوفة قدم عليـه أبو زبيد وكان للوليد عنده يد حين أسلم إذ اضـطهده أخـواله كـراهة لدخوله في الإسلام فأخذ له الوليد بحقه فشكرها لـه أبو زبيد وانقطع إليـه وجاء إليه الكوفة مسلماً معظماً على مثل ما كان يأتيه بالجزيرة والمدينة وقد حسن إسلامه فاستدخله الوليد وكان عربيًا شاعراً، فأتى آت أبا زينب وأبا مـورع وجندبـاً وهم يحقـدون عليه مـذ قتل أبنـاءهم ويضعون لـه العيون، فقـال هل لكم في الـوليد يشارب أبا زبيد؟ فثاروا في ذلك وقالوا لأناس من أهل الكوفة هذا أميـركم وأبـو بكر زبيد خيرته وهما عاكفان على الخمر فقاموا معهم الى منزل الوليد وليس عليه باب واقتحموا عليـه فلم يفجأ إلا بهم فنحى شيئـاً فأدخله تحت السـرير فـأدخل بعضهم يده فأخرجه لا يؤامره فإذا طبق عليـه تفاريق عنب وإنمـا نحاه استحيـاء من أن يـرى طبقه وليس عليـه إلا تفـاريق عنب فـأقبـل النـاس عـلى المـرجفين بسيـوفهم ويلعنونهم: وأقبـل آخرون يقـولون فيـه. فدعـاهم ذلك الى التجسس والبحث.

ستر عليهم الوليد وطوى ذلك عن عثمان ولم يشأ أن يدخـل بين الناس في ذلـك بشيء فسكت وصبر. وجـاء جندب ورهط معـه الى ابن مسعـود فقـالـوا: الوليد يعتكف على شرب الخمر، فقال ابن مسعـود: من استتر عنا بشيء لم نتتبع عورته ولم نهتك ستره ونمى كلامه الى الوليد فعاتبه: وقال: أيرضى من مثلك بأن يجيب قوماً موتورين بما أجبت علي؟ أي شيء أستتر به؟ إنما يقال هـذا للمريب، فتلاحيا وافترقا على تغاضب، وأذاع المرجفون بعكوفه عـلى الخمر وطـرحوه عـلى ألسنة الناس.

وقد أتى الوليد بساحر وهو على الكوفة، فأرسل الى ابن مسعود يسـأله عن حده فقال: وما يدريكم أنه ساحر؟ قالوا يزعم ذلـك، قال أسـاحر أنت؟ قـال: نعم قال وتدري مـا السحر؟ قـال نعم وثار الى حمـار فجعل يـركبه من قبـل ذنبه ويريهم أنه يدخل من فمـه ويخرج من أستـه ويدخـل من أسته ويخـرج من فمه، فقـال ابن مسعود فـاقتله، فانـطلق الوليـد، فنـادوا في المسجـد أن رجـلاً يلعب السحر عند الوليد.

جاء جندب ـ واغتنمها ـ يقول أين هو حتى أريه فضـربه فقتله، فـاجتمع عبـد اللّٰه والوليـد على حبسـه وكان جنـدب يعتذر بـأنه مـا كان يعلم أن الـوليد سيقيم الحد على ذلك الساحر وأنه ظن أنه عطل حـده فأراد أن يستـوفيه. وكتب الوليد الى عثمان فأجاب: أن استحلفوه باللّٰه ما علم برأيكم فيه وأنه لصادق فيما ظن من تعـطيل حـده وعزروه وخلوا سبيله. وتقـدم الى الناس في أن لا يعملـوا بالظنون وأن لا يقيموا الحدود دون السلطان فإنا نقيد المخطي، ونؤدب المصيب.

فعل به الوليد ما أمر بـه عثمان، وغضب لجنـدب أصحابـه، واتفقوا فيـما بينهم على الكيد للوليد بالذهاب إلى المدينة وشكوى الوليد الى الخليفة واستعفـائه منه، فجاءوا عثمان فقال لهم تعملون بـالظنـون وتخطئـون في الإسلام وتخـرجون بغـير إذن، ارجعوا. فلما رجعـوا الى الكوفـة لم يبق موتـور في نفسـه إلا أتـاهم، فاجتمعوا على رأي فأصـدروه ثم تغفلوا الوليـد وكان ليس عليـه حجاب فـدخل عليه أبو زينب الأزدي وأبو مورع الأسدي وبقيا معه الى أن نام فسـلا خاتمـه من أصبعه وهو نـائم، فلما لم يجد خـاتمه بعـد أن استيقظ، سأل جـاريتين لـه فقالتـا جاءك رجلان وأحدهما كانت يده على يدك ثم حلتـاهما لـه فعرف أنهما أبـو زينب وأبو مورع وقال: قد أرادا داهية فليت شعري ماذا يريدان وطلبهما فلم يجـدهما، وكان وجههما المدينة فقدما عـلى عثمان ومعهـما نفر يعـرفهم عثمان ممن قـد عزل الوليد عن الأعمال فقال من يشهـد قالـوا أبو زينب وأبـو مورع. وكـاع الآخران فقـال كيف رأيتماه؟ قـالا كنا من غـاشيته فـدخلنا عليـه وهو يقيء الخمـر، وفي

رواية اعتصرناها من لحيته وهو يقيئها، فقال: ما يقيء الخمر إلاّ شاربها، فبعث إليه فلما قدم الوليد رآهما عند عثمان فقال:

ما إن خشيت على أمر خلوت به ... فَلَمْ أخفك على أمثالها حارِ

وحلف الوليد وأخبره خبرهم فقال عثمان نقيم الحدود ويبوء شاهد الزور بالنار فاصبر يا أخي، وأمر سعيد بن العاص فجلده أربعين فأورث ذلك عداوة بين ولديهما والصحيح أن الذي جلده عبد الله بن جعفر إذ أبي الحسن أن يتولى ذلك. وعزله عثمان عن الكوفة ـ وقد كان الوليد مظفراً في الغزو ما قصر فيه ولا انتقض عليه أحد حتى عزل. وكان مما زاده عثمان بن عفان على يده أيام ولايته على الكوفة أن رد على كل مملوك بها مبلغاً يستعينون به من غير أن ينقص مواليهم من أرزاقهم، وأورد الطبري أن الوليد أدخل على الناس خيراً حتى جعل يقسم للولائد والعبيد ولقد تفجع عليه الأحرار والمماليك كانت تسمع الولائد وعليهن الحداد يقلن:

يا ويلنا قد عزل الوليد ... وجاءنا مجوعاً سعيد
ينقص في الصاع ولا يزيد ... فجوع الإماء والعبيد

وقال بعض شعراء الكوفة:

فررت من الوليد الى سعيد ... كأهل الحجر إذ جزعوا فباروا
بلينا من قريش كل يوم ... أمير محدث أو مستشار
لنا نار نخوفها فنخشى ... وليس لهم فلا يخشون نار

ولي عثمان بعد الوليد سعيد بن العاص وكان بقية العاص بن أمية وكان أهله كثيراً تتابعوا وكان يتيماً نشأ في حجر عثمان فلما فتحت الشام قدمها على معاوية فسأل عنه عمر فيما يتفقد من أمور الناس، فقالوا: يا أمير المؤمنين هو بدمشق عهد العاهد به وهو مأموم بالموت، فأرسل الى معاوية: أن ابعث الى سعيد بن العاص في منقل فبعث به إليه وهو دنف فما بلغ المدينة حتى عوفي من

مرضه، فقال له عمر: يا ابن أخي قد بلغني عنك بلاء وصلاح فازدد يزدك اللّه خيراً، ثم قال له: هل لك زوجة؟ قال لا فقال لعثمان: يا أبا عمرو ما منعك من هذا الغلام أن تزوجه؟ قال: قد عرضت عليه فأبى. وبعد ذلك خرج عمر يسير في البر فانتهى إلى ماء فلقي عليه أربع نسوة. فقمن له فقال: ما لكن وما أنتن؟ فقلن بنات سفيان بن عويف، وقالت أمهن: هلك رجالنا وإذا هلك الرجال ضاع النساء فضعهن في أكفائهن. فزوج سعيد بن العاص إحداهن وعبد الرحمن بن عوف الأخرى والوليد بن عقبة الثالثة، ثم أتاه بنات مسعود بن نعيم النهشلي فقلن هلك رجالنا وبقي الصبيان فضعنا في أكفائنا فزوج سعيد بن العاص إحداهن وجبير بن مطعم الأخرى وقد كان عمومته ذوي بلاء في الإسلام وسابقة حسنة وقُدْمَةٍ مع رسول اللّه ﷺ فلم يمت عمر حتى كان سعيد من رجال الناس.

قدم سعيد أميراً على الكوفة، ومعه أولئك النفر الذين كادوا للوليد، ومنهم مالك المعروف بالأشتر النخعي. وأبو خُشّة الغفاري وجُنْدب بن عبد اللّه وأبو مصعب بن جثامة، فصعد سعيد المنبر فحمد اللّه وأثنى عليه وقال: واللّه لقد بعثت إليكم وإني لكاره ولكني لم أجد بدًّا إذا أُمِرْتُ أن آتمر، ألا إن الفتنة قد اطّلَعَتْ خطمها وعينيها واللّه لأضربن وجهها أو تعيني، وإني لرائد لنفسي اليوم - ونزل، وسأل عن أهل الكوفة، فأقيم على حالها وما عليه أهلها، فكتب الى عثمان بالذي انتهى إليه: إن أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم وغلب أهل الشرف منهم والبيوتات والسابقة والقُدْمَةِ والغالب على البلاد روادف ردفت وأعراب لحقت حتى ما ينظر الى ذي شرف وبلاء من نازلتها ولا نابتتها. فكتب إليه عثمان: أما بعد ففضل أهل السابقة والقدمة ممن فتح اللّه عليه تلك البلاد وليكن من نزلها بسببهم تبعاً لهم إلا أن يكونوا تثاقلوا عن الحق وتركوا القيام به وقام به هؤلاء، واحفظ لكل منزلته وأعطهم جميعاً بقسطهم من الحق فإن المعرفة بالناس بها يصاب العدل، فأرسل سعيد الى وجوه الناس من أهل أيام القادسية

فقال: أنتم وجوه من وراءكم والـوجه ينبيء عن الجسـد، فأبلغـونـا حاجـة ذي الحـاجـة وخلة ذي الخلة، وأدخـل معهم من يحتمـل من اللواحق والـروادف وخلص بـالقراء والمتسمتـين في سمره، فكـأنما كـانت الكوفـة يبسـاً شملتـه نـار، فانقطع الى ذلك الضرب حزبهم وفشت القالة والإذاعة، وذلـك أمر طبعي. لأن أولئك الشاغبين الذين أزالوا سلطان الوليد كانوا يرون أقل جزاء لهم من سعيـد أن يشركهم في سلطانه ولا يصـدر الا بإذنهم ولا يـورد إلا عن رأيهم، فلما فاتهم ما أملوا في سلطانه عادوا سيرتهم الأولى.

كتب سعيد الى عثمان بأمرهم، فلما وصل إليه كتابه نادى مناديه: الصلاة جامعة، فاجتمعوا فأخبرهم بالذي بلغـه سعيد من أول ولايتـه وبما كتب بـه إليه وبما جاءه من القالة والإذاعـة، فقالـوا أصبت فلا تسعفهم في ذلـك ولا تطمعهم فيـما ليسوا لـه بأهـل، فإنـه إذا نهض في الأمـور من ليس لهـا بـأهـل لم يحتملهـا وأفسدها، وقـد أشار عثمـان على من بـالمدينـة أن يستبدلـوا بأمـوالهم في الحجاز وجزيرة العرب أموالاً بنواحي الكوفة وفارس عـلى النحو الـذي أوردنا. وقصـده من ذلـك أن يوجـد في هذه الأمصـار قومـاً من أهل السـابقة والفضـل ليكـونـوا سـادتهم وقادتهم وتنقـطع أطماع غيـرهـم في السياسـة والريـاسة، فلم يجـد ذلك نفعاً، بل زاد الأمر ونما غرس الفساد.

كان سعيد بن العاص لا يغشاه إلا نازلة أهـل الكوفـة ووجوه أهـل الأيام وأهل القادسية والقراء والمتسمتون، وكان هؤلاء دخلته إذا خلا فإذا جلس مجلساً عاماً دخل عليه كل أحد، فجلس للناس يوماً، فبينما هم جلوس يتحـدثون قـال حبيش الأسـدي: ما أجـود طلحة بن عبيـد اللّه، فقال سعيـد: إن من له مثـل النشـاسنج لحقيق أن يكـون جـواداً، واللّه لـو أن لي مثله لأعـاشكم اللّه عيشـاً رغداً، فقال عبد الرحمن بن حبيش وهـو حدث: واللّه لـوددت أن هذا المطـاط لك يعني ما كان لآل كسرى عـلى الفرات الـذي يلي الكـوفة ـ قـالوا: فض اللّه فاك واللّه لقد هممنا بك، فقال: أبوه حبيش: غلام فلا تجاوزه، فقالـوا يتمنى له

من سوادنا؟ فقال، ويتمنى لكم أضعافه، فقالوا: لا يتمنى لنا ولا له فقال ما هذا بكم! فقالوا أنت والله أمرته بها وثار إليه الأشتر وابن ذي الحنكة وجندب وصعصعة وابن الكواء وكميل وعمير بن ضابىء فأخذوه وهب أبوه ليمنعه منهم فضربوهما حتى غشي عليهما وجعل سعيد يناشدهم وهم لا يلتفتون إليه حتى اشتفوا منهما. وسمعت بذلك بنو أسد فجاءوا وفيهم طلحة فأحاطوا بالقصر وكثرت القبائل، ففزع الضاربون إلى سعيد وقالوا أفلتنا وتخلصنا، فخرج سعيد إلى الناس، فقال: أيها الناس قوم تنازعوا وتهاووا وقد رزق الله العافية ثم قعدوا وعادوا في حديثهم وتراجعوا وسألهم وردهم ولما أفاق الرجلان قال لهما: أبكما حياة؟ قالا: قتلتنا غاشيتك، وقال: لا يغشوني والله أبداً فاحفظا على ألسنتكما ولا تجرئا على الناس، ففعلا. وحفظ عن سعيد أنه قال: إنما هذا السواد بستان قريش، وكان حاضراً مالك بن كعب الأرحبي والأسود بن يزيد وعلقمة بن قيس النخعيان ومالك الأشتر وغيرهم فزادوا عليه وأساءوا الى صاحب شرطته فمنعهم سعيد أن يسمروا عنده.

ولما انقطع رجاء أولئك النفر من غشيان مجلسه وقعدوا في بيوتهم أقبلوا على الإذاعة وشتم عثمان وسعيد حتى لامه أهل الكوفة في إرخاء الحبل لهم والسكوت عنهم على ما بهم من شر وكتب سعيد وأشرافهم الى عثمان في إخراجهم من الكوفة فكتب اليهم: إذا اجتمع ملأكم على ذلك فألحقوهم بمعاوية، فأخرجوهم إليه فذلوا وانقادوا وخرجوا حتى أتوه. وقد كتب عثمان الى معاوية. أن أهل الكوفة قد أخرجوا إليك نفراً خلقوا للفتنة فرعهم وقم عليهم فإن آنست منهم رشداً فأقبل منهم وإن أعيوك فارددهم عليهم، فلما قدموا على معاوية رحب بهم وأنزلهم كنيسة تسمى مريم وأجرى عليهم بأمر عثمان ما كان يجري عليهم بالعراق وجعل يتغذى معهم ويتعشى كذلك وطمع في أن يكون إكرامه لهم قد أصلح من شأنهم، فقال لهم يوماً. إنكم قوم من العرب لكم أسنان وألسنة وقد أدركتم بالإسلام شرفاً وغلبتم الأمم وحويتم مراتبهم

ومواريثهم، وقد بلغني أنكم نقمتم قريشاً. وإن قريشاً لو لم تكن عدتم أذلـة كما كنتم، إن أئمتكم لكم اليـوم جنة فـلا تفترقـوا عن جنتكم. وإن أئمتكم اليـوم يصبرون لكم على الجور ويحتملون منكم المؤنة، واللّه لتنتهن أو ليبتلينكم اللّه بمن يسومكم ثم لا يحمدكم على الصبر ثم تكونون شركاءهم فيما جررتم على الرعيـة في حياتكم وبعد موتكم، فقال رجل من القوم وهو صعصعة: أما ما ذكـرت من قريش فإنها لم تكن أكثر العرب ولا أمنعها في الجاهلية فتخوفنـا أما مـا ذكرت من الجنة فإن الجنة إذا اخترقت خلص إلينا، فقال معاوية عـرفتكم. الآن علمت أن الـذي أغراكم عـلى هذا قلة العقـول وأنت خطيب القـوم ولا أرى لـك عقـلاً. أعظم عليك أمر الإسلام وأذكرك به وتذكرني الجـاهلية وقـد وعظتـك وتزعم لمـا يجنيك أنه يخترق ولا ينسب ما يخترق إلى الجنة أخزى اللّه أقواماً أعظمـوا أمركم ورفعوا الى خليفكم. افقهوا ولا أظنكم تفقهون أن قريشـاً لم تعز في جـاهلية ولا إسلام إلا باللّه عز وجل ولم تكن بأكثر العرب ولا أشدهم ولكنهم كانوا أكـرمهم أحساباً وأمحضهم أنساباً وأعظمهم أخطاراً وأكملهم مروءة ولم يمتنعوا في الجاهلية والناس يأكل بعضهم بعضاً إلا باللّه الذي لا يستذل من أعز ولا يوضع من رفع فبوأهم حرماً آمنـاً يتخطف الناس من حولهم. هل تعرفون عـرباً أو عجـماً سوداً أو حمراً إلا قد أصابه الدهر في بلده وحرمته بدولة إلا مـا كان من قـريش فإنـه لم يردهم أحد من الناس بكيد إلاّ جعـل اللّه خده الأسفـل حتى أراد اللّه أن يتنقذ من أكرم وتبع دينه من هوان الـدنيا وسـوء مرد الآخـرة فارتضى لـذلك خـير من خلقه ثم ارتضى له أصحاباً فكان خيارهم قريشاً ثم بنى هذا الملك عليهم وجعل هذه الخلافة فيهم فلا يصلح ذلك إلاّ عليهم فكان اللّه يحوطهم في الجاهلية وهم على كفرهم بـاللّه فتراه لا يحـوطهم وهم على دينـه وقد حـاطهم في الجاهليـة من الملوك الـذين كانـوا يدينـونكم؟ أف لـك ولأصحـابـك، ولـو أن متكلمـاً غيـرك تكلم، ولكنك ابتدأت.

وأما أنت يا صعصعة فإن قريتك شر قرى عربية أنتنها نبتـاً وأعمقها واديـاً

وأعـرفها بـالشر وألأمها جيـراناً. لم يسكنها شريف قط ولا وضيـع إلاّ سب بهـا وكانت عليه هجنة ثم كانوا أقبح العـرب ألقابـاً وألأمه أصهـاراً نزاع الأمم وأنتم جيران الخط وفَعَلة فارس، حتى أصابتكم دعوة النبي ﷺ ونَكبتـك دعوتـه وأنت نَزيع شـطير في عمان لم تسكن البحـرين فتشركهم في دعـوة النبي ﷺ فأنت شر قـومك حتى إذا أبـرزك الإسلام وخلطك بـالناس وحملك عـلى الأمم التي كـانت عليك أقبلت تبغي دين اللّه عوجاً وتنزع إلى اللآمة والذلة ولا يضع ذلك قريشاً ولن يضرهم ولا يمنعهم من تأدية ما عليهم إن الشيطان عنكم غير غـافل قـد عرفكم بالشر من بين أمتكم فأغرى بكم الناس وهو صارعكم، لقد علم أنه لا يستطيع أن يرد بكم قضاء قضاه اللّه ولا أمراً أراده اللّه ولا تدركون بـالشر أمراً أبـداً إلاّ فتح اللّه عليكم شرًا منه وأخزى، ثم قام وتركهم.

سمع القوم قوله فتـذمروا وتقـاصرت إليهم نفـوسهم، ثم جاءهم معـاوية فقال: لا واللّه لا ينفع اللّه بكم أحداً ولا يضره ولا أنتم برجال منفعة ولا مضرة ولكنكم رجال نكير، وبعد فإن أردتم النجاة فالزموا جماعتكم وليسعكم ما وسـع الدهماء ولا يبطرنكم الأنعام فـإن البطر لا يعتـرى الخيار اذهبـوا حيث شئتم فإني كاتب الى أمير المؤمنين فيكم.

ولما أرادوا الخروج دعاهم وقال لهم: إني معيـد عليكم أن رسول اللّه ﷺ كان معصوماً فولاني وأدخلني في أمـره ثم استخلف أبو بكـر فولاني ثم استخـلف عمـر فولاني ثم استخلف عثمـان فـولاني فلم آل لأحـد منهم ولم يـولني إلاّ وهـو راض عني وإنما طلب رسول اللّه ﷺ للأعمال أهل الجزاء عن المسلمـين والغناء ولم يـطلب لها أهـل الإجتهاد والجهـل بها والضعف عنهـا، وإن اللّه ذو سطوات ونقمات يمكر بمن مكر به فلا تعرضـوا لأمور وأنتم تعلمـون من أنفسكم غير مـا تظهرون فإن اللّه غير تارككم حتى يختبركم ويبدي للناس سرائركم وقد قال عـز وجل ﴿ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنـوا وهم لا يفتنون﴾[1]

---

(١) سورة العنكبوت: الآية ٢

ثم كتب معاوية الى عثمان يقول: إنه قدم على قوم ليست لهم عقـول ولا أديـان أثقلهم الإسلام وأضجـرهم العدل، لا يـريدون اللّه بشيء ولا يتكلمـون بحجة إنما همهم الفتنة وأموال أهـل الذمـة واللّه مبتليهم ومختبرهم ثم فـاضحهم ومخزيهم وليسوا بالذين ينكـون أحداً إلا مـع غيرهم فـانه سعيـداً ومن قِبَله عنهم فإنهم ليسـوا لأكثر من شغب أو نكير.

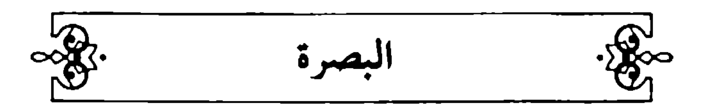
خـرج بعد ذلـك القوم من دمشق فقـالوا: لا تـرجعوا إلى الكـوفـة فـإنهم يشمتون بكم وميلوا بنا إلى الجزيرة ودعوا العراق والشام فأووا إلى الجزيرة وسمع بهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد وكان على حمص فدعا بهم وقال يا ألة الشيطان لا مرحباً بكم ولا أهلاً، قـد رجع الشيـطان محسوراً وأنتم بعـد نشاط. خسَّر اللّه عبد الرحمن إن لم يؤدبكم حتى يحسركم، يا معشر من لا أدري أعـرب أم عجم لا تقولوا لي ما يبلغني أنكم تقولون لمعاوية أنا ابن خـالد بن الـوليد أنـا ابن من عجمته العاجمات، أنا ابن فاقيء الردة. واللّه لئن بلغني يـا صعصعة بن ذل أن أحـداً ممن معي دق أنفك ثم أمصـك لأطيرن بـك طيرة بعيـدة المهـوى، فأقامهم شهراً كلما ركب أمشاهم. فإذا مر به قال يا ابن الحطيئـة أعلمت أن من لم يصلحه الخير أصلحه الشر؟ مالك لا تقول مـا كان يبلغني أنـك تقول لسعيـد ومعاوية؟ فيقـول ويقولن، نتـوب الى اللّه، أقلنا أقـالك اللّه، فـما زالوا بـه حتى قال: تاب اللّه عليكم، وسـرح الأشتر الى عثمـان بالتـوبة والنـدم والنزوع عنـه وعن أصحابه وقال لهم: ما شئتم فأخرجوا.

وجاء الأمر من عثمان بإعادتهم الى الكوفـة ولكنهم أشفقوا من ذلـك فبقوا في الجزيرة.

وفي تلك الأثنـاء فرق سعيـد العمال والأمـراء فيما يليـه من فارس فخلت الكوفة من الرؤساء والأشراف وأهل السابقة، وكـان سعيد قـد خرج الى عثمـان فلم يفجأ الناس إلاّ بهم قـد عادوا الى بغيهم وفسـادهم. فلما أراد سعيد العـودة الى الكـوفة تلقـوه من الجرعـة وردوه لا يريـدون دخولـه عليهم أميراً، فعـاد الى

عثمان. فلم يغير من إرادة القوم وأرادوه على أن يولي عليهم أبا موسى الأشعري فنزل عند ما يريدون وولى عليهم أبا موسى وصرف سعيداً عنهم.

هكذا كانت الحال في الكوفة: غلب فيها الغوغاء على أهل الحلم، وضعف سلطان الأمراء، وقلت الطاعة ولم يبق لها في قلوب القوم من أثر.



البصرة

البصرة هي الحاضرة الثانية للعراق ولم تكن الحال فيها بأحسن من الحال في الكوفة، فقد أوردنا فيما سبق تجنيهم على أبي موسى وعيبهم له حتى عزل واستبدل به عبد الله بن عامر. فكان له في أعمال الفتوح بالكوفة أثر جيد وكانت إمارته تشمل أعمال البصرة وأعمال البحرين لثلاث سنين من إمارته وقد بلغه أن في عبد القيس رجلاً نازلاً على حُكيم بن جبلة وكان حكيم رجلاً لصًا إذا قفلت الجيوش خنس عنهم فسعى في أرض فارس فساداً، فيغير على أهل الذمة ويتنكر لهم ويعيث في الأرض ويصيب ما شاء ثم يرجع. فشكاه أهل الذمة وأهل القبلة إلى عثمان فكتب الى عبد الله بن عامر يأمره بحبس حكيم ومن كان مثله بالبصرة فلا يخرجن منها حتى تأنسوا منه رشداً. فكان لا يستطيع أن يخرج عنها. فلما قدم ذلك الرجل المسمى عبد الله بن سبأ ويكنى بابن السوداء نزل عليه وكان يطرح للناس ولا يصرح ويلقي إليهم تعاليم خبيثة. وأصل هذا الرجل يهودي أظهر الإسلام ليضل الناس فصار يقول لهم: عجيب ممن يقول برجعة المسيح ولا يقول برجعة محمد، فيقبل منه الناس ذلك لأنهم من الجهلة الذين لم يتحققوا بالدين ولم ينلهم تهذيب الصحبة ولم يروضوا أنفسهم على الاقتداء، ثم يقول لهم عجباً لكم أيها المسلمون يكون فيكم أهل بيت نبيكم يقصون عن أمركم؟ الى ما يماثل هذا الكلام الذي يسهل قبوله لأنه جاءهم من قبل تعظيم نبيهم ورفعة مقامه على سائر الأنبياء ثم ما هو قريب من ذلك من استهجان ترك آله وإقصائهم عن أمر خلافته، فنمى الى ابن عامر شيء

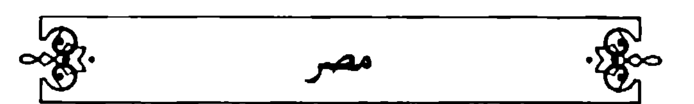
من خبره، فأحضره وسأله من أنت؟ فقال: رجل من أهل الكتاب رغب في الإسلام ورغب في جوارك، فقال ما يبلغني ذلك فاخرج عني، فخرج حتى أتى الكوفة فأخرج منها فسار الى الشام ثم الى مصر، وهناك وجد مهداً وطيئاً وجوًّا صالحاً وثرى ثرياً يجود فيه نبات بذره، بعد أن نفث ما نفث بالعراق فنما زرعه وأينع.

كان حمران بن أبان تزوج امرأة في عدتها فنكل به عثمان وفرق بينهما وسيره الى البصرة فلزم عبد الله بن عامر فتذاكروا يوماً الركوب والمرور بعامر ابن عبد قيس وكان رجلاً عابداً منقبضاً عن الناس على جانب من الصلاح والخير، فقال حمران: ألا أسبقكم فأخبره؟ فخرج فدخل عليه وهو يقرأ في المصحف، فقال: الأمير أراد أن يمر بك فأحببت أن أخبرك، فلم يقطع قراءته ولم يقبل عليه، فقام من عنده خارجاً، فلما انتهى الى الباب لقيه ابن عامر، فقال: جئتك من عند امريء لا يرى لآل إبراهيم عليه فضلاً. واستأذن ابن عامر فدخل عليه وجلس إليه فأطبق عامر المصحف وحدثه ساعة. فقال له ابن عامر: ألا تغشانا؟ فقال: سعيد بن أبي العوجاء يحب الشرف فقال: ألا نستعملك؟ فقال: حصين بن أبي الحر يحب العمل. فقال، ألا نزوجك؟ فقال: ربيعة بن عِسْل يعجبه النساء، فقال ابن عامر: إن هذا يزعم أنك لا ترى لآل إبراهيم عليك فضلاً؟ فصفح المصحف، فكان أول ما وقع عليه وافتتح منه ﴿إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين﴾[1]

فلما رُدَّ حمران الى المدينة تتبع ذلك منه فسعى به وشهد له أقوام. فسيره عثمان الى الشام، وكان ما سعوا به عند عثمان أنه لا يرى التزويج ولا يأكل اللحم ولا يشهد الجمعة وكان مع عامر انقباض وكان عمله كله خفية، فلما قدم على معاوية وافقه وعنده ثريدة فأكل أكلاً عربيًّا، فعرف أن الرجل مكذوب عليه، فقال معاوية: يا هذا هل تدري فيم أخرجت؟ قال: لا قال: أبلغ الخليفة أنك لا تأكل اللحم ورأيتك وعرفت أن قد كذب عليك، وأنك لا ترى

(١) سورة آل عمران الآية ٣٣.

التزويج، ولا تشهد الجمعة، قال: أما الجمعة فإني أشهدها في مؤخر المسجد ثم أرجع في أوائل الناس، وأما التزويج فإني خرجت وأنا يخطب عليّ. وأما اللحم فقد رأيت ولكنني كنت أمرءًا لا آكل ذبائح القصابين منذ رأيت قصاباً يجر شاة الى مذبحها ثم وضع السكين على مذبحها فما زال يقول النفاق حتى وجبت، فقال: فارجع، فقال: لا أرجع إلى بلد استحل أهله مني ما استحلوا، ولكني أقيم بهذا البلد الذي اختاره الله لي.



مصر

أما الأمر في مصر فكان أشد منه في العراق، فإن عبد الله بن سبأ لما جاء إليها ألقى بذور فتنته وأذاع بين الناس تعاليمه، بعد أن استفسد كثيراً من أهل البصرة والكوفة، وخاب أمله من أهل الشام، فكان يقول لهم فيما يقول لعجب ممن يزعم أن عيسى يرجع ويكذب بأن محمداً يرجع والله تعالى يقول: ﴿إن الذي فرض عليك القرآن لرادُّك إلى معاد﴾[1] فمحمد أحق بالرجوع من عيسى، فقبل ذلك عنه وبذلك وضع لهم الرجعة فتكلموا فيها بالأخذ والرد طبعاً، ثم قال لهم بعد ذلك أنه كان ألف نبي ولكل نبي وصي وكان علي وصيّ محمد، ثم قال: محمد خاتم الأنبياء وعلي خاتم الأوصياء، ثم قال بعد ذلك: من أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله ﷺ ووثب على وصي رسول الله ﷺ وتناول أمر الأمة؟ ثم قال لهم بعد ذلك: إن عثمان أخذ الخلافة بغير حق، وهذا وصي رسول الله، فانهضوا في هذا الأمر فحركوه وابدءوا بالطعن على أمرائكم وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس وادعوهم الى هذا الأمر، فبث دعاته وكاتب من كان استفسد في الأمصار وكاتبوه، ودعوا في السر الى ما عليه رأيهم، وجعلوا يكتبون الى الأمصار بكتب يضعونها في عيب ولاتهم ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك ويكتب أهل كل مصر منهم الى مصر آخر ما يصنعون فيقرؤه

(١) سورة القصص: الاية ٨٥.

أولئك في أمصارهم وهؤلاء حتى تناولوا بذلك المدينة وأوسعوا الأرض إذاعة وهم يريدون غير ما يظهرون ويسرون غير ما يبدون، فيقول أهل كل مصر إنا لفي عافية مما ابتلي به هؤلاء، إلا أهل المدينة فإنهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار فقالوا: إنا لفي عافية مما فيه الناس.

المدينة مجتمع المهاجرين والأنصار ومركز الخلافة، ووجوه أهل الأمصار إنما تتجه بالشكاية في المهمات إليها ويعولون على أهلها في إزاحة ما بهم من غمة وتفريج ما لحقهم من كرب، وأهل المدينة يحسون بذلك من أنفسهم ومن أهل الأمصار، فلا غرو أن حرك ذلك من نفوسهم ودفعهم ذلك الى مخاطبة أمير المؤمنين عثمان بما دخل على الناس من عماله مما شرحته الشكوى من كل ناحية وصوب ـ فقالوا يا أمير المؤمنين أيأتيك عن الناس ما يأتينا؟ قال: لا، والله ما جاءني إلاّ السلامة، فقالوا: إنا قد جاءنا كيت، وكيت وأخبروه بالذي أسقطوا إليهم، فقال: أنتم شركائي وشهود المؤمنين فأشيروا عليّ، فقال نشير عليك أن تبعث رجالاً ممن تثق بهم الى الأمصار حتى يرجعوا اليك بأخبارهم.

رأى عثمان صواب ما أشاروا به، فدعا محمد بن مسلمة فأرسله الى الكوفة وأرسل أسامة بن زيد الى البصرة وأرسل عمار بن ياسر الى مصر وعبد الله بن عمر إلى الشام وفرق رجالاً سواهم في جهات أخرى، فذهب كل رجل لطيته ثم رجعوا جميعاً قبل عمار وقالوا: أيها الناس ما أنكرنا شيئاً ولا أنكره أعلام المسلمين ولا عوامهم، وقالوا جميعاً: الأمر أمر المسلمين، إلا أن أمراءهم يقسطون بينهم ويقومون عليهم، واستبطأ الناس عماراً حتى ظنوا أنه اغتيل. فلم يفاجأهم إلا كتاب من عبد الله بن أبي سرح يخبرهم أن عماراً قد استماله قوم بمصر وقد انقطعوا إليه، منهم عبد الله بن السوداء وخالد بن ملجم وسُودان ابن حمران وكنانة بن بشر، وكان كنانة من المؤلبين على عثمان.

أقول: أما أشد المؤلبين على عثمان بمصر، فهما رجلان: أحدهما محمد بن أبي حذيفة، وكان الذي أغراه بذلك أنه كان يتيماً في حجر عثمان فكان عثمان

والي أهل بيته ومحتمل كلهم، فسأل محمد عثمان العمل حين ولى، فقال: يا بني لـو كنت رضا ثم سـألتني العمل لأستعملتـك ولكن لست هناك، قـال فـأذن لي فلأخرج فـلأطلب ما يقـوتني، قال اذهب حيث شئت، وجهـزه من عنده وحمله وأعطاه، فلما وقع الى مصر كان فيمن تغير على عثمان أن منعه الولاية، ولا يبعد أن يكون لتولية عبد اللّه بن عامر أثر في زيادة حقده على عثمان وايغاله في بغضه والكيد له.

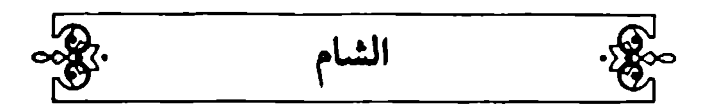
ثانيهما محمد بن أبي بكر ـ ومحمد بن أبي بكر من الإسـلام بالمكـان العظيم غير أنه قدّ غره أقوام فطمع وكانت لـه دالة بمكـان أبيه من رسـول اللّه وسابقتـه وخلافته وأخوة عائشة أم المؤمنين، فلزمه حق فأخـذه عثمان من ظهـره ولم يدهن فاجتمع محمد بن أبي حذيفـة الى محمد بن أبي بكـر وقد ألف بينهـما بغض عثمان ومكن بينهما الصداقة.

وأول ما ظهر ذلك منهما حـين ركب الناس البحـر سنة ٣١ في غـزوة ذات الصواري وسيأتي خبرها، إذ صلى عبد اللّه بن أبي سـرح بالنـاس العصر، فكبر محمد بن أبي حذيفة تكبيراً رفع صوته به حتى فرغ عبد اللّه بن سعد من صلاتـه فقال له: ما هذه البدعة والحدث؟ فقال محمد بن أبي حذيفة: ما هذه بدعـة ولا حدث وما بالتكبير بأس، فقال: لا تعودن، فلما صلى المغـرب عاد فكبـر بصوت أرفع، فأرسل إليه: إنك لغلام أحمق، أما واللّه لولا أني لا أدري مـا يوافق أمـير المؤمنين لقاربت بين خطوطك (يريد تقييده)، فقـال محمد بن أبي حـذيفة: واللّه مالك الى ذلك سبيل ولو هممت به ما قدرت عليه، قال فكـف خير لك، وركب محمد في مركب ليس فيه معه مسلم وإنما فيه القبط وركب معـه فيه محمـد بن أبي بكر.

فلما أذن اللّه بهزيمة الروم ورجع المسلمون جعل محمد بن أبي حذيفة يقول للرجل أما واللّه لقـد تركنـا خلفنا جهـاداً، فيقول الـرجل وأي جهـاد؟ فيقول: عثمان بن عفان فعل كذا وكذا، وأظهر هو ومحمـد بـن أبي بكر عيب عثمان وما

غير وما خالف به أبا بكر وعمر وإن دم عثمان حلال، ويقولان: استعمل عبد الله بن سعد رجلاً كان رسول الله ﷺ أباح دمه ونزل القرآن بكفره وأخرج رسول الله ﷺ قوماً وأدخلهم. ونزع أصحاب رسول الله واستعمل سعيد بن العاص وعبد الله بن عامر وكانا حين التقى الجمعان أنكل المسلمين في القتال، فقيل لهما في ذلك، فقالا كيف نقاتل مع رجل لا ينبغي لنا أن نحكمه؟ عبد الله ابن أبي سرح استعمله عثمان وعثمان فعل وفعل، فأفسدا أهل الغزاة، وعلم بذلك عبد الله بن سعد فأرسل ينهاهما أشد النهي.

أما سبب ميل عمار بن يسار الى المؤلبين على عثمان والطاعنين فيه فإنه كانت عنده موجدة على عثمان، سببها أنه كان بينه وبين عباس بن عتبة بن أبي لهب كلام أدى الى تقاذفهما، فضربهما عثمان على ذلك، وقليل من كان في قلبه موجودة على إنسان ثم لا يصيخ الى القول فيه والعيب له.



الشام

أما الحال في الشام فقد كانت أحسن منها في هذه الأمصار التي ذكرنا ذلك أن معاوية من الحزم والضبط بالمكان الذي لا يجهل. ومثل بضاعة ابن السوداء لا تجد نفاقاً تحت رعايته وإذا وجدت فإنه يعاجل الداء بحسمه.

كان بالشام حادثة استغلها الثوار المؤلبون في التشنيع على عثمان والتأريث له ولعماله غير أن معاوية استأصل الداء من ناحيته ونحى عنه ما ابتلى به غيره من العمال، ولذلك بقي أهل ولاياته الواسعة على طاعته والولاء له ملقين إليه بالمقاليد يصرفهم كما يهوى وهم لا يخالفون عن أمره ولا يرغبون بأنفسهم عن نفسه ولم تخبث نفوسهم بما خبثت نفوس الناس في الأمصار.

ذلك أن ابن السوداء لما جاء الى الشام وهو من الخبث والدهاء بحيث يعرف مأتى الأمور ويأتي الى كل شيء من بابه ويفضي الى كل رجل بما يغلب

على ظنه أنـه يوافقـه. فهو إنمـا يجيء الى الناس بـدسائسـه من الجانب الضعيف الـذي يأنسـه فيهم ـ ومعلوم أن أبا ذر رضي اللّه عنـه كان رجـلاً صـالحـاً تقيـاً متقشفـاً لا يحب الإمساك ولا يميـل الى الادخار ذا شفقـة على الفقـير والمسكين.
فجاء إليه ابن السوداء وقال له: يا أبـا ذر، ألا تعجب من معاويـة يقول: المـال مال اللّه ـ ألا إن كل شيء للّه، كأنه يريد أن يحتجنـه دون المسلمين ويمحـو اسم المسلمين، فجاء أبو ذر إلى معاوية فقال: ما يدعوك الى أن تسمى مال المسلمـين مال اللّه؟ قال يرحمك اللّه يـا أبـا ذر ألسنـا عباد اللّه؟ والمـال مالـه والخلق خلقه والأمر أمره؟ قال: فلا تقله. قـال: فإني لا أقـول إنه ليس للّه ولكن سأقول مال المسلميـن، وأتى ابن السوداء أبا الدرداء ـ فقال له: من أنت؟ أظنك واللّه يهودياً ـ فأتى عبادة بن الصامت، فتعلق به وأتى معاوية. فقـال: هذا واللّه الـذي بعث عليك أبا ذر، وقام أبو ذر بالشام وجعل يقول: يا معشر الأغنياء وأسوأ الفقراء. بشر الـذين يكنزون الـذهب والفضـة ولا ينفقـونها في سبيـل اللّه بمكـاو من نـار تكـوي بها جبـاههم وجنـوبهم وظهـورهم فما زال حتى ولـع الفقراء بمثـل ذلـك وأجبوه على الأغنياء، وحتى شكا الأغنياء ما يلقون من الناس.

فكتب معاوية إلى عثمان أن أبا ذر قـد أعضل بي وقـد كان من أمـره كيت وكيت، فكتب إليه عثمان: إن الفتنـة قد أخـرجت خطمهـا وعينيها فلم يبق أن تثب فلا تنكأ القرح، وجهز أبا ذر الى وابعث معه دليـلاً وزوده وارفق به وكفكف الناس نفسك ما استطعت، فإنما تمسك الأمر ما استمسكت فبعث بأبي ذر ومعـه دليل، فلما قدم المدينة ورأى المجالس في أصل سلع، قال بشر أهل المدينة بغـارة شعواء وحرب مذكار، ولما دخل عـلى عثمان قـال له: يـا أبا ذر مـا لأهل الشـام يشكون ذربك، فأخبره أنه لا ينبغي أن يقال مـال اللّه، ولا ينبغي لـلأغنياء أن يقتنوا مالاً: فقال: يا أبـا ذر، على أن أقضي ما علي. وآخذ ما عـلى الرعيـة ولا أجبـرهم على الـزهد، وأن أدعـوهم إلى الاجتهاد والاقتصـاد، قال أفتـأذن لي في الخروج، فإن المدينة ليست لي بدار قال أو تستبدل الأشرا منها؟ قال أمرني رسول

اللّه ﷺ أن أخرج منها إذا سلعا، قال فانفذ ما أمرك به، فخرج أبو ذر حتى نزل الـربذة فخط بهـا مسجداً وأقـطعه عثمـان صرمـة من الإبـل، وأعطـاه مملوكـين وأجرى عليه كل يوم عطاء وأرسل إليه أن تعاهد المدينـة حتى لا ترتـد أعرابيـاً ـ وذلك أنه كان الأمر في المسلمين على أن من سكن المدينة حرم التبدي لما في ذلك من تقليل سواد المسلمـين وهجر العلم بـالدين والانغمـاس مع الأعـراب الجفاة الغـلاظ الأكباد مـع بعدهم عن الـدين ومذاهبـه وجهلهم بحلالـه وحرامـه وقد مكث ذلك الأمر دهراً طويلاً يرون ذلك، ولولا ما رواه أبو ذر من حديث رسول اللّه لم يرخص له عثمان في ذلك.

وقد روى الطبـري سوى مـا قدمنـا أن أبا ذر كـان يختلف الى المدينـة من الربذة مخـافة الأعـرابية وكـان أبو ذر يحب الـوحدة والخلوة، فـدخل عـلى عثمان وعنـده كعب الأحبـار، فقـال لا تـرضـوا من النـاس بكف الأذى حتى يبـذلـوا المعـروف وقد ينبغي للمؤدي الـزكاة أن لا يقتصر عليهـا حتى يحسن الى الجيـران والإخوان ويصل القرابات، فقال كعب الأحبار: من أدى الفريضة فقـد قضـي ما عليه، فقال له أبو ذر: يا بن اليهودية ما أنت وما هـا هنا؟ واللّه لتسمعن مني أو لأدخلن عليك، ورفع محجنه فضربه فشجه، فاستوهبه عثمان فوهبه له، وقال يا أبا ذر اتق اللّه واكفف يدك ولسانك.

إن الناظر الى أبي ذر وهو أول قائل بالاشتراكية في الإسـلام يراه قـد أوغل فيها شوطاً بعيداً وانتـظم ما بـين بابهـا ومحرابهـا في خطوة واحـدة. قال صـاحب أشهر مشاهير الإسلام: على أن التوسط في هـذا المذهب هـو المطلوب وليس هـو فوق طاقة النفوس كما يتخيله بعض الشرهين في المال المغالين في حب الذات فلو استمسك المسلمون بعروته وحملهم الخلفاء على طريقته لكانوا أعـز الأمم جانبـاً وأسعدها حالاً إذ خلق التعاون على البر إذا نشأ بنشوء الأمة وتمكن من نفوسها يصير مع الزمن ملكة راسخة في الصدر تنمو بنمو الحياة القومية. اهـ.

والذي أراه أن أبا ذر عمد إلى طريقته الإشتراكيـة غير مبـين حدودهـا ولا

معالمها ـ وطريقة كهذه ربما كان إثمها أكبر من نفعها، لأن أصحاب الجد والعمل يسعون ويكدون ويتعبون أجسامهم وعقولهم ثم لا ينالهم من عملهم إلاّ كما يناله الكسول المريح، لا يمكن أن يقبل هذا عاقل ولا يرتاح له نفس عمراني.

وقد جاء في شخوص أبي ذر من الشام الى المدينة ثم الى الربذة روايات أضرب الطبري وابن الأثير عن روايتها وسار على ذلك محققو المؤرخين علماً منهم بضعف تلك الروايات ـ وقد توفي أبو ذر رضي اللّه عنه بالربذة سنة ٣٢ هـ وكان قد أقام بها ثلاث سنين وقد حضر دفنه جماعة من أصحاب رسول اللّه فيهم ابن مسعود.

أما الحال في المدينة فقد كانت أشد. فإن تلك الكتب التي كان يرسلها السبئيون كانت سبباً لكثرة الحديث في شأن عمال عثمان وفشو القالة حتى تأثرت بذلك نفوس الكثير من أصحاب رسول اللّه ﷺ، وفيهم الحاقد على عثمان لأسباب تخصه والكاره لمكانه. حتى كأن هذه الكتب كانت النار وافقت الخلفاء وقد بلغ الأمر ببعضهم أن واجه عثمان بما يسوءه فكان يتجاوز لهم عن ذلك ويصبر وسيمر بنا شيء من ذلك.

ابتداء العمل في الفتنة

كان ما تقدم إذاعة باللسان وإشاعة للسوء بالمكاتبات بين الموتورين والساخطين والموضعين في الفتنة، فلما اختمرت فكرة الشغب في النفوس بدأت تظهر بالعمل، وكان بدء ذلك أن سعيد بن العاص ذهب من الكوفة الى المدينة وقد تفرق رؤساء الناس وأشرافهم في بلاد فارس الى أعمالهم وخلت الكوفة منهم فانتهز يزيد بن قيس ذلك وجاء المسجد وهو يريد خلع عثمان فانقض عليه القعقاع بن عمرو فأخذه ويزيد يقول: إنما نستعفي من سعيد، فقال هذا ما يعرض لكم فيه لا تجلس لهذا ولا يجتمعن إليك واطلب حاجتك فلعمري لتعطينها، فجلس في بيته واستأجر رجلاً وأعطاه بغلاً وكتب الى القوم الذين

بالجزيرة لا تضعوا كتابي من أيديكم حتى تجيئوا، فأبوا في أول الأمر حتى خرج مالك بن الحارث الأشتر عاصياً الى الكوفة، فلما رأوا ذلك منه لحقوا به يريدون الكوفة فقدمها قبلهم ولم يشعر الناس الا وهو على باب المسجد في يوم جمعة يقول: أيها الناس إني قد جئتكم من عند أمير المؤمنين عثمان وتركت سعيداً يريده على نقصان نسائكم الى مائة درهم ورد أهل البلاء منكم الى ألفين، ويقول ما بال أشراف النساء وهذه العلاوة بين هذين العدلين؟ ويزعم أن فيأكم بستان قريش. وقد سايرته مرحلة فما زال يرجز بذلك حتى فارقته يقول:

ويل لأشراف النساء مني   صمحمح كأنني من جن

فاستخف الناس بذلك وجعل أهل الحجى والرأي ينهونهم فلا يسمع منهم وأمر يزيد بن قيس منادياً ينادي: من شاء أن يلحق سعيد بن قيس لرد سعيد وطلب أمير غيره فليفعل.

وقام عمر بن حريث خليفة سعيد يعظ الناس ويسكنهم فلم يسمعوا لقوله وقال له القعقاع بن عمرو. أترد السيل عن عبابه؟ فأردد الفرات عن أدراجه هيهات، لا والله لا تُسَكِّن الغوغاء إلاّ المشرفية ويوشك أن تنتضي ثم يعجون عجيج العتْدَان ويتمنون ما هم فيه فلا يرده الله عليهم أبداً.

خرج القوم الى الجرعة كما قدمنا ثم قدم سعيد ومعه مولى له فوجد القوم يناهزون الألف. فقالوا له: لا نريد أن تدخل علينا والياً، فقال لهم: هل يخرج الألف لهم عقول الى رجل واحد؟ إنما كان يكفي أن ترسلوا لي رجلاً وإلى أمير المؤمنين رجلاً واحداً ثم رجع وقد قتلوا مولاه. وأخبر عثمان بالذي كان منهم فقال: فمن يريدون؟ قال: أبا موسى. فقال: قد أثبتنا أبا موسى عليهم ووالله لا نجعل لأحد عذراً ولا نترك لهم حجة ولنصبرنّ كما أمرنا حتى نبلغ ما يريدون.

وفي رواية للطبري: أنه اجتمع ناس من المسلمين فتذاكروا أعمال عثمان

وما صنع فاجتمع رأيهم على أن يبعثوا إليه رجلاً يكلمه ويخبره بأحداثه. فأرسلوا إليه عامر بن عبد اللّٰه التميمي الذي يعرف بعامر بن عبد قيس فأتاه فدخل عليه وقال: إن ناساً من المسلمين اجتمعوا فنظروا في أعمالك فوجدوك قد ركبت أموراً عظاماً فاتق اللّٰه عز وجل وتب اليه وانزع عنها. فقال عثمان: انظروا الى هذا فإن الناس يزعمون أنه قارىء ثم يجيء فيكلمني في المحقرات فواللّٰه ما يدري أين اللّٰه. فقال عامر: أنا لا أدري أين اللّٰه؟ قال: نعم واللّٰه ما تدري أين اللّٰه، قال عامر: بلى واللّٰه إني لأدري أن اللّٰه بالمرصاد لك.

بعد ذلك أرسل عثمان الى عماله وبعض من معه من غيرهم ليؤامرهم في هذه الإذاعات التي أزعجته وصيرت أهل المدينة بين المقيم المقعد - فاستقدم معاوية بن أبي سفيان وعبد اللّٰه بن سعد بن أبي سرح وسعيد بن العاص (كان بالمدينة) وعبد اللّٰه بن عامر. وعمرو بن العاص (وكان بالمدينة) فجمعهم ليشاورهم في أمره وما طلب إليه، وما بلغه عن عماله منهم - وقال لهم: إن لكل امرىء وزراء ونصحاء وإنكم وزرائي ونصحائي وأهل ثقتي. وقد صنع الناس ما قد رأيتم وطلبوا إليّ أن أعزل عمالي وأن أرجع عن جميع ما يكرهون الى ما يحبون فاجتهدوا رأيكم. وقال عبد اللّٰه بن عامر: رأيي لك يا أمير المؤمنين أن تأمرهم بجهاد يشغلهم عنك وأن تجمرهم في المغازي حتى يذلوا لك فلا يكون همة أحدهم إلاّ نفسه وما هو فيه من دبر دابته وقمل فروته (ونعم الرأي رأيه)، ثم أقبل عثمان على سعيد بن العاص فقال له: ما رأيك؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن كنت تريد رأينا فاحسم عنك الداء واقطع عنك الذي تخالف واعمل برأيي تصب. قال وما هو - قال إن لكل قوم قادة متى تهلك يتفرقوا ولا يجتمع لهم أمر (يريد أن ينكل برؤوس أهل الفتن) فقال عثمان: هذا هو الرأي لولا ما فيه، ثم قال لمعاوية ما رأيك؟ قال يا أمير المؤمنين ما أرى أن ترد عمالك على الكفاية لما قبلهم وأنا ضامن لك قبلي. ثم قال لعبد اللّٰه بن سعد ما رأيك؟ فقال: أرى يا أمير المؤمنين أن الناس أهل طمع فاعطهم من هذا المال تعطف عليك قلوبهم

(وهو حق لو اتسع له بيت المال). ثم قال لعمرو بن العاص: ما رأيك؟ قال: أرى أنك قد ركبت الناس بما يكرهون، فاعتزم أن تعتدل فإن أبيت فاعتزم أن تعتزل، فإن أبيت فاعتزم عزماً وامض قدُماً ـ فقال عثمان مالك قملَ فروُك، أهذا الجد منك؟ فسكت عمرو عنه حتى إذا تفرق القوم قال له: لا والله يا أمير المؤمنين لأنت أعز عليّ من ذلك ولكني علمت أن سيبلغ الناس قول كل رجل منا. فأردت أن يبلغهم قولي فيثقوا بي. فأقود إليك خيراً أو أدفع عنك شرًّا.

والذي أعتقده أن مبدأ إحساس القوم بضعف عثمان الكتاب الذي كتبه إلى أهل الكوفة حين استعفوه من سعيد بن العاص وردوه من الجرعة وقتلوا مولاه وطلبوا أبا موسى والياً عليهم فكتب إليهم عثمان «بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد. فقد أمّرت عليكم من اخترتم وأعفيتكم من سعيد، والله لأفرشنكم عرضي ولأبذلن لكم صبري ولأستصلحنكم بجهدي فلا تدعوا شيئاً أحببتموه لا يعصي الله فيه إلا سألتموه ولا شيئاً كرهتموه لا يعصي الله فيه إلاّ استعفيّتم منه أنزل فيه عند ما أحببتم حتى لا يكون لكم على حجة» وكتب بمثل ذلك الى الأمصار وهي نغمة جديدة لم يسمع الناس مثلها من عمر بن الخطاب جاءت على إثر شكوى وتذمر. قد تؤثر في الكريم ولكن اللئيم يعتدها ضعفاً يزيده ضراوة على الفتنة وولوعاً بإشاعة السوء وإذاعته فهو زلة من عثمان يغفر الله له ـ وكتاب مفتوح يعلن فيه ضعفه ووهن قوته فلا غرو أن اجترأوا عليه بعده بما اجترأوا.

قبل سرد ما حصل في شأن الفتنة مما سأسرده أحب أن أدلي بكلمة تنير الموضوع وتلقي عليه شعاعاً من الجلاء والوضوح:

مما جرت به سنة الوجود أن أي بلد من البلاد أو مصر من الأمصار لا يخلو من أناس محدودين مغموسين في الناس لم يتهيأ لهم الظهور ولم يوفقوا لأن يكونوا من أرباب الثراء وهم يزنون أنفسهم بغير ميزانهم ويقدرون لأنفسهم ثمناً لا يسومهم الناس بعشر معشاره فهم راضون عن أنفسهم كل الرضا ساخطون

على من عداهم يَتَبرّمون بـالفلك ويتسخطون عـلى القدر، ولا ينسبـون تأخـرهم لعيب فيهم أو نقص في استعـدادهم لتسنم المعالي، ولكنهم يَعمِـدون الى الدولـة والقائمين بها يستذنبونهم في تأخرهم ويلزمونهم جناية فقـرهم وعدم مـواتاة الجـد لهم، فهم يتمنـون تغيـير الـدولـة ويستبـطئـون أحـداث الاستبـدال من أهلهـا ويتكهنون حؤول الأحوال ويوقتون لذلك المواقيت ويتربصون نزول الدوائر لأنهم يسترحون ريح الفرج من ناحية التقلبات ويرون أن حظهم لا يطلق من وثاقة إلاّ إذا سقط الأمير القائم وقام غيره ممن يمتون إليه بالوسائل قبل الولاية.

إذا لم يكن للمـرء في دولـة امـريء — نـصيـب ولا حظ تمـنى زوالهـا
ومـا ذاك مـن بغض لـه غـير أنـه — يـرجي سـواهـا فهـو يهـوى انتقـالهـا

ومن كانوا كذلك يكون لهم ولوع بإشاعة الإشاعات الرديئـة وإذاعة أنبـاء السوء وتثبيت الظنـون وتوهـين اليقين واستفـزاز من يمكن استفزازه الى إحـداث الفتن وتعجيل التغيير والتقرب الى من يظن فيه القدرة على ذلك.

ولا يخلو الحال من أن يكون بالمدينة قوم على هذه الشريطة يَنفخون في كل نـار، كلما خبت زادوها سعيـراً. ويزيـد نيران حقـدهم اشتعـالاً مـا يـرونـه من اختصاص ذوي السلطان غيرهـم من أهل البلاء والغنـاء في نظرهـم بـالتأمـير على الأمصـار وتقليدهم العمـالات وهم قابعـون في أكسار بيـوتهم. وقد كـان لهم في بعض ما يؤخذ على عثمان حجة يستترون وراءها.

إذا تمهد هذا فليس من البعيد أن تكون إذاعـات هذا الضـرب من الناس وإشاعاتهم قد بلغت من الكثرة في المـدينة حـداً غير قلوب أصحـاب رسول الله على عثمان حتى تكاتبوا مع الخارجين عن المدينـة يقولـون لهم: أن اقدمـوا علينا فإن كنتم تريدون الجهاد فعندنا الجهاد، وكثر الناس على عثمان ونالـوا منه أقبـح ما نيل من أحد، وأصحاب رسـول الله يرون ويسمعـون وليس فيهم أحد ينهي ولا يـذب إلا نفراً: زيـد بن ثابت، وأبـو أسيد السـاعـدي، وكعب بن مـالـك

وحسان بن ثابت، فاجتمع الناس وكلموا علي بن أبي طالب. فدخل على عثمان فقال: الناس ورائي وقد كلموني فيك، واللّه ما أدرى ما أقول لك وما أعرف شيئاً تجهله ولا أدلك على أمر لا تعرفه، إنك لتعلم ما يعلم، ما سبقناك الى شيء فنخبرك عنه ولا خلونا بشيء فنبلغكه وما خصصنا بأمر دونك. وقد رأيت وسمعت وصحبت رسول اللّه ﷺ ونلت صهره وما ابن أبي قحافة بأولى بعمل الحق منك ولا ابن الخطاب بأولى بشيء من الخير منك وأنت أقرب الى رسول اللّه ﷺ رحماً. ولقد نلت من صهر رسول اللّه ما لم ينالا ولا سبقاك الى شيء فاللّه اللّه في نفسك فإنك واللّه ما تبصر من عمى ولا تعلم من جهل وأن الطريق لواضح بين وأن أعلام الدين لقائمة، تَعَلَّم يا عثمان أن أفضل عباد اللّه عند اللّه إمام عادل هُدِيَ وَهَدَى فأقام سنة معلومة وأمات بدعة متروكة، فواللّه إن كلا لبينٌ، وإن السنن لقائمة لها أعلام، وإن البدع لقائمة لها أعلام، وإن شر الناس عند اللّه إمام جائر ضل وضُلَّ به فأمات سنة معلومة وأحيا بدعة متروكة، وإني سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «يؤتى يوم القيامة بالإمام الجائر وليس له نصير ولا عاذر فيلقي في جهنم فيدور كما تدور الرحى ثم يرتطم في غمرة جهنم». وإني أحذرك اللّه وأحذرك سطوته ونقماته فإن عذابه شديد أليم، وأحذرك أن تكون إمام هذه الأمة المقتول، فإنه يقال: يقتل في هذه الأمة إمام فيفتح عليها القتل والقتال الى يوم القيامة وتلبس أمورها عليها ويتركهم شيعاً فلا يبصرون الحق لعلو الباطل يموجون فيها موجاً ويمرجون فيها مرجاً.

سمع عثمان ذلك الكلام فقال: قد واللّه علمت ليقولُنَّ الذي قلت، أما واللّه لو كنت مكاني ما عنفتك ولا أسلمتك ولا عبت عليك ولا جئت منكراً أن وصلت رحماً وسددت خلة وآويت ضائعاً، ووليت شبيهاً بمن كان عمر يولي، أنشدك اللّه يا علي هل تعلم أن المغيرة بن شعبة ليس هناك؟ قال: نعم، قال: فتعلم أن عمر ولاه؟ قال نعم قال فلم تلومني أن وليت ابن عامر في رحمه وقرابته؟ قال علي: سأخبرك أن عمر بن الخطاب كان كل من ولى فإنما يطأ على

صماخة، أن بلغه حرف جلبة ثم بلغ به أقصى الغاية، وأنت لا تفعل ـ ضعفت ورققت على أقربائك ـ قال عثمان: هل تعلم أن عمر ولى معاوية وخلافتها كلها، فقد وليته، فقال علي: أنشدك الله: هل تعلم أن معاوية كان أخوف من عمر من يرفأ غلام عمر منه؟ قال نعم. قال علي: فإن معاوية يقتطع الأمور دونك وأنت تعلمها فيقول للناس هذا أمر عثمان فيبلغك ولا تغير على معاوية. ثم خرج على من عنده.

إذا كان ما في رواية هذا الحديث صحيحاً (وهي رواية الواقدي نقلها الطبري وتابعه عليها ابن الأثير) فإن عثمان لا حجة له فيما يقول ـ ذلك أن الولاية إنما يقصد بها مصلحة المسلمين وكفاية المهم من أمورهم في الناحية التي يكون بها الوالي. أما كون الولاية يقصد بها صلة الرحم وسد خلة ذي الخلة وإيواء الضائع من أقارب الخليفة وذوي رحمه، فلا يمكن أن يوافق عليها أحد. ولقد كان في بني عدي ومن هم من ذوي أنساب عمر دنيا ضائعون وذوو خلة لهم رحم ماسة وعرق واشجة، فلم يشأ عمر إيثارهم لقرابتهم أو رحمهم ولا لأي اعتبار آخرُ، وهؤلاء عمال رسول الله ما كان يختارهم من ذوي قرابته ولا يؤثرهم ابتغاء صلة الرحم في الأعمال ـ التي يشترط فيها قبل كل شيء الكفاءة ـ ولست بهذا أقصد عيب العمال في أعمالهم أو انتقص من كفاءتهم، وإنما أحاكم جواب عثمان لعلي فيما أجاب به فإنه جواب أراه غير سديد.

ولا يفوتني قبل أن أترك هذا المقام أن أذكر ما يخالج نفسي أمام هذه العوامل التي كانت تأخذ عثمان من كل ناحية ـ ذلك أن عثمان كان رجلاً سليم القلب طاهر الضمير بعيداً عن الخب والنفاق وسوء الظن بالناس. فكان حسن الظن بأقاربه وذوي رحمه ثم انضاف الى هذا رقة قلبه وشدة حنانه عليهم وحب لنفعهم واستيقانه بأنهم يعاونونه على أمره ويؤازرونه على سياسة الرعية وأنهم خير من يقوم له بذلك لحبهم له وعطفهم عليه ـ كان منذ ذلك في الوقت الذي خمدت فيه جمرة الشباب وانطفأت وقدة الحداثة وقد رهقه ضعف الشيخوخة

واستـولى عليه تهـاون أهـل الهـرم وتسـامحهم واستصغـارهم الأمـور وإن جلت، فأورث ذلك في أنفس الناس شيئاً كثيراً.

فإن الصحابة كانوا يرونـه يتخطى رقـابهم بالأعمـال ويوليهـا ذوي قرابتـه وفيهم الأحـداث ومن لم تقدمهم السن. وفي أبنـاء الصحابـة وأهل السـابقة من يرى لنفسه ويرى له أبـوه وغير أبيـه الأولويـة على من يقـدم من أقاربـه: فاحفظ ذلـك عليه القلوب وسهـل على النـاس سماع الإذاعـات وتصديق الإشـاعات، فكـانت عصارة ذلـك ازدياد الجـرأة عليه وعيبهم لـه جهاراً بعـد أن كـان ذلـك خفيـة. ولم يكن لعثمان جـواب مسكت فيما يـرد به عن نفسـه فكان احتجـاجـه لعمله ودفاعه عنه داعية زيادة الأضطغان عليه لأنه غير كاف ولا شاف.

خرج عثمان على أثر خروج علـي بعد انتهاء الحديث الذي قدمنـا فجلس على المنبر، فقال: أما بعد فإن لكـل شيء آفة، ولكـل أمر عـاهة، وإن آفـة هذه الأمة وعاهة هذه النعمة عيابون طعانون يرونكم ما تحبون ويسـرون ما تكـرهون يقـولون لكم وتقـولون، أمثـال الغنم يتبعون أول نـاعق، أحب مـواردهـا إليهـا البعيد، لا يشربون إلا نغصاً ولا يردون إلا عَكَراً لا يقوم لهم رائد. وقد أعيتهم الأمـور وتعـذرت عليهم المكـاسب، ألا فقـد والله عبتم عـلي بمـا أقـررتم لابن الخطاب بمثله ولكنه وطئكم برجله وضربكم بيده وقمعكم بلسانـه فدنتم لـه على ما أحببتم أو كرهتم ـ ولنتُ لكم وأوطأت لكم كنفي وكففت يدي ولساني عنكم فاجترأتم عليّ أما والله لأنا أعز نفراً وأقرب نـاصراً وأكـثر عدداً وأقمن، إن قلت هلم أني إليّ، ولقد أعددت لكم أقرانكم وأفضلت عليكم فضولاً وكشـرت لكم عن نابي وأخرجتم مني خلقـاً لم أكن أحسنه ومنـطقاً لم أنـطق به. فكفـوا عليكم ألسنتكم وطعنكم وعيبكم عـلى وُلاَتِكُمْ فـإني قـد كففت عنكم من لـو كـان هـو الذي يكلمكم لرضيتم منه بدون منطقي هذا، ألا فما تفقدون من حقكم؟ والله ما قصرت في بلوغ ما كان يبلغ من كان قبلي ومن لم تكونوا تختلفـون عليه فَضَـلَ فَضْل من مال، فمالي لا أصنع في الفضل ما أريد؟ فلم كنت إماماً؟ فقام مروان

فقال: إن شئتم حكمنا والله بيننا وبينكم السيف نحن والله وأنتم كما قال الشاعر:

فرشنا لكم أعراضنا فنبت بكم مغارسكم تبنون في دمن الثري

فقال عثمان اسكت لا سُكِّت، دعني وأصحابي ما منطقك في هذا؟ ألم أتقدم إليك أن لا تنطق، فسكت مروان.

وقد أورد الطبري من رواية سيف عن شيوخه أن معاوية قال لعثمان غداة ودّعهُ وخرج: يا أمير المؤمنين انطلق معي الى الشام قبل أن يهجم عليك من لا قبل لك به فإن أهل الشام على الأمر لم يزالوا. فقال: أنا لا أبيع جوار رسول الله ﷺ بشيء وإن كان فيه قطع خيط عنقي، قال فأبعث إليك جنداً منهم يقيم بين ظهراني أهل المدينة لنائبة إن نابت المدينة أو إياك، قال أنا أقتر على جيران رسول الله ﷺ الأرزاق بجند يساكنهم وأضيق على أهل دار الهجرة والنصرة؟ قال والله يا أمير المؤمنين لتغتالن أو لتغزين، قال حسبي الله ونعم الوكيل.

فلما خرج معاوية يريد السفر، فإذا هو بنفر من المهاجرين فيهم طلحة والزبير وعلي، فقام عليهم: متوكئاً على قوسه وبعد أن سلم قال: إنكم قد علمتم أن هذا الأمر كان إذ الناس يتغالبون الى رجال فلم يكن منكم أحد إلا وفي فصيلته من يرأسه ويستبد عليه ويقطع الأمر دونه ولا يشهده ولا يؤامره حتى بعث الله عز وجل نبيه ﷺ وأكرم به من اتبعه فكانوا يرئسون من جاء من بعده وأمرهم شورى بينهم يتفاضلون بالسابقة والقُدْمَة والاجتهاد فإن أخذوا بذلك وأقاموا عليه كان الأمر أمرهم والناس تبع لهم وإن أصغوا الى الدنيا وطلبوها بالتغالب سلبوا ذلك ورده الله الى من كان يرأسهم، وإلاّ فليحذروا الغير فإن الله على البدل قادر وله المشيئة في ملكه وأمره: إني قد خلفت فيكم شيخاً فاستوصوا به خيراً وكانفوه تكونوا أسعد منه بذلك، ثم ودعهم ومضى، فقال علي ما كنت أرى أن في هذا خيراً، فقال الزبير والله ما كان أعظم في صدرك وصدورنا منه الغداة.



دور الشدة في الفتنة

كـان تصميم السبئية من أول الأمـر أن يثوروا بـالأمصار عـلى أثر خـروج العمال الى الموسم، فلم يتهيأ لهم ذلك ولم ينهض في هذا الأمر سوى أهل الكوفة فإنهم خرجوا بحجة الاستعفاء من سعيد كما قدمنـا، وقد ردوه من الجـرعة وهي مكان في طريق الذاهب من المدينة الى الكوفة.

فلما رجع الأمراء إلى أمصارهم لم يكن للسبئية سبيل الى الخروج، فكاتبوا أشياعهم من أهل الأمصار وتواعدوا على أن يتوافو بالمدينـة لينظروا فيـما يريـدون وأظهروا أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكـر، ويسألـون عثمان عن أشيـاء لتسير في الناس وتحقق عليه فخرجت وفود من الأمصار الثلاث: الكوفة والبصرة ومصر حتى قاربت المدينة، فلما علم عثمان بمجيئهم أرسـل إليهم رجلين من بني مخزوم ليعلما علم القوم، وكان الرجلان ممن نالهم أدب من عثمـان فاصـطبرا ولم يطضغنا. فلما رآهما أولئك القادمون استرسلوا إليهما وبـاحوا لهـما بذات نفـوسهم، فقالوا إننا نريـد أن نسألـه عن أشياء زرعنـاها في قلوب النـاس ثم نرجـع إليهم فنزعم لهم أنا قررنا بها فلم يخرج منها ولم يتب. ثم نخرج كـأنا حجـاج ثم نقدم فنحيط به فنخلعه فإن أبى قتلناه، وكانت إياها، فرجعا الى عثمان بالخبر فضحك وقال اللهم سلم هؤلاء فإنـك إن لم تسلمهم شقوا. وقـد أخبر أهـل الأمصار أن ثلاثة من أهل المدينة معهم على رأيهم وهم: عمار ومحمد بن أبي بكر وابن سهلة (لعله محمد بن أبي حذيفة) فكان من قول عثمان: أما عمار فحمـل على عبـاس ابن عتبة بن أبي لهب وعركة فأدبته، وأما محمد بن أبي بكر فـإنه أعجب حتى رأى أن الحقوق لا تلزمه، وأما ابن سهلة فإنـه يتعرض للبـلاء. ثم أرسل عثمـان إلى الكوفيين والبصـرين ونادى: الصـلاة جامعـة وهم عنده في أصـل المنبر، فـأقبل أصحـاب رسول الله حتى أحـاطوا بهم، فحمـد الله وأثنى عليه وأخبـرهم خبـر القوم، وقام الرجلان وأخبرا بما سمعا منهم، فقالوا جميعاً اقتلهم فـإن رسول الله

ﷺ قال من دعا إلى نفسه أو الى أحد وعلى الناس إمام فعليه لعنة الله فاقتلوه، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا أحل لكم إلاّ ما قتلتموه وأنا شريككم، فقال عثمان: بل نعفو ونقبل ونبصرهم بجهدنا ولا نحاد أحداً حتى يركب حداً أو يبدي كفراً، ثم أخذ يذكر الأمور التي نقموها عليه وأذاعوها ويجيب عن كل مسألة، فقال: إن هؤلاء ذكروا أموراً قد علموا منها مثل الذي علمتم إلا أنهم زعموا أنهم يذكرونيها ليوجبوها على عند من لا يعلم:

١ ـ قالوا أتم الصلاة في السفر (في المزدلفة) وكانت لا تتم، ألا وإني قدمت بلداً فيه أهلي فأتممت لهذين الأمرين، أو كذلك هو؟ قالوا: نعم وذلك أنه أتم الصلاة في المزدلفة وهي تقصر في ذلك الموطن ولو كان مؤديها مقيماً هكذا كان يرى غير عثمان من فقهاء الصحابة.

٢ ـ وقالوا حميت حمى، وإني والله ما حميت حمى، قبلي والله ما حموا شيئاً لأحد ما حموا لا ما غلب عليه أهل المدينة ثم لم يمنعوا رعيه أحداً، واقتصروا لصدقات المسلمين يحمونها لئلا يكون بين من يليها وبين أحد تنازع ثم ما منعوا ولا نحوا منها أحداً إلا من ساق درهماً ومالي من بعير غير راحلتين ومالي من ثاغية ولا راغية، وإني قد وليت وإني أكثر العرب بعيراً وشاة فمالي اليوم شاة ولا بعير غير بعيرين لحجى، أكذلك هو؟ قالوا: اللهم نعم.

٣ ـ وقالوا كان القرآن كتباً فتركتها إلاّ واحداً ـ ألا وإن القرآن واحد جاء من عند واحد وإنما أنا في ذلك تابع لهؤلاء. أكذلك هو؟ قالوا: نعم.

٤ ـ وقالوا قد رددت الحكم، وقد سيره رسول الله ﷺ والحكم مكي سيره رسول الله ﷺ من مكة الى الطائف ثم رده رسول الله ﷺ فرسول الله سيره، ورسوله الله رده. أكذلك هو؟ قالوا: نعم.

٥ ـ وقالوا استعملت الأحداث ولم أستعمل إلاّ مجتمعاً محتملاً مرضياً، وهؤلاء أهل عملهم فسلوهم عنه، وهؤلاء أهل بلده، ولقد ولى من قبلي أحدث

منهم وقيل في ذلك لرسول اللّه ﷺ أشد مما قيل لي في استعماله أسامة، أكذلك هو؟ قالوا: نعم.

٦ ـ وقالوا إني أعطيت ابن أبي سرح ما أفاء اللّه عليه، وإني إنما نفّلته خمس ما أفاء اللّه عليهم من الخمس وكان مائة ألف وقد نفل مثل ذلك أبو بكر وعمر فزعم الجند أنهم يكرهون ذلك فرددته عليهم وليس ذلك لهم، أكذلك هو؟ قالوا: نعم.

٧ ـ وقالوا إني أحب أهل بيتي، وأعطيهم، أما حبي فإنهم لم يمل معهم على جور بل أحمل الحقوق عليهم، وأما إعطاؤهم: فإني إنما أعطيهم من مالي ولا أستحلُّ أموال المسلمين لنفسي ولا لأحد من الناس، ولقد كنت أعطى العطية الكبيرة الرغيبة من صلب مالي أزمان رسول اللّه ﷺ وأبي بكر وعمر وأنا يومئذ حريص شحيح، أفحين أتيت على أسنان أهل بيتي وفني عمري وودعت الذي لي في أهلي قال الملحدون ما قالوا؟ وإني واللّه ما حملت على مصر من الأمصار فضلاً فيجوز ذلك لمن قاله، ولقد رددته عليهم وما قدم على إلا الأخماس، ولا يحل لي منها شيء فولى المسلمون وضعها في أهلها دوني ولا نفلت من مال اللّه بفلس منها فما فوقه وما أتبلغ منه ما آكل إلاّ من مالي.

٨ ـ وقالوا أعطيت الأرض رجالاً وأن هذه الأرضين شاركهم فيها المهاجرون والأنصار أيام افتتحت فمن أقام بمكان من هذه الفتوح فهوأسوة أهله ومن رجع الى أهله لم يذهب ذلك ما حوى اللّه له، فنظرت في الذي يصيبهم مما أفاء اللّه عليهم فبعته لهم بأمرهم من رجال أهل عقار ببلاد العرب فنقلت إليهم نصيبهم فهو في أيديهم دوني، وكان عثمان قد قسم ماله وأرضه في بني أمية وجعل ولده كبعض من يعطي فيه، فبدأ ببني أبي العاص فأعطى آل الحكم رجالهم عشرة آلاف فأخذوا مائة ألف وأعطى بني عثمان مثل ذلك وقسم في بني العاص وفي بني العيص وفي بني حرب.

ولانت حاشية عثمان لأولئك الطوائف الذين خرجوا للكيد له وأبى

المسلمـون إلا قتلهم وأبى هو إلا العفـو والصفح عنهم فـرجعوا الى بـلادهم على الأمر الذي خرجوا به.

ظن عثمان أن ما أدلى به من الحجج قـد أصاب من نفـوسهم، وأن عفوه عنهم يطفيء جمرة اضـطغانهم عليـه فاكتفى بمـا قال، ولكن القـوم تواعـدوا على الشخوص إلى المدينة في شوال سنة ٣٥ لانفاذ ما اعتزموا عليه من محاصرة عثمان وخلعه أو قتله إن أبى فخرج أهـل مصر في أربع رفـاق عليهم أربعة أمـراء المقل يقـول ستمائـة والمكثر يقـول ألف. وقادتهم هم عبـد الرحمن بن عـديس البلوي وكنانة بن بشر الليثي وسودان بن حمران السكوني وقتيرة السكـوني، وعلى القـوم جميعاً الغافقي بن حـرب العكي، وأشفقوا أن يعلمـوا الناس بخروجهم للشغب والحرب، وإنما خرجوا كالحجاج ومعهم ابن السوداء، ولو أتيح للقوم رجـل يقرأ ما في الضمير لقرأ لهم آيات الفرح والسرور الذي لا يعادله سرور أحـد في العالم واضحة على صفحات قلب ابن السـوداء الذي استـطاع أن يسخر هؤلاء القـوم لتنفيذ مآربه في أئمة الإسلام والكيد لدينهم، وقد تسنى له أن يشغل القلوب في الأمصار المترامية وفي مدينة الرسول وهو جالس في مصر.

يـدبـر الشر مـن مصر الى يمـن — إلى العراق فأرض الـروم فالنـوب

والـذي أعتقده أنـه قد كـان داعية جيعـة تمده وتؤازره وتعينـه قد اختارته لتنفيذ مآربها في الإسلام لتفسد ما تقدر عليه كما أفسد بولس دين المسيح.

وخرج أهل الكـوفة في أربـع فرق وقـادتهم: زيد بن صـوحان العبـدي، والأشتر النخعي، وزياد بن النضر الحـارثي، وعبد اللّٰه بن الأصم العـامري من عامر بن صعصعة وعددهم كعدد أهل مصر وعليهم جميعاً عامر بن الأصم.

وخـرج أهل البصـرة في أربـع فـرق، وقـادتهم: حُكيم بن جبلة العبـدي وذريـح بن عبـادة العبـدي وبشر بن شـريـح القيسي وابن المحـرش الحنفي، وعددهم كعدد أهل مصر وأميرهم جميعاً حرقوص بن زهير السعدي.

وكانت أهواء أهل الأمصار الثلاث مختلفة غير متفقة، فأما أهل مصر فإنهم كانوا يشتهون عليًّا لما بثه فيهم ابن السوداء ومحمد بن أبي بكر فإنه كان ربيباً لعلي تزوج أمه بعد أبي بكر وحدب عليه، وقد وافقه على ذلك محمد بن أبي حذيفة، وأما أهل البصرة فإنهم كانوا يشتهون أن يكون الخليفة طلحة بن عبيد الله، وأهل الكوفة كان هواهم في الزبير بن العوام فخرجوا وهم على الخروج جميع وفي الأهواء شتى وكل فرقة لا يشك أحد منها في أن الفلج في جانبها وأن أمرها سيتم دون الآخرين، وصار كل فريق حتى إذا كانوا من المدينة على ثلاث تقدم ناس من أهل البصرة فنزلوا ذا خشب، وتقدم ناس من أهل الكوفة فنزلوا الأعوص وجاءهم ناس من أهل مصر وتركوا عامتهم بذي المروة، ومشى فيما بين أهل مصر وأهل البصرة زياد بن النضر وعبد الله بن الأصم، وقالا: لا تعجلوا ولا تعجلونا حتى ندخل لكم المدينة ونرتاد، فإنه قد بلغنا أنهم قد عسكروا لنا، فوالله إن كان أهل المدينة قد خافونا واستحلوا قتالنا ولم يعلموا علمنا فهم إذا علموا علمنا أشد وإن أمرنا هذا لباطل. وإن لم يستعدوا لنا ولم يستحلوا قتالنا ووجدنا ما بلغنا باطلاً لنرجعن إليكم بالخبر.

فدخل الرجلان فلقيا أزواج النبي ﷺ وعليًّا وطلحة والزبير وقالا: إنما نأتم هذا البيت ونستعفي هذا الوالي من بعض عمالنا ما جئنا الا لذلك واستأذناهم للناس في الدخول فكلهم أبي وقال بيض ما يفرخن، وهذا ما آخذه أمارة علي وهن عثمان واقتطاع الناس الأمر دونه إذ يطلب الإذن من غيره بدخول المدينة ولو كان عمر ما قدر أحد منه على مثل ذلك.

رجع الرجلان إلى القوم فأتى من مصر نفر فأتوا علياً ومن أهل البصرة نفر فأتوا طلحة ومن أهل الكوفة نفر فأتوا الزبير وقال كل فريق منهم إن بايعوا صاحبنا وإلا كدناهم ومزقنا جماعتهم ثم كررنا حتى نبغتهم فجاء المصريون الى علي وعرضوا له بالأمر فانتهرهم وطردهم وكذلك فعل الزبير مع أهل الكوفة وطلحة مع أهل البصرة وأغلظوا لهم في القول، وكان كل من علي والزبير قد

سرح ابنه الى عثمان، وطلحة قد سرح ابنيه كذلك.

خرج القوم بعد سوء الرد من علي وطلحة والزبير وأروهم أنهم راجعون حتى انتهوا الى عساكرهم على ثلاث مراحل من المدينة كي يفترق أهل المدينة ثم يكروا راجعين. فلما افترق أهل المدينة لرجوعهم وظنوا أن الأمر قد انتهى. لم يفجأ أهل المدينة إلّا بالقوم يكبرون في نواحيها، قد كروا عليهم فبغتوهم فنزلوا مواضع عساكرهم وأحاطوا بعثمان وقالوا من كف يده فهو آمن، فلزم الناس بيوتهم.

جاء علي الى أهل مصر فقال: ما ردّكم إلينا؟ فقالوا أخذنا مع بريد كتاباً بقتلنا، وقال أهل البصرة لطلحة مثل ذلك، أي أن أهل مصر قد أخذوا بريداً بقتلهم، وكذلك أهل الكوفة للزبير، وقال أهل الكوفة وأهل البصرة: جئنا ننصر اخواننا ونمنعهم جميعاً. فقال علي: كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقى أهل مصر وقد سرتم مراحل، ثم طويتم نحونا؟ هذا والله أمر أبرم بالمدينة، فقالوا: ضعوه كيف شئتم لا حاجة لنا في هذا الرجل ليعتزلنا.

وكان عثمان في ذلك الوقت يخرج إليهم ويصلي بهم ويصلون خلفه ولا يمنعون أحداً من الاجتماع به ولا يمنعون أحداً من الكلام، ولكنهم كانوا يسيرون زمراً أشبه بالدوريات في طرق المدينة يمنعون الناس من الاجتماع.

وكتب عثمان الى الأمصار يستمدهم (بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فإن الله عز وجل بعث محمداً بالحق بشيراً ونذيراً فبلغ عن الله ما أمر به ثم مضى وقد قضى الذي عليه وخلف فينا كتابه فيه حلاله وحرامه وبيان الأمور التي قدر فأمضاها على ما أحب العباد وكرهوا فكان الخليفة أبو بكر رضي الله عنه وعمر رضي الله عنه، ثم أدخلت في الشورى عن غير علم ولا مسألة عن ملأ من الأمة، ثم أجمع أهل الشورى عن ملأ منهم ومن الناس على غير طلب مني ولا محبة فعملت فيهم بما يعرفون ولا ينكرون تابعاً غير مستتبع متبعاً غير مبتدع مقتدياً غير متكلف، فلما انتهت الأمور وانتكث الشر بأهله بدت ضغائن وأهواء

على غير إجرام ولا ترة فيما مضى إلا إمضاء الكتـاب، فطلبـوا أمراً وأعلنـوا غيره بغير حجة ولا عذر، فعابوا عليّ أشياء مما كانوا يرضون وأشياء عن ملأ من أهـل المـدينة لا يصلح غيـرها فصبـرت لهم نفسي وكففتها عنهم منـذ سنـين وأنـا أرى وأسمع، فازدادوا على اللّه عز وجل جرأة حتى أغاروا علينا في جـوار رسول اللّه ﷺ وحرمه وأرض الهجرة وثابت إليهم الأعراب فهم كالأحزاب أيام الأحزاب أو من غزانا بأحد إلا ما يظهرون، فمن قدر على اللحاق بنا فليلحق).

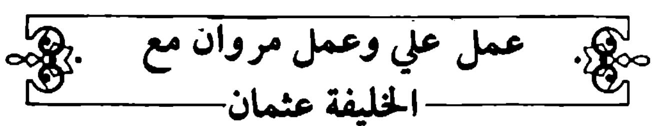
أتى الكتاب أهل الأمصار فخرجوا على الصعبة والذلول، فأرسـل معاويـة ابن أبي سفيـان حبيب بن سلمة الفهـري بعـد تـريث، وبعث عبـد اللّه بن أبي سرح من مصر معاويـة بن حديـج السكوني وخـرج من أهل الكـوفة القعقاع بن عمـرو وقام في كـل بلد محضضون يحضـون الناس عـلى إغاثـة أهل المـدينـة من أصحاب رسول اللّه ﷺ والتابعين لهم بإحسان غـير أن هؤلاء المغيثين لم يـدركوا لأن الغزاة أنفذوا أمرهم قبل الغوث.

جاء القوم الى علي وقالوا له: إن اللّه قد أحل لنا دم هذا الرجل، قم معنا إليه فقال: واللّه لا أقوم معكم، قالوا فلم كتبت إلينا، فقال علي: واللّه ما كتبت إليكم كتاباً قط فنظر بعضهم الى بعض.

والذي يظهر من ذلك، أن من كان بالمدينة ردءاً لأهل الفتنة كانوا يكتبون الى أهل مصر بأن عليًّا معهم في الرأي وأن التدبير بإذنه وعلمـه فكان المفسـدون يتذرعون باسمه لتهييـج الناس وإشعـال قلوبهم بالحمـاسة فيـما هم بصدده، ولا يبعد أن تكون الكتب ترسل باسمه الى مصر ولا يعلم.

وقد كان عمرو بن العاص بالمدينـة يؤلب على عثمـان، وقد جـاءت رواية عنـه أنه كـان يؤلب عليه حتى الـراعي في غنمـه في رأس الجبـل، فلما كـان أول الحصـار خرج من المـدينة الى فلسـطين في ناحيـة النسبـع حتى جـاءه خبـر قتـل عثمان.

دخل المصريون على عثمان ومعهم الكتاب الذي زعموا أن فيه قتلهم، فقالوا: كتبت فينا بكذا وكذا فقال: إنما هما اثنتان: أن تقيموا على رجلين من المسلمين أو يميني بالله الذي لا اله إلا هو ما كتبت ولا أمللت ولاعلمت، وقد علمون أن الكتاب يكتب على لسان الرجل وقد ينقش الخاتم على الخاتم، فقالوا قد والله أحل الله لنا دمك ونقضت العهد والميثاق.



عمل علي وعمل مروان مع الخليفة عثمان

كان لما جاء القوم لأول مرة وخشى عثمان شرهم شاع أنهم يريدون قتل عثمان إن لم ينزع. فجاء إلى علي بن أبي طالب فقال: يا ابن عم، إنه ليس لي مترّك وإن قرابتي قريبة ولي حق عظيم عليك وقد جاء ما ترى من هؤلاء القوم وهم مصبحي وأنا أعلم أن لك عند الناس قدراً وأنهم يسمعون منك فأنا أحب أن تركب إليهم وتردهم عني فإني لا أحب أن يدخلوا، فإن ذلك جرأة منهم على ويسمع بذلك غيرهم، فقال علي: علام أردهم؟ فقال: على أن أصير الى ما أشرت به عليّ ورأيته لي، ولست أخرج من يديك، فقال علي: إني كلمتك مرة بعد مرة ونقول وتقول وكل ذلك فعل مروان وسعيد وابن عامر ومعاوية أطعتهم وعصيتني، قال فإني أعصيهم وأطيعك. فركب علي وركب معه المهاجرون والأنصار وما زالوا بالقوم حيت رجعوا كما قدمنا وأبي عمار أن يخرج مع من خرج، فلما رجع القوم عاد علي الى عثمان وكلمه كلاماً في نفسه وقال له تكلم كلاماً يقره الناس منك ويشهدون عليه ويشهد الله على ما في قلبك من النزوع والإنابة فإن البلاد قد تمخضت عليك فلا آمن ركباً آخرين يقدمون من الكوفة فتقول يا علي اركب إليهم ولا أقدر أن أركب إليهم ولا أسمع عذراً، ويقدم آخرون من البصرة إلخ، فإن لم أفعل رأيتني قد قطعت رحمك واستخففت بحقك.

فخرج عثمان فخطب خطبة نزع فيها وأعطى الناس من نفسه التوبة فقال:

أما بعد أيها الناس فوالله ما عاب من عاب منكم شيئاً أجهله وما جئت شيئاً إلا وأنا أعرفه ولكن منتني نفسي وكذبتني وضل عني رشدي. ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول من زل فليتب ومن أخطأ فليتب ولا يتمادى في الهلكة أن من تمادى في الجور كان أبعد من الطريق، فأنا أول من اتعظ. استغفر الله مما فعلت وأتوب إليه، فمثلي نزع وتاب فإذا نزلت فليأتني أشرافكم فليروني رأيهم فوالله لئن ردني الحق عبداً لأستنن بسنة العبد ولأذلن ذل العبد ولأكونن كالمرقوق، إن ملك صبر وإن أعتق شكر وما عن الله مذهب إلا إليه. فلا يعجزن عنكم خياركم أن يدنوا إليّ لئن أبت يمين لتتابعن شمالي ـ فرق الناس له وبكوا ـ فلما نزل وجد في منزله مروان وسعيداً ونفراً من بني أمية ولم يكونوا شهدوا الخطبة: فقال مروان يا أمير المؤمنين أتكلم أو أسكت؟ فقالت نائلة زوج عثمان بل أسكت فإنهم والله قاتلوه ومؤثموه إنه قد قال مقالة لا ينبغي أن ينزع عنها. فقال عثمان تكلم. فقال مروان بأبي أنت وأمي لوددت أن مقالتك هذه كانت وأنت ممتنع منيع فكنت أول من رضي بها وأعان عليها ولكنك قلت ما قلت حين بلغ الحزام الطبيين وخلف السيل الزبي وحين أعطى الخطة الذليلة الذليل. والله لإقامة على معصية تستغفر الله منها أجمل من توبة تخوف عليها وإنك إن شئت تقربت بالتوبة ولم تقرر بالخطيئة وقد اجتمع إليك على الباب أمثال الجبال من الناس، فقال عثمان أخرج إليهم فكلمهم فإني أستحي أن أكلمهم.

عند ذلك خرج مروان الى الباب فقال ما شأنكم، قد اجتمعتم كأنكم قد جئتم لنهب؟ شاهت الوجوه. كل إنسان أخذ باذن صاحبه إلاّ من أريد، جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا؟ اخرجوا عنا. أما والله لئن رمتمونا ليمرن عليكم منا أمر لا يسركم ولا تحمدون غب رأيكم، ارجعوا إلى منازلكم فإنا والله ما نحن بمغلوبين على ما في أيدينا.

سمع الناس ذلك فرجعوا وذهب بعضهم الى علي وأخبره الخبر فجاءة مغضباً حتى دخل على عثمان فقال: أما رضيت من مروان وَلا رَضي منك إلاّ

بتحرّفك عن دينك وعن عقلك مثل جمل الظعينة يقاد حيث يصار به، والله ما مروان بذي رأي في دينه ولا في نفسه، وآيمُ اللّه لأراه سيوردك ثم لا يصدرك وما أنا بعائد بعد مقامي هذا لمعاتبتك، أذهبت شرفك وغلبت على أمرك فلما خرج علي دخلت على عثمان نائلة زوجة فقالت أتكلم أو أسكت؟ قال بل تكلمي، فقالت قد سمعت قول علي لك وإنه ليس يعودك وقد أطعت مروان يقودك حيث يشاء قال فما أصنع؟ قالت تتقي اللّه وحده لا شريك له وتتبع سنن صاحبيك من قبلك، فإنك متى أطعت مروان قتلك ومروان ليس له عند الناس قدر ولا هيبة ولا محبة وإنما تركك الناس لمكان مروان فأرسل الى علي فاستصلحه فإن له قرابة منك وهو لا يعصي ـ فأرسل عثمان إلى علي فأبى أن يأتيه وقال: قد أعلمته إني لست بعائد ـ وبلغ مروان مقالة نائلة فيه، فجاء إلى عثمان وقال ـ بعد أن أذن له إن بنت الفرافصة ـ فقال عثمان إلاّ تذكرنها بحرف فأسوء لك وجهك فهي واللّه ـ أنصح منك ـ وخرج عثمان بعد ذلك حتى أتى عليًّا وسأله أن يؤازره ولا يخذله لما له من حق القرابة والنصرة فأبى عليه على ذلك وذكره بما كان منه من عصيانه والإصغاء إلى مشورة مروان فقام عنه عثمان منكراً يقول: خذلتني وقطعت رحمي.

وقد قدمنا أن العائدين من أهل الشغب من الأمصار الثلاث لما عادوا دخل المصريون المدينة وغلبوا أهلها على أمرهم وكان عثمان يخرج من بيته فيصلي بهم لا يمنعونه ذلك ـ فلما جاءت الجمعة بعد دخولهم المدينة ودخول المصريين بها خرج عثمان فصلى بالناس وكأني به في ذلك الوقت قد أراد أن يظهر من الضعف قوة ومن الوهن جلداً ليقذف الرعب في قلوب المشاغبين فقام على المنبر وقال يا هؤلاء العدى، اللّه اللّه. فواللّه إن أهل المدينة ليعلمون أنكم ملعونون على لسان محمد ﷺ فامحوا الخطايا بالصواب فإن اللّه عز وجل لا يمحو السيء إلا بالحسن، فقام محمد بن مسلمة فقال أنا أشهد بذلك ـ فأخذه حُكَيْم بن جبلة فأقعده. فقام زيد بن ثابت فقال أبغني الكتاب، فسار إليه من ناحية أخرى

محمد بن أبي قتيرة فأقعده وقال فأفظع، وثار القوم بأجمعهم فحصبوا الناس وحصبوا عثمان حتى صرعوه عن المنبر مغشياً عليه فاحتمل حتى أدخل داره، وكان المصريون لا يطمعون في أحد من أهل المدينة أن يساعدهم إلاّ في ثلاثة نفر وهم محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة وعمار بن ياسر، وشمر ناس من المسلمين فاستقتلوا منهم سعد بن مالك وأبو هريرة وزيد بن ثابت والحسن بن علي فأرسل إليهم عثمان بعزمه لما انصرفوا، فانصرفوا، وأقبل علي، حتى دخل على عثمان يعوده من صرعته، وفعل مثل ذلك طلحة والزبير.

ومكث عثمان يصلي بهم إلى عشرين يوماً من نزوله عن المنبر في رواية الحسن، وإلى ثلاثين يوماً على رواية سيف عن مشايخه ثم إنهم منعوه الصلاة فصلى بالناس أميرهم الغافقي. دان له المصريون والكوفيون والبصريون وتفرق أهل المدينة في حيطانهم ولزموا بيوتهم لا يخرج أحد إلا وعليه سيفه يمتنع به من رهق القوم وكان الحصار أربعين يوماً. وفيهن كان القتل ومن تعرض لهم وضعوا فيه السلاح وكانوا قبل ذلك ثلاثين يوماً يكفون.

من ذلك كله نجد أن عثمان كان في أخريات أيامه كالميت في يد الغاسل بين يدي مروان وبطانته من بين أمية. فكان إذا أعطى الناس من نفسه ووعدهم بالإقلاع عما نقموا منه والنزول عندما أحبوا وعاد إلى بيته، فتله مروان في الذروة والغارب حتى يرده عما بسط آمالهم فيه وقبض يده عما بذل لهم من المعدله وإزاحة العلل، وكان بنو أمية ومنهم مروان يثقون بالمغيثة من الأمصار ويريدونه على مطاولة القوم حتى يأتي المغيثون ويستأصلوا أهل الفتنة ويلتمسون الوسائل للمطاولة جهد استطاعتهم، وكان استبطانه لهؤلاء الرهط من بني أبيه يثير عليه النفوس ويزيد في الاضطغان عليه، فكان على الحقيقة موجوداً بين عدوين: عدو داخلي يدفعه إلى المكاره وركوب المركب الخشن بغير رفق ولا شفقة وعدو خارجي لا يرضى منه بالمعاذير ولا يقنعه إلا نفض يده من الخلافة وتركها شورى بين المسلمين ليختاروا لأمرهم

من أحبوا ـ أو أن يسلم إليهم بعض بطانته وخلصائه من ذوي قرابته ليشتفوا منه بالجزاء الذي يستحقونه على جناية يزعمون أنها وقعت من ذلك البعض ـ وهو مروان بن الحكم ـ يزعمون أنه افتعل كتاباً من عثمان الى عبد اللّه بن أبي سرح يأمره بضرب بعض رؤساء المصريين أو جلدهم والتمثيل بهم وفي ذلك هلاك مروان إذا استمكنوا منه والثالثة دمه يريقونه.

وكان بنو أمية يرون الشر مقبلاً عليهم ونازلاً بهم والموت يرقب شيخهم مصحبه وممساه وأهل الفتنة غير تاركيه وأهل المدينة بين مؤلب وساكت وخاذل وهم مع ذلك لا تأخذهم الرأفة بهذا الشيخ الفاني ولا يريدونه على استبقاء حياته والعمل لما فيه حقن دمه، مع توفر الذرائع وإمكان الوسائل لو أرادوها، ولعل ذلك كان ضعفاً في الرأي واغتراراً باسم الخلافة وما كان له من الروعة والحرمة في سالف الزمن، غافلين عن أن اسم الخلافة في أخريات أيام عثمان صار حامله من المهانة والذلة بحيث لا يدفع عن نفسه ولا يقوم بالذب عنه أحد، ومن الخذلان الاغترار بذلك بعد أن يصرع الخليفة عن منبر رسول اللّه بأيدي الغوغاء والمفتونين ولا يغير ذلك المهاجرون والأنصار.

الحصار وما كان في أيامه

لا شبهة في أن الحاصرين ما كانوا يريدون في بدء أمرهم من عثمان سوى أن ينزع من الخلافة يده لتفضي بعد ذلك الى من يريدون، ولو أن عثمان طابت نفسه ببغيتهم لانصرفوا إلى أمصارهم مغتبطين بما أدركوا ـ ولعلهم كانوا لا يتوقعون من عثمان الاستمساك بالأمر الى الحد الذي انتهى إليه ـ ولعلهم كانوا يظنون أيضاً أن أعلام أصحاب رسول اللّه بالمدينة كانوا يبادرون الى حسم مادة الفتنة بحمل عثمان على الخروج من الأمر تلافياً للفرقة وتحاشياً من سفك الدماء، فكان الأمر على غير ما قدروا وطالت مدة الحصار.

إن أمور الفتن إذا دُبرت لا يجهر مدبروها بأسرارهم ولا يذيعونها على

الجمهـور وهم في الغـالب يستـرون مـا أجنّـوا ويغشـون الـدعـوة بغشـاء جميـل والمصريون الـذين دبروا هـذا الشغب، وكذلـك بقية أهـل الأمصار، قـد ألبسوا دعوتهم لباس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو أمر يلذ سماعه لأهل التقوى وتُسْتَفَز به قلوب أهل الصلاح وهم في الغالب أهل طهارة أخلاق وسلامة ضمير فيندفع كثير منهم في غمار النـاس ولا قصد لهم إلاّ التعـاون على البـر والتقوى، ومن هذا القبيل كان بعض أصحاب رسول اللّه ﷺ في جمع المصريين مثـل عمرو ابن بديل بن ورقاء الخزاعي صـاحب رسول اللّه ﷺ، فلما نـزل القوم ذا خشب في قدمتهم الأولى كان فيما كتبوا به الى عثمان:

« **بسم اللّه الرحمن الرحيم**. أما بعد، فاعلم أن اللّه لا يغير ما بقوم حتـى يغيروا ما بأنفسهم، فاللّه اللّه ثم اللّه اللّه. فـإنك عـلى دنيا فـاستتم إليها معهـا آخرة ولا تَلْبِسْ نصيبك من الآخـرة فلا تسـوغ لك الـدنيا. واعلم واللّه أنـا للّه نغضب وفي اللّه نرضى وأنا لن نضـع سيوفنـا عن عواتقنـا حتى تأتينـا منك تـوبة مصرحة أو ضلالة مُجَلحة مبلحة فهذه مقالتنا لك وقضيتنـا إليك، واللّه عـذيرنـا منك، والسلام ».

وقد علمنا أن القـوم حين ردوا إلى أمصـارهم عادوا إلى المـدينة عـلى حين غفلة من أهله وقـد ذكر صـاحب أشهر مشـاهير الإسـلام وغيره أن المصـريين زعموا أن عبد اللّه بن سعـد كان قـد ضرب رجـلاً ممن كانـوا شكوه إلى عثمـان حتى قتله. فلما جـاءوا في قـدمتهم الأولى شكـوا ذلـك الى عثمـان وإلى أعـلام أصحاب رسول اللّه ﷺ وأزواجه أمهات المؤمنين وقد ألحوا على عثمان بإنصافهم فقال: اختاروا رجلاً أُوَلِّهِ مصر عوضاً عن عبد اللّه بن سعد فـاختاروا محمـد بن أبي بكر فولاه عثمان مصر كما طلبوا فلما خرج علي بن ابي طالب ومحمد بن مسلمة وغيرهم من أصحاب رسول اللّه ﷺ من المهـاجرين والأنصـار لرد أهـلَ الأمصار إلى أمصارهم بالوعد من الخليفة أن يفعل ما يحبون ويرجع عما يكرهون سار جمعهم ثلاثاً ثم كروا راجعـين إلى المدينـة محتجين بـأنهم (المصريـين) أخذوا

بريداً الى عبد اللّه بن أبي سرح بقتلهم أو جلدهم الى آخر ما ذكروا، وإن البريد علام عثمان على جمله وإن الخط خط كاتبه وإن الختم ختمه وإنه بذلك قد أحل لهم دمه وإن أهل البصرة قد رجعوا لنصرة إخوانهم المصريين ومنعهم وشد أزرهم.

وإذا صحت هذه الرواية وأنهم وجدوا البريد على الصفة التي قالوا، فإني لا أستبعد أن يكون مدبروا الفتنة من المصريين قد وجدوا في أثناء مقامهم بالمدينة من يستدخلونه على بطانة عثمان بن عفان ويتدسس لهم حتى كتبوا هذا الخطاب وأبردوا به البريد، وعلم كل هذه الحركات والسكنات كان عندهم وسر ذلك عند إخوانهم من أهل المصرين فلما تلقفوا الكتاب الذي دبروه عادوا وفي أيديهم حجة قوية تبرر ما يطلبون ويتقنون بها لوم اللائمين.

قال الطبري في رواية: وكتب أهل المدينة الى عثمان يدعونه الى التوبة ويحتجون ويقسمون له باللّه لا يمسكون عنه أبداً حتى يقتلوه أو يعطيهم ما لزمه من حق اللّه، فلما خاف القتل شاور نصحاءه وأهل بيته. فقال لهم: قد صنع ما قد رأيتم، فما المخرج؟ فأشار عليه أن يرسل الى علي بن أبي طالب فيطلب إليه أن يردهم عنه ويعطيهم ما يرضيهم ليرضيهم حتى تأتيه أمداده. فقال: إن القوم لن يقبلوا التعليل - وهي محملي - وقد كان مني في قدمتهم الأولى ما كان فمتى أعطهم ذلك يسألوني الوفاء به. فقال مروان: يا أمير المؤمنين مقاربتهم حتى تقوى أمثل من مكاثرتهم على القرب. فأعطهم ما سألوك وطاولهم ما طاولوك فإنهم بغوا عليك فلا عهد لهم.

أرسل عثمان بعد ذلك الى علي. فلما جاء قال: يا أبا الحسن، إنه قد كان من الناس ما قد رأيت وكان مني ما قد علمت ولست آمنهم على قتلي فارددهم عني فإن لهم اللّه عز وجل أن أعتبهم من كل ما يكرهون وأن أعطيهم الحق من نفسي ومن غيري وإن كان في ذلك سفك دمي. فقال له علي: الناس إلى عدلك أحوج منهم إلى قتلك وإني أرى قوماً لا يرضون إلا بالرضى. وقد كنت أعطيتهم

في قدمتهم الأولى لترجعن عن جميع ما نقموا فرددتم عنك ثم لم تف لهم بشيء من ذلك. فلا تغرني هذه المرة من شيء فإني معطيهم عليك الحق. قال: نعم، فأعطهم فوالله لأفين لهم، فخرج علي إلى الناس فقال: أيها الناس، إنكم إنما طلبتم الحق فقد أعطيتموه. إن عثمان قد زعم أنه منصفكم من نفسه ومن غيره وراجع عن جميع ما تكرهون، فاقبلوا منه ووكدوا عليه، فقال الناس قد قبلنا فاستوثق منه لنا فإنا والله لا نرضى بقول دون فعل، فقال: ذلك لكم، ثم دخل عليه فأخبره. فقال: اضرب بيني وبينهم أجلاً يكون لي فيه مهلة، فإني لا أقدر على رد ما كرهوا في يوم واحد، فقال علي: ما حضر بالمدينة فلا أجل فيه وما غاب فأجله وصول أمرك، قال: نعم ولكن أجلني فيما بالمدينة ثلاثة أيام. قال علي: نعم، وخرج الى الناس فأخبرهم بذلك، وكتب بينهم وبين عثمان كتاباً أجله فيه ثلاثاً على أن يرد كل مظلمة ويعزل كل عامل كرهوه ثم أخذ عليه في الكتاب أعظم ما أخذ الله على أحد من خلقه من عهد وميثاق وأشهد عليه ناساً من وجوه المهاجرين والأنصار.

فكف القوم عنه ورجعوا إلى أن يفي لهم بما أعطاهم من نفسه. وجعل يتأهب للقتال ويستعد بالسلاح وكان قد اتخذ جنداً من رقيق الخمس. وخرج عمرو بن حزم الأنصاري حتى أتى المصريين وهم بذي خُشُب حتى قدموا المدينة. فأرسلوا إلى عثمان: ألم نفارقك على أنك زعمت أنك تائب من أحداثك وراجع عما كرهنا منك وأعطيتنا على ذلك عهد الله وميثاقه؟ قال: بلى، أنا على ذلك. قالوا: فما هذا الكتاب الذي وجدنا مع رسولك وكتبت به الى عاملك؟ قال: ما فعلت ولا علم لي بما تقولون. قالوا: بريدك على جملك وكتاب كاتبك عليه خاتمك، فقال: أما الجمل فمسروق وقد يشبه الخط الخط والخاتم ينقش على الخاتم، قالوا: فإنا لا نعجل عليك وإن كنا قد اتهمناك. فاعزل عنا عمالك الفساق واستعمل علينا من لا يتهم على دمائنا وأموالنا واردد علينا مظالمنا، فقال عثمان: ما أراني إذاً في شيء

إن كنت أستعمل من هويتم وأعزل من كرهتم، الأمر إذاً أمركم. قالوا: والله لتفعلن أو لتعزلن أو لتقتلن، فانظر لنفسك أو دع. فقال: لم أكن لأخلع سربالاً سربلنيه الله. ا هـ.

والظاهر أن اختلاف القوم إليه وعرضهم المطالب عليه في مدة الحصار كان كثيراً، وكذلك اختلاف الصحابة وإعلامهم إليه وعرضهم مطالب القوم عليه والأخذ والرد في ذلك كان كثيراً متكرراً. دعا عثمان في تلك المدة بالأشتر فقال: يا أشتر ما يريد الناس مني؟ قال: ثلاثاً ليس من إحداهن بد. قال ما هن؟ قال يخيرونك بين أن تخلع لهم أمرهم فتقول هذا أمركم فاختاروا له من شئتم، وبين أن تقص من نفسك، فإن أبيت فإن القوم قاتلوك، فقال: أما من إحداهن بد؟ قال: ما من إحداهن بد فقال: والله لأن أقدم فتضرب عنقي أحب إلي من أن أخلع قميصاً قمصنيه الله وأترك أمة محمد يعدو بعضها على بعض. وأما أن أقص من نفسي، فوالله لقد علمت أن صاحبي بين يدي كانا يعاقبان، وما يقوم بدني بالقصاص. وإما أن تقتلوني. فوالله لئن قتلتموني لا تحابون بعدي أبداً، ولا تُصلون جميعاً أبداً، ولا تقاتلون بعدي عدواً جميعاً أبداً.

كان عليٌّ حين رجع الشاغبون الى المدينة وقد قال لعثمان وقال له، تبرم عثمان بمكانه، فخرج علي من المدينة الى خيبر فأقام بها، فلما رأى عثمان شده القوم عليه وعجز بني أمية عن مدافعتهم عنه وأن أهل المدينة خاذلوه عول على استقدام علي فكتب اليه بما رواه أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، وهو «أما بعد فقد بلغ السيل الزبى وجاوز الحزام الطبيين وبلغ الأمر بي أشده» ثم تمثل بهذا البيت:

فإن كنت مأكولاً فكن خير آكل وإلا فأدركني ولما امزق

وقد رأيت لخطابه صورة أخرى وهي: «أما بعد فقد بلغ السيل الزبى، وجاوز الحزام الطبيين وارتفع أمر الناس في شأني فوق قدره. وزعموا أنهم لا يرضون دون دمي وطمع في من لا يدفع عن نفسه.

وإنـك لم يفجـر عليــك كفـاجــر ضعيف ولم يغلبــك مثــل مغلب

وقد كان يقال: أكل السبع خير من افتراس الثعلب فأقبل عليّ أوليَّ - وفي رواية فأقبل إن صديقاً كنت أو عدواً.

فـإن كنت مـأكــولاً فكن خـير آكــل وإلا فــأدركــني ولمــا أمـزق

وكان طلحة قد تألف الناس في غيبة علي، وهم يصدرون عن أمره سراً، فلما جاء عـلي وطلب إليـه صـرف النـاس عنـه. ذهب الى طلحـــة في خلوة من الناس، وقال له: يا طلحة ما هـذا الأمر الـذي وقعت فيه؟ فقـال يا أبـا الحسن بعد ما مس الحزام الطبيين. فانصرف علي إلى بيت المال وأعطى الناس فانصرفوا عن طلحة وانفضوا من حوله وسر عثمان بذلـك، وجاء طلحـة الى عثمان تـائباً فقال: واللّه ما جئت تائباً ولكن جئت مغلوباً، فاللّه حسبك يا طلحة.

اشتد الحصار عـلى عثمان حتى منعـوه الماء ولمـا أجهده العـطش أرسل الى عـلي وأزواج رسول اللّه وإلى غيـرهم فحاولت أم حبيبـة زوج رسـول أن تخلص إليه بماء فلم تقدر على ذلك. ولما سـألوهـا عن دخولهـا على عثمـان، قالت: إن وصايا بني أمية الى هذا الرجل، فـأحببت أن ألقاه فـأسألـه عن ذلك كيـلا تهلك أموال أيتام وأرامـل، فقالـوا: كاذبـة! وأهووا لهـا وقطعـوا حبل البغلة بـالسيف فندت بأم حبيبة، فتلقاها الناس وقـد مالت رحـالتها فتعلقـوا بها وأخـذوها وقـد كادت تقتل، فذهبوا بها الى بيتها. وتجهزت عائشة للحج هاربة واستتبعت أخاها فأبى، فقالت: أما واللّه لئن استطعت أن يحرمهم اللّه ما يحـاولون لأفعلن. ولام حنظلة الكاتب محمد بن أبي بكر في أن تدعوه عائشة أخته الى الحج فيـأبى ويجيب ذؤبان العرب ويتبعهم الى مـالا يحل فقـال ماأنت وذاك يـا بن التميمية. فقـال: ياابن الخثعمية إن هذا الأمر إن صار الى التغالُب غلبتـك عليه بنـو عبد منـاف، وانصرف وهو يقول.

عجبت لمـا يخوض النـاس فيـه يـرومـون الخـلافـة أن تــزولا

ولــو زالت لـزال الخـير عنهم ولاقــوا بـعــدهــا ذلاً ذليــلا
وكـانوا كـاليهـود أو النصـارى ســواء كلهم ضـلوا السبيــلا

ولحق الرجل بالكوفة، وقد كانت عائشـة ممتلئة غيـظاً على أهـل مصر[1]. وهي وإن كانت ممن يقول في عثمان وكانت تغضب لما يلقيه الشـاغبون وتـأتي به الإشاعات إلاّ أنها لم تكن تظن أن الأمر يبلغ إلى هذا الحد. وجاءها مـروان بـن الحكم فقال: يا أم المؤمنين لو أقمت كان أجدر أن يراقبوا هذاالرجـل. فقالت: أتريد أن يصنع بي كما صنع بأم حبيبة ثم لا أجد من يمنعني؟ لا واللّه، ولا أعـير ولا أدري إلى ما يسلم أمر هؤلاء.

أما علي فلما رأى عثمان قد منع من الماء فجاء الى القوم في الغلس وقـال: يـا أيها النـاس، إن الذي تصنعـون لا يشبه أمـر المؤمنين ولا أمـر الكافـرين، لا تقـطعوا عن هـذا الرجـل المادة فـإن الروم وفـارس لتأسر فتـطعم وتسقي، ومـا تعـرض لكم هذا الـرجل فيم تستحلون حصـره وقتله؟ قالـوا لا واللّه ولا نعمـة عين لا نتركه يأكل ولا يشرب فرمى على بعمـامته في الـدار ليعلم عثمان أنـه قد نهض فيها أنهضه. وقد علم طلحة والزبير بما لقى علي وأم حبيبة فلزما بيتيهـما ولم يحاولا إيصال شيء من الماء إليه.

وفي أثنـاء الحصار أرسـل عثمان عبـد اللّه بن عباس ليحـج بالنـاس. ثم أرسل إليه بكتاب يقرأ على الناس يوم الحج الأكبر يعلمهم بما هو فيه من الحصار الشديد وأن الناس يطلبون دمه ولا يرضون بدونه ويستنهض من يريد نصرته على اللحاق بالمدينة لتفريج كربه، ففعل. وجعل عثمان لا يجد إلاّ قليلاً من الماء يؤتي به إليه من دار آل حزم في غفلات، لأن القوم كانوا يرقبون دار آل حزم.

أشرف بعد ذلك عثمان عـلى الناس لـما منعوه من المـاء وسلم على النـاس فلم يردّ أحد عليه سلامـه. فقال أنشـدكم باللّـه هل تعلمـون أني اشتريت بئـر

---

(١) والذي أظنه أنها احسـت ميل بعض أهل الشغب إلى علي، فتبرمت بمكانهم كراهة لعلي.

رومة من مالي يُستعذَب بها فجعلت رشائي منها كرشاء رجل من المسلمين؟ قالوا نعم. قال فما يمنعني أن أشرب منها؟ ثم قال: أنشدكم بالله هل علمتم أني اشتريت كذا وكذا من الأرض فزدته في المسجد؟ قيل نعم. قال: فهل علمتم أحداً من الناس منع الصلاة فيه قبلي؟ ثم ذكر لهم أموراً أخرى كانت من رسول الله له فجعل الناس يقولون مهلاً عن أمير المؤمنين، وكانوا إذا سمعوا الموعظة لأول مرة رقت قلوبهم فإذا تكررت لم تكن لتوثر فيهم.

استمر الحصار مشتداً الى أن علم القوم أن الحاج كادوا يعودون ووصل إليهم فصول من فصل من أهل الأمصار لنصرة عثمان وكان أهل الشام قد أثّاقلوا قليلاً فأشفق أهل الفتنة أن يفاجأوا بالمغيثة قبل أن يخلصوا الى أمر وأيقنوا أنهم إن انصرفوا عنه دون أن يفوزوا بطلبهم فقد استهدفوا للبلاء وتعرضوا للحتوف فجدوا في أمرهم وأرادوا قتل عثمان فدافعهم من كانوا في الدار: الحسن بن علي، وعبد الله بن الزبير وابنا طلحة وغيرهم ممن وطنوا أنفسهم على نصرة عثمان. فأحرقوا باب الدار وكف عثمان من معه عن القتال وعزم على كثير منهم في الانصراف إلى بيوتهم فانصرف أكثرهم وكانت مناوشات بين بعض من في الدار وبين المشاغبين كمروان وعبد الله بن الزبير وغيرهم. وأراد القوم المعاجلة فدخلوا على عثمان من دار جيرانه آل حزم وكانوا جماعة فيهم محمد بن أبي بكر الذي تقدم إليه مريداً قتله فأمسك بلحيته يؤنبه ويحركها في يده، فذكره عثمان بأبيه وأنه ما كان أبو بكر ليجلس هذا المجلس من عثمان، فلم يصنع شيئاً، وتقدم الغافقي فضربه بحديدة كانت معه، وجاء سودان بن حمران ليضربه فأكبت عليه زوجته نائلة بنت الفرافصة واتقت السيف بيدها، فتعمدها ونفح أصابعها فأطن أصابع يدها، ثم أهوى له بعضهم فضرب عنقه ـ ثم قالوا ما كان دمه ليحل لنا دون ماله فانتهبوه وأذاعوا خبر قتله بالمدينة وكانت مدة حصاره اثنين وعشرين يوماً وكان قتله لثمان عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة ٣٥ (٢٠ مايو سنة ٦٥٦) وذلك افتتاح التاريخ المشؤوم.

هذا وقد قدمنا أن مدة الحصار كانت أكثر من هـذا، ولعل مـا هناك عـدد للحصار على عمومه، وأما عده اثنين وعشرين يوماً فهو شدة الحصار.

ما قعد بأهل المدينة عن نصر عثمان

أليس عجيباً أن يأتي جماعة من أمصار مختلفة الى عاصمة الخلافة ودار الهجرة وجوار رسول اللّه يتألبون على الخليفة ثم يحصرونه وينتهي الأمر بقتله ولا ينتطح في هذا الأمر عنزان! مع طول مدة الحصار وانفساح أجله وامتداد الـزمن واتساعه لعمل ما يمكن؟ فما الذي قعد بالمهاجين والأنصـار عن نصرتـه، والعمل على كف الأيدي عنه؟.

والذي أقوله إن عثمان قد جرأ القوم على نفسه وأطمعهم في جانبه بما كان عنده من الرأفة واللين وما رهقه من ضعف الشيخوخـة وبما كـان منه من الأمـور التي خالف بها الخليفتين قبله. ولا يجد عنها جواباً مرضياً ولا مقنعاً ـ وقد كان في مقدور المهاجرين والأنصار لو كانوا راضين عنه أن يمنعوه ممن أراده بسوء ويبددوا جموع المصريين الذين تولوا كبر هذا الحادث المشؤوم، ومـا كان المصـريون ـ وهم لا يزيدون عن ألف ـ ليعجزوا أهل المدينة ومن معهم من المهاجرين والأنصار لو كانت قلوبهم مع عثمان.

لا يعزب عنكم ما قدمته من أنه كان في المدينة قـوم يريـدون الظهـور على حسـاب الفتن والتقلبات، وآخـرون من دونهم يرون الخليفـة حائـلاً بينهم وبـين الأعمال والإمارة، ويرونه يتخطاهم بها إلى ذوي رحمه وقرابتـه ممن لم تقدمهم ولم تكن لهم سابقة ولا قدمة.

أضف الى ذلك أموراً: منهـا أن عثمان لم يستن بسنـة عمر في الاستشـارة وأخـذ رأي أعلام المهـاجرين والأنصـار في كل جليـل ودقيق من أمور المسلمـين العامة، بل كان عثمان يفضي بنصيحته واستشـارته الى بني أميـة وهم مسبوقـون

غير سابقين ويقتدي بآرائهم وينتهي الى مشورتهم. فلما رأى أعلام الصحابة وأهل الرأي أنه أخرهم وفيهم أضرابه ومن لا يرون له عليهم فضلاً، وأنهم صاروا عنده كقدح الراكب، أشفقوا أن يكون الأمر إثرة واحتكاراً وأن يجعل أمر المسلمين الى بني عمومته من بعده فاضطغنت لذلك القلوب عليه وارتخت الأيدي عن نصرته.

كان أعلام الصحابة يرون أنه يفيض الولاية على أهله دونهم ودون أبنائهم وإن تفضيل قرابته إنما كان لقرابتهم منه، ويرونه يصل رحمه على حساب المسلمين ويجعل الأمر دولة في بني أبيه. ويرون أنه يختصهم بالنفل من الأخماس ولا يفعل ذلك مع غيرهم، ويعطي مروان الآلاف من مال المسلمين ولا يفعل ذلك مع أحد سوى قرابته، وهو في كل ذلك لا يرد الأمر الى أصحاب رسول الله ﷺ وجماعة المسلمين كما كان يفعل عمر.

لهذا كله كان أهل المدينة - إلا نفراً منهم - يصيخون بآذانهم الى شكاية الشاكين وصخب الصاخبين ويميلون الى مؤازرتهم على ما يشكون منه ولا ينكرون عليهم شكواهم، وكثير منهم كانوا يقعون في عثمان وفي بني أبيه من بني أمية ويجهرون له بذلك ويتوعدونه بالنكال، وكانوا يلمزونه بالألقاب تحقيراً له فكانوا يسمونه نعثل، وهو اسم رجل قبطي طويل اللحية كان بالمدينة فكانوا يشبهون عثمان به في طول لحيته تحقيراً له.

مر عثمان على جبلة بن عمرو الساعدي وهو في نديّ قومه وفي يد جبلة جامعة فسلم فرد القوم الا جبلة، فقال جبلة: لم تردون على رجل فعل كذا وكذا، ثم قال يا نعثل والله لأقتلنك ولأحلمنك على قلوص جرباء ولأطرحن هذه الجامعة في عقنك أو لتتركن بطانتك هذه. فقال عثمان: أي بطانة؟ فوالله اني لأتخير الناس، فقال: مروان تخيرته ومعاوية تخيرته وعبد الله بن عامر تخيرته وعبد الله بن سعد تخيرته، منهم من نزل القرآن بذمه وأباح رسول الله ﷺ دمه،

فانصرف عثمان وقد اجترأ عليه الناس بعد ذلك. قال الطبري: ثم جاءه مرة أخرى وعثمان على المنبر فأنزله.

وقد خطب عثمان في بعض أيام الفتنة. فقال عمرو بن العاص: يا أمير المؤمنين إنك قد ركبت نهابير وركبنا معك فتب نتب. ثم لما كان بعد ذلك خطبَ الناس فقام إليه جهجاه الغفاري فصاح: يا عثمان إلا إن هذه شارف قد جئنا بها، عليها عباءة وجامعة فأنزل فلندرعك العباءة ولنطرحك في الجامعة ولنحملك على الشارف ولنطرحك في جبل الدخان. فقال عثمان: قبحك اللّه وقبح ما جئت به. وكان ذلك عن ملأ من الناس.

وكان الشاغبون يحتجون على عثمان بأمور ذكرنا بعضها ضمن رد عثمان ونورد هنا أشهرها مجتمعاً ليكون القاريء على ذكر منها:

١ ـ إقامة الصلاة في منى وعرفة مع أن رسول اللّه ﷺ وصاحبيه كانوا يصلونها على القصر

٢ ـ زيادة النداء الثالث على الزوراء يوم الجمعة.

٣ ـ إخراج أبي ذر من الشام والمدينة الى الزبدة

٤ ـ سقوط خاتم رسول اللّه من يده في بئر أريس.

٥ ـ إفشاؤه العمل والولايات في أهله وبني عمه من بني أمية وما كان من الوليد بن عقبة من شرب الخمر.

٦ ـ صلته لأهله وبني عمه بالأموال وإقطاعهم القطائع وحملهم على رقاب الناس.

٧ ـ استئثاره برأيه ورأيهم وترك المهاجرين والأنصار لا يستشيرهم ولا يستعملهم.

٨ ـ أنه أعطى مروان خمس غزوة إفريقية.

٩ ـ أنه وصل عبد اللّه بن خالد بن أسيد بأربعمائة ألف درهم.

١٠ ـ أنه أقطع الحارث بن الحكم موضع سوق بالمدينة كان تصدق به رسول اللّه ﷺ على المسلمين.

١١ ـ أنه أعطى أبا سفيان بن حرب مائتي ألف درهم.

١٢ ـ أنه زوج الحارث بن الحكم بنته عائشة فأعطاه مائة ألف من بيت المال.

١٣ ـ أنه حمى الحمى حول المدينة الا عن بني أمية.

١٤ ـ أنه رد الحكم بن أبي العاص طريد رسول اللّه ﷺ الى المدينة وأعطاه مائة ألف درهم.

١٥ ـ مجاوزته الخيزران الى السوط وهو أول من استعمل السوط وضرب به ظهور الناس.

١٦ ـ تطاوله في البنيان حتى عدوا سبع دور بناها بالمدينة: لنائلة زوجه دار ولعائشة بنته دار، ولغيرها من أهله وبناته كل دار.

١٧ ـ ضربه عبد اللّه بن مسعود حتى كسر ضلعاً من أضلاعه.

ولا شك في أن هذه الأمور بعضها كان يحقده عليه المهاجرون والأنصار وأهل المدينة وقد ولع به الشاغبون وأتوا الناس من الناحية التي يحبون سماع القول منها وكان ذلك سبباً لخذلان أهل المدينة إياه.

إن عثمان له عذر في كل شيء أخذوه عليه غير أن من الأعذار ما يكون وجهه واضحاً بيننا، ومنها مالا تقبله النفوس إلا على مضض وهم إنما كانوا يريدون منه في كل ما نقموا عليه أن يسير فيهم بسيرة عمر بن الخطاب وأبي بكر حتى لقد نصحته أم سلمى زوج رسول اللّه بكلام طويل فقال لها: «يا أمنا قد قلت فوعيتُ ونصحت فاستوصيتُ. إن هؤلاء النفر رعاع غثرة تطأطأت لهم

تطأطؤ الماتح الدلاء وتلددت لهم تلدد المضطر فأرانيهم الحق إخواناً وأراهموني الباطل شيطاناً. أجررت المرسون منهم رسنه وأبغلت الرائع مسقاه فانفرقوا على فرقاً ثلاثاً فصامت صمته أنفذ من صول غيره، وساع أعطاني شاهده ومنعني غائبه، ومرخص له في مده رينت على قلبه. فأنا منهم بين ألسن لداد وقلوب شداد وسيوف حداد. عذيري اللّه، ألا ينهي منهم حليم سفيها ولا عالم جاهلاً واللّه حسبي وحسبهم يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيتعذرون.

وعلى الجملة فإن قلوب أهل المدينة كانت عامرة ببغضه ولولا ذلك لوجد من يجيد الطعان، ويغضب لأمير المؤمنين أن يعتريه بالأذى هؤلاء الفجار الأشرار.

غير أن نفسي غير مطمئنة الى أن يبلغ الغيظ بأصحاب رسول اللّه من عثمان عليه أن يخلوا بينه وبين الشاغبين يريقون دمه ويتذامرون عليه بالإثم والعدوان تذامر الإيسار على الجزور. وأن الأمر لكما قال عثمان لعلي: « لولا أن الأمر أمر الجاهلية فقط ولم يكن الإسلام والأخوة لكان حقًّا عليك أن تنصرني ولا تخذلني ».

فعثمان وقع بين عوامل كثيرة:

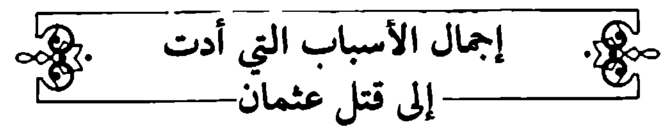
١ ـ الشاغبون وهم لا يتركون ما في رؤوسهم دون إنفاذه لأن فشلهم خطر عليهم.

٢ ـ أهل المدينة وهم بين خاذل وساكت راض وقليل منهم يؤلبون ويعاونون عليه.

٣ ـ بنو أمية وهم يريدونه على المطاولة إلى أن يصل المغيثون ويحملونه على نقض ما أبرم، وكلما رأى طريقاً للتفريج لا يحبونها حملوه على سدها.

٤ ـ عثمان بمطاوعة بطانته وإحجامه عن إعطاء القوم ما أرادوا وإبائه عن النزول عن الخلافة وإلقاء الأمر يدبرونه كما يشاءون وكان في ذلك صيانة دمه ـ

ولقد كان لـه فيما أشـار به عليـه المغيرة بن شعبـة مناص مما لقي لو قـدر اللّه له ذلك، فإن المغيرة بـن شعبة لقي عثمان وهو محصور، وقال لـه: يا أمـير المؤمنين إنك أمام العامة وقد نزل بك ما تـرى، وإني أعرض عليـك خصالاً ثـلاثاً اختـر إحداهن: إما أن تخرج فتقاتلهم فإن معك عدداً وقوة وأنت عـلى الحق وهم على الباطل. وإما أن تخرق لك باباً سوى الباب الذي هم عليه، فتقعد عـلى رواحلك فتلحق بمكـة فإنهم لن يستحلوك وأنت بهـا. وإما أن تلحق بـالشام فـإنهم أهـل الشام وفيهم معاوية. فقال عثمان: أما أن أخـرج فأقـاتل، فلن أكـون أول من خلف رسول اللّه ﷺ في أمته بسفك الدمـاء. وأما أن أخـرج الى مكة فـإنهم لن يستحلوني بها فإني سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: « يلحد رجل من قـريش بمكة يكون عليه نصف عذاب العالم » فلن أكون أنا. وأما أن ألحق بالشام فإنهم أهل الشام وفيهم معاوية. فلن أفارق دار هجرتي ومجاورة رسول اللّه ﷺ.



إجمال الأسباب التي أدت إلى قتل عثمان

بعد ذلك التمهيـد الذي قـدمناه بـين يدي قتـل الخليفة عثمـان بن عفان وشرحنا به أحوال الأمصار الإسلامية التي كانت سبيل تلك الفتنة أو كان السبئية يستنـدون الى شيء كان فيهـا، أرى أن أجمل أسبـاب قتـل عثمـان التي يمكن أن تستنتج من الحوادث والوقائع والأحوال التي قدمنا ليكون القاريء على ذكر منها.

السبب الأول من الأسبـاب التي أفضت الى قتل عثمـان اختـلاف رؤسـاء المسلمين فيما بينهم وتطلع الباقين من أهل الشورى كل ليجذب الأمر الى نفسه، واختياره عمن عداه بسبب ما وجده كل واحد منهم من شيعـة تؤيده وتحـطب في حبله وتـريده عليهـا فلم يدفعـوا عنه دفـاعاً صحيحـاً ولم يخذلـوا عنه، بـل كان الساكت منهم يقرأ القاريء في طي هذا السكـوت منه كتبـاً مطولـة ـ ولم يكونـوا على اتفاق فيما بينهم وبين عثمان ولا على اتفاق فيما بينهم وبـين بعضهم. ومعلوم أن الأمم والجماعات إنما تدار أمورهم العامة برؤوس قليلة وبقية الناس لهم تبـع

ـ فإذا لم تكن هذه الرؤوس متحدة في المبدأ والغاية صدرت الأعمال متناقضة متعاكسة بعيدة عن النفع والفلاح.

وأن اختلاف رؤساء المسلمين وعدم الاخلاص فيما بينهم هو الذي أفسح مجال الدسائس والسعايات، فإن اخلاص الرؤساء بعضهم لبعض وتعاونهم فيما بينهم على قضاء المصالح العامة يقطع على مريد السوء والفساد طريق الفتن والثورات فأما إذا انصدع الشمل وتحولت القلوب وحلت الكراهة محل المحبة والتحاسد محل التناصر، انفسح المجال لرواد الفتن ومحبي الاضطراب وعلى هذا كانت الحال في المدينة وهي حاضرة الخلافة ومجتمع رؤساء المسلمين والمرشحين منهم لولاية الأمر فإن من وقف على أحوالهم وما كان يبدو على ألسنتهم من الكلمات الشديدة المؤلمة في حق عثمان سواء في وجهه أو في غيبته يحكم صادقاً أن النفوس كانت منطوية على الضغن له. لذلك أفسحوا للأقوال في عثمان المجال ولم ينه بعضهم بعضاً عن ذلك وكان بعضهم يكاتب السبيئة وأهل الشغب ويستقدمهم الى المدينة، وما كان يليق بأمثالهم أن يجعلوا معولهم على أهل الشقاق دون الأعلام من أصحاب رسول الله الذين في الأمصار. ولكن الذين كتبوا يستقدمون أهل الشقاق إنما آثروهم لأنهم يعلمون أن أعلام أصحاب الرسول في الأمصار يكونون أكثر تثبتاً وأقل اقداماً على ما يحل، وهم وإن كانوا يكتبون في الكتب الاستغاثة بأصحاب رسول الله غير أن كتبهم إنما كانت ترد على فئة خاصة مشاقة قلما يكون فيها واحد أو اثنان من أصحاب رسول الله.

ذكر صاحب الإمامة والسياسة أن حويطب بن عبد العزى قال أرسل إليّ عثمان حين اشتد حصاره فقال: قد بدا لي أن أتهم نفسي لهؤلاء فأت عليًّا وطلحة والزبير فقل لهم هذا أمركم تولوه واصنعوا فيه ما شئتم، فخرجت حتى جئت علياً فوجدت بابه مثل الجبال من الناس والباب مغلق لا يدخل عليه أحد. ثم انصرفت فأتيت الزبير فوجدته في منزله ليس ببابه أحد فأخبرته بما

أرسلني بـه عثمان. فقـال قد والله قضى مـا عليه أمـير المؤمنين هـل جئت عليًّا؟ قلت نعم فلم أخلص إليه. فقمنا جميعـاً فأتينـا طلحة بن عبـد الله فوجـدناه في داره وعنده ابنه محمد فقصصنا عليه ما قال عثمان، فقال قد والله قضى مـا عليه أمـير المؤمنين. هـل جئتم عليًّا؟ قلنـا نعم فلم نخلص اليه، فـأرسل طلحـة الى الأشتر فأتاه فقال أخبره فأخبرته بما قال عثمان، فقال طلحة ـ وقد دمعت عيناه ـ قـد والله قضى ما عليـه أمير المؤمنـين، فقام الأشـتر فقال: تبعثـون إلينا وجـاءنا رسولكم بكتابكم وها هوذا، فأخرج كتاباً فيه:

(بسم الله الرحمن الرحيم)، من المهاجرين الأولين وبقية الشورى الى من بمصر من الصحابة والتابعين. أما بعد أن تعالوا إلينا وتداركوا خلافـة رسول الله قبل أن يسلبها أهلها. فإن كتاب الله قد بـدل وسنة رسـوله قـد غيرت وأحكـام الخليفتـين قد بـدلت فننشد الله من قـرأ كتـابنـا من بقيـة أصحـاب رسـول الله والتابعين بـإحسان إلا أقبـل إلينا وأخـذ الحق لنا وأعـطاناه فـأقبلوا إلينا إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، وأقيموا الحق على المنهاج الواضح الذي فـارقتم عليه نبيكم وفارقكم عليه الخلفاء. غلبنا على حقنا واستَولي على فيئنا وحيل بيننـا وبين أمرنا وكانت الخلافة بعد نبينا خلافـة نبوة ورحمـة وهي اليوم ملك عضـوض من غلب عـلى شيء أكله أليس هذا كتـابكم إلينا؟ وقـال الـطبـري إن عثمـان رمى بوصيته الى الزبير فأخذها وانصرف ـ وفي الزبير خلاف هل أدركـه مقتل عثمـان أو خـرج قبله ـ وقال عثمـان: يا قـوم لا يجر منكم شقـاقي أن يصيبكم مثل مـا أصاب قوم نـوح أو قوم هـود أو قوم صـالح ومـا قوم لـوط منكم ببعيدو يـا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود ـ اللهم حل بين الأحزاب وبين ما يأملون كما فعل بأشياعهم من قبل. وبعثت ليلى بنت عميس إلى محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر فقالت: إن المصباح يأكل نفسه ويضيء للنـاس. فلا تـأثما في أمر تسوقانه إلى من لا يأثم فيكما. فإن هذا الأمر الذي تحاولون اليـوم لغيركم غداً. فاتقوا الله أن يكون عملكم اليـوم حسرة عليكم. فلجـا وخرجـا مغضبين

يقـولان لا ننسى ما صنـع بنا عثمـان ـ وتقول مـاصنع بكـما إلا ما ألـزمكـما اللّه فلقيهما سعيد بن العاص وكان بينه وبين محمد بن أبي بكر شيء فـأنكر حـين لقيه خارجاً من عند ليلى فتمثل له في تلك الحال بيتاً:

استبق ودك للصـديق ولا تكن　　　فيئـاً يعض بخـاذل ملجـاجـاً

فأجابه سعيد متمثلاً:

ترون إذاً ضربـاً صميماً من الـذي　　　لـه جـانب نـاء عن الجـرم معـور

ولما قدم السابق من الحاج بسلامة الناس، أخبر أن النـاس جميعاً يـريدون المصريين وأشياعهم وأنهم يريدون أن يجمعوا ذلك الى حجهم. فلما أتاهم ذلـك مع ما بلغهم من نفور أهل الأمصار أعلقهم الشيطان. وقالوا لا يخرجنا ممـا وقعنا فيه إلا قتل هـذا الرجـل فيشتغل بـذلك النـاس عنا ولم يبق خصلة يـرجون بهـا النجـاة إلا قتله فرامـوا الباب فمنعهم من ذلـك الحسن وابن الـزبـير ومحمـد بن طلحة ومروان بن الحكم وسعيـد بن العاص ومن كـان من أبناء الصحـابة أقـام معهم واجتلدوا فنـاداهم عثمان: اللّه اللّه أنتم في حـل من نصرتي فـأبوا ففتـح البـاب وخرج ومعـه السيف والترس ليهبنهـم، فتـراجعوا وعـظم عـلى الفـريقـين وأقسم عـلى الصحابـة ليدخلن، فـأبوا أن ينصـرفوا فـدخلوا فأغلق البـاب دون المصريين. وقـد كان المغيـرة بن الأخنس بن شريق فيمن حـج ثم تعجل في نفـر حجوا معه فأدرك عثمان قبل أن يقتل وشهد المناوشة ودخل في الـدار فيمن دخل وجلس على الباب من داخل وقال: ما عذرنا عند اللّه أن تركناك ونحن نستطيع أن لا نـدعهم حتى نموت، فـاتخذ عثمـان القرآن تلك الأيـام نجيًّا يصـلي وعنده المصحف فـإذا أعيا جلس فقـرأ فيه، وكـانوا يـرون فيه القـراءة في المصحف من العبادة.

وقد أثرت كلمات في حق عثمان عن كثير من كبراء المـدينة، كـما قدمنـا، كل ذلك يقال ويفعل من غـير بيان لـلأسباب التي أدت بهم الى مثـل ذلك بيـاناً

شافياً ومن غير نظر إلى ما تحدثه كلماتهم بين العامة وبخاصة إذا صادفت آذاناً مصغية من مهيجين مثيرين.

السبب الثاني - يقول زهير بن أبي سُلمى:

ومن لم يـذُدْ عن حـوضـه بسـلاحـه يهـدَّم ومن لا يـظلم النـاس يـظلم

وقد كان عثمان رجلاً قد استولى عليه من الأخلاق الحياء واللين: أما حياؤه فكان مشهوراً به في الجاهلية والإسلام، وقد قال في حقه رسول الله ﷺ «ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة» ومعلوم أن خلق الحياء يحمل صاحبه على الأغضاء عن كثير مما يكره وأما اللين فدعاه إليه أنه يحب السلامة والعافية ويكره الفتن ويخاف أن يكون فاتح بابها على الأمة ويتشاءم من كل أمر يظنه مؤدياً إليها، وهو في كل كتبه وخطبه يحذر الناس الفتنة ويأمرهم بتوقي أسبابها وينهاهم عن التورط في حبائلها: حتى أن خطبته التي قالها على المنبر لأول مرة لم تخل عن ذكر الفتن ومغباتها وما تستعقب من وبال والتحذير من ذلك.

أما الخلق الأول وهو الحياء فدعاه الى التسامح مع ما يناله بالأذى أو يقصده بالسوء فلا يوجه الى أحد من المعتدين كلمة تسوءه لأن صاحب هذا الخلق يخجل أن ينسب إليه قبيح ولو كان دفاعاً ويحب أن يؤثر عنه الجميل من القول والعمل وكم من مرة قد جهد عثمان أن يخرج نفسه عن سيرته الأولى ليكف الناس عنه ويهابوا جانبه ولكن تأبى الطباع على الناقل، وهذا الخلق الكريم لا يحسن إلا بالمتسمتين وفلاسفة الأخلاق ومن نصبوا أنفسهم ليكونوا قدوة للناس في العفو والصفح. وأما أهل الحكم والسلطان والقول النافذ في الرعية فإنهم يحتاجون الى هيبة تملأ القلوب وتقف بالناس عند حد الإجلال لهم والإعظام لشأنهم والإكبار لمقامهم.

ولا خير في حلم إذا لم تكن له بوادر تحمي صفوه أن يكدَّرا

هذا عمر بن الخطاب - قد جاء سعد بن مالك وهو يقسم العطاء ينحى

الناس ويفرقهم حتى خلص إليه مدلاً بماله من سابقة وحسن بلاء فلم يحجز ذلك عمر أن خفقه بالدرة وقال له: جئت لاتهاب سلطان اللّه فأحببت أن أعلمك أن سلطان اللّه لا يهابك، فالسلطان أحوج الناس الى قوة تنحى عنه الضعف وتنكب به عن الذلة، وعثمان لم يكن له حظ من القوة اللائقة بسلطان الخلافة.

أما خلق اللين فقد قبض يده عن زعماء المفسدين وقادة المشاقين الذين رفعوا إليه وثبت عليهم أنهم إنما قدموا للمشاقة والفتنة فلم يتناولهم بعقاب يبين آثار ذنوبهم على صفحات جنوبهم. وقد كان في مقدوره أن يقطع أعناق الفتنة بنكالهم وقد أمكنه اللّه من نواصيهم، ولما أراد مشاورة ولاته في تلافي الخطر أشاروا عليه بما في بعضه مقنع وحسم لمادة الداء لو أخذ الأمر بالحزم ولم يمل الى جانب العجز، فلم يعبأ بالقول، ولم يفر ما خلقوا من خطة الجد. بل اختار جانب اللين خشية أن يكون فاتحاً باب الفتنة التي كان شبحها يخيفه في كل حركاته وسكناته ـ واجتزأ من نكال محركي الفتنة ومثيري عجاجها بأن احتج لنفسه وأبدى عذره في كل أمر جاءوا لاثباته عليه في حين أنهم جماعة قد بيتوا الأمر واختمر في نفوسهم زمناً. والجماعة لا يمكن أن تؤثر في نفوسهم الأقوال المعقولة والبراهين القاطعة إذ الجماعات في العين شخص أصغى عن الموعظة مصغ الى التهييج متلبب لفعل الشر، والجماعات إنما تهاب القوة وتخضع للقسر والقهر فهي معبودها الأول ودينها الذي تدين له، فما زاد عثمان الأمر باعتذاره إلّا فساداً وقوي فيهم الجرأة عليه والإقدام على مساخطه، والقوم ليسوا بطلاب حق تنفعهم الذكرى وتقيمهم الحجةُ على المحجة وإنما هم طلاب شر يتطلبون الطريق إليه كلما أعجزهم باب إلتمسوا غيره، فضعفه هو الذي جرأهم عليه.

السبب الثالث: ما خالف به عثمان صاحبه عمر في أعلام قريش: فإن عمر كان يحجر عليهم في المدينة فلا يسمح لهم أن يفارقوها إلّا باذن وأجل فلما جاء عثمان سمح لهم بذلك، وكان هذا مما حببه إليهم أكثر من عمر ـ ولكن

هذا السماح قد جنى على عثمان وترتب عليه ما كان يحذره عمر، فإنه قد اجتمع إلى أعلام قريش أناس ممن لا سابقة لهم في الإسلام والتصقوا بهم وتقربوا إليهم مقدرين أنه إذا أفضى الأمر إليهم في يوم من الأيام كانوا أقرب الناس إليهم فنبه بذلك ذكرهم وطار لهم صيت وجرت أسماؤهم على الألسنة.

يشهد لذلك أن أهل البصرة كانوا يحطبون في حبل طلحة ويجهدون في أن يلي الخلافة بعد عثمان، وكان أهل الكوفة يريدون الزبير بن العوام. ولولا اضطراب هؤلاء الرهط في الأمصار أيام عثمان ما كان لواحد منهم شيعة في بلد من البلدان.

لا شك في أن عليًّا لم يهبط إلى مصر ولا إلى غيرها من البلا، غير أنه كان له دعاة متطوعون بالدعوة يشيدون بذكره ويروجون أمره فيها وهم عبد اللّه بن سبأ الذي استفسد الناس وأدخل على الأمة ضرباً من الإلحاد على حسابه ومحمد ابن أبي بكر ربيبه فإن أسماء بنت عميس زوج أبي بكر تزوجت بعد بعلي بن أبي طالب وابنها محمد بن أبي بكر صغير فربي في حجرها ورباه علي فكان له كالوالد. فلما سقط الى مصر آوى إلى محمد بن أبي حذيفة وعنده من الحنق على عثمان ما أكل صدره ومحمد بن أبي بكر موتور من عثمان لما قدمنا واتحادهما في عداوة عثمان يوحد وجهتهما فكانا على الحط على عثمان وتمهيد أمر علي ولا يبعد أن يكونا أو أحد هما قد استعمل اسم علي في التأليب على عثمان وإثارة الثائرين عليه وعلى لا يعلم ذلك، فقد حلف أنه ما كتب للمصريين كتاباً ولا دعاهم ولما قدمنا كان هوى أهل مصر في علي بن أبي طالب فلم تكن مطالب أهل الأمصار إلّا نتيجة لازمة لما سامح به عثمان وانقطاع العامة الى أولئك الأعلام أو إلى من هو بسبيل منهم رجاء أن يكون لهم شأن نابه وصيت طائر إذا انتقلت الخلافة من عثمان إلى صاحبهم.

لهذا لما تم الأمر لعلي بن أبي طالب صاحب المصريين ولم يتم للآخرين اجتمعا عليه وحارباه وجهدا في نقض بيعته والتأليب عليه، وقد قال الأستاذ

الخضري: لا يمكن من قرأ تفصيل الحوادث التي سبقت قتل عثمان أن ينفي عن أعلام قريش تطلعهم إلى ولاية الأمر ـ ولكن من الصعب أن يثبت على أحدهم اشتراك حقيقي مع المتآمرين ـ والذي يؤخذ عليهم هو هوادتهم في القيام بنصرة عثمان خليفة المسلمين واسترسال بعضهم في الأقوال التي تحط من قدره حتى وقت اشتداد الأزمة وعلى مسمع من رؤساء الثائرين الذين يشتد هياجهم بمثل هذه الكلمات.

السبب الرابع ـ هذا السبب أسوقه عن محاضرات الأستاذ الخضري مع ما يمكن أن يعرض من استدراك أو توضيح مما أراه:

سهولة التأثير في الجماعات متى أتوا من قبل ما يهوون وما يحبون، وهم في هذا الحال لا يصطبرون حتى يتثبتوا مما يلقي عليهم. بل سرعان ما يصدقونه ويألمون له إن كان مؤلماً ويسرون إن كان ساراً. وقد كان الناس مسلمين يحبون نبيهم أكثر مما يحبون أنفسهم، عرباً يحبون العدل والمساواة ويطربون لذكرها. وقد ذوقهم عمر حلاوة ما يعشقون من الحرية والعدل والمساواة وقوي ذلك في نفوسهم. فجاء ذلك الشيطان عبد اللّه بن سبأ الى القوم من الجهة التي يألفونها وهي نقطة ضعفهم وصار يضع لهم الكلام في تعظيم الرسول وأهل بيته ويعسوبهم علي بن أبي طالب ووسمه بأنه وصي رسول اللّه ﷺ كما كان لكل نبي وصي، وأنه من الحق الواجب أن يعطي الأمر لصاحب الحق لأن من اجترأ عليه فأخذه منه ظالم غاشم، ثم أخذ يذيع ما يدسه مدحاً لعلي بن أبي طالب حتى سما به الى درجة لم يطلبها علي لنفسه وتخطي به طوره الى أن وضعه موضع الألوهية، وغير هذا الأمر الأخير من الكلام يسهل إدخاله في القلوب وبخاصة إذا كان قد سبقه شيء من الضغينة على من بيده أمر الخلافة ولذلك نرى هذا الرجل كان يتتبع من أصابه من ولاة عثمان أذى في نفسه أو ماله، ويفضي إليه بما رتبه من القول وهيأه من الإذاعة. ثم جاءهم من قبيل العدل والمساواة وهي كلمات طنانة يؤلهها الجمهور ويصغي إليها الناس. حتى إذا ما أيقن أنه استهوى

القوم بما نفث من الرقي، أخذ يطعن في أمراء عثمان مرة بأنهم شبان، ومرة بأنهم من ذوي قرباه، وأخرى بأنهم ظلمة يسومون الناس خسفاً.

والموتورون ـ الذين كانوا يوازرونه ويؤيدونه لأغراض في أنفسهم تلقفوا الأمر بحذق، واشتغلوا به بمهارة، فصارت شيعتهم في كل مصر تكتب الى المصر الآخر بما عندهم من المخزنات التي يتزيدون فيها ما شاءت لهم ضغائنهم وأهواؤهم، فيقرأ كتابهم على العامة علناً فيستغيثون بالله مما حل بإخوانهم، ويقولون: نحن في عافية مما ابتلى به هؤلاء الناس وهم لا يعلمون أن إخوانهم بالمصر الآخر يتوجعون لهم ويحمدون الله على العافية مما أصيبوا به. بذلك كله تهيأ لهم أن يوغروا صدر العامة ممن يجتمع عليهم، وليس لشيء مما يكتبون صحة، فقد كانوا يعيبون معاوية، وهذا لم يوجده عثمان بل ولاه رسول الله ﷺ وولاه أبو بكر وولاه عمر. ولم نر من العمال من استمر موثوقاً به من عمر حياته كلها إلا أفراداً قليلين منهم معاوية بن أبي سفيان، فقد كان والياً من أول حياة عمر إلى آخرها.

وكانت الشام أعدل ولايات المسلمين وأهدأها. وإني لم أقف لهم في معاوية على عيب أو عمل منتقد إلا ما قالوه في مسألة أبي ذر. والمنصف يرى أن عمل أبي ذر وقوله فيما دعا إليه لم يكن فيه مصيباً. بل هو يدعو إلى الشقاق والخلاف والتكالب على الدنيا والإسهام في المال لمن لا يستحق، وكانوا يعيبون عبد الله بن أبي سرح لا لأنه ظالم أو جائر ولكن لأمر آخر وهو أن النبي ﷺ كان قد أهدر دمه يوم الفتح لما كان من ردته ثم استوهبه منه عثمان وأتى به تائباً مسلماً فعفا عنه، ومعلوم أن رسول الله ﷺ كان إذا عفا فإنما أسبل على الذنب ستراً لا يكشف وليس عبد الله بن سعد فيها أتى بأكثر من العدد الجم من الشاغبين إذ ارتدوا مع قبائلهم عقب وفاة رسول الله ﷺ. فهم يعيبون عليه شيئاً أحدث عهداً به منه، وكانوا يعيبونه بتولية الوليد بن عقبة، وعثمان لم يبتديء بتوليته ولكنه كان والياً لعمر من قبله على الجزيرة وإنما نقله عثمان منها

الى الكوفة فلما جاء كان أحسن وال سيرة الى أن شغبوا عليه وشهدوا عليه بشرب الخمر شهادة لا يعلم إلا اللّه إن كانوا قد بروا بها أو فجروا فحده وعزله عنهم، وقد استضعف على رأي من عد ذلك على عثمان، وقال ما معناه لا تكن كمن يطعن نفسه ليصل بالطعنة الى رديفه ليقتله! ما لعثمان وللوليد؟ وما ذنبه إن عثمان قد ولى الوليد؟ فلما استوجب الحد حده وعزله فما ذنبه فيما كان عن ملأمنا؟ وكانوا يعيبون سعيد بن العاص وكان باعتراف أهل الكوفة من أجود العمال في عمله وأشدهم تحرياً للعدل والقسط فلم تكن هذه المذام والأمور التي يتجنون بها على العمال موجهة بحق لرفع جور أو إزاحة حيف، وإنما كان يقصد بها التأثير في قلوب الناس وهم يتأثرون بسرعة من مثل هذه الأقوال دون احتياج الى دليل أو برهان لأن الأدلة والبراهين والحجج العقلية والنتائج المنطقية لا تؤثر في عقول الجماعات ولا تتفق معها.

وقد ساعد على استفحال الشر أولياء الأمر وأصحاب الرأي في الأمصار إذ لم يبادروا الشر قبل استفحاله ويأخذوا الحيطة من تفاقم الفتنة ـ لأن أمراء الخليفة لم يكن لهم مثل هذا السلطان، والخليفة آخذ على أيديهم مشفق أن يبسطها فيفتح عليه باب الفتنة الذي يسعى الى سده جهده حذراً من أن يأمر بذلك، فضاعفت مصلحة الأمة. وإذا أردنا أن نحمل الناس في ذلك الوقت تبعة أعمالهم وجدنا عثمان أقلهم تبعة في ذلك لأن الحلم واللين لم يكونا في زمن من الأزمان مما يتجنى به على أولى الأمر والتبعة يحملها من مهدوا السبيل لذلك التجني.

هذا رأي الأستاذ الخضري ومن رأى أن عثمان يحمل قسطاً ليس بالقليل في شأن تلك الجناية لأنه إذا كان قد عرف من نفسه الرقة واللين فكان الأجدر به أن يترك الأمر لغيره ولا ينكب الأمة بقتله ولا يفجعها هذه الفجيعة الحارة المرة.

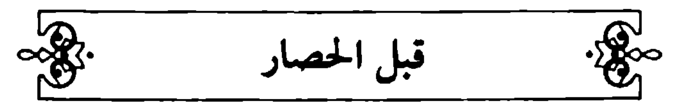
وقال صاحب أشهر مشاهير الإسلام: « وأما إفضاؤه إلى بني أمية بأموره

دون غيرهم من أهل الشورى والسابقين واستئثارهم بالسلطة واقتطاعهم الأمور دونه فهو الأمر الذي اهتزت له أعصاب المهاجرين وحذر عاقبته عقلاء المسلمين خوف اصطباغ الدولة بالصبغة الأموية. . ومع تأكد عثمان من عدم رضا المسلمين عن استسلامه لأولئك النفر من أهله وعشيرته وإن أكثر ما هاج المسلمين عليه تسلط هؤلاء عليه واستئثارهم بالأمر الذي لم يكن لهم خاصة بل هو لكل المسلمين لاسيما أولى السابقة منهم والمهاجرين. فقد كان حريصاً على أن لا يتخلى عنهم ولا يجيب ملتمس الأمة (من الظلم أن نقول الأمة ولكن الأولى أن يقال أهل الفتنة) فيهم، وليس لهذا الإصرار على ما يظهر لنا من سبب إلا أحد أمرين: إما لأن قومه استلانوا جانبه واستضعفوه فغلبوا على رأيه فيهم وإما لأنه أحس منذ عَهدَ عمرُ للستة ووقوع الاختيار عليه بظهور تحزب بين الشعب وتشيع يجر الى الاختلاف عليه والكيد له، فخشى إنْ هو انفرد عن قومه وقاطع أهله وعشيرته أن يتوثب عليه عمال الأمصار فلا يجد دون أهله عاصماً مما يأتيه من قبل المتوثبين عليه فاستمسك بذوي قرابته وولاهم على الأمصار، فلما كثر الإرجاف بهم والطعن عليهم ورغب إليه الناس في عزلهم زاد به القلق من جهة ما كان يخامره من الشك في الشيع فولى شكايتهم ظهره وأصر على بقاء الولايات في ذوي قرابته وركن إليهم واعتمد في الأمور عليهم فكانت له ولهم إثرة أنكرها عليه الصحابة وعلى ولاته أشد الإنكار وتذرع الثائرون عليه بتلك الأحداث إلى خلعه تخلصاً من سلطان أهله وكانت الأثرة هي السبب الأول في استفحال أمر الفتنة التي لما اشتدت نارها واشتعل أوارها أصبح إطفاؤها خارجاً عن طوق كبار الصحابة وقادة الناس. وربما ندموا حينذاك على ما تقدم ولات ساعة مندم، أخرج ابن عساكر عن الأوزاعي أنه قال: قيل لعلي بن أبي طالب: أفقتل عثمان منافقاً؟ قال لا ولكنه ولى فاستأثر وجزعنا فأسأنا وكلٌ سيرجع الى حكم عدل، فإن تكن الفتنة أصابتنا أو خبطتنا فما شاء اللّٰه » ا هـ.

ومن الغريب بعد ذلك أن تبقى هذه الحادثة سبباً دائماً لتفريق كلمة المسلمين ففي بعض الأحيان فرقة عملية تتوسط فيها السيوف والأسنة، وفي

بعض الأحيان فرقة كلامية تنتهي دائماً بعداء ونفور، وليس ذلك إلا لأن المسألة ألبست ثوب الدين وكل حاول الوصول بما يثبته وما يختلقه إلى غرض من الأغراض. ولو نظرنا إلى المسألة بنظر صحيح لقلنا خليفة من خلفاء المسلمين غضب عليه بعض رعيته بعضهم سيء القصد والبعض الآخر تابع لهم ثم قاموا عليه وحصروه وقتلوه بشكل وحشي لا يتفق مع أصول الإسلام. ثم نحكم بأنهم أخطأوا خطأ عظيماً ثم ذهبوا الى من له الحق أن يدينهم ولم يبق متهم يمكننا الانتقام منه لسوء قصده أو نبين الصواب له لخطئه، وغاية الأمر أن الباقي لنا من كل ذلك هو الاستفادة مما كان، فالعاقل همه أن يتعلم ويفهم لا أن يحقد على قوم لم تبق منهم باقية.

لا تمكن حماية الأمة من أصحاب المقاصد السيئة الذين يريدون فتنتها وتهييجها لغير مصلحتها إلا إن كان فيها من العقلاء من يحترم رأيهم وتسمع كلمتهم فإنهم يبصرون قومهم بما يعود عليهم بالخير والفلاح، وكل أمة فقدت هؤلاء السراة العقلاء سهل على مثل ابن سبأ ومن لف لفه أن يفتنوها ويلفتوها عما يصلحها ويجعلوا بأسها بينها شديداً، وهم في كل زمن كثيرون فما ظنك بالأمة إذا كان سراتها ممن يساعد على فتح باب الشر بإغضائه وتهاونه، إن الشر حينئذ يكون مستطيراً والبلاء عظيماً وسيمر بنا في التاريخ من ذلك شيء كثير.



قبل الحصار

ألخص هنا رواية الطبري إلى محمد بن مسلمة ـ قال: خرجت في نفر من قومي الى المصريين. وكان رؤساؤهم أربعة: عبد الرحمن بن عديس البلوي، وسودان بن حمران المرادي، وعمرو بن الحمق الخزاعي ـ وقد كان هذا الاسم غلب حتى كان يقال جيش ابن الحمق ـ وابن النباع، فدخلت عليهم وهم في خباء لهم أربعتهم، ورأيت الناس لهم تبعاً، فعظمت حق عثمان وما في رقابهم من البيعة. وخوفتهم الفتنة، وأعلمتهم أن في قتله اختلافاً وأمراً عظيماً. فلا

تكـونوا أول من فتحـه. وأنه ينـزع عن هذه الخصـال التي نقمتم عليه فيهـا وأنا ضامن لذلك، قال القوم: فـإن لم ينزع؟ قلت: فـأمركم اليكم، فـانصرفت عن القوم وهم راضون.

رجعتُ إلى عثمان فقلت: أخلني، فأخلاني، فقلت: يا عثمـان، اتق اللّه في نفسـك فإن هؤلاء القـوم إنمـا قـدمـوا يـريـدون دمـك، وأنت تـرى خـذلان أصحـابك لـك. لا، بل هم يقـوون عدوك عليـك، فأعـطاني الرضـا، وجزاني خيراً.

أقمت ما شاء اللّه أن أقيم، وقـد تكلم عثمان بـرجوع المصـريين، وذكـر أنهم جاءوا الأمر فبلغهم غيـره فانصـرفوا، فـأردت أن آتيه لأعنفـه ثم أمسكت. فإذا قائل يقول: إن المصريين قدموا وهم بالسويداء، فأرسل إليَّ عثمان فقال: يا أبـا عبد الـرحمن هؤلاء القوم قـد رجعوا فـما الـرأي فيهم؟ قلت لا أدري إلا أني أظن أنهم لا يرجعوا لخير، قال: فارجع إليهم فـارددهم. قلت: لا واللّه ما أنـا بفاعل، قـال: ولم؟ قلت لأني ضمنت لهم أموراً تنـزع عنها فلم تنـزع عن حرف منها. فقال: اللّه المستعان.

جاءني ابن عديس ومعه سودان بن حمران وصاحبـاه، فقالـوا: يا أبـا عبد الرحمن ألم تعلم أنك كلمتنا، ورددتنا، وزعمت أن صاحبنا نازع عما نكره؟ قلت بلى. فإذا هم يخرجون إلى صحيفة صغيرة في قصبـة من رصاص يقـولون وجـدنا جملاً من إبل الصدقة عليه غلام عثمان، فأخذنا متاعه ففتشناه، فوجدنا فيه هذا الكتاب، فإذا فيه « بسم اللّه الرحمن الـرحيم » أما بعـد، فإذا قـدم عليك عبـد الرحمن بن عديس فاجلده مائة، واحلق رأسه ولحيته، وأطل حبسه، حتى يأتيـك أمري، وعمر بن الحمق فـافعل بـه مثل ذلـك، وسودان بن حمـران مثل ذلـك، وعروة بن النباع مثـل ذلك، قلت: ومـا يدريكم أن عثمـان كتب هذا؟ قـالوا: فـيـفـتـات مـروان عـلى عـثـمـان بهـذا؟ فـهـذا شر، فـيـخـرج من هذا الأمر، ثم قالوا: انطلق معنا إليه، فقد كلمنا عليًّا ووعدنا أن يكلمه إذا

صلى الظهر. وذكروا أنهم كلموا ناساً من أصحاب رسـول اللّه فأبـوا أن يكلموا عثمان.

قـال محمـد بن مسلمـة: ثم دخلت عليـه أنـا وعـلي، فقلنـا: إن هؤلاء المصريين بـالباب، فـأذن لهم ومروان عنـده جالس. فقـال: دعني جعلت فداك أكلمهم، فقـال عثمان، فض اللّه فـاك، ومـا كـلامـك في هـذا الأمـر؟ فخـرج مروان، وجعل عـلي يخبره مـا وجدوا في كتـابهم. فجعل عثمـان يقسم باللّه مـا كتب ولا علم ولا شـوّر فيه وصـدقه محمـد بن مسلمة، فقـال عـلي: فـأدخلـهم ليسمعوا عذرك، ثم أقبل عثمان على علي يقول له: إن لي قرابة ورحمـاً، واللّه لو كنت في هذه الحلقة لحللتها عنك، فاخرج إليهم فكلمهم فإنهم يسمعون منك، فأبى علي، ودخلوا فقالوا: سلام عليكم ولم يسلموا عليه بالخـلافة. ثم قـدموا في كلامهم ابن عديس، فذكر ما صنع ابن سعد بمصر، وذكر تحاملاً عـلى المسلمين وأهل الذمـة. وذكر استئثـاراً منه في غنـائم المسلمين، فـإذا قيل ذلـك قال هـذا كتاب أمير المؤمنين إليَّ.

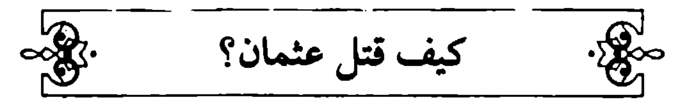
ذكروا مع ذلك أشياء مما أحدث بالمدينة وماخالف به صاحبيه، وأنهم رحلوا من مصر لا يـريدون إلاّ دمـه أو ينزع، وأن محمـد بن مسلمـة ردهم وضمن لهم النزوع عن كل ما تكلموا فيه. (وصدقهم محمد بن مسلمة)، قـالوا: ثم رجعنـا إلى بلادنا نستظهر باللّه عز وجل عليك ويكون حجة لنا من بعد حجة، حتى إذا كنا بالبويب، أخذنا غلامك: فأخذنا كتابك وخاتمك الى عبد اللّه بن سعد تأمره فيـه بجلد ظهورنـا والمثل بنـا في أشعارنـا وطول الحبس لنـا، وهذا كتـابك قـال عثمان: واللّه ما كتبت ولا أمرت ولا شورت ولا علمت. قال محمد بن مسلمة: فقلت وعلي جميعاً: قد صدق، فاستراح لها عثمان، قال المصريـون: فمن كتبه؟ قـال: لا أدري، قالـوا: أفيجترأ عليـك، فيبعث غلامـك، وجمل من صـدقات المسلمين، وينقش على خاتمك، ويكتب الى عاملك بهذه الأمـور العظام وأنت لا تعلم؟ قال نعم. قالوا فليس مثلك يلي. اخلع نفسك من هذا الأمر كما خلعـك

اللّه منه، قال: لا أنتزع قميصاً ألبسنيه اللّه عز وجل وكثرت الأصوات واللغط، فما كنت أظن أنهم يخرجون حتى يواثبوه. وقام علي فخرج وخرجت معه وقال للمصريين: اخرجوا فخرجوا، ورجعت الى منزلي ورجع علي الى منزله، فما برحوا محاصريه حتى قتلوه.

إذا سلمنا رواية محمد بن مسلمة هذه جاءتنا أمور وهي محل العجب وموضع الغرابة.

هذا غلام عثمان حاضر بالمدينة، وجمل الصدقة الذي وجده المصريون والغلام عليه موجود، فما بال عثمان لا يسأل الغلام عن الشخص الذي سلم إليه الكتاب أو الظرف وهو فيه؟ وما باله لا يسأله عمن أمره بالمسير الى مصر، وعن الذي أعطاه جمل الصدقة، وما باله لا يسأل القيم على إبل الصدقة عمن أخذ ذلك الجمل، ولم أخرجه منها بدون إذن أمير المؤمنين؟ في هذه الحال كان يتبين الذي افتعل الكتاب، والذي وجه بالغلام الى مصر، وحينئذ يعرف المصريون أين ثأرهم وحينئذٍ يقع عليه الجزاء العادل، ويعاقب بنفس العقاب الذي تضمنه الكتاب.

غير أن عثمان لم يفعل، وحينئذ يكون معذوراً من يتهمه بالتهاون.



كيف قتل عثمان؟

رأى الشاغبون أنه لا مفر لهم من أحد أمرين ليأمنوا على أنفسهم، أحدهما أن يخلع عثمان نفسه من الخلافة فيكون ذلك سبباً لعزل عماله من الخليفة الجديد حتى لا يصطلهم العمال إذا رجعوا إلى بلادهم: ثانيهما: قتله وذلك يستتبع تغيير عماله قطعاً فينجو كل واحد من العقاب. فلما طالت مدة الحصار ولم يجدهم الاحتجاج على عثمان والتردد عليه مرة بعد مرة أخرى وأحسوا عودة الحاج وفصول من فصل من الأمصار لإغاثته وأن ذلك متى تم خرج الأمر

من أيديهم، وفي ذلك نكالهم، هموا بالدخول عليه واقتحام داره من بابها، فأحرقوا الباب وقاتلهم من كانوا بالدار لحماية عثمان غير مصغين لنهيه إياهم عن القتال، وكان منهم المغير بن شريق والحسن بن علي ومحمد بن طلحة وعبد الله ابن الزبير ومروان وأبو هريرة وغيرهم وكان بين الفريقين قتلى وجرحى على باب الدار.

رأى أولئك المحاصرون أن اقتحام الدار من بابها يكلفهم ثمناً غالياً فاقتحموا دار عثمان من غير بابها. بل تسوروا عليه من دار ملاصقة لداره وهي دار عمرو بن حزم حتى ملأوا الدار ولا يدري من بالباب، فدخل عليه رجل فقال أخلعها وندعك فقال ويحك والله ما كشفت امرأة في جاهلية ولا إسلام ولا تغنيت ولا تمنيت ولا وضعت يميني على عورتين منذ بايعت رسول الله ﷺ ولست خالعاً قميصاً كسانيه الله تعالى حتى يكرم الله أهل السعادة ويهين أهل الشقاء، فخرج عنه، ومعنى عبارة أنه لم يفعل ما يوجب إراقة دمه ولا يكون بسبيل ذلك، ثم دخل عليه ناس رجعوا ولم يمسوه بأذى آخرهم محمد بن أبي بكر، فقال له عثمان: ويلك أعلى الله تغضب؟ هل لي إليك جرم ألا حقه أخذته منك، فأخذ محمد لحيته وقال: قد أخزاك الله يا نعثل (اسم رجل قبطي كانوا يشبهون عثمان به لعظم لحيته) فقال: لست بنعثل، ولكني عثمان وأمير المؤمنين. فقال: ما أغنى عنك معاوية وفلان وفلان؟ وقبض على لحيته فقال: يا ابن أخي ما كان أبوك ليقبض عليها، فقال: لو رآك أبي تعمل هذه الأعمال لانكرها عليك، والذي أريد بك أشد من قبضي عليها. فقال عثمان أستنصر الله عليك وأستعين به، فتركه وخرج.

هذا هو الصحيح من أمر محمد معه.

ثار بعد ذلك قتيرة وسودان بن حمران والغافقي فضربه الغافقي بحديدة كانت معه وضرب المصحف الذي كان عثمان يقرأ فيه برجله فاستدار المصحف واستقر بين يديه وسالت عليه الدماء وجاء سودان ليضربه فأكبت عليه نائلة

لتقيه، فنفحها بالسيف فأطن أصابع يدها وولت. وهنا اختلف فيمن ضربه الضربة التي كان بها قتله ففي رواية أنه سودان بن حمران وفي رواية أنه كنانة بن بشر التجيبي. وفي ذلك الوقت دخل غلمة من غلمان عثمان مع القوم لينصروه فلما ضربه سودان ضرب بعض أولئك الغلمان سودان على رقبته فقتله ووثب قتيرة على الغلام فقتله وانتهبوا ما في البيت وخرجوا ثم أغلقوه على ثلاثة قتلى: عثمان، وسودان، وغلام عثمان.

لما خرج القوم من الحجرة التي ترك فيها عثمان قتيلاً، وثب غلام لعثمان على قتيرة فقتله وثار القوم فأخذوا ما وجدوه في الدار حتى ما على النساء، وأخذ كلثوم التجيبي ملاءة من نائلة فقتله غلام لعثمان، ودخل عمرو بن الحمق على عثمان وبه رمق فوثب على صدره وطعنه تسع طعنات، وأرادوا قطع رأسه فصاح بهم النساء فقال ابن عديس اتركوه، وأقبل عمير بن صابيء فوثب عليه فكسر ضلعاً من أضلاعه وقال: سجنت أبي حتى مات في السجن، وماج الناس وتنادوا: أدركوا بيت المال ولا تسبقوا إليه فهرب حارساه، وانتهب الناس غرارتين مملوءتين فضة كانتا فيه: وكان قتله لثماني عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين، يوم الجمعة.

أما مدة خلافته فهي اثنتا عشرة سنة إلا اثني عشر يوماً، واختلف في سنه فالمقل يقول خمساً وسبعين سنة والمكثر يقول تسعين سنة.

وسبب اضطغان عمير بن ضابيء على عثمان حتى كسر ضلعه بعد قتله أن أباه ضابئاً استعار أيام ولاية الوليد بن عقبة الكوفة من قوم من الأنصار كلباً يدعي قرحان يصيد الظباء فحبسه عنهم، وانتزعوه منه قهراً فهجاهم بقوله:

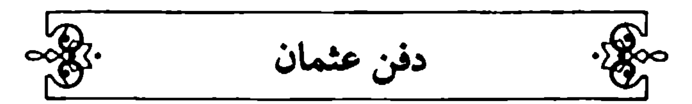
تجشم دوني وفد قرحان خطة ... تضل لها الوجناء وهي حسير
فباتوا شباعاً طاعمين، كأنما ... حباهم ببيت المرزبان أمير
فأمكم لا تتركوها وكلبكم ... فإن عقوق الأمهات كبير

فاستعدوا عثمان عليه، فحبسه ومات في سجنه، وقال وهو في السجن.

همت ولم أفعل وكدت وليتني ... تركت، على عثمان تبكي حلائله
وقائلة قد مات في السجن ضابيء ... إلا من لخصم لم يجد من يحاوله

لهذا صار ابنه عمير سبئياً.

وقد اتفق رأي كميل بن زيادة وعمير بن ضابيء على الفتك بعثمان في حياته فقدما المدينة، فأما عمير فنكل وتقدم إليه فثاوره فوجأ عثمان وجهه فوقع على أسته، فقال: أوجعتني يا أمير المؤمنين، فقال أولست بفاتك؟ قال: لا والله، فقال استقدمني، فعفا عنه، وبقي الرجلان الى أيام الحجاج فقتلهما وسيجيء ذلك.



دفن عثمان

رويت في دفن عثمان روايات أدناها الى الانسانية رواية جاء بها ابن الأثير أنه شهد جنازته علي وطلحة وزيد بن ثابت وكعب بن مالك وعامة من ثم من أصحابه.

وهناك رواية تقول: إن عثمان بقي ثلاثة أيام لا يدفن ثم إن حكيم بن حزام القريشي وجبيرَ بن مطعم كلما عليًّا في أن يأذن بدفنه ففعل، فلما سمع بذلك أولئك الثوار قعدوا له في الطريق بالحجارة ليرجموه إذا مر. وسمع علي بذلك فأرسل يمنعهم وخرج به ناس يسير عددهم من أهله وغيرهم فيهم الزبير والحسن وأبو الجهم بن حذيفة ومروان بين المغرب والعشاء فأتوا به حائطاً من حيطان المدينة خارج البقيع يقال له حش كوكب فصلى عليه أحد الحاضرين وجاء أناس من الأنصار ليمنعوا من الصلاة عليه ثم تركوا ذلك خوف الفتنة ثم دفن في ذلك الحائط. فلما كانت أيام خلافة معاوية وصل ذلك الحائط بالبقيع وأمر الناس بالدفن حول قبر عثمان. وهناك روايات أخرى أفظع، فإذا لم تصح

الرواية الأولى فإن القوم يكونون قد استعملوا مع عثمان من الوحشية ما يقبح استعماله مع الكفار وعبدة الأوثان ولا يليق صدوره من إنسان فضلاً عن مسلم.



علي بن أبي طالب

كيف انتخب؟ إن الأحوال التي احتفت ببيعة علي بن أبي طالب والمناسبات التي حصل فيها انتخابه لم يكن لها نظير في انتخاب الخلفاء الذين تقدموه ولا بيعتهم فإن بيعة أبي بكر كانت عقب وفاة رسول اللّٰه ﷺ والشملُ مجتمع وأصحاب رسول اللّٰه ﷺ من المهاجرين والأنصار شهود يرون ويسمعون لهم أن يبرموا ما اجتمعت عليه الكلمة وأن ينقضوا ما لم يرضوا به. فلم يكن ثمة غير يسير اختلاف ثم ثابت الأحلام وفاءت السكنية وتم الأمر لأبي بكر، ولم يتخلف عن البيعة سوى علي بن أبي طالب أياماً أو نحو سبعين ليلة على خلاف في ذلك، وسعد بن عبادة من الأنصار وقليل من بني هاشم تأخروا ثم بايعوا، ومن عدا هؤلاء فقد أعطى يده بالطاعة عن رضى.

وأما عقب وفاة أبي بكر فلم يكن ثم مجال للخلاف، لأن أبا بكر كان قد عهد إلى عمر فرأى المسلمون وجوب طاعته والانتهاء إلى ما صنع، وكان أعلام الصحابة كذلك شهوداً ـ وعند وفاة عمر كان أعلام قريش والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار شهوداً، وعمر لم يترك الأمر بين القوم فوضى بل كان قد سن لهم قانون الشورى على علاته، فأصاب الانتخاب عثمان بن عفان وهو أحد الستة الذين اختارهم ليعينوا واحداً منهم للخلافة، وقد بين لهم جزاء المخالف منهم وهوالقتل.

أما عند موت عثمان بن عفان، فقد كان كثير من أصحاب رسول اللّٰه ﷺ غير شاهدين للأمر وكثير منهم أبى عن بيعته ولم يرضوا بالدخول في طاعته

ولم يكن الأمر على حال هدوء وسكون بل كانت الكلمة العليا للثوار على عثمان والأمر النافذ لهم ومن كان مقيماً من أعلام الصحابة فقد نفضوا أيديهم من الأمر بغضة لعثمان وسرهم أن يكفيهم أمره أولئك الثائرون وهم شذاذ من الآفاق وأوزاع متفرقون من أمصار مختلفة وقبائل متباينة لا سابقة لهم ولا قدمة ولا أثر خير في الدين ـ وهم وإن كثروا بالنسبة إلى أهل المدينة خاصة فليسوا بالشيء الذي يؤبه له بالقياس الى أهل الأمصار ومن يتبعهم من مرابطة الثغور وأجناد الأقطار ـ أضف الى ذلك أنهم أهل شغب وفتنة قد عرف رؤوسهم بذلك وشهروا بالشربين قبائلهم وأمصارهم.

لم يكن في نظر جمهور السبئية أليق للخلافة من علي خصوصاً والذي تولى كبر هذه الثورة هم المصريون وهم شيعة علي وهواهم معه فكانت كلمته غالبة على سائرهم وكأن أهل المدينة كانت أحلام أكثرهم شاردة عنهم فثابت، وقد ظلل عثمان جلال الموت، فاجتمع الناس في المسجد وكثر الندم والتأسف على عثمان وسقط في أيديهم وأكثر الناس على طلحة والزبير واتهموهما بقتله وقال الناس لهما: أيها الرجلان قد وقعتما في أمر عثمان فخليا عن أنفسكما فقام طلحة فقال: أيها الناس أنا والله ما نقول اليوم إلا ما قلناه أمس، إن عثمان خلط الذنب بالتوبة حتى كرهنا ولايته وكرهنا أن نقتله وسرنا وأن نكفاه وقد كثر فيه اللجاج وأمره إلى الله، ثم قام الزبير فقال: أيها الناس إن لله قد رضي لكم الشورى فأذهب بها الهوى وقد تشاورنا فرضينا عليًّا فبايعوه، وأما قتل عثمان فإنا نقول فيه إن أمره إلى الله، وقد أحدث أحداثاً والله وليه فيما كان. وكأن ذلك من الزبير ليدفع عن نفسه لوم اللائمين كيلا يقال إنه كان يسعى في هذا الأمر لنفسه ولكي يكافئه علي بدفعها عن نفسه كما دفعها هو فقام الناس وأتوا عليًّا وقالوا له نبايعك فأنت أحق بها. فقال ليس ذلك إليكم، إنما هو لأهل الشورى وأهل بدر فمن اختاروه فهو الخليفة فنجتمع وننظر في هذا الأمر فانصرفوا عنه ثم خلصوا نجياً وقال بعضهم لبعض: يمضي قتل عثمان في الآفاق والبلاد فيسمعون بقتله ولا يسمعون أنه بويع لأحد بعده فيثور كل رجل منهم في ناحية

فارجعوا الى علي فلا تتركوه حتى يبايع فيسير مع قتل عثمان بيعة علي فيطمئن الناس ويسكنون فرجعوا الى علي وجاء الأشتر فقال لعلي: ابسط يدك نبايعك. فقال له كما قال لهم أولاً، فقال والله لتمدن يدك نبايعك أو لتعصرن عينك عليها ثالثة ولم يزل به يكلمه ويخوفه الفتنة ويذكر له أنه ليس أحد يشبهه فمد يده فبايعه الأشتر ومن معه وسبقهم طلحة وكانوا قد أتوا به فبايعه، وقد كان من المهم عند علي أن يبايعه طلحة والزبير لأنهما زميلاه - وإذا كان أحد أصحاب الشورى يطمح بنظره الى الخلافة فهما، وقد كانا يوضعان في الأمر ولكل منهما شيعة من الثائرين تؤيده وتؤازره، غير أن شيعة علي كانت أعلى صوتاً وأقوى يداً فجاء القوم إلى طلحة فأرادوه على البيعة لعلي فأبى. إلا اجتماع بقية الشورى فأتوا به يلبونه حتى بايع، روي الطبري عن الزهري أنه دعاهما الى البيعة (طلحة والزبير) فتلكأ طلحة. فقال مالك الأشتر - وسل سيفه - والله لتبايعن أو لأضربن به ما بين عينيك فبايعه وبايعه الزبير. وروي أن عليًّا قال لهما: إن أحببتما بايعتكما فقالا بل نبايعك، وقالا بعد ذلك إنما صنعنا ذلك خشية على أنفسنا وقد عرفنا أنه لم يكن ليبايعنا بمعنى أنه عرض البيعة عرضاً سابرياً من باب المجاملة لا على سبيل الجد، وجيء بسعد بن أبي وقاص فقال: لا أبايع حتى يبايع الناس، والله ما عليك مني بأس فقال خلوا سبيله، وجيء بعبد الله بن عمر ليبايع، فقال لا أبايع حتى يبايع الناس، فقال ائتني بحميل، قال: لا أرى حميلاً، فقال الأشتر: خل عني اضرب عنقه، فقال علي: دعوه أنا حميله إنك والله لسيء الخلق صغيراً وكبيراً، وتخلف عن بيعة على جمع من الأنصار منهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك ومسلمة بن مخلد وأبو سعيد الخدري ومحمد بن مسلمة ونعمان بن بشير وزيد بن ثابت ورافع بنت خديج وفضلة بن عبيد وكعب بن عجرة وكان هؤلاء عثمانية يميلون إلى عثمان، وهرب قوم الى الشام ولم يبايعوا عليًّا، وهم عامة بني أمية ومن معهم، ولم يبايعه عبد الله بن سلام وصهيب بن سنان وسلمة بن سلامة بن وقش وأسامة بن زيد وقدامة بن مظعون والمغيرة بن شعبة وقد بايعه المغيرة من قريب.

(ترجمة علي) هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف وهو ابن عم رسول اللّٰه ﷺ شقيق والده. وأمه فاطمة بنت أسد. ولد قبل الهجرة باحدى وعشرين سنة أو أكثر، ولما أرسل رسول اللّٰه ﷺ كان علي مراهقاً وكان مقيماً مع الرسول في بيته تخفيفاً على أبيه أبي طالب، فكان من أول من أجاب إلى الإسلام وقد أدرك الشرف العظيم ببذله نفسه فداء لرسول اللّٰه ﷺ ببياته على فراسه ليلة خروجه من مكة مهاجراً إلى المدينة حتى لا يرتاب الراصدون في وجوده في بيته وذلك ليلة هموا بقتله واتعدوا لذلك ليلتهم ثم هاجر الى المدينة بعد أن أدى الودائع التي كانت عند رسول اللّٰه ﷺ إلى أهلها. وبعد أن هاجر زوجه النبي ﷺ من ابنته فاطمة، وقد شهد المشاهد كلها مع رسول اللّٰه سوى غزوة تبوك فقد خلفه في أهله بالمدينة، وقال المنافقون: إنما خلفه استثقالاً له وزهادة فيه فخف الى رسول اللّٰه باكياً فطيب خاطره ورده وقال: أما ترضى أن تكون مني بمنزله هارون من موسى فرضي بذلك. وقد كان في كل غزواته ومشاهده مظفراً منصوراً ذا بلاء وغناء له الأثر المحمود والمقام الذي لا يجهل، شجاعاً مقداماً على الغمرات لا تكرثه شدة ولا يبالي بمصارعة الموت، وكان يكتب لرسول اللّٰه ﷺ، ولما لحق الرسول بربه كان علي يرى نفسه أحق بالخلافة وأولى ممن عداه بأن يلي أمر المسلمين وكان يظن أن الأمر يأتيه عفواً صفواً وأن المسلمين لا يعدلون به غيره لما له من شرف القربى والسابقة والصهر. فتلبث عن طلب البيعة حتى يقوم بدفن رسول اللّٰه ﷺ ثم يتفرغ للأمر فلم يفجأ إلا بالمسلمين قد بايعوا أبا بكر وأبي علي عن بيعته وقال: أنا أحق بهذا الأمر منكم لا أبايعكم وأنتم أولى بالبيعة لي، أخذتم هذا الأمر من الأنصار واحتججتم بالقرابة من النبي ﷺ وتأخذونه منا أهل البيت غصباً؟ ألستم زعمتم للأنصار أنكم أولى بهذا الأمر منهم لما كان محمد منكم فأعطوكم المقادة وسلموا إليكم الإمارة؟ فأنا أحتج عليكم بمثل ما احتججتم على الأنصار، نحن أولى برسول اللّٰه حيًّا وميتًّا فانصفونا إن كنتم تؤمنون إلى آخر ما قال في ذلك. ومكث مدة لم يبايع ثم بايع ولما مات أبو بكر بايع عمر لاستخلاف أبي بكر له وفي نفسه

شيء من ذلك، ولما طعن عمر أراد أن يستخلفه وكان يود تقديمه على غيره ويرى أنه جدير بأن يحمل الناس على الطريقة المثلى، غير أنه لم يرد أن يحمل تبعة الأمر فجعله شورى بين ستة هو واحد منهم وكان أكبر ظن عمر في علي أن يكون الأمر إليه غير أنها صرفت عنه إلى عثمان فبايع ولم يخالف. وكان في مدة أبي بكر بعد البيعة موضع ثقة الخليفة وكان في عهد عمر كالمستشار له يستشيره عمر ويستفتيه في الأحكام الشرعية ويستدخله في مهام الأمور، فكان من خاصته وبطانته الذين يستنصحهم ويستنزل رأيهم وينتهي إلى مشورتهم - وقد كان كذلك لعثمان رضي اللَّه عنه صدراً من خلافته ثم تغير له في أواخر حياته ولم تكن علاقتهما حسنة في الظاهر وبخاصة في أيام الفتنة فإن استبطان عثمان لبني أمية كان يفسد على عليٍّ كثيراً مما كان على يراه نافعاً له، وكانوا يزهدونه في علي ويخوفونه جانبه.

أورد صاحب الإمامة والسياسية أن عثمان خرج إلى المسجد فإذا هو بعلي وهو شاك معصوب الرأس، فقال عثمان: واللَّه يا أبا الحسن ما أدري أشتهي موتك أم أشتهي حياتك، فواللَّه لئن مت ما أحب أن أبقى بعدك لغيرك لأني لا أجد منك خلفاً ولئن بقيت لا أعدم طاغياً يتخذك سلماً وعضداً يعدك كهفاً وملجأ لا يمنعني منه إلا مكانه منك ومكانك منه (ولعله يريد محمد بن أبي بكر) فأنت مني كالابن العاق من أبيه. إن مات فجّعه وإن عاش عقه. فإما سلم فنسالم وإما حرب فنحارب، فلا تجعلني بين السماء والأرض فإنك واللَّه إن قتلتني لا تجد مني خلفاً ولئن قتلتك لا أجد منك خلفاً ولن يلي هذا الأمر باديء فتنة، فقال علي إن فيما تكلمت به لجواباً ولكني مشغول بوجعي فأنا أقول كما قال العبد الصالح: فصبر جميل واللَّه المستعان على ما تصفون، فقال مروان: إنا واللَّه إذاً لنكسرن رماحنا ولنقطعن سيوفنا ولا يكون في هذا الأمر خير لمن بعدنا، فقال عثمان: اسكت ما أنت وهذا؟

وقد استعمل المؤلبون اسم علي للتغرير بالناس حتى يهيجوا على خليفتهم، وأدى ذلك إلى أن خاطبه أهل مصر قائلين: إن لم تقم معنا فلم كتبت إلينا؟

فتبرأ من الكتابة إليهم وحلف على ذلك، ولما انتهى أمر عثمان على النحو الذي بينا بويع له بالخلافة بالصورة التي وصفنا، وانتهى الأمر على ذلك بعد خمس ليال قضاها الناس في أخذ ورد وتردد في الأمر إلى أن انتهى.

خطته السياسية

أول خطبة لعلي ـ صعد على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: ـ إن الله عز وجل أنزل كتاباً هادياً بيّن فيه الخير والشر فخذوا بالخير ودعوا الشر. الفرائض أدوها إلى الله سبحانه وتعالى يؤدكم إلى الجنة. إن الله حرم حرماً غير مجهولة وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها وشد بالاخلاص والتوحيد المسلمين والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده إلّا بالحق. ولا يحل أذى المسلم إلا بما يجب، بادروا أمر العامة، وخاصة أحدكم الموت فإن الناس أمامكم وإنما من خلفكم الساعة تحدوكم تخففوا تلحقوا فإنما ينتظر الناس أخراهم اتقوا الله عباد الله في عباده وبلاده إنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم وأطيعوا الله عز وجل ولا تعصوه وإذا رأيتم الخير فخذوا به وإذا رأيتم الشر فدعوه واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض.

والذي تشف عنه خطبته أنه يريد أن ينصرف الناس إلى ما هو مهم لهم ويكفوا عن الخوض في الشأن الذي كان. وأن يستقبلوا نمطاً من الحكم جديداً. كله إقبال على الآخرة وزهد في الدنيا وقيام بحدود الله وطاعته فيما أمر به والانتهاء عما نهى عنه، ولو شئنا أن نلخص خطته التي يريد أن يرسمها لهم، لقلنا: يريد أن يقول لهم ارجعوا إلى العهد الذي كنتم عليه أيام رسول الله، وأقبلوا على الآخرة بكليتكم وأعرضوا عن الدنيا وولوها ظهوركم.

وكان علي قد دخل على نائلة زوج عثمان بعد أن لطم ابنيه الحسن والحسين وشتم محمد بن طلحة وعبد الله بن الزبير لظنه الإهمال منهم والتقصير

في الذنب عن عثمان، وسأل نائلة من قتل عثمان؟ قالت: لا أدري، دخل عليه رجال لا أعرفهم إلا أن أرى وجوههم وكان معهم محمد بن أبي مكر. فدعا علي محمد بن أبي بكر وسأله عما ذكرت نائلة فقال: صدقت، قد والله دخلت عليه فذكر لي أبي فقمت عنه وأنا تائب إلى الله تعالى، والله ما قتلته ولا أمسكته فقالت: أصدق ولكن هو أدخلهم.

وكتبت نائلة زوج عثمان إلى معاوية تصف دخول القوم على عثمان وأخذه المصحف ليتحرم به وما كان من صنع محمد بن أبي بكر وأرسلت بقميص عثمان مضرجاً بالدم ممزقاً بالخصلة التي نتفها محمد بن أبي بكر من لحيته فعقدت الشعر في زر القميص وأصابعها ثم دعت بالنعمان بن بشير الأنصاري فبعثته الى معاوية. فلقي يزيد بن أسيد أرسله معاوية ممداً لعثمان في أربعة آلاف فأخبرهم بقتل عثمان فانصرفوا إلى الشام.

طلب الصحابة القود من قتلة عثمان

ولما تمت البيعة لعلي جاءه جماعة من الصحابة وقالوا له: إنا قد اشترطنا إقامة الحدود وأن هؤلاء القوم قد اشتركوا في دم هذا الرجل وأحلوا بأنفسهم، فقال لهم: إني لست أجهل ما تعلمون ولكني كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم. ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم وثابت إليهم أعرابكم وهم خلا لكم يسومونكم ما شاءوا فهل ترون موضعاً لقدرة على شيء بما تريدون؟ قالوا لا، قال فلا والله لا أرى إلا رأياً ترونه إن شاء الله، إن هذا الأمر أمر جاهلية وإن هؤلاء القوم مادة وذلك أن الشيطان لم يشرع شريعة قط فيبرح الأرض من أخذ بها. أن الناس من هذا الأمر ـ أن حرك ـ على أمور، فرقة ترى ما ترون وفرقة ترى ما لا ترون، وفرقة لا ترى هذا ولا هذا حتى تهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها وتؤخذ الحقوق. فاهدأ وأعني وانظروا ماذا يأتيكم ثم عودوا.

ثم إن عليًّا اشتد على قريش وحال بينهم وبين الخروج من المدينة وإنما

هيجه على ذلك هرب بني أمية. وتفرق القوم وبعضهم يقول والله لئن زاد الأمر لا قدرنا على انتصار من هؤلاء الأشرار. لترك هذا إلى ما قال عليٌّ أمثل. وبعضهم يقول: نقضي الذي علينا ولا نؤخره، والله إن عليًّا لمستغن برأيه وأمره عنا. لا نراه إلا سيكون على قريش أشد من غيره.

ولما بلغ عليًّا مقالة القوم قام فحمد الله وأثنى وذكر فضلهم وحاجته إليهم وقال لهم خيراً وأثنى عليهم وتألفهم جهده ثم قال: لا يستغني الرجل وإن كان ذا مال وولد عن عشيرته، دِفاعهم بأيديهم وألسنتهم، هم أعظم الناس حيطة من ورائه وإليهم سعيه وعطفهم عليه إن أصابته مصيبة أو نزل به بعض مكاره الأمور، ومن يقبض يده عن عشيرته فإنه يقبض يداً واحدة وتقبض عنه أيد كثيرة، ومن بسط يده بالمعروف ابتغاء وجه الله تعالى يخلف الله له ما أنفق في دنياه ويضاعف له في آخرته. واعلموا أن لسان صدق يجعله الله للمرء في الناس خير له من المال، فلا يزددن أحدكم كبرياء ولا عظمة في نفسه ولا يغفل أحدكم عن القرابة أن يصلها بالذي لا يزيده إن أمسكه ولا ينقصه إن أهلكه، واعلموا أن الدنيا قد أدبرت والآخرة قد أقبلت، ألا وإن المضمار اليوم والسبق غداً، ألا وإن السبقة الجنة والغاية النار، ألا إن الأمل يُشهِّي القلب ويكذب الوعد ويأتي بغفلة ويورث حسرة فهو غرور وصاحبه في عناء فافزعوا الى قوام دينكم وإتمام صلاتكم وأداء زكاتكم والنصيحة لإمامكم وتعلموا كتاب الله واصدقوا الحديث عن رسول الله ﷺ وأوفوا بالعهد إذا عاهدتم وأدوا الأمانات إذا ائتمنتم، وارغبوا في ثواب الله وارهبوا عذابه واعملوا الخير تجزوا بالخير يوم يفوز بالخير من قدم الخير، ثم نادى: برئت الذمة من عبد لم يرجع إلى مواليه.

ائتمرت السبئية والأعراب وقالوا: لنا غداً مثلها ولا نستطيع أن نحتج فيهم بشيء، ثم خرج علي في اليوم الثالث، فقال: يا معشر الأعراب الحقوا بمياهكم، فأبت السبئية وأطاعهم الأعراب ودخل علي بيته وجاء طلحة والزبير وجماعة من أصحاب رسول الله ﷺ، فقال لهم علي: دونكم ثأركم فاقتلوه،

فقالوا: عتواً عن ذلك، فقال: هم واللّه بعد اليوم أعتى وآبى. ثم قال:

ولـو أن قـومي طـاوعتني سـراتهم   أمـرتهـم أمـراً يـديـخ الأعـاديـا

وقال طلحة: دعني فلآت البصرة، فلا يفجأك إلا وأنا في خيل، وقال الزبير: دعني فلآت الكوفة فلا يفجأك إلا وأنا في خيل، فقال: حتى أنظر.

أما علي، فقد صرفهما على زعم أن ينظر، وأحسبه كان يتخوف جانب الرجلين ويخشى أن يعيذاها عليه جذعة ويستنا به سنة أهل مصر بعثمان ويكون له معهما يوم كيوم الدار.

نتيجة الفتنة وقتل عثمان في زمن علي

كان المسلمون قبل انبثاق هذا البثق واشتعال جاحم الفتنة أمرهم مجتمعاً وحالهم حسنة يغبطون عليها من كل الأمم: جيوش منتصرة في جميع الأرجاء وبلاد تفتح وعدل شامل وشمل جامع وبسطة في الغنى والثروة وسطوة مرهوبة، فلما ربى هذا الأمر حتى صار أمراً ووقع هذا الحادث الجلل الذي اصطلم به خليفة المسلمين ظلماً وعدواناً، كان أول وهن دخل على المسلمين وأول أمر فرق كلمتهم وأوقع بينهم الشحناء وأورثهم البغضاء وصيرهم فرقاً متنافرة وفئات متدابرة يضرب بعضهم وجوه بعض هو قتل عثمان بن عفان.

يدل على هذا الافتراق أن الأمة قبل قتل عثمان كانت على قلب رجل واحد ووجهتهم واحدة لا يفترقون في شيء، فلما قتل ظهرت الشيعة وصاروا أشبه بهيئة معترف بها من الأمة غير خفية، قام في مقابلتها الناصبة أو العثمانية في الشام وأقليات في الأمصار، وهم الذين ينزعون إلى تأثيم علي في شأن عثمان ويحملونه تبعة قتله. وأقلهم طعناً عليه من يقول أنه تهاون في شأن قتلته فلم يتناولهم بالقصاص الواجب شرعاً.

لم يلبث الأمر طويلاً حتى قام الخوارج، وهم الذين ينقمون في باطن أمرهم ولاية قريش ويظهرون الغيرة على الدين والحمية للشريعة، وهم حرب لعلي ومعاوية معاً، ثم افترق هؤلاء الخوارج فرقاً فكان منهم:

١ ـ الأزارقة

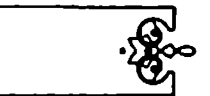
٢ ـ والنجدات

٣ ـ والعطوية

٤ ـ والأباضية وغيرهم وغيرهم إلى ما يربو على سبعين فرقة.

ولم يلبثوا أن صاروا أصحاب مذاهب في العقيدة ويكفرون المسلمين من أهل السنة والجماعة. مما قصه وشرحه ابن حزم في كتابه الفصل والشهرستاني في الملل والنحل، والمقريزي في خططه ومحمد بن يزيد في كامله، ثم كان انقسام الشيعة إلى طوائف وأصناف كالزيدية والكيسانية والأمامية إلى رافضة وغالية وإلى اسماعيلية وهكذا.

ولا ريب عندي في أن هذه الفتنة وما تلاها مما كان بين علي وبين عائشة وطلحة والزبير من الحرب ثم بينه وبين معاوية ثم بن الخفاء والخوارج وغيرهم من الطوائف التي نبتت وشبوب الثورات بعد الثورات كل ذلك كان بمثابة مرض عضال طرأ على الأمة وهي في عنفوان شبابها وميعة فتوتها فوقف فيضها الحيوي وعاقها أن تقوم بما يجب لمثلها من النمو وصدها عن استكمال شبابها على الحال اللائقة بها. وعلى الجملة فإن هذه الفتنة كانت شللاً في حياة الأمة الإسلامية ومصدراً لانحراف مزاجها وثلمة تعرض منها جسم تلك الأمة لمختلف الأمراض والعلل، ولولا تلك الفتنة وما نتج عنها لتغير وجه التاريخ ولكان الإسلام قد سال سيله على الأمم في جميع الأقطار والأصقاع، ولرأينا الأمم التي هي من أعدى أعداء الإسلام اليوم وأشدهن نكاية به أعظم من يطربه ويتعصب به ويغلو الغلو كله في إعلاء قدره والإشادة بذكره.



أول عمال علي

إن الأيدي التي بايعت عليًا بالأمس كانت ملوثة بدم الخليفة المقتـول وكان أكبر ما يـزعمونـه من الحجج عـلى قيامهم هـذا واجتراح مـا اجترحـوا من الإثم عماله الذين ملأوا الدنيا عجيجاً بالشكوى منهم وأذاعوا قالة السوء عن كل أمير منهم في مصره، فإذا أقر على أولئك العمال على أعمالهم الى أن يستوثق له الأمـر في الخلافة وتتسق له الأحوال كان ذلك منه إقراراً للظلم الذي استفزهم الألم منه وأحنقهم الإقرار عليه. وكـان بذلـك قد سجـل على السبئيـة أنهم قـاموا لسلب الخلافة من صاحبها الشرعي لا لسبب سوى الإفضاء بها إلى علي.

بهذا يمكننا أن نفهم السرعة الغريبة التي كانت منه في مبـادرة جميع عمـال عثمان بالعزل حتى كان ذلك أول أعماله، ولم يتربص بالأمر وصـول البيعة إليـه من أهل الأمصار ولم يصغ الى تحذير المحذرين ولا نصح الناصحـين. بل أبى من الإبقاء عليهم أو أحداً منهم إباء تامـاً كأنـه قد قـر في نفسه أن هؤلاء العمـال لا يصلحون لأن يلوا شيئاً من أمر المسلمين وأن الإبقاء على واحد منهم يومـاً كامـلاً نقص في دينه. ولو أنه أتأد في الأمر وعالجـه برفق وأنـاة واصطبـر حتى استتب له الأمـر وبايعـه أهل الأمصـار لما كـان في عزل الـولاة شيء لأن الخليفة هـو الذي يعطي الولاة سلطانهم فهو حر في اختيار عماله.

يعجب بعض ذوي البصائر من أهل النقد والرأي الراجح من مبادرتـه إلى عـزل عمال عثمـان مع رضـاه بتأخـير إقامـة الحد عـلى قتلته. أمـا تعليل ذلـك التعجيل في أمر الأمراء فقد بينته آنفاً. وأما تأخـير الحد عـلى القتلة فقد بينـه علي بنفسه إذ أوضح لطلحة والزبير وأصحاب رسول اللّه حين طالبوه بإقامة الحد على من شرك في دم عثمان فبين لهم أن القوم الذي في أيديهم دم عثمان يملكون أهل المدينة وأهل المدينة لا يملكونهم وقد ثارت إليهم العبدان وفاءت إليهم الأعـراب

وبأيديهم الحول والطول بالمدينة، وأهلها لا يقدرون منهم على شيء. وطلب إليهم انظاره حتى تهدأ الحال ويتمكن من أخذ المجرمين بذنوبهم.

دخل المغيرة بن شعبة على عليّ وكان داهية أريباً فقال: إن لك علىَّ حق الطاعة والنصيحة وإن الرأي اليوم تحرز به ما في غد وأن الضياع اليوم تضيع به ما في غد اقرر معاوية على عمله واقرر ابن عامر على عمله واقرر العمال على أعمالهم حتى إذا أتتك طاعتهم وبيعة الجنود استبدلت أو تركت. قال: حتى أنظر. وعاد إليه من الغد فقال إني أشرت عليك بالأمس برأي، وإن الرأي أن تعاجلهم بالنزوع فيعرف السامع من غيره وتستقبل أمرك ثم خرج. وتلقاه ابن عباس ـ وكان قد قدم من الحج بعد مقتل عثمان ـ فقال: رأيت المغيرة خرج من عندك ففيم جاءك؟ قال: جاءني أمس بذيَّة وذيَّة وجاءني اليوم بذيَّة وذيَّة، فقال: أما أمس فقد نصحك وأما اليوم فقد غشك، فقال له علي: ولم نصحني؟ فقال: لأنك تعلم أن معاوية وأصحابه أهل دنيا فمتى تثبتهم لا يبالون بمن ولي هذا الأمر ومتى تعزلهم يقولوا أخذ هذا الأمر بغير شورى وهو قتل صاحبنا ويؤلبون عليك فينتقض عليك أهل الشام وأهل العراق مع أني لا آمن طلحة والزبير أن يكرا عليك. فقال علي أما ما ذكرت من أقرارهم فوالله ما أشك أن ذلك خير في عاجل الدنيا ولاصلاحها|وأما الذي يلزمني من الحق والمعرفة بعمال عثمان فوالله لا أولي أحداً منهم أبداً فإن أقبلوا فذلك خير لهم وإن أدبروا بذلت لهم السيف. قال ابن عباس: فأطعني وادخل دارك أو الحق بمالك بينبع فإن العرب تجول وتضطرب عليك فإنك والله لئن نهضت مع هؤلاء اليوم ليحملنك الناس دم عثمان غداً. فأبى علي وقال لابن عباس: سر إلى الشام فقد وليتكها، فقال ابن عباس: ما هذا برأي، معاوية رجل من بني أمية وهو ابن عم عثمان وعامله على الشام ولست آمن أن يضرب عنقي بعثمان وأن أدنى ما هو صانع أن يحبسني ويتحكم علي. فقال علي: ولم؟ قال لقرابة ما بيني وبينك وأن كل ما حمل عليك حمل عليّ، ولكن أكتب الى معاوية فمنّه وعده، فأبى علي. فرق علي عماله على الأمصار: فأرسل عثمان بن حنيف الى البصرة، وعمارة ابن شهاب إلى الكوفة،

وعبيد اللّه بن عباس إلى اليمن، وقيس بن سعد بن عبادة الى مصر، وسهل بن حنيف إلى الشام.

فأما سهل بن حنيف فسار حتى أتى تبوك فلقيته خيل فسألوه من أنت؟ فقال: أمير على الشام. فقالوا: إن كان عثمان بعثك فحيلا بك وإن كان غيره بعثك فارجع. قال: أو ما سمعتم بالذي كان؟ قالوا: بلى فارجع الى علي فرجع.

وأما قيس بن سعد، فإنه سار حتى أتى أيلة فلقيته خيل فقالوا: من أنت فعمد إلى الحيلة وقال: أنا من فاله عثمان فأنا أطلب من آوى إليه وانتصر به. قالوا: من أنت؟ قال قيس بن سعد، فقالوا امض، فمضى حتى أتى مصر وأظهر أمره فيها فافترق أهل مصر فرقاً: فرقة دخلت في الجماعة وكانوا معه، وفرقة وقفت واعتزلت إلى خربتا وقالوا، إن قتل قتلة عثمان فنحن معكم وإلا فنحن على جديلتنا حتى نحرك أو نصيب حاجتنا. وفرقة قالوا، نحن مع علي ما لم يقد إخواننا وهم في ذلك مع الجماعة، وكتب قيس الى عليّ بذلك.

وأما عثمان بن حنيف فسار إلى البصرة فلم يرده أحد عن دخولها ولم يوجد في ذلك لابن عامر رأى ولا حزم ولا استقبال بحرب، وافترق الناس بها فاتبعت فرقة القوم ودخلت فرقة في الجماعة وفرقة قالت ننظر ما يصنع أهل المدينة فنصنع كما صنعوا.

وأما عمارة بن شهاب فأقبل حتى إذا كان بزُبالة لقي طليحة الأسدي وقد خرج يدعو الى الطلب بدم عثمان، فقال لعمارة: ارجع فإن الناس لا يريدون بأميرهم بدلاً وإن أبيت ضربت عنقك فرجع وهو يقول: احذر الخطر ما يماسك، الشر خيرٌ من شر منه.

وانطلق عبيد اللّه بن عباس إلى اليمن فجمع يعلي بن أمية كل شيء من الجباية وتركه وخرج بذلك وهو سائر على حاميته الى مكة فقدمها بالمال.



اضطراب الحبل

اضطرب الحبل على علي وأتاه ما لم يكن يحتسب فأرسل يثبت أبا موسى على الكوفة فجاءه ببيعة أهلها وبين له من أبى البيعة وسخط لما كان، حتى كأن علياً ناظر الى أهل الكوفة وقد افترقوا على مثل ما افترق عليه أهل البصرة.

ودعا علي طلحة والزبير فقال: إن الذي كنت أحذركم قد وقع يا قوم وإن الأمر الذي وقع لا يدرك إلا بإماتته، وإنها فتنة كالنار كلما سُعرّت ازدادت واستثارت. فقالا له فأذن لنا أن نخرج من المدينة فإما أن نكابر وإما أن تدعنا فقال سأمسك الأمر ما استمسك فإذا لم أجد بدًّا فآخر الدراء الكي. والذي يظهر أن اعتياص الأمور على عليٍّ كان مما يسرهما، وأن الأمر إذا اضطرب عليه وأعيت مذاهبه ونفض يده من الإمارة طوعاً أو كرهاً أفضى الأمز الى واحد منهما. وإذا اشترك اثنان أو جماعة في بغض سلطان ذي سلطان فإنهم لا يحسون بما بينهم في أشخاصهم من الكراهة والبغض. وإن اشتراكهما في كراهته يؤلف بينهما ويكون كَلُحمَة النسب ولا يلتفت واحد منهم الى ما بينه وبين الآخرين إلا إذا فرغوا من العدو المشترك، وكأني بعلي كان يقرأ ما يجول في ضمير كل من طلحة والزبير ولكنه لا يريد أن يفتح باب فتنة جديدة تكون أقرب إليه من سواها.

أرسل علي بعد إرسال سهل بن حنيف الى معاوية سيرة الجهني يطلب إليه أن يبايع فقدم عليه، فلم يَرُدّ معاوية جواباً ولم يجبه وجعل كلما تنجز جوابه لم يزد على قوله:

أدم أدامه حصن أوحد بيدي ... حرباً ضر وساً تشب الجزل والضرما
في جاركم وبكم إذا كان مقتلة ... شنعاء شيّبت الأصداغ واللمما
أعيا المسود بها والسيدون فلم ... يوجد لها غيرنا مولى ولا حكماً

حتى إذا كان الشهر الثالث من مقتل عثمان في صفر دعا معاوية برجل من

بني عبس يدعى قبيصة فدفع إليه طوماراً مختوماً عنوانه (من معاوية الى علي) وقال له إذا دخلت المدينة قابض على أسفل الطومار ثم أوصاه بما يقول وسرح رسول علي وخرجا فقدما المدينة في ربيع الأول لغرته. فلما دخلا المدينة رفع العبسي الطومار كما أمره وخرج الناس ينظرون اليه. فتفرقوا الى منازلهم وقد علموا أن معاوية معترض ومضى الرجل حتى دخل على علي فدفع إليه الطومار نفض خاتمه فلم ير في جوفه كتابة فقال للرسول ما وراءك. قال آمن أنا؟ قال نعم فإن الرسل آمنة لا تقتل. قال ورائي أني تركت ستين ألف شيخ يبكي تحت قميص عثمان وهو منصوب لهم قد ألبسوه منبر دمشق. فقال مني يطلبون دم عثمان؟ ألست موتوراً كترة عثمان؟ اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان إلا أن يشاء اللّه. فإنه إذا أراد أمراً أصابه. أخرج. قال وأنا آمن؟ قال وأنت آمن. فخرج العبسي، وصاحت السبئية وقالوا هذا الكلب وافد الكلاب اقتلوه. فنادى يا آل مضر بآل قيس: الخيل والنبل إني أحلف باللّه جل اسمه ليردنها عليكم أربعة آلاف خصى فانظروا كم الفحولة والركاب. وتعاووا عليه ومنعته مضر ويقولون له اسكت، فيقول: لا واللّه لا يفلح هؤلاء أبداً فلقد أتاهم ما يوعدون، فيقولون اسكت فيقول لقد حل بهم ما يحذرون انتهت واللّه أعمالهم وذهبت ريحهم، يقول فواللّه ما أمسوا حتى عرف الذل فيهم.

(استئذان طلحة والزبير).

جاء طلحة والزبير واستأذنا عليًّا في العمرة فأذن لهما وهو يعلم أنهما لا يريدان ذلك وأنهما خرجا كراهة لأمره.

إن الرجلين قد بايعا مكرهين وكان لكل منهما شيعة تريده على الخلافة، وقد أراد كل منهما أن يظهر الزهادة في الولاية حتى لا يتهم بالشركة في دم الخليفة المقتول وحتى لا يؤخذ عليه أمر أو يقول له قائل إنه كان يريدها. ولكن السبئية قد غلبوا على الأمر وكانت الأنظار متجهة إلى علي أكثر منهما، فلما فاتهما أمر

الولاية العظمى طمعاً في أن يوليهما ويكونا على انتظار ما يأتي به القدر بعد ذلك.

قال ابن قتيبة: إنهما قالا لعلي: هل تدري يا علي علام بايعناك؟ قال: نعم على السمع والطاعة وعلى ما بايعتما أبا بكر وعمر وعثمان: فقالا لا ولكن بايعناك على أنا شريكاك في الأمر، قال علي لا ولكنكما شريكان في القول والاستقامة والعون على العجز والأود قال: كان الزبير لا يشك في ولاية العراق وطلحة في اليمن. فلما استبان لهما أن عليًّا غير موليهما شيئاً أظهرا الشكاة فتكلم الزبير في ملأ من قريش فقال: هذا جزاؤنا من علي قمنا له في أمر عثمان حتى أثبتنا عليه الذنب وسببنا له القتل وهو جالس في بيته وكفى الأمر فلما نال بنا ما أراد جعل دوننا غيرنا، فقال طلحة: ما اللوم إلا أنا كنا ثلاثة من أهل الشورى كرهه أحدنا وبايعناه وأعطيناه ما في أيدينا ومنعنا ما في يده فأصبحنا قد أخطأنا ما رجونا. وأنهى قولهما إلى علي فدعا عبد اللّه بن عباس وكان استبطنه فقال: قد بلغك قول هذين الرجلين قال نعم بلغني قولهما قال فما ترى؟ قال: أرى أنهما أحبا الولاية. فول البصرة الزبير وول طلحة الكوفة. فإنهما ليسا بأقرب إليك من الوليد وابن عامر من عثمان، فضحك علي ثم قال: ويحك إن العراقين بهما الرجال والأموال ومتى تملكا رقاب الناس يستملان السفيه بالطمع ويضربان الضعيف بالبلاء ويقويان على القوي بالسلطان ولو كنت مستعملاً أحد الضرة أو نفعه لاستعملت معاوية على الشام. ولولا ما ظهر لي من حرصهما على الولاية لكان لي فيهما رأي. قال. ثم أتى طلحة والزبير الى علي فقالا يا أمير المؤمنين ائذن لنا الى العمرة فإن تقم إلى انقضائها رجعنا إليك وأن تسر نتبعك. فنظر إليهما وقال: نعم، واللّه ما العمرة تريدان، أمضيا إلى شأنكما فمضيا.

أحب أهل المدينة بعد ذلك أن يعلموا رأي علي في معاوية وانتقاضه ليعرفوا بذلك رأيه في قتال أهل القبلة، أيجسر عليه أو ينكل عنه. وقد بلغهم أن الحسن بن علي دخل عليه ودعاه الى القعود وترك الناس، فدسوا عليه زياد بن

حنظلة التميمي وكان منقطعاً إليه، فدخل عليه ثم قال له علي: يا زياد: تيسر، فقال: لأي شيء؟ فقال: تغزو الشام. فقال زياد: الاناة والرفق أمثل. وقال:

ومن لا يصانع في أمور كثيرة   يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

فتمثل علي وكأنه لا يريده:

متى تجمع القلب الذكي وصارما   وأنفاً حمياً تجتنبك المظالم

فخرج زياد على الناس وهم ينتظرونه. فقالوا له: ما وراءك؟ فقال: السيف يا قوم فعرفوا ما هو فاعل. ودعا على ابنه محمد بن الحنفية فدفع إليه اللواء وولى عبد اللّه بن عباس ميمنته وعمر بن سفيان ميسرته وأبا ليلى عمر بن الجراح مقدمته واستخلف على المدينة قثم بن العباس. وخطب أهل المدينة فدعاهم الى النهوض في قتال أهل الفرقة وقال: إن اللّه عز وجل بعث رسولاً مهدياً بكتاب ناطق في أمر قائم واضح، لا يهلك عنه إلا هالك، وأن المبتدعات والشبهات هن المهلكات إلاّ من حفظ اللّه وإن في سلطان اللّه عصمة أمركم فأعطوه طاعتكم غير ملوية ولا مستكره بها، واللّه لتفعلن أو لينقلن اللّه عنكم سلطان الإسلام، ثم لا ينقله إليكم أبداً حتى يأرز الأمر إليها. انهضوا الى القوم الذين يريدون يفرقون جماعتكم لعل اللّه يصلح بكم ما أفسد أهل الآفاق:

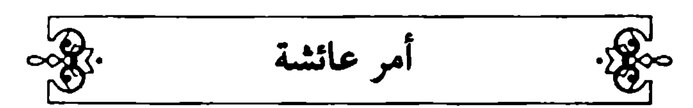
بينما هم كذلك إذ جاء الخبر عن أهل مكة بنحو آخر وتمام على خلاف، وإن القائم في ذلك طلحة والزبير وعائشة أم المؤمنين، فقام في الناس وأعلمهم بما حدث من الفرقة في مكة وأنبأهم بأنه سيمسك عنهم ويصبر ما لم يخف على جماعة المدينة وأنه يكف إن كفوا واقتصروا على ما بلغه عنهم. وبلغه أنهم يريدون البصرة لمشاهدة الناس والإصلاح، فتعبي للخروج اليهم وقال: إن فعلوا هذا فقد انقطع نظام المسلمين، وما كان عليهم في المقام فينا مؤونة ولا إكراه. فاشتد الأمر على أهل المدينة واثّاقلوا.

وكان علي أراد أن ينهض معه عبد اللّه بن عمر ليكون للناس به أسوة

فقال: أنا رجل من أهل المدينة فإن يخرجوا أخرج وإن يقعدوا أقعد. قال: فأعطني بذلك زعيماً فأبى. ورجع إلى المدينة والناس يقولون: لا واللّه ما ندري كيف نصنع فإن الأمر لمشتبه علينا، ونحن مقيمون حتى يضيء لنا ويسفر.

وقد قام علي في أهل المدينة ووجوهها واستنهضهم في القيام معه فنهض معه من أهل بدر ستة نفر.

فأنتم ترون أن الأمور تتعسر عليه من أول يوم، وأصحابه لم يكونوا على بينه من أمرهم. أما معاوية فلم يتعسر عليه شيء من ذلك، بل تأتي لأموره بالحزم والصبر والتأني واستدخال أولى الرأي، حتى استقام أمره ولم يحدث له ما حصل لعلي.



أمر عائشة

لما قتل عثمان هرب بنو أمية فلحقوا بمكة قبل أن بايع الناس عليًّا، وكان تساقط الهراب إليها وعائشة مقيمة بها، فاستخبرتهم، فأجابوها بأن قتل عثمان ولم يجبهم الى التأمير أحد فقالت عائشة: ولكن أكياس. هذا غبٌّ ما كان يدور بينكم من عتاب الاستصلاح. فلما قضت عمرتها وخرجت وانتهت إلى سَرف لقيها رجل من أخوالها بني ليث وكانت واصلة لهم رفيقة عليهم يقال له عبد اللّه بن أبي سلمة ويعرف بأمه أم كلاب فقالت: فهيم؟ فاصم ودمدم، فقالت: ويحك علينا أو لنا؟ قال لا ندري قتل عثمان فبقوا ثمانياً. قالت: ثم صنعوا ماذا؟ فقال: أخذوا أهل المدينة بالاجتماع على علي والقومُ الغالبون على المدينة. فرجعت الى مكة وهي لا تقول شيئاً حتى نزلت على باب المسجد وقصدت للحجر فسترت به. واجتمع الناس اليها فقالت: أيها الناس إن الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة اجتمعوا، إن عاب الغوغاء على هذا المقتول بالأمس الأرب واستعمال من حدُثت سنه وقد استعمل أسنانهم قبله

ومواضع من مواضع الحمى حماها لهم وهي أمور قد سبق بها لا يصلح غيرها فتابعهم ونزع لهم عنها استصلاحاً لهم فلم يجدوها حجة أو عذراً فلجوا وبادروا بالعدوان ونبا فعلهم عن قولهم فسفكوا الدم الحرام واستحلوا البلد الحرام وأخذوا المال الحرام واستحلوا الشهر الحرام والله لأصبع عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم فنجاء من اجتماعكم عليهم حتى ينكل بهم غيرهم ويشردهم من بعدهم، والله لو أن للذي اعتدوا عليه ذنباً لخلص منه كما يخلص الذهب من خبثه أو الثوب من درنه إذ ماصوه كما يماص الثوب بالماء، فقال عبد الله بن عامر: ها أنا ذا لها أول طالب. وكان أول مجيب ومنتدب.

لو أن عائشة كانت تقول مثل هذه الخطبة بالمدينة قبل أن تخرج للحج لكان الأرم أرجى للقبول منها، ولكنها إنما ترهب من هذا الأمر كله خلافة علي. ولو أن الخليفة كان طلحة أو الزبير لكان في ذلك رضى لها لأن طلحة تيمي من قومها والزبير زوج أختها.

والذي أحفظها على علي وجعلها تكره إمرته أنه كان بينها وبينه في مدة رسول الله ﷺ جفاء من يوم حديث الإفك إذ تحدّث الناس وكثر الكلام واغتم رسول الله لذلك. فقال له علي: لن يضيّق الله عليك والنساء غيرها كثير، ولو سألت بريرة لصدقتك عنها. فكان قول علي هذا مما غير قلب عائشة عليه وجعلها تذكر اسمه. حتى أنها لما ذكرت أن رسول الله خرج وهو مريض إلى المسجد قالت خرج يتهادى بين العباس ورجل آخر تعني عليًّا. وروي أنها لما بلغها مقتل علي قالت:

فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عيناً بالإياب المسافر

وكانت إجابة عبد الله بن عامر أول ما تكلم به الناس بالحجاز، فرفع بنو أمية رؤوسهم، وقام معهم الوليد بن عقبة وسائر بني أمية وعبد الله بن عامر أمير البصرة ويعلي بن أمية قدم من اليمن وطلحة والزبير من المدينة واجتمع ملؤهم بعد مراجعة طويلة على البصرة، وقالت عائشة: أيها الناس إن هذا حدث عظيم

وأمر منكر فانهضوا فيه إلى إخوانكم من أهل البصرة فأنكروه فقد كفاكم أهل الشام ما عندهم لعل اللّه عز وجل يدرك لعثمان وللمسلمين بأثرهم.

وروي الطبري أن أول من أجاب إلى أمر عائشة عبد اللّه بن عامر وبنو أمية وكانوا قد سقطوا إليها بعد مقتل عثمان وقد قدم ابن عامر أولا ثم قدم يعلي ابن أمية فاتفقا بمكة ومع يعلي ستمائية بعير وستمائة ألف فأناخ بالابطح معسكراً وقدم معها طلحة والزبير فلقيا عائشة فقالت ما وراءكما؟ فقالا وراءنا أنا تحملنا بكليتنا هراباً من المدينة من غوغاء وأعراب وفارقنا قوماً حيارى لا يعرفون حقًّا ولا ينكرون باطلاً ولا يمنعون أنفسهم، قالت: فائتمروا أمراً، ثم نهضوا الى هذه الغوغاء ثم تمثلت:

ولو أن قومي طاوعتني سراتهم   لأنقذتهم من الخبال أو الخبل

وقال القوم فيما ائتمروا به: الشام، فقال عبد اللّه بن عامر قد كفاكم الشام من يستمر في حوزته. فقال طلحة والزبير: فأين؟ قال البصرة فإن لي بها صنائع ولهم في طلحة هوى، قالوا قبحك اللّه فواللّه ما كنت بالمسالم ولا بالمحارب، فهلا أقمت كما أقام معاوية فنكتفي بك ونأتي الكوفة فنسد على هؤلاء القوم المذاهب؟ فلم يجدوا عنده جواباً مقبولاً حتى إذا استقام لهم الرأي على البصرة قالوا: يا أم المؤمنين، دعى المدينة فإن من معنا لا يقرنون تلك الغوغاء التي بها. واشخصي معنا إلى البصرة فإنا نأتي بلداً مضيعاً وسيحتجون علينا في بيعة علي بن أبي طالب فتنهضيهم كما أنهضت أهل مكة ثم تقعدين فإن أصلح اللّه الأمر كان الذين تريدين وإلا احتسبنا ودفعنا عن هذا الأمر بجهدنا حتى يقضي اللّه ما أراد فلما قالوا ذلك لها ولم يكن ذلك مستقيماً إلا بها قالت نعم، وقد كان أزواج النبي ﷺ على قصد المدينة، فلما تحول رأيها الى البصرة تركن ذلك، وانطلق القوم الى حفصة فقالت: رأي تبع لرأي عائشة حتى إذا لم يبق إلا الخروج قال لهم يعلي بن أمية، معي ستمائة ألف وستمائة بعير فاركبوها، وقال: ابن عامر معي كذا وكذا فتجهزوا به فنادى المنادى: إن المؤمنين وطلحة والزبير

شاخصون الى البصرة فمن كان يريد إعزاز الإسلام وقتال المحلين والطلب بثأر عثمان ولم يكن عنده مركب ولم يكن له جهاز فهذا جهاز وهذه نفقة. فحملوا ستمائة رجل على ستمائة من الإبل سوى من كان له مركب وكانوا ألفاً. وتجهزوا بالمال ونادوا بالرحيل واستقلوا ذاهبين. وأرادت حفصة الخروج فأتاها عبد الله ابن عمر ـ وكان شخص الى مكة بإذن على معتمراً ـ فطلب إليها أن تقعد فقعدت وبعثت تقول لعائشة: عبد الله حال بيني وبين الخزرج فقالت يغفر الله لعبد الله، وبعثت أم الفضل بنت الحارث رجلاً من جهينة يدعي ظفراً، فاستأجرته على أن يطوي ويأتي عليًّا بكتاب كتبت به إليه.

وسار معهم مروان وسائر بني أمية إلا من خشع منهم ولم يزالوا سائرين حتى قاربوا البصرة، كان الزبير وطلحة قد كاتب ناساً من أهل البصرة ليدخلوهم فيما اعتزما عليه وما جاءا مع عائشة له، فكتبا الى سعد بن سور « أما بعد فإنك قاضي عمر بن الخطاب وشيخ أهل البصرة وسيد أهل اليمن وقد كنت غضبت لعثمان من الأذى فاغضب له من القتل والسلام » فأجابهما « أما بعد: فإنا غضبنا لعثمان من الأذى والغير باللسان فجاء أمر الغير فيه بالسيف. فإن يك عثمان قُتِل ظالماً فمالكما وله، وإن كان قتل مظلوماً فغيركما أولى به، وإن كان أمره أشكل على من شهده فهو على من غاب عنه أشكل » وكتاباً إلى الأحنف بن قيس « أما بعد فإنك وافد عمر وسيد مضر وحليم أهل العراق وقد بلغك مصاب عثمان ونحن قادمون عليك والعيان أشفى لك من الخبر والسلام » فأجابهما: أما بعد فإنه لم يأتينا من قبلكم أمر لا نشك فيه إلاّ قتل عثمان. وأنتم قادمون علينا فإن يك في العيان فضل نظرنا فيه ونظرتم وإن لا يكن فيه فضل فليس في أيدينا ولا في أيديكم ثقة والسلام » وكتبا الى المنذر بن الجارود « أما بعد فإن أباك كان رئيساً في الجاهلية وسيداً في الإسلام، وإنك من أبيك بمنزلة المصلي من السابق يقال كاد أو لحق. وقد قتل عثمان من أنت خير منه وغضب له من هو خير منك والسلام » فأجابهما المنذر « أما بعد ـ فإنه لم يلحقني بأهل الخير إلا أن أكون خيراً من أهل الشر. وإنما أوجب حق عثمان

اليوم حقه أمس، وقد كان بين أظهركم فخذلتموه، فمتى استنبطتم هـذا العلم، وبدا لكم هذا الرأي؟

وقد ذكر صاحب الإمامة والسياسة أن القوم في مسيرهم إلى البصرة نـزلوا بـأوطاس من خيبـر، فأشـرف عليهم سعيد بن العـاص ومعه المغيـرة بن شعبة، وقال لعائشة أين تريدين يا أم المؤمنـين؟ قالت أريـد البصرة، قـال وما تصنعـين بالبصرة؟ قالت أطلب بدم عثمان ، قال فهؤلاء قتلة عثمان معك. ثم أقبل على مروان فقال له: وأنت أين تريد أيضاً؟ قـال البصرة. قـال وما تصنـع بها؟ قـال أطلب قتلة عثمـان، قـال فهؤلاء قتلة عثمـان معـك. إن هـذين الـرجلين قتـلا عثمان (طلحة والزبير) وهما يريدان الأمر لأنفسهما. فلما غلبا عليـه قالا: نغسـل الدم بالدم والحوبة وبالتوبة ثم قـال المغيرة بن شعبـة: أيها النـاس، إن كنتم إنما خرجتم مع أمكم فارجعوا بها خيراً لكم. وإن كنتم غضبتم لعثمـان فرؤسـائكم قتلوا عثمـان. وإن كنتم نقمتم على عـلي شيئاً فبينـوا ما نقمتم عليـه. أنشـدكم اللّه. فتنتين في عام واحد؟ فأبوا إلا أن يمضوا بالناس، فلحق سعيـد بن العاص باليمن ولحق المغيرة بالطائف، فلم يشهـدا شيئاً من حـروب الجمل ولا صفـين. أقـول إن الخبر عـلى هذا الـوجه غـريب وإن طبيعة الجمـاعات أنهم لا يـطيقون الكلام على مثل هذا الوجه فإنا من هذا الخبر في شك.

ولما دنوا من البصرة وعلم بقدومهم عثمان بن حنيف أمير البصـرة من قبل علي ندب رجلين هما عمران بن حصـين وأبو الأسـود الدؤلي، ليسيـرا فيعلما ماذا يريد القوم. ولما وصلا استأذنا على عـائشة فـأذنت لهما واستخبـراها عن قـدومها فقالت لهما: إن الغوغاء من أهل الأمصار ونزاع أهل القبـائل غـزوا حرم رسـول اللّه وأحدثوا فيـه الأحداث وأووا فيـه المحدثـين واستوجبـوا فيه لعنـة اللّه ولعنة رسوله، مع ما نـالوا من قتـل إمام المسلمـين بلا تـرة ولا عذر، فـاستحلوا الدم الحرام فسفكوه وانتهبـوا المال الحـرام وأحلوا البلد الحرام والشهـر الحرام ومـزقوا الأعراض والجلود وأقاموا في دار قوم كانوا كارهين لمقـامهم ضارين مضـرين غير نـافعـين ولا متقـين لا يقـدرون عـلى امتنـاع ولا يـأمنـون، فخرجت في المسلمين

أعلمهم ما أتى هؤلاء القوم وما فيه الناس وراءنا وما ينبغي لهم أن يأتوا في إصلاح هذا ـ وقرأت ﴿**لا خير في كثير من نجواهم إلاّ من أمر بصدقة في معروف أو إصلاح بين الناس**﴾[1] نُنْهِضُ في الإصلاح ممن أمر الله عز وجل ورسول الله ﷺ الصغير والكبير والذكر والأنثى. فهذا شأننا إلى معروف نأمركم به ونحضكم عليه، ومنكر نناهاكم عنه ونحثكم على تغييره. ثم سألا طلحة ما أقدمك، فقال المطالبة بدم عثمان، قالا ألم تبايع عليًّا؟ قال بلى واللج على عنقي وما أستقيل عليًّا إن هو لم يحل بيننا وبين قتلة عثمان، ولقيا الزبير فقال لهما مثل قول طلحة، ثم عاد الرجلان الى عثمان بن حنيف بما سمعا.

عزم عثمان بن حنيف على منع القوم من البصرة، فخطب في الناس فقال أيها الناس إنما بايعتم الله، يد الله فوق أيديكم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً، والله لو علم علي أن أحداً أحق بهذا الأمر منه ما قبله، ولو بايع الناس غيره لبايع من بايعوا وأطاع من ولوا وما به إلى أحد من أصحاب رسول الله حاجة وما بأحد عنه غنى ولقد شاركهم في محاسنهم وما شاركوه في محاسنه ولقد بايعه هذان الرجلان وما يريدان الله. فاستعجلا الفطام قبل الرضاع والرضاع قبل الولادة والولادة قبل الحمل وطلبا ثواب الله من العباد، وقد زعماً أنهما بايعا مستكرهين فإن كانا استكرها قبل بيعتهما وكانا رجلين من عرض قريش لهما أن يقولا ألا وإن الهدى ما كانت عليه العامة والعامة على بيعة علي. فما ترون؟ فقال حكيم بن جبلة العبدي: نرى إن دخلا علينا قاتلناهما وإن وقفا تلقيناهما. والله ما أبالي أن أقاتلهما وحدي وإن كنت أحب الحياة. وما أخشى في طريق الحق وحشة ولا غيرة ولا غشاً ولا سوء منقلب إلى بعث. وإنها لدعوة قتيلها شهيد وحيها فائز والتعجيل الى الله قبل الأجر خير من التأخير في الدنيا، وهذه ربيعة معك.

لم يكن أهل البصرة على رأي واحد، فلما قدم جيش عائشة الى البصرة خرج إليهم من هم على مثل رأيهم.

---

(١) سورة النساء: الآية ١١٤

وكان عثمان حين أراد أن يقوم على أمره ويجدّ في رد أصحاب الجمل أتاه هشام بن عامر وقال له: يا عثمان إن هذا فتق لا يرتق وصدع لا يجبر، فسامحهم حتى يأتي أمر علي ولا تحادّهم. فأبى ونادى في الناس بالتهيؤ ولبسوا السلاح واجتمعوا الى المسجد الجامع وأقبل عثمان على الكيد. فكاد الناس لينظر ما عندهم. ودس الى الناس رجلاً كوفياً قيسياً. فقال: أيها الناس، أنا قيس بن العقدية الحميسي، إن هؤلاء القوم الذين جاءوكم. إن كانوا جاءوكم خائفين فقد جاؤوا من المكان الذي يأمن فيه الطير وإن جاءوا يطلبون دم عثمان فما نحن بقتلة عثمان، أطيعوني في هؤلاء القوم فردوهم من حيث جاؤا. فقام إليه الأسود ابن سريع السعدي فقال: أو زعموا أنا قتلة عثمان رضي اللّه عنه؟ فإنما فزعوا إلينا ليستعينوا بنا على قتلة عثمان منا ومن غيرنا فإن كان القوم قد أخرجوا من ديارهم كما زعمت فمن يمنعهم أن يخرجوا؟ الرجال أو البلدان؟ فحصبه الناس فعلم عثمان أن لهم بالبصرة ناصراً ممن يقوم معهم. فكره ذلك.

أقبلت عائشة فيمن معها حتى انتهوا الى المِربد ودخلوا من أعلا وأمسكوا ووقفوا حتى خرج عثمان ومن كان معه، وجعلوا يتوافدون حتى غص بالناس فقام طلحة في ميمنة المربد ومعه الزبير وعثمان في ميسرته. فحمد اللّه وأثنى عليه وذكر عثمان رضي اللّه عنه وفضله والبلد وما استحل منه وعظم ما أتى إليه ودعا إلى الطلب بدمه وقال: إن في ذلك إعزاز دين اللّه عز وجل وسلطانه وأما الطلب بدم الخليفة المظلوم فهو حد من حدود اللّه وإنكم إن فعلتم أصبتم وعاد أمركم إليكم وإن تركتم لم يكن لكم سلطان ولم يقم لكم نظام. وتكلم الزبير بمثل ذلك فقال من بالميمنة: صدقاً وبراً، وقال من بالميسرة: فجرا وغدرا وقالا الباطل وأمرا به قد بايعا ثم جاءا يقولان ما يقولان وتحاثا الناس بالتراب وتحاصبوا ومرج أمرهم. فتكلمت عائشة وكانت جهورية الصوت يعلو صوتها كثرة كأنها صوت امرأة جليلة، فحمدت اللّه عز وجل وأثنت عليه وقالت: كان الناس يتجنون على عثمان رضي اللّه عنه ويَزْرُون على عماله ويأتوننا بالمدينة فيستشيروننا فيما يخبروننا عنهم ويرون حسناً من كلامنا في صلاح بينهم فننظر في

ذلك فنجده بريًّا تقيًّا وفيًّا ونجدهم فجرة غدرة كَذبة يحاولـون غير مـا يظهـرون. فلما قووا على المكابرة كاثـروه فاقتحمـوا عليه داره واستحلوا الـدم الحرام والمـال الحرام والبلد الحرام بلا ترة ولا عذر، ألا إن مما ينبغي ولا ينبغي لكم غيره أخذ قتلة عثمان رضي اللّه عنه، وإقـامة كتـاب اللّه ليحكم بينهم، فافتـرق أصحاب عثمان بن حنيف فرقتين: فرقة قالت صـدقت وبرت وجـاءت واللّه بالمعـروف، وقال الآخرون: كذبتم واللّه ما نعرف ما تقولون فتحاثوا وتحاصبوا وأرهجـوا فلما رأت عائشة ذلك انحدرت وانحدر معها أهل الميمنة مفارقين لعثمان الى موضـع في المـربد وبقي أصحـاب عثمان يتـدافعـون حتى تحـاجـزوا ـ ومـال بعضهم الى عائشة، وأخذ عثمان ومن معه على طريق المسجد.

أقبل جارية بن قدامة السعدي فقـال: يا أم المؤمنـين، واللّه لقتل عثمـان أهون من خروجك من بيتك على هذا الجمـل الملعون عـرضة للسـلاح. إنه قـد كان لك من اللّه ستر وحرمة فهتكتِ سترك وأبحت حرمتك. إنه من رأى قتالك فإنه يرى قتلك. إن كنت خرجت طـائعة فـارجعي الى منزلـك. وإن كنت أتيتنا مستكرهة فاستعيني بالناس. وخرج شاب من بني سعد إلى طلحة والزبـير فقال: أما أنت يا زبير فحواري رسول اللّه ﷺ. وأما أنت يا طلحة فـوقيت رسول اللّه ﷺ بيدك. وأرى أمكما معكما فهل جئتما بنسائكما؟ قالا: لا، قـال: فما أنـا منكما في شيء، واعتزل وقال:

صنتم حـلائلكم وقـدتم أمكم ... هــذا لعمـري قلة الإنصــاف
أمـرت بجـر ذيـولهـا في بيتهــا ... فهـوت تشق البيـد بـالإيجـاف
عـرضـاً يقـاتـل دونها أبنـاؤهـا ... بـالنبـل والخـطى والأسيـاف
هتكت بطلحة والزبير ستـورها ... هــذا المخبـر عنهم والكـافي

وأقبل غلام من جهينة على محمـد بن طلحة ـ وكـان محمد رجـلاً عابـداً ـ فقال: أخبرني عن قتلة عثمان، فقال: نعم، دم عثمان على ثلاثة أثـلاث: ثلث على صاحبة الهودج (يعني عـائشة) وثلث عـلى صاحب الجمـل الأحمر (يعني أبـاه

طلحة) وثلث علِ على بن أبي طالب. فقال الغلام: لا أراني عـلى ضلال. ولحق يعلى وقال:

سـألت بن طلحة عن هـالـك	بـجـوف المـدينـة لم يـقـبـر
فـقـال ثـلاثـة رهط هـمُ	أمـاتـوا ابن عفـان واستعبـر
فثلث عـلى تلك في خـدرهـا	وثـلـث عِـلى راكـب الأحمـر
وثـلث عـلي بـن أبي طـالـب	ونـحـن بـدويّـة قـرقـر
فقلت صـدقت عـلى الأولـين	وأخـطأت في الثـالث الأزهـر

ولما تم أمر الفريقين عـلى النحو الـذي وصفنا، أقبـل حكيم بن جبلة وهو في الخليل فأنشب القتال وأشـرع أصحاب عـائشة رمـاحهم وأمسكوا ليمسكـوا فلم يَثْنِه ولم يُثن، فقاتلهم وأصحاب عائشـة كافـون إلاّ ما دافعـوا عن أنفسهم. وهو يذمر خيله ويقول: إنها قريش ليردنها جبنهـا والطيش واقتتلوا وأشـرف أهل الـدور ممن كان لـه في أحد الفـريقين هـوى فكّانـوا يرمـون مخالفيهم بـالحجارة. وأمرت عائشة أصحابها فتيامنوا حتى انتهوا الى مقبرة بني مازن وثـار إليهم الناس حتى حجزهم الليل. ثم جاء أبو الجـرباء التميمي فـأشار عـلى طلحة ومن معـه بمكـان أمثل من مكـانهم. فساروا الى مقبـرة بني حصن وباتـوا يتأهبـون للحرب وأصبح عثمان ومعـه جبلة خارجـين للحرب وجبلة يسب عـائشة. ولامـه رجل وامـرأة فقتلهما. والتقى الفـريقان وقتـل من أصحاب عثمـان خلق كثـير وفشت الجراحات في الفريقين ومنادى عائشة يناشدهم.ويدعـوهم الى الكف فيأبـون الى أن زالـت الشمس وعضتهم الحرب ومسهم الشر، نـادوا أصحاب عـائشة.. إلى الصلح فأجابوهم وتواعـدوا وكتبوا بينهم كتـاباً عـلى أن يبعثـوا رسولاً الى المـدينة ليستخبر أهلها. فإن كان طلحة والزبير أكرها على بيعـة علي خـرج عثمان عنهـما وأخلى لهما البصرة وإن لم يكونا أكرها خرج طلحة والزبير عنها وهذا هو الكتـاب بالصلح: « بسم الله الرحمن الرحيم ». هذا ما اصطلح عليه طلحة والزبير ومن معهـما من المؤمنـين والمسلمـين وعثمـان بن حنيف ومن معـه من المؤمنـين

والمسلمين. إن عثمان يقيم حيث أدركه الصلح على ما في يده وإن طلحة والزبير يقيمان حيث أدركهما الصلح على ما في أيديهما حتى يرجع أمين الفريقين كعب ابن سورمن المدينة ولا يضار واحد من الفريقين الآخر في مسجد ولا سوق ولا طريق ولا فرضة. بينهم عيبة مفتوحة حتى يرجع كعب بالخبر فإن رجع بأن القوم أكرهوا طلحة والزبير فالأمر أمرهما، وإن شاء عثمان خرج حتى يلحق بطيته وإن شاء دخل معهما. وإن رجع بأنهما لم يكرها فالأمر أمر عثمان، فإن شاء طلحة والزبير أقاما على طاعة علي وإن شاءا خرجا حتى يلحقا بطيتها والمؤمنون أعوان الفالج منهما » فخرج كعب بن سور حتى قدم المدينة يوم الجمعة واجتمع الناس لقدومه فقال: يا أهل المدينة إني رسول أهل البصرة إليكم أأكره هؤلاء الرجلان على بيعة علي أم أتياها طائعين؟ فلم يجبه أحد من القوم الا ما كان من أسامة بن زيد فإنه قال: اللهم إنهما لم يبايعا إلا وهما كارهان: فواثبه سهل بن حنيف والناس حتى خشي عليه أصحاب رسول اللّٰه القتل فقاموا ليمنعوه وفيهم صهيب ابن سنان وأبو أيوب بن زيد ومحمد بن مسلمة وصدَّقوا قوله ومنعوه، وقال له محمد بن مسلمة أما وسعك ما وسعنا من السكوت قال: لا واللّٰه ما كنت أرى الأمر يترامى. ثم رجع كعب بما وقف عليه بالمدينة.

من تمام الأمر بالصورة التي وصفنا نعلم أن الأمر لا يزداد مبرمه إلا انتكاثاً في يد علي والحال تسير على غير نظام. فإن عثمان بن حنيف لم يوله على ذلك المصر ليعقد المعاهدات بينه وبين طوائف المسلمين ولم يأخذ عليه العهد بأن يبذل الشروط التي تقضي الى ضياع الأمصار. وقد كان الرجل على غير ما يجب في أمثاله من الأرب وقوة الحجة. ولو كان علي شيء من ذلك لاستطاع أن يجمع كلمة أهل البصرة ويملك ناصية أهوائهم حتى يقيمهم على طاعة علي ويحج طلحة والزبير وعائشة بأن إقامة الحد إنما هي للإمام ولا ينبغي النهوض إلا في طاعة إمام وهم قوم نزاع لا إمام لهم ومن كانت في عنقه بيعة فإنه خارج على إمامه وكان في وسعه أن يلزم القوم التربص حتى يؤامر عليًا. ومن الخرق في الرأي أن

يرخص لحكيم بن جبلة في القتال قبل أن يتقدم إليه إمامه في ذلك وإن الإمساك كان أحسن في العاقبة وأرجى في العافية.

بلغ عليًا الخبر الذي كان بالمدينة على يد كعب بن سور فبادر بالكتاب الى عثمان يعجزه ويقول له: والله ما أكرها على فرقة ولقد أكرها على جماعة وفضل فإن كانا يريدان الخلع فلا عذر لهما وإن كانا يريدان غير ذلك نظرنا ونظراً وجاء كتاب علي ورجع كعب بن سور قاضي البصرة بما رأى في المدينة فأراد طلحة والزبير تنفيذ شروط الصلح، فقال عثمان: أنا لا أخرج واحتج بكتاب علي وقال: هذا أمر آخر غير ما كنا فيه فجمع طلحة والزبير الرجال في ليلة مظلمة باردة ذات رياح وندى ثم قصد المسجد فوافقا صلاة العشاء. وكانوا يؤخرونها فأبطأ عثمان بن حنيف فقدما عبد الرحمن بن عتاب للصلاة، فشهر أصحاب ابن حنيف السلاح فقتلوا ودخلوا على عثمان بن حنيف فضربوه أربعين سوطاً ونتفوا شعر لحيته ورأسه وحاجبه وشعر عينيه وحبسوه ثم أمرت عائشة أن يترك يسير حيث يشاء فترك البصرة وذهب الى علي.

وأصبح حكيم بن جبلة فيمن تبعه يريدون الحرب وكان أتباعه ممن لهم شركة في فتنة عثمان وعلموا أنهم مقتولون إذا قعدوا، فلما أنشبوا الحرب ونادى منادي عائشة من لم يكن من قتلة عثمان فليكفف عنا فإنا لا نريد إلّا قتلة عثمان ولا نريد أحداً.

واقتتل الفريقان أشد قتال وضرب رجل حكيماً فقطع رجله فحبا إليها وأخذ وضرب بها ضاربه فصرعه ثم حبا إليه حتى قتله. واتكأ عليه وجاء رجل من أصحابه فقال له من قتلك؟؟ قال وسادتي وكان يقف على رجله في ذلك اليوم ويخطب ويحتج على طلحة والزبير - إلى أن انهزم حرقوص بن زهير في نفر ممن بقي فلجأوا الى قبائلهم. فنادى طلحة والزبير ألا من كان فيهم من قبائلكم أحد ممن غزا المدينة فليأتنا به فجاءوا ببقيتهم يسوقونهم كما تساق الكلاب فقتلوا ولم ينج أحد ممن غزا المدينة من أهل البصرة سوى حرقوص بن زهير السعدي

أجاره قومه وأعطوا أجلا فيه ـ وجاء طلحة والزبير وأعطوا أهل السمع والطاعة من بيت المال وفضلوهم ومنعوا غيرهم فخرجت عبد القيس وكثير من بكر بن وائل حين زووا عنهم الفضول وبادروا بيت المال ودافعهم الناس وأصابوا منهم. وخرج القوم وأقاموا على طريق علي. وأقام طلحة والزبير ليس معهما بالبصرة ثار إلا حرقوص. وكتبوا الى أهل الشام بما صنعوا وصاروا إليه فقالوا ـ إنا خرجنا لوضع الحرب وإقامة كتاب اللّه عز وجل بإقامة حدوده في الشريف والوضيع والكثير والقليل ـ حتى يكون اللّه عز وجل هو الذي يردنا عن ذلك ـ فبايعنا أهل البصرة ونحباؤهم وخالفنا شرارهم ونزاعهم فردونا بالسلاح وقالوا فيما قالوا نأخذ أم المؤمنين رهينة أن أمرتهم بالحق وحثتهم عليه فأعطاهم اللّه عز وجل سنة المسلمين مرة بعد مرة حتى إذا لم يبق حجة ولا عذر استبسل قتلة أمير المؤمنين فخرجوا الى مضاجعهم فلم يفلت منهم مخبر إلاّ حرقوص بن زهير واللّه تعالى مقيده إن شاء اللّه وكانوا كما وصف اللّه عز وجل وإنا نناشدكم اللّه في أنفسكم إلا نهضتم بمثل ما نهضنا به فلقي اللّه عز وجل وتلقونه وقد أعذرنا وقضينا الذي علينا وبعثوا به مع سيار العجلي وكتبوا الى أهل الكوفة مع رسولهم كتاباً طولته وحثتهم على متابعتها.

وكانت الموقعة لخمس ليال بقين من ربيع الآخر سنة ٣٦.

العجب كل العجب من طلاب دم عثمان سواء كانوا من بني أمية أو من غيرهم كطلحة والزبير فإن هؤلاء القوم إنما كانوا يريدون أن يقتلوا كل من ورد المدينة مع المؤلبين لا يستثنون أحداً منهم. وهم بذلك يريدون أن يقيدوا بدم عثمان من ثلاثة آلاف من أهل القبلة: إذا راعينا من ثار إليهم من أهل المدينة وعبدانهم وأهل المياه لبلغ المؤخوذون بدم عثمان الذين يجب قتلهم من خمسة آلاف إلى ما يزيد على عشرة آلاف. وذلك أمر لا يرضاه اللّه تعالى ولا تأمر به الشريعة، واللّه تعالى يقول **﴿ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل﴾**. وهذا نهاية الإسراف، ورجوع

بالمسلمين إلى أمر الجاهلية ولو نفذنا رأيهم لكان بين الآخذين بثأره العـدد الكثير ممن في أعناقهم دمه كطلحة والزبير وعائشة. لأن كلماتهم التي كانت تصدر منهم في حق عثمان بالمدينة تعد مدداً للمؤلبين وعوناً لأهل الفتنـة. وقد كـان في حكم الأنصاف أن يعمدوا إلى رؤساء أهل الفتنة وقادتهم ويقتلوهم أو يقاتلوهم.

يؤيد قولي في طلحة والزبير وعائشة ما روى الطبري عن علقمة بن وقاص الليثي قال: لما خرج طلحة والـزبير وعـائشة رأيت طلحـة وأحب المجالس إليـه أخلاها وهو ضارب بلحيتـه على زوره فقلت يـا محمد أرى أحب المجـالس إليك أخـلاها وأنت ضـارب بلحيتك الى زورك إن كـرهت شيئاً فـاجلس. فقـال يـا علقمة بـن وقاص بينما نحن يد واحدة على من سوانا إذ صـرنا جبلين من حـديد يطلب بعضنا بعضـاً أنه كـان مني في عثمان شيء ليس تـوبتي إلا أن يسفك دمي في طلب دمي. فقلت: فـرد محمد بن طلحـة فإن لـك ضيعة وعيـالاً فإن نـابك شيء يخلفك فقال ما أحب أن أرى أحداً يخف في هذا الأمر فامنعه، فأتيت محمد ابن طلحة فقلت له: لو أقمت فإن حدث به حدث كنت تخلفه في عياله وضيعته. فقال ما أحب أن أسأل الرجال عنه.

وفي الطبري أن ابن أم كـلاب حين أخبـر عائشـة ببيعة عـلي قالت: ليت هذه انطبقت على هذه أن تم الأمر لصاحبك، ردوني. وانصرفت الى مكـة وهي تقول قتل والله عثمان مظلوماً والله لأطلبن بدمـه. فقال لهـا ابن أم كلاب: ولم؟ فوالله إن أول من أمال حرفه لأنت. ولقـد كنت تقولـين اقتلوا نعثلاً فقـد كفر. فقالت إنهم استتابوه ثم قتلوه وقد قلت وقالوا وقـولي اليوم خـير من قولي الأول ـ فقال أبياتاً منها.

وأنت أمـرت بقتـل الإمـام ... وقـلت لـنـا إنـه قـد كـفـر
فـهـنـا أطـعـنـاك في قـتـله ... وقـاتـله عـنـدنـا مـن أمـر

فهؤلاء الرهط لم يقوموا للطلب بدم عثمان في الواقع ولكن ـ كل إلى حيزه يجذب.

وإذا صح أن طلحة كان ناماً على ما كان منه في حق عثمان فليس السبيل إلى تكفير خطيئته أن يقاتل عليًّا بل كان يصبر حتى تجتمع كلمة الأمة ثم يغمد الى أصحاب رسول اللّه ويدعوهم الى مؤتمر يديرون الرأي فيه كما يجب أن يصار إليه في أمر القتلة ورؤوس المؤلبين.

لما بلغ عليًّا نبأ مسير طلحة والزبير وعائشة الى البصرة عدل عن المسير الى الشام ورأى أن يرتق هذا الفتق وحاول أن يدركهم قبل أن يصلوا إليها. فلما انتهى إلى الربذة أتاه عنهم أنهم قد أمعنوا. فسرى عنه وقال إن أهل الكوفة أشد إلي حبًّا. وكتب إلى أهل الكوفة.

« بسم اللّه الرحمن الرحيم ». أما بعد فإني اخترتكم والنزول بين أظهركم لما أعرف من مودتكم وحبكم للّه عز وجل ورسوله ﷺ فمن جاءني ونصرني فقد أجاب الحق وقضى الذي عليه ».

وأرسل إلى الكوفة محمد بن أبي بكر ومحمد بن عوف ـ وفي رواية محمد ابن جعفر ـ فمضيا وبقي على بالربذة يتهيأ وأرسل إلى المدينة فلحقه ما أراد من دابة وسلاح وأمرُ أمْرُه وخطب الناس وقال: إن اللّه أعزنا بالإسلام ورفعنا به وجعلنا به إخواناً بعد ذلة وقلة وتباغض وتباعد فجرى الناس على ذلك ما شاء اللّه. الإسلام دينهم، والحق فيهم، والكتاب إمامهم. حتى أصيب هذا الرجل بأيدي هؤلاء القوم الذين نزغهم الشيطان لينزغ بين هذه الأمة إلا أن هذه الأمة لابد مفترقة كما افترقت الأمم قبلهم فنعوذ باللّه من شر ما هو كائن. ثم عاد ثانية فقال: ألا إنه لابد مما هو كائن أن يكون ألا إن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة شرها فرقة تنتحلني ولا تعمل بعملي، فقد أدركتم ورأيتم فالزموا دينكم واهتدوا بهدي نبيكم ﷺ وابتعوا سنته واعرضوا ما أشكل عليكم على القرآن فما عرفه القرآن فالزموه وما نكر فردوه، وارضوا باللّه عز وجل ربًّا وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبيًّا وبالقرآن حكياً وإماماً.

ثم سار والناس من القبائل يلاحقون به حتى نزل على ذي قار وقد وافاه

عثمان بن حنيف وبلغه ما صنع حكيم بن جبلة وما كان من أشن عثمان فقال: الله أكبر ما ينجيني من طلحة والزبير إذا أصابا ثأرهما أو ينجيهما وقرأ ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلاّ في كتاب من قبل أن نبرأها﴾[1] وأقام يتلوم بذي قار حتى يأتيه أمر عن رسوليه الى الكوفة.

أما رسولاه فقد وردا الكوفة وأتيا أبا موسى بكتاب علي، وقاما في الناس بأمره فلم يجابا الى شيء. فلما أمسوا دخل ناس من أهل الحجى على أبي موسى يستشيرونه، فقالوا: ما ترى في الخروج؟ فقال: كان الرأي بالأمس ليس باليوم، إن الذي تهاونتم به فيما مضى هو الذي جر عليكم ما ترون وما بقي. إنما هما أمران: القعود سبيل الآخرة والخروج سبيل الدنيا. فاختاروا، فلم ينفر أحد فغضب محمد ومحمد. وأغلظا لأبي موسى. فقال: والله إن بيعة عثمان لفي عنقي وعنق صاحبكما فإذا كان لابد من قتال. لا نقاتل أحداً حتى نفرغ من قتلة عثمان حيث كانوا فانطلقا الى علي بذي قار وأخبراه الخبر فأرسل ابن عباس والأشتر الى الكوفة ليجمع الناس على أمره، وكان يأمل أن ينال مايجرو بالأشتر لمكانه من أهل الكوفة. فقدما على أبي موسى واستعانا عليه بناس، فقام أبو موسى فقال للكوفيين في خطبة له: أيها الناس إن أصحاب النبي ﷺ الذين صحبوه في المواطن أعلم بالله عز وجل وبرسوله ﷺ ممن لم يصحبه، وإن لكم علينا حقًّا فأنا مؤديه إليكم كان الرأي أن لا تستخفوا بسلطان الله عز وجل ولا تجترئوا على الله عزل وجل، وكان الرأي الثاني أن تأخذوا من قدم عليكم من المدينة فتردوهم إليها حتى يجتمعوا وهم أعلم بمن تصلح له الإمامة منكم ولا تكلفوا الدخول في هذا، فأما إذ كان ما كان فإنها فتنة صماء النائم فيها خير من اليقظان. واليقظان فيها خير من القاعد والقاعد فيها خير من القائم والقائم فيها خير من الراكب فكونوا جرثومة من جراثيم العرب فاغمدوا السيوف وأنصلوا الأسنة واقطعوا الأوتار وآووا المظلوم والمضطهد حتى يلتئم هذا الأمر وتنجلي هذه الفتنة.

---

(١) سورة الحديد: الآية ٢٢

عاد بعد ذلك ابن عباس والأشتر بالخبر إلى علي فأرسل ابنه الحسن وعمار ابن ياسر إلى الكوفة، فلقيهما مسروق بن الأجدع فأقبل على عمار وقال: يا أبا اليقظان علام قتلتم عثمان؟ فقال: على شتم أعراضنا وضرب أبشارنا. فقال والله ما عاقبتم بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لكان خيراً للصابرين. وخرج إليهما أبو موسى فضم الحسن إليه وقال لعمار: يا أبا اليقظان أعدوت على أمير المؤمنين فيمن عدا فأحللت نفسك مع الفجّار؟ فقال لم أفعل ولم تسؤني وقطع عليهما الحسن الحديث وقال: يا أبا موسى. لم تثبط الناس عنا؟ فوالله ما أردنا إلا الإصلاح ولا مثل أمير المؤمنين يخاف على شيء. فقال صدقت بأبي أنت وأمي ولكن المستشار مؤتمن، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول إنها ستكون فتنة. وقد جعلنا الله عز وجل إخواناً وحرم علينا أموالنا ودماءنا « وقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾[1] ﴿ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً﴾[2] وقال عز وجل ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها﴾[3] الآية. فغضب عمار وقال. يا أيها الناس إنما قال له خاصة أنت فيها قاعداً خير منك قائماً. وورد رجل على عمار ردًّا قبيحاً وجاء زيد بن صوحان بكتب عائشة فقرأها على الناس وقال: إنها أمرت بالقرار في بيتها وأمرنا أن نقاتل الناس حتى لا تكون فتنة وهي تنهانا عن القتال. ورد عليه الى بعض وجعل أبو موسى يكفكفهم ويأمرهم بالسكون وينصح لهم بأن يتجنبوا الفتنة ولا يدخلوا فيها ويرد عليه زيد بن صوحان بأن ذلك لا يكون حتى يرد الفرات عن سيله ويتلو ﴿الم، أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم يفتنون﴾[4] وقام القعقاع فقال: إن رأي الأمير هو الرأي لو وجد إليه سبيل وإن زيد بن صوحان لا يؤخذ برأيه لأنه من أهل التأليب على عثمان. وإن الرأي أنه لابد من إمام ينتظم به

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٨٨

(٢) سورة النساء: الآية ٢٩

(٣) سورة النساء: الآية ٩٣.

(٤) سورة العنكبوت: الآيتين ١ ـ ٢

الأمر وإن عليًّا قد وليه وإنما يدعو إلى الإصلاح فلينفروا إليه حتى يكونوا بمرأى ومسمع من الأمر. ورد عليه آخرون وافترق الناس فريقين.

ثم قام الحسن بن علي فقال: يا أيها الناس، أجيبوا دعوة أميركم وسيروا الى إخوانكم فإنه سيوجد لهذا الأمر من ينفر إليه، واللّه لأن ينفر إليه أولو النهي أمثل في العاجلة وخير في العاقبة فأجيبوا دعوتنا وأعينونا على ما ابتلينا وابتليتم به فسامح الناس: وقال الحسن: إني غاد فمن شاء منكم فليخرج على الظهر ومن شاء فليخرج في الماء، فخرج معه تسعة آلاف ستة آلاف ومئتان في البر وألفان وثمانمائة في السفن وجاءت الجنود إلى علي بذي قار. فقال لهم: قد دعوتكم لتشهدوا معنا إخواننا من أهل البصرة، فإن يرجعوا فذاك ما نريد، وإن يلجوا داويناهم بالرفق وبايناهم حتى يبدءوا بظلم، ولن ندع أمراً فيه صلاح إلا آثرناه على ما فيه الفساد إن شاء اللّه.

فلما حضر أهل الكوفة دعا على القعقاع من ساداتهم وكان من أصحاب رسول اللّه ﷺ وقال له: الق هذين الرجلين يا ابن الحنظلية فادعهما الى الألفة والجماعة وعظم عليهما الفرقة. وقال له: كيف أنت صانع فيم جاءك عنهما مما ليس عندك فيه وصاة مني؟ فقال: نلقاهم بالذي أمرت. فإذا جاء منهما أمر ليس عندك فيه رأي اجتهدنا الرأي وكلمناهم على قدر ما نسمع ونرى أنه ينبغي فقال: أنت لها. وقدم القعقاع البصرة فبدأ بعائشة وقال لها: أي أمه ما أشخصك وما أقدمك هذه البلدة؟ قالت: أي بني، إصلاح بين الناس. قال فابعثي الى طلحة والزبير حتى تسمعي كلامي وكلامهما. فبعثت إليهما فجاءا فقال: إني سألت أم المؤمنين ما أشخصها وأقدمها هذه البلاد فقالت إصلاح بين الناس. فما تقولان أنتما أمتابعان أم مخالفان؟ فقالا متابعان. فقال: فأخبراني ما وجه هذا الإصلاح فواللّه إن عرفناه لتصلحن وإن أنكرناه لا نصلح، فقالا: قتلة عثمان فإن هذا إن ترك كان تركاً للقرآن وإن عمل كان إحياء للقرآن. فقال: قد قتلتما قتلة عثمان من أهل البصرة وأنتم قبل قتلهم أقرب الى

الإستقامة منكـم اليـوم. قتلتم ستمائـة رجل إلا رجـلاً، فغضب لهم ستة آلاف واعتزلوكم وخـرجوا من بـين أظهركم وطلبتم الـذي أفلت (حرقـوص بن زهير) فمنعه ستة آلاف وهم على رجل. فإن تركتموهم كنتم تاركـين لما تقـولون، فـإن قاتلتموهم والذين اعتزلوكم فأديلوا عليكم فالذي حـذرتم وقربتم بـه هذا الأمـر أعظم مما أراكم تكـرهون. وأنتم أحميتم مضر وربيعـة من هذه البـلاد فاجتمعـوا على حربكم وخذلانكم نصرة لهؤلاء كما اجتمع هؤلاء لأهل هذا الحـدث العظيم والذنب الكبير. فقالا وقالت عائشة: فما دواء هذا الأمر؟ فقال لا أرى دواء لهذا الأمر إلا التسكين وإذا سكن اختلجـوا فإن أنتم بـايعتمونـا فعلامـة خير وتبـاشير رحمة ودرك بثأر هذا الرجل وعافية وسلامة لهذه الأمـة وإن أبيتم إلا مكابـرة هذا الأمـر واعتسافه كانت علامة شر وذهاب هذا الثأر وبعثة اللّه في هذه الأمة هزاهز فآثروا العافية ترزقوها وكونوا مفاتيح الخير كما كنتم تكونون ولا تعرضـونا للبـلاء ولا تعرضوا لـه فيصرعنـا وإياكم ، وايم اللّه إني لأقـول هذا وأدعـوكم إليه وإني خـائف أن لا يتم حتى يأخـذ اللّه من هـذه الأمـة التي قل متـاعها ونـزل بها مـا نزل. فإن هذا الأمر الذي حدث أمر ليس يقدر وليس كالأمور ولا كقتل الرجل الرجل ولا النفر الرجـل ولا القبيلة الرجـل، فقال لـه القوم: أحسنت وأصبت، فإن جاء علي بمثل ما قلت صلح الأمر.

والناظر في هذا القول يرى أن القعقاع قد تأتي لهذا الأمر بـأحسن ما تـأتي لـه رفيق مصلح حاذق درب، وأن هـذا القـول وقـع من نفس عـائشـة وطلحـة والزبير أحسن وقع، وأنه حملهما على إيثار العافية وما فيـه الاجتماع ونبـذ الفرقـة ورتق ما فتقا وما أجمل ذلك لو تم!

رجع القعقاع إلى علي وأعلمه علم القوم وما كان منه ومنهم فأعجبه ذلـك وأشرف القوم عـلى الصلح. ثم أمر عـلي بالـرحيل بعـد أن جمع النـاس وخطب فيهم خطبة قال منها: ألا وإني راحل غداً فارتحلوا ألا ولا يرحلن غداً أحد أعان عـلى عثمان رضي اللّه عنـه بشيء في شيء من أمور النـاس وليغن السفهـاء عني

أنفسهم، وقد جاءت وفود قبائل البصرة إلى قبائل الكوفة وهم لا يريدون الحرب ولا يظنونها وأمن الناس بعضهم بعضاً.

من أين جاء الشر؟

لما كان أمر الصلح لا يسوء أحداً من الأمة سوى المجلبين على عثمان لأن حياتهم لا تكون إلا بدوام الشقاق بين علي وخصومه، أشفقوا على أنفسهم أن يكون هذاالصلح على أعناقهم، فاجتمع منهم رهط ممن سار الى عثمان ورضي بسير من سار وخلصوا نجيًّا. منهم علباء بن الهيثم وعدي بن حاتم وسالم بن ثعلبة العبسي وسريح بن أوفى والأشتر وابن السوداء وخالد بن ملجم وغيرهم فتشاوروا فيما يصنعون وكان فيما قال بعضهم لبعض: إذا اجتمع الناس غدا واصطلحوا فليس الصلح إلا علينا وأشار بعضهم (وهو الأشتر) بقتل علي وطلحة حتى تكون هذه بتلك فيغفر الناس لهم ما أحدثوا بعثمان، فسفه الآخرون رأيه وكل أبدى رأياً، فقال لهم ابن السوداء، إن عزكم في خلطة الناس فصانعوهم وإذا التقى الناس غدا فانشبوا القتال ولا تفرغوهم للنظر فإذا من أنتم معه لا يجد بدا من أن يمتنع ويشغل اللّه عليًّا وطلحة والزبير عما تكرهون.

لما وصل علي بعد ذلك الى البصرة وقد بيت السبئة أمرهم وهو لا يعلم ولا بقية عسكره بما يسرون، أرسل إلى القوم « إن كنتم على ما فارقتم القعقاع عليه فكفوا وأقرونا ننزل وننظر في هذا الأمر » فنزلوا والقوم لا يشكون في الصلح ومشت السفراء بين الفريقين وبات الناس ينتظرون العافية من هذا الحادث الجلل فقام السبئية في الغلس ووضعوا السلاح في أهل البصرة وهم غارُّون، فلما كانت الهيعة سأل طلحة والزبير عن الخبر، فقالوا طرقنا أهل الكوفة ليلاً. فقالا قد علمنا أن عليًّا غير منته حتى يسفك الدماء ويستحل الحرمة وأنه لن يطاوعنا. وسأل علي عن الخبر، وكان السبئية قد أرصدوا رجلاً قريباً منه يخبره بما يريدون فقال له: ما فجئنا إلا وقوم منهم بيتونا. فرددناهم من حيث جاءوا فوجدنا القوم

على رجل فركبونا وثار الناس. فقال علي: قد علمت أن طلحة والزبير غير منتهيين حتى يسفكا الدماء ويستحلا الحرمة، وأنهما لن يطاوعانا، ولم يجد الفريقان بدأً من القتال، إذ لم يكن ثمة مجال لاستجلاء الواقع ولا تراسل الرؤساء، وتبين الحقيقة يفضي الى تدارك الأمر.

وكانت عائشة في هودجها قد جللته الحديد وهي بمكة وجعلت فيه موضعاً لعينيها وهي في عسكر أهل البصرة وثار العسكران لبعضهما، وكان القتال في ذلك اليوم من أشد القتال هولاً وصدق كل فريق الحملة على الآخر. وأهل البصرة وشجعانهم وذوا النجدة منهم يلوذون بجمل عائشة ويدافعون عنها حتى لا تصاب بشر، فقتل حوله بشر كثير وقطعت على زمامه أيد كثيرة ولا يدور بخلد أحد من الناس أن ينهزم وراجز أهل البصرة يقول:

نحن بني ضبة أصحابُ الجمل ننزل بالموت إذا الموت نزل

ننعي ابن عفان بأطراف الأسل الموت أحلى عندنا من العسل

ردوا علينا شيخنا ثم بجل

ولما رأى علي كثرة القتلى حول الجمل وأن الناس يستميتون دونه ولا يسلمونه أبداً وفيهم عين تطرف، نادى اعقروا الجمل، فجاء إلى الجمل رجل من خلفه وضرب عرقوبه فعقره وسقط الهودج وكأنه قنفذ لكثرة ما رمى به من النبل فجاء محمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر وقطعا غُرْضَةَ الرَّحْلِ واحتملا الهودج فنحياه عن القتلى وخرج بها محمد حتى أدخلها البصرة.

وكان لما ظهر الضعف في الناس تركهم الزبير بن العوام وولى وجهه شطر المدينة فعلم بمسيره عمرو بن جرموز فاتبعه حتى إذا كان بوادي السباع غافله وقتله.

وقد قتل في هذه الوقعة المشؤومة عشرة آلاف فيهم كثير من أعلام المسلمين وذوي الغناء والنجدة، منهم الزبير وطلحة ومحمد ابنه وعبد الرحمن ابن

عتاب بن أسيد وكثير غيرهم من قريش، فقد قالوا: قتل حول الجمل سبعون قرشياً.

وكان محمد بن طلحة يحمل ويقول « حم لا ينصرون » فشد عليه جماعة فاشتركوا في قتله وقال أحدهم:

وأشعث قوام بآيات ربه	قليل الأذى فيما ترى العين مسلم
هتكت له بالرمح جيب قميصه	فخر صريعاً لليدين وللفم
يذكرني حم والرمح شاجر	فهلا تلا حم قبل التقدم
على غير شيء أن ليس تابعاً	عليًّا ومن لا يتبع الحق يندم

ولما نقل عمار ومحمد بن أبي بكر عائشة قال لها عمار: كيف رأيت ضرب بنيك يا أمه؟ قالت من أنت؟ قال ابنك البار عمار. فقالت لست لك بأم. فقال بلى وإن كرهت، فقالت: فخرتم أن ظفرتم وأتيتم مثل الذي نقمتم واللّه لن يظفر من كان هذا دأبه، وجاءها علي بن أبي طالب فقال: أي أمه يغفر اللّه لنا ولكم، فقالت: غفر اللّه لنا ولكم.

وكانت الوقعة يوم الخميس لعشر خلون من جمادي الأخرة سنة ٣٦.

وبعد أن انتهت الموقعة مر علي بين القتلى، فكلما مرّ بمصرع أهل البصرة وعرفهم قال: زعموا أنه إنما خرج معهم السفهاء والغوغاء وهذا فلان وفلان! ثم صلى على القتلى وأمر بدفنهم جميعاً. وبعد ذلك زار عائشة بالبيت الذي نزلت فيه وقعد عندها ثم أمر بأن تجهز الى المدينة فجهزت خير جهاز. ثم لما جاء يوم رحيلها ودعها بنفسه وقالت وسط مشيعيها.

« إنه واللّه ما كان بيني وبين علي في القديم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها وأنه عندي ـ على معتبتي ـ من الأخيار ».

وقال علي « أيها الناس صدقت واللّه وبرت، وأنه ما كان بيني وبينها إلا ذلك، وأنها لزوجة نبيكم ﷺ في الدنيا والآخرة ».

وكان خروجها من البصرة يوم السبت لغرة رجب سنة ٣٦ وشيعها أميالاً وسرح بنيه معها يوماً.

* * *

انتهت الموقعة بظهور علي وانهزام أعدائه هزيمة منكرة، فمن كان منهم من البصرة أقام مكانه ومن نجا من غيرهم زايل البصرة، وأخذ على البيعة على أهل البصرة، وولى عليها عبد الله بن عباس وجعل على الخراج وبيت المال زياد بن أبي سفيان.

كانت هذه الوقعة المشؤومة أول وقعة تلاقت فيها جيوش المسلمين يضرب بعضهم رقاب بعض ويسفك بعضهم دماء بعض وكل من الجيشين تحت إمرة كبير من كبار أصحاب رسول الله ﷺ، فسهل بعدها أن يقف المسلم بإزاء المسلم كل منهما يسفك دم الآخر ويحل قتله بعد أن كان ذلك الموقف في نظرهم عظيماً مهيباً.

وقد كان الزبير في بعض خطبه سمى ما فيه الناس فتنة، فقال له بعض الناس أتسميه فتنة وأنت تقاتل فيه؟ فقال: والله ما وضعت رجلي في شيء إلا وأنا أعلمه إلا هذا الأمر فإني لا أدري أيقبل بي أم يدبر.

نظرة في وقعة الجمل

أما وقد انتهت الوقعة التي اتسع بها الفتق على المسلمين وسهلت على أهل القبلة أن ينبذ فريق منهم الى الفريق الآخر على سواء وجعلتهم يسلّون السيوف كل منهم على الآخر ويسفك بعضهم دم بعض، فلابد للمؤرخ من أن يقف وقفة القاضي المجتهد ويلقي على هذه الوقعة ومقدماتها وما احتف بها من الأحوال نظرة المدقق ليصدر حكماً عادلاً يلزم به المخطيء حظه من الخطأ ويحمله تبعة ما أتى باذلاً في ذلك ما يصل إليه اجتهاده. أما ما لكل من الفريقين عند

اللّٰه تعالى فاللّٰه وليه وهو يتولى الصالحين ورحمهم اللّٰه أجمعين.

أما عائشة أم المؤمنين فما كان لها أن تتولى كبر هذا الأمر ولا أن تطالب كما تزعم بدم عثمان فإن أولياء دم عثمان كثيرون يفوت عدهم الإحصاء وقد علمت أن معاوية بالشام غير وأن في أمره ولا متخاذل فيه وهو على العمل أقدر منها وأولى بعثمان وأمسَّ به رحماً وأقرب قرابة وليست رحمها اللّٰه ممن جعل اللّٰه لهم سلطان هذا الأمر ولولا وجودها في هذا الجيش لماتت الفتنة في هذه الناحية ولم يكن لهم نظام ولا حمية. فكانت سبباً لاشتداد البلاء على المسلمين ومثاراً لأمور انتجت الحزن والأسى، وأما طلحة والزبير، فهما كذلك ليسا من ولاية عثمان في شيء وقد كانا له بين قائم في الفتنة مثير حريقها وبين خاذل مشير. إشارته أنفذ من صول لا يعنيه من الأمر إلا أن تكون الفتنة بيد غيره ويباشرها سواه حتى تساق إليه الخلافة ويده نظيفة من الدم كيلا يكون لأحد عليه سبيل، فلما وقعت الواقعة وأخطأه ما أمل ورأى أنه كان يسعى لغيره ويحطب في حبل سواه رجا أن ينال في سلطانه بعض ما يكون له عزاء - وإذا لم تكن إبل فمعزي - فلما رأى الفائز قد قبض يده عنه ولم يسوغه ما أراد ندم ولات ساعة مندم وخرج كل منهما ليغسل الدم بالدم، ويكفر عن السيئة بأفحش منها جرماً وأسوأ منها عاقبة فسهلاً على عائشة خروجها الى ما ليس من شأنها راجين بلوغ الأرب بمكانها، فكان الحتف فيما يرجوان، وحيل بينهم وبين ما يشتهون.

أما علي فهو وإن كان في أمر عثمان أقل تأريثاً للشر وأذب عنه قبل اشتداد الأمر إلا أنه لم يكن عنده من الأناة وحسن التأني للأمور ما يتألف به الشارد ويسلس به قياد الجامح. وإلى أنه أرضى الرجلين ببعض ما في يده مما ليس فيه معصية للّٰه ولا حيف على الرعية لكان ذلك أجمل أثراً في العاقبة وأرجى للسلامة وقد أورد صاحب الإمامة والسياسة أن عليًّا حين أحس بما في نفس طلحة والزبير استشار ابن عباس فأشار عليه أن يولي طلحة البصرة والزبير الكوفة فأبى اشفاقاً

منه أن يؤلبا عليه الناس والبصرة والكوفة فيهما الرجال والمال، على أنه لو أرضاهما في أول الأمر حتى إذا اتسق له صنع ما أراد لكان ذلك أحسن في السياسة وأحقن للدماء وقد مر بنا هذا.

على أن عليًّا لم يكن القوي على جنده المالك لزمام عسكره الحذر لكل ما يخاف، الواقف على كل ما يحدث فيما بينهم، ولقد كان عمر بن الخطاب وهو بالمدينة واقفاً على كل صغيرة وكبيرة من أمر جنده بالعراق وفارس وأرمينيا والشام ومصر وتخوم الروم لا يغيب عنه شيء من خيرهم وشرهم، ولكن عليًّا كان تاركاً لشأنهم وهو بين ظهرانيهم يجتمعون ويديرون الأمور ويبيتون الشر ويكيدون له وللمسلمين حتى لقد كان في ضمن ما ائتمروا به أن يواثبوه ويلحقوه بعثمان ليهدر دمهما ويحقن دم المؤلبين السفاكين الكائدين وهم بمرأى ومسمع منه وهو لا علم له بما يديرون ولو كان من الضبط لأمره والحيطة في شؤونه بالمكان الذي يجب أن يكون به، ما ساغ للسبئية أن ينشبوا القتال على الوصف الذي بينا. وحسن قول الأستاذ الخضري رحمه الله في محاضراته:

لا يمكننا أن نبرر عمل الفريقين المتحاربين من كل الوجوه، فإن طلحة والزبير وعائشة خرجوا - كما يقولون - للمطالبة بدم عثمان الذي سفك حراماً من غير ترة ولا ذنب يوجب ذلك، ولا نرى كيف فهموا أن ذلك ممكن من غير أن يكون للمسلمين إمام يرجع إليه الأمر في تحقيق هذه القضية وإقامة الحد على من يستحقه.

إن إعطاء الحق للأفراد في أن يجتمعوا لإقامة حد قصَّر الإمام في إقامته أو اتّهم بالهوادة فيه، مفسدة للنظام الذي أسس عليه الإسلام، وإذا كانوا لا يرون الإمامة على صحة فقد كان المفهوم دعوة أهل الحل والعقد من كبار المسلمين أولاً للنظر في أمر الخلافة وإعطائها لمن يرضاه الناس ثم ينظرون بعد ذلك في إقامة الحد ولكنهم قاموا بصفتهم أفراداً من كبار الأمة ودعوا الناس إلى أمرهم من غير أن يكون لهم إمام يرجعون إليه، ولا ندري كيف غاب كل ذلك عنهم

مع سابقتهم وفضلهم، ولكنهم يقولون إن الفتن إذا أقبلت تشـابهت وإذا أدبرت تبينت، ولم يكن عند علي بن أبي طالب من الأناة ما يمكنه من المصابرة حتى يلتئم هذا الصدع بأحسن مما كان، حقيقة إن أولئك الشياطين الذين لا يريدون بالأمة خيراً أعجلوه وأنشبوا الحرب حتى اشتبه الأمـر على الفـريقين كليهـما، ولكن هذا عيب كبـير في قيادة الجيـوش أن يكون الـرئيس بحيث يمكن فرقـة من جيشـه أن تعجله عن النظر فيما هو قادم عليه، وإن من الخطأ العظيم أن يستعين عـلى بمثل هذه الفرقة السيئة ويجعلها تأوي إلى جنده في الوقت الذي يطالب الناس فيه من كل جهة بالقصاص من قتلة عثمان فإنهم بالضرورة لا يحسن في نظرهم أن يتفق على ذلك الناس لأن الاتفاق إنما يقع على رؤوسهم فهم يبذلون كل جهـدهم في تضييق المسـالك عـلى كل من يـريـد الإصـلاح حفـظاً لأنفسهم، عـلى أن مجـرد وجودهم في جيشه كاف لأن تحوم الظنون حول إشتراكـه في الدم المسفـوك، وإن كان هو ينكر ذلك إنكاراً تاماً، وهو عنـدنا الصـادق في قولـه، والنتيجة أن تبعـة هذه الحرب يتحملها كل من الفريقين وتبين الناس أنـه لا يكفي لبراءة الإنسـان من الفعل أن لا يكون قد فعله بل يجب أن يبتعد عن ما يحدث الريبة في براءته، وليس يكفي الرئيس لتقوية مركزه أن يكون عنده من القوة ما يغلب به من خرج عليه من قومه. بل يجب مع هذا أن يكون عنده من حسن الحيلة والأناة ما يعيـد الخارج! عليه الى حظيرته، والكي لا يكون إلا آخر الدواء، ا هـ.

روى الـطبري بسنـده الى طـارق بن شهـاب قـال: خـرجنـا من الكـوفـة معتمرين حين أتانا قتل عثمان رضي اللّه عنه، فلما انتهينا إلى الـربذة وذلـك في وجه الصبح إذا الـرفاق، وإذا بعضهم يتلوا بعضـاً، فقلت ما هـذا؟ فقالـوا أمير المؤمنين: فقلت ماله؟ قالوا: غلبه طلحة والزبـير، فخرج يعتـرض لهما ليـردهما، فبلغه أنهما فاتاه فهويريد أن يخرج في آثارهما، فقلت: إنا للّه وإنا إليـه راجعون. آتى عليًا فأقـاتل معـه هذين الـرجلين وأم المؤمنين أو أخـالفه؟ إن هـذا لشديـد. فخـرجت فأتيتـه فأقيمت الصـلاة بغلس فتقدم فصـلى. فلما انصـرف أتـاه ابنـه الحسن فجلس. فقال: قد أمـرتك فعصيتني فتقتـل غداً بمضيعـة لا ناصر لـك.

فقال علي: إنك لا تزال تخِنُّ خنين الجارية وما الذي أمرتني فعصيتك؟ قال: أمرتك يوم أحيط بعثمان رضيَ اللّه عنه أن تخرج من المدينة فيقتل ولست بها، ثم أمرتك يوم قتل ألا تبايع حتى يأتيك وفود أهل الأمصار والعرب وبيعة كل مصر، ثم أمرتك حين فعل هذان الرجلان ما فعلا أن تجلس في بيتك حتى يصطلحوا فإن كان الفساد كان على يدي غيرك، فعصيتني في ذلك كله، قال: أي نبيٍّ أما قولك: لو خرجت من المدينة حين أحيط بعثمان فواللّه لقد أحيط بنا كماأحيط به. وأما قولك: لا تبايع حتى تأتي بيعة الأمصار، فإن الأمر أمر أهل المدينة، وكرهنا أن يضيع هذا الأمر، وأما قولك: حين خرج طلحة والزبير أن أجلس في بيتي حتى يصطلحوا فإن ذلك كان وهناً على أهل الإسلام واللّه ما زلت مقهوراً مذ وليت. منقوصاً لا أصل الى شيء مما ينبغي. وأما قولك اجلس في بيتك فكيف لي بما قد لزمني! أو مِن تريدني؟ أتريد أن أكون مثل الضبع التي يحاط بها ويقال دباب دباب ليست ههنا حتى يُحَلَّ عرقوباها ثم تخرج وإذا لم أنظر فيما لزمني من هذا الأمر ويعنيني فمن ينظر فيه؟ فكف عنك أي نبيّ.

وكأني به في هذا الأمر الأخير يقول بمقالة عثمان لا أخلع لباساً ألبسنيه اللّه عز وجل وهو اعتذار لا يقبله من يريد له وللمسلمين السلامة، أو هو مثل اعتذار دول الاستعمار بأنهم لا مناص لهم من تحمل التبعة الملقاة على عاتقهم بإزاء الأمم التي يحتلون بلادها ويهيمنون عليها وعلى مرافقها ومقومات حياتها دون أهلها.

ومن الجميل أن أقول وقد كانت سيرة علي في أصحاب الجمل سيرة رفق بعد الموقعة، فقد كان من ذلك أن لا يقتل مدبراً ولا يذفف على جريح ولا يكشف ستراً ولا يأخذ مالاً فقال قوم يومئذ ما يُحِلُّ لنا دماءهم ويحرم علينا أموالهم. فقال علي: القوم أمثالكم من صفح عنا فهو منا ونحن منه ومن لج حتى يصاب فقتاله منى على الصدر والنحر وإن لكم في خمسه لغني. فيومئذ تكلمت الخوارج ولعله أول كلام ظاهر لهم.

علي ومعاوية وما كان بينهما

قبل الكلام على ما بين علي ومعاوية أريد أن أسوق كلمة تعرف بها الحال النفسية لأهل العراق وأهل الشام.

أهل العراق وأهل الشام: أهل العراق هم أهل المصرين البصرة والكوفة وهم الذين فتحوا العراق ودوخوا فارس وأرمينيا وفتحوا الفتوح العظيمة ومصّروا المصرين وهم من قبائل كثيرة، وقد كان أبو بكر حين وجه الجند إلى جهة العراق وفارس لا يستعين بأهل الردة على قتال الفرس ومن معهم. إلى أن ذهب إليه المثنى بن حارثة في آخر أيام حياته وسأله الاستعانة بمن كان قد ارتد لأن الحاجة ماسة إليهم لكثرة جموع فارس وضخامة حشدهم وما أعدوا لأهل الإسلام من عدة، فلم يل أبو بكر من ذلك شيئاً، بل عهد في ذلك إلى عمر فلما أفضى الأمر إلى عمر استنفر الناس إلى العراق وندبهم للخروج مع المثنى ثم نتابع الأمر على تزجية الجيوش إلى فارس والعراق، واستعان عمر بمن كان من أهل الردة ممن حسن إسلامه ورغب في الجهاد، غير أنه لم يكن ليولي أحداً أمر الحرب ويوصي القواد أن لا يجعلوا أحداً منهم أميراً حذر غائلتهم، فلما جاء عثمان سمح لهم بالولايات وقدم كثيراً منهم في الحروب يوليهم أمر بعضها وهم من الإسلام بمنزلة دون السابقين الأولين والمهاجرين والأنصار ومن ثبتوا على إسلامهم. فلما ضخم الأمر في تلك النواحي ونبتت النابتة لهم في تلك الأمصار لم يكن الدين قد أخذ على شكائمهم وهم بمرأى ومسمع من الفرس وفي أيديهم السبي ويخالطون أهل الذمة في نواحيهم فأخذوا بعض الشيء من أخذهم وسقط بالمصرين روادف ردفت، وأعراب لحقت، لا سابقة لهم ولا غناء فيهم، وقد وجدوا التقدم لغيرهم فأحفظهم ذلك وجمجموا بما في نفوسهم من الكراهة لولاية قريش، وقد أكلت الحرب ذوي الفضل والسابقة والبلاء إلا قليلاً فنقموا تقدم أهل التقدم ثم

تدرجوا في الجهر بما في نفوسهم وصاروا يتجنون على العمال والولاة الجنايات وكلما كرهوا من أمير أمراً استعفوا منه، وكلما جاءهم أخذهم بآداب وأحوال لا تتفق مع ما أخذهم به سابقة. فسهل عليهم عيب الولاة وإظهار التأفف منهم وواجهوهم بالسوء، كل هذه العوامل أوجدت أهل العراق على أهواء مختلفة، وأغراض متباينة وإدلال على الأمراء وتجن على الرؤساء مطرحين واجب الحشمة ولازم الوقار، لا يبالي أحدهم أن يشذ عن الجماعة ويفرق الكلمة، ومرنوا على هذا الضرب من الفرقة والتخاذل، وصاروا أهل جدال ومقارعة بالحجة وقوة عارضة.

أما أهل الشام فهم أهل الولايات الأربع: فلسطين والأردن ودمشق وحمص وما يتبعها من الجزيرة وجهات أرمينيا، وهم كأهل العراق فيهم بعض المهاجرين والأنصار وقبائل العرب فتحوا تلك الناحية وحموا ثغورها وقد كثر عددهم غير أن جهلتهم لم تكن كثيرة الانقاض كنواحي فارس ولم تتغير عليهم الولاة والأمراء بل كان الأمير عليهم معاوية بن أبي سفيان جمعت له بعض الولايات الأربع في مدة عمر واستكملت له في مدة عثمان، عرفوه أميراً عليهم وعرفوا أنفسهم رعية سامعة مطيعة له، لم تشتتهم الأهواء ولم يمرنوا على سخف الرأي والتجني على الأمراء.

فمعاوية لم يكن طارئاً على أهل الشام بالأمرة ولا جديداً عليهم في الولاية بل ألفوا طاعته وبخعوا إليه بنفسوهم وطال حكمه عليهم، وكان راضياً مرضيًّا فيهم أما علي بن أبي طالب فإنه قد ورد العراق على أمراء مخالفين له مثبطين عنه منحازين إلى صفوف أعدائه والطالبين لنفسه التي بين جنبيه قد تخالفوا في شأنه فرقاً وتفرقوا عليه حزائق، حتى إذا سمحوا بالدخول في أمره طوعاً أو كرْهاً وأعطوه أيديهم بالطاعة كانوا يرون أنفسهم أصحاب منة عليه وأولياء نعمة أسدوها إليه، ويرون أنفسهم شركاءه في أمره وقسماءه في سلطانه، ينازعونه الآراء ولا يجيبون له نداء إلا إذا اطلعهم على خفية أمره وأسهم لهم في رأيه.

وجنـد هكذا يكـون أمرهم لا يمكن أن يتم لهم أمـر أو يبلغـوا من نكـايـة العـدو مأربـاً إذا الطاعـة العمياء في الجنـود أول شرط من شـروط نجـاح القـواد وإحرازهم النصر.

إن معرفتنا بكل ما تقدم تحل لنا كثيراً من الأمور التي نراها أشبه بعقدة لا تحل من نجاح معاوية مع تأخره وسابقة علي وفضله وغنـائه في الإسـلام وإخفاق علي مع ماله من الفضل.

كأني بمعاوية كان عالماً جد العلم بالروح الساري في نفوس أهل العـراق، والروح المباين له الساري في أهل الشام، وإن من كان على مثال أهل الشام كان جديراً بـالفوز والغلب، إذ الاجتمـاع في الرأي، والاتفـاق في الكلمة، والتسليم للرئيس بالطاعة على ما أحب المرء أو كـره مدد لا يعـادله مـدد وعامـل قوي من عوامل الفوز.

أما علي رضي اللّه تعالى عنه فإنه لم يحسب لهذه الأمور حسابها يوم بايـع، ويظهر للمطلع أنه لم يكن على بينة من الحالة النفسية لأهل العراق وأهل الشام. ولا بالحالة النفسية لمعاوية وماله من المكانة عند القوم الذين هم في يده. وأن ممـا سهل على معاوية القيام بما قـام به وكـثر الجموع لـديه أنـه كان واليـاً على جميـع ولايات الشام زمناً مديداً ولو أنه كان على دمشق وحدهـا ما تسنى لـه أن يقوم في الأمر على الوجه الذي قام به ولكان له مع علي شأن آخر.

يقول أرباب البصر بنواميس الاجتماع وطبيعة الجماعـات: إن عمل قـواد الجمـوع على الـدوام خلق الإعتقاد في النفـوس لا فـرق بـين أن يكـون دينـيًّا أو سياسيًّا أو إجتماعيًّا ولا أن يكون محله عملاً أو إنساناً أو رأياً (روح الاجتماع).

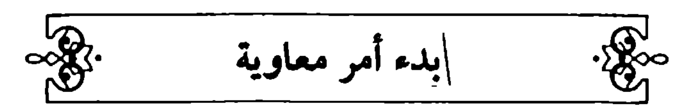
وقد كان معاوية قـائداً بهـذا المعنى. فإنـه قد خلق في أهـل الشام اعتقـاد إجرام علي، وأنه قتل عثمان ظلماً وعدواناً وأن دمه في عنقه، وأن قتاله على ذلك واجب. وقد تأتى لمعـاوية في هـذا الأمر مـا لم يكن يحلم به، فـإنه نصب قميص عثمان وهو مضرج بدمه على منبـر دمشق سنة كـاملة وعلى أردانـــه أصابـع نائلة

زوجه يعرض ذلك على أنظار الناس ويستثير حميتهم ويذكي بذلك الأحقاد في قلوبهم على علي الغاصب ـ زعموا ـ للخلافة، المحل لدم الخليفة وقد آوى قتلته. ولا شيء يهيج الإحساس ويثبت الاعتقاد كالصور التي تعرض على الإنسان، فما بالك بالدم على قميص الخليفة وأصابع زوجته مدلاة في ردته تعرض على الأنظار بكرة وعشيًا، ولم يكن لعلي وسيلة كهذه يؤثر بها في قلوب أصحابه ويحمسهم بها.

فهذه الأمور وما تقدمها أوجدت لمعاوية نفوذاً شخصيًا في القوم الذين معه زاده قوة ورسوخاً ماله من الإمرة والملكة فيهم دهراً طويلاً، لهذا كان معاوية لا يلقي معارضاً لأوامره ولا معقب لحكمه، بخلاف علي فإنه لم يكن له في جنده هذا النفوذ الذي كان لمعاوية في جنده.

يقول غوستاف لوبون ما معناه. إن قائد الجماعة يجب عليه أن يعرف روح الجماعة البعيدين عنه ليعرف كيف يسوسهم ويؤثر فيهم وإلا كان عمله ضائعاً، وإن نابليون كان عالماً بروح الجماعة في فرنسا ولذلك كان تأثيره عظيماً فيهم ناجحاً على الدوام، ولكنه لما ذهب روسيا لم يكن عالماً بأحوالهم فظن أنهم يكونون له على مثال أهل فرنسا وأنه لا يلقي في إخضاعهم وإلقائهم إليه بالطاعة عناء فكان الأمر على غير ما قدر، ا هـ.

والظاهر أن عليًا سيق إلى الأمر وهو غير عالم بما يتنازع أهل العراق من الأهواء، وأنهم ليسوا بأهل جماعة، وأن أحوالهم قد فسدت بخلاف أهل الشام. لذلك لقي العناء الأشد في أخذ طاعتهم له، وكانت المكيدة فيهم أسهل والتأثير في حل رابطتهم أسرع، والله يحكم لا معقب لحكمه.



بدء أمر معاوية

ذكر مؤلف (الإمامة والسياسة) أن النعمان بن بشير لما قدم على معاوية

بكتاب زوجة عثمان تذكر فيه دخول القوم عليه وما صنع محمد بن أبي بكر من نتف لحيته في كتاب رقفت فيه وأبلغت حتى إذا سمعه السامع بكى حتى يتصدع قلبه وبقميص عثمان مخضباً بالدم ممزقاً وعقدت شعر لحيته في زر القميص. فصعد معاوية المنبر بالشام وجمع الناس ونشر عليهم القميص وذكر ما صنعوه بعثمان فبكى الناس وشهقوا حتى كادت نفوسهم تزهق، ثم دعاهم الى الطلب بدمه، فقام إليه أهل الشام فقالوا هو ابن عمك وأنت وليه ونحن الطالبون بدمه. فبايعوه أميراً عليهم، وكتب وبعث الرسل إلى كور الشام وكتب الى شرحبيل بن السمط الكندي وهو بحمص يأمره أن يبايع له بحمص كما بايع أهل الشام، فلما قرأ شرحبيل كتاب معاوية دعا أناساً من أشراف أهل حمص فقال لهم: ليس من قتل عثمان بأعظم جرماً ممن يبايع لمعاوية أميراً وهذه سقطة ولكنا نبايع له بالخلافة ولا نطلب بدم عثمان مع غير خليفة فبايع لمعاوية بالخلافة هو وأهل حمص. وكتب الى معاوية: أما بعد فإنك أخطأت خطأ عظيماً حين كتبت إلى أن أبايعك بالإمرة وأنك تريد أن تطلب دم عثمان الخليفة المظلوم وأنت غير خليفة وقد بايعتُ ومن قِبلي لك بالخلافة، فلما قرأ معاوية كتابه سره ذلك ودعا الناس وصعد المنبر وأخبرهم بما قال شرحبيل ودعاهم الى بيعته بالخلافة فأجابوه ولم يختلف عليه أحد.

(شرحبيل بن السمط)

مر بنا أن معاوية لما خالف على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب لم يبدأ أمره إلا بأن يأخذ البيعة على من قبله بالإمرة عليهم للطلب بدم عثمان. فالخلافة لم تكن مطمح نظره إلى أن وجه نظره إليها شرحبيل بن السمط فمن هو شرحبيل؟ وما مبلغ أثره؟ وما الذي حمله على ذلك.

أما الرجل فهو شرحبيل بن السمط من بني معاوية بن عمرو من كندة ثبت هو وابنه على إسلامهما حين ارتدت كندة وقامت الفتنة بينهم وبين لبيد بن

زياد الأنصاري بسبب ناقة للعداء بن حجر أخي شيطان بن حجر وضع لبيد عليها ميسم الصدقة خطأً وأبى أن يطلقها لصاحبها. فاستغاث شيطان بقومه وتمادى الخلاف فارتدوا وحاربوا فقام شرحبيل وابنه وتبرآ من قومهما الذين ارتدوا وقالا لبني معاوية: إنه لقبيح بالأحرار التنقل إن الكرام ليلزمون الشبهة فيتكرمون أن ينتقلوا عنها مخافة العار، فكيف الانتقال من الأمر الحسن الجميل والحق، إلى الباطل والقبيح، اللهم إنا لا نمالىء قومنا على ذلك. وانتقلا الى لبيد ابن زياد ومعهما امرؤ القيس بن عباس وكانوا يشيرون على لبيد بالرأي والمكيدة في الحرب فطرق زيادة بجنوده مع الليل رؤساء المشاقين فأصاب ملوكهم وهم: مشرح ومخوص وجمد وأبضعة وأختهم العمردة. وكان رسول الله ﷺ يدعوا عليهم حين بلغه أمر ردتهم فانفضت جموعهم وهرب من أطاق الهرب وسبى النساء والذراري ولما مر السبي بالأشعث بن قيس فكهم وجمع الجموع لقتال المسلمين، وكان له مع المسلمين وقائع انتهت بحصار الأشعث ومن معه بحصن النُّجَير. فلما عضتهم الحرب واشتد عليهم الحصار خرج الأشعث ومعه تسعة ممن بالحصن ليستأمنوا لأنفسهم ويسلموا الحصن بمن فيه فكتبوا أسماء من يشملهم الأمان ونسى الأشعث أن يكتب اسمه وأراد لبيد قتله بعد أن قتل المقاتلة من أهل الحصن وسبى غير المقاتلة. فقال أصحابه: أخره حتى يقدم على أبي بكر فهو أعلم بالأمر. فسيره مع السبي. فكان قومه يلعنونه لغدره والسبي يلعنونه. فلما قدم على أبي بكر (وكان النبي ﷺ قد توفي) قال له الأشعث: احتسب فيّ خيراً وتطلق إساري وترد على زوجتي (أم فروة أخت أبي بكر) وتقيلي عثرتي وتفعل في ما فعلت بأمثالي تجدني خير أهل بلادي لدين الله. فحقن أبو بكر دمه عليه ورد عليه أهله وأقام بالمدينة.

كان عمر بن الخطاب قد سير شرحبيل بن السمط الى سعد بن أبي وقاص بالعراق فكان معه وقدمه سعد وقربه، فحسده الأشعث بن قيس، ولا يبعد أن يكون وجود شرحبيل في الجيش المحارب للأشعث أيام ردته له أثر في حسده له واضطغانه عليه.

كان سعد بن أبي وقاص أوفد جرير بن عبد الله على عمر فتدسس له الأشعث بن قيس وقال له: إن قدرت أن تنال من شرحبيل عند عمر فافعل، فلما قدم سأله عمر عن الناس فأحسن الثناء على سعد. قال: وقد قال شعراً:

ألا ليتني والمرء سعد بن مالك وزيراً وابن السمط في لجة البحر
فيغرق أصحابي وأخرج سالماً على ظهر قرقور أنادي أبا بكر

من هذين البيتين فهم عمر أن الناس يتبرمون بمكان زبر وشرحبيل من سعد وكان من شأن عمر الحرص على ألا يبقى لأحد من الناس علة يعتل بها فأرسل الى سعد أن يرسل إليه زبراً وشرحبيل، فلما قدما عليه أمسك زبراً بالمدينة وسير شرحبيل الى معاوية بالشام فشرف بها وتقدم وعلا شأنه عند معاوية وعند الناس.

فلما قدم جرير بن عبد الله رسولاً من علي إلى معاوية وهو ثأر شرحبيل، عزم شرحبيل على إحباط مسعاه ورده خائباً، فكان مما قاله لمعاوية حين أفضى إليه بما جاء إليه جرير «كان أمير المؤمنين عثمان خليفتنا فإن قويت على الطلب بدمه وإلا فاعتزلنا» وعمل على مبايعته بالخلافة. وانصرف جرير الى علي، وقد قال النجاشي:

شرحبيل ما للدين فارقت أمرنا ولكن لبغض المالكي جرير
وقولك ما قد قلت عن أمر أشعث فأصبحت كالحادي بغير بعير

مسير عمرو بن العاص إلى معاوية

كان عمرو بن العاص بالمدينة في بدء الفتنة، ولا تجهل أن عثمان لم يكن مجملاً في شأنه لأن عمرو بن العاص هو الذي فتح مصر وثبت فيها كلمة الإسلام ودان أهلها له بالطاعة أقام والياً عليها بقية أيام عمر. فلما جاء عثمان عزل عمراً عنها وولاها عبد الله بن سعد بن أبي سرح، والفطام عن الولاية

شـديد، فليس من الغـريب أن يكـون عمـرو بن العـاص في نفسـه معتبـة عـلى عثمان. فكان عمرو يرمي بكلمات لها وقع الأسنة على عثمان حتى قيل إن عمراً لما بلغه قتله قال: أنا أبو عبد اللّٰه. أنا قتلته وأنا بوادي السباع، ومعناه في ذلـك أنه كان يؤلب عليه ويلقي إلى الناس ما يغير قلوبهم عليه حتى قلوب رعاة الشـاء في الجبال وفي الأودية.

خرج عمرو بن العاص من المدينة لما أحيط بعثمان وقال: يا أهل المـدينة لا يقيم أحـد فيدركـه قتل هـذا الرجـل إلاّ ضربـه اللّٰه بذل، من لم يستـطع نصره فليهرب وصار إلى فلسطين ومعه إبناه عبد اللّٰه ومحمـد وأقام بهـا. فمر بـه راكب وأخبره بأنه ترك عثمان محصوراً. ثم مر به راكب آخر فأخبره بقتل عثمان، وبعد مدة مر به آخر فأنبأه ببيعة علي وأن الوليد بن عقبـة سأل علـيًّا عن قتله فقال لـه واللّٰه ما أمرت ولا نهيت ولا سرني ولا ساءني وأنه آوى ولم يرض (أي بالقصاص منهم) وإن مـروان احتج عليـه فقال إن لم تكن أمـرت فقـد تـوليت الأمـر (أمـر المسلمين) وإذا لم تكن قتلت فقد آويت القاتلين. فقال عمرو بن العاص: خلط واللّٰه أبو الحسن أنا أبو عبد اللّٰه يكون فيها حرب. من حك قرحة نكأها. فقـال سلم بن زنباع: يا معشر العرب كان بينكم وبين العرب باب فكسر فاتخذوا بابـاً غيره. فقال عمرو: ذلك الذي نريده. ويقول ابن الأثـير ثم ارتحل عمـرو يبكي كما تبكي المرأة ويقول: واعثماناه أنعى الحياء والدين، حتى قدم دمشق.

ويذكر ابن الأثير أن عمراً قـال حين بلغـه قتل عثمـان: إن يل هـذا الأمر طلحة فهو فتى العـرب سيباً وإن يله ابن أبي طـالب فهو أكـره من يليه الى، فلما بلغه بيعة الناس لعلي اشتد عليه الأمر وأقام ينتظر ما يفعـل الناس. فبلغـه مسير طلحة والزبير وعائشة فتربص حتى أتاه خبر وقعة الجمل وما تم فيها فارتج عليـه أمره.

أدار عمرو عينيه فإذا معاوية بالشام يعظم شأن عثمان ويـدعو الى الـطلب بدمه وكان معاوية أحب إليه من علي. فاستشار ولديه وقال لهما أما عـلي فلا خـير

لي عنده وهو يدل بسابقته وغير مشركي في شيء من أمره، فأشار عليه ابنه عبد الله بأن يكف يده ويجلس في بيته حتى يجتمع الناس. وأشار عليه محمد بأنه لا ينبغي أن يجتمع الناس في هذا الأمر وليس له فيه صوت. فحمد لكل منهما رأيه وعمل برأي محمد وخرج الى الشام فحسن لمعاوية ما رأى ومعاوية لا يلتفت إليه. وكأني بمعاوية وقد تخوف أن يكون الرجل يبطن غير ما يظهر فلم يسترسل إليه حتى يكون على بينة من أمره.

رأى ابناه إعراض معاوية عنه فأشارا عليه بمفارقته. فدخل عمرو على معاوية وكلمه في هذا الشأن بما كانت عاقبته أن استدناه وأشركه في أمره وجعله موضع سره ومرد مشورته.

وإني لأستبعد ما قصه ابن الأثير من أن عمراً قال لمعاوية: والله لعجب لك إني أرفدك بما أرفدك وأنت معرض عني! إن قاتلنا معك نطلب بدم الخليفة ان في النفس ما فيها حيث تقاتل من تعمل سابقته وفضله وقرابته ولكنا إنما أردنا هذه الدنيا. فصالحه معاوية وعطف عليه. فإني لأحسن أن المخاطبة على هذا الوجه لا تسمح بها نفس عمرو بل هو يتكرم عنها ولا يقبل ذلك منه معاوية. مهما قيل إن باطن أمر كل منهما كان على ذلك.

(خروج ابن أبي سرح إلى مصر)

فلما خرج عبد الله بن أبي سرح يريد المدينة وثب محمد بن أبي حذيفة على إمارة مصر فأخذها وصلى بالناس. وعلم ابن أبي سرح بالخبر فلم يقدر على الرجوع الى مصر فأقام بتخومها حتى جاءه خبر قتل عثمان وبيعة علي فاسترجع. فقال له المخبر كأن ولاية على بن أبي طالب عدت عندك قتل عثمان. قال أجل فتأمله الرجل وقال كأنك عبد الله بن أبي سرح أمير مصر. قال أجل. قال فإن كان له في نسبك حاجة فالنجاء النجاء فإن رأى أمير المؤمنين فيك وفي أصحابك

سيء إن ظفر بكم قتلكم أو نفاكم عن بلاد المسلمين وهذا بعدي أمير يقدم عليك. قال: ومن هو قال: قيس بن سعد بن عبادة. فقال عبد الله أبعد الله محمد بن أبي حذيفة فإنه بغى على ابن عمه وسعى عليه وقد كان كفله ورباه وأحسن إليه. فأساء جواره ووثب على عماله وجهز الرجال حتى قتل ثم ولى عليه من هو أبعد منه ومن عثمان، لم يمتعه بسلطان بلاده حولاً ولا شهراً ولم يره أهلاً لذلك، فقال الرجل انج بنفسك لا تقتل. فولى عبد الله وجهه شطر الشام ولحق بمعاوية.

وكان علي بن أبي طالب لما ولي دعا بقيس بن سعد وقال له: سر إلى مصر فقد وليتكها واخرج إلى رحلك واجمع إليك ثقاتك ومن أحببت أن يصحبك حتى تأتيها ومعك جند فإن ذلك أرعب لعدوك وأعز لوليك. فإذا أنت قدمتها إن شاء الله فأحسن الى المحسن واشتد على المريب وارفق بالعامة والخاصة فإن الرفق يمن. فقال له قيس: يرحمك الله يا أمير المؤمنين، فقد فهمت ما قلت، أما قولك اخرج إليها بجند فوالله لئن لم أدخلها إلّا بجند آتيها به من المدينة لا أدخلنها أبداً، فأنا أدع ذلك الجند لك فإن أنت احتجت إليهم كانوا منك قريباً وإن أردت أن تبعثهم الى وجه من وجوهك كانوا عدة لك وأنا أصير إليها بنفسي وأهل بيتي. وأما ما أوصيتني به من الرفق والإحسان فإن الله عز وجل هو المستعان على ذلك، فخرج قيس بن سعد في سبعة نفر من أصحابه حتى دخل مصر. فصعد المنبر فجلس عليه وأمر بكتاب معه من أمير المؤمنين فقريء على أهل مصر. وفيه:

« بسم الله الرحمن الرحيم » من عبد الله عليّ أمير المؤمنين الى من بلغه كتابي هذا من المؤمنين والمسلمين، سلام عليكم فإني إليكم أحمد الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد فإن الله عز وجل بحسن صنعه وتقديره وتدبيره اختار الإسلام ديناً لنفسه وملائكته ورسله وبعث به الرسل عليهم السلام إلى عباده وخص به من انتخب من خلقه. فكان مما أكرم الله عز وجل به هذه الأمة وخصهم به من

الفضيلة أن بعث إليهم محمداً ﷺ فعلمهم الكتاب والحكمة والفرائض والسنة لكيما يهتدوا وجمعهم لكي لا يتفرقوا وزكاهم لكيما يتطهروا ورفهم لكي لا يجوروا. فلما قضى من ذلك ما عليه قبضه اللّه عز وجل صلوات اللّه عليه ورحمته وبركاته ثم إن المسلمين استخلفوا به أميرين صالحين عملاً بالكتاب والسنة وأحسنا السيرة ولم يعدوا السنة ثم توفاهما اللّه عز وجل ورضي اللّه عنهما ثم ولى بعدهما وال فأحدث أحداثاً فوجدت الأمة عليه مقالاً فقالوا ثم نقموا عليه فغيروا ثم جاءوني فبايعوني. فاستهدى اللّه عز وجل بالهدى وأستعينه على التقوى ألا وإن لكم علينا العمل بكتاب اللّه وسنة رسوله ﷺ والقيام عليكم بحقه والتنفيذ لسنته والنصح لكم بالغيب واللّه المستعان وحسبنا اللّه ونعم الوكيل ـ وقد بعثت إليكم قيس بن سعد بن عبادة أميراً فوازروه وكانفوه وأعينوه على الحق وقد أمرته بالإحسان الى محسنكم والشدة على مريبكم والرفق بعوامكم وخواصكم وهو ممن أرضى هديه وأرجوا صلاحه ونصيحته أسأل اللّه عز وجل لنا ولكم عملاً زاكيًا وثواباً جزيلاً ورحمة واسعة والسلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته. وكتبه عبيد اللّه بن أبي رافع في صفر ٣٦ ـ تم.

ثم إن قيس بن سعد قام خطيباً فحمد اللّه وأثنى عليه وصلى على محمد ﷺ وقال الحمد للّه الذي جاء بالحق وأمات الباطل وكبت الظالمين: أيها الناس إنا قد بايعنا خير من نعلم بعد محمد نبينا ﷺ فقوموا أيها الناس فبايعوا على كتاب اللّه عز وجل وسنة رسوله ﷺ فإن نحن لم نعمل لكم بذلك فلا بيعة لنا عليكم. فقام الناس فبايعوا واستقامت له مصر وبعث عليها عماله وتمت مصر على الطاعة إلا جماعة في خربتا أعظموا قتل عثمان واعتزلوا ينتظرون ماذا يتم وقالوا له ابعث عمالك فإن الأرض أرضك لا ننازعك وأمهلنا حتى يتبين الأمر. وكذلك مسلمة بن مخلد لم يبايع وعاهد قيساً أن لا يعمل شيئاً ما بقي والياً على مصر وبقي في مصر إلى أن انقضى أمر الجمل. وكان قيس كافياً، فكان أثقل شيء على معاوية وقد خشي أن يسير الى علي وقيس خلفه بمصر ـ فكتب معاوية الى قيس يعظم قتل عثمان ويطوقه عليًا ويحضه على البراءة من ذلك ومتابعته على

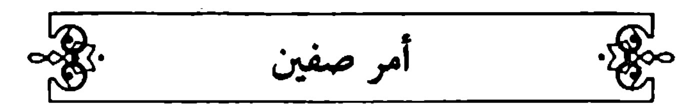
أمره على أن يوليه العـراقين إذا ظفـر ولا يعزلـه ويولي من أراد من أهله الحجـاز كذلك ويعـطيه مـا شاء من الأمـوال. فنظر في الأمـر هو ومن معـه من أهله بين موافقته ومصانعته ومطاولته أو معاجلته بالحرب فآثر الموافقة والمطاولة وكتب إليه ـ أما بعد فإني لم أقارف شيئاً مما ذكرته ومـا اطلعت لصاحبي عـلى شيء منه. وأمـا متابعتك فأنظر فيها وليس هذا مما يسرع إليه وأنا كاف عنك فلا يأتيـك شيء من قبلي تكرهه حتى نرى وترى. وكان يريد بذلك أن يُطْمع معاوية في متـابعته حتى يتهيأ له منـاجزتـه. ولو أن قيسـاً بقي بمصر الى زمن حرب صفـين لكان وجـوده شاغلاً لمعاوية ولكان له معـه شأن آخـر ولكان أحـرى أن ينقض من أمر معـاوية كل مبرم.

كتب إليه معاوية بعد ذلك إني لم أرك تدنو فأعدك سلماً ولا تتباعد فأعـدك حرباً، وليس مثلي يصانـع المخادع وينخـدع للمكايـد ومعه عـدد الرجـال وأعنة الخيل والسلام.

علم قيس أن المدافعة لا تنفع معه. فـأظهر مـا في نفسه وكتب إليـه بالـرد القبيح والشتم والتصريح بفضل علي والوعيد. وكان فيما قاله: « وأما قـولك اني ماليء عليك مصر خيـلاً ورجلاً فـواللّه إن لم أشغلك بنفسك حتى تكـون نفسك أهم إليك، إنك لذو جد والسلام ». فأيس منه معاوية وثقل عليـه مكانـه وأخذ يكيد له من قبل علي فأشاع عنه مالأه ووافقه وأنه صار شيعة لـه وأنه تـأتيه كتبـه ورسله وأنه قد مـالأ المطالبـين بدم عثمـان بمصر يجري عليهم الأرزاق ويـوافيهم بالأعطيات. فوصل ذلك الى علي من محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفـر وعيونـه بالشام. فـأعظم عـلي ذلك ولم يشـأ أن يصدق في قيس قـولاً وتفاوض مـع ابنيه وعبد اللّه بن جعفر فأشار عليه الأخير بعزله.

أما علي فتمهـل في العزل. وجـاءه بعد ذلـك كتاب قيس بن سعـد بشأن المعتزلين بخربتا ومن لم يبايع وأنهم كافون عن القتال حتى يتبينوا. وخشي من مع علي أن تكون ممالأة فأشاروا عليه أن يأمره بقتال الكافين عنه. فأمره بذلك. فلم

يـر قيس رأيـاً وكتب إليـه: « متى قـاتلنـاهم سـاعـدوا عليـك عـدوك وهـم الآن معتزلون والرأي تركهم ». فكان ذلك مما يقوي ريبة أصحاب عـلي في أمر سعـد فـأشاروا عليـه بعزلـه وبعث محمد بن أبي بكـر أميراً لمصر ففعـل. وغضب قيس وخرج من مصر إلى المدينة وعليها مـروان بن الحكم فأخـاف قيساً. فخـرج عنها ولحق بعلي. وعاتب معاوية مروان فيما فعل وقال لـه: إنك أمـددت عليًّا بقيس. ولو أنك أمددته بمائة ألف لكـانوا أهـون على من قيس. وضعفـه فيما صنـع. أما قيس فلحق بعلي وكشف له الخبر فقبل عذره ووافقه على أمره كله. وكان خروج قيس بحسن تدبير معاوية وسلامة صدر علي.



أمر صفين

قال الأستاذ الخضري: لم تكن واقعة الجمل على شدة هولها وفظاعة أمرهـا إلّا مقدمة لما هوأشد منها هولاً وأفظع أمراً وهو الحرب في صفين.

انصرف علي بن أبي طالب من البصرة الى الكوفة وبعث الى جرير بن عبد اللّه البجـلي والأشعث بن قيس الكنـدي وكـانـا عـاملين لعثمـان بفـارس أولهـما بهمذان والثاني بأذربيجان أن يأخذ لـه كل منهـما البيعة عـلى من قبله وأن يوافيـاه ففعلا وانصرفا إليه. فلما أراد علي توجيه الرسول الى معاويـة قال جـرير: ابعثني إليه فإنه لي ود حتى آتيه فأدعوه الى الدخول في طاعتك فقال الأشتر لعلي لا تبعثه فواللّه لأظن هواه معه فقال علي: دعه حتى ننـظر ما يـرجع بـه إلينا. فبعثـه إليه وكتب معه كتاباً يعلمه فيه اجتماع المهـاجرين والأنصـار على بيعتـه ونكث طلحة والزبير وما كان من حربه إياهما ويـدعوه الى الـدخول فيـما دخل فيـه المهاجـرون والأنصار من طاعتـه فشخص إليه جـرير فلما قـدم عليه مـا طله واستنظره ودعـا عمراً فاستشاره فيما كتب إليـه به. فـأشار عليـه أن يرسـل الى وجوه أهـل الشام ويلزم عليًّا دم عثمان ويقـاتله بهم ففعل ذلـك معاويـة وكان أهـل الشام لمـا قدم النعمان بن بشير بقميص عثمان وأصابع زوجه نائلة أصبعان مقطوعتان بالبراجم

وشيء من الكف وأصبعان مقطوعتان من أصولها ونصف الأبهام قد علقوه سنة وآلى الرجال من أهل الشام أن لا يمسهم الماء لغسل إلا من الاحتلام ولا يناموا على الفرش حتى يقتلوا قتلة عثمان ومن عرض دونهم بشيء أو تفنى أرواحهم.

فلما قدم جرير بن عبد اللّه على علي وأخبره الخبر وقع فيه الأشتر وقال: قد كنت نهيتك عن إرساله وأخبرتك بعدوانه وغشه ولو كنت بعثتني لكان خيراً من هذا الذي أقام عنده ولم يدع باباً يريد فتحه إلا فتحه ولا باباً يخافه منه إلا أغلقه. فقال جرير: لو كنت ثم لقتلوك. ولقد ذكروا أنك من قتلة عثمان. فقال الأشتر: لو أتيتهم واللّه يا جرير لم يعيني جوابهم، ولحملت معاوية على خطة أعجله فيها عن الفكر. ولو أطاعني فيك أمير المؤمنين لحبسك وأشباهك في محبس لا تخرجون منه حتى تستقيم هذه الأمور، فخرج جرير بن عبد اللّه الى قرقيسياء وكتب إلى معاوية فاستقدمه.

ومعلوم أن الشام من مجامع أجناد المسلمين لأنها ثغر عظيم يجاور الأمة الرومية التي لم تزل حافظة لشيء كثير من قوتها. فكانت الجنود الإسلامية هناك على غاية الاستعداد عاشرهم معاوية طويلاً وهو الرجل السياسي المحنك فامتلك قلوبهم وصاروا طوع أمره ما أمرهم ائتمروا به وما نهاهم انتهوا عنه ومثل تلك القوة العظيمة سهلت له أن يرفض بيعة علي ويتهمه بالاشتراك في دم عثمان أو على الأقل بحماية قاتليه حتى آواهم الى جيشه. ولم يعمل أي عمل في القصاص منهم. فلما جاء جرير عليًّا وأخبره بما عليه أهل الشام لم يجد علي مناصاً من المسير والقتال. فخرج وعسكر بالنخيلة خارج الكوفة وبلغ معاوية خروجه إليه بنفسه فاستشار عمرو بن العاص فأشار عليه أن يخرج بنفسه كذلك وأن لا يغيب عنه برأيه ومكيدته وسار معاوية متمهلاً وكتب إلى كل من كان يرى أنه يخاف عليًّا أو طعن عليه ومن أعظم دم عثمان واستغواهم عليه عليه. فلما أرى ذلك الوليد بن عقبة بعث إليه:

ألا أبلغ معاوية بن حرب فإنك من أخي ثقة مليم

قطعت الدهر كالدم المعنى | تهدر في دمشق فما تريم
وإنك والكتاب إلى علي | كدابغة وقد حلم الأديم
يمنيك الإمارة كل ركب | لإنقاض العراق بها رسيم
وليس أخو التراث بمن تواني | ولكن طالب الترة الغشوم
ولو كنت القتيل وكان حيًّا | لجرد لا ألفٌ ولا سؤوم
ولا نكل عن الأوتار حتى | يسيء بها ولا برم جثوم
وقومك بالمدينة قد أبيروا | فهم صرعى كأنهم الهشيم

فدعا معاوية شداد بن قيس كاتبه وقال: ابغني طوماراً فأتاه به فأخذ القلم فقال: لا تعجل. اكتب.

ومستعجب مما يرى عن أناتنا | ولو زبنته الحرب لم يترعرم

وأرسل به إليه

أخذ علي بجنوده طريق الجزيرة وعبر الفرات من الرقة ومن هناك قدم طلائعه أمامه حتى إذا كانوا بسور الروم التقوا بطلائع معاوية فكانت بين الفريقين مناوشات قليلة ثم تحاجزوا ثم تلاحقت جنود علي ومعاوية فعسكر الطائفتان في سهل صفين وتوافقت الجنود الإسلامية بعضها أمام بعض.

اختار علي ثلاثة من رجاله ليذهبوا الى معاوية يطلبون إليه الطاعة، وهم بشير بن عمرو الأنصاري وسعيد بن قيس الهمداني وشبث بن ربعي التميمي فساروا حتى دخلوا على معاوية فتكلم بشير بن عمرو وقال: يا معاوية إن الدنيا عنك زائلة وإنك راجع إلى الآخرة وإن اللّه محاسبك بعملك وجازيك بما قدمت يداك. وإني أنشدك اللّه أن تفرق جماعة هذه الأمة وأن تسفك دماءها. فقال له معاوية: هلا أوصيت صاحبك بذلك؟ فقال: إن صاحبي ليس مثلك، إن صاحبي أحق البرية كلها بهذا الأمر في الفضل والدين والسابقة في الإسلام والقرابة من الرسول ﷺ قال فيقول ماذا؟ قال يأمرك بطاعة اللّه وإجابة ابن

عمك إلى ما يدعوك إليه من الحق فإنـه أسلم لك في دنيـاك وخير لـك في عاقبـة أمرك. قال معاوية: ونطل دم عثمان لا واللّه لا أفعل ذلك أبداً فقام شبث فقال: يا معاوية إني قد فهمت ما رددت أنه واللّه لا يخفي علينا ما تغزو وما تطلب إنك لم تجد شيئاً تستغوي به الناس وتستميل بـه أهواءهم وتستخلص بـه طاعتهم إلاّ قولك: قتل إمامكم مظلوماً فنحن نطلب بدمه فاستجاب لك سفهـاء طغام وقـد علمنا أنك قد أبطأت عنه بالنصر وأحببت لـه القتل لهـذه المنزلـة التي أصبحت تطلب، ورب متمني أمر وطالبه يحول اللّه عز وجل دونه بقدرته وربما أوتي المتمنى أمنيته وفوق أمنيته واللّه مالك في واحدة منهما خير، لئن اخـطأت ما تـرجو إنـك لشر العرب حالاً في ذلك، ولئن أصبت ما تمنى لا تصيبه حتى تستحل من ربـك صلى النار، فاتق اللّه يا معاوية ودع ما أنت عليه ولا تنازع الأمر أهله. ولم يكن من معـاويـة جـواب عـلى هـذه المقـالـة الشـديـدة إلا رد أشـدوا أمـره إيـاهم بالإنصراف. فأتوا عليًا وأخبروه بالخبر.

كان القوم جميعاً يهابـون أن تلتقي جموع الشـام بجموع العـراق خوفـاً من الاستئصـال والهلاك، فكـانت تخرج الفـرقة من جيش أهـل العراق فتخـرج لهـا مثلها من جيش أهل الشام فيقتتلون، وعلى هذه الحال كان شأنهم في ذي الحجة سنـة ٣٦ فلما أهـل المحـرم تـوادع الفـريقـان الى انقضـائـه طمعـاً في الصلح، واختلفت بينهما الرسل في ذلك.

وعلى ذكر الرسل أقول: إن ذا الرأي الحصيف إنما ينتقي الرسـل ليعربـوا عن ذات نفسه ويكون الواحد منهم رفيقاً محسناً للسفارة خبيراً بالتـأتي لـلأمور لا يـرى فتقاً إلا رتقـه ولا صدعاً إلا رأبه. وهو عنوان عقـل مـرسله. فـإذا لم يحسن اختيار الرسول كان بلاء استقبله وانبثقت عليه الأمور، وكان مـا يأتيـه من البلاء على يد رسوله أشد وأنكى مما يأتيه من عدوه.

ونحن أولاء نرى من رسل على ظهوراً بمظهر العتو والنجير يبـدو الشر على وجوههم والقول الجافي من أفواههم كأنما أرسلوا لاشعال النار وإيقاظ الشر وعلى

مع ذلك لا يبذل شيئاً يكون الصلح عليه ولا يريد من معاوية إلا أن يلقي بيده ويستكين استكانة الذليل مع اخشان القول له والاستعلاء عليه وقد وصى من هو خير من علي رسله بالإنة القول والرفق لمن هو شر من معاوية فقد قال اللّه تعالى لموسى وهرون إذ أرسلهما إلى فرعون ﴿فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى﴾[1] فليس بعجيب أن تكون عاقبة هذه الرسائل الفشل.

بعث علي عدي بن عامر ويزيد بن قيس الأرحبي وزياد بن خصفة وشبث ابن ربعي ـ وهو أحد الرسل في المرة الأولى وربما كان حمقه سبباً في عدم النجاح ـ لما دخلوا على معاوية بدأ عدي فقال: إنا أتيناك ندعوك الى أمر يجمع اللّه به عز وجل كلمتنا وأمتنا ويحقن به الدماء ويصلح به ذات البين. إن ابن عمك سيد المسلمين أفضلها سابقة وأحسنها في الإسلام أثراً وقد استجمع له الناس وقد أرشدهم اللّه بالذي رأوا فلم يبق أحد غيرك وغير من معك، فانته يا معاوية لا يصيبك اللّه بأصحابك بيوم كيوم الجمل. فقال معاوية كأنك إنما جئت متهدداً ولم تأت مصلحاً هيهات يا عدي كلا واللّه إني لابن حرب ما يقعقع لي بالشنان وإنك لمن المجلبين على ابن عفان وإنك لمن قتلته وإني لأرجو أن تكون ممن يقتل اللّه عز وجل هيهات يا عدي قد حلبت بالساعد الأشد. فقال شبث وزياد أتيناك فيما يصلحنا وإياك فأقبلت تضرب لنا الأمثال دع مالا ينتفع به من القول والفعل وأجبنا فيما يعمنا وإياك نفعه. وقال يزيد بن قيس: إنا لم نأت إلا لنبلغك ما بعثنا به إليك ولنؤدي عنك ما سمعنا منك ونحن على ذلك لن ندع أن ننصح لك وأن نذكر ما ظننا أن لنا عليك به حجة وأنك راجع به الى الألفة والجماعة، إن صاحبنا من قد عرفت وعرف المسلمون فضله ولا أظنه يخفي عليك أن أهل الدين والفضل لن يعدلوا بعلي لون يميلوا بينك وبينه فاتق اللّه يا معاوية ولا تخالف عليًّا فإنا واللّه ما رأينا رجلاً قط أعمل بالتقوى وأزهد في الدنيا ولا أجمع لخصال الخير كلها منه. فقال معاوية. أما بعد، فإنكم دعوتم إلى

(١) سورة طه: الاية ٤٤.

الطاعة والجماعة. فأما الجماعة التي دعوتم إليها فمعنا هي. وأما الطاعة لصاحبكم فإنا لا نراها. إن صاحبكم قتل خليفتنا وفرق جماعتنا وآوى ثأرنا وقتلتنا وصاحبكم يزعم أنه لم يقتله فنحن لا نرد ذلك عليه. أرأيتم قتلة صاحبنا؟ ألستم تعلمون أنهم أصحاب صاحبكم فليدفعهم إلينا فلنقتلهم به ثم نحن نجيبكم الى الطاعة والجماعة. فقال له شبث. أيسرك يا معاوية أنك أمكنت من عمار تقتله؟ فقال وما يمنعني من ذلك، والله لو أمكنت من ابن سمية ما قتلته بعثمان ولكن كنت قاتله بنائل مولى عثمان. فقال شبث لا تصل إلى عمار حتى تندر الهام عن كواهل الأقوام وتضيق الأرض الفضاء عليك برحبها فقال معاوية، إنه لو قد كان ذلك كانت الأرض عليك أضيق. وبذلك انتهت هذه السفارة التي لم يكن يظن أن تنتهي إلاّ بمثل ما انتهت إليه. لأنه كان من الضروري أن تكون قاعدة الصلح والدعوة شيئاً في مصلحة كل من الطرفين. يتنزل هذا عن شيء وهذا عن شيء حتى يكون صلحاً. أما هذه السفارة فقد كانت دعوة كسوابقها مع ما في بعض الداعين من هذه الشدة التي تفسد القلوب وتباعد ما بينها.

وأرسل معاوية الى علي حبيب بن مسلمة الفهري وشرحبيل بن السمط ومعن بن يزيد ابن الأخنس فدخلوا عليه فتكلم حبيب فقال: أما بعد فإن عثمان بن عفان كان خليفة مهديًّا يعمل بكتاب الله عز وجل وينيب إلى أمره الله فاستثقلتم حياته واستبطأتم وفاته فعدوتم عليه فقتلتموه فادفع إلينا قتلة عثمان إن زعمت أنك لم تقتله نقتلهم به ثم اعتزل أمر الناس فيكون أمرهم شورى بينهم يولي الناس أمرهم من أجمع عليه رأيهم. فقال له: ما أنت لا أم لك والعزل وهذه الأمة، اسكت فإنك لست هناك ولا بأهل له. فقام وقال: والله لتريني بحيث تكره. فقال علي: وما أنت وإن أجلبت بخيلك ورجلك لا أبقي الله عليك إن أبقيت على أُحْقَرَةً أو سوءاً اذهب فصوب وصعد ما بدا لك. وقال شرحبيل بن السمط: ما كلامي إلاّ مثل كلام صاحبي فهل عندك جواب غير الذي أجبت به من قبل؟ فقال علي: نعم، فحمد الله وأثنى عليه ثم ذكر بعثة

الرسول ﷺ وهدايته للناس ثم قبضه الله إليه واستخلف الناس أبا بكر واستخلف أبو بكر عمر فأحسنا السيرة وعدلا في الأمة وقد وجدنا عليهما أن توليا علينا، ونحن آل رسول الله، فغفرنا ذلك لهما، وولي عثمان فعمل أشياء عابها الناس عليه. فساروا إليه فقتلوه. ثم أتاني الناس وأنا معتزل أمورهم. فقالوا لي: بايع، فأبيت عليهم. فقالوا لي بايع فإن الأمة لا ترضى إلا بك، وإنا نخاف أن تفعل أن يفترق الناس. فبايعتهم فلم يرعني الاشقاق رجلين قد بايعاني وخلاف معاوية الذي لم يجعل الله له سابقة في الدين ولا سلف صدق في الإسلام طليق بن طليق حزب من هذ الأحزاب، لم يزل لله ولرسوله وللمسلمين عدواً هو وأبوه حتى دخلا في الإسلام كارهين فلا غروا لإخلافكم معه وانقيادكم له وتدعون آل نبيكم الذين لا ينبغي لكم شقاقهم ولا خلافهم ولا أن تعدلوا بهم من الناس أحداً. إلا أني أدعوكم الى كتاب الله وسنة نبيه، وإماتة الباطل وإحياء معالم الدين. فقال له شرحبيل: أشهد أن عثمان قتل مظلوماً، فقال لهما: لا أقول إنه قتل مظلوماً، ولا أنه قتل ظالماً. قالا فمن لم يزعم أن عثمان قتل مظلوماً فنحن منه براء، ثم انصرفا، فقال علي فإنك لا تسمع الموق ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين. وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون.

لما انسلخ المحرم أمر علي من ينادي: ألا إن أمير المؤمنين يقول لكم إني قد استدمتكم لتراجعوا الحق وتنيبوا إليه واحتججت عليكم بكتاب الله فدعوتكم إليه فلم تناهوا عن طغيان، ولم تجيبوا الى حق: وإني قد نبذت إليكم على سواء إن الله لا يحب الخائنين، ففزع أهل الشام إلى أمرائهم ورؤسائهم وخرج معاوية وعمرو يكتبان الكتائب ويعبيان الجيوش وفعل على فعلهما. وقال لا تقاتلوهم حتى يقاتلوكم فأنتم على حجة وتركهم حتى يقاتلوكم حجة أخرى فإذا هزمتموهم فلا تقتلوا مدبراً ولا تجهزوا على جريح ولا تكشفوا عورة ولا تمثلوا بقتيل وإذا وصلتم إلى رحال القوم فلا تهتكوا ستراً ولا تدخلوا داراً ولا تأخذوا

شيئاً من أموالهم ولا تهجيوا امرأة وإن شتمن أعراضكم وسبين أمراءكم وصلحاءكم فإنهن ضعاف القوي والأنفس، وكان يقول بهذا المعنى لأصحابه في كل موطن ا هـ.

وفي غد ذلك اليوم وهو يوم الأربعاء أول صفر سنة ٣٧ ابتدأت الحرب من غير أن يقف كل الجمعين وجهاً لوجه بل كل يوم يخرج قائد من هنا وقائد من هنا حتى إذا مضت سبعة أيام قال علي لجنده ليلة الأربعاء ثامن صفر حتى متى لا نناهض هؤلاء القوم بجمعنا؟ واتفق معهم على ذلك فباتوا يصلحون أمرهم وفي ذلك يقول كعب بن جعيل التغلبي:

أصبحت الأمة في أمر عجب　　　والملك مجموع غداً لمن غلب
فقلت قولاً صادقاً غير كذب　　　إن غداً تهلك أعلام العرب

وفي الصباح زحف علي بجنود أهل العراق، وزحف له معاوية بجنود أهل الشام وذلك في يوم مشؤوم لا يزال المسلمون يعدونه شؤماً من لدن ذلك الحادث إلى الآن. تناهض الناس ذلك اليوم واقتتلوا قتالاً شديداً نهارهم كله. ثم انصرفوا عند المساء وكل غير غالب، ثم أعادوا الكرة في غد ذلك اليوم وكانت حملتهم أشد من اليوم الأول وقد انكشفت ميمنة أهل العراق وانتهت هزيمتهم الى علي فمشى نحو الميسرة فانكشفت عنه مضر في الميسرة وثبتت ربيعة. ومر به في ذلك الوقت الأشتر النخعي، فقال له: ائت هؤلاء القوم فقل لهم أين فراركم من الموت؟ فذهب إليهم الأشتر وهيج الناس لخوض الغمرات فتابعوه وكروا معه، فأخذ لا يعمد لكتيبة إلّا كشفها، ولا لجمع إلا حازه ورده، ولم يزل حتى كشف هذه الجموع المهاجمة وألحقهم بصفوف معاوية بين العصر والمغرب ولم يزل الأشتر في هجمته حتى وصل إلى حرس معاوية وكان معاوية يقول: أردت في هذا الوقت أن انهزم فذكرت قول الأطنابة:

أبت لي عفتي وأبى بلائي　　　وإقدامي على البطل المشيح

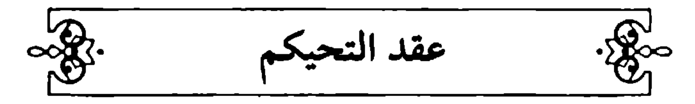
وإعطائي على المكروه مالي   وأخذي الحمد بالثمن الربيح
وقولي كلما جشأت وجاشت   مكانك تحمدي أو تستريحي

فمنعني هذا القول من الفرار. وفي هذا اليوم قتل عمار بن ياسر.

ولما أمسى المساء على الفريقين لم ينفصلا بل استمر القتال شديداً طول الليل ويسمون هذه الليلة ليلة الهرير يشبهونها بليلة القادسية حتى إذا أصبح عليهم صبح يوم الجمعة أخذ الأشتر يزحف بالميمنة ويقاتل بها ويهيج الناس بقوله وعلي يمده بالرجال لما رأى من ظفره. وبينما هم في هذه الشدة الشديدة إذا بالمصاحف قد رفعت على رؤوس الرماح من قبل أهل الشام وقائل يقول: هذا كتاب اللّه عز وجل بيننا وبينكم، من لثغور الشام بعد أهل الشام، من لثغور العراق بعد أهل العراق! فلما رأى أهل العراق المصاحف مرفوعة قالوا: نجيب الى كتاب اللّه. فقال لهم علي: يا عباد اللّه امضوا على حقكم وصدقكم، فإن معاوية وعمرو بن العاص وابن أبي معيط وحبيب بن مسلمة وابن أبي سرح والضحاك بن قيس ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن أنا أعرف بهم منكم قد صحبتهم أطفالاً وصحبتهم رجالاً فكانوا أشر أطفالاً وأشر رجال. ويحكم إنهم ما رفعوها ثم لا يرفعونها ولا يعملون بما فيها، وما رفعوها لكم إلا خديعة ودهاء ومكيدة. فقالوا ما يسعنا أن ندعي الى كتاب اللّه عز وجل فنأبى أن نقبله. وقال مسعر بن فدكي التميمي وأشباه له من القراء أجب إلى كتاب اللّه إذا دعيت إليه. وإلا ندفعك برمتك إلى القوم أو نفعل كما فعلنا بابن عفان أنه علينا أن نعمل بما في كتاب اللّه عز وجل. واللّه لتفعلنها أو لنفعلها بك ثم طلبوا منه أن يبعث إلى الأشتر ليترك القتال. فأرسل إليه رسولاً. فقال الأشتر للرسول. ليس هذه الساعة التي ينبغي لك أن تزيلني فيها عن موقفي. إني قد رجوت أن يفتح لي فلا تعجلني. فرجع الرسول بالخبر فما انتهى إليه حتى ارتفع الرهج وعلت الأصوات من قبل الأشتر. فقال له القوم: واللّه ما نراك إلا أمرته أن يقاتل ثم قالوا ابعث إليه فليأتك وإلا واللّه اعتزلناك. فقال للرسول

ويحك قل للأشتر أقبل فإن الفتنة قد وقعت فلم يسعه إلا المجيء ورتك ساحة الحرب. ثم أرسل الأشعث بن قيس ليسأل معاوية عما يريده فلما ذهب إليه قال له معاوية: نرجع نحن وأنتم الى ما أمر اللّٰه في كتابه تبعثون منكم رجلاً ترضونه ونبعث منا رجلاً ثم نأخذ عليهما أن يعملا بما في كتاب اللّٰه لا يعدوانه ثم نتبع ما اتفقا عليه فقال له الأشعث هذا الحق. ثم رجع إلى علي فأخبره، فقال الناس: رضينا وقبلنا. فقال أهل الشام: قد اخترنا عمراً. فقا ل الأشعث ومن تابعه: وإنا قد رضينا أبا موسى الأشعري. فقال علي: قد عصيتموني في أول الأمر فلا تعصوني الآن. وبين لهم تخوفه من أبي موسى الأشعري لأنه كان يخذل الناس عنه فأبوا إلا إياه فاضطر علي للسير على ما رأوا.

روى الطبري أن الأحنف بن قيس جاء إلى علي وقال: يا أمير المؤمنين إنك قد رميت بحجر الأرض وبمن حارب اللّٰه ورسوله أَنْفَ الإسلام (يريد عمراً) وإني قد عجمت هذا الرجل وحلبت أسطره (يعني أبا موسى) فوجدته كليل الشفرة قريب القعر وإنه لا يصلح لهؤلاء القوم إلا رجل يدنو منهم حتى يصبر في أكفهم ويبعد حتى يصير بمنزلة النجم منهم. فإن أبيت أن تجعلني حكماً فاجعلني ثانياً أو ثالثاً فإنه لن يعقد عقدة إلا حللتها ولن يحل عقدة أعقدها إلا عقدت لك أخرى أحكم منها فأبى الناس إلا أبا موسى، فقال الأحنف: فإذا أبيتم إلا أبا موسى فادفئوا ظهره بالرجال.



عقد التحكيم

لما رضي الفريقان بالتحكيم وأفضى بهما الأمر الى كتابته كتبوا.

« **بسم اللّٰه الرحمن الرحيم** » هذا ما تقاضى عليه على أمير المؤمنين. فقال عمرو بن العاص اكتب اسمه واسم أبيه هو أميركم فأما أميرنا فلا. فاستشار علي في ذلك بني هاشم وأدخل معهم الأحنف بن قيس. فقال الأحنف: لا تمح أمارة المؤمنين فإني أتخوف إن محوتها لا ترجع إليك أبداً. فأبى علي ذلك مليًا من

النهار ثم إن الأشعث بن قيس قال: امح هذا الاسم برحه الله فمحى وكتب كتاب الصلح، وهو:

« بسم الله الرحمن الرحيم » هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان: قاضي عليّ على أهل الكوفة ومن معهم من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين وقاضي معاوية على أهل الشام ومن كان معهم من المؤمنين والمسلمين. إنا ننزل عند حكم الله عز وجل وكتابه ولا يجمع بيننا غيره. وإن كتاب الله عز وجل بيننا من فاتحته الى خاتمته نحي ما أحيا ونميت ما أمات فما وجد الحكمان في كتاب الله عز وجل وهما: أبو موسى الأشعري عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص القرشي عملاً به وما لم يجدا في كتاب الله عز وجل فألسنة العادلة الجامعة غير المفرقة » وأخذ الحكمان من علي ومعاوية ومن الجندين من العهود والمواثيق والثقة من الناس أنها آمنان على أنفسهما وأهلهما والأمة لهم أنصار على الذي يتقاضيان عليه وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين كلتيهما عهد الله وميثاقه إنا على ما في هذه الصحيفة، إن قد وجبت قضيتهما على المؤمنين فإن الأمن والاستقامة ووضع السلاح بينهم أينما ساروا على أنفسهم وأهليهم وأموالهم وشاهدهم وغائبهم وعلى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه أن يحكما بين هذه الأمة ولا يرداها في حرب ولا فرقة حتى يعصيا وأجّلا القضاء إلى رمضان وإن أحبا أن يؤخرا ذلك أخراه على تراض منهما وإن توفى أحد الحكمين فإن أمير الشيعة يختار مكانه ولا يألو من أهل المعدلة والقسط وأن مكان القضية الذي يقضيان فيه مكان عدل بين أهل الكوفة وأهل الشام وإن رضيا وأحبا فلا يحضرهما فيه إلا من أراد ويأخذ الحكمان من أرادوا من الشهود ثم يكتبان شهادتهما على ما في هذه الصحيفة وهم أنصار علي من ترك هذه الصحيفة وأراد فيه إلحاداً وظلماً، اللهم إنا نستنصرك على من ترك ما في هذه الصحيفة ».

ويتبع ذلك أسماء الشهود من الفريقين. وكان الكتاب في ١٥ صفر سنة

٣٧ وروى الطبري أن ذلك كان في ١٣ صفر.

الناظر إلى عقد التحكيم الذي أوردنا لا يجد فيه حدوداً مرسومة ولا أعلاماً بينة يهتدي بها الحَكَم أو الناظر في أفعال الحكم. ولم يبين فيه حكم ما إذا فارق الحكمان أو أحدهما ما في كتاب الله أو السنة العادلة. ولا حكم ما إذا اختلفا ولم يتفقا. ولم يبن به الشيء الذي يبحثان فيه من أمرهما، وإني لا أدري كيف يكون هذا عقد التحكيم؟!

قال الأستاذ الخضري: وبهذا العقد انتهت واقعة صفين التي قتل فيها من شجعان المسلمين وأنجادهم تسعون ألفاً. وهو عدد لم يذهب مثله ولا قريب منه في جميع الوقائع الاسلامية من لدن رسول الله ﷺ الى تاريخها ولولا أن عضتهم الحرب ولفحتهم نيران السلاح لاستؤصلت البقية الباقية وضاعت الثغور. ومما يزيد الأسف أن هذه الحرب لم يكن المراد منها الوصول الى تقرير مبدأ ديني أو رفع حيف حل بالأمة وإنما كان لنصرة شخص على شخص فشيعة علي تنصره لأنه ابن عم الرسول ﷺ وأحق الناس بولاية الأمر، وشيعة معاوية تنصره لأنه ولي عثمان وأحق الناس بطلب دمه، السفوك ظلماً ولا يرون أنه ينبغي لهم مبايعة من آوى إليه قتلته.

إن تهالك كل من الرجلين على ما يزعمه حقًّا له كان بالغاً أقصى نهايته. فكل منهما يريد بلوغ أربه من الآخر بأي ثمن مهما غلا. إن من عنده ذرة من الشفقة ليذوب قلبه على هذه الأمة رحمة وأسى فقد وجدت بين عاملين يتنازعانها ويغريان أبناءها بعضهم ببعض ويسيلان دماءها أنهاراً ولا تحدث واحداً منهما نفسه بأنه لا يصل إلى ما يريد إلا على جسر من الجثث يزيد على عشرات الألوف من موافقيه ومخالفيه هم عدة الإسلام وعزه وقوته بهم أعلى الله كلمته وأعز ناصره وليس من الكياسة أن يهلك مثلهم ضيعة في أمر إن وقع لا يرتفع له ميزان الدين ولا ينخفض. ولو كان الرجلان ممن لا يؤبه لهما وليس لهما في الدين قدم وحسن بلاء لكان للقلم مجال، ولكنهما بالمحل الرفيع والمكان

المكين، وبخاصة علي بن أبي طالب وأثره في الدين وإعزازه. فليس لنا إلا أن نأسى على ما كان ونكل أمر صاحبي العمل إلى الله عز وجل ونسأله لهما الصفح والغفران.

حسن عندي قول المرحوم الأستاذ الخضري: يظهر للمتتبع أخبار ما بين علي ومعاوية أن الرجلين كانا على تباين تام. فعلي يرى لنفسه من الفضل والسابقة والقرابة ما ليس لغيره من سائر الناس حتى أشياخ قريش وأصحاب السابقة منهم وزاد به ذلك الفكر حتى كان يرى أن الأشياخ يعلمون ذلك ويغضون عنه. وكان يرى في معاوية انحطاطاً هائلاً عنه. ولماذا؟ لأنه من الطلقاء الذين عادوا رسول الله ﷺ وحاربوه، وربما ظن فيهم أنهم لم يدخلوا في الإسلام إلا كرهاً حينما لم يجدوا مناصاً من ذلك. وإذا كان الرجل يرى أشياخ قريش دونه قدراً ولم يكن يسلم لهم إلا مرغماً لأنه لم يجد له أنصاراً، فكيف يرى نفسه أمام رجل يظن به ذلك الظن في وقت بايعه فيه الناس بالخلافة، وردوا إليه حقه المسلوب منه وقد وجد أنصاراً يؤيدونه.

وكان إذا تكلم عن معاوية أو كاتبه يظهر من كلامه الاحتقار له والترفع عنه والازدراء برسله وخاطبهم بأشد ما يخاطب به الإنسان. ولا ينظر أن الرجل قد استحوذ على قلوب نصف الأمة الإسلامية، والمنصف يقول خير نصفي الأمة وأنفعهما وأرضاهما غناء وبلاء، ومثله لا ينال إلا بالأناة وشيء من المصانعة والسهولة والتجاوز له عن شيء من السلطان يتبجح فيه وينال من متاع الدنيا ما تشره إليه نفسه، فإنه رجل قد ألف الشرف وأبهة السلطان الى عز قديم وشرف عريق ورياسة في الجاهلية آزرتها رياسة في الإسلام فاتصل القديم بالحديث. وهذه أشياء لم ير علي أن ينزل إليها.

أما معاوية فإنه كان بدون ريب يرى نفسه عظيماً من عظماء قريش، لأنه ابن شيخها أبي سفيان بن حرب أكبر ولد أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، كما أن عليًّا أكبر ولد هاشم بن عبد مناف فهما سيان في الرفعة النسبية. ثم كان

يرى النبي ﷺ والخلفاء الثلاثة من بعده قد وثقوا به ثقة كبرى حتى جمعت له الشام كلها وهي أعظم بلدان المسلمين بعد العراق. فصارت له تلك الرياسة العظيمة والأثر الصالح في حماية الثغور الرومية، وهو يعلم أن عليًا لا ينظر إليه بتلك العين التي كان ينظر له بها من قبله بدليل أن أول عمل له كان عزله فرأى أن انضمامه الى علي يحطه عن تلك المنزلة السامية التي نالها ومن يدري ماذا يكون حاله بعد ذلك من المهانة وقد وجد أمامه شبهاً تفسح له المجال في تلك المناوأة.

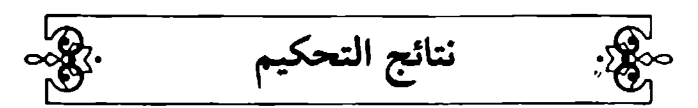
١ ـ أنه لم يُستشر في تلك البيعة وهو من أعاظم قريش ووال من أكبر الولاة تحت إمرته جند من المسلمين لا يقل عن مئتي ألف.

٢ ـ إن كثيراً من الصحابة رفضوا بيعة علي.

٣ ـ إن أول من ندبه الى الخلافة هم الثائرون على عثمان الذين قتلوه.

٤ ـ إنه آواهم في جيشه ولم يقتص منهم فأخذ من ذلك أنه ممالىء لهم على فعلتهم كل تلك الشبه جعلته يمتنع عن البيعة ويأخذ لنفسه الحيطة حتى لا يقع في المذلة والمهانة. شخصان ينظر كل منهما إلى الآخر بهذا النظر لا يمكن اتفاقهما ولا وصولهما الى طريق رشاد يخفف عن المسلمين ما نزل على رؤوسهم من تلك الفتنة الهائلة. ولم يكن مدار مراسلاتهم بالشيء الذي يصح أن يكون قاعدة صلح بين فريقين لكل منهما قوة تؤيده، فعلي كان يطلب مبايعته ولا يزيد وبغير ذلك لا يكون صلح حتى إن رسله التي كان يرسلها من أهل العراق كانوا يكلمون معاوية بلهجة المحتقر المستخف ومعاوية يطلب أولاً أن تسلم قتلة عثمان إليه ليقتص منهم ثم يكون الأمر شورى، وكلا الأمرين لا يرضى بهما علي: أما قتلة عثمان فإنه إن أراد انتزاعهم من جيشه لا يأمن أن يتعصب لهم قومهم فينقسم جيشه وأما ثانياً فلأنه لا يترك حقًا قد ثبت له بالبيعة التي رآها تمت وليس لأحد مهما عظم قدره أن يعترض عليها فكيف بمثل معاوية في نفسه. أضف إلى ذلك أن فرقة السبئية التي كانت تتخلل جند علي لم يكن من مصلحتها

أن يكون صلح بين الطرفين فهم لا يسكتون عن حمل الحطب لاشعال نار الفتنة كلما قاربت الخمود ولذلك كان لهذا التحكيم الذي اتفق عليه الطرفان نتيجة من أسوأ النتائج في جيش علي.



نتائج التحكيم

بعد أن كتبت شروط الصلح عاد معاوية بجنده إلى دمشق أما جند علي فإن الأشعث بن قيس خرج بكتاب الصلح يقرأه على الناس ويعرضه عليهم يقرؤونه حتى مر به على طائفة من بني تميم فيهم عروة بن أدية وهو أخو أبي بلال فقرأه عليهم فقال عروة أتحكمون في أمر الله الرجال؟ لا حكم إلا لله. ثم شد بسيفه فضرب به عجز دابته ضربة خفيفة فغضب للأشعث قومه من اليمن فمشى رؤساء بني تميم فتنصلوا إليه واعتذروا فقبل وصفح ثم عاد الجيش يريد الكوفة.

روى الطبري عن عمارة بن ربيعة قال خرجوا مع علي إلى صفين وهم متوادون أحباء فرجعوا متباغضين أعداء وما برحوا من عسكرهم بصفين حتى فشى فيهم التحكيم ولقد أقبلوا يتدافعون الطريق ويتشاتمون ويضطربون بالسياط يقول الخوارج يا أعداء الله أدهنتم في أمر الله وحكمتم وقال الآخرون فارقتم إمامنا وفرقتم جماعتنا فلما دخل على الكوفة لم يدخلوا معه حتى أتوا حروراء فنزل بها منهم اثنا عشر ألفاً ونادى مناديهم أن أمير القتال شبث بن ربعي التميمي (وهذا الذي كان رسول علي إلى معاوية وكان يتوقح في خطابه ويعجب من معاوية كيف لم يبايع عليًا وهو هو سيد المسلمين وابن عم سيد المرسلين إلى آخر ما قال) وأمير الصلاة عبد الله بن الكواء اليشكري والأمر شورى بعد الفتح والبيعة لله عز وجل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فبعث إليهم على عبد الله ابن عباس وقال له: لا تعجل في جوابهم وخصومتهم حتى آتيك. فخرج إليهم ابن عباس فأقبلوا عليه يكلمونه فلم يصبر عليهم بل قال ما نقمتم من الحكمين

وقد وقال اللّه عـز وجل ﴿إن يـريدا إصـلاحا يـوفق اللّه بينهما ﴾[1] فكيف بـأمة محمد ﷺ فقالوا له أما ما جعل حكمه إلى الناس وأمر بـالنظر فيـه والإصلاح لـه فهو إليهم كما أمر به، وما حكم فأمضاه فليس للعباد أن ينظروا في هذا.

قال ابن عباس فـإن اللّه عز وجـل يقول ﴿يحكم بـه ذوا عدل منكم﴾[2] فقالوا له أو تجعل الحكم في الصيد والحدث يكون بين المرأة وزوجها كـالحكم في دماء المسلمين وقالوا إن هذه الآية بيننا، أعدل عنـدك ابن العـاص وهو بـالأمس يقاتلنا ويسفك دماءنا فإن كان عدلاً فلسنا بعدول ونحن أهل حربه وقد حكمتم في أمر اللّه الرجال وقد أمضى اللّه حكمه في معاوية وحزبـه أن يقتلوا أو يرجعـوا وقبيل ذلك ما دعوناهم إلى كتاب اللّه فأبوه. ثم كتبتم بينكم وبينه كتاباً وجعلتم بينكم وبينه الموادعة والإستفاضة وقد قـطع عز وجـل الاستفاضـة والموادعـة بين المسلمين وأهل الحرب منذ نزلت براءة إلا من أقر بالجـزية. ثم جـاء علي فـوجد ابن عباس يخاصمهم فقال له انته عن كلامهم ألم أنهك؟ ثم سألهم ما أخـرجكم علينـا؟ حكومتكم يـوم صفين. فقـال أنشدكم اللّه ألست قـد نهيتكم عن قبـول الـتحـكـيـم فــرددتـم عــلى رأي ولمــا أبـيـتـم إلا ذلــك اشـتــرطـتـم عــلى الحـكمــين أن يحـيينــا مــا أحيــا الـقــرآن وأن يمـيـتـا مــا أمــات الـقــرآن فــإن حكـماً بحكم القــرآن فليس لنـا أن نخــالف حكـماً يحكم بمــا في القـرآن وإن أبيـا فنحن من حكمهما بـراء قالـوا له فخبـرنا أتـراه عـدلاً تحكيم الـرجـال في الدماء فقال: إنا لسنا حكمنا الرجال إنما حكمنا القرآن وهذا القـرآن إنما هـو خط مسطور بين دفتين لا ينطق إنما يتكلم به الرجال قالوا: فخبرنا عن الأجل لم جعلته فيما بينـك وبينهم قال: ليعلم الجـاهل ويتثبت العـالم ولعل اللّه عـز وجل يصلح في هـذه الهـدنــة هـذه الأمــة، ادخلوا مصـركم رحمكم اللّه. والخـوارج يـدعـون أنهم قـالـوا إن التحكيم كـان منـا كفــراً وقـد تبنــا إلى اللّه فتب كـما تبنا نبايعـك وإلا فنحن مخالفـون، فبايعهم عـلي وقال ادخلوا فلنمكث ستة أشهر

---

(1) سورة النساء: الآية ٣٥

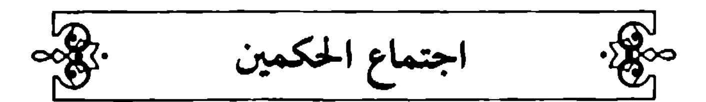
(2) سورة المائدة: الآية ٩٥.

حتى يجيء المال ويسمن الكراع ثم نخرج الى عدونا. فدخلوا على ذلك.

وتوضيح نظرية هؤلاء القوم أن عليًّا كان إماماً بويع بيعة صحيحة فمن امتنع عن بيعته فهو مرتكب جريمة العصيان والبغي وهم يرون أن مرتكب الكبيرة كافر فإذن يكون معاوية بغى على الإمام العدل وحارب اللّه ورسوله وحينئذ يكون له ولقومه حد مقرر في القرآن والحدود المقررة لا معنى للتحكيم فيها لأنه تغيير للمشروع إن قضى بخلافه، ولما كان معاوية ومن معه يستحقون في نظرهم هذه العقوبة نصاً فاللين معهم ومهادنتهم إدهان في سبيل اللّه وتحكيم للرجال فيما لا حكم فيه إلا للّه وهذا في نظرهم جريمة وفاعلها ضال، والضال لا يصلح لخلافة المسلمين فلا خلافة لعلي ولا حرمة لمن اتبعه، فلهم أن يقاتلوهم وهم في نظرهم كجند معاوية سواء بسواء. فانظروا كيف جاءت هؤلاء الناس نتيجة بعض مقدماتها باطل، فلا عجب أن تكون هي أيضاً باطلة. كون جريمة العصيان ومحاربة اللّه والرسول لها حد مقرر في كتاب اللّه فذلك صحيح وأما كون معاوية ومن معه بغاة فذلك شيء يحتاج إلى النظر فإن ادعى أن له شبهاً في نفس إمامة الإمام أهي منعقدة أم لم تنعقد فهذا يصح فيه التحكيم وليس تحكيماً للرجال في دين اللّه وإنما هو تحكيم في صحة وصف ينبني عليه حكم فإن القاضي الذي ترفع إليه قضية سرقة لا يطلب منه الاجتهاد في أن السارق تقطع يده أو لا تقطع وإنما يطلب منه الإجتهاد في معرفة أهذا سارق أم غير سارق فإذا ثبتت له الصفة وجب عليه حتماً أن يحكم بقطع اليد فإن قالوا إن التحكيم من على شك في إمامته والشك لا يجوز له أن يسفك الدماء للمطالبة بأمر مشكوك في صحته كان هذا باطلاً أيضاً لأن صاحب الحق كثيراً ما يتأكد أن الحق له فإذا رأى من خصمه انكاراً أو تمسكاً بسببه فلا طريق له إلا أن يرفع الأمر لقاض أو لحكمين يكون حكمهما قاطعاً لنزاع خصمه.

وعلى الجملة فإن هذه الفئة الجديدة قد بات أمرها على مقدمات لم تنضج فزادوا الطين بلة وبعد أن كنا أمام فرقتين صرنا الآن أمام ثلاث فرق يستحل

بعضها دماء بعض وصار لعلي عدوان. أو المتتبع لأحوال الخوارج ومقاماتهم في حروبهم يتأكد أنهم مخدوعون بمظاهرهم أنه الصواب من الرأي حتى صار عندهم من الحقائق الثابتة التي لا ينكرها إلا غاو حائد عن الدين في نظرهم، وإلا فكيف يؤول فعلهم وما صاروا إليه؟ كان القوم بالأمس يعتقدون في علي أنه سيد المسلمين وأعلمهم وأفقههم في الدين، واليوم قاموا ينبذون إليه على سواء ويباينونه كل المباينة ويرون أنه ضال بسبب ما كان منه التحكيم، وهو لم يصر إليه إلا بمشورتهم، وعن ملأمنهم، ويقولون إنه صار لا يستحق أن يكون خليفة ويدينون بأن كل من تابعه حائد عن طريق الرشاد حلال الدم.



اجتماع الحكمين

لما حان أجل اجتماع الحكمين بعث على أربعمائة رجل عليهم شريح بن هانيء الحارثي ومعهم ابن عباس يصلي بهم ويلي أمورهم وأبو موسى الأشعري معهم. وبعث معاوية عمرو بن العاص في أربعمائة من أهل الشام فتوافوا بدومة الجندل بأذرح. وكان معاوية إذا كتب الى عمرو جاء الرسول وذهب لا يدري بما جاء به ولا بما ذهب به أحد ولا يسأله أهل الشام عن شيء. وإذا جاء رسول علي جاء أهل العراق إلى ابن عباس فسألوه: ما كتب إليك أمير المؤمنين؟ فإن كتمهم ظنوا به الظنون فقالوا: ما نراه إلا كتب بكذا وكذا. فقال لهم ابن عباس: أما تعقلون؟ أما ترون رسول معاوية يجيء لا يعلم بما جاء به أحد ويرجع لا يعلم بما رجع به أحد ولا يسمع لهم صياح ولا لغط وأنتم عندي كل يوم تظنون الظنون! ـ وشهد هذه الجماعة عبد اللّٰه بن عمر وعبد اللّٰه بن الزبير وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي والمغيرة بن شعبة وسعد بن أبي وقاص.

ولما كان القوم بدومة الجندل أحب المغيرة بن شعبة أن يعرف ما عند كل من الحكمين وهل يمكن اجتماعهما على رأي فأتى عمرو بن العاص وقال له: يا أبا عبد اللّٰه ما رأيك فينا معشر القوم الذين اعتزلوا القتال ولم يشهدوا من هذه

الحرب شيئاً؟ فقال إنكم معشر المعتزلة خلف الأبرار وأمام الفجار. وجاء إلى أبي موسى وسأله عن شأنه ومن اعتزل الحرب حتى يتبين الحق ويجتمع الناس على إمام، فقال أنتم المؤمنون الصالحون حقًا، فقال: إن الرجلين لا يمكن أن يجتمعا.

ومما كان في اجتماع الحكمين إنهما بحثا فيما جاءا لأجله وهو إصلاح ما بين الناس. فتكلم عمرو فقال: ألست تعلم أن عثمان قتل مظلوماً؟ قال أبو موسى: أشهد. قال عمرو: ألست تعلم أن معاوية وآل معاوية أولياؤه؟ قال بلى. قال عمرو: فإن اللّه يقول: ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً. فما يمنعك من معاوية ولي عثمان ياأبا موسى وبيته في قريش كما قد علمت؟ فإن تخوفت أن يقول الناس ولي معاوية وليست له سابقة، فإن لك بذلك حجة: تقول إني وجدته ولي عثمان الخليفة المظلوم والطالب بدمه الحسن السياسة الحسن التدبير. وهو أخو أم حبيبة زوج رسول اللّه ﷺ وكان كاتب الوحي لرسول اللّه وقد صحبه فهو أحد الصحابة. ثم عرض له بالسلطان بقوله: إن ولي أكرمك كرامة لم يكرمها خليفة. فقال أبو موسى: يا عمرو اتق اللّه. فأما ما ذكرت من شرف معاوية فإن هذا ليس على الشرف يولي أهله. ولو كان علي الشرف لكان هذا الأمر لآل أبرهة بن الصباح. إنما هو لأهل الدين والفضل مع أني لو كنت معطيه أفضل قريش أعطيته علي بن أبي طالب. وأما قولك إن معاوية ولي دم عثمان فوله هذا الأمر فإني لم أكن لأوليه معاوية وأدع المهاجرين الأولين. وأما تعريضك لي بالسلطان. فواللّه لو خرج لي من سلطانه كله ما وليته وما كنت لأرتشي في حكم اللّه عز وجل. ولكنك إن شئت أحيينا اسم عمر بن الخطاب فقال عمرو: إن كنت تحب بيعة ابن عمر فما يمنعك من ابني وأنت تعرف فضله وصلاحه. فقال إن ابنك رجل ولكنك قد غمسته في هذه الفتنة. هذه رواية الطبري.

لا ينتظر من محكمين توليا الحكم بكتاب تحكيم مبهم يشبه مضمونه لغزاً

من الألغاز أو أحجية من الأحاجي أن يتكلما في مثل موضوعهما المشكل إلاّ بمثل هذا الكلام الذي لا يشفي غليلاً ولا يبريء عليلاً وأن تكون المقدمات التي تبنى عليها النتائج والمطالب فجة وليس بينها وبين بعضها ارتباط.

من هذه المناقشة يفهم أن الرجلين قد اتفقا على خلع المتنازعين، ولكنهما اختلفا فيمن يخلفهما ويكون أمره جامعاً لكلمة المسلمين، وإني لا أفهم، ولا أظن أحداً يفهم على أي حكم من كتاب الله تعالى يستندان فيما اتفقا عليه ولا بأي سنة استمسكا وهما إنما وليا على الحكم بمقتضى كتاب الله تعالى وسنة رسوله العادلة الجامعة غير المفرقة ـ فكان عليهما أن يعمدا الى مثل قوله تعالى **﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما﴾**[1] الخ.

ولما صار الرجلين إلى هذه النقطة قال عمرو لأبي موسى: أخبرني ما رأيك؟ فقال: رأيي أن نخلع هذين الرجلين ونجعل الأمر شورى بين المسلمين فيختار المسلمون لأنفسهم من أحبوا. فقال له عمرو: فإن الرأي ما رأيت.

كان عمرو قد أخذ أبا موسى من حين التقيا بدومة الجندل بأن يقدمه في الكلام وفي كل شيء فيقول له: إنك صاحب رسول الله ﷺ وأنت أسن مني فتكلم وأتكلم. واغتزي عمرو من ذلك أن يقدمه عند الكلام على خلع ثم يكون هو على رأس أمره.

ولما لم يبق إلا إعلام الناس بما اجتمع عليه رأيهما واتفقت عليه كلمتهما، خرجا وتقدم أبو موسى فحمد الله وأثنى عليه ثم قال «أيها الناس إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة فلم نر أصلح لأمرها ولا ألم لشعثها من أمر أجمع عليه رأيي ورأي عمرو وهو أن نخلع عليًّا ومعاوية وتستقبل هذه الأمة هذا الأمر فيولوا عنهم من أحبوا عليهم وإني قد خلعت عليًّا ومعاوية فاستقبلوا أمركم وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلاً» ثم تنحى، وأقبل عمرو فقام مقامه فحمد

(١) سورة الحجرات: الآية ٩

اللّٰه وأثنى عليه، وقال: « إن هـذا قال مـا قد سمعتم وخلع صـاحبه وأنـا أخلع صاحبه كما خعله وأثبت صاحبي معـاوية فـإنه ولى عثمـان والطالب بـدمه وأحق الناس بمقامه » فقال أبو موسى: مالك لا وفقك اللّٰه غدرت وفجـرت، إنما مثلك كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث فقال عمرو: إنما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفاراً. وحمل بعض رجال عليّ على عمـرو بالسـوط، وحمل بعض رجـال معاوية عليهم بالسوط ثم تحاجز الفريقان. والتمس رجال الشام أبا موسى، فإذا هو قد ركب راحلته وذهب إلى مكة.

وقد روى الطبري أن أبا موسى لما خرج ليتكلم قال رأيي ورأي عمرو وقد اتفق على أمر نرجو أن يصلح اللّٰه به هذه الأمة. فقال عمرو: صدق وبر، يا أبا موسى تقدم فتكلم. فقال ابن عباس لأبي موسى أن عمراً رجل غادر ولا آمن أن يكون قد أعطاك الرضا فيما بينك وبينه فإذا قمت في الناس خالفك وَكـان أبــو موسى رجلاً مغفلاً فقال: إنا قد اتفقنا.

ويرى المسعودي أنهما لم يحصل منهما خطبة وإنما كتبا صحيفة فيها خلع على معـاوية وأن المسلمـين يولـون عليهم من أحبوا ـ قـال الأستاذ الخضـري: وهـذا القول أقرب في نظرنا إلى المعقـول وإن لهج كثـير من المؤرخين بـذكر الأول. لأن هـذه الخطبة على فرض حصولها وإن الخديعـة تمت على أبي مـوسى لم تكن لتفيد معاوية شيئاً لأن الذي ثبته إنما هو حكمه والذي يلزم الأمة بمقتضى الصحيفة إنما هـو ما اجتمعـا عليه لا مـا رضي به أحـد الحكمين ولم ينقـل أحد أن أبـا موسى رضي في خطابه ببيعة معاوية. أقول وما ذكره المرحوم الشيخ محمد الخضري بك حسن لو كان الأمر جارياً فيما بين علي ومعاوية على مقتضى الحكمة نـاهجاً منهـج المنطق الصحيح، ولكنا نرى الأمر من أوله إلى آخره مشوشاً غير منظم ولا مرتب ولا صائر في سبيـل العقل ونهج الفـطنة فليس بينهـما وثيقة تحكيم واضحـة المعالم ظاهرة المناهج مبين فيها أن الخلافة محل الخلاف ومحال النزاع فينظرا في إثباتها أو

إلقائها عن أحد الفريقين أو عنهما، ونقطة النزاع الكبرى وهي التي كانت مفهومة بادي الرأي وهي الاقتصاص من قتلة عثمان قد أغفلت إغفالاً شائناً سواء في صحيفة التحكيم إن كانت تصلح أن تسمى صحيفة أم في حكم الحكمين فلم يتداولا في هذا الشأن. ولم ينقل ناقل أنهما تفاوضا فيه أو أشارا إليه باستسحان أو استهجان، ثم إذا كانت هناك صحيفة فأين ذهبت؟ - ولم لم تكن لهما محاضر في كل جلسة يثبت فيها كل محاورته للآخر وتحدد فيها نقط النزاع وما دار بشأن كل نقطة.

ومن الوقت الذي جرى فيه عقد التحكيم وعين الحكمان يشعر الإنسان بأن هذا العمل لا يؤدي الى نتيجة مفيدة. لأن أبا موسى كما يظهر من ماضيه رجل يكره الفتن ويحب للمسلمين السلامة، ويتمنى لو وصل إلى ما يريد من أي طريق يسلكه سوى إراقة الدماء وقد كان من المثبطين عن علي والمخذلين عن نصره ومتابعته الكارهين لمسيره. وقرينه عمرو بن العاص يميل الى معاوية ويحب تأييده وتثبيت خلافته وهو مع ذلك رجل عرف الدنيا وجالس الملوك وهو حول قلب لا يعي بالأمور ولا تكرثه المعضلات شهر من أول أيامه بسعة الحيلة العقلية وحسن الأرتياد للأمور يرى الخداع في طريق الوصول الى ما يجب مما يزيد في أبهته ويوكد نباهة شأنه. فلا يهمه شيء سوى الوصول الى مقصوده مهما استعمل في سبيل ذلك من الخدع. ومثل هذين لا يتفقان.

وما عجبت من شيء فإن أمر أبي موسى أعجب. ذلك أنه كان ينهي الناس عن هذه الفتنة ويأمرهم باعتزالها حتى يتضح المنهج وتستقيم السنن وأن هذه الفتنة النائم فيها خير من اليقظان إلى آخر الحديث. فما باله قد غس يده فيها من حيث لا يحتسب؟ وأوقف نفسه فيها على ثنية عجز وأوقف المسلمين على سنن الاختلاف. ولولا رحمة من الله لعادت الفتنة جذعة وكان القوم أقرب إلى التفاني والأستئصال بفضل غفلته وسوء تقديره لنفسه ولخصمه - أما كان خيراً له أن يستعفي ويترك الأمر لمن هو أكفأ منه؟ لم يكن علي ليرضى بهذا الحكم الذي

اعتقده بحق مخالفاً للكتاب والسنة اللذين عهد الى الحكمين أن يحكما بهما وقد رضي به معاوية طبعاً.

وسخط الظباء بما نالها تولد منه رضى الحابل

لأن أقل ما في الحكم أن ليس لعلي إمامة. وصار الأمر للناس يولون من شاءوا وعنده جند عظيم يختارونه ولا يفضلون عليه أحداً فقويت آماله في أن يكون خليفة للمسلمين وسلم عليه عمرو وسائر جنده بالخلافة.

رجع ابن عباس وشريح الى علي وأوقفاه على جلية ماتم. وهذا الأمر لا يرضيه كما قدمنا، فكان إذا صلى صلاة الصبح يقنت فيقول: اللهم العن معاوية وعمراً وأبا الأعور وحبيباً وعبد الرحمن بن خالد والضحاك بن قيس والوليد.

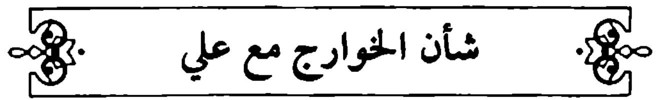
وإني بإزاء هذا القنوت أقول: إن عليًّا رحمه اللّه قد سن لخصومه أن يقابلوه بمثل عمله ويتخذوا من لعنه نوعاً من العبادة في أعقاب الصلوات فكان معاوية إذا قنت سب عليًّا وابن عباس والحسن والحسين والأشتر وصار ذلك سنة في بني أمية إلى زمن عمر بن عبد العزيز يأخذون الناس به في أقطار بلاد الإسلام.

ليس للمؤرخ أمام ما كان من الفريقين أن يخطئهما فيما صنعا ويلومهما فيما أتيا وهذا عمر بن الخطاب قد وقع رجل أمامه في الفرس فأظهر له النفور من قوله، وقال له: إن الفرس حكمت فعدلت وعمرت بلاد اللّه فهم لا يستحقون ما تقول أو كما قال. فإذا كان هذا شأنه مع خصومه من الفرس فما بال أهل القبلة يتلاعبون ويأتون بما لا يليق بأمثالهم من الوقيعة في أهل دينهم؟ على أن عليًّا قد مات واستمر بنو أمية يسبونه في أعقاب الخطب ستين سنة.

ويذكر ابن الأثير أن سعد بن أبي وقاص كان حاضراً يوم إعلان الحكمين أمرهما فقال لأبي موسى: ما أضعفك عن عمرو ومكائده! فقال أبو موسى: فما أصنع، وافقني على أمر ثم نزع عنه. فقال ابن عباس، لا ذنب لك يا أبا موسى

الذنب لمن قدمك في هذا المقام، فقال: غدر فما أصنع؟ فقال ابن عمر انظروا إلى ما صار إليه أمر هذه الأمة، صار إلى رجل لا يبالي ما صنع، وإلى آخر ضعيف وابن الأثير يصحح أن معاوية حضر الحكمين وأنه قام عشية في الناس فقال أما بعد من كان متكلماً في هذا الأمر فليطلع لنا قرنه، قال ابن عمر، فأطلقت حبوتي فأردت أن أقول يتكلم فيه رجال قاتلوك وأباك على الإسلام فخشيت أن أقول كلمة تفرق الجماعة ويسفك فيها دم، وكان ما وعد الله فيه الجنات أحب إلي من ذلك. فلما انصرفت الى المنزل جاء إلي حبيب بن مسلمة فقال. ما منعك أن تتكلم حين سمعت هذا الرجل يتكلم؟ قلت أردت ذلك ثم خشيت. فقال حبيب. وفقت وعصمت.

وأحسب أن حبيباً لم يأت إلى ابن عمر من تلقاء نفسه وإنما دسه عليه معاوية حين بصر به يحل حبوته أو بلغه ذلك فأحب أن يعلم ما عنده ويقف على ما كان مزمعاً أن يواجهه به.



شأن الخوارج مع علي

رأى علي أنه لابد له من معاودة الكرة إلى معاوية وأصحابه. ومعالجة دائهم ولكن صدفة عن ذلك عود الخوارج في حافرتهم وإجفالهم عن علي وجماعته، ذلك أنهم كانوا يظنون أن عليًّا قد وافقهم على كراهة التحكيم ورؤيته ضلالة. وجاءه إنسان منهم فقال له: إن الناس تحدثوا عنك أنك رجعت لهم عن كفرك فخطب الناس في صلاة الظهر فذكر أمر الخوارج وعابه، فثارت الخوارج في ناحية المسجد يقولون: لا حكم إلا لله. فقال علي: الله أكبر كلمة حق يلتمس بها باطل إما أن لكم عندنا ثلاثاً ما صحبتمونا. لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسمه ولا نمنعكم الفيء ما دامت أيديكم مع أيدينا، ولا نقاتلكم حتى تبدؤن

عند ذلك اجتمعت الخوارج في منزل عبد الله بن وهب الراسي فخطبهم

خطبة حثهم بها على الخروج وقال في خطابه: « فاخرجوا بنا من هذه القرية الظالم أهلها إلى بعض كور هذه الجبال أو إلى بعض هذه المدائن منكرين لهذه البدع المضلة أرادوا أن يولوا أمرهم رجلاً فعرضوا الولاية على المتميزين فيهم: فكلهم يأباها. ثم عرضوها على عبد اللّه بن وهب فقال: هاتوها، أما واللّه لا آخذها رغبة في الدنيا ولا أدعها فرقاً من الموت فبايعوه لعشر خلون من شوال سنة ٣٧ ثم اتفقوا على أن يخرجوا وحدانا مستخفين حتى يجتمعوا في جسر النهروان. وكتب عبد اللّه بن وهب إلى من بالبصرة منهم يعلمهم بما اجتمعوا عليه ويحثهم على اللحاق بهم فأجابوه. فلما عزموا تعبدوا ليلتهم ويومهم وساروا يوم السبت فخرج شريح بن أوفي العبسي وهو يتلو **﴿فخرج منها خائفاً يترقب قال رب نجني من القوم الظالمين، ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل﴾**[1].

ولما خرجت الخوارج جاءت إلى علي شيعته ومن بقي على ولائه فبايعوه وقالوا نحن أولياء من وليت وأعداء من عاديت.

وبعد أن خرج القوم وعلم علي بما كان من أبي موسى وعمرو بن العاص في شأن التحكيم خطب أهل الكوفة فقال:

الحمد للّه وإن أتى الدهر بالخطب الفادح والحدثان الجليل. وأشهد أن لا إله إلا اللّه وأن محمداً رسول اللّه. أما بعد. فإن المعصية تورث الحسرة وتعقب الندم. وقد كنت أمرتكم في هذين الرجلين وفي هذه الحكومة أمري ونحلتكم رأيي لو كان لقصير أمر، ولكن أبيتم ألا ما أردتم فكنت أنا وأنتم، كما قال أخو هوازن.

أمرتهم أمري بمنعرج اللوى	فلم يستبينوا الرشد إلاَّ ضحى الغد
فلما عصوني كنت منهم وقد أرى	مكان الهدى أو أنني غير مهتد

---

(١) سورة القصص: الآية ٢١

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

ألا إن هذين الرجلين اللذين اخترتموهما حكمين قد نبذا القرآن وراء ظهورهما وأحييا ما أمات القرآن واتبع كل منهما هواه بغير هدى من اللّٰه فحكما بغير حجة بينة ولا سنة ماضية واختلفا في حكمهما وكلاهما لم يرشد فبريء اللّٰه منهما ورسوله وصالح المؤمنين، استعدوا وتأهبوا للمسير إلى الشام وأصبحوا في معسكركم إن شاء اللّٰه.

وكتب إلى الخوارج بالشخوص معه لحرب أهل الشام، وإنما أطمعه في ذلك منهم أنهم كانوا كارهين للتحكيم زارين على علي الرضا به. فما كان جوابهم إلا أن كتبوا إليه.

«أما بعد فإنك لم تغضب لربك وإنما غضبت لنفسك، فإن شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة نظرنا فيما بيننا وبينك وإلّا فقد نابذناك على سواء إن اللّٰه لا يحب الخائنين».

قرأ علي كتاب هؤلاء القوم فأيس من خيرهم واعتزم على إلقاء حبلهم على غاربهم وأن يسير الى الشام فخرج حتى عسكر بالنخيلة ومن هناك كتب الى ابن عباس أن يستنفر أهل البصرة ويوجه إليه بالجند فقام فيهم ابن عباس بأمر علي فلم يقم منهم سوى ألف وخمسمائة مع الأحنف بن قيس واثاقلوا فخطبهم ابن عباس وحثهم وشدد في خروج من بقي منهم مع جارية بن قدامة فلم يخرج معه سوى ألف وسبعمائة. وكان ديوان أهل البصرة يحوي ستين ألف مقاتل سوى أبنائهم وعبدانهم ومواليهم، ولم يزل علي بالنخيلة حتى أتاه جيش البصرة ثلاثة آلاف ومئتا رجل.

رأى علي ذلك فجمع رؤساء الأسباع ووجهاء القبائل من أهل الكوفة وحثهم ورغبهم وأراهم قلة أهل البصرة وتثاقلهم وقال فأعينوني بمناصحة جليلة خالية من الغش وأمرهم أن يكتبوا المقاتلة وأبناء المقاتلة الذين أدركوا

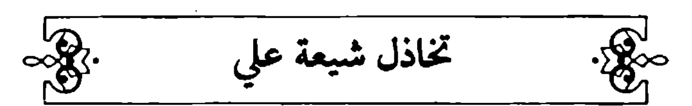
القتال والعبدان والموالي فرفعوا إليه ذلك فكانوا أربعين ألف مقـاتل وسبعـة عشر ألفاً من الأبناء وثمانية آلاف من مواليهم وعبيدهم، وكـان جميع من معـه ثمانيـة وستين ألفاً بعد أن تم حشد عـلي من البصرة والكـوفة والمـدائن وغيرهـا على مـا وصفنـا سمع أن بعض الجنـد يقولـون لو سـار بنا إلى هـذه الحرورـيـة فبـدأ بهم (يريدون الخوارج)، فإذا فرغنا منهم توجهنا الى الشام. فقام فيهم خـطيباً وبـين لهم أن قتال أهل الشام أهـم. فتنادى الناس يقولون: يا أمـير المؤمنين سر بنـا إلى ما أحببت كان أمر الخوارج عجباً فإنهم كانوا يظهرون بمظهر العباد الزهـاد الذين لا يرون نصباً في ذات اللّٰه ويتورعون عن تافه الأشياء وما يعـد الورع فيـه بارداً ويتحرجون من ذلك أشد تحرج ثم يأتون أفظع المنكرات وأكبر الكبائر كـأنهم لا يدينون بإله ولا يعرفون عـدلاً ولا شفقة ور لاحمـة، فهم كما يقـول المثل العـامي « يفتون على الأبرة ويبلعون المدرة » وهم في كل عملهم لا يعجـزون عن الإتيان بالآيات من الكتاب يستدلون بها على تبرير عملهم.

وكم من فقيـه خـابط في ضـلالـة وحـجتـه فـيهـا الـكتـاب المـنـزل

دخل القوم قرية فخـرج منها عبـد اللّٰه بن خباب بن الأرت ومعـه امرأتـه حاملاً فقالوا له: أفزعت؟ فقال: واللّٰه لقد أفزعتموني. فقالوا. لا روع عليك، وسألوه من هو؟ فقالـوا: حدثنـا عن أبيك عن رسـول اللّٰه، فحدثهم أن رسـول اللّٰه ﷺ قال « إن فتنة تكون بموت فيهـا قلب الرجـل كما يمـوت بدنـه يمسي فيها مؤمنـاً ويصبح فيهـا كافـراً ويصبح فيهـا كافـراً ويمسي فيها مؤمنـاً » فقالـوا: لهذا الحـديث سألنـاك، فما تقـول في أبي بكر؟ فـأثنى عليه وفي عمـر فـأثنى عليـه وفي عثمان في أول خلافته وآخرها فقال: إنه كان محقًا في أولها وآخرها. وسـألوه عن علي قبل التحكيم وبعـده فقال: هـو أعلم باللّٰه منكم وأشـد توقيـاً لدينـه وأنفذ بصيـرة (وكان عبـد اللّٰه بن خبـاب رأى أحـدهم وقـد سقـطت رطبـة من نخلة فألقاها في فيه فأنكروا عليـه أن يكون قـد أكلها بغـير ثمن وبغير إذن صـاحبها. وقتل أحدهم خنزيراً فأنكروا عليه لأنه إتلاف لمال أهـل الذمـة) فقالـوا له: واللّٰه إنك لتشهد بالهوى وتفضل الرجال على أسمائها لا على أفعالها واللّٰه لنقتلنك قتلة

ما قتلناها أحداً قط. فأتوا به فذبحوه وبقروا بطن امرأتـه عن حملها وكانت متئماً وقتلوا ثلاث نسوة من طيء وأم سنان الصيداوية فبلغ ذلك علـيًّا فأرسـل رسولاً ليعلم جلية الخبر عنهم فقتلوه. ولما جاء الخبـر بذلـك قال لـه أصحابـه يا أمـير المؤمنين علام تدع هؤلاء وراءنا يخلفوننا في أموالنا وعيالنا؟ سر بنا إلى القوم فـإذا فـرغنا ممـا بيننا وبينهم سـرنا إلى عـدونا من أهـل الشام. فلم يجـد علي بـداً من موافقتهم على مناجزة الخوارج أولاً

سـار إلى الخوارج، فلما لقيهم أرسـل إليهم أن ادفعوا إلينـا قتلة إخـوانـنـا منكم نقتلهم بهم ثم أنـا تارككم وكـافٌ عنكم حتى ألقى أهل الشـام فلعل اللّه يقلب قلوبكم ويردكم الى خير مما أنتم عليه من أمركم، فبعثوا إليـه: كلنا قتلهم وكلنا نستحل دمـاءهم ودماءكم، وقـد أعذر إليهم عـليٌّ جهده وأبلغ في المـوعظة والتحـذير في خـطب رنانـة خـطبهـا فيهم فجعلوا أصـابعهم في آذانهم وأصـروا واستكبروا استكباراً ـ ثم رفع راية مع أبي أيوب الأنصاري ونادى: من جاء هذه الـراية منكم ممن لم يقتـل ولم يستعرض فهـو آمن ومن انصرف إلى الكـوفة أو إلى المدائن وخرج من هذه الجماعة فهو آمن، إنـه لا حاجـة لنا بعـد أن نصيب قتلة إخواننا منكم في سفـك دمائكم، فـانصرف منهم جمـع وآوى إلى علي جمـع وبقي ابن وهب في ٢٨٠٠ من أربعة آلاف فقامت رحى الحـرب بين الفـريقين وانتهت الموقعة في ذلك اليوم بقتل ابن وهب ومعظم من معه ووجدوا من جرحاهم نحواً من أربعمائة فأمر بهم علي فدفعوا إلى عشائرهم: وقال احملوهم معكم فإذا برءوا فخذوهم معكم إلى الكوفـة. ويقول ابن الأثـير: إنهم قتلوا في وقت قصير كـأنما قيل لهم موتوا فماتوا، وكان عـلي يحدث أصحـابه بمن يخـرجون وعـلامتهم رجل مخدج فالتمس فوجد فيهم.



تخاذل شيعة علي

لمـا رأى علي أنـه رتق الفتق من ناحيـة الخوارج وأراح النـاس من شغبهم

أراد أن ينهض الى الشام، فقام في أصحابه فقال:

إن اللّه قد أحسن بكم وأعز نصركم فتوجهوا من فوركم هـذا إلى عدو في جهـاده القربـة الى اللّه ودرك الوسيلة عنـده. حيارى في الحق جفـاة عن الكتاب نكب عن الدين يعمهون في الطغيان ويعكسون في غمر الضـلال فأعـدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل وتوكلوا على اللّه وكفى باللّه وكيلاً وكفى باللّه نصيراً فقالوا:

يـا أمير المؤمنـين نفدت نبـالنا وكلت سيـوفنا ونصلت أسنـة رماحنـا وعـاد أكثرها قِصداً فارجع إلى مصرنا فلنستعد بأحسن عدتنا ولعل أمير المؤمنين يزيد في عدتنا عدة من هلك منا فإنه أو في لنا على عدونا. وكان الذي تولى ذلك الكـلام الأشعث بن قيس وهـو من أكره النـاس للحرب ـ وإني لا أدري لم يخـرج الكاره للحرب مع المستعدين لها؟ ومثل هذا لا يكون له عمـل سوى التثبيط والتخـذيل وقد كان هذا الرجل كذلك من يوم الجمل.

سمع علي هذا الكلام وأشفق أن يستكره الناس على النهوض من فـورهم فرجع إلى النخيلة وعسكر بها وأمر الناس أن يلزمـوا عسكرهم وأن يـوطنوا عـلى الجهاد أنفسهم وأن يقلوا زيارة نسائهم وأبنائهم حتى يسيروا إلى عدوهم، فأقاموا في معسكـرهم أيامـاً ثم تسللوا من معسكـرهم فـدخلوا مـدينتهم إلا رجـالاً من وجوه الناس قليلاً وتُرك المعسكر خالياً. فلما رأى علي ذلك دخل الكـوفة وانكسر عليـه رأيه وتـركهم أيامـاً حتى إذا أيس من أن يفعلوا دعا رؤسـاءهم ووجـوههم فسـألهم عن رأيهم وما الـذي ينظرهم؟ فمنهـم المعتـل ومنهم المكـره وأقلهم من نشط. فقام فيهم خطيباً فقال: «عباد اللّه ما لكم إذا أمـرتكم أن تنفروا اثـاقلتم الى الأرض أرضيتم بـالحياة الـدنيا من الآخـرة وبـالـذل والهـوان من العـز وكلما نـدبتكم الى الجهاد دارت أعينكـم كـأنكم من الموت في سكـرة، وكـأن قلوبكم مألوسة فأنتم لا تعقلون، وكأن أبصاركم كمه فأنتم لا تبصرون للّه أنتم! ما أنتم إلا أسود الشرى في الدعة وثعـالب رواغة حـين تدعـون إلى البأس، مـا أنتم لي

بثقة سجيس الليالي ما أنتم بركب يصال بكم ولا ذوي عز يعتصم إليه لعمر اللّه لبئس حشاش الحرب أنتم انكم تكادون ولا تكيدون وتنتقص أطرافكم ولا تتحاشون ولا ينام عنكم وأنتم في غفلة ساهون » ثم بين لهم حقوقهم عليه وحقوقه عليهم واستحثهم فكان كأنما ينفخ في غير ضرم.

لم يزل علي في القوم يغاديهم بالخطب الطنانة ويراوحهم بالقول الجزل ويثير حميتهم ويستفز نخوهم. فلم يزدهم ذلك إلاّ إعراضاً من الحرب ونفاراً منها وما تغني الأقوال والخطب عن قوم توزعتهم الأهواء وتفرقت بهم السبل يشهدون بقلوب غائبة وأفئدة شاردة وألباب طائرة، قد تراخت أسباب طاعتهم وضعف سلطان إمامهم في أنفسهم قد استمرأوا مرعى الدعة وآثروا السلامة، وأصبح علي لا يدري لهم طاعة ولا يعرف لهم عصياناً فهو من أمرهم في داج من الشك ومظلم من الريب.

شأن معاوية ومحمد بن أبي بكر

لما عزل علي قيس بن سعد عن مصر بكيد معاوية وخُرق رأي المشيرين على علي وولى محمد بن أبي بكر على مصر جاء إليها ولم يلبث شهراً من مقدمة حتى كتب إلى المعتزلين بخربتا يخيرهم بين الدخول في طاعته والخروج من مصر، فأجابوه: إنا لا نفعل دعنا حتى ننظر ما تصير إليه أمورنا ولا تعجل بحربنا فأبى عليهم فامتنعوا وحذروا أشد الحذر.

كان قيس بن سعد ـ لما علم بشخوص محمد بن أبي بكر أميراً على مصر ـ تلقاه وناجاه فقال، إنك جئت من عند امريء لا رأي له وليس عزلكم إياي بما نعى أن أنصح لكم وأنا من أمركم هذا على بصيرة، وإني في ذلك على الذي كنت أكايد به معاوية وعمراً وأهل خربتا فكايدهم به فإنك إن تكايدهم بغيره تهلك ووصف له ما يأتي وما يدع من أمره. فاستغشه محمد بن أبي بكر وخالف كل شيء أمره به وخرج لحرب أهل خربتا فقاتلوه وهزموه ولم يحل منهم بطائل.

علم معاوية بما كان بين محمد بن أبي بكر والمعتزلة بمصر فسره ذلك. وقام معاوية بن حديج السكوني الكندي يطلب بدم عثمان فأجابه ناس آخرون وفسدت مصر على محمد بن أبي بكر وعلم علي بالأمر في أثناء هدنة الحكومة فأهمه ذلك وقال: إن مصر لا يصلح لها إلا أحد رجلين هذا الذي عزلناه. والأشتر وكان الأشتر بالجزيرة عاملاً لعلي فأرسل إليه بأن مصر قد انتقضت على محمد بن أبي بكر وهو غلام حدث ليس عنده تجربة ولا علم بالأمور فاستخلف على عملك أهل الثقة ممن معك واحضر إليّ. فلما جاء إليه ولاه أمر مصر وقال له. اخرج رحمك اللّه فإني لو لم أوصك اكتفيت برأيك واستعن باللّه على ما أهمك فاخلط الشدة باللين وارفق ما كان الرفق أبلغ واعتزم بالشدة حين لا يغني عنك إلا الشدة. فخرج وتهيأ للرحلة إلى مصر وأتت معاوية عيونه فأخبره بولاية الأشتر على مصر فعظم عليه ذلك. وبعث إلى الجايستار ـ وهو رجل من أهل الخراج ـ فقال له إن الأشتر ولي مصر فإن أنت كفيتنيه لم آخذ منك خراجاً ما بقيت. فأتى ذلك الدهقان حتى نزل القلزم فلما انتهى الأشتر إليها استقبله الرجل وقال أنا رجل من أهل الخراج، وهذا منزل وهذا طعام وعلف فنزل الأشتر، فلما طعم جاءه بشربة عسل فيها سم فشربه الأشتر فمات ـ وكان معاوية حين علم بفصول الأشتر يقول لأهل الشام إن الأشتر قد ولي مصر فادعوا اللّه أن يكفيكموه فكانوا يدعون على الأشتر بكرة وعشيا. إلى أن جاء الجايستار وأنبأه بمهلك الأشتر فقام معاوية فقال. أما بعد فإن علي بن أبي طالب كان له يمينان قطعت إحداهما يوم صفين (يعني عماراً) وقد قطعت الأخرى اليوم (يعني الأشتر) وقد روى عنه أنه قال حين علم بموت الأشتر. « إن للّه جنوداً من عسل ».

أما محمد بن أبي بكر فساءه من علي أن يعزله عن مصر، فبلغ عليًّا مهلك الأشتر وموجودة محمد بن أبي بكر فكتب إليه: « أما بعد فقد بلغني موجدتك من تسريحي الأشتر الى عملك، وإني لم أفعل ذلك استبطاء لك في الجهاد ولا ازدياداً مني لك في الجد ولو نزعت ما تحت يدك من سلطانك لوليتك ما هو أيسر عليك في المؤنة وأعجب إليك ولاية منه. إن الرجل الذي كنت وليته مصر كان لنا

نصيحاً وعلى عدونا شديداً وقد استكمل أيامه ولاقى حمامه ونحن عنه راضون فرضي اللّه عنه وضاعف له الثواب وأحسن له المآب. اصبر لعدوك وشمر للحرب وادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وأكثر ذكر اللّه والاستعانة به والخوف منه يكفك ما أهمك ويعنك على ما ولاك. أعاننا اللّه وإياك على مالا ينال إلا برحمته »، فكتب إليه محمد بن أبي بكر « أما بعد فقد أنهى إلى كتاب أمير المؤمنين ففهمته وعرفت ما فيه وليس أحد من الناس بأرضى مني لرأي أمير المؤمنين ولا أجهد على عدوه ولا أرأف بوليه مني وقد خرجت فعسكرت وآمنت الناس إلا من نصب لنا وأظهر لنا خلافاً وأنا متبع أمر أمير المؤمنين وحافظه وملتجيء إليه وقائم به واللّه المستعان على كل حال والسلام عليك.

لما انصرف أهل الشام من صفين كانوا ينتظرون ما يأتي به الحكمان فلما انتهى أمرهما، بايع أهل الشام معاوية بالخلافة فزاده ذلك توثيقاً في أمره وقوة الى قوته. واختلف أهل العراق على عليّ وقعدوا عن أمره فتضاعف عليه اضطراب شؤونه وهي جانب سلطانه، ولم يكن لمعاوية همٌّ إلا مصر، وكان لأهلها هائباً يخشى أن يتسق لعلي الأمر فيها وأن يستظهر بهم على حربه، مع قربهم وشدتهم على من كان على رأي عثمان. وكان قد علم أن بها قوماً ساءهم قتل عثمان وخالفوا، فرجاهم أن يشدوا ساعده حتى إذا انقادت له أمور مصر بأزمتها استظهر بأهلها على حرب علي لعظم خراجها. فدعا معاوية من كان معه من قريش. عمرو بن العاص وحبيب بن سلمة وبُسر بن أبي أرطأة والضحاك بن قيس وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد، ومن غيرهم أبا الأعور السلمي وحمزة بن مالك الهمداني وشرحبيل بن السمط فقال لهم أتدرون لمَ دعوتكم؟ إني قد دعوتكم لأمر مهم أحب أن يكون اللّه قد أعان عليه. فقال قائلهم: إن اللّه لم يطلع على الغيب أحداً، وما يدرينا ما تريد؟ فقال عمرو: أرى واللّه أمر هذه البلاد الكثير خراجها والكثير عددها والكثير عدد أهلها أهمك أمرها فدعوتنا تسألنا رأينا في ذلك، فإن كنت لذلك جمعتنا فاعزم وأقدم ونعم الرأي رأيت ففي

افتتاحها عزك وعز أصحابك وكبت عدوك وذل أهل الخلاف عليك فقال معاوية لعمرو: أهمك ما أهمك. يريد بذلك أن هذا الأمر أهم عمراً لأنه جعل له مصر طعمة طول حياته في مقابلة معاونته ومؤازرته على أمره وما شجر بينه وبين علي. ثم قال: إن هذا قد ظن ثم حقق ظنه. فقالوا ولكنا لا ندري فقال إن أبا عبد اللّه قد أصاب ثم قال: أما بعد فقد رأيتم كيف صنع اللّه بكم في حربكم عدوكم، جاؤوكم وهم لا يرون إلاّ أنهم سيقيضون بيضتكم ويخربون بلادكم ما كانوا يرون إلا أنكم في أيديهم فردهم اللّه بغيظهم لم ينالوا خيراً مما أحبوا وحاكمناهم الى اللّه فحكم لنا عليهم. ثم جمع لنا كلمتنا، وأصلح ذات بيننا، وجعلهم أعداء متفرقين يشهد بعضهم على بعض بالكفر ويسفك بعضهم دم بعض، واللّه إني لأرجو أن يتم لنا هذا الأمر، وقد رأيت أن نحاول أهل مصر، فكيف ترون أرتثاءنا لها؟ فقال عمر وقد أخبرتك عما سألتني عنه وقد أشرت عليك بما سمعت، فقال معاوية: إن عمراً قد عزم وجزم ولم يفسر فكيف لي أن أصنع؟ فقال: إني أشير عليك كيف تصنع. أرى أن تبعث جيشاً كثيفاً عليهم رجل حازم صارم تأمنه وتثق به، فيأتي مصر حتى يدخلها فإنه سيأتيه من كان من أهلها على رأينا فظاهره على من بها من عدونا فإذا اجتمع بها جندك ومن بها شيعتك على من بها من أهل حربك رجوت أن يعين اللّه بنصرك ويظهر فلجك. فقال معاوية فهل عندك سوى هذا؟فقال لا، فقال معاوية أرى أن نكتب الى من هم من أهل صلحنا وعلى مثل رأينا فشبتهم ونقويهم ونمنيهم مجيئنا إليهم، وإلى أهل عداوتنا فندعوهم إلى صلحنا ونمنيهم شكرنا ونخوفهم حربنا. فإن صلح لنا قيامهم بغير قتال فذاك ما أحببنا وإلا كان حربهم من وراء ذلك كله. إنك يا ابن العاص امرؤ بورك لك في العجلة وأنا امرؤ بورك لي في التؤدة. فقال: افعل ما رأيت فإني أرى واللّه أن أمرك وأمرهم يصير الى الحرب العوان. فكتب معاوية الى مسلمة بن مخلد الأنصاري وإلى معاوية بن حديج الكندي وكانا قد خالفا عليًا: «أما بعد فإن اللّه قد بعثكما لأمر عظيم أعظم به أجركما ورفع به ذكركما وزينكما به في المسلمين طلبكما بدم الخليفة المظلوم وغضبكما للّه إذ ترك حكم

الكتـاب وجاهـدتما أهـل البغي والعدوان، فـأبشروا بـرضوان اللّه وعـاجل نصر أوليـاء اللّه والمواسـاة لكما في الـدنيا وسلطاننـا حتى ينتهي في ذلك مـا يـرضيكـما ونؤدي به حقكما الى ما يصير أمركما إليه فاصبرا وصابرا عدوكما وادعوا المـدبر الى هداكما وحفظكما فكأن الجيش قد أطل عليكما فانقشع كل ما تكـرهان وكـان كل ما تهويان. والسلام عليكما ».

فلما جاء الكتاب، كتب إليه مسلمة عن نفسه وعن معاوية بن حديج « أما بعد فإن هذا الأمر الذي بذلنا له أنفسنا واتبعنا أمر اللّه فيه أمـر نرجـو به ثـواب ربنا والنصر ممن حالفنا وتعجيل النقمـة لمن سعى على إمـامنا وطـأطأ الـركض في جهادنا ونحن بهذا الحيز من الأرض قد نفينا من كان به من أهـل البغي وأنهضنا من كـان به من أهـل القسط والعدل. وقـد ذكرت المـواسـاة في سلطاك ودنيـاك وباللّه ما ذلك الأمر الـذي له نهضنـا ولا إياه أردنـا فإن يجمـع اللّه لنا مـا نطلب ويؤتنا ما تمنينا فإن الدنيا والآخرة للّه رب العالـين وقد يؤتيهـما اللّه معاً عـالماً من خلقه كما قال في كتابه ولا خلف لموعوده **﴿فآتاهم اللّه ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة واللّه يحب المحسنين﴾**[1] عجل علينا خيلك ورجلك فإن عدونا قد كـان علينا حرباً وكنا فيهم قليلاً فقد أصبحوا لنا هائبين وأصبحنا لهم مقرنين فإن يؤتنا اللّه بمدد من قبلك يفتح اللّه عليكم، ولا حـول ولا قوة إلا بـاللّه، وحسبنا اللّه ونعم الوكيل. والسلام عليكم ».

جاء هذا الكتاب الى معاوية فقال لعمرو تجهز يا أبا عبد اللّه وبعثه في ستة آلاف، وأوصاه بالأعـذار الى المخالفـين والتأني والـرفق والقبول ممن أقبـل والعفو عمن أدبر وأن لا يبطش بمكابر إلا بعد الإعذار إليه. فلما كان عمرو بأدنى أرض مصر اجتمعت إليه العثمانية وكتب عمرو الى محمد بن أبي بكر:

« أما بعد فتنح عني بدمك يا ابن أبي بكـر: فإني لا أحب أن يصيبـك مني

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٤٨.

ظفر. إن الناس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك ورفض أمرك وندموا على أتباعك. فهم مسلموك لو قد التقت حلقتا البطان فاخرج منها فإني لك من الناصحين ».

وأرسل إليه معه بكتاب كان معاوية كتبه إلى محمد بن أبي بكر صورته « أما بعد فإن غب البغي والظلم عظيم الوبال وإن سفك الدم الحرام لا يسلم صاحبه من النقمة في الدنيا، ومن التبعة الموبقة في الآخرة. وإنا لا نعلم أحداً كان أعظم على عثمان بغياً ولا أسوأ له عيباً ولا أشد عليه خلافاً منك: سعيت عليه في الساعين وسفكت دمه في للسافكين ثم أنت تظن أني عنك نائم أو ناس لك حتى تأتي فتأمَّر على بلاد أنت فيها جاري وجل أهلها أنصاري يرون رأيي ويرقبون قولي ويستصرخونني عليك. وقد بعثت إليك قوماً حناقاً عليك يستسقون دمك ويتقربون الى اللّه بجهادك وقد أعطوا اللّه عهداً ليمثلن بك ولو لم يكن منهم إليك سوى قتلك ما حذرتك ولا أنذرتك ولأحببت أن يقتلو بظلمك وقطيعتك وعدوك على عثمان يوم يُطعن بمشاقصك بين خُشَشائه وأوداجه. ولكن أكره أن يمثل بقرشي ولن يسلمك اللّه من القصاص أبداً أينما كنت والسلام ».

فلما جاء إلى محمد كتاباهما أرسلهما الى علي وكتب معهما « أما بعد فإن ابن العاص قد نزل أداني مصر، واجتمع إليه أهل البلد جلهم ممن كان يرى رأيهم، وقد جاء في جيش لجب حراب. وقد رأيت ممن قبلي بعض الفشل، فإن كان لك في أرض مصر حاجة فأمدّني بالرجال والأموال. والسلام ».

فكتب إليه علي يهون عليه أمر ابن العاص، وأن خروج من خرج إليه إنما هو في مصلحته. وأمره أن لا يفشل وإن فشل من قبله وأن يحصن القرية ويضم إليه شيعته ويقاتلهم بجهده، ووعده أمداده بالرجال سريعاً. ونال من معاوية وعمرو ما شاء أن ينال. وأمره أن يجيبهما عن كتابهما إن كان لم يجبهما، وأن يندب إليه كنانة بن بشر.

أما محمد بن أبي بكر فكتب إلى معاوية « أما بعد فقد أتاني كتابك تذكرني من أمر عثمان أمراً لا أعتذر إليك منه وتأمرني التنحي عنك كأنك لي ناصح وتخوفني المثلة كأنك شفيق وأنا أرجو أن تكون لي الدائرة عليكم فابتاحكم في الوقعة وأن تؤتوا النصر ويكن لكم الأمر في الدنيا فكم لعمري من ظالم قد نصرتم وكم من مؤمن قد قتلتم ومثلتم به وإلى اللّه مصيركم ومصيرهم وإلى اللّه مرد الأمور وهو أرحم الراحمين وهو المستعان على ما تصفون » وكتب إلي عمرو ابن العاص: « زعمت أنك تكره أن يصيبني منك ظفر وأشهد أنك من المبطلين. وتزعم أنك لي نصيح وأقسم أنك عندي ظنين. وتزعم أن أهل البلد قد رفضوا رأيي وأمري وندموا على أتباعي فأولئك لك وللشيطان الرجيم أولياء. » وقام محمد بن أبي بكر في الناس يستجيشهم ويؤلبهم ويبعث فيهم الحماسة ويهزهم بالقول. فنفر منهم ألفان معه ومثلهم مع كنانة بن بشر واستقبل عمرو بن العاص ومن معه وتقدم إليه كنانة بن بشر وكان عمرو قد سرح جيشه كتائب فصار كنانة يضرب في هذه الكتائب ويردها الى عمرو حتى قرب منه فاستدعى معاوية بن حديج السكوني فجاءه في مثل الدهم فأحاطوا بكنانة بن بشر ومن معه وعطفت عليه أهل الشام فقاتلهم ابن بشر ومن معه حتى قتل. ثم جاء عمرو الى محمد بن أبي بكر وقد تفرق عنه أكثر من معه لما بلغهم ما حل بابن بشر ومن معه واستمروا في التفرق حتى لم يبق معه أحد فخرج يمشي في الطريق حتى انتهى الى خربة فدخل فيها ودل عليه بعض القبط وهم لا يعرفونه فدخل عليه معاوية بن حديج في أصحابه فأخرجوه وقد كاد يموت عطشاً وقام عبد الرحمن بن أبي بكر وقال أتقتلون أخي فأرسل عمرو الى معاوية بن حديج أن يأتي به الى الفسطاط حيًّا. فقال أكذلكم قتلتم كنانة بن بشر وأبقى أنا محمد بن أبي بكر؟ أكفاركم خير من أولئكم؟ فطلب محمد أن يسقوه فقال لا سقاه اللّه شربة ماء أن سقاك قطرة ماء منعتم عثمان الماء وقتلتموه صائماً محرماً حتى تلقاه اللّه بالرحيق المختوم، واللّه لأقتلنك يا ابن أبي بكر ويسقيك اللّه الحميم والغساق ونال كل منهما من الآخر وانتهى الأمر بأن قتله وأدخله جيفة حمار ثم

أحرقه. ولما بلغ ذلك عائشة جزعت عليه وقنتت على معاوية وعمرو دبر كل صلاة وضمت عيال محمد إليها.

أما علي فلم يوفق لإخراج الجنود لأغاثة محمد بن أبي بكر إلا بعد شدة. وقد انتُدب له ألفان ولم يسيروا قليلاً حتى جاء الخبر بقتل محمد بن أبي بكر ووقوع مصر في يد معاوية، فأرسل الى القوم من ردهم من الطريق وحزن على محمد بن أبي بكر حزناً كثيراً. ولم يجد علـيًا ما صاغ من الخطب وصنف من القول في الاستنهاض. وقد سر معاوية وأهل الشام بما كان سروراً عظيماً.

كانت مصر لمعاوية قوة كبيرة، ولم يقنع بالاستيلاء عليها، بل عمد إلى تجهيز الجيوش الى أطراف علي ينتقصها: فأرسل النعمان بن بشير إلى عين التمر وبها مالك بن كعب مسلحة لعلي ففزع الى علي يستمده لكفاح المغيرين فأمر الناس باللحاق واستنهضم فتثاقلوا فقام علي فيهم بهذه الخطبة (يا أهل الكوفة كلما سمعتم بمَنْسِر من مناسر أهل الشام أظلكم انجحر كل امريء منكم في بيته وأغلق بابه انجحار الضبع في وجَارها. المغرور من غررتموه. ولمن فاز منكم فاز بالسهم الأخيب. لا أحرار عند النداء ولا إخوان ثقة عند النجا. إنا للّه وإنا إليه راجعون. ماذا منيت بكم. عمى لا تبصرون وبكم لا تنطقون صم لا تسمعون إنا للّه وإنا إليه راجعون.

وقد وجه معاوية أيضاً سفيان بن عوف في ستة آلاف للإغارة على هيت والأنبار والمدائن فسار حتى أتى هيت فلم يجد بها أحداً ثم أتى الأنبار وبها مسلحة لعلي فغلبهم على أمرهم واحتملوا ما بها من الأموال وعادوا إلى معاوية.

ووجه عبد اللّه بن مسعدة الى تيماء وأمره أن يصدِّق من مر به من أهل البوادي وأن يقتل من امتنع ثم يأتي مكة والمدينة. فوجه إليه علي جيشاً يقدمه المسيب بن نجية الفزاري فلقى ابن مسعدة بتيماء فاقتتلوا قتالاً شديداً وانتهى الأمر بأن سهل لهم المسيب طريق الفرار ولم يلحقهم فاتهم بالغش.

ووجه معاوية الضحاك بن قيس للإغارة على بوادي البصرة فأغار عليها.

ووجه بسر بن أبي أرطأة في ثلاثة آلاف الى الحجاز واليمن فسار حتى أتى المدينة وملكها وبايع أهلها لمعاوية ثم أتى مكة فبايع أهلها كذلك، ثم قدم حتى أتى اليمن وعليها عبيد اللّه بن عباس والياً لعلي. فلمّا علم بمقدم بسر بن أرطأة فرّ الى الكوفة واستخلف على صنعاء فجاء بسر وقتل ابنين صغيرين لعبيد اللّه ابن عباس قالوا: إنه ذبحهما وقد جنت أمهما لمصابهما وهوله ورُئيت وهي بالأسواق تنشدهما وتقول:

يا من أحس بابنيّ اللذين هما … كدرّتين تشظى عنهما الصدفُ

وكان بُسر مسرفاً في القتل لشيعة علي، سفاكا للدماء، فقد قتل كثيراً من المسلمين في وجهه هذا وهدم دوراً كثيرة في مكة والمدينة وقد وجه إليه عليٌّ جارية ابن قدامة في ألفين ووهب بن مسعود في ألفين فخاف منها وهرب حتى أتى مكة وقد قتل علي في تلك الأثناء وحملهم جارية بن قدامة على بيعة الحسن وكذلك أهل المدينة.

على هذا النمط كانت الأحوال: معاوية يتسق له الأمر ويضخم ملكه ويزداد قوة الى قوته وتؤاتيه الأقدار ويرافقه التوفيق، وعلي تضطرب عليه الأحوال وتتعذر السبل وتنتقص أطرافه وتقتل شيعته وأهل طاعته وتلتوي عليه الأمور. حتى أن أكثر المؤرخين يذكرون أن عبد اللّه بن عباس قد فارق عليًّا إلى مكة، لأن عليًّا سمع فيه الوشايات وقبل عليه السعايات من الساعين إليه بأنه احتجن الأموال دونه وخانت في بيت المال. وقد روى الطبري أن الساعي بذلك أبو الأسود الدؤلي وكان ابن عباس عابه فأصغى علي الى قوله، فاحتمل ابن عباس ثَقَلَهُ وما كان معه من مال ولحق بمكة في جوار أخواله من بني هلال. وذلك تقدير العزيز العليم.

جواب سؤال

يعتلج نفسي سؤال كلما استعرضت الأحوال التي كانت في أخريات زمان عثمان وفي مدة علي وما بعدها وهو: لم اختص المصرين للبصرة والكوفة بقيام الخوارج دون الشام ومصر. ولم كان أهلوها بهذه الأخلاق من النزوع عن الطاعة والخلاف لأمر الإمام؟.

هذا السؤال مهم جداً وجوابه أهم ويحتاج إلى الإفاضة والشرح في البحث والتنقيب عن غوامض كثيرة وربط الأسباب بمسبباتها، غير أني اجتزيء بأن أقول كلمة موجزة تكون بمنزلة الإشارة، واعتمد على ذهن القاريء في الإكتفاء بهذا الإجمال.

يقول علماء الأخلاق وأهل البصر بعلم الاجتماع: إن ماضي الأمة لا يموت أبداً ولكنه يكون حيًّا فيها وفي أعقابها، وإن الروح العامة للأحياء من الأمة إنما هي مؤلفة من أفكار الأموات. ومعلوم أن المسلمين قد غلبوا الفرس واحتووا أموالهم ونساء هم وذراريهم واتخذوا النساء الفارسيات زوجات وأولدوهن أكثر أولادهم في تلك النواحي. فنشأت نابتة تلك الأقطار بين آباء وأمهات من جنسين متباينين في المدينة والأخلاق والآداب والعادات والمعتقدات ومن دمين مختلفين يحمل كل منهما صفات متنافرة وعقائد متضاربة. ومثل هذا النسل تتفكك فيه أواصر الروح الوراثي وتوجد فيه أفكار متناقضة كل منها يجذب قواه الى ناحيته. ومعلوم أن الفرس قد اعتنقوا أدياناً مختلفة واصطبغوا بصبغات متنافرة فهم قوم يجمعون بين الصابئية والمجوسية والإباحية. ولهم ولوع باختلاف الأساليب الدينية يمثلها خيالهم ولم يكن لهم ثبات على دين خاص أو نحلة معينة بل كانوا في جميع أدوار حياتهم متأثرين بعوامل الجذب والدفع بين النحل والأديان. فلما نشأ هذا الجيل المولد بين العرب والفرس نشأ مختلط

المزاج! سريع التأثر بالعقائد. يلبس لباس الدين والتقوى التي ورثها من الآباء ولكنه يريد أن يجذب هذا اللباس يوسع فيه حتى يحيط بكل ما انتقل إليه بطريق الوراثة من الأهواء المضلة التي يعجز عن التخلي عنها ولا يقدر على مفارقتها. وليس الدين عنده ديناً إن لم يتسع له ولما حمله بالوراثة من النزعات والنزعات وليس في وسعه أن يقاوم تلك العوامل الداخلية التي تدفعه الى العمل على هذا النحو فهو يأتي ما يأتي باعتقاد قوي وفكرة لا شك فيها أنه على حق ليس وراءه إلا الضلال. وعلى ذلك يكون مزاجه العقلي والأخلاقي وآدابه التي يأخذ نفسه بها مزيجاً مركباً من عناصر شتى.

ولهذا يقول علماء الاجتماع: إن الشعب الصحيح لا وجود له إلا عند القوم الأولين. وأما الأمم المتحضرة فإن كثرة اختلاط التناسل ووحدة البيئة ولدت منها شعوباً تاريخية جديدة تشبه الشعوب الصحيحة. وإن صفات الشعب النفسية ثابتة ثبات صفاته الجسمانية وتنتقل بالوراثة على قاعدة واحدة وبالاستمرار. وإن المولد رجل تتجاذبه مؤثرات مختلفة من الوراثة والذكاء والآداب والأخلاق.

فإذا كانت أمة كلها أو جلها على هذا النحو من التناسل بين أبوين مختلفين كل الاختلاف على هذا النحو الذي ذكرنا كان قيادها صعباً وإن البيئة إذا كانت بهذا الوصف أثرت بطريق العدوى في من لم يكن مولداً واندمج كثير بحكم التقليد وتغلب روح الجماعة في ذلك المزاج المختلط فتنعدم شخصيته ويكون متأثراً بالروح العام للجماعة التي هو فيها.

وقد قال غوستاف لوبون « أمة أهلها كلهم مولد لا تساس » فليس عجيباً أن تعتاص على عليّ سياسة هؤلاء القوم وأن ينزع منهم نازع في كل يوم الى الخروج وانتحال نحلة جديدة وتأويل الدين على مقتضى ما يجول بخواطرهم لأنهم مدفوعون الى هذا الضرب بعوامل الوراثة التي فيهم.

أما أهل الشام فلم يكونوا كذلك لأنهم لم يكونوا يستكثرون من إيلاد

السبايا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الروميات كن متـدينات بـالدين المسيحي وهو دين يأمر بالخير وينهى عن الشر وأهل تلك الناحية قد بعد عهـدهم بالـوثنية ولم ينقلبوا في الأهواء والبدع تقلب الفرس، فكان المزاج الـديني للأمهـات قريبـاً من مزاج الآباء فلم يكن التباين كثيراً من هـذه الناحيـة فكانـوا أبعد من البـدع التي تختلق في العراق.

مقتل علي بن أبي طالب

كـان الخوارج يـرون في علي بن أبي طـالب عدواً لـدوداً وخصماً خصيـماً. فاجتمع منهم عبد الرحمن بن ملجم المرادي والبرَك بن عبـد اللَّه وعمرو بن بكـر التميمي فتذاكروا أمر الناس وعابوا ولاتهم ثم ذكـروا أهل النهـر فترحمـوا عليهم وقالوا ما نصنع بالبقاء بعدهم شيئاً إخواننا الذين كانـوا دعاة النـاس لعبادة ربهم والذين كانوا لا يخافون في اللَّه لومة لائم، فلو شرينا أنفسنا فأتينا أئمـة الضلالـة فالتمسنا قتلهم فأرحنا منهم البلاد وثأرنا بهم إخواننا. فقال ابن ملجم، أنا أكفيكم عـلي بـن أبي طـالب وكـان مـن أهـل مصر. وقـال البـرك بـن عـبـد اللَّه: أنا أكفيكم معاوية بن أبي سفيان. وقـال عمرو بن بكـر أنا أكفيكم عمـرو بن العاص. فتعاهدوا وتواثقوا باللَّه لا ينكص رجل منهم عن صاحبه حتى يقتله أو يموت دونه. فأخذوا أسيافهم فسموها واتعدوا لسبـع عشر تخلو من رمضان أن يثب كل واحد منهم عـلى صاحبـه الذي تـوجه إليـه. وأقبل كـل واحد منهم الى المصر الذي فيه صاحبه الذي يطلب.

فأما ابن ملجم فكان عداده في كندة فخرج فلقى أصحابه بالكوفة وكاتمهم أمره كراهة أن يظهـروا شيئاً من أمـره فرأى ذات يـوم أصحابنـا من تيم الربـاب وكان على قتل منهم يوم النهر عشرة فذكروا قتـالهم. ورأى من يومـه ذلك امـرأة من تيم الرباب يقال لها قطام ابنة الشجنة وقد قتل على أبـاها وأخـاها يـوم النهر وكـانت فـائقـة الجمـال فلما رآهـا التبست بعقله ونسى حاجته التي جـاء لهـا ثم

خطبها. فقالت لا أتزوج حتى تشفى لي. فقال وما يشفيك قالت: ثلاثة آلاف وعبد وقينة وقتل علي بن أبي طالب. فقال: هو مهر لك، أما قتل علي فلا أراك ذكرته لي وأنت تريدني. قالت: بلى، التمس غرته فإن أصبت شفيت نفسك ونفسي ويهنئك العيش معي وإن قتلت فما عند الله خير من الدنيا وزينتها وزينة أهلها. قال: فوالله ما جاء بي الى هذا المصر إلا قتل علي، فلك ما سألت. قالت: إني أطلب لك من يسند ظهرك ويساعدك على أمرك، فبعثت الى رجل من قومها يقال له وردان فكلمته فأجابها. وأتى ابن ملجم رجلاً من أشجع يقال له شبيب بن بجرة فقال له هل لك في شرف الدنيا والآخرة؟ قال وما ذاك؟ قال قتل علي بن أبي طالب قال ثكلتك أمك لقد جئت شيئاً إدّاً، فكيف تقدر على علي؟ قال أكمن له في المسجد فإذا خرج لصلاة الغداة شددنا عليه فقتلناه فإن نجونا شفينا أنفسنا وأدركنا ثأرنا وإن قتلنا فما عند الله خير من الدنيا وما فيها. قال ويحك لو كان غير علي لكان أهون علي، قد عرفت بلاءه في الإسلام وسابقته مع النبي ﷺ وما أجدني أنشرح لقتله. قال أما تعلم أنه قتل أهل النهر العباد الصالحين؟ قال بلى. قال فنقتله بمن قتل من إخواننا. فأجابه فجاءوا قطام وهي في المسجد الأعظم معتكفة فقالوا لها قد أجمع رأينا على قتل علي. فقالت إذا أردتم ذلك فأتوني. ثم عاد إليها ابن ملجم في ليلة الجمعة التي قتل في صبيحتها علي فقال: هذه الليلة التي واعدت فيها صاحبي أن يقتل كل واحد منا صاحبه. فدعت لهم بالحرير فعصبتهم به وأخذوا أسيافهم وجلسوا مقابل السدة التي يخرج منها علي فلما خرج ضربه شبيب بالسيف فوقع سيفه بعضادة الباب وضربه ابن ملجم في قرنه بالسيف وهرب وردان.

فأما وردان فقد جاء منزله وأخبر رجلاً من قومه الخبر فقتله الرجل. وأما شبيب فدخل غمار الناس ونجا. وأما ابن ملجم فشدوا عليه فأخذوه.

وأما علي بن أبي طالب فتأخر وقال: لا يفوتكم الرجل. وأدخل عليه ابن ملجم فقال له: أي عدو الله ألم أحسن إليك؟ قال بلى. قال فما حملك على

هذا؟ قال: شحذته أربعين صباحاً وسألت اللّه أن يقتل به شر خلقه. فقال علي: لا أراك إلا مقتولاً، ولا أراك إلا من شر خلقه.

وكان ابن ملجم حين ضرب عليًا بالسيف قال: الحكم للّه يا علي، لا لك ولا لأصحابك، وقد قال علي بعد ضربه: النفس بالنفس إن أنا مت فاقتلوه كما قتلني وإن بقيت رأيت فيه رأيي. وقالت أم كلثوم بنت علي وهي تبكي: أي عدو اللّه، لا بأس على أبي، واللّه مخزيك. قال فعلى من تبكين؟ واللّه لقد اشتريته بألف وسممته بألف ولو كانت هذه الضربة على جميع أهل المصر ما بقي منهم أحد.

ودخل جندب بن عبد اللّه على عليّ فقال: يا أمير المؤمنين إن فقدناك ولا نفقدك فنبايع الحسن؟ قال ما آمركم ولا أنهاكم أنتم أبصر. فرد عليه مثلها. فدعا حسناً وحسيناً فقال: أوصيكما بتقوى اللّه وألا تبغيا الدنيا وإن بغتكما، ولا تبكيا على شيء زوى عنكما، وقولا الحق وارحما اليتيم وأغيثا الملهوف واصنعا للآخرة وكونا للظالم خصماً وللمظلوم ناصراً، اعملا بما في الكتاب ولا تأخذكما في اللّه لومة لائم. ثم نظر إلى محمد بن الحنفية فقال: هل حفظت ما أوصيت به أخويك؟ قال: نعم فقال إني أوصيك بمثله وأوصيك بتوقير أخويك لعظيم حقهما عليك فاتبع أمرهما ولا تقطع أمراً دونهما. وما زال يوصيهم بمحاسن الأخلاق والتقوى، وما زال يقول لا إله إلا اللّه حتى قبض صبيحة يوم الأحد ١٧ رمضان سنة ٤٠. وكان قد نهاهم عن المثلة وقال: يا بني عبد المطلب، لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين تقولون قتل أمير المؤمنين قتل أمير المؤمنين، ألا لا يقتلن إلا قاتلي. انظر يا حسن إن أنا مت من ضربته هذه فاضربه ضربة بضربة ولا تمثل بالرجل فإني سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «إياكم والمثلة ولو أنها بالكلب العقور». فلما قبض بعث الحسن الى ابن ملجم. فقال للحسن هل لك في خصلة إني واللّه ما أعطيت اللّه عهداً إلا وفيت به. إني قد كنت أعطيت اللّه عهداً عند الحطيم أن

أقتل علياً ومعاوية أو أموت دونهما. فإن شئت خليت بيني وبينه ولك اللّهُ على إن لم أقتله أو قتلته ثم بقيت أن آتيك حتى أضع يدي في يدك. فقال الحسن: أما واللّه حتى تعاين النار فلا. ثم قدمه فقتله وأخذه الناس فأدرجوه في بواري ثم أحرقوه بالنار.

وأما البرك فإنه قعد لمعاوية في الليلة التي ضرب فيها علي، فلما خرج ليصلي الصبح شد عليه بسيفه فوقع في إليته. ولم يقتله، فأخذ. فقال لمعاوية: عندي خبر أسرك به إن أخبرتك به أنافعي ذلك عندك؟ قال: نعم. قال: إن أخاً لي قتل علياً في مثل هذه الليلة. قال: فلعله لم يقدر على ذلك؟ قال: بلى، إن علياً يخرج وليس معه حرس. فأمر به فقتل. وأرسل معاوية الى الساعدي وكان طبيباً فقال: إن ضربتك مسمومة فإما أن أحمي حديدة فأضعها موضع السيف وإما أن أسقيك شربة تقطع عنك الولد وتبرأ منها. فقال: أما النار فلا صبر لي عليها، وأما الولد فإن في يزيد وعبد اللّه ما تقر به عيني فسقاه تلك الشربة وبرأ ولم يولد له بعدها. وأمر معاوية باتخاذ المقصورات وحرس الليل والشرط تقوم على رأسه إذا سجد.

وأما عمرو بن بكر فجلس لعمرو بن العاص في تلك الليلة وكان اشتكى من مَغْسٌ أصاب بطنه فلم يخرج وكان خارجة بن حذافة صاحب ؟شرْطته فأمره أن يصلي بالناس فشد عليه وهو يرى أنه عمرو فضربه فقتله. فأخذه الناس وانطلقوا به إلى عمرو يسلمون عليه بالأمرة. فقال من هذا؟ قالوا: عمرو. قال. فمن قتلتْ؟ قالوا: خارجة بن حذافة. قال أما واللّه يا فاسق ما ظننته غيرك. فقال عمرو: أردتني وأراد اللّه خارجة، وقدمه فقتله.

وبلغ معاوية ما كان بمصر فكتب إلى عمرو:

وقتل وأسباب المنايا كثيرة	منية شيخ من لؤي بن غالب
فيا عمرو مهلاً إنما أنت عمه	وصاحبه دون الرجال الأقارب
نجوتُ وقد بل المرادي سيفه	من ابن أبي شيخ الأباطح طالب

ويضربني بالسيف آخر مثله فكانت علينا تلك ضربة لازب

ولما انتهى الى عائشة قتل علي تمثلت:

فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عيناً بالإياب المسافر

ثم قالت: من قتلة؟ فقيل: رجل من مراد، فقالت:

فإن يك نائياً فلقد نعاه غلام ليس في فيه تراب

فقالت زينب بنت أبي سلمة: ألعلي تقولين هذا؟ فقالت: إني أنسى فإذا نسيب فذكروني.

وقد قال ابن أبي مياس المرودي في قتل علي:

ولم أر مهراً ساقه ذو سماحة كمهر قطام من فصيح وأعجم
ثلاثة آلاف وعبد وقنية وضرب علي بالحسام المسمم
فلا مهر أغلى من علي وإن غلا ولا قتل إلا دون قتل ابن ملجم

وقد ثاره أبو الأسود الدؤلي بقوله:

ألا بلغ معاوية بن حرب فلا قرت عيون الشامتينا
أفي شهر الصيام فجعتمونا بخير الناس طرًّا أجمعينا

في أبيات غير هذه. ومعلوم أن مخاطبة معاوية بهذه الكلمة أمر في غير محله، لأنه لا ذنب له في ذلك، وإنما قتله الخوارج، وقد استوفى معاوية حصته من المؤامرة.

وقد كان علي قد بلغ من العمر ثلاثاً وستين سنة وكانت خلافته خمس سنين إلا ثلاثة أشهر.

وقد روى الطبري بسنده إلى خالد بن جابر قال: سمعت الحسن يقول ـ لما قتل علي عليه السلام ـ وقد قام خطيباً « لقد قتلتم الليلة رجلاً في ليلة نزل

فيها القرآن وفيها رفع عيسى بن مريم عليه السلام وفيها قتل يوشع بن نون فتى موسى عليه السلام. والله ما سبقه أحد كان قبله ولا يدركه أحد يكون بعده والله إن كان رسول الله ﷺ ليبعثه في السرية وجبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره والله ما ترك صفراء ولا بيضاء إلا ثمانمائة أو سبعمائة أرصدها لخادمه». ومعلوم أن يوشع لم يقتل، وأما كون عيسى رفع في مثل تلك الليلة فلم أقف عليه.

وإني هنا أتعجل بكلمة صغيرة وهي: أننا إذا نظرنا إلى علي من جانب الدين وحب الحق والزهد في الدنيا والإعراض عن زخافها وزينتها وجدناه يمشي في صف أبي بكر وعمر لا يتخلف عنهما قيد خطوة. وإذا نظرنا إليه من جهة الفقه في أحكام الدين والعلم بجزئيات فروع الشريعة وجدناه يسبقهما أما من حيث تدبير الملك وسياسة الرعية ومقاربة العامة والتنبه لدقائق السياسة والأخذ على شكائم القوم والإحاطة بأحوالهم. فإنه يتأخر عن الرجلين في هذا المقام. مع سعة درايته وقوة عارضته لأن الأقوال في السياسة وحسن الملكة والإعراب عن دقائق ذلك شيء، وإفاضة ذلك على الرعية وبسط النفوذ على الكافة وإخضاعهم للإرادة شيء آخر. وقد يمر بنا شيء من ذلك ومن عدم نجاحه في جمع كلمة الأمة والسر في ذلك سوء الأحوال التي تولى فيها.

وعندي أن الوقت لو صفا لعلي رضي الله عنه وواتته المقادير باستتاب الراحة واجتماع الكلمة، لأذاق الأمة حلاوة العدل وحملهم على الجادة وسار بهم في طريق الفتوح وبسط نفوذ الإسلام وإعزاز كلمته بما لم يدع مقالاً لقائل ولله في خلقه شؤون.

ويكفي من ينظر في أمر علي أنه لم يوجد عنده من المال سوى سبعمائة درهم كان أرصدها لشراء خادم له لم يكن عنده سواها وفي رعيته من يملك عشرات الآلاف ومئات الآلاف. ولم يكن مترفهاً في معيشته ولا متوسعاً كما كان معاوية أو عثمان بل كان من طراز أبي بكر وعمر.

بيت علي

تزوج علي بن أبي طالب:

١ ـ فاطمة بنت رسول الله ﷺ وهي أول زوجاته ولم يتزوج عليها حتى توفيت عنده. وكان له منها الحسن والحسين وزينب الكبرى وأم كلثوم الكبرى وهي زوج عمر بن الخطاب.

٢ ـ أم البنين بنت حزام من بني عامر بن كلاب، فولدت له العباس وجعفر وعبد الله وعثمان.

٣ ـ ليلى بنت مسعود التميمية، فولدت له عبيد الله وأبا بكر.

٤ ـ أسماء بنت عميس الخثعمية، فولدت له يحيى ومحمداً الأصغر.

٥ ـ الصهباء بنت ربيعة من بني جشم بن بكر وهي أم ولد من سبي تغلب ولدت له عمر ورقية.

٦ ـ أمامة بنت أبي العاص بن الربيع وأمها زينب بنت رسول الله ﷺ، فولدت له محمداً الأوسط.

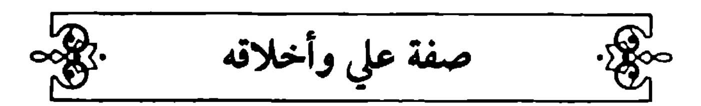
٧ ـ خولة بنت جعفر الحنفية، فولدت له محمداً الشهير بابن الحنفية.

٨ ـ أم سعيد بنت عروة بن مسعود، فولدت له أم الحسين ورملة الكبرى.

٩ ـ محياة بنت امريء القيس الكلبية، ولدت له جارية ماتت صغيرة.

وكان له بنات منهن: أم هانيء، وميمونة، وزينب الصغرى، ورملة الصغرى وأم كلثوم الصغرى، وفاطمة، وأمامة، وخديجة، وأم الكرام، وأم

سلمة، وأم جعفر، وجمانة، ونفيسة أمهاتهن أمهات أولاد شتى. وكان النسل من ولده الخمسة: الحسن والحسين، ومحمد بن الحنفية، والعباس، وعمر.



صفة علي وأخلاقه

هنا أترك الكلام لصديقي المرحوم الخضري بك يقول كلمة في ذلك:

يخطر ببال من فحص عن تاريخ الخلفاء الراشدين وعلم تفاصيل أحوالهم هذا السؤال. كيف دانت قريش لشيخين، أولهما من بني تيم بن كعب والثاني من بني عدي وخضعت لهم الخضوع التام، فصار القوم بقلب واحد في سبيل نصرة الإسلام وعلو شأنه حتى إذا آلت لبني عبد مناف ووليها اثنان منهم نغصت على أولهما حياته في آخر عمره، ولم يصفُ الأمر لثانيهما في جميع حياته، بل كانت مدة اختلاف وفرقة مع ما هو معلوم من قرب بني عبد مناف للرسول ﷺ فهم عشيرته الأدنون وسادة قريش في جاهليتهم كما سادوا عليهم في الإسلام ذلك إلى ما امتاز به ثانيهما من المميزات الكبرى التي لم تجتمع في غيره؟ لابد لذلك من أسباب. أما ما كان من أمر عثمان فقد بينا أسبابه فيما مضى، وأما أمر علي فإنا سنجيب عنه الآن ببيان ما كان من خلق علي وما كان من الأحوال التي أحاطت به.

كان علي ممتازاً بخصال قلما اجتمعت لغيره، وهي:

الشجاعة ـ الفقه ـ الفصاحة.

فأما الشجاعة فقد كان محله منها لا يجهل. وقف المواقف المعهودة وخاض غمرات الموت لا يبالي أوقع على الموت أم وقع الموت عليه؟ وأول ما عرف من شجاعته موضع رسول اللّه ﷺ ليلة الهجرة وهو يعلم أن قوماً يترصدون حتى إذا خرج يقتلونه، فلم يكن ذلك مما يضعف قلبه أو يؤثر في نفسه. ثم في بدر وما بعدها من المشاهد كان علماً لا يخفي مكانه، يبارز الأقران فلا يقفون له، ويفرق

الجماعات بشدة هجماته وقد أتاه اللّه من قوة العضل وثبات الجنان القسط الأوفر. أغمد سيفه مدة أربع وعشرين سنة حتى إذا جاءت خلافته جرده على مخالفيه ففعل به الأفاعيل، وكان الناس يهابون مواقفته ويخشون مبارزته لما يعلمون من شدة صولته وقوة ضربته.

وأما الفقه فلم يكن مقامه فيه بالمجهول. صحب رسول اللّه ﷺ منذ صباه وأخذ عنه القرآن، وكان يكتب له مع ما أوتيه من ذكاء بني عبد مناف ثم بني هاشم، ولم يزل معه إلى أن توفي عليه السلام كل هذا أكسبه قوة في استنباط الأحكام الدينية فكان الخلفاء أبو بكر وعمر وعثمان يستشيرونه في الأحكام ويرجعون إلى رأيه إذا خالفهم في بعض الأحيان، وأكثر من عرف ذلك عنه عمر بن الخطاب.

وأما الفصاحة فيعرف مقداره فيها من خطبه ومكاتباته التي جمع منها السيد الرضي جملة عظيمة في الكتاب الموسوم بنهج البلاغة، وقد وصفه شارحه الأستاذ الشيخ محمد عبده بقوله:

كنت كلما انتقلت من موضع منه إلى موضع أحس بتغيير المشاهد وتحول المعاهد. فتارة كنت أجدني في عالم يعمره من المعاني أرواح عالية في حلل من العبارات الزاهية تطوف على النفوس الزاكية وتدنو من القلوب الصافية توحى إليها رشادها وتقوم مرادها وتنفر بها عن مداحض المزال الى جوادّ الفضل والكمال.

وطوراً كانت تنكشف لي الجمل عن وجوه باسرة وأنياب كاشرة وأرواح في أشباح النمو رومخالف النسور قد تحفزت للوثاب ثم انقضت للاختلاب، فخلبت القلوب عين هواها وأخذت الخواطر دون مرماها. واغتالت فاسد الأهواء وباطل الآراء، وأحياناً كنت أشهد أن عقلاً نورانيًا لا يشبه خلقاً جسدانيًا، فصل عن الموكب الآلهي واتصل بالروح الإنساني، فخلعه عن غاشيات الطبيعة وسما به إلى

الملكوت الأعلى. ونما به الى مشهد النور الأجلى، وسكن به إلى عمار جانب التقديس بعد استخلاصه من شوائب التلبيس.

وآنات كأني أسمع خطيب الحكمة ينادي بأعلياء الكلمة وأولياء أمر الأمة يعرفهم مواقع الصواب ويبصرهم مواضع الارتياب ويحذرهم مزالق الاضطراب ويرشدهم الى دقائق السياسة ويصعدهم شرف التدبير ويشرف بهم على حسن المصير وقد جمع الكتاب من الحكمة شيئاً كثيراً.

هذه الصفات العالية مع مامنحه من شرف القرابة للرسول ﷺ ومصاهرته له، جعلته يرى لنفسه فضلاً على سائر قريش صغيرها وكبيرها شيخها وفتاها. ويرى بذلك له الحق في ولاية الأمر دونهم فقد قال: لقد تقمصها فلان وهو يعلم أن محلي منها محل القطب من الرحى ينحدر عني السيل ولا يرقي الى الطير. وقال: فواللّه ما زلت مدفوعاً عن حقي مستأثراً عليّ منذ قبض اللّه نبيه ﷺ حتى يوم الناس هذا. وهناك طبيعة في الناس أنهم لا يميلون الى شخص يرى لنفسه التفوق ومزيد الفضل. وإنما يقرب إلى قلوبهم من يقول وليت عليكم ولست بخيركم.

إن تلك الأمور التي يراها علي لنفسه جعلته يقتنع بأن الحق فيما يراه، وافقه عليه غيره أم خالفه - ومن هذا شأنه لا يلجأ الى الاستشارة فيما هو صانع وهذا شيء شديد لا تقبله نفس الكبراء والأشياخ - روى أنه لما بويع عتب عليه طلحة والزبير من ترك مشورتهما والاستعانة في الأمور بهما فقال لهما: لقد نقمتما يسيراً وأرجأتما كثيراً، ألا تخبراني أي شيء لكما فيه حق دفعتكما عنه وأي قسم استأثرت عليكما به. أم أي حق رفعه الى أحد من المسلمين ضعفت عنه أم جهلته أم أخطأت ما به؟ واللّه ما كانت لي في الخلافة رغبة ولا في الولاية أربة ولكنكم دعوتموني إليها، فلما أفضت إلى نظرت الى كتاب اللّه وما وضع لنا وأمرنا بالحكم به فاتبعته وما استسن النبي ﷺ فاقتديته فلم أحتج في ذلك إلى رأيكما ولا رأي غيركما ولا وقع حكم جهلته أستشيركما وإخواني والمسلمين ولو

كان ذلك لم أرغب عنكما ولا عن غيركما وأما ما ذكرتما من أمر الأسوة فإن هذا الأمر لم أحكم فيه أنا برأيي ولا وليته هوى مني بل وجدت أنا وأنتما ما جاء به رسول اللّه ﷺ قد فرغ منه، احتج إليكما: قد فرغ اللّه من قسمه وأمضى إلى حكمه، فليس لكما واللّه عندي ولا لغيركما في هذا عتبي. أخذ اللّه بقلوبنا وقلوبكما إلى الحق وألهمنا وإياكم الصبر، وأي نفس تصبر على مثل هذا »؟

لما رفعت قضية عبيد اللّه بن عمر في قتله الهرمزان إلى عثمان كان من رأي علي قتله ولكن عثمان قضي بخلاف رأيه وحكم بالدية والتزمها في ماله وهو خليفة قضاؤه محترم صواباً كان أو خطأ فلما آل الأمر إلى علي كان يريد قتل عبيد اللّه بعد أن مضى على القصة تلك المدة الطويلة فلم يكن من عبيد اللّه إلا أن لحق بمعاوية وكان من قواده العظام بصفين.

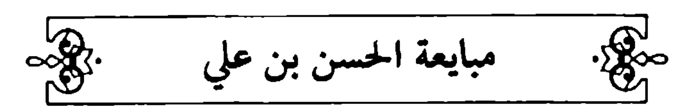
كان لعثمان قطائع أقطعها الناس ولم يكن ذلك من رأي علي، فقال بعد خلافته: واللّه لو وجدته قد تزوج به النساء و ملك به الإماء لرددته، فإن العدل سعة ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق.

بويع بولاية الأمصار من علية قريش وذوي الرأي والدهاء فيها فأشار عليه مشيروه أن لا يعجل بنزعهم من أمصارهم حتى يتم أمره، فلم يسمع لأحد قولاً بل عجل بنزعهم وأظهر سوء الرأي فيهم حتى خيل إليهم أنه لو ملك كانت مصيبة كبرى فناؤه وكانوا عليه يداً واحدة.

أراد في هذه الأحوال أن يحمل الناس على مثل حد السيف مع ما سبق لهم من مضادة الخليفة وثقتهم في أنفسهم أنه لولاهم ما بويع فلم يحتملوا ذلك له حتى قالوا: أرض بالتحكيم وإلا فعلنا بك ما فعلنا بعثمان. ولما ولى ابن عباس على البصرة نظر بعضهم الى بعض وقالوا قثم ابن العباس على الحجاز وعبيد اللّه ابن العباس على اليمن وعبد اللّه بن عباس على البصرة ففيم قتلنا ابن عفان؟ وكانت سآمته منهم وسآمتهم منه تزداد كل يوم حتى لم يكن له على

أنفسهم سلطان. يدعوهم فلا يجيبون ويستصرخهم فلا يفزعون وجيش خصمه قادة كبراء قريش وعظماؤها فأرهقوهم بالطاعة وملكوا قلوبهم بالرفق فلم يكن لها بين الطائفتين توازن عند الخصومة. كان معاوية يتساهل بعض الشيء لرؤوس أجناده ويفيض عليهم العطاء ما يجعل رقابهم خاضعة له وعلي يحاسبهم على النقير والقطمير في وقت هو محتاج إليهم فيه حتى كان سبباً في تغيير قلب ابن عباس عليه وفرقته له فترك البصرة وذهب إلى مكة. وليس شأن علي في ذلك شأن عمر فإن عمر كان يشتد على عماله والأمة كلها معه وأما علي فكان معظم الأمة عليه فضلاً عن أن أكثيراً من التهم كانت تلصق بعماله من قوم يشون بهم كالحال في قيس بن سعد وعبد اللّه بن عباس.

وعلى الجملة فإن أكبر الأسباب في عدم استقامة الأمر لعلي يرجع إلى عقيدته في نفسه وثقته المتناهية بما يراه واستغنائه عن رأي الأشياخ من قريش وشدته عليهم شدة لم يُعدّ لها ما يهون أمرها وعدم إعطائه الظروف التي كان فيها حقها من السياسة والحال السيئة التي تولي فيها فإنها كانت تقسره على غير ما عرف عنه من الكياسة وسداد السياسية. ا هـ ببعض تصرف.



مبايعة الحسن بن علي

لما قتل علي بايع الناس ابنه الحسن بالخلافة. وأول من بايعه قيس بن سعد فقال له: ابسط يدك أبايعك على كتاب اللّه عز وجل وسنة نبيه وقتال المحلين. فقال له الحسن رضي اللّه عنه: على كتاب اللّه وسنة نبيه، فإن ذلك يأتي من وراء كل شرط. فبايعه وسكت وبايعه الناس.

وكان علي رضي اللّه تعالى عنه قد استطاع بعد الجهد الشديد أن يبايعه أربعون ألفاً على الموت وكان قد جعل قيس بن سعد على مقدمته ووجهته أذربيجان: فلم يزل سعد يداريء ذلك البعث حتى قتل علي. وكان الحسن لا

يـرى القتال ولكنـه يريـد أن يأخـذ لنفسه مـا استطاع من معـاوية ثم يـدخل في الجماعة. وعرف أن قيس بن سعد لا يوافقه فعـزله، وقيـل إنه لم يعـزله، ولكن الحسن قد اختلف عليه أهل عسكره وهو بالمدائن وقد نزل معاوية بجنده مسكن وسبب هذا الاختلاف عـلى الحسن أن قائـلاً في عسكره قـال: إن قيس بن سعد قد قتل فـانفروا، فنفـروا ونهبوا سـرادق الحسن حتى نازعـوه بساطـاً كان تحتـه، فخـرج حتى نزل المقصـور البيضاء بـالمدائن وكـان سعـد بن مسعـود الثقفي عم المختار بن أبي عبيد عامله عليها. فقال له المختار وهو غـلام شاب: هـل لك في الغنى والشرف؟ قال وما ذاك؟ قال: توثق الحسن وتستأمن به إلى معاويـة. فقال لـه عمه: عليـك لعنة اللّه، أثب عـلي ابن بنت رسـول اللّه ﷺ فـأوثقـه، بئس الرجل أنت؟.

فلما رأى الحسن تفـرق الأمر عنـه بعث إلى معاويـة يطلب الصلح. وقـال للحسين ولعبد اللّه بن جعفر إني قد كتبت الى معـاوية في الصلح وطلب الأمـان فقال له الحسين: نشدتك اللّه أن تصدق أحدوثة معاويـة وتكذب أحـدوثة عـلي فقـال له الحسن: اسكت فـأنـا أعلم بـالأمـر منـك فلما انتهى كتـاب الحسن الى معاوية أرسل إليه عبد اللّه بن عامر وعبد الرحمن بن سمرة فقدما المدائن وأعطيـا الحسن ما أراد ـ فكتب الحسن الى قيس بن سعد وهـو على مقـدمته في اثنى عشر ألفاً يأمره بالدخول في طاعة معاوية. فقام قيس في الناس فقال: يا أيهـا الناس. اختاروا الدخول في طاعـة إمام ضـلال، أو القتال مـع غير إمـام. قالـوا لا ـ بل نختار أن ندخل في طاعة إمام ضلالة، فبايعوا لمعاوية.

ويظهر لي أن هذه الرواية واهية إذ يبعد على قوم مسلمين أن يقـولوا ذلـك ولعلهم لم يقولوا ذلك إلا بعد أن استـوثق لهم بنفسه. وروى الـطبري أن أهـل العـراق لما بـايعوا الحسن بن عـلي طفق يشترط عليهم أنكم سـامعون مـطيعـون تسالمون من سـالمت وتحاربـون من حاربت فـارتاب أهـل العراق في أمـرهم حين اشترط عليهم هذا الشرط. وقالوا: ما هذا لكم بصاحب وما يريد هذا القتـال.

ثم لم يلبث الحسن حتى طعن طعنة أشوته[1] فازداد لهم بغضاً ومنهم ذعراً. فكتب الى معاوية يطلب الصلح، فأرسل إليه معاوية صحيفة بيضاء مختوم على أسفلها، وكتب إليه أن اشترط في هذه الصحيفة ما شئت فهو لك. فلما جاءت الصحيفة الى الحسن أضعف الشروط التي كتب بها الى معاوية أولاً وهي خمسة ملايين درهم كانت في بيت مال الكوفة وخراج دار ابجرد، وأن لا يشتم علي بمسمع منه فلما رأى معاوية أنه أضعف الشروط استمسك بما كتبه الحسن أولاً ولم يعطه ما اشترطه ثانياً.

سار معاوية بعد ذلك حتى نزل الكوفة. وأراد عمرو بن العاص أن يفضح الحسن بن علي، وأن يبدو عيه للناس. فأشار على معاوية أن يخطب في الناس ويدعو الحسن الى الخطبة. فقام معاوية كارهاً لذلك، فخطب في الناس ثم أمر رجلاً أن ينادي الحسن ليتكلم. فقام فتشهد في بديهة أمر لم يُرو فيه ثم قال: أيها الناس. إن اللّٰه قد هداكم بأولنا وحقن دماءكم بآخرنا. وإن لهذا الأمر مدة والدنيا دول. وأن اللّٰه تعالى قد قال لنبيه ﷺ ﴿**وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين**﴾[2] فلما قالها قال له معاوية اجلس، ولم يزل ضرماً على عمرو وقال له هذا من رأيك. وقد تحمل الحسن بمن معه من أهل بيته إلى المدينة.

وروى الطبري أيضاً أنه لما تم الصلح بين الحسن ومعاوية بمسكن، قام الحسن فقال، يا أهل العراق إنه سخي بنفسي عنكم ثلاث: قتلكم أبي، وطعنكم إياي، وانهابكم متاعي.

وكان قيس بن سعد قد أبى من الصلح، وكان تابعاً لابن العباس. وقد كاتب ابن عباس معاوية يطلب إليه الأمان وترك ما أصاب من مال على الدخول في طاعته فكتب له بذلك وأرسل إليه جنداً، فلحق ابن عاس بجند معاوية سرًّا وترك الجند الذي كان فيه بلا قائد سوى قيس بن سعد، فبقي قيس على الجند

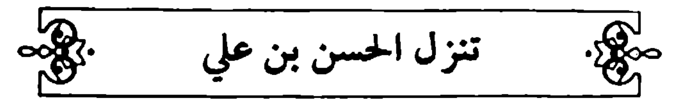
---

(١) لم تصبه.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ١١١

الذي كان مع الحسن وخاطبه معاوية في الدخـول في الطاعـة فأبى سعـد أن يلين له، فأرسل إليه معاوية وخاطبه معاوية في الدخول في الطاعة فـأبى سعد أن يلين له، فأرسل إليه معاوية ورقة مختومة من أسفلها وقـال له اشتـرط فيها مـا شئت، فكتب فيها الأمان لنفسه ولشيعة علي ولم يزد. وكان هذا من حكمـة معاويـة لأن عمراً أراده على قتاله فأبى وقال إنا لا نخلص إليهم حتى يقتل عـدادهم من أهل الشام وما خير العيش بعد ذلك. وأنا لا أقـاتلهم ما وجـدت إلى الصلح سبيلاً، وكان الصلح في شهر ربيع الآخر سنة ٤١: وهذه الرواية أراهـا أثبت وهي تدل أيضاً على نفس عالية كريمة لقيس بن سعد.

والـذي يلاحـظه المؤرخ، أنه من ذلـك الوقت تـرك الـطلب بـدم عثمـان وسكنت الضوضاء وهـذا يدل عـلى أن الطلب بـدم عثمان حجـة داحضة. وأن الغرض الحقيقي لمعاوية ومن معه إنما هو الملك لا طلب الثأر. وقد كـانوا حـين ثارت الفتنة يعدون دهاة العـرب خمسة: معـاوية، وعمـرو بن العاص، والمغيـرة ابن شعبة، وقيس بن سعد، وعبد الله بن بديل.



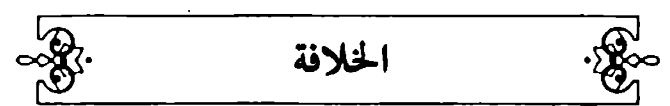
تنزل الحسن بن علي

كان من رأي جنـد علي أن يبايعوا الحسن بن علي بـالخلافـة بعد قتـل أبيه فبايعوه ولكن الرجل نظر إلى الأحوال التي هو فيها نظرة صائبة.

وجد جنداً لا يـركن إليه وخصـماً قوي الشكيمـة، وفوق ذلـك كان يكـره الفتن ويحب للمسلمين الألفة، فلم ير خيراً لنفسه ولا لأمته من أن ينزل لمعاويـة على شروط رضيها الطرفان، وكتب الى معاوية ببيعته وسلم إليه الكوفة في أواخر ربيـع الأول سنة ٤١، وبـذلك تم مـا قالـه رسول الله ﷺ «إن ابني هـذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين طائفتين عظيمتـين من المسلمين». وهـدأت الأحوال وسمى المسلمـون ذلك العـام وهو السنـة الحادية والأربعـون من الهجـرة (عـام الجماعة).

مدنية الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين[1]

اصطلح المؤرخون على تسمية الدولة الأولى من دولة الإسلام بدولة الخلفاء الراشدين ومدتها تقرب من ثلاثين سنة ونحن الآن ذاكرون شيئاً من المدنية الإسلامية أو العربية لعهدهم. ونريد بالمدنية مجموع النظام الذي اتبعوه في أحوالهم الاجتماعية، سواء في إدارة أمورهم الداخلية أو في حروبهم.



الخلافة

أول ما كان لهم من مظاهر المدنية تأسيس (الخلافة الإسلامية). وكان الرئيس يسمى خليفة رسول اللّه ﷺ. فلما جاء ثاني الخلفاء اختار لقب أمير المؤمنين ثم لم يزل مستعملاً لقباً لجميع من أتى بعده من الخلفاء. وهذه الخلافة رياسة دنيوية أسسها الدين، وغايتها حمل الناس على ما فيه صلاحهم متبعاً الخليفة في ذلك نصوص الكتاب وما عرف من سنة رسول اللّه ﷺ.

فالخليفة واجب الطاعة فيما يأمر ما لم يخالف النصوص أو الشريعة الإسلامية وكان أساس التشريع في زمنهم هو القرآن والسنة المعروفة فإن عرض لهم ما ليس فيهما عرفوا الأشباه والأمثال وقاسوا مالا نص فيه على ما فيه نص لما بينهما من التشابه. وكان الخليفة في الاجتهاد والاستنباط كأحد المجتهدين يستفتيهم فيما نزل به من الحوادث فيجيبونه بما عندهم فإن اتفقوا في الفتوى كان من المحتم عليه أن يتبع رأيهم وهذا ما يسمى في عرف المسلمين بالإجماع وإن اختلفوا في الفتيا عمل الخليفة بما يرى من آرئهم، فلم يكن له سلطان ديني أكثر من أنه منفذ لأحكام الدين. فليست الخلافة سلطاناً دينيًّا كما يزعمون، وإنما هي سلطان أساسه الدين.

---

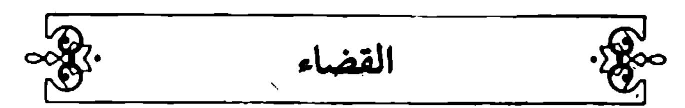
(١) ألمت هذه الكلمة بما جاء في محاضرات المرحوم الخضري بك مع زيادة بسط وفضل بيان.

ولم يكن في تلك الدولة للخلافة أسرة معينة، بل يختار الخليفة من أي أسرة من أسر قريش. والخلفاء الأربعة من ثلاث أسر. فأبو بكر من بني تيم، وعمر من بني عدي، وعثمان وعلي من بني عبد مناف، وكان أساس الانتخاب الشورى فالخلافة من جهة كونها لا تتعين لها أسرة، وصاحبها يتعين بالانتخاب، ومقيد فيها يعمل بالقانون الشرعي، تشبه رياسة الجمهورية. وتمتاز الخلافة بأنها مختصة بالبيت القرشي.

وكانت الناس تبايع الخليفة على العمل بكتاب اللّٰه وسنة رسوله ﷺ وزادوا في بيعة عثمان «وسيرة الشيخين أبي بكر وعمر» وحذفت هذه الزيادة في بيعة علي لأنه كان أباها لما عرض عليه الأمر عبد الرحمن بن عوف. وكان الخلفاء يستشيرون فيما يعرض لهم من الأمور، إلا أنهم لم يكونوا على درجة واحدة في ذلك. وكان أكثرهم اهتماماً بالشورى عمر بن الخطاب فإنه كان قلماً يقدم على أمر إلا بعد أن يستشير ويمحص الآراء وكانت له (شورى خاصة) من أعلام الصحابة ومشيختهم من المهاجرين والأنصار ومشيخة قريش مثل عثمان بن عفان والعباس بن عبد المطلب وعبد الرحمن بن عوف وعلي بن أبي طالب ومن ماثلهم. وكان يلحق بهم عبد اللّٰه بن عباس لما يراه من فقهه وجودة رأيه و (شورى عامة) من كل من له رأي من المسلمين يعرض عليهم الأمر في المسجد بعد أن يدعو «الصلاة جامعة» فيقول كل ما بدا له وربما استشار بعد ذلك خاصته. وكان كثيراً ما يرجع عن رأيه متى تبين له الحق وناهيك برجل كان يقول: من رأى منكم في اعوجاجاً فليقومه. ورجال الشورى كانوا مختارين من قبله إلى أنه لم يكن أحد يمنع من إبداء رأيه مهما كان صاحب الرأي صغير القدر لأن حياتهم كانت مبنية على المساواة والديمقراطية الصحيحة ولم يكن ينقص هذا النظام البديع إلا شيء واحد. وهو تعيين من لهم الصوت في انتخاب الخلفاء بوصف يبينهم وقد كان عدم هذا التعيين سبباً من أسباب الفرقة بين علي ومعاوية. لأن عليًّا كان يرى أن هذا الحق لأهل المدينة وحدهم لا يشركهم في

ذلك أهل الأمصار الأخرى فمتى بايع أهل المدينة لواحد تمت بيعته، وليس لأحد منهم بعد ذلك اعتراض ومعاوية ومن معه من أهل الشام كانوا يرون غير ذلك وأن البيعة لا تتم إلا برضا أهل الأمصار مع ما كان يدعيه سوى هذا. فكانت تلك الفرقة الهائلة وتلتها الحرب العظيمة بين المسلمين.

ولم يكن للخلافة في هذه الدولة شيء من شارات الملك ولا أبهته، بل كان الخليفة يسير في طريقه وفي بيته كسائر الناس لا حاجب ولا حارس والكبير إذا طلب منه أمراً أو أراده على شأن من الشؤون وكان عمر يكره أن يكون لعماله حجاب حتى أنه أرسل إلى سعد بن أبي وقاص من حرق باب دار الإمارة الذي حال بين العامة وبين رفع شكواهم إليه إلا بعد الاستئذان.



القضاء

كان القضاء معتبراً من عمل الخليفة لأن معناه فصل الخصومات والمنازعات على حسب القانون الشرعي المأخوذ من الكتاب والسنة، فكان الخلفاء يباشرون هذا العمل بأنفسهم ويستفتون في الحكم إن كانت هناك حاجة إلى الاستفتاء. ولما كثرت المشاغل واتسعت الفتوح اضطر الخلفاء للاشتغال بالجيوش وتدبيرها، ففوضوا هذا العمل إلى من في مكنتهم الاستنباط، ولكنهم لم يتسموا بالقضاة إلّا من عهد عمر بن الخطاب: فإنه بعث قضاة إلى الأمصار ووضع لهم نموذجاً يسيرون عليه واستمر الحال على ذلك إلى آخر عهد الخلفاء الراشدين.

ومن أعظم ما كان لأولئك القضاة من الفخر شرف نفوسهم واستقلالهم في الحكم فلم يعرف عن أحد منهم في ذلك العصر ميل إلى الدنيا واغترار بزخرفها يعدل بهم عن قول الحق والحكم به. وكان سواء في نظرهم الشريف والوضيع والخليفة والرعية. ولم يكن لأمراء الأمصار سلطان عليهم في قضائهم وكان تعيينهم من قبل الخليفة رأساً، وأحياناً يكتب الخليفة الى الأمير أن يولي

قضاء بلده من يرى فيه الكفاية وعلى الحالين التعيين صادر من الخليفة. وكان للقضاة رزق من بيت المال لما يلزمهمْ من الانقطاع لهذا العمل وترك ما يرتزقون منه ومن أحسن ما رأينا في أمر القضاء ما يقال إنه كتبه علي بن أبي طالب إلى أحد عماله « ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك في نفسك ممن لا تضيق به الأمور ولا يمحكه الخصوم ولا يتمادى في الزلة ولا يحصر من الفيء إلى الحق إذا عرفه ولا تشرف نفسه على طمع ولا يكتفي بأدنى فهم الى أقصاه، أوقفهم في الشبهات وآخذهم بالحجج وأقلهم تبرماً بمراجعة الخصم وأصبرهم على تكشف الأمور وأصرمهم عند اتضاح الحكم ممن لا يزدهيه اطراء ولا يستميله إغراء وأولئك قليل. ثم أكثر تعاهد قضائه وأفسح له في البذل ما يزيل علته وتقل معه حاجته إلى الناس وأعطه من المنزلة لديك مالا يطمع فيه غيره من خاصتك ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك) وهذا الكتاب عندي فيه شك وأرى أنه موضوع.

وكان في كل مصر جماعة اشتهروا بالفقه واستنباط الأحكام، كان يستعين بهم القاضي ويستفتيهم إذا أشكل عليه أمر. وأهم ما كان يدعوهم إلى ذلك أن سنة رسول اللّه ﷺ لم تكن مجموعة في كتاب، بل كانت في صدور الناس يحفظ منها أحدهم جزءاً والثاني جزءاً. وقد لا يحفظ أحدهم ما يحفظه الآخر فربما عرضت للقاضي مسألة فلا يرى فيها نصًا ويكون النص وهو الحديث ـ عند غيره لذلك كانوا يسألون: هل عندكم شيء في هذا من سنة رسول اللّه ﷺ؟ ولم يجمعوا هذه الفتاوى، ولا الأقضية في كتاب خاص يرجع إليه من بعدهم. وكان ما ذكرناه من أمر السنة سبباً كبيراً من أسباب اختلافهم في الفتاوى والأقضية.

ولم يكن التقاضي موكولاً إلى الاجتهاد الصرف كما يظن بعض الباحثين ويجعل ذلك من عيوب القضاء. وإنما كان موكولاً إلى الاجتهاد في فهم القانون الشرعي وتطبيقه على الحوادث والواقعات. حقيقة إن ذلك القانون لم يعتن بالتفصيل التام، بل اهتم بالقواعد الكلية. وليس هذا عيباً في القوانين التي يراد

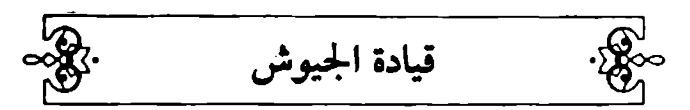
منها البقاء، بل هو مما يحسنها ويجعلها صالحة لكل زمان ومكان.

الاجتهاد للقاضي ـ والحال كما ذكرنا ـ أمر لابد منه. ولذلك عده المتقدمون من الشروط المتحتمة.

ولم يكن تعيين القضاة مانعاً للخلفاء من نظر أية خصومة تعرض عليهم، وقد حصل ذلك من الخلفاء في آنات كثيرة، فكأن القضاة كانوا نواباً للخلفاء.

وليس عندنا دليل على وجود سجلات يضبط فيها ما يصدر من الأحكام ولا أن صور الأحكام كانت تعطي للمحكوم له، لأن ذلك لم يكن ما يدعو إليه ما دام التنفيذ في يد القاضي، فهو الذي يقضي وهو الذي ينفذ الحكم. ويظهر لنا مما قرأناه من أخبارهم أنهم قلما كانوا يحتاجون للتنفيذ، لأن من حكم عليه كان يبادر بتنفيذ ما قضى عليه به من الحقوق: فكان المتنازعون أقرب إلى كونهم مستفتين ينفذون ما صدرت به الفتوى من تلقاء أنفسهم.

ويظهر لنا أن قضاء القضاة في عهد الخلفاء الراشدين كان قاصراً على فصل الخصومات المدنية أما القصاص والحدود فكانت ترجع إلى الخلفاء وولاة الأمصار لأنا رأينا قضايا حكم فيها الخلفاء والأمراء بقتل قصاصاً أو جلد السكر ولم يبلغنا أن قاضياً ليس أميراً قضى بعقوبة منها أو نفذها. وكانت العقوبات التأديبية كالحبس لا يأمر بها إلا الخليفة أو عامله فكانت الدائرة القضائية ضيقة ولم يبلغنا أيضاً أن قضاة الأمصار كانوا ينيبون عنهم قضاة في غير الحواضر الكبرى وذلك دليل على قلة القضايا والخصومات.



قيادة الجيوش

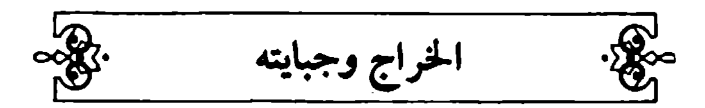
كانت قيادة الجنود من أعمال الخلافة كما كان رسول الله ﷺ يقود الجنود بنفسه، ولكن الخلفاء لما لم يمكنهم أن يقودوا جميع الجنود المرسلة إلى البلدان المختلفة كانوا يختارون قائداً للجيش ممن يرون فيه النجدة والشجاعة وتكون

طاعتهم واجبة كطاعة الخليفة سواء بسواء. وبعد انتهاء الفتح واستقرار الأمر يكون سلطانهم قاصراً على تدبير أمر الجنود والنظر في معداتهم. ولم تكن هذه الجنود محصورة في ديوان إلا من عهد عمر بن الخطاب فهو الذي دون لهم الدواوين وأحصاهم حتى صار يعرف جنود كل وجه ومن تأخر منهم عن وجهه وكان يعاقب المتأخر بأن يقام في مسجد حيه ويقال إن هذا تخلف ـ وهذا التوبيخ كان في نظرهم أمضّ من ضربة السيف، لما هو معروف عنهم من الشجاعة والإقدام، ويرون الإحجام عاراً لا يمحى ـ وكما حصرهم عمر رتب لهم الأرزاق من بيت المال ولم يكن قبل ذلك لهم رزق معين إلا أنه لم يسو بين الجنود في العطاء وقد سوى بينهم علي بن أبي طالب، وكان لكل جند عرفاء يلون أمور الجند ويقبضون أرزاقهم ويوزعونها عليهم.

أما تعبئة الجيوش فقد نالوا منها حظاً عظيماً فبعد أن كانت العرب تحارب جاهليتها بطريقة الكر والفر ـ وهي أن يكر المحارب على خصمه ثم يفرّ ثم يكر وهكذا لا يتبعون نظاماً ـ رأى قواد الجند من المسلمين أن هذا النظام لا يصلح معه حروب الأمم المنظمة فربطوا مسير الجنود بعضهم ببعض حتى يكون الصف متضامناً وليس لأحدهم أن يتأخر عن صفه أو يتقدم عنه وكان للجيش مقدمة تكون في الأمام وهي التي تبدأ المناوشات وتتعرف الطرق وترتاد المواضع وقلب وهو وسط الجيش وفيه أمير الجند ومجنبتان يمنى ويسرى ـ أو جناحان ـ وساقة وهي الجزء المؤخر من الجيش وإذا كان الجيش تام الأقسام على هذا الوصف يسمى خميساً، ولكل فرقة من الفرق الخمس أمير يأتمر بأمر القائد العام. وكانوا يجعلون على الفرسان خاصة أميراً وكان للاحتفاظ بخطوط رجعتهم الشأن العظيم حتى لا يأتوا من خلفهم وكانوا يحذرون البيانات جهدهم.

ومن أحسن ما اطلعت عليه من الأوامر الخاصة بتيسير الجنود ما كتبه عمر ابن الخطاب الى سعد بن أبي وقاص من كتاب له في ذلك حيث يقول « وترفق بالمسلمين في سيرهم ولا تجشعهم مسيراً يتعبهم ولا تقصر بهم عن منزل يرفق

بهم حتى يبلغـوا عدوهم والسفـر لم ينتقص من قوتهم، فـإنهم سائـرون الى عدو مقيم حامي الأنفس والكراع وأقم بمن معك في كل جمعـة يومـاً وليلة حتى تكون لهم راحة يحيون بهاأنفسهم ويرمـون أسلحتهم وأمتعتهم. ونح منـازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق به، ولا يرزأ أحداً من أهلها شيئاً فـإن لهم حرمـة وذمة ابتليتم بـالوفـاء بها كـما ابتلو بالصبـر عليها فـما صبروا لكم فتولوهم خير ولا تنتصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح، وإذا وطئت أرض عدوك فأذكِ العيـون بينك وبينهم ولا يخف عليـك من أمرهم شيء وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن الى نصحـه وصدقـه فإن الكذوب لا ينفعك خبـره وإن صدق في بعضـه والغاش عـين عليك وليس عينـاً لـك. وليكن منك عنـد دنوك من أرض العـدو أن تكثر الـطلائع وثبت السـرايا بينك وبينهم فتقطع السرايا أمدادهم ومرافقهم وتتبـع الطلائـع عوراتهم. واختـر للطلائع أهل البأس والرأي من أصحابك وتخير لهم سوابق الخيل فإن لَقُـوا عدوًّا كـان أول ما تلقـاهم القوة. واجعـل أهل السـرايا من أهـل الجهاد والصبـر على الجلاد ولا تخص أحداً بهـوى فتضيع من رأيـك وأمرك أكـثر مما حـابيت به أهـل خاصتك ولا تبعث طليعة ولا سرية في وجه تتخوف فيه غلبة أو ضيعة أو نكاية، فـإذا عاينت العدوفاضمم إليك أقاصيـك واجمع إليـك مكيدتـك وقوتـك ثم لا تعاجلهم بالمناجزة مالم يستكرهك قتـال حتى تبصر عورة عـدوك ومقاتله وتعـرف الأرض كلها كمعرفة أهلها بها فتصنع بعدوك كصنعه بـك ثم اذك حراسـك على عسكرك وتيقظ من البيات جهدك».



الخراج وجبايته

كان الخلفاء من عهد عمر بن الخطاب يعينون للجباية عمالاً مستقلين عن العمال والقواد، وقليلاً ما كـانوا يكلون أمـر الجبايـة الى العمال وكانوا يدفعـون ممايجبون أرزاق الجند ومصاريف ما يأمـر به الخليفـة مما تقتضيـه المصالـح العامـة

والباقي يرسل إلى دار الخلافة ليصرف في مصارفه.

وكانت هناك إيرادات ثابتة أو عادية، وإيرادات غير ثابتة. أما الأولى فهي الخراج والعشر والصدقات والجزية.

والخراج هو ما كان يوضع على الأرض التي امتلكها المسلمون عنوة وتركوها في أيدي أهلها ويؤخذ منهم كأنه أجرة للأرض التي أبقيت في أيديهم وكانوا يجعلونه أحياناً شيئاً مقدراً كما عمل عمر في السوداء. وأحياناً يجعلونه حصة شائعة مما يخرج من الأرض. أما الأراضي التي أسلم أهلها عليها وهي من أرض العرب أو العجم كالمدينة واليمن وملكها المسلمون عنوة وأهلها لا تقبل منهم الجزية كعبدة الأوثان من العرب، فهذه أرض عشر ومثلها الأراضي التي امتلكها المسلمون عنوة وقسمت بين الغانمين. والعشر هو عشر ما يخرج من الأرض.

وكان عمر لما فتح السواد والشام شاور الناس في قسمة الأرضين التي فتحها المسلمون. فتكلم فيها قوم وأرادوا أن يقسم لهم حقوقهم وما فتحوا. فقال عمر فكيف بمن يأتي من المسلمين فيجدون الأرض قد اقتسمت وورثت عن الآباء وحيزت؟ ما هذا برأي. فقال عبد الرحمن بن عوف: فما الرأي؟ ما الأرض والعلوج إلا مما أفاء اللّه عليهم. فقال عمر: ما هو إلا ما تقول، ولست أرى ذلك. واللّه لا يفتح بعدي بلد فيكون فيه كبير نيل، بل عسى أن يكون كلا على المسلمين فإذا قسمت أرض العراق بعلوجها وأرض الشام بعلوجها فما يسد به الثغور وما يكون للذرية والأرامل بهذا البلد وبغيره من أهل الشام والعراق؟ فأكثروا على عمر وقالوا: تقف ما أفاء اللّه علينا بأسيافنا على قوم لم يحضروا ولم يشهدوا ولأبناء القوم ولأبناء أبنائهم ولم يحضروا؟ فكان عمر لا يزد على أن يقول هذا رأي. قالوا فاستشر فاستشار المهاجرين الأولين فاختلفوا فأما عبد الرحمن بن عوف فكان رأيه أن يقسم لهم حقوقهم ورأى عثمان وعلي وطلحة وابن عمر رأي عمر. فأرسل إلى عشرة من الأنصار خمسة من الأوس

وخمسة من الخزرج من كبرائهم وأشرافهم، فلما اجتمعوا حمد اللّه وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال:

إني لم أزعجكم إلا لأن تشتركوا معي فيما حملت من أموركم فإني واحد كأحدكم وأنتم اليوم تقرون بالحق خالفني من خالفني ووافقني من وافقني ولست أريد أن تتبعوا هذا الذي هواي، معكم من اللّه كتاب ينطق بالحق فواللّه إن كنت نطقت بأمر أريده ما أريد به إلا الحق.

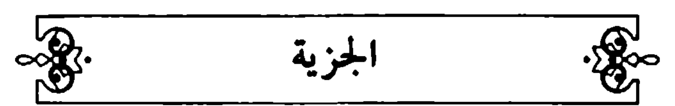
قالوا نسمع يا أمير المؤمنين. قال قد سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين زعموا أني أظلمهم حقوقهم وإني أعوذ باللّه أن أركب ظلماً لئن كنت ظلمتهم شيئاً هو لهم وأعطيته غيرهم لقد شقيت ولكن رأيت أنه لم يبق شيء يفتح بعد أرض كسرى وقد غنمنا اللّه أموالهم وأرضهم وعلوجهم، فقسمت ما غنموا من أموال بين أهله وأخرجت الخمس فوجهته على وجهه وأنا في توجيهه، وقد رأيت أن أحبس الأرضين بعلوجها وأضع عليهم فيها الخراج فتكون فيئاً للمسلمين المقاتلة والذرية ولمن يأتي من بعدهم أرأيتم هذه الثغور؟ لابد لها من رجال يلزمونها. أرأيتم هذه المدن العظام كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر؟ لابد لها من أن تشحن بالجيوش وأدرار العطاء عليهم فمن أين يعطي هؤلاء إذا قسمت الأرضون والعلوج؟ فقالوا جميعاً: الرأي رأيك فنعما قلت وما رأيت إن لم تَشْحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال وتجر عليهم ما يتقوون به رجع أهل الكفر الى مدنهم فقال قد بان لي الأمر فمن رجل له جزالة عقل يضع الأرض مواضعها ويضع على العلوج ما يحتملون؟ فاجتمعوا له على عثمان بن حنيف وقالوا تبعثه على أهم ذلك فإن له بصراً وعقلاً وتجربة فأرسل إليه عمر فولاه مساحة أرض السواد فأدت جباية سواد الكوفة - قبل أن يموت عمر بعام - مائة ألف ألف درهم، وكان وزن الدرهم يومئذ وزن المثقال.

وأرادوا منه أن يقسم الشام كما قسم الرسول خيبر. وكان أشد الناس عليه في ذلك الزبير بن العوام وبلال بن أبي رباح. فقال عمر إذا أترك من

بعدكم من المسلمين لا شيء لهم. وفعل بالشام كما فعل بالعراق فترك أهله ذمة يؤدون الخراج للمسلمين.

قال أبو يوسف القاضي: والذي رأى عمر من الامتناع من قسمة الأرضين بين من افتتحها توفيقاً من الله كان لده فيما صنع، وفيه كانت الخيرة لجميع المسلمين وفيما رآه من جمع خراج ذلك وقسمته بين المسلمين عموم النفع لجماعتهم. لأن هذا لو لم يكن موقوفاً على الناس في الأعطيات والأرزاق لم تشحن الثغور ولم تقو الجيوش على السير في الجهاد، ولما أمن رجوع أهل الكفر الى مدنهم إذا خلت من المقاتلة المرتزقة.

ولم يكن مقدار الخراج معروفاً في عهد الخلفاء الراشدين تمام المعرفة.

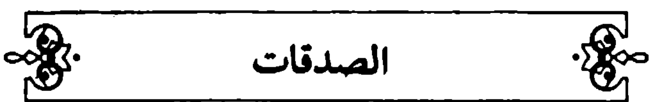


الجزية

والجزية هي ما يوضع على رؤوس أهل الذمة على الرجال دون النساء والصبيان وكانت تؤخذ منهم جزاء عن حمايتهم ودفع العدو عنهم. ولم يكونوا يأخذونها من المسكين الذي يتصدق عليه ولا ممن لا قدرة له على العمل روى أبو يوسف القاضي في كتابه الموسوم بالخراج[1] قال: مرعمر بن الخطاب بباب قوم وعليه سائل شيخ كبير ضرير البصر. فضرب على عضده من خلفه وقال: من أي أهل الكتاب أنت؟ فقال يهودي. فقال فما ألجأك إلى ما أرى؟ قال الجزيةُ والحاجة والسنّ. قال: فأخذ عمر بيده وذهب به إلى منزله فرضخ له بشيء من المنزل. ثم أرسل إلى خازن بيت المال. فقال: انظر هذا وضرباءه فوالله ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم. إنما الصدقات للفقراء والمساكين والفقراء هم المسلمون وهذا من المساكين من أهل الكتاب، ووضع عنه الجزية وعن ضربائه. وكانوا يقدرون الجزية على حسب أحوال الناس ويسارهم لا تزيد عن ٤٨ درهماً في السنة. ولا تنقص عن ١٢ درهماً روى أن رسول الله ﷺ قال:

(١) ص ٧٣ بولاق وص ١٥١ طبعة المطبعة السلفية.

«من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه». وكان فيما تكلم به عمر بن الخطاب عند وفاته « أوصى الخليفة من بعدي بذمة رسول الله ﷺ، أن يوفي لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم وأن لا يكلفوهم فوق طاقتهم ».



الصدقات

كانت الصدقات تؤخذ من المسلمين من جميع اموالهم - نعمهم السائمة الإبل والبقر والغنم ونقودهم الدرهم والدينار وما يخرج من أرضهم. وقد بينت الشريعة لكل ذلك نصاباً معيناً لا تجب فيها الزكاة دونه وقدراً معيناً لا يؤخذ فوقه، بين ذلك في كتاب كتبه رسول الله ﷺ قبل وفاته وعمل به المسلمون بعده. وكانوا يعينون لأهل البادية مصدقين وهم الذين يأخذون الصدقات ليصرفها الإمام في مصارفها الشرعية.

العشور (الجمارك)

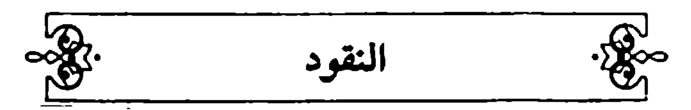
كان تجار المسلمين يذهبون بتجارتهم إلى ديار الحرب فيتقاضى منهم أهل البلاد عشر أموالهم. فكتب أبو موسى الأشعري الى عمر: أن تجاراً من قبلنا من المسلمين يأتون أرض الحرب فيأخذون منهم العشر. فكتب إليه عمر خذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين وخذ من أهل الذمة نصف العشر ومن المسلمين من كل أربعين درهماً درهماً ليس فيما دون المائتين شيء. فإذا كانت مائتين ففيها خمسة دراهم وما زاد فبحسابه.

روى أبو يوسف القاضي. أن جماعة من أهل الحرب من وراء البحر كتبوا الى عمر بن الخطاب. دعنا ندخل أرضك تجاراً وتعشرنا فشاور عمر أصحاب رسول الله ﷺ. فأشاروا عليه به. فكان أول من عشر أهل الحرب وبعث زياد ابن حدير على عشور أهل العراق والشام.

ومما يستطرف من خبر زياد أن رجلاً من نصارى تغلب مر عليه بفرس

قومت بعشرين ألفاً فأخذ منه ألفاً ثم مر راجعاً في سنته. فقال. أعطني ألفاً أخرى. فقال التغلبي كلما مررت بك تأخذ مني ألفاً؟ قال نعم. فسار التغلبي إلى عمر فوافاه بمكة وهو في بيته فاستأذن عليه. فقال: من أنت؟ قال رجل من نصارى العرب وقص عليه قصته. فقال عمر: « كفيت » ولم يزد على ذلك فرجع التغلبي إلى زياد بن حدير وقد وطن نفسه على أن يعطيه ألفاً أخرى. فوجد كتاب عمر قد سبقه إليه: من مر عليك فأخذت منه صدقة فلا تأخذ منه شيئاً إلى مثل ذلك اليوم من قابل إلا أن تجد فضلاً. فقال الرجل: قد والله كانت نفسي طيبة أن أعطيك ألفاً وإني أشهد الله أني على دين الرجل الذي بعث إليك الكتاب[1].

وقد اتبع المسلمون سنة عمر في تعشير أموال التجارة التي ترد من خارج البلاد الإسلامية الى بلاد المسلمين. قال أنس بن سيرين: أرادوا أن يستعملوني على عشور الإبلة فأبيت فلقيني أنس بن مالك فقال. ما يمنعك؟ فقلت العشور أخبث ما عمل عليه الناس قال فقال لي. لا تفعل، عمر صنعه فجعل على أهل الإسلام ربع العشر وعلى أهل الذمة نصف العشر وعلى المشركين ممن ليس له ذمة العشر ولم يريدوا أن يأخذوا من أموال المسلمين التجارية أكثر مما يجب عليهم من الزكاة وضاعفوا ذلك من أهل الذمة كما فعلوا مع نصارى تغلب. وعاملوا أهل الحرب بما يعاملون به تجار المسلمين في بلدانهم وليس عندنا علم بمجموع ما كان يرد في السنة الى بيت المال وفراً، وكان لبيت المال خازن يخرج منه بمقدار ما يأمر الخليفة.



النقود

كان العرب قبل الإسلام يتعاملون بنقود كسرى وقيصر من الذهب

---

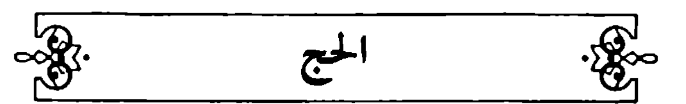
(١) الخراج لأبي يوسف ص ١٦٢ طبع المطبعة السلفية.

والفضة ولم يكن لهم سكة خاصة بهم، لأنها تتبع المدنية والحضارة والأمة العربية كانت في ذلك الحين تغلب عليها البداوة. ولما جاء الإسلام لم يتغير التعامل بهذه النقود بل سار على تلك الحال مدة رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر. فلما فتحت الفتوح على عهد عمر واستولى المسلمون على بلاد فارس وكثير من بلاد الروم، رأى عمر بن الخطاب أن يعين وزن الدرهم لأنه نظر فرأى الدراهم الكسروية المسكوكة مختلفة الوزن فمنها درهم على وزن المثقال وعشرين قيراطاً، ومنها وزنه اثنا عشر قيراطاً ودرهم وزنه عشرة قراريط فأخذ عمر جميع الأوزان الثلاثة وهي ٤٢ قيراطاً وأخذ ثلثها وهو أربعة عشر قيراطاً من قراريط المثقال وضرب الدرهم على ذلك فكان كل عشرة دراهم وزن سبعة مثاقيل لأن كلا منها ١٤٠ فصارت النسبة بين الدرهم والمثقال كنسبة ١٠ : ٧. نقل المرحوم علي مبارك باشا في خططه عن المقريزي قال: وفي سنة ١٨ من الهجرة ضرب الدرهم على نقش الكسروية وشكلها بأعيانها غير أنه زاد في بعضها الحمد لله وفي بعضها محمد رسول الله وفي بعضها لا إله إلا الله وحده. وعلى آخرى عمر. وجعل وزن كل عشرة دراهم ستة مثاقيل. فلما بويع عثمان ضرب في خلافته دراهم ونقشها: الله أكبر.

والظاهر أن ولاة الأمور والأمراء كانوا يضربون السكة في نواحيهم ويضعون أسماءهم عليها. ذكر صاحب تاريخ التمدن الإسلامي أن من ذلك قطعة من الدنانير ضربها خالد بن الوليد في طبرية سنة ١٥ للهجرة وهي على رسم الدنانير الرومية تماماً بالصليب والتاج والصولجان ونحو ذلك وعلى أحد وجهيها اسم خالد بالأحرف اليونانية (Xaled) وهذه الأحرف (Bou) قال ويظن الدكتور مولر المؤرخ الألماني أنها مقطعة من (أبو سليمان) كنية خالد بن الوليد وصورة القطعة منقوشة في الكتاب من وجهيها.

وفي الكتاب المذكور. وذكر المرحوم جودت باشا أنه رأى نقوداً ضربها الأمراء والولاة في عهد الخلفاء الراشدين أقدمها ضرب سنة ٢٨ في قصبة هرتك

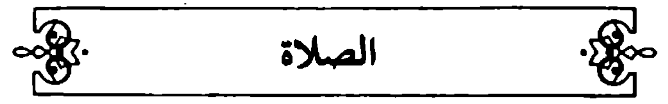
طبـرستان وعـلى دائرهـا بالخط الكـوفي (بسم اللّه الـرحمن الـرحيم) ورأى نقـداً مضروباً سنة ٣٨ هـ على دائرته هذه العبارة أيضاً. ونقداً ضرب سنة ٦١ في يـزد على دائرته (عبد اللّه بن الزبير أمير المؤمنين) بخط بهلوي.



الحج

كان من الأعمال الكبرى لإمام المسلمين إقامة حجهم. وكان الحج معتبراً في نظر الخلفاء الراشدين موسماً عاماً يجتمع فيه أمراء الجهات ليـدلوا إلى الخليفـة بمـا عندهم من الأحـوال في بلادهم ولتسمـع شكـوى من يشكـوهم من رعيتهم وكان الخلفاء يلونه بأنفسهم وقلما يتخلفون. وكان أكثرهم تولياً لأمر الحـج بنفسه عمر بن الخطاب فإنه حج سنيه كلهـا لم يتخلف في واحدة منهـا، إلا أنه حصـل خلاف في السنة الأولى من حكمـه فقيل إنـه أناب عنـه عبد الـرحمن بن عوف. وأبو بكر حج بنفسه مـرة وأناب عنـه مرة. وعثمـان بن عفان حـج سنيه. وعـلي أنـاب عنه كـل سني خلافتـه لما شغـل به من الاضـطراب الذي كـان بينه وبـين معاوية.

كان الاهتمام بأمر الحج قد جعل له مظهراً عظيماً وفائدة كبـرى في تعارف المسلمـين بعضهم ببعض، وكان الخلفـاء يجيئهم به الأخبـار مالا يمكن أن يصـل إليهم بواسطة الولاة.



الصلاة

كانت إقامة الصلاة من أعمال الخليفة فهو يقيمها بنفسه أو بواسطة نائبه، وكان في كل مصر مسجد جامع تؤدي فيه الجمعة ولا ينصب منبر في غيـره، فلم تكن تقام إلا جمعة واحـدة في المصر يقيمها الخليفـة إن كان أو الـوالي. ولم يبلغنا أنه تعددت في البلد المساجد في عهد الخلفاء الراشدين.



العلم والتعليم

كانت الكتابة قبل مجيء الإسلام نادرة في الأمة العربية خصوصاً في الحجاز ونجد. فلما جاء الإسلام ساعد على انتشار الكتابة بين العرب. ففي زمن رسول الله ﷺ استخدم جماعة من فقراء أسرى بدر في أن يعلم كل منهم عشرة من صبيان المدينة الكتابة وكان ذلك فداءة. ولما فتحت البلاد الفارسية. وكان بالحيرة كثير ممن يكتبون. جلبوا جماعة منهم يعلمون الكتابة بالمدينة. وكان أكثر النشء الذي نشأ في عهد الخلفاء الراشدين يعرف الكتابة ـ أما الخلفاء أنفسهم فكانوا كلهم من الكتاب وقد كتبوا لرسول الله ﷺ.

ولم يكتب شيء من الكتب في ذلك العهد إلا القرآن فإنه جمع في صحف في عهد أبي بكر. وفي عهد عثمان كتبت منه مصاحف عدة أرسل بها الأمصار ليكون كل مصحف إماماً لأهل المصر الذي أرسل إليه. أما سنة رسول الله ﷺ فلم تجمع في كتاب. وكذلك لم يكتب شيء في العلوم. أما الدينية منها فكانوا مكتفين بما فطروا عليه من معرفة اللغة العربية وفهم أساليبها. والشريعة إنما جاءتهم بهذه اللغة. فكانوا يستقلون بفهمها ـ وأما العلوم الصناعية فإن الأمة كانت لا تزال على بداوتها وإن كان قد نبغ منها من أمكنهم انشاء المدن ومسح الأراضي بالمران على ذلك لا بتعلم سابق ـ وما قيل من أن علم النحو دونه أبو الأسود الدؤلي بأمر الإمام علي، فقد كان شيئاً يسيراً ولم يكن كتاباً مدوناً كما هو المعروف في الكتب المدونة.

فهـــرس

